جنة السنة

المعاني الحسان في تفسير القرآن

الفاتحة • البقرة • آل عمران

المجلد الأول

الأستاذ الدكتور
عمر سليمان عبد الله الأشقر
رحمه الله

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

المعاني الحسان في تفسير القرآن

جنـــــــة الســــــــنة

المعاني الحسان في تفسير القرآن

(١)

جنـــــة السـنة

حقوق الطبع محفوظة ©

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

الطبعة الأولى

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
٢٠١٣/٦/١٨٦٣

٢٢٢,٣
الأشقر، عمر سليمان
المعاني الحسان في تفسير القرآن/ عمر سليمان الأشقر.-عمان-دار النفائس للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.
( ) ص.
ر.إ.:١٨٦٣/٦/ ٢٠١٣
الواصفات: / تفسير القرآن// سور القرآن// القرآن الكريم/

©
يمنع تصوير هذا الكتاب أو استخدامه بكافة أنواع النشر العادي أو الالكتروني، تحت طائلة المسائلة القانونية.
®

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

العبدلي - مقابل مركز جوهرة القدس
ص.ب 927511 عمان 11190 الأردن
هاتف: 5693940 6 00962
فاكس: 5693941 6 00962
Email: alnafaes@hotmail.com
www.al-nafaes.com

ردمك ISBN
9 789957 801496

جنـــــة السـنـــــة

المعاني الحسان في تفسير القرآن

الفاتحة ۞ البقرة ۞ آل عمران

المجلد الأول

الأستاذ الدكتور
عمر سليمان عبد الله الأشقر
رحمه الله

دار النفائس
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

جنـــــــة السـنة

هذا الكتاب

اليوم يسرنا أن نقدم للقارئ الكريم تفسيراً معاصراً، هو:

(المعاني الحسان في تفسير القرآن)

للشيخ الدكتور: عمر بن سليمان الأشقر

رحمه الله

قد سعى المؤلف فيه لبيان معاني النصوص القرآنية،
وفقاً للمنهج الذي كان عليه الصحابة
ومن سار على طريقهم، وغالباً ما يذكر المعنى الراجح
لديه، ولا يتعرض للخلاف إلا قليلاً،
وقد أنهى الشيخ رحمه الله تفسير ثمانية عشر جزءاً
فبلغ إلى سورة النور، وحالت المنية دون إتمامه،
وتوفي في آخر يوم جمعه في رمضان ١٤٣٣هـ
رحمه الله تعالى
وأسكنه فسيح جنانه

الناشر

جنـــــة الســــــنة

شكر وتقدير

الحمد لله وحده

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وبعد،

فتشكر

دار النفائس للنشر والتوزيع - الأردن

جميع الأخوة الذين بمجهودهم في إتمام طباعة هذا التفسير من العلماء وتلامذة المؤلف رحمه الله ،

والشكر موصول أيضاً

لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

في دولة قطر

التي تبنت طباعته والمساهمة في أجر نشره وتوزيعه بين أدي طلبة العلم والعلماء، خدمة لكتاب الله تعالى وإسهاماً منها في نشر علومه والحمد لله على توفيقه وفضله.

الناشر

فَاتِحَةُ الكِتَابِ

الحمد لله الذي أنزل القرآن على عبده ورسوله محمد ﷺ ليكون هدى للناس، وبينات من الهدى والفرقان، ففتح الله به قلوباً غلفاً، وآذاناً صماً، وعيوناً عمياً، وهداهم به للتي هي أقوم، وأنار لهم الطريق، وأخرجهم به من الظلمات إلى النور.

وأنزل الله هذا القرآن العظيم ليكون عصمة لهذه الأمة من الفتن، ما استمسكت به، فيه نبأ ما قبلنا، وخبر ما بعدنا، وحكم ما بيننا، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه.

وهو الذي لم تنته الجنُّ إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن:١-٢].

من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هَدَى إلى صراط مستقيم.

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، الذي أنزل عليه آخر كتبه، فأصبح به من المرسلين إلى الناس أجمعين، وتخلق بأخلاقه، واتصف بصفاته، وبينه أحسن البيان، وبلَّغه إلى العالمين، وجاهد في سبيله أتمَّ الجهاد، فصلوات الله وسلامه عليه صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم الدين.

والصلاة والسلام على آله الأبرار وصحبه الأخيار، الذين تلقوا هذا الكتاب من فم الرسول ﷺ غضّاً طرياً، وفقهوا عن رسول الله ﷺ بيانه، فاستنارت به قلوبهم، وصلحت أعمالهم، وبلغوه إلى الناس، فصلوات الله عليهم أجمعين، وعلى من سلك سبيلهم إلى يوم الدين، وبعد:

فإن الله تعالى أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، ففرق به بين الحقِّ والباطل، والهدى والضلال، والرشاد والغي، والصدق والكذب، والعلم والجهل، والمعروف والمنكر، وطريق أولياء الله السعداء وأعداء الله الأشقياء، وبين ما عليه الناس من الاختلاف.

جنـــــة السـنــــــة

وجعل الله كتابه ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة:٢]. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝٨٩﴾ [النحل:٨٩] وهدى للناس أجمعين ﴿أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥] وجعله ﴿تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يوسف:١١١] و﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩] و﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة:٩٧] وجعله روحاً للأرواح، ونوراً للقلوب ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى:٥٢].

وهو آخر هدى أنزل من عند الله، من أخذ به فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عنه فإن له معيشة ضنكاً ويحشره الله يوم القيامة أعمى، فإن الله قال للأبوين عندما أهبطا من الجنة إلى الأرض ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦﴾ [طه:١٢٣-١٢٦].

وحاجة الأمة رجالها ونسائها، وكبارها وصغارها حاجة ماسّة لهذا الكتاب، فهو مركب النجاة في الدنيا والآخرة، فهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هَدَى إلى صراط مستقيم، ومن تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦﴾ [المائدة:١٥-١٦].

وتلاوة القرآن مثاب صاحبها مأجور، ولكن المقصود الأكبر للقرآن هو تدبر آياته، وفقه معانيه، واستخلاص فوائده وأحكامه، ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٢٩﴾ [ص:٢٩].

ولو أن الذين يدرسون العلوم اكتفوا بترديد كلماتها وكتبها من غير فهم لها، لما أصبح عندنا أطباء، ولا مهندسون، ولا علماء باللغات، ولذلك لم تكن مهمة الرسول ﷺ متوقفة على تلقي القرآن وحفظه وإبلاغه للناس فحسب، بل كلفه الله بفقهه، وتفقيه الناس به،

جنـــــــة السـنة

وتبيينه للناس ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل:٤٤].

وقد أقام الرسول ﷺ أصحابه على الفقه الصحيح للقرآن، فاستوعب الصحابة القرآن حفظاً وفهماً، وكان الصحابي إذا تعلم عشر آيات من القرآن لم يتجاوزها حتى يتعلم ما فيها من العلم والعمل، فتعلموا القرآن والعلم والعمل جميعاً.

وانظر إلى مجاهد، وهو من أجلّ أصحاب ابن عباس، ومن علماء عصر التابعين، فإنه عرض المصحف جميعه على ابن عباس، يوقفه على كل آية منه، ويسأله عنها، ولهذا قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، ولهذا اعتمد تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم كالإمام أحمد.

وعندما ابتدأ عصر التدوين قام علماء أعلام، فدونوا تفسير القرآن، واعتمدوا في التفسير على تفسير القرآن بالقرآن، ثم القرآن بالسنّة، ثم بأقوال الصحابة، ثم بأقوال علماء التابعين الذين أخذوا عن الصحابة، وخير من نهج هذا النهج من المفسرين ابن جرير الطبري، فقد نهج النهج الأصفى والأوفى في التفسير، وقد كانت وفاته عام (٣١٠هـ) وكتابه في التفسير هو: «جامع البيان عن تأويل القرآن» وقد حوى كتابه ما فسر به رسولنا ﷺ القرآن، وما فسر به صحابة الرسول ﷺ القرآن أمثال عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وابن عباس، وابن عمر، وغيرهم، وكان المقدم في التفسير في عهد التابعين أهل مكة، ففيها كان ابن عباس، فبث علمه فيها، وتتلمذ عليه تلامذة نجباء، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «أعلم الناس بالتفسير أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس، كمجاهد وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس كطاووس وأبي الشعثاء، وسعيد ابن جبر وأمثالهم» [مجموعة الفتاوى: ٧/ ١٨٦].

ومن علماء التابعين المبرزين الذين عنوا بالتفسير سعيد بن جبر روى عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما، وقد قتله الحجاج صبراً عام (٩٥هـ) عليه من الله ما يستحق.

ومنهم مجاهد بن جبير، المولود في عام (٢١هـ)، وكان حافظاً ثقة عرض القرآن على ابن عباس مرات كثيرة، توفي سنة (١٠٤هـ) في مكة وهو ساجد، ومنهم عكرمة مولى ابن عباس، توفي رحمه الله سنة (١٠٤هـ).

ومن علماء التابعين الذين أخذوا عن عدد كبير من الصحابة طاووس بن كيسان اليماني، أخذ عن العبادلة الأربعة، ونقل عنه أنه جالس خمسين من الصحابة توفي سنة (١٠٤هـ).

جنـــــــة الســـــنة

ومنهم عطاء بن أبي رباح المتوفى سنة (١١٤هـ) حدث عن نفسه أنه لقي مائتين من الصحابة.

وأخذ ابن جرير عن علماء مدرسة المدينة في التفسير ومنهم من الصحابة أبي بن كعب، ومن علماء التابعين في المدينة أبو العالية بن مهران الرياحي المتوفى سنة (٩٠هـ)، ومنهم محمد ابن كعب القرظي المتوفى سنة (١١٨هـ) ومنهم زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب، المتوفى سنة (١٣٦هـ). وكان من علماء التابعين في العراق علقمة بن قيس، ومسروق، والأسود بن يزيد وغيرهم.

وقد سار على هذا النهج الصحيح الصائب علماء كثيرون، فسروا القرآن في مختلف العصور، أمثال الإمام البغوي أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي الملقب بمحيي السنة، والمتوفى في سنة (٥١٦هـ) ألف كتابه في التفسير وسماه «معالم التنزيل» ويدعى بتفسير البغوي.

ومنهم العلامة أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير المتوفى عام (٧٧٤هـ)، سمى كتابه بـ «تفسير القرآن العظيم».

ومنهم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي الأندلسي المتوفى عام (٧٩٢هـ). ألف كتاب «التسهيل لعلوم التنزيل»، ومنهم عبدالرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، المتوفى سنة (٩١١هـ) وسمى كتابه: «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» وغيرهم كثير.

وقد تولدت في العالم الإسلامي فِرَق كثيرة قعدت قواعد، وبنت أصولاً، واعتقدت عقائد خالفت فيها ما كان عليه الصحابة، وعلماء أهل السنّة من التابعين وأتباعهم، ومن هذه الفِرَق الخوارج والمعتزلة والشيعة والمرجئة وغيرهم، وقد نشأت بعض هذه الفِرَق في آخر عهد الصحابة كالخوارج والشيعة، وبعضها في عصر التابعين أمثال المعتزلة، وبعضها بعد ذلك.

وقام علماء كل فرقة من هذه الفِرَق بتفسير كتاب الله، وحشوه بقواعدهم وأصولهم وعقائدهم، ومن أمثال هذه التفاسير تفسير «الكشاف» لمحمود بن عمر الزمخشري المعتزلي، المتوفى سنة (٥٣٨هـ).

وهذا الكتاب ليس له نظير في بيان أسرار بلاغة القرآن، والكشف عن وجوه إعجازه، وقد أوضح لنا فيه عن دقة المعنى الذي يفقه من التركيب اللفظي، كل هذا في قالب أدبي رائع، وصوغ إنشائي بديع [التفسير والمفسرون: ١/ ٤٤٢].

ولكنه حشاه بعقائد المعتزلة وأصولهم وعقائدهم، فقرر فيه أنَّ القرآن مخلوق، وأن مرتكب الكبائر في منزلة بين المنزلتين في الدنيا، وهو في النار في الآخرة إن لم يتب من كبيرته

جنـــــة السـ‍ـــــنة

في الدنيا، ونفى رؤية الله في الآخرة، وتفنن في تحريف نصوص القرآن المقررة كذلك، ورد الأحاديث الصحيحة المصرحة برؤيته، وقرر أن صفات الله ليست شيئاً زائداً عن ذات الله، وقرر عقيدة المعتزلة التي تزعم أن أفعال العباد لم يخلقها الله، وأنها كائنة بغير مشيئته، كما قرر غير ذلك من أصول المعتزلة.

ومن كتب المعتزلة في التفسير كتاب «تنزيه القرآن عن المطاعن» للقاضي عبدالجبار، وكتاب أمالي المرتضي.

ومن كتب الشيعة التي فُقدت وبقي منها مقدمتها في دار الكتب المصرية كتاب «مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار» للمولى عبداللطيف الكازراني وتفسير الحسن العسكري، وهو الإمام الحادي عشر عند الإمامية الاثني عشرية، والمعروف بالحسن العسكري، المتوفى عام ٢٣١هـ وكتاب «مجمع البيان لعلوم القرآن» للطبرسي، المتوفى عام ٨٣٥ هـ.

ومن المؤلفات في التفسير لعلماء الخوارج كتاب «هميان الزاد إلى دار المعاد» لمحمد بن يوسف بن عيسى بن صالح أَطَّفَيِّش الوهبي، المتوفى في سنة (١٣٣٢هـ) وهو مطبوع في مجلد واحد.

وللعلماء من الصوفية والفلاسفة مؤلفات في التفسير كثيرة.

وقد قامت في نفسي رغبة قوية منذ سنوات كثيرة تدعوني إلى تفسير كتاب الله العظيم، وترددت في تلبية هذه الرغبة، وكنت أُقدِّم في هذا السبيل مرة، وأُحجِم أخرى، وعزمت أخيراً على المضي في تحقيق تلك الرغبة وأنا في خريف العمر، وأسأل الله الكريم، ربَّ العرش العظيم أن يعينني على تحقيق ما عزمت عليه، وأن يبارك لي فيما أنا مقدم عليه، وأن يحلَّ في نفسي بركات هذا الكتاب، وأن يكرمني بهداه، وأن يجعل من وراء ذلك خيراً لي ولذريتي من بعدي ولإخواني المسلمين الذين يصل إليهم هذا الكتاب.

إنني اليوم أعمل بجدّ في إظهار المعاني الحسان لآيات القرآن، وقد قاربت السبعين من العمر، والكتابة في تفسير آيات القرآن تجعل كاتبه يعايش هذا الكتاب، ويقضي وقته في تدبر كلماته وآياته ومقاطعه، وهو في تدبره يرجع إلى كتب المفسرين، وآثار الغابرين ويُجهِد نفسه في فقه النصّ القرآني على الوجه الذي يريده الله منه.

وقد هدفت في هذا التفسير إلى بيان معاني النصوص القرآنية، وفق المنهج الذي كان عليه الصحابة وتلامذتهم الأعلام من علماء التابعين، بعيداً عن الذين فسروا القرآن بأهوائهم وآرائهم، واعتمدت المراجع التي تلتزم بهذا النهج.

جنـــــــة السـنــــــــة

ولم أعنَ فيه بذكر الخلاف إلا قليلاً، وكل همي الكشف عن المعنى الصواب وبيانه بأجلى عبارة.

وقد قسمت في هذا التفسير السور الطوال إلى نصوص، بأرقام متسلسلة يحوي كل نص موضوعاً واحداً، أو موضوعات متقاربة، وكل نص يحوي أربع خطوات.

الأولى: مقدمة، أبرز فيها المعنى أو المعاني الرئيسة التي تحويها آيات النص.

الثانية: تُعنى بذكر آيات ذلك النص من القرآن.

الثالثة وعنوانها: المعاني الحسان في تفسير آيات ذلك النص من القرآن.

أما الخطوة الرابعة فتُعنى بإيراد فقه الآيات والفوائد المستخلصة من تلك الآيات، وقد قدمت لهذا التفسير بمقدمة ذكرت فيها: أولاً: تعريف القرآن في اللغة والاصطلاح، وأتبعت ذلك بذكر نبذة من النصوص القرآنية التي يعرف الله عباده بها بالقرآن العظيم.

وذكرت ثانياً الغاية التي تراد من إنزال القرآن.

وبينت ثالثاً فضائل القرآن الكريم.

أسأل الله العلي القدير أن يوفقني إلى فقه كتابه والعمل به، وأن يجنبني الزلل في القول والعمل، وأن يرزقني إخلاص النية له وحده، وأن يثيبني به يوم نلقاه في يوم الدين، وأن ينفع بهذا الكتاب عباده، إنه نِعْمَ المدعو، ونِعْمَ المجيب، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

عمر سليمان عبدالله الأشقر
عمان - الأردن

١ جمادى الأولى ١٤٣٠هـ
٢١ نيسان ٢٠٠٩م

مُقدِّمة

أولاً: التعريف بالقرآن الكريم:

١ - **القرآن في لغة العرب:** القرآن في لغة العرب مصدر نحو كفران ورجحان، تقول: قرأته قَرْءاً وقراءة وقرآناً بمعنى واحد، أي تلوته تلاوة، وقد جاء استعمال القرآن بهذا المعنى المصدري في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة:١٧-١٨] [المفردات للراغب الأصفهاني: ص٤٠٢، النبأ العظيم للدراز: ص٧].

والقراءة في لغة العرب كما يقول الأصفهاني: «ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل» [المفردات للراغب الأصفهاني: ص٤٠٢].

٢ - **القرآن في الاصطلاح:** بعد تنزل القرآن من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ أصبح القرآن علماً شخصياً على هذا الكتاب الكريم، ويمكن أن نعرفه بما يأتي:

أ - **القرآن كلام رب العالمين المنزل من العلي الحكيم:** الكلام ليس خلقاً من خلق الله، بل هو كلامه العظيم كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، والمراد بكلام الله الذي يسمعه المشرك: القرآن الكريم.

وهو منزل من الله العلي الحكيم، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإنسان:٢٣]، وقال علماؤنا قديماً: «بدأ القرآن من الله، وإليه يعود».

ب - **نزل جبريل بالقرآن على عبده ورسوله محمد ﷺ:** تلقى جبريل عليه السلام الذي هو الروح الأمين، القرآن الكريم من رب **العالمين**، ونزل به على قلب سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه، فأصبح بذلك من المنذرين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤].

ج - **أنزله ربُّ العزة بلسان عربي مبين:** أنزل ربّ العزة القرآن بلسان عربي مبين، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف:٢].

وقد مضت سنّة الله أن يرسل الرسل بلسان الأقوام الذين أرسلوا إليهم، وينزل عليهم الكتب بألسنة أقوامهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤].

جنـــــة الســـــنة

د- **القرآن معجز في بيانه:** مع أنَّ القرآن منزل بلغة العرب، إلا أنه مصاغ صياغة لا يطيق أحد من البشر أن يأتي بمثلها، وقد كان العرب يتبارون بالفصاحة والبلاغة، فتحداهم العليُّ العظيم أن يأتوا بمثل القرآن، فقال: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور:٣٤] أي: مثل القرآن.

ثم تحداهم أن يأتوا بمثل عشر سور منه، فعجزوا عن ذلك، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود:١٣].

فلما عجزوا عن ذلك تحداهم أن يأتوا بمثل سورة واحدة منه ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٣].

ومع أن أفصح الناس في لغة العرب هم العرب الذين أنزل الله القرآن عليهم، إلا أن الله تحدى بالقرآن الإنس والجن والعالمين جميعاً، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس:٣٨]. وقرر رب العزة أن الإنس والجن ولو اجتمعوا على صعيد واحد عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن العظيم ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء:٨٨]. وقد مضى أكثر من ألف وأربعمائة عام على تنزل القرآن والبشر جميعاً عاجزون عن الإتيان بمثل سورة من القرآن الكريم.

هـ- **القرآن منقول إلينا نقلاً متواتراً:** جمع القرآنَ الخليفةُ أبو بكر الصديق بإشارة من الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ثم أمر عثمانُ بن عفان ﷺ في خلافته بنسخه في خمس أو سبع نسخ، وأبقى واحدة عنده في المدينة، ووزع النسخ الأخرى في الأقطار الكبار، وهذا القرآن حظي بإشراف أبي بكر وعمر أولاً، ثم حظي بإشراف عثمان وعلي ثانياً، بل حظي بموافقة الصحابة كلهم رضوان الله عليهم.

وقد كان الصحابة حريصين كل الحرص على تلقي القرآن من رسول الله ﷺ ، وقد حفظ الصحابة كل نص من نصوصه حفظاً متواتراً، بل إن عدداً كبيراً منهم حفظه كله، ففي [صحيح البخاري: ٤٠٩٠] أن الذين قتلوا من قراء القرآن من الصحابة في غزوة بئر معونة كانوا سبعين.

وقد أمر الرسول ﷺ أصحابه أن يأخذوا القرآن عن أربعة، وهم: عبدالله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأبي بن كعب [البخاري: ٤٩٩٩].

جنـــــة الســــــنة

وأخبر أنس بن مالك أن الذين جمعوا القرآن في عهد الرسول ﷺ أربعة كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، أحد عمومة أنس بن مالك [البخاري: ٣٨١٠، ومسلم: ٢٤٦٥].

أما بعد الصحابة فقد حفظ القرآن ألوف في كلِّ عصر ومصر، ويحفظ القرآن في عصرنا أقوام لا يحصون عدداً.

و- **القرآن متعبد بتلاوته**: تعبد الله عباده المؤمنين بتلاوة القرآن في صلاتهم، ويجتمعون على تلاوته في مساجدهم وبيوتهم ومنتدياتهم، وليست هذه الخصوصية لغيره، وهذا مما يخالف به القرآن الأحاديث القدسية.

٣- **تعريف الله عباده بالقرآن**: لا يعرف القرآن أحد كما يعرفه المتكلم به، الذي صاغه كما يحب ويرضى، وأنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، وقد وصفه تبارك وتعالى وصفاً يعجز غيره عن مثله، فقد سماه الله قرآناً كريماً، ووصفه في آية أخرى بأنه مجيد، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الواقعة:٧٧]، وقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [البروج:٢١].

وجعله الله نوراً وروحاً ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى:٥٢]، وسماه نوراً لأننا نبصر به الخير والشر، ونعرف به الحلال والحرام، وسماه روحاً، لأنه يحيي به القلوب والنفوس كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ [الأنعام:١٢٢].

وسماه الفرقان ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان:١] لأننا نفرق به بين الحق والباطل، وجعله الله شفاء ورحمة للمؤمنين ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ﴾ [الإسراء:٨٢] وهو شفاء لأمراض القلوب ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس:١٥٧] وهو شفاء لأمراض الأبدان. وهو ذكر مبارك ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ﴾ [الأنبياء:٥٠] سماه ذكراً لما فيه من المواعظ، والتذكير بالله وجنته وناره.

وجعله الله عزيزاً ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾ [فصلت:٤١] لأن من يريد معارضته لا يستطيع أن يأتي بمثله.

جنـــــة السـنة

وجعله الله حكيماً ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [يونس:١] لأن الله أحكم آياته فهي في القمة من الصدق والعدل والفصاحة والبلاغة، وجعله الله صراطاً مستقيماً ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣] لأن سالكه يقدم على رحمة الله وجنته، وينجو من غضبه وناره.

ثانيا: الغاية من إنزال القرآن الكريم:

١- أنزل الله القرآن ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور: أنزل الله هذا الكتاب ليخرج الناس من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإسلام والإيمان: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم:١]، وقد جعل الله آيات هذا الكتاب وسوره روحاً يحيي بها قلوب العباد، ونوراً تشرق به النفوس ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى:٥٢].

٢- اعتصام الأمة الإسلامية بالقرآن يعصمها من الفتن والفرقة: تهب على الأمة الإسلامية عبر تاريخها فتن تعصف بها، وتذهب ريحها، وتفرق جمعها، فإذا اعتصمت بالقرآن، ولاذت به، حفظت من البلاء، وبقيت لها وحدتها، روى أبو شريح الخزاعيّ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «أبشروا، أبشروا، أليس تشهدون أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؟ قالوا: نعم، قال: فإن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبداً» [خرجه الألباني في سلسلة الصحيحة: ١٣، وعزاه إلى عبد بن حميد في المنتخب المسند. والمصنَّف لابن أبي شيبة وغيرهم].

وروى الترمذي في سننه عن عليّ بن أبي طالب ﷺ قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «ألا إنها ستكون فتنةٌ، فقلتُ: ما المَخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتابُ الله، فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحُكم ما بينكم، وهو الفصْلُ ليس بالهزْل؛ من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغُ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنتهِ الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن:١-٢] من قال به صُدِّق، ومن عَمِلَ به أُجِرَ، ومن حكم به عَدَلَ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم».

(وقوله في الحديث: لا تزيغ: معناها لا تضل، وقوله: لا يخلق: أي لا يبلى ولا يزول).

جنـــــة الســـــنة

[رواه الترمذي في سننه (٢٩٠٧) وضعفه قائلاً: هذا الحديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال. والذي حققه ابن كثير في تفسيره (١/ ٥١) أنه من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقال فيه: وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح].

٣- تأثير القرآن على من يحسن الإنصات إليه: القرآن ذو تأثير عظيم على القلوب الخاشعة والنفوس الزاكية، والأرواح الحية المستنيرة، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣]، ولو أنَّ الله أنزل هذا القرآن على الجبال الصم الراسيات لتصدَّعت من خشية الله ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١].

وتأثير هذا القرآن ليس قَصْراً على الأحياء من البشر، بل هو قادر على أن تُسَيَّر به الجبال، وتقطع به الأرض، ويكلم به الموتى ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١] ومعنى الآية: لو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى، لكان هذا القرآن.

ثالثا: فضائل القرآن:

فضائل القرآن عظيمة يصعب حصرها وعدُّها، ومن ذلك:

١ - أهل القرآن أهل الله: أهل القرآن هم أهل الله كما في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله أهلين من الناس، قالوا: يا رسول الله من هم؟ قال: هم أهل القرآن أهل الله وخاصته» [ابن ماجه: ٢١٥، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه].

٢- خير هذه الأمة من تعلم القرآن وعلمه: أفضل هذه الأمة أولئك القائمون على تَعلُّم القرآن وتعليمه، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» [البخاري: ٥٠٢٧].

٣- فضل الذين يجتمعون في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله: بشَّر الرسول ﷺ المسلمين الذين يجتمعون على كتاب الله في بيت من بيوت الله يتلونه ويتدارسونه بينهم، روى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده» [مسلم: ٢٦٩٩].

٤- الماهر بالقرآن تلاوةً وحفظاً مع السفرة الكرام البررة: أعلمنا رسولنا ﷺ بفضل الماهر بالقرآن الذي أتقن حفظه وتلاوته أنه يبلغ درجة الملائكة السفرة الكرام البررة، فعن

جنـــــة السـنة

عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ : «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويَتَتَعْتَعُ فيه، وهو عليه شاق له أجران» [مسلم: ٧٩٨] ولفظ الحديث في البخاري: «مثل الذي يقرأ القرآن، وهو حافظ له، مع السفرة الكرام البررة، ومثل الذي يقرأ وهو يتعاهده وهو عليه شديد، فله أجران» [البخاري: ٤٩٣٧].

٥- **يرفع الله بالقرآن أقواماً ويضع به آخرين**: أخبرنا رسولنا ﷺ أن الله يرفع بهذا القرآن أقواماً ويضع به آخرين، فعن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضع به آخرين» [مسلم: ١٧].

٦- **الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب**: شبه الرسول ﷺ الذي ليس في جوفه شيء من القرآن بالبيت الخرب، وفي ذلك يقول: «الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب» [الترمذي: ٢٩١٣. وقال فيه: حديث حسن صحيح].

٧- **مثل المؤمن والمنافق اللذين يقرآن القرآن واللذين لا يقرآنه**: ضرب الرسول ﷺ لكل من المؤمن والمنافق مثلاً في حال قراءَتهم للقرآن أو عدم قراءَتهم له، فعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «المؤمن الذي يقرأ القرآن، ويعمل به كالأترجة، طعمها طيب، وريحها طيب، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمرة، طعمها طيب، ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة، ريحها طيب، وطعمها مر، ومثل القرآن الذي لا يقرأ القرآن كالحنظلة، طعمها مرٌّ أو خبيث، وريحها مرّ» [البخاري: ٥٠٥٩. مسلم: ٧٩٧].

٨- **من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به عشر حسنات**: لقارئ القرآن بكل حرف يقرؤه عشر حسنات، فعن عبدالله بن مسعود قال: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» [الترمذي: ٢٩١٠. وقال الترمذي فيه: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه].

٩- **منزلة قارئ القرآن عند آخر آية قرأها**: ومنزلة قارئ القرآن عند آخر آية قرأ بها، فعن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ، وارتق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها» [الترمذي: ٢٩١٤، وقال الترمذي فيه: هذا حديث حسن صحيح].

١٠- **شفاعة القرآن لأهل القرآن**: أخبرنا رسولنا ﷺ عن شفاعة القرآن لأصحابه الذين كانوا يرتلونه، ويعملون به، ففي سنن الترمذي عن أبي هريرة ﷺ عن نبينا محمد ﷺ قال: «يجيء القرآن يوم القيامة، فيقول: يا رب حلّه، فيلبس تاج الكرامة، ثم يقول: يا رب

جنـــــة الســـــنة

زده، فيلبس حلَّة الكرامة، ثم يقول: يا ربِّ ارض عنه، فيرضى عنه، فيقال له: اقرأ وارق، وتزاد بكل آية حسنة» [الترمذي: ٢٩١٥، وقال فيه: حسن صحيح].

١١ - غبطة صاحب القرآن: ولما كان للقرآن هذا الفضل، وفيه هذا الأجر، جاز لمن لا يحسنه أن يغبط من يحسنه، ففي الحديث عن عبدالله بن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا حسد إلا على اثنتين: رجل آتاه الله الكتاب وقام به آناء الليل، ورجل أعطاه الله مالاً، فهو يتصدق به آناء الليل والنهار» [البخاري: ٥٠٢٥. مسلم: ٨١٥].

وليس المراد به الحسد المذموم الذي هو تمني زوال النعمة عن الغير، لتصير إليه، وإنما المراد به الغبطة، وهو تمني أن يعطى مثل الذي يغبطه، يوضحه حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل علمه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، فسمعه جار له، فقال: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالاً فهو يهلكه في الحق، فقال رجل: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل» [البخاري: ٥٠٢٦].

١٢ - تنزل الملائكة لقراءة القرآن: تتنزل الملائكة في بعض الأحيان لقراءة القرآن، وقد تنزلت لقراءة الصحابي الجليل أسيد بن حضير، ففي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري، أن أُسَيد بن حُضَيْر، بينما هو ليلةً يقرأ في مِرْبَده، إذ جالت فرسه، فقرأ، ثم جالت أخرى، فقرأ، ثم جالت أيضاً.

قال أسيد: فخشيت أن تطأ يحيى، فقمتُ إليها، فإذا مثل الظُّلة فوق رأسي فيها أمثال السرج، عرجت في الجو حتى ما أراها.

قال: فغدوتُ على رسول الله ﷺ فقلتُ: يا رسول الله ! بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مِرْبَدي؛ إذ جالت فرسي.

فقال رسول الله ﷺ : «اقرأ ابنَ حُضَيْر!» قال: فقرأتُ، ثم جالت أيضاً. فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ ابن حضير!» قال: فقرأتُ، ثم جالت أيضاً. فقال رسول الله ﷺ : «اقرأ ابنَ حضير!».

قال: فانصرفتُ، وكان يحيى قريباً منها، خشيتُ أن تطأه، فرأيتُ مثل الظُّلة، فيها أمثال السُّرُج، عرجت في الجو حتى ما أراها، فقال رسول الله ﷺ : «تلك الملائكة كانت تستمعُ لك، ولو قرأتَ لأصبحت يراها الناس، ما تستتر منهم» [مسلم: ٧٩٦]. والمربد للتمر في الحديث - كالبيدر للقمح، وجالت الفرس: وثبت. والمراد بيحيى هو ابن أسيد كان صغيراً نائماً قرب الفرس.

والظلة: ما يقي من الشمس كالسحاب، أو سقف المنزل.

جنـــــــة الســـــــنة

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: «قرأ رجلٌ الكهف، وفي الدار دابةٌ فجعلت تنفرُ، فنظر فإذا ضبابةٌ أو سحابة قد غشيته، قال فذكر ذلك للنبي ﷺ ، فقال: اقرأ. فلان! فإنها لسكينة تنزّلت عند القرآن، أو تنزلت للقرآن» [البخاري: ٣٦١٤. مسلم: ٧٩٥].

١٣- ثلاث آيات يقرأ بها القارئ في صلاته خير من ثلاث خلفات يحوزها المرء بغير عناء: عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ : «أيحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاث خَلِفاتٍ عظامٍ سمانٍ؟» قلنا: نعم. قال: «فثلاث آيات يقرأ بهن أحدكم في صلاته، خير له من ثلاث خلفاتٍ عظام سمان» [مسلم: ٨٠٢]. والخلفة: الحامل من النوق.

عن عقبة بن عامر، قال: خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصُّفَّة، فقال: «أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بُطْحان، أو إلى عقيق، فيأتي منه بناقتين كوْماوَيْن، في غير إثم ولا قطع رحم؟» فقلنا: يا رسول الله! نحب ذلك، قال: «أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين، وثلاث خيرٌ له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعْدادهن من الإبل؟» [مسلم: ٨٠٣].

و«الصفة»: موضع في المسجد كان يؤوي إليه فقراء الصحابة، و«يغدو» أي يذهب في الغدوة، والغدوة أول النهار. و«بطحان» موضع قرب المدينة، و«العقيق» وادٍ في المدينة. و«كوماوين» الكوماء من الإبل العظيمة السنام.

١٤- الشهر الذي أنزل فيه القرآن خير الشهور: جعل الله شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن خير الشهور، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥].

١٥- الليلة التي أنزل فيها القرآن خير الليالي: وجعل الله ليلة القدر التي أنزل فيها القرآن خيراً من ألف شهر ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر:١-٥].

١٦- البلد الذي أنزل فيه القرآن خير البلاد: وجعل الله البلد الذي أنزل فيه القرآن وهو مكة خير البلاد، وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة.

١٧- الرسول الذي أنزل عليه القرآن أفضل الرسل: وجعل الله الرسول الذي أنزل عليه القرآن، وهو محمد ﷺ أفضل الرسل، وخير الأولين والآخرين.

جنـــــة السـنـــــة

رابعا: خصائص القرآن الكريم:

القرآن له خصائص كثيرة، منها:

١ - أنه كلام الله منزل من عند الله: أعظم خصائص القرآن كما سبق بيانه أنه كلام الله العظيم، منزل من عند العليم الحكيم، قال أبو البقاء الكفوي: «والأمة من السلف مجمعة على أن القرآن كلام الله تعالى، وهو منتظم من الحروف والأصوات، ومؤلف ومجموع من سورٍ وآيات، مقروء بألسنتنا، محفوظ في صدورنا، مسطور في مصاحفنا، ملموس بأيدينا، مسموع بآذاننا، منظور بأعيننا، ولذلك وجب احترام المصحف وتبجيله حتى لا يجوز للمحدث مسّه ولا القربان إليه، ولا يجوز للجنب تلاوته» [الكليات: ص٧٢٠].

٢ - أخبار القرآن صدقٌ كلُّها وأحكامه عدل كلها: أحكم الله -تبارك وتعالى- آيات القرآن الكريم، ثم فصّلها، ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود:١]، ومن هذا الإحكام أنَّ أخباره صدق كلها، وأحكامه عدل كلها ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام:١١٥] ولذا فإن المنصف لا يجد في القرآن شيئاً من التناقض والاختلاف ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النساء:٨٢].

٣ - القرآن محفوظ بحفظ الله: وقد تكفل الله بحفظه، فلا يتغير، ولا يتبدل، مهما طال الزمان، وتكاثرت الفتن، وتعاظم الكيد ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر:٩]، فهو باقٍ على حاله التي أنزلها على رسوله، غير قابل للتحريف والتغيير ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ [فصلت:٤٢].

وقد حفظ الله القرآن بطريقين: الأولى: الحفظ في الصدور، والثانية: الحفظ في السطور، وقد أقبلت الأمة على حفظ القرآن حفظاً موافقاً للقرآن المسطور على الرسم الذي أجمع الصحابة عليه، فلا عبرة بحفظ حافظ حتى يوافق الهيئة التي وضع عليها.

وقد سمى الله كلامه المنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ قرآناً وكتاباً إشارة منه تعالى إلى حفظه في الصدور والسطور [النبأ العظيم: ٨].

٤ - القرآن أعظم كتاب هداية: القرآن أعظم كتاب هداية، يهدي إلى الله ويعرف به، ويقيم العباد على الصراط المستقيم، ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ [البقرة:٢]، وقال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ

جنـــــة الســـــنة

﴿وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ [البقرة:١٨٥]، وهو يهدي للتي هي أقوم ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

ومع أن القرآن كتاب الهداية الأقوم والأعظم، فهو كتاب شفاء ورحمة أيضاً ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢].

٥- **تيسير رب العباد القرآن للذكر**: مع أن القرآن في القمة من الفصاحة والبلاغة، إلا أن رب العباد يسره للذكر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٢٢﴾ [القمر:٢٢]، ومن تيسير الله القرآن أنه يقرؤه العالم الكبير، ومن قلّ علمه، وتقرؤُه العجوز الكبير، فيشدُّها وتبكي، ويقرؤه الصغير، بل يحفظه، وقد رأينا كثيراً من الأمم التي لا تعرف العربية تقرؤه بإتقان وتحفظه حفظ من لا يكاد يخطئ فيه.

خامسا: حاجة أهل العلم للقرآن:

تحدث السيوطي رحمه الله تعالى عن حاجة العلماء إلى القرآن على اختلاف علومهم، فقال:

«ترى كل ذي فنٍّ من القرآن يستمدّ، وعليه يعتمد، فالفقيهُ يستنبطُ منه الأحكام، ويستخرجُ علم الحلال والحرام، والنحويُّ يبني منه قواعدَ إعرابه، ويرجع إليه في معرفة خطأ القول من صوابه، والبيانيُّ يهتدي به إلى حُسْن النظام، ويعتبر مسالكَ البلاغة في صوغ الكلام، وفيه من القصص والأخبار ما يذكِّر أولي الأبصار، ومن المواعظ والأمثال ما يزدجر به أولو الفكر والاعتبار، إلى غير ذلك من علوم لا يقدِّر قدْرَها إلا مَنْ علم حصرها، هذا مع فصاحة لفظ، وبلاغة أسلوب، تبهر العقول وتسلب القلوب، وإعجاز نظم لا يقدر عليه إلا علاّمُ الغيوب» [الإتقان في علوم القرآن: ١/ ١٦].

ونبغ البشر اليوم في الوصول إلى علم واسع في الكون أرضه وسمائه، وإنسه وحيوانه ونباته، وبحاره وأنهاره، وسهوله وجباله، ونجومه وكواكبه، وقد أذهلنا ما وجد في القرآن من حقائق كشف عنها العلم الحديث.

وليس العلماء وحدهم المحتاجين للقرآن، بل البشرية كلها بحاجة إلى هذا الكتاب ليدلهم على الله، ويعرفهم بالطريق التي توصلهم إليه.

سادسا: المدخل إلى القرآن الكريم:

ألف أهل العلم كتباً تعدُّ مدخلاً إلى القرآن الكريم، وهذه الكتب هي كتب علوم القرآن، بعضها ألف في علم واحد، كالناسخ والمنسوخ، وكتب التجويد، وأسباب النزول،

جنـــــة الســــــنة

وبعضها كتب جامعة لكل هذه العلوم ولغيرها، مثل كتاب «الإتقان في علوم القرآن» لجلال الدين السيوطي، المتوفى سنة ٩١١هـ و«البرهان في علوم القرآن» لبدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤هـ، وكتاب «الانتصار للقرآن» للقاضي أبي بكر ابن الطيب الباقلاني، المتوفى سنة ٤٠٣هـ، وكل هذه الكتب موجودة مطبوعة.

وعلوم القرآن الكريم التي تعرفك بالقرآن وتدلك عليه كثيرة، منها المكي والمدني، وأسباب النزول، وما نزل مفرقاً وما نزل جمعاً، ومعرفة أسماء القرآن وأسماء سوره، وجمع القرآن وترتيبه، وعدد سوره وآياته وكلماته، وحفاظ القرآن ورواته، وتلاوة القرآن وتجويده، وآداب تلاوته، ومعرفة غريبه، وإعراب القرآن، والقواعد التي يحتاج المفسر إلى معرفتها، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، وخاصّ القرآن وعامه، ومطلقه ومقيده، وحقيقته ومجازه، وبدائع القرآن، وفواصل السور، وإعجاز القرآن، وفضائل القرآن وغير ذلك من العلوم، وقد ساق السيوطي منها ثمانين علماً [الإتقان: ١/ ١٨].

جنـــــة السـنـــــة

المعاني الحسان في تفسير القرآن

المجلد الأول

الأستاذ الدكتور
عمر سليمان عبد الله الأشقر
رحمه الله

الاستعاذة

أولاً: من الأدب مع الله الاستعاذة به عند قراءة القرآن

أدّبنا ربنا فأحسن تأديبنا إذ أمرنا بالاستعاذة به عندما نريد قراءة القرآن، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل:٩٨].

ويحقِّقُ العبد ما أمره الله به في هذه الآية بقوله: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» قبل قراءة القرآن، ومعنى هذه الكلمة: أحتمي بك يا ربنا من الشيطان الرجيم، حتى لا يخالط قلبي وعقلي عند قراءتي لكتابك، وتدبر آياتك، واستحضار عظمتك.

والشيطان هو أكبر عدوٍّ لنا، ولا يرضيه منا إلا أن يلقينا في النار، وغضب الجبار، وهو يعلم أنه لا يستطيع أن يتلاعب بقلوبنا وعقولنا إلا إذا قَطَعَ صلتنا بالقرآن الكريم قطعاً كلياً، فيحول بيننا وبينه، فلا نلتفت إليه من قريب ولا بعيد.

فإن لم يستطع مَنْعَنا من تلاوته حرص على أن يشغلنا بوساوسه عن التفكر فيه، والتأمل في معانيه، وطريقه إلى تحقيق مراده تذكيرنا بالأهل والولد، والتجارة والمال، ومتع الحياة ومنغصاتها، عندما نقرأ هذا الكتاب العظيم، وبذلك نقرأ ألفاظه، وتغيب عنا معانيه.

والله سبحانه يعلم أنه لا يدفع عنَّا الشيطان أثناء تلاوة القرآن إلا هو، فهو سبحانه القادر على الشيطان، والواقي والحامي منه، ومن هنا أمرنا بالاستعاذة من الشيطان عند قراءة القرآن، ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل:٩٨].

جنـــــــة الســـــــنة

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

أولاً: تقديم

يتناول هذا التقديم لسورة الفاتحة ثلاثة مباحث: **الأول**: التعريفُ بهذه السورة الكريمة. **والثاني**: الأسماءُ التي سميت بها، والأسباب التي أدت إلى هذه التسميات. **والثالث**: فضل هذه السورة الكريمة.

١- التعريف بهذه السورة الكريمة:

الفاتحة مكونة من سبع آيات، وكلماتها خمس وعشرون كلمة، وعدد حروفها ثلاثة عشر ومائة حرفٍ، وهي أولُ سور القرآن الكريم، وهي أفضل سوره، فهي أفضل من سورة البقرة، وأفضل من سورة آل عمران، بل هي أفضل ما نزل من السماء، وهي أساس القرآن وجامعة معانيه، وهي السبع المثاني والقرآن الذي آتاه الله رسوله محمداً ﷺ ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الحجر:٨٧].

وهذه الآية آية مكية باتفاق العلماء، ودلَّ على ذلك امتنانُ الله على رسوله ﷺ بإنزالها عليه في مكة بقوله ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الحجر:٨٧]، ويدلُّ لنزولها في مكة أيضاً أن الفاتحة مرتبطة بالصلاة، فلا تصحُّ الصلاة إلا بها، والصلاة فرضت في مكة.

٢- أسماء هذه السورة والسبب في تسميتها بهذه الأسماء:

تسمى هذه السورة بفاتحة الكتاب، وأُمِّ الكتاب، وأُمِّ القرآن، والحمد، والسبع المثاني، والقرآن العظيم.

١- وقد سماها الرسول ﷺ بفاتحة الكتاب في حديث عبادة بن الصامت، في قوله: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» [البخاري: ٧٥٦. مسلم: ٣٩٤] سميت بفاتحة الكتاب لافتتاح المصاحف بها، ولأن قارئ القرآن يفتتح التلاوة بها.

جنـــــة الســــــنة

٢- وسماها الرسول ﷺ في حديث أبي سعيد بن المعلى بالسبع المثاني والقرآن العظيم، قال رسول الله ﷺ : «هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته» [البخاري:٤٧٠٣]. وسماها الله بالسبع المثاني، لأنها تثنى في كل ركعة من ركعات الصلاة، أي: تكرر فيها.

٣- وسميت بأمِّ القرآن وأم الكتاب، لأنها تجمع علوم القرآن، وكلياته الأساسية في العقيدة والتصور والمشاعر والتوجهات، والعرب - كما يقول ابن جرير - تسمى «كلَّ جامعٍ أمراً، أو مقدماً لأمر أمَّا، إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع» [ابن جرير الطبري: ١/ ٤٨].

٤- وسماها رسولنا ﷺ بالحمد في الحديث الذي رواه عنه أبو هريرة، ونصه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني» [البخاري: ٤٧٠٤. الترمذي: ٣١٢٤] وسميت بالحمد، لأنها مفتتحة بهذه الكلمة.

وذكر السيوطي أن أسماءَها تزيد على عشرين اسماً، وذكر من أسمائها: الصلاة، والشفاء، والرقية، والأساس، والوافية، والكافية [قطف الأزهار: ص١٠٦].

والصواب الاقتصار في عَدِّ أسمائها على ما ورد في النصوص، والله أعلم.

٣- فضائل هذه السورة :

للفاتحة فضائل كثيرة، ثبتت في الكتاب والسنّة، فمِنْ ذلك:

١ - الفاتحة هي المقصودة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر:٨٧].

وقد صرح الرسول ﷺ في حديث أبي سعيد بن المعلَّى، وحديث أُبيّ بن كعب بأن الفاتحة هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال: «أمُّ القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم» [البخاري: ٤٧٠٤].

وإنما كانت الفاتحة هي السبع المثاني، لأنها سبع آيات تُثنَّى في كلِّ ركعة من ركعات الصلاة فريضة كانت أو تطوعاً.

٢ - الفاتحة أحد أعظم نورين أوتيهما الرسول ﷺ لم يؤتهما نبي من قبله، وقد أخبر الرسول ﷺ بذلك ملكٌ نزل من السماء، لم ينزل قبل ذلك اليوم، من باب لم يفتح قبل ذلك اليوم

جنـــــة الســـــنة

روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس، قال: «بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ، سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فُتح اليوم، لم يُفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم، فسلّم وقال: أبشر بنورين أوتيتَهما، لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أُعطيته» [صحيح مسلم: ٨٠٦].

وقد دلّ هذا الحديث على فضل نور سورة الفاتحة، ونور خواتيم سورة البقرة، وسيأتي أن نور سورة الفاتحة أفضل من نور خواتيم سورة البقرة.

٣- دلّ أكثر من حديث على أن سورة الفاتحة أفضل ما نزل من القرآن، فقد روى البخاري عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه، قال: مرّ بي النبي ﷺ وأنا أصلي، فدعاني فلم آتِهِ حتى صليتُ، ثم أتيتُ، فقال: «ما منعك أن تأتيني؟» فقلت: كنت أصلي. فقال: «ألم يقل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤]» ثم قال: «ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟» فذهب النبي ﷺ ليخرج من المسجد فذكّرته، فقال: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢] هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته» [البخاري: ٤٧٠٣. وانظر رقم: ٤٦٤٧، ٥٠٠٦].

فهذا الحديث صريح في أن الفاتحة أعظم سورة في القرآن.

٤- وجاءت بعض النصوص دالة على أن الفاتحة أفضل ما أنزل من عند الله في الكتب كلها، ففي سنن الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن الرسول ﷺ خرج على أبيّ بن كعب، فناداه الرسول ﷺ قائلاً: «يا أُبيّ، وهو يصلي، فالتفت أُبيّ ولم يُجِبْه، وصلّى أبي، فخفف، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ، فقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: وعليك السلام، ما منعك يا أُبيُّ أن تجيبني إذ دعوتك؟ فقال: يا رسول الله، إني كنت في الصلاة، قال: أفلم تجد فيما أوحى الله إليّ أن ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤] قال: بلى، ولا أعود إن شاء الله.

قال: أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلها، قال: نعم يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: كيف تقرأ في الصلاة، قال: فقرأ أم القرآن، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده ما أُنزلتْ في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا

جنـــــة الســـــنة

في الزبور، ولا في الفرقان مثلها، وإنها سبع من المثاني والقرآن العظيم الذي أُعطيته» [الترمذي: ٢٨٧٥، وقال فيه: هذا حديث حسن صحيح. وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي: ورقمه: ٢٣٠٧].

وهاتان واقعتان، جرى كل واحدة منهما مع صحابي، وقرر الرسول ﷺ في الأولى أن الفاتحة أفضل سور القرآن، وفي الثانية أنها أفضل ما أنزل في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، فهما فضيلتان، لا فضيلة واحدة.

٥- **القرآن كله شفاء، والفاتحة فيها من الشفاء ما ليس في غيرها**، فعن أبي سعيد ﵁ قال: انطلق نفرٌ من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها، حتى نزلوا على حيٍّ من أحياء العرب، فاستضافوهم، فأبوا أن يضيفوهم، فلُدِغَ سيدُ ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء، لا ينفعه شيء.

فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا، لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط إن سيدنا لُدغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه، فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم والله، إني لأرقي، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيِّفونا، فما أنا بِراق لكم حتى تجعلوا لنا جُعلاً. فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يَتفِلُ عليه ويقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ فكأنما نُشِطَ من عِقال، فانطلق يمشي وما به قَلَبَة.

قال: فأوفوهم جُعلَهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقسِموا. فقال الذي رَقَى: لا تفعلوا حتى نأتِيَ النبي ﷺ ، فنذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا، فقدِموا على رسول الله ﷺ فذكروا له، فقال: «وما يُدريك أنها رقية»، ثم قال: «قد أصبتم، اقسِموا، واضربوا لي معكم سهماً» فضحك النبي ﷺ . [البخاري: ٢٢٧٦. مسلم: ٢٢٠١].

والحديث واضح الدلالة على شفاء ذلك الرجل اللديغ بقراءة ذلك الصحابي الفاتحة عليه.

٦- **الفاتحة ركن الصلاة الأعظم**، فعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» [البخاري: ٧٥٦. مسلم: ٣٩٤]. وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج» (ثلاثاً)، غير تمام [مسلم: ٣٩٥].

٧- **شَرُفَتِ الفاتحةُ بموضوعها**: فالقرآن كله كلام الله تعالى، وكلامه أشرف الكلام، وكلام الله متساوٍ في الفضل، وإنما تتفاضل سور القرآن وآياته من جهة موضوعاتها، فالآيات

جنـــــة السنـــــــة

التي تتحدث عن مخلوقات الله من الجماد والنبات والحيوان لا تتساوى مع الآيات التي تتحدث عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، ولذلك كانت آية الكرسي أفضل آية، وسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن.

ومن هنا كانت الفاتحة أعظم السور، لأن الله حمد فيها نفسه أعظم الحمد، وأثنى فيها على نفسه بأسمائه وصفاته أفضل الثناء، ومجَّد نفسه أعظم التمجيد، وبيَّن حقوقه أعظم البيان، ودلَّ العباد على طلب الهداية إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، غير المغضوب عليهم ولا الضالين، وسيأتي توضيح هذا الموضوع عندما نعرض لتفسير السورة.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم من سورة الفاتحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- سورة الفاتحة أفضل ما نزل من عند الله:

سورة الفاتحة أفضل ما نزل في الكتب الإلهية قاطبةً كما سبق بيانه، وهذا الفضل لما حوته من حقائق ومقاصد ومعانٍ وفوائد وتوجيهات، ولما في تلاوتها من تحميد وثناء وتمجيد لرب العزة ودعاء له، واستعانة به، وعلى القارئ لها أن يتنبه إلى أن هذا الفضل الذي حدثتنا النصوص عنه يهدف إلى استثارة قلوبنا وعقولنا لمعرفة ما حوته وإلى الإكثار من تلاوتها.

٢- التعريف بالبسملة وبيان شيء من فضلها:

أ- **التعريف بالبسملة**: البسملة هي قول: (بسم الله الرحمن الرحيم)، وهي أول آية في كتاب الله تبارك وتعالى، وافتتح الله كل سورة من سور القرآن بها سوى سورة براءة، وهي تعطي هذه السور جمالاً وحلية وزينة، ولذلك قال بعض العلماء: «البسملة تاج سور القرآن»

جنـــــة الســـــنة

وقد أمر الله بها رسوله ﷺ في أول ما أنزل عليه وهو قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ [العلق:١] ونحن نقدّس ربنا تبارك وتعالى ونعظمه بالابتداء بها في أقوالنا وأعمالنا الطيبة، فنتلوها عندما نقرأ القرآن، ونكتبُها في أوائل الرسائل والعقود، ونقولُ باسم الله عندما نأكل، ونشرب، ونلبس، وعندما نخرج من المنزل، أو ندخله، وعندما نذبح ذبائحنا، وننحر أضاحينا، ونحو ذلك.

والبشر الضالون يقصدون آلهتهم التي يعبدونها في احتفالاتهم ومناسكهم وصلواتهم بذكر أسمائها في أول أعمالهم، كما كانت العرب تفعل في الجاهلية، فقد كانوا يذبحون باسم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، والنصارى يذبحون باسم الأب والابن والروح القدس.

وقد أعلمنا ربنا أن البسملة من هدي الرسل والأنبياء قديماً، فنوح عندما أراد هو والذين آمنوا معه ركوب السفينة قال: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود:١١] ونبي الله سليمان توّج كتابه إلى ملكة سبأ بها ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل:٢٩-٣٠].

وأعلمنا ربنا تبارك وتعالى أنه جعل لكل أمة منسكاً، ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام حين يذبحونها ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ [الحج:٣٤].

ب- **معنى البسملة:** ومعنى البسملة يحدده العمل الذي قيلت في أوله، فالقارئ للقرآن يكون المعنى المناسب له: أقرأ مستعيناً بالله الرحمن الرحيم، والذابح لبهيمة الأنعام المعنى المناسب له: أذبح مستعيناً بسم الله، وكذلك يقال في المعنى المناسب للناطق بها في أول الطعام أو الشراب أو اللباس ونحو ذلك.

٣- الفقه والفوائد التي في البسملة:

أ- اشتملت **البسملة** على ثلاثة أسماء من أسماء الله الحسنى: الله، الرحمن، الرحيم، وهي أسماء عظيمة جليلة كريمة.

والله الاسم الأعظم على الأرجح من الأقوال، وهو أول أسماء الله، وأعظمها، وأشهرها، وأعلاها في الذكر، ويدل على عظمته أنه لم يسمَّ به غيره، ولم يُدْعَ به سواه.

جنـــــة السـنة

و(الرحمن والرحيم) اسمان من أسمائه تبارك وتعالى مشتقان من الرحمة، أحدهما أرفق من الآخر، كما يقول ابن عباس [فتح الباري: ١٣/ ٤٣٩].

ب- أرجح الأقوال أن البسملة في غير سورة الفاتحة آية من القرآن الكريم أُنزلت للفصل بين السور، وليست آية من السورة في أوائل السور، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان النبي ﷺ لا يعرف فَصْلَ السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم» [سنن أبي داود: ٧٨٨. وأورده الألباني في صحيح سنن أبي داود].

ويدلُّ لصحة هذا القول أن الصحابة لم يدخلوا مع القرآن غيره حين كتبوه، وقد كتبوا البسملة في أول كل سورة سوى سورة براءة [مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٢٢/ ٤٣٣].

ويدلُّ لصحة قول من ذهب إلى أنها ليست آية في أول السورة أن الرسول ﷺ لم يعدَّ البسملة آية في أول السورة كسورة تبارك.

وذكر الكاساني أن الفقهاء انعقد إجماعهم على أن سورة الكوثر ثلاث آيات، والإخلاص أربع، ولو عُدّت البسملة آية، لزادت كل سورة آية [بدائع الصنائع: ١/ ٢٠٤].

أما البسملة في الفاتحة، فإنها آية من آياتها، لأن الله تعالى جعل الفاتحة سبع آيات في قوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الحجر:٨٧] وهي من غير البسملة ست آيات ولأن الرسول ﷺ صرّح بأن البسملة إحدى آيات الفاتحة، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأتم ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ فاقرؤوا ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ إنها أم القرآن، وأم الكتاب، والسبعُ المثاني، و ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ إحدى آياتها» عزاه الألباني إلى الدارقطني والبيهقي والديلمي، وقال الألباني في إسناده: «هذا إسناد صحيح مرفوعاً وموقوفاً» [سلسلة الصحيحة: ١١٨٣].

ج- القول الراجح أنه يستحب قراءَة البسملة في الصلاة سرّاً، خلافاً لمن كره قراءتها فيها، وخلافاً لمن استحب أو أوجب قراءتها فيها، والقول باستحباب قراءتها سراً قول أكثر أهل العلم من الصحابة ومن بعدهم من التابعين وفقهاء الأمصار [صحيح سنن الترمذي: ١/ ٧٨. المغني: ١/ ٥٢١. مجموع الفتاوى: ٢٢/ ٤٣٦. نصب الراية: ١/ ٢٠٣].

هـ- يستحب أن يبدأ المسلم الذبح بـ «بسم الله»، ويستحب البداءة بها في الأكل والشرب واللباس ودخول المنزل والخروج منه، وعند النوم ونحو ذلك، ولكن دون: الرحمن الرحيم.

جنـــــة السـ ـــ ـنة

٥- التسمية حيث ذُكرت تُبارك المكان، وتطرد الشيطان، وتحفظ الإنسان، ولا يثقل مع اسم الله شيء في الأرض ولا في السماء.

٤- قسم الله الفاتحة نصفين:

على من يريد قراءة هذه السورة أن يكون على ذكر من الحديث القدسي الذي رواه أبو هريرة عن الرسول ﷺ ، والذي يقول فيه: «قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي. وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال: مجدني عبدي. (وقال مرة: فوّض إليّ عبدي).

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: هذه لعبدي، ولعبدي ما سأل» [مسلم:٣٩٥]، وهذا الحديث ينبه المصلي إلى أن الفاتحة هي الصلاة، ولذلك قال: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين».

فالقسم الأول: هو حمد لله، وثناء عليه، وتمجيد له، وإعطاؤه العهد على عبادته وحده لا شريك له.

والثاني: هو سؤال القارئ ربَّه العون على ما يهمه ويغْنيه، وأهمه إعانته على أعظم مهمٍّ، وأعلى مطلوب، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وسؤال الله هدايته إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم بعيداً عن طريق المغضوب عليهم والضالين.

٥- التعريف بالحمد:

والمراد بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الثناء التام الكامل على ربِّ العزة سبحانه، والألف واللام تدلاّن على استغراق جنس المحامد لله الواحد الأحد، فالله - سبحانه - يستحقه على كماله في ذاته وصفاته، كما يستحقه على نعمه وآلائه، والله وحده هو الكامل في ذاته وصفاته، وكل النعم منه وحده ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣] و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ أبلغ صيغ الحمد كما قال البلقيني [الإكليل في استنباط التنزيل: ص٢٥].

جنـــــة السـنـــــة

وقد أكثر الله تبارك وتعالى من حمد نفسه في مواطن كثيرة في كتابه تعليماً لعباده أن يكثروا من حمده، كقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام:١]، وقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١﴾ [الكهف:١]، وقال: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ۝١٨﴾ [الروم:١٨].

وأمر رسوله ﷺ بحمده في قوله: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ۝١١١﴾ [الإسراء:١١١]، وقال: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ﴾ [النمل:٥٩].

وحَمْدُ الله هو دأب الملائكة والأنبياء والمرسلين وأتباعهم على طريقتهم ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ [غافر:٧] وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ [إبراهيم:٣٩] وأخبرنا عن داود وسليمان عليهما السلام أنهما ﴿قَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٥﴾ [النمل:١٥].

٦- التعريف برب العالمين:

والرب في قوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: الخالق المالك المدبر المصرِّف. و﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ جمع عالَم، والعالَم هو كل موجود من دون الله، وقد سأل فرعون موسى عن ربِّ العالمين، فأجابه بأنه ربُّ السموات والأرض ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشعراء:٢٣-٢٤] ومما يدلُّ على أن العالمين كلُّ مخلوق قوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام:١٦٤] وقد كثر في كتاب الله إضافة (رب) إلى بعض ما خلقه الله كقوله: ﴿وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٨٦﴾ [المؤمنون:٨٦]، وقوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٢﴾ [الأعراف:١٢٢] وقد يضاف الرب إلى العالمين، وهو كثير أيضاً في كتاب الله، كهذه الآية في أول الفاتحة.

وقد يطلق العالَمُ على الصنف من المخلوقات، فيقول: عالم الملائكة، عالم الإنس، عالم الجن، عالم الحيوان، عالم النبات، عالم الجماد.

٧- الرحمن الرحيم:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اسمان كريمان رفيقان دالان على الرحمة، أحدهما أرفق من الآخر، وهما صفتان لاسم الله، وهما صيغتا مبالغة من الرحمة، وهما يفتحان باب الرجاء تجاه الرحمن الرحيم.

جنـــــة الســـــــنة

وذكر الراغب الأصفهاني أن معنى (الرحمن) الذي كثرت رحمته، وتكررت ووسعت كلَّ شيء، وذَكَرَ الفرقَ بين (الرحمن) و(الرحيم)، فالرحمن مختص بالله تعالى، لا يطلق على غيره، مثله في ذلك مثل لفظ الجلالة (الله)، ولأجل ذلك قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء:١١٠]، أما الرحيم، فقد يوصف به غير الله إذا كان معناه: الذي كثرت رحمته [مقدمة جامع التفاسير: ص١١٥].

٨- مالك يوم الدين:

مجَّد الحقُّ نفسَه في هذه السورة بقوله: ﴿مالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وفي القراءة الصحيحة الأخرى ﴿مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [حجة القراءات: ص٧٧].

ويوم الدين هو اليوم الذي يَدين الله فيه العباد، أي: يحاسبهم، وهو يوم القيامة، وأفرد الله نفسه بالملك في ذلك اليوم، لأن ما ملكه الناس في الدنيا من مال ومتاع ولباس وطعام زال عنهم، فيأتون في ذلك اليوم حفاة عراة غُرْلاً، لا يملك أحد لأحد شيئاً ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار:١٩] وعند ذلك يدرك العباد أنه ليس لهم من الأمر شيء، وينادي رب العزة فيقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر:١٦] فلا يجيبه أحد، فيجيب نفسه بنفسه قائلاً: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر:١٦].

٩- إياك نعبد وإياك نستعين :

وفي ختام ما خص الله به نفسه في هذه السورة علمنا أن نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: لا نعبد إلا أنت، فأنت الإله الحقُّ المعبود المقصود، وغيرك مألوه مربوب، وهذه الآية تفيد كلمة التوحيد، وهي: (لا إله إلا الله).

وهذا الذي سبق بيانه هو ما اختص الله به نفسه في سورة الفاتحة.

تفسير آيات القسم الثاني الخاصة بالعبد:

بقية هذه السورة هي لعبد الله التالي لها، وهي قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ وآيات القسم الثاني ترشدنا إلى أمرين:

جنـــــة السـنـــــة

الأول: أن نتوجه إلى الله ربنا سائلين إياه أن يعيننا على ما كلفنا به من أعمال وأقوال، وأن يبعدنا عما نهانا عنه من أعمال وأقوال، فإنه إذا لم يكن للعبد عون من مولاه، ضلّ وتاه، واعتماد المرء على نفسه أو غيره لا ينفعه، ولا يجعله يدرك غايته.

وفي مقدمة الأفعال والأقوال التي نحتاج فيها إلى عون ربنا عبادته، وإخلاص الدين له وحده، ولذلك قرن سبحانه بين العبادة والاستعانة في هذه الآية من هذه السورة.

الثاني: أن نتوجه إليه سبحانه بطلب الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو صراط ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء:٦٩].

١٠- التعريف بالصراط المستقيم:

والصراط المستقيم هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران:٨٥] والإسلام هو طريق بين طرق كثيرة، بعضها دين سماوي، ولكنه محرف مُغيَّر منسوخ، كاليهودية والنصرانية، وبعضها مخترع من قِبَل أئمة الضلال في القديم والحديث، كعبادة الأصنام والشمس والقمر والنجوم، ومنها طريق الشيوعية والعلمانية والبوذية، وهي طرق كثيرة متنوعة.

وقد ضرب الرسول ﷺ مثلاً للصراط المستقيم وللسبل المنحرفة عنه، فعن عبدالله بن مسعود ﵁ قال: خط لنا رسول الله ﷺ خطاً ثم قال: «هذا سبيل الله»، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «هذه سبل - قال يزيد: متفرقة - على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام:١٥٣] [مسند أحمد: ٤١٤٢. وإسناده حسن كما قال محقق المسند].

١١- التعريف بصراط المغضوب عليهم وطريق الضالين:

أخطر الطرق التي يجب اجتنابها طريق المغضوب عليهم وطريق الضالين، ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ والمعنى: جنبنا يا ربنا طريق المغضوب عليهم وطريق الضالين.

والمغضوب عليهم اليهود، والضالون النصارى، والمغضوب عليهم أشدُّ كفراً من الضالين، ولبُّ الدين الذي عليه اليهود قائم على معرفة الحق، ورفض اتباعه، فاليهود يعلمون أن محمداً مرسل من ربه، ولكنهم يعاندون، والنصارى ضالون، فهم يعبدون الله على جهل.

جنـــــة الســـــنة

وقد حدثنا الله - تبارك وتعالى - عن اليهود في كتابنا، فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة:٦٠]. كما حدثنا عن النصارى فقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة:٧٧].

وقد قال الرسول ﷺ لعدي بن حاتم عندما جاءه مسلماً: «إن اليهود مغضوب عليهم، وإن النصارى ضلال» [الترمذي: ٢٩٥٣، ٢٩٥٤. وانظره في صحيح سنن الترمذي].

ووجه وصف اليهود بالغضب أنهم يعرفون الحق، وينكرونه ويخالفونه، ويأتون الباطل عمداً، والنصارى يعبدون الله على جهل، أما المؤمنون أتباع الصراط المستقيم فيعلمون الحقَّ، وينصاعون له، فهم مهتدون.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات سورة الفاتحة من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذه السورة نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - تعرفنا هذه السورة بالله معبودنا، فهو الله الرحمن الرحيم رب العالمين مالك يوم الدين.

٢- أرشدنا الله تبارك وتعالى إلى أن نحمده ونثني عليه ونمجده بتلاوة قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾.

٣- الله وحده المستحق للحمد كله، لأنه ربنا ورب كلِّ الخلائق، ولأنه المتصف بصفات الرحمة وغيرها من جميل الصفات، ولأنه وحده الذي يحاسب الخلائق بعد أن يأتي بهم يوم الدين.

٤- الله هو الربُّ الخالق الرازق المدبر، لا رب غيره ولا خالق سواه، ومن جعل من دون الله أرباباً فقد ضل ضلالاً عظيماً.

٥- الله يتصف بصفات الجلال والكمال، ليس كالآلهة المختلقة التي اخترعتها عقول كثير من الضالين من البشر الذين يصورون آلهتهم في صورة آلهة قاسية جامدة ليس فيها رحمة، وهي آلهة تتصارع على المكاسب والمغانم، وتزني وتلوط وتسرق وتفسد.

٦- الإقرار بيوم الدين، الذي يقوم فيه الناس لربِّ العالمين، ويحاسبهم فيه على ما قدموا، والله هو المالك وحده لذلك اليوم.

جنـــــة السنـــــــة

٧- قدَّم الله العبادة على الاستعانة في قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وفي ذلك إرشاد إلى تقديم الخضوع لله قبل طلب الحاجة.

٨- الله وحده المستحق للعبادة، وكل إله غير الله فهو معبود باطل، لا يستحقُّ أن يدعى، ولا يستعان به، ولا يستغاث به من دون الله.

٩- على العبد أن يستعين بالله وحده على عبادته وطاعته وحاجات الدنيا والفوز بالجنة والنجاة من النار.

١٠- الذي يدلنا على الطريق الذي يوصلنا إلى رضوان الله في الدنيا والآخرة هو الله وحده، فمنه نسأل الهداية.

١١- الصراط المستقيم صراط الله الذي سلكه الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون، وهو التوحيد، وهو الدين الذي لا يُقبلُ دين سواه.

١٢- اليهود يعرفون الحق ويرفضونه، فهم مغضوب عليهم، والنصارى يعبدون الله على جهل، فهم ضالون، والمسلمون يعبدون الله على علم، فهم مهتدون.

١٣- حَوَت هذه السورة أنواع التوحيد الثلاثة، وهي:

أ- **توحيد الألوهية**، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ والذي لا يعبد إلا ربه، هو الذي يفرد الله بالعبادة.

ب- **توحيد الربوبية**، فالله تبارك وتعالى ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فكل ما سوى الله مخلوق مربوب، والله رب الخلائق جميعاً.

ج- **توحيد الأسماء الصفات**، وقد ذكر سبحانه من أسمائه في هذه السورة ستة أسماء، هي: الله، الرحمن، الرحيم، رب العالمين، المالك، والملك، وقد كان الصحابة والذين ساروا على إثرهم يثبتون لله ما أثبته لنفسه من أسماء وصفات وأفعال من غير تشبيه، ولا تمثيل، ولا تعطيل على حدّ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١].

١٤- على العبد أن يعلم أنه كلما قرأ الفاتحة أعطى ربه عهداً أن يعبده وحده لا شريك له، ويستعين به وحده دون سواه، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة:٥].

جنـــــة السـنـــــة

خامساً: الأحكام التي تتعلق بسورة الفاتحة

هناك مجموعة من الأحكام تتعلق بهذه السورة دلت عليها الأحاديث الصحيحة، وهي:

١ - وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة من ركعات الصلاة، لا يغني عنها غيرها، وقد سبق ذكر الحديث الذي يقول فيه الرسول ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» [البخاري: ٧٥. ومسلم: ٣٩٤] ويقول: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج» غير تمام [مسلم: ٣٨٥].

والخداج: النقصان. والناقة الخداج: التي ألقت حملها قبل تمام مدته.

وكان الرسول ﷺ يداوم على قراءة الفاتحة في كل ركعة، ولم يؤثر عنه أنه صلى ركعةً من غير قراءة الفاتحة، وأمرنا ﷺ أن نصلي كما كان يصلي [البخاري: ٤٥١].

وثبت في الصحيحين أنه ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر في الركعتين الأولين بفاتحة الكتاب وسورتين [البخاري: ٧٥٩. مسلم: ٤٥١]. وانفرد مسلم بذكر قراءته ﷺ في الركعتين الأخريين بفاتحة الكتاب.

٢ - الراجح أن المأموم لا يقرأ الفاتحة في الصلاة الجهرية، فقد أمر سبحانه بالإنصات والاستماع في قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف:٢٠٤].

ويدلُّ له قوله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا» [عزاه الألباني لأبي داود ومسلم وأبي عوانة والروياني، صفة الصلاة: ص٨٠] ويدلُّ له قوله ﷺ: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة» [سنن ابن ماجه: ٨٥٠. وحسن الألباني إسناده]. وروى مالك في موطئه عن ابن عمر أنه قال: «إذا صلى أحدكم خلف الإمام فحسبه قراءة الإمام، وإذا صلى وحده فليقرأ» [الموطأ: ص ٧٥].

وروى الترمذي عن جابر موقوفاً عليه: «من صلى ركعة لم يقرأ فيها بأم القرآن فلم يصل إلا وراء إمام» [الترمذي: ٣١٣. وقال فيه: حسن صحيح].

وروى ابن ماجه بإسناد صحيح عن جابر بن عبدالله قال: «كنا نقرأ في الظهر والعصر خلف الإمام في الركعتين الأولين بفاتحة الكتاب وسورة، وفي الأخريين بفاتحة الكتاب» [صحيح ابن ماجه: ٨٤٣].

ومن المعلوم أن المأمومين إذا قرؤوا خلف إمامهم فيما جهر به شوَّش بعضهم على بعض، وقد نهى الرسول ﷺ المصلين أن يفعلوا ذلك [الموطأ: ١/ ٧٢].

جنـــــة الســــــنة

٣- إذا صلى المأموم خلف إمامه في الصلاة السرية، قرأ بالفاتحة سرّاً، كما دلت عليه الأحاديث السابقة، يقول الإمام مالك: «الأمر عندنا أن يقرأ الرجل وراء الإمام فيما لا يجهر فيه بالقراءة، ويترك القراءة فيما يجهر فيه الإمام بالقراءة» [الموطأ: ص٧٥]. وهذا يوافق النص القرآني الآمر بالاستماع حين القراءة، وهذا لا يكون إلا عندما يجهر الإمام بالقراءة.

٤- يستحب لمن أتم قراءة الفاتحة في الصلاة أو في غيرها أن يقول: آمين، ويتأكد الاستحباب إذا قرئت في الصلاة، لا فرق في ذلك بين الإمام والمأموم.

والدليل على استحباب التأمين للإمام والمأموم ما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أمَّن الإمام فأمنوا، فإنه من يوافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه». قال ابن شهاب: وكان رسول الله ﷺ يقول: «آمين» [البخاري: ٧٨٠. مسلم: ٤١٠].

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال أحدكم: آمين. وقالت الملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه» [البخاري: ٧٨١. مسلم: ٤١٠].

وقد أخبرنا الرسول ﷺ «أن اليهود ما حسدتنا على شيء ما حسدتنا على السلام والتأمين» [صحيح ابن ماجه: ٨٥٦].

جنة السنة

سورة البقرة

أولاً: تقديم

يتناول التقديم لهذه السورة التعريف بها، كما يتحدث عن الفضل الذي حازته.

١- التعريف بهذه السورة:

سورة البقرة أطول سور القرآن، «وهي مدنية، ولا نظير لها في عدد آيها، وكلمها ستة آلاف كلمة، ومائة وإحدى وعشرون كلمة، وحروفها خمسة وعشرون ألفاً وخمسمائة حرف، وهي مئتا آية وثمانون وخمس آيات في المدنِيَّيْنِ والمكي والشامي، وسِتٌّ في الكوفي، وسبع في البصري» [البيان في عدّ آي القرآن: ص١٤٠]. وابتدأ نزولها في السنة الأولى من الهجرة، وامتد نزولها إلى أن كان فيها آخر ما نزل، وهي آيات الربا، وآخرها ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١] وسميت هذه السورة باسم سورة البقرة، لأنَّ الحقَّ - تبارك وتعالى - ذكر فيها قصة بقرة بني إسرائيل وافية تامة، ولم تذكر هذه القصة في كتاب الله في غير هذا الموضع.

٢- فضائل سورة البقرة:

ورد عدد من الأحاديث تدلُّ على فضل هذه السورة العظيمة، منها:

أ- **البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان**: روى الترمذي في سننه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، وإن البيت الذي تُقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان» [الترمذي: ٢٨٧٧، وقال فيه: هذا حديث حسن صحيح].

وهو في صحيح مسلم عن أبي هريرة بلفظ: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة» [مسلم: ٧٨٠].

ب- **سورة البقرة سنام القرآن**: عن عبدالله بن مسعود قال: «إن لكل شيء سناماً، وسنام القرآن سورة البقرة، وإن الشيطان إذا سمع سورة البقرة تقرأ خرج من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة» [الحاكم: ٢٠٦٠ وقال: هذا حديث صحيح، وقد روي مرفوعاً بمثل هذا الإسناد، وصححه الألباني في سلسلته الصحيحة: ٥٨٨].

جنـــــــة الســــــــنة

ج- مجيء سورة البقرة يوم القيامة تُحاجُّ عمن كان يعمل بها: عن النواس بن سمعان الكلابي قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة **البقرة** وآل عمران» وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: «كأنهما غمامتان أو ظُلّتان سوداوان، بينهما شرق، أو كأنهما حِزْقان من طير صوافّ، تحاجّان عن صاحبهما» [مسلم: ٨٠٥] ومعنى تقدمه: تتقدمه. والشرق: الضياء، والحزقان مثنى حِزْق، والحزق: الجماعة من كل شيء.

وعن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرؤوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف، **تحاجّان** عن أصحابهما، اقرؤوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البَطَلَة» [مسلم: ٨٠٤]. والزهراوان: المنيران، والغياية: ما أظلك من فوقك، والفِرْق: القطعة من الشيء، والصواف: المصطفّة المتضامّة، ومعنى لا تستطيعها البطلة، أي: السحرة لا يمكنهم حفظها، وقيل: لا تستطيع النفوذ في قارئها. [ابن كثير: ١/ ١٤٤].

د- **فضل آيات من سورة البقرة**: وفي سورة **البقرة** آيات أخبر الرسول ﷺ أنهنّ أفضل ما نزل من آي القرآن، وهن آية الكرسي، والآيتان الأخيرتان من هذه السورة، وسيأتي ذكر فضل كل واحدة منهما عند تفسيرنا لهما، والله المستعان.

جنـــــة السـنة

النص القرآني الأول من سورة البقرة
الناس ثلاثة أقسام: المؤمنون والكفار والمنافقون

أولاً: تقديم

هذا القرآن منزلٌ من عند الله تبارك وتعالى، وهذا أمر مستيقن لا شكّ فيه، وقد بيّن الله أقسام الناس ومواقفهم تجاه هذا الكتاب العظيم، **فالفريق الأول**: هم الذين قبلوه واهتدوا به، **والفريق الثاني**: الذين ردُّوه وكفروا به، **والفريق الثالث**: الذين أظهروا الإيمان به، وأبطنوا الكفر به، وهم المنافقون.

روى ابن جرير [١/ ١٨٦] بإسناده إلى مجاهد، قال: «أربع آيات من سورة البقرة في نعت المؤمنين، وآيتان في نعت الكافرين، وثلاث عشرة في نعت المنافقين».

ثانياً: آيات هذا النص من سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الحروف المقطعة في أوائل السور:

ابتدأ الله - تبارك وتعالى - هذه السورة بقوله: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ [البقرة:١] وهذه الحروف الثلاثة هي من الحروف التي تسمى الحروف المقطعة، وعدد السور التي ابتدأ الله بها بهذه الحروف تسع وعشرون سورة، وقد يبدأ الله السورة بحرف واحد، أو اثنين، أو ثلاثة، أو أربعة، أو خمسة، كقوله: ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ [ص:١] وقوله: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾ [الجاثية:١-٢] وقوله: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ [البقرة:١] وقوله: ﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١-٢] وقوله: ﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾﴾ [مريم:١-٢] ﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾﴾

جنـــــة الســـــنة

[الشورى:١-٢] ومجموع الحروف المقطعة التي ابتدأ الله بها بعض سور القرآن بعد حذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً، يجمعها قولك: «نصٌّ حكيم قاطع له سر».

وقد اختلف العلماء في تحديد المعنى المراد بهذه الحروف في أول السور، وقد ذكر الطاهر ابن عاشور أن أقوال العلماء فيها بلغت تسعة وعشرين قولاً، وقد وحَّد الأقوال المتداخلة، وحذف الزائد، فبلغت واحداً وعشرين قولاً. [التحرير والتنوير: ١/ ٢٠٠].

والذي أرجحه أن هذه الأحرف من أحرف اللغة العربية، جاء الله بها في أوائل السور إرشاداً للعباد إلى أن هذا القرآن الذي أعجز الجنّ والإنس أن يأتوا بمثل سورة واحدة من سوره، حروف كلماته مكونة من حروف اللغة العربية، وكلماته وجمله وآياته مكونة من كلمات اللغة العربية، ويدلُّ على صحة هذا القول أمور:

الأول: أن الرسول ﷺ صرح بأن الحروف المفتتحة بها السور هي من الحروف العربية، فعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (الم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» [سنن الترمذي: ٢٩١٠، وقال فيه: حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وصحيح الترمذي: ٢٣٢٧].

الثاني: يذكر الله بعد الحروف المقطعة في أوائل السور غالباً الانتصار للقرآن، وأنَّه معجز ونحو ذلك، فبعد الحروف المقطعة في البقرة، قال: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [البقرة:٢].

الثالث: هذا القول جاء على لغة العرب، والأقوال الأخرى كثير منها لا تعرفه العرب في كلامها. وقد رجّح هذا القول ابن كثير، وعزاه إلى المبرد والفراء وقطرب والزمخشري وابن تيمية، وأبي الحجاج المزي [ابن كثير: ١/ ١٥٠].

واختار هذا القول الراغب الأصفهاني [مقدمة جامع التفاسير: ص١٤٢].

٢- لم أشار للقرآن بـ (ذلك) وهو اسم إشارة موضوع للبعيد؟

القرآن منزل من عند الله لا شك في ذلك ولا ريب ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [البقرة:٢] وقوله ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ اسم إشارة موضوع للبعيد، والمشار إليه هو ﴿ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ الذي هو القرآن روعي في تسميته كتاباً أنه مدون بالأقلام، كما روعي في تسميته قرآناً كونه متلواً بالألسن محفوظاً في الصدور.

جنــــــــة الســــــــنة

وأشار إليه باسم الإشارة الموضوع للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ دون الاسم الموضوع للقريب، وهو (هذا) مع أن هذا القرآن حاضر قريب مشاهد، لإظهار رفعة شأن هذا القرآن، لجعله بعيد المنزلة عاليها، وقد شاع في الكلام البليغ تمثيل الأمر الشريف بالشيء المرفوع في عزة المنال، لأن الشيء النفيس عزيز على أهله، فمن العادة أن يجعلوه في المرتفعات صوناً له عن الدروس. [التحرير والتنوير: ١/ ٢٢٠].

وقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:٢] أي: لا شك في إنزاله من عند الله، أي: على جهة الحقيقة، وإلا فالكافرون والمنافقون مرتابون فيه.

٣- أصناف الناس تجاه القرآن الكريم:

صنَّف الله - تبارك وتعالى - الناس تجاه القرآن إلى ثلاثة أصناف: المتقين، والكافرين، والمنافقين.

٤- الصنف الأول: المتقون:

الصنف الأول: هم المتقون الصالحون، الذين هداهم الله إليه وإلى دينه الحق الذي جاء به القرآن، وهداهم في الآخرة إلى جنته، ونكَّر ﴿هُدًى﴾ في قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ تعظيماً لشأن الهدى، فهو ضَرْبٌ من الهدى عظيم، لا يقدر قدره إلا من وهبهم إياه، والتنكير يأتي في لغة العرب لِضَرْبٍ من التعظيم والتفخيم، هذا مع قلة من يحصِّله ويناله.

يقول ابن بدران في ذلك: «الهدى من الله كثير، ولا يبصره إلا بصير، ولا يعلم به إلا يسير، ألا ترى أن نجوم السماء يبصرها البُصَراء، ولا يهتدي بها إلا العلماء» [جواهر الأفكار: ص٥٨]، والمتقون الذين هداهم القرآن هم الذين جعلوا بينهم وبين غضب الله وناره وعذابه وقاية وحاجزاً، وهذا الحاجز هو الإيمان والأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة، وقد صحّ في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا النار ولو بشقِّ تمرة» [البخاري: ١٤١٧، مسلم: ١٠١٦].

وأصل التقوى في لغة العرب: التوقِّي مما يكره، كالمحارب الذي يتقي بدَرَقَتِهِ في ميدان الحرب والطعان ضربات الخصم، وبعض المحاربين يتقون بأس أعدائهم باللجوء إلى الحصون، أو بإعداد القوى الحربية التي تردّ بأس الأعداء وتفتك بهم.

٥- صفات المتقين والسبب في ذكرها:

ولما كان بعض الضالين قد يدّعي أنه من المتقين كذباً وزوراً، فإنَّ الله جلّى صفات المتقين التي تظهر حقيقتهم، وترسم علاماتهم حتى لا يختلط غيرهم بهم، وفي ذلك يقول الحق تعالى

جنـــــة الســـــنة

فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾ [البقرة:٣-٤].

ومن تدبَّر هذه الآيات ظهر له أنها عرَّفت بالفئة المؤمنة وأبرزت خصائصها، فكل مؤمن لا يتصف بمجموع هذه الصفات فليس بمؤمن، ونقصان بعضها كافٍ للطرد من زمرة أهل الإيمان، فمن لم يؤمن بالغيب، أو لم يؤمن بما أنزل إلى محمد ﷺ، أو ما أنزل من قبله، أو لم يؤمن بيوم القيامة؛ فإنه ضال كافر ليس له في الإسلام نصيب، وهذه الصفات خمس هي:

الأولى: إيمانهم بالغيب: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة:٣] والغيب ما يغيب عن الحواس، والصادق منه ما أخبرنا الله عنه في كتابه، أو أخبرنا عنه رسولنا ﷺ في الأحاديث الصحيحة التي بلغتنا، وكل أركان الإيمان من الغيب، فالله غيب لا نراه بأعيننا في الدنيا، وكذلك ملائكته ورسله واليوم الآخر، ومن الغيب ما حدثنا الله به عن أخبار الماضين وأخبار الآتين، ومن الغيب القيامة والمحشر والجنة والنار.

التعريف بالإيمان:

والإيمان الذي مدح الله المتقين به هو في اللغة التصديق، وفي الشرع التصديق بالجنان، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان، فيدخل في الإيمان ما نطلق عليه اسم العقيدة، وأركانها، وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، وإذا زالت العقيدة زال الإيمان.

ولكن الاعتقاد وحده لا يكفي لتحقيق الإيمان، فلا بد للعبد المؤمن من أن يقرّ بلسانه، فيشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويعلن أنه رضي بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، ولا بد أن يصدِّق العملُ القول والاعتقاد، ويدخل في الإيمان كل ما أمر الله به من الطاعات، واجتناب ما نهى عنه من الذنوب والمعاصي.

الثانية: إقام الصلاة، والصلاة التي مدح الله المتقين بإقامتها في قوله: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في لغة العرب الدعاء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ [التوبة:١٠٣] فمعنى ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ﴾: ادع لهم، فإن دعاءَك سكن لهم.

والمراد بالصلاة في مصطلح الشرع: الأعمال المعروفة بهذا الاسم، المفتتحة بالتكبير، المختتمة بالتسليم، بما فيها من تكبير وقيام وقراءة قرآن وركوع وسجود وتشهد، ونحو ذلك.

جنـــــة الســـــــنة

وتتحقق إقامة الصلاة بالإتيان بها على الوجه الذي يريده الله، ومن ذلك المداومة عليها في أوقاتها ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ۝١٠٣﴾ [النساء:١٠٣] ومن ذلك تحقيق شروطها وأركانها وفروضها، وكلما أتم سننها كان أتم في إقامتها.

الثالثة: إنفاقهم مما رزقهم الله ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة:٣] والإنفاق في اللغة إخراج المرء ما يملكه إلى غيره، وفي الشرع بذل المال في المجالات التي أوجب الله علينا أو حبَّبَ إلينا بذله فيها، والنفقة أعم من الزكاة، فالزكاة مجال واحد من مجالات الإنفاق، ومن الإنفاق: الإنفاق على الزوجة والأولاد والوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى الفقراء واليتامى والمساكين وابن السبيل ونحوهم.

وقد رغَّب الله في الإنفاق بإعلام المنفقين أن المال الذي ينفقون منه هو مما رزقهم الله إياه، فقبيح بالعبد أن يبخل بمال الله في المجالات التي أمر الله في الإنفاق فيها، فيبوء بغضب الله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة:٢٥٤]. وقال: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [المنافقون:١٠].

الرابعة: وجوب الإيمان بكل ما أنزله الله على رسله وأنبيائه، كصحف إبراهيم، وتوراة موسى، وزبور داود، وإنجيل عيسى، وقرآن محمد ﷺ. والإيمان بكل ما أنزل الله شرط في صحة الإيمان؛ ولذلك أمر الله به هذه الأمة وفي طليعتهم الصحابة، قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء:١٣٦] وقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥].

وقد ذمّ الله بني إسرائيل الذين ادعوا أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم، ويكفرون بما وراءه، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة:٩١].

الخامسة: الإيمان باليوم الآخر، وقد بلغ إيمانهم به درجة اليقين، ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البقرة:٤]، وسميت الدار الثانية بالدار الآخرة، لأنه لا دار بعدها، أو لأنها تأتي بعد انقضاء هذه الدنيا الفانية القريبة.

والإيمان بالآخرة إيمان بالبعث والنشور، والحساب والجزاء، والجنة والنار وحديث ذلك في القرآن حديث طويل مسهب، فقد وصف الله القيامة وأهوالها، والنار وحرّها

جنـــــة الســـــنة

وسمومها، والجنة ونعيمها بما لا مزيد عليه، وقوله: ﴿يُوقِنُونَ﴾ «أي: يعلمون علماً متمكناً في نفوسهم، فاليقين أعلى درجات العلم، وهو الذي لا يمكن أن يدخله شك بوجه» [تفسير ابن عطية، ١/ ٤٩] واليقين في الإيمان هو الذي تحصل به الثقة، وتثلج به الصدور، وهو أبلغ ما يكتسبه الإنسان من العلم.

٦- هذا الفريق هو المهتدي الفائز:

بعد أن بيّن الله صفات المتقين حكم عليهم بأنهم على هدى من ربهم، وأنهم هم المفلحون، والمشار إليه بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ [البقرة:٥] هم المتقون المتصفون بالصفات التي وصفهم الله بها، والسبب في كون هؤلاء على هدى من الله، أنهم استمدّوا الهداية من كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ ، وابتعدوا عن كل ما يضادُّ ذلك من طرق ومناهج اخترعها شياطين الجن والإنس.

و﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ هم الفائزون السعداء، فازوا في الدنيا بالهداية الإلهية الربانية، فكانوا أسعد الناس بما عرفوه وعملوا به من عبادته وطاعته والأنس به، واطمئنان قلوبهم بذكره، وفازوا بالآخرة بالنعيم المقيم في جنات النعيم.

٧- الصنف الثاني: الكفرة المشركون:

حدثنا الله - عز وجل - فيما مضى عن المتقين الذين اهتدوا بالقرآن العظيم، وحدثنا عن صفاتهم وفوزهم، ثم أتبع ذلك بذكر الفريق المقابل لهم، وهم الذين كفروا بالقرآن ورفضوه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة:٦-٧].

وهذان الفريقان متقابلان متضادان، فأولئك أهل الإيمان، وهؤلاء أهل الكفر والطغيان، والأول حزب الرحمن، والآخر حزب الشيطان، وبين الفريقين عداء وخصام، لا ينتهي ولا يتوقف حتى يحكم به الملك الديّان في الموقف العظيم.

«والكفر في اللغة: ستر الشيء، ووُصف الليل بالكافر لستره الأشخاص، والزَّرّاع لستره البذر في الأرض، وليس ذلك باسم لهما» [المفردات: ص١٣٣] والكفر في الاصطلاح جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة، والكفر مضادٌّ للإيمان في المصطلح الشرعي، فكل من كفر بالله أو ملائكته أو كتبه أو رسله أو اليوم الآخر، أو أنكر ما فرضه الله أو حرمه فهو كافر، كالذي ينكر وجوب الصلاة أو الزكاة أو الحج أو ينكر حرمة الخمر والميسر والخنزير ونحو ذلك.

جنـــــة السـنـــــة

عدم تأثير الإنذار في الكفار:

وقد أخبرنا الحقُّ - تبارك وتعالى - أن إنذار القرآن وتخويفه لا يؤثر في هؤلاء كما يؤثر في أهل الإيمان ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾ [فصلت:٤٤] ولذلك أيأس الله رسوله ﷺ من هدايتهم إلى الحق ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [البقرة:٦] والمعنى أن إنذارك لهم، وعدم إنذارك سواء، ولذلك فإنهم لا يؤمنون.

السبب في حكم الله على هؤلاء بالكفر الملازم الدائم:

بيّن الله السبب الذي من أجله حكم على هؤلاء بالكفر الملازم الدائم، فقال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة:٧]، والختم يكون على القلوب والأسماع، والغشاوة تكون على الأبصار، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية:٢٣] والغشاوة هي الغطاء على العيون، وقد يُطلِق عليه القرآن اسم الطبع الذي هو بمعنى الختم أيضاً، كما في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ﴾ [النحل:١٠٨] وقد تعارف الناس منذ القِدَم على الطبع بالخاتم ذي النقوش على المواضع التي يريدون الاستيثاقَ على ما فيها، حتى يتأكدوا أنه لم يخرج منها شيء، ولم يدخل فيها شيء، ومن أمثلة ذلك الخزائن التي تحفظ فيها الأموال، فإنه توضع عليها الأختام بعد قفلها، وكذلك الظروف التي توضع فيها الرسائل، تختم حتى يتأكد المرسل إليه أنها لم تفتح، ولم يتلاعب أحد بمحتوياتها.

وقد أخبر الحق - تبارك وتعالى - أنه ختم على قلوب هؤلاء الكفار، فهم لا يفقهون، كما ختم على أسماعهم فهم لا يسمعون الحق، وجعل على أبصارهم غطاء فهم لا يبصرون.

الختم والغشاوة هنا حقيقيان:

والختم والغشاوة المذكوران في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ﴾ [البقرة:٧] حقيقيان، فالله أضافهما إلى نفسه، والله على كل شيء قدير، ولا يليق بالعاقل أن يثبت الله لنفسه شيئاً، ثم ينفيه عنه، ولكننا لا ندري كيفية هذا الختم ولا حقيقته، وإن كنا ندرك معنى ذلك، ونتبين آثاره.

وقد أخبرنا ربنا - عزَّ وجلَّ - أن القلوب تعمى ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٦]. فالختم على القلوب يصيبها بالعمه، والختم على الأسماع يمنعها من الاستجابة لداعي الهدى، والغشاوة على الأبصار غطاء على العيون يمنعها من إبصار الهدى.

جنـــــة السـنـــــة

الحكم على هذا الفريق وهم الكفار:

أخبرنا العزيز العليم سبحانه أن هذا الفريق لهم عذاب عظيم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة:٧] فقد يوقع الله بهم عذابه في الدنيا، وقد يسلط عليهم أولياءه فيذلونهم، ويشمل العذاب الأليم العذابَ في القبر، والأهوال التي تصيبهم يوم القيامة، ثم السَّوْقَ إلى النار وغضب الجبار.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أشار العليُّ الحكيم بقوله: ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [البقرة:١] إلى أن كلمات القرآن مكونة من الحروف العربية، وآياته مكونة من كلمات العرب، ومع أن العرب كلهم ينطقون بها، إلا أن الله عندما تكلم بها جاء بكتاب لا يستطيع الإنس والجن الإتيان بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

٢- جاء الله سبحانه باسم الإشارة (ذلك) الموضوع في لغة العرب للبعيد، ليدلّ على أن القرآن الكريم في غاية الكمال والرفعة، كأنه لرفعته الكتاب الذي لا كتاب غيره.

٣- قرر الحقُّ أن هذا القرآن ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:٢] أي: لا شك فيه، أما الريب الذي أورده الكفرة والمنافقون فهو في نفوسهم، لا في القرآن الكريم.

٤- المرتابون في القرآن لا يجدون برد اليقين، ولا يقرّ لهم قرار، ولا يهدأ لهم بال، وقد ذمّهم الله بقوله: ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ۝٤٥﴾ [التوبة:٤٥] وفي يوم القيامة يوبخون ويؤنّبون ويُقرّعون، حيث يقال لهم: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ﴾ [الحديد:١٤].

٥- القرآن الكريم كالتوراة والإنجيل وكل ما نزل من عند الله ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة:٢] وقال تعالى في التوراة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة:٤٤] وقال في الإنجيل: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة:٤٦] ومع أن الكتبَ السماوية كُلَّها كتبُ هداية، فإن القرآن حاز الدرجة العليا في هذا الباب، وقد حُرِّفت الكتب السماوية السابقة أو فُقِدت، فأصبح القرآن كتاب الهداية الوحيد الباقي الصافي الخالص.

٦- حدَّد هذا النصُّ والنصُّ التالي له مواقف الناس تجاه القرآن الكريم، وهم ثلاثة أصناف: الأتقياء المؤمنون الذين قبلوا به، وأخذوه وعملوا به، والكفرة المجرمون الذين رفضوه ونبذوه، والمنافقون الذين أظهروا الإيمان، وأبطنوا الكفر به.

جنـــــة السـنـة

٧- أشار الحقُّ تبارك وتعالى إلى الصنف الثاني من أصناف البشر في موقفهم من القرآن بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦﴾ [البقرة:٦] وهؤلاء هم الكفرة بكتاب الله، ومهما بُذل في سبيل إنذارهم لا يؤمنون كفرعون وهامان وقارون وأبي جهل وأبي لهب، ولكننا لا نعلم من أعيانهم إلا ما أخبرنا الله به عنهم، ولذلك فإن الواجب علينا أن ندعو الكافرين إلى الإسلام، فمن كتب الله له الهداية آمن، ومن كتب عليه الكفر فإنه لا يؤمن أبداً.

٨- على الدعاة إلى الله أن لا يألموا كثيراً إذا رفض بعض الناس دعوتهم، وقد وقع مثل هذا لرسولنا ﷺ عندما رفض كثير من الكفار ما جاءهم به، فكاد أن يهلك نفسه توجعاً على عدم إيمانهم بما جاءهم به ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف:٦].

٩- يختم الله على قلوب وأسماع الذين كتب عليهم الكفر، ويجعل على أبصارهم غطاء ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ [البقرة:٧] ومع إيماننا بما أخبرنا الله به من وضعه الختم على القلوب والأسماع، والغشاوة على الأبصار، فإننا لا ندري كيف هي، وكيف يفعلها الله بهم.

١٠- النوع الأول من الناس الأتقياء هم الفائزون، وأعظم فوزهم حُلولهم في جنات النعيم، أما الفريق الثاني فـ ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾ [البقرة:٧] وهذا يشمل عذابهم في الدنيا، والبرزخ، والموقف في القيامة، وأخيراً سوقهم إلى النار، وقذفهم فيها.

جنـــــة السـنة

النص القرآني الثاني من سورة البقرة
موقف المنافقين من القرآن

أولاً: تقديم

هذا النص الكريم يتحدث عن موقف الفريق الثالث من البشر تجاه القرآن الكريم، وهو فريق مختلف عن الفريقين السابقين، فالأول مؤمن واضح في إيمانه، والثاني كافر واضح في كفره، أما هذا الفريق فهو فريق مراوغ مخادع يدعي الإيمان، ويبطن الكفر، ويدعي الإصلاح وهو مفسد، ويرمي الصحابة الكرام بالسفه، وهو السفيه، وقد أطال القرآن في رسم معالمه، لأنه متلون ملتوٍ مخادع.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا
يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟
يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ
ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ
إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟
إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟
ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- موقف الفريق الثالث من القرآن:

الفريق الثالث الذي يتحدث عنه هذا النص هم المنافقون، وهم الذين يدّعون الإيمان بألسنتهم، وقد يُصلُّون، ويصومون، ويقرؤون القرآن، ولكنَّهم كاذبون في دعواهم، فهم يبطنون الكفر في قلوبهم، كما قال تعالى فيهم: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح:١١] وقال: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة:٨].

وهؤلاء هم المنافقون نفاقاً أكبر، وهو الذي يسميه العلماء بالنفاق الاعتقادي، وأصحابه في الدرك الأسفل من النار إن هم ماتوا عليه، ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء:١٤٥].

جنـــــــة السـنـــــــة

٢- **بداية ظهور النفاق في المجتمع الإسلامي الأول:**

لم يكن لهذا الصنف وجود في مكة قبل الهجرة، لأن الكفر كان هو الظاهر آن ذاك، والمؤمنون مستضعفون، بعضهم كان يخفي إيمانه، مخافة أذى الكفار، وبقي الحال كذلك إلى أن هاجر الرسول ﷺ، ووقعت غزوة بدر الكبرى، وأصبح المؤمنون قوة تُخاف وتُرهَب، عند ذلك أظهر الإيمانَ طوائفُ من الأوس والخزرج والأعراب حول المدينة وبعضُ اليهود وأبطنوا الكفر، كما قال تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾ [التوبة:١٠١]. فعلوا ذلك خوفاً من بطش المسلمين، وأخذوا يبثون الفتنة بين المسلمين، ويكيدون للإسلام وأهله سرّاً، بعد أن كانوا يعلنون ذلك ويظهرونه، وكان هؤلاء عيوناً لخصوم الإسلام، يفشون إليهم أسرار المسلمين، ويكشفون لهم عوراتهم، ويدلّونهم على نقاط الضعف فيهم.

٣- **التعريف بالمنافقين:**

وقد حدَّثنا الله في مواضع من كتابه عن هذا الفريق الذي تلبس بلبوس الإسلام، وأبطن الشرك والكفر، وهتك أسرارهم، وكشف أحوالهم، وضرب لهم الأمثال، وهذا الصنف من الناس، صنف متعالم مغرور، يظنُّ في نفسه الفطنة والذكاء، مُدَّعياً أنه صاحب المنهج القويم، والصراط المستقيم، وهو في الحقيقة أخسُّ الناس، وأضلُّ الناس، وأسفه الناس، وأفسد الناس.

ولما كان هذا الفريق متلوناً تلون الحرباء، ملتوياً التواء الأفعوان، فقد أطال الله الحديث عنهم، وحدَّدت الآيات صفاتهم، وضربت لهم الأمثال، حتى لا ينخدع بهم المؤمنون، ولا يغترَّ بهم المتقون.

٤- **صفات المنافقين التي حدّدها هذا النص:**

أ- **ادعاؤهم الإيمان وهم كاذبون:** أول صفاتهم التي حددها النصُّ القرآني أنهم يدَّعون الإيمان، وهم كاذبون فيما ادعوه، قال تعالى في وصفهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة:٨] وقال: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون:١].

ب- **محاولة المنافقين خداع الله والذين آمنوا:** أعلمنا الله - تبارك وتعالى - أن المنافقين يقصدون خداع الله والذين آمنوا، والله لا يخفَى عليه مقاصدهم، وهو يُعلِمُ المؤمنين بمقاصد المنافقين وأحوالهم ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة:٩].

جنـــــة الســـــنة

والمخادع هو الذي يحاول تضليل خصمه، وإبعاده عن الوصول إلى مبتغاه، بإخفاء الحقيقة التي يبطنها، وهم بذلك كفُّوا المؤمنين عن مجاهدتهم، وأحرزوا أموالهم وأنفسهم، واستمتعوا بالسكنى في المجتمع الإسلامي، والتواصل مع المسلمين.

وخداع هؤلاء خداع ساذج مكشوف، فهم يخادعون الله والذين آمنوا، والله لا يخفى عليه من خداعهم شيء، فهو العليم الذي لا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وعلمه محيط بهم، بل هو أعلم بهم من أنفسهم، وعلمه ليس قصراً على ظاهرهم، بل يتغلغل في أعماق نفوسهم، ويصل إلى خطرات قلوبهم، وهم مكشوفون له سبحانه في ليلهم ونهارهم، في سرهم وعلانيتهم، والمؤمنون لا ينخدعون بباطل هؤلاء، فقد نبأنا الله عن أخبارهم، وكشف لنا أسرارهم، ودلنا على طرائق تفكيرهم، ووصفهم لنا وصفاً إذا علمناه أظهر لنا حقيقتهم، وأزال خداعهم.

ج- **خداع الله للمنافقين وهم لا يشعرون**: ولما كان الأمر كذلك فإن خداعهم ينقلب عليهم، فيصبح هؤلاء الخادعون مخدوعين، وبينما هم يظنون أنهم فائزون، إذا بهم يكتشفون أنهم خاسرون ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [البقرة:٩]. وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢].

ومن أعظم أنواع الخداع هذا النوع من الخداع، لأن وبال خداعهم عائد عليهم، لقد ضيعوا حياتهم الدنيا يحاربون الله ورسوله والذين آمنوا، فما نالهم إلا الخزي والعار وغضب الجبار، والله عالم بخداعهم وأعلم المؤمنين بذلك.

د- **محاولتهم خداع الله في يوم القيامة**: والمنافقون يحاولون في يوم القيامة خداع الله، ويظنون أن حلفهم له ينجيهم كما كان ينجيهم في الدنيا، وسرعان ما يكتشفون أنهم كاذبون، وأن الله لا يخفى عليه شيء من كذبهم ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المجادلة:١٨].

هـ- **من خداع الله للمنافقين في يوم الدين إطفاء أنوارهم وعزلهم عن المؤمنين**: يحشر الله المنافقين في زمرة المؤمنين في يوم الدين، وعندما يحاسب الناس، ويُعطي المؤمنين نورهم الذي يسيرون به إلى جنات النعيم، كما كانوا يسيرون في الدنيا بنور القرآن، تطفأ أنوار المنافقين، فيقومون لا يستطيعون المسير مع المؤمنين، جزاء عماهم في الدنيا عن أنوار القرآن، عند ذلك يمكر الله بهم، ويفعل بهم كما كانوا يفعلون في الدنيا، ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ

جنـــــة السـنـــــــة

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ [الحديد:١٢-١٤].

وهذا الذي ذكرته الآيات لون من ألوان الخداع، إذ يقال لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً، فيأخذون بالرجوع إلى الخلف، بينما المؤمنون يتقدمون إلى الأمام، فعندما يمتاز الفريقان، وينفصل أحدهما عن الآخر، يضرب بينهما بسور له باب، باطنه من جهة المؤمنين الرحمة، وظاهره حيث يكون المنافقون العذاب.

وعندما ينادي المنافقون المؤمنين قائلين: ألم نكن في الدنيا معكم؟ يردُّون عليهم أنهم كانوا معهم بأجسادهم، ولم تستقم قلوبهم على منهج الله الحق، عند ذلك ينكشف لهم أنهم خدعوا أنفسهم، وكان نتيجة الخداع هو النار وغضب الجبار، ويعلمون أن الله لا يُخدع، وأن المؤمنين لم يضرهم الخداع.

و- **قلوب المنافقين مريضة**: كشف الله ربنا لنا عن باطن هؤلاء في قوله: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠] وعرَّفنا بهذا المرض في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ﴾ [الحديد:١٤] فالمرض هو مرض الشك والارتياب والشبهات التي تفعل بالقلوب فعل الجراثيم والمكروبات بالأجساد، والمراد بمرض قلوبهم - كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى - خروج القلب عن الصحة والاعتدال في أمر الدين، فإن صحته أن يكون عارفاً بالحق محبّاً له، مؤثراً له على غيره، فمرضه إما بالشك فيه، وإما بإيثار غيره عليه، فمرض المنافقين مرض شك وريب، ومرض العصاة مرض غي وشهوة، وقد سمَّى الله - سبحانه - كلاً منهما مرضاً، كقوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢] [بدائع التفسير: ١/ ٢٦٦].

وقوله: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠] إخبار من الحق - تبارك وتعالى - عنهم، أنهم لما أبطنوا الكفر والنفاق الذي أمرض قلوبهم، زادهم الله مرضاً، كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة:١٢٥] وهذه سنة من سنن الله في خلقه، فمن ارتضى الباطل، وعمي عن الحق، فإنَّ الأمر يتمادى به، ويتعمق الباطل لديه، حتى يصبح فيه رأساً، إلا أن يتداركه الله برحمته ولطفه.

ز- **إذا دعوا إلى عدم الإفساد في الأرض قالوا: إنما نحن مصلحون**: يخبر الحقُّ - تبارك وتعالى - عن هؤلاء المنافقين بأنهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة:١١-١٢].

جنـــــة الســـــنة

والفساد الذي ينهى أهلُ الحقِّ عنه هؤلاء نقيض الصلاح، والمراد به - كما يقول ابن كثير رحمه الله - إخراج الشيء عن حال استقامته، وكونه منتفعاً به. [ابن كثير: ١/ ١٩٨]. وقد حدَّد الحقُّ تبارك وتعالى سبيل الصلاح، وحذّر من الخروج عن هذا السبيل، فإنه فساد، وطرائق الفساد التي تحدث عنها القرآن كثيرة منها: اتخاذهم مع الله آلهة أخرى، وقد أخبر تبارك وتعالى أنه لو كان في السماء والأرض آلهة من دون الله لفسدتا ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء:٢٢].

ومن الإفساد في الأرض القتل وسفك الدماء بغير حقٍّ، قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ [البقرة:٣٠]، وفرعون كان من المفسدين، ومن إفساده أنه كان يذبح أبناء بني إسرائيل، ويستحيي نساءهم، ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [القصص:٤].

واتباع أهواء البشر التي يجعلونها مناهج ومبادئ ونظماً تفسد السموات والأرض بقدر ما فيها من ضلال ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [المؤمنون:٧١]. وقطع الأشجار والنباتات لغير هدف، وقتل الحيوانات والقضاء على نسلها من الإفساد في الأرض ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٠٥] والحرث: الزرع، والنسل: ذرية الإنسان والحيوان.

وبالجملة فكلُّ ما يخالف الحق الذي جاءنا من عند الله من الشرك والكفر وعبادة غير الله، وترك ما فرضه الله، وارتكاب محارم الله، كله من الفساد في الأرض، وقد ظهر الفساد في الأرض ظهوراً لا مزيد عليه في هذه الأيام ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ ﴾ [الروم:٤١].

ويدّعي هؤلاء المنافقون عندما يطالبهم أهل الحق بترك الإفساد في الأرض أنهم مصلحون، وهي دعوى كاذبة، يدّعيها كثير من الزعماء والرؤساء والضالين من العلماء، والحقيقة أنها كما قال الله فيهم: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البقرة:١٢].

والسبب في عدم شعورهم بفسادهم أن كلَّ من كان على دين يظن نفسه على الصلاح وغيره على الفساد ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ [الأنعام:١٠٨].

ح- **المنافقون مغرورون بأنفسهم عندما يصفون الأخيار بالسفه:** هؤلاء المنافقون مغرورون حيث يزعمون زوراً وكذباً أنهم أعلم وأفضل من الرسول ﷺ وأصحابه والأخيار من هذه الأمة، فعندما يُدْعَون إلى اتباع الرسول ﷺ وأصحابه في إيمانهم وأعمالهم، يستنكرون

جنـــــة الســـــنة

هذه الدعوة قائلين أنؤمن كما آمن السفهاء، فيأتيهم الجواب سريعاً من الحقِّ تبارك وتعالى واصماً إياهم بالسفه، كأنَّهم وحدهم السفهاء دون غيرهم، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [البقرة:١٣]. والمراد بـ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ الرسول ﷺ وأصحابه.

والسفه خِفَّةٌ في العقل، وضلال في الرأي، وهذه الخفة وذلك الضلال تجعل أصحابها يتصرفون تصرفات حمقاء رعناء تؤدي بهم إلى الهلاك والبوار، وهل هناك أسفه ممن يردُّ على الله أمره، ويكذِّب قوله، ويصف الرسول ﷺ وصحبه بالضلال والسفه.

ط- لون من ألوان خداع المنافقين: يتجلى نفاق هؤلاء فيما حدثنا الله به عنهم أنَّهم ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [البقرة:١٤].

إنهم مذبذبون بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر، ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ ﴾ [النساء:١٤٣] وهذا نوع من العذاب المعجَّل في الدنيا لهؤلاء، فإنَّ هذا التلون والتغير والتناقض بين الظاهر والباطن يُعذِّب أصحابه، ويُضْنيهم، ويُذهِب منهم الطمأنينة وراحة النفس.

والمراد بشياطينهم الذين يكشفون لهم خبيئاتهم الكافرة الفاجرة هم رؤساؤهم من المنافقين واليهود والمشركين، الذين اتخذوهم مرجعاً يخططون لهم، ويقودونهم في مواجهة المسلمين والمكر بهم وتفريق صفوفهم، وإيقاع الفتنة بينهم.

وسماهم الله بالشياطين لما يتصفون به من المكر والدهاء، وقد استعملوا دهاءَهم وذكاءَهم في محاربة الله ورسوله ودين الإسلام، كفعل الشياطين، والعرب تطلق الشياطين على كل عاتٍ متمرد من الإنس والجن، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ ﴾ [الأنعام:١١٢].

وقد عدَّ المنافقون هذا التلون والتذبذب منهم فطنة وذكاء عندما أعلموا شياطينهم أنّ إظهارهم الإيمان للمؤمنين حين لقائهم بهم إنما هو سخرية منهم بهم، فهؤلاء المؤمنون - في نظر المنافقين - سُذَّجٌ بسطاء، ليس لديهم ما يكشفون به أغوار النفوس، وتحايل الدهاة، وبذلك يسهل خداعهم، وتخفى عليهم نيات خصومهم وأهدافهم ومقاصدهم، ويبقون يعملون في داخل مجتمعهم وهم عنهم غافلون.

جنـــــة السـ‍ــــــنة

ولكن الحقيقة التي قررها ربُّ العزة غير ذلك، ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة:١٥]. فالحقيقة أنهم هم الأغبياء، وأنهم هم المستهزأ بهم، لا من قِبَل العباد فحسب، بل من قِبَل ربِّ العباد، فهو يسخر بهم في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإنهم يقضون أعمارهم يسبحون في الضلال، والكيد للإسلام وأهله في الخفاء، فيفقدون خصائص الإنسانية السوية، كما يفقدون خصائص الإيمان، وعندما يأتيهم الموت، ويُكشَفُ عنهم الغطاء، يعلمون أنهم ضيعوا مسيرة الحياة فيما يعود عليهم بالحسرة والندامة والخسران، نعوذ بالله من الخذلان.

٥- حكم الله على المنافقين:

حكم الله على الفريق الأول بأنهم على هدى من ربهم، وأنهم هم المفلحون، وحكم على الفريق الثاني بأنهم لا يؤمنون، ويأتي حكم الله على هذا الفريق حكماً جلياً واضحاً في قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة:١٦]

والمشار إليه بقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ هم المنافقون الذين وصفهم الحقُّ - تبارك وتعالى - أتمَّ وصف، كما بيّن مقاصدهم وأهدافهم الخبيثة، وبيّن غرورهم وجهلهم وتعاليهم، وقد أخبر عنهم أنهم اشتروا الضلالة بالهدى، والمشتري هو دافع الثمن وآخذ السلعة، وهذا الصنف ترك الهدى وأخذ الضلالة، «والعرب تقول لكل من ترك شيئاً وتمسك بغيره قد اشتراه» [لسان العرب: ٢/٣٠٨]، وهؤلاء تركوا الإيمان والهدى، وأخذوا الكفر والضلال والباطل، كما قال تعالى فيهم في موضع آخر: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [البقرة:١٧٥] وهم الذين ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [البقرة:٨٦] وهم أيضاً ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [آل عمران:١٧٧].

ويأتي في مقابل هؤلاء المؤمنون الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٠٧]. وقال فيهم: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة:١١١].

وإنما عبّر بقوله: ﴿ٱشْتَرَوُا۟﴾ بدل (استبدلوا)، وسمّى فعلهم تجارة، لأن هؤلاء المنافقين يحرصون على إعلاء الباطل الذي يخفونه، وإزهاق الدين الذي يكرهونه، كما يحرص التجار على ربح تجارتهم، فهم يسعون في ذلك سعي المجد، كما يسعى التاجر إلى تحقيق مبتغاه،

جنـــــة الســـــنة

بمعاناة الأسفار، وقطع الفيافي والقفار، والبكور إلى العمل في الصباح، وسهر الليالي في التخطيط والتدبير.

وكذلك أهل الباطل من الكفرة والملحدين يبذلون أموالهم وأنفسهم في سبيل نصرة مبادئهم، ويبذلون أقصى جهدهم في التخطيط والتدبير، والمكر والاحتيال، وإذا أنت تأملت فيما كان عليه الكفار في القديم والحديث وجدت صدق ما نقول، وانظر إلى الحروب التي أثارتها النصرانية المحرفة، وما بذله المجوس عبّاد النيران، والمشركون عبَّاد الأوثان، تجدهم فعلاً اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة، فهم يتصارعون فيما بينهم، كما يصارعون الحق وأهله، ولكن جهودهم هذه جهود ضالّة خاسرة، ولذلك حقَّ قول الله فيهم ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة:١٦].

رابعاً: ما تهدي إليه هذه الآيات من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - أطال القرآن في وصف الفريق الثالث في هذا النص، وهم المنافقون، أكثر مما تحدث به عن الفريق الأول أو الثاني، لأنه فريق متلون متذبذب، فيه كثير من الانحراف والالتواء، فيحتاج إلى مزيد وصف لتحديد معالمه.

٢- هذا الفريق موجود في كل عصر وزمان، ولا يزال هذا الفريق يُرَى في مجتمعات المسلمين اليوم، ومن يُحسن النظر في ما حدَّث الله به عن المنافقين، فإنَّه يرى نماذجهم مبثوثة هنا وهناك.

٣- هذا الفريق يبطن الكفر، ويُظهر الإسلام، ويدَّعي الفطنة والذكاء، وهم متعالمون، ويظنون أن بإمكانهم خديعة الله والمؤمنين، والحقيقة أنهم لا يخدعون إلا أنفسهم، وما يشعرون.

٤ - هذا الفريق قلوبهم عليلة، ونفوسهم سقيمة، وكلما امتدَّت بهم الحياة ازدادوا مرضاً وسقماً، وجزاء هؤلاء وأضرابهم أن يحلَّ بهم العذاب الأليم.

٥ - يدَّعي هؤلاء الصلاح عندما يُدْعَوْنَ إلى عدم الإفساد في الأرض، وقد حكم الله عليهم أنهم هم المفسدون، ولكن لا يشعرون.

٦- عندما يُطالَب المنافقون بأن يؤمنوا كما آمن الرسول وأصحابه والأخيار من هذه الأمة ينتفخون عجباً، ويستنكرون أن يُدْعَوا إلى الإيمان بمثل إيمان هؤلاء السفهاء، وقد حكم الله عليهم بأنهم هم السفهاء، ولكن لا يعلمون.

جنـــــــة الســـــــنة

٧- ضرب الله مثلاً لهؤلاء في خداعهم ونفاقهم وتلوّنهم، فعندما يلتقون بالمؤمنين يزعمون أنهم مؤمنون، وعندما يلتقون بدهاتهم وزعمائهم من شياطين الإنس يزعمون أنّهم كانوا يسخرون بالذين آمنوا عندما يخبرونهم بأنّهم آمنوا بدينهم.

٨- هذا الفريق فريق ضالٌّ منحرف، وقد صَدَقَ قولُ الله فيهم أنهم اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين.

٩- لقد كان الرسول ﷺ يرى المنافقين يعيشون وسط أصحابه، فصبر عليهم، وأغلظ لهم القول، وكشف سترهم، ولكنه لم يحاربهم، ولم يقاتلهم، وكفّ عن سفك دمائهم، وبيّن الرسول ﷺ الحكمة من وراء موقفه منهم، فقال: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» [رواه أحمد: ١٥٢٢٣ عن جابر]، ومصير المنافقين يوم القيامة النار، وغضب الجبار.

جنـــــة الســــــنة

النص القرآني الثالث من سورة البقرة
مثلان مضروبان للمنافقين

أولاً: تقديم

حدثنا ربنا - تبارك وتعالى - في النصين السابقين عن أقسام الناس ومواقفهم تجاه القرآن الكريم، وقد أطال في النص السابق الحديث عن صفات المنافقين، وضرب في هذا النص مثلين لمزيد من التعريف بهم، أحدهما ناري، والثاني مائي.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - التعريف بالأمثال وبيان فوائدها:

ضرب الله في هذا النص مثلين للمنافقين، لمزيد من التعريف بهم «والمِثْل والمَثَل والمثيل: كالشِّبه والشَّبَه والشبيه لفظاً ومعنى، والجمع أمثال، والمثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر، بينهما وجه شبه، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر:٢١]. وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت:٤٣]» [بصائر ذوي التمييز: ٤/ ٤٨١، ٤٨٢].

وأمثال القرآن كثيرة، منها ما صرَّحَ الحقُّ - تبارك وتعالى - فيها بأنها أمثال مضروبة، كالمثلين اللذين نتحدث عنهما في هذه السورة، وهذه الأمثال المصرح بها تزيد على الأربعين، ومنها أمثال قرآنية مضروبة من غير تصريح بأنها أمثال، وهي كثيرة في القرآن.

«وضَرْبُ الأمثال في الكلام نوع عالٍ من أنواع البلاغة، وكلَّما كان المثل مطابقاً لمقتضى الحال، ارتقى الكلام رتبةً في درجات البلاغة، لأنَّ الأمثال تؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، لما فيها من تشبيهه الخفيِّ بالجليِّ، والغائب بالشاهد» [جواهر الأفكار: ص٨٢].

جنـــــة الســـــنة

٢- المثل الناري:

وضرب الله للمنافقين في هذا النص مثلين: أحدهما ناري، والثاني مائي، والمثل الناري الذي ضربه الله للمنافقين هو في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة:١٧-١٨]، «مثَّل تعالى حالة المنافقين في تحيّرهم وتلاعبهم، وما هم عليه من الأحوال العجيبة الشأن بحالة الذي استوقد ناراً، ولما كانوا بأجمعهم متفقين على حالة واحدة، ومسلك واحد من النفاق، وسالكين قانوناً واحداً لا يتجاوزونه، عُدَّ فعلهم كأنَّه فعل رجل واحد منهم، فمثَّل بحالة شخص استوقد ناراً، وهو نوع من البلاغة يعدُّ في طبقة الإعجاز» [جواهر الأفكار: ص٨٢].

وتقرير هذا المثل - كما يقول ابن كثير -: «إن الله سبحانه شبَّههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى، بمن استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها، وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتأنَّس بها، فبينا هو كذلك إذ طُفِئت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع ذلك أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياء لما أبصر، فلهذا لا يرجع إلى ما كان قبل ذلك، كذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغيّ على الرشد. وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر عنهم تعالى في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ [المنافقون:٣]».

وقال ابن كثير معقباً: «وقد حكى هذا الذي قلناه فخر الدين الرازي في تفسيره عن السدّي، ثم قال: والتشبيه ههنا في غاية الصحة، لأنهم بإيمانهم اكتسبوا أولاً نوراً، ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك النور، فوقفوا في حيرة عظيمة، فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين» [ابن كثير بشيء من الزيادة: ١/ ١٧٤].

وبيّن تبارك وتعالى في موضع آخر أن معنى صممهم وبكمهم وعماهم هو عدم انتفاعهم بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف:٢٦].

٣- المثل المائي:

والمثل الثاني المضروب للمنافقين، هو المثال المائي، ضربه في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة:١٩-٢٠].

جنـــــــة الســــــنة

وهذا المثل مضروب للمنافقين الذين وصل إلى قلوبهم المملوءة بظلمات الشكوك والريب والضلال شيء من نور القرآن، فكانت تفزعهم قوارع القرآن، ووعده ووعيده، وتزلزل كيانهم، وقد شبَّه الله حال هؤلاء بحال قوم أصابهم في مسارهم صَيِّبٌ هاطل من السماء - والصَّيِّب: المطر - في ليلة ظلماء «أرخت سدولها، وتكاثفت ظلماتها، بما تراكم فيها من السحب، وصارت قطراتها منتسجة مع بعضها بعضاً، وتواترت فيها الرعود الهائلة، والبروق المخيفة، والصواعق المختلفة والمهلكة» [جواهر القرآن: ص٨٧].

وقد شبّه الحقُّ - تبارك وتعالى - في هذا المثل الدين الحق المنزل من عنده بالمطر الهاطل من السماء، والشبهات التي في قلوب المنافقين بالظلمات، والوعد والوعيد الذي يقرع أسماعهم، بالرعد القاصف، ونور القرآن بالبرق الذي وصفه في آية أخرى بقوله: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور:٤٣].

ولشدة الرعد الذي تحول إلى صواعق تكاد تزهق أرواحهم أدخلوا أصابعهم في آذانهم حتى لا تخرق منهم طبلة الآذان، وعندما يلمع البرق يسيرون خطوات كحال المنافقين عندما يصل إلى قلوبهم بصيص من نور، فإذا انقطع ذلك النور عادوا إلى الشكوك والريب والضلال، ولو شاء الله لذهب بأسماعهم وأبصارهم، فأصبح حالهم كالجماد، والله على كلِّ شيء قدير.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- ضرب الله في هذا الموضع مثلين للمنافقين، وفي القرآن أمثلة كثيرة أخرى، يضربها ربنا لنا، وما يعقلها وينتفع بها إلا العالمون.

٢- الأمثال توضح المعنى المراد وتُجلِّيه، وتظهره وتعليه، ولكن هذا الإيضاح وتلك التجلية تحتاج إلى عقول تدرك النص وتعقله.

٣- ضرب الله مثلاً للمنافقين برجل أوقد ناراً في ظلمة الليل، وفجأة انطفأت النار، فعمَّ الظلام، فزال انتفاع الإنسان بناظريه، وهؤلاء المنافقون آمنوا فأبصروا، ثم كفروا فزال النور ووقعوا في الظلمات.

٤- شبَّه الله المنافقين في المثل الثاني بقوم سائرين أمطرتهم السماء مطراً فيه رعد وبرق شديدان، ولشدة الرعد يجعلون أصابعهم في آذانهم، ولشدة البرق يكاد يخطف أبصارهم؛ وهؤلاء المنافقون المضروب لهم المثل قد يتسلل شيء من نور القرآن إلى قلوبهم، فيهتدون به لفترة وجيزة، وإذا ذهب ذلك النور حلّت بهم الظلمات.

جنـــــة الســــــنة

النص القرآني الرابع من سورة البقرة
دعوة الناس جميعاً إلى توحيد الله ونهيهم عن الشرك

أولاً: تقديم

أشار الحقُّ - تبارك وتعالى - إلى كتابه المنزل من عنده بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة:٢] ثم قسَّم الناس جميعاً تجاه هذا الكتاب إلى ثلاثة أقسام: المتقين الأخيار، والكفرة الفجار، والمنافقين الضلال، وحكم على الفريق الأول بأنهم على الهدى والصلاح، وعلى الفريقين الآخرين بالخسران والبوار، ثم دعا الناس جميعاً في آيات هذا النص إلى أن يكونوا من الفريق الأول المفلح الفائز، وتحقيق ذلك بعبادة الله الواحد الأحد، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة:٢١] ليكونوا من الفريق الأول، وهم المتقون ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة:٢١] ونهاهم عن أن يكونوا مشركين ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢].

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - أول واجب على العباد عبادة الله الواحد:

نادى الحقُّ - تبارك وتعالى - الناس جميعاً آمراً إياهم بعبادته وحده لا شريك له، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة:٢١] والعبادة - كما يقول ابن جرير - [١/ ٢٥٣] «الخضوع لله بالطاعة، والتذلل له بالاستكانة».

والعبادة هي غاية وجود الجنِّ والإنس ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

ودعوة الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد، هي مهمة الرسل والأنبياء جميعاً، فموسى عليه السلام أوحى الله إليه ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾ [طه:١٤] والمسيح عليه السلام قال لقومه:

جنـــــة الســــــنة

﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة:٧٢] ونوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام كل منهم قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف:٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥].

وكل الأنبياء والمرسلين دعوتهم واحدة، لا اختلاف بينها، فكل ما أوحى الله به إلى رسله يدخل في العبودية لله رب العالمين، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥].

وقد عهد إلينا ربنا باجتناب عبادة الشيطان، والاستقامة على عبادة الرحمن ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس:٦٠-٦١]، وأخذ الله عهداً موثقاً على بني إسرائيل بعبادته وحده، وترك عبادة أحدٍ من دونه ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [البقرة:٨٣].

وكلُّ مسلم هداه ربُّ العزة إلى إقامة الصلاة من هذه الأمة، فإنه يعطي ربَّه عهداً على عبادته وحده لا شريك له في كل ركعة من الركعات في قراءته لفاتحة الكتاب في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة:٥].

ولا يقبل الله عبادة العابدين إلا إذا كانوا في عبادتهم مخلصين، وهذا معنى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) فالمعنى لا معبود يستحق العبادة إلا الله.

وعلى الدعاة أن يعنوا بالدعوة إلى عبادة الله، وتفقيه الناس بها، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الرسول ﷺ عندما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: «إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى» [البخاري: ٧٣٧٢، مسلم: ١٩]. وفي رواية عند البخاري أنه قال لمعاذ: «ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله» [البخاري: ١٣٩٥].

وجعل الرسول ﷺ عبادة الله وحده لا شريك له أول الصفات التي تُدخل الجنة، فعن أبي هريرة: أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة، قال: «تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان» [البخاري: ١٣٩٧، مسلم: ١٤، واللفظ للبخاري].

والعبادة حقُّ الله على العباد، فقد قال الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل: «يا معاذ أتدري ما حقُّ الله على العباد؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً» [البخاري: ٧٣٧٣، مسلم: ٣٠، واللفظ للبخاري].

جنـــــة الســـــــنة

وعبادة غير الله من الأصنام والأوثان والنيران ونحوها من الشرك الذي لا يغفره الله إذا مات العبد عليه، وفي ذلك يقول رب العزة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨].

٢- الأدلة الدالة على استحقاق الله العبادة دون سواه:

هذا الكون وما فيه معبد ضخم هائل يدلُّ على أنَّ الله هو المستحقُّ للعبادة وحده لا شريك له، والدلائل الدالة على ذلك مبثوثة في الكون، وهي أدلة ميسَّرة، وأول هذه الآيات الإنسان نفسه بحاضره وماضيه ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة:٢١] فهذا الإنسان السويُّ الخَلْقِ، المنتصب على قدمين، الذي أعطي العقل والسمع والبصر، القادر على اختيار الهدى والضلال آية من الآيات الدالة على استحقاق الله للعبادة.

وتلك الأرض المفروشة، والسماء المبنية المرفوعة، وذاك المطر النازل من السماء، فإذا شربته الأرض أخرج الله به الشجر والنبات، وتحدَّرت منها الأرزاق والأقوات، ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢٢].

ومعنى جعل الله الأرض فراشاً، أي: جعلها ممهدة موطَّأة على النحو الذي نشاهده، ولو كانت الأرض كلها ماءً، أو كانت صخوراً كلها، أو جبالاً كلها، أو لو كانت حراراتها عالية جداً، أو منخفضة جداً لما أمكننا أن نعيش فوقها.

وبناء السماء على النحو الذي هي عليه آية عظيمة تدلُّ على عِظَم قوة من بناها وجبروته وحكمته، قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ ﴾ [الذاريات:٤٧].

وسميت السماء سماءً - كما يقول ابن جرير - [تفسير ابن جرير الطبري: ١/ ٢٥٥]: «لعلوِّها على الأرض، وعلى سكانها من خلقه، وكلُّ شيء فوق شيء آخر فهو لما تحته سماء، ولذا قيل لسقف البيت: سماؤه، لأنه فوقه مرتفع عليه».

ومن آيات الله العظيمة الدالة على استحقاق الله العبادة وحده لا شريك له إنزال الله الماء من السماء، فأحيا به الأرض بالشجر والنبات، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢٢].

والمراد بالثمار، ثمار الأشجار التي تحيا بالماء، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [النحل:١٠-١١]، وقوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ

جنـــــة الســـــنة

وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون:١٨-٢٠].

٣- غاية العبادة:

وقد أخبرنا الله - تبارك وتعالى - أن الغاية المقصودة من عبادة الله هو تحقيق التقوى في القلوب، قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة:٢١]. فالعبادات المفروضة على العباد تحقق التقوى، فمن ذلك الصيام فرضه الله علينا لنتقي ربنا تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة:١٨٣] ونحر الأضاحي ونحر الهدي في الحج يوجد التقوى في القلوب، ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج:٣٧] والأتقياء هم الصنف الأقوم والأفضل، وهم الذين يرثون جنات النعيم: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم:٦٣].

وقد مضى تعريف التقوى عند تفسيرنا لقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة:٢].

٤- النهي عن أعظم الذنوب وهو الشرك بالله تعالى:

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى بأعظم الطاعات، وهو توحيد الله تعالى في الآية السابقة، نهى في هذه الآية عن أعظم الذنوب، وهو الشرك بالله، فقال: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢].

والنِّدُّ الذي نهانا ربنا عزَّ وجل عن اتخاذه هو الشريك الذي يعبد مع الله كالأصنام والأوثان، قال تعالى ذاماً المشركين: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، وقال: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [إبراهيم:٣٠] واتخاذ الأنداد مع الله كفر ليس بعده كفر، قال تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [فصلت:٢٩].

وقد قرَّر رسولنا ﷺ أن اتخاذ الأنداد أعظم الذنوب، ففي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود، قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يَطعم معك»، قلت: ثمَّ أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك». وأنزل الله تصديق قول النبي ﷺ : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨] [البخاري:٦٠٠١، مسلم: ٨٦].

جنـــــة الســــــنة

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أمر الحقُّ - تبارك وتعالى - في آيات هذا النص بأعظم مأمور، وهو عبادته وحده لا شريك له، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١] ونهاهم عن أعظم محظور، وهو أن يجعلوا له شركاء في عبادته، فقال: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة:٢٢].

٢- أورد الحقُّ - تبارك وتعالى - في هذه الآيات الأدلة الدالة على استحقاقه الألوهية دون سواه، فمن ذلك أنه الخالق لنا ولمن قبلنا، الذي جعل لنا الأرض فراشاً، والسماء بناءً، وأنزل من السماء ماءً، فأخرج به من الثمرات رزقاً لنا ولأنعامنا.

٣- استدلّ بعض أهل العلم بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ [البقرة:٢٢] على أنّ الأرض مُسطحة، وليست كروية، وقد اتخذ بعض الضالين هذه المقالة ذريعة إلى الطعن في القرآن، وأنه يخالف الحقائق العلمية الكونية، وقد ردّ الزمخشري هذا الاستدلال بقوله: «ليس في الآية إلا أن الناس يفترشونها، كما يفعلون بالمفارش، وسواء كانت على شكل السطح أو سطح لكرة، فالافتراض غير مستنكر ولا مدفوع لعِظَم حجمها، واتساع جرمها، وتباعد أطرافها» [الكشاف: ١/ ٢٣٤].

ودعوى من يدعي أن القرآن يخالف الحقائق العلمية قوله محض كذب وافتراء، فالكون خلق الله، والقرآن كلام الله، ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف:٥٤] فأنى يناقض قولُه خَلْقَه ﴿سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦﴾ [النور:١٥٦].

وقد استدلَّ علماء الأمة بدلائل قرآنية كثيرة على كروية الأرض، ومن هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الرسالة العرشية والبيضاوي في تفسيره وغيرهما.

٤- نقل ابن العربي - رحمه الله تعالى - عن أصحاب الشافعي: «أنه لو حلف رجل لا يبيت على فراش، ولا يستسرج سراجاً، فبات على الأرض، وجلس في الشمس لم يحنث، لأن اللفظ لا يرجع إليهما» [أحكام القرآن: ١/ ١٣].

وهذا صحيح لأن الأيمان تحمل على المعتاد المتعارف عليه من الأسماء، وليس في العادة إطلاق هذا الاسم على الأرض والشمس.

٥- الغاية المرجوة للعبادة: التقوى، كما صرح بها في قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة:٢١] أي: لعلكم تتقون الله بعبادتكم إياه، فالعبادة تنشئ التقوى في القلوب.

جنــــــة الســــــنة

و(لعل) في لغة العرب موضوعة للتَّرجي، وهو الطمع في حصول أمر محبوب ممكن الوقوع، والله عالم بمن يتقيه، ومن لا يتقيه، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ولذا فإنَّ الترجي هنا هو الحاصل من العباد، كأنه قال لهم: إن تأملتم حالكم في عبادتكم لربكم رجوتم التقوى لأنفسكم.

جنـــــة الســـــــنة

النص القرآني الخامس من سورة البقرة
القرآن العظيم آية عظيمة دالة على صدق نفسه

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُّنا - تبارك وتعالى - في مطلع هذه السورة العظيمة أن هذا الكتاب لا ريب فيه على وجه الحقيقة، فهو منزل من عند الله يقيناً، والمنزل من عند الله لا باطل فيه بحال، والريب إنما هو في قلوب المرتابين من الكفرة والمنافقين، وخاطب الله في آيات هذا النص هؤلاء المرتابين المتشككين مدللاً على صدق هذا الكتاب طالباً منهم أن يأتوا بمثل سورة من سورِهِ إن كانوا صادقين فيما يزعمونه من بطلانه، فإن لم يستطيعوا فعل ذلك، فعليهم الإيمان بالله ومخافته واتقاء ناره.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- القرآن هو الآية العظيمة الدالة على صدق نفسه:

نادى ربُّ العزة الناس في آية سابقة آمراً إياهم بعبادته وحده لا شريك له، ثم نهاهم عن أن يتخذوا له الأنداد، ثم خاطب الله المرتابين في آيات هذا النص متحدياً إياهم بالإتيان بسورة من مثله ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة:٢٣].

يقول لهم: إن كنتم متشككين فيما أنزلناه على رسولنا من هذا القرآن فأتوا بسورة من مثله، وهذا يقضي بأن يكون القرآن كذباً مفترى إن جاؤوا بمثل سورة واحدة قصيرة، لأنه لم يفرق بين القصير والطويل، بل جاءَ التحدي عامّاً مطلقاً، وإن عجزوا عن ذلك فيكون حقّاً وصدقاً، وأذن لهم في مجال التحدي أن يستعينوا بمن يريدون من الأعوان والأنصار ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة:٢٣].

جنـــــة السـنـــــة

ومعنى ﴿شُهَدَآءَكُم﴾ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أعوانكم، وقال مجاهد: الذين يشهدون لكم، وقال بعض أهل العلم: معناه من يعتد بحضوره» [عمدة الحفاظ: ٢/ ٣٤٤] وهذه معاني بعضها قريب من بعض.

ولم ينتظر محاولتهم الإتيان بما تحدَّاهم به، بل سارع إلى الإعلان عن أنَّهم عاجزون عن ذلك في الحاضر والمستقبل كما عجزوا عنه في الماضي ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة:٢٤]، والحكم عليهم بالعجز فيه استثارة لحفيظتهم، إذ لو كان فيهم قدرة على تحقيق التحدي لسارعوا إلى الردِّ عليه، ليثبتوا بذلك ريبهم وشكهم.

وإذا كانوا عن المتحدَّى به عاجزين، فعليهم أن يبادروا إلى الإيمان، اتقاءً لغضب الرحمن وناره التي وقودها الناس والحجارة، والوَقود هو المادة التي تشعل بها النار كالحطب ونحوها من المواد القابلة للاشتعال، وقد أخبرنا الحق أن وقود النار الناس والحجارة، ومن هؤلاء الناس الذين يعبدون من دون الله آلهة أخرى، ومنها معبوداتهم من دون الله ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء:٩٨].

مراحل التحدي بالقرآن:

تحدَّى القرآنُ الكفارَ بالإتيان بمثل القرآن كلِّه في قوله: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء:٨٨].

ثم نزل في التحدي إلى عشر سور من مثل هذا القرآن، لا فرق بين الطويل منها والقصير، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود:١٣].

وأخيراً تحداهم في هذه الآية ونظيراتها بالإتيان بمثل سورة واحدة منه، ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس:٣٨].

وها هو التحدي قائم إلى اليوم وإلى أن تقوم الساعة، وهو موجَّه للجنِّ والإنس على مرّ الأزمان، ومع كثرة خصوم الإسلام في القديم والحديث لم يستطع أحد أن يأتي بمثل سورة من سور هذا القرآن، وعلى المسلم أن يواجه من يدعوهم بهذه الحجة، فإن أبى الناس الإيمان، بعد إقامة هذا البرهان عليهم، فهم معاندون مستكبرون يستحقون النار وغضب الجبار.

جنـــــة السـنة

٢- تبشير الذين آمنوا بالقرآن وعملوا به بجنات تجري من تحتها الأنهار:

بعد أن أنذر الله الكفرة بما أنذرهم به، أمر رسوله ﷺ أن يبشر المؤمنين بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة:٢٥].

والبشارة: الإخبار بما يسر، كما أن الإنذار: التخويف مما يخاف منه ويضر، وقد بشر الله المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وهي الطاعات من الواجبات والمستحبات، بجنات تجري من تحتها الأنهار، «والجنة في الأصل البستان ذو الشجر الساتر بأشجاره الأرض، وقد يطلق على الأشجار نفسها جنّة، سمي بذلك لستره الأرض ومَنْ يدخل فيها» [عمدة الحفاظ: ١/ ٤٠٠].

وقد حدَّثنا - تبارك وتعالى - أن أنهار الجنة ليست مقصورة على الماء ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾ [محمد:١٥]. والمراد بجريان الأنهار من تحتهم، أي: من تحت قصورهم وحدائقهم وأشجارهم، كما قال فرعون: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ﴾ [الزخرف:٥١] أي: من تحت قصوره وبساتينه.

٣- ثمار الجنة متشابهة في المنظر مختلفة في الطعم والمخبر:

يساق إلى أهل الجنة من ثمار الجنة رزق متصل، متشابه في المنظر، مختلف في الطعم والمخبر ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ﴾ [البقرة:٢٥]، أي: أن الثمار اللاحقة تشبه الثمار السابقة في الشكل والمنظر، ولذلك قال: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ﴾ [البقرة:٢٥]، أي: يشبه بعضه بعضاً في منظره، ولكن الطعوم مختلفة متنوعة.

٤- لأهل الجنة في الجنة أزواج من الحور العين المطهرات:

من نعيم الجنة الذي بشّر الله به الذين آمنوا وعملوا الصالحات قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة:٢٥]. وقد أطال الكتاب والسنّة في وصف أزواج المؤمنين في جنات النعيم، ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الطور:٢٠]، ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [الواقعة:٢٢-٢٣]، ووصف نساء أهل الجنة هنا بالطهارة ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ﴾ [البقرة:٢٥] أي: مطهرات من النجاسات الحسيّة والمعنوية، وليس هذا قصراً عليهن، بل كل أهل الجنة كذلك، فهم فيها لا يتبولون، ولا يتغوطون، ولا يتفلون، ولا يبصقون، وليس في نساء

جنـــــة الســــــنة

أهل الجنة حسد، ولا كذب، ولا سباب، ولا شتائم، ومع أن أهل الجنة يأكلون ويشربون إلا أن طعامهم لا يبقى منه بول ولا غائط، بل جشاء ورشح كرشح المسك.

وقد حدَّثنا الرسول ﷺ عن أهل الجنة وأزواجهم وطعامهم وشرابهم، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصُقون فيها، ولا يمتخِطون، ولا يتغوطون، آنيتهم فيها الذهب، أمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامِرهم الألُوَّة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يُرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجل واحد، يسبحون الله بكرةً وعشياً» [البخاري: ٣٢٤٥، وانظره في مسلم: ٢٨٣٤]، وورد في رواية أخرى عند البخاري [٣٢٤٦] «لا يسقمون».

وفي صحيح مسلم عن جابر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون، ولا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون» قالوا: فما بال الطعام؟ قال: «جشاء ورشح كرشح المسك، يُلهَمون التسبيح والتحميد كما يُلهَمون النَّفَسَ» [مسلم: ٢٨٣٥].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- القرآن آية تدلُّ على صدق الرسالة والرسول، فقد تحدَّى الله به الجنَّ والإنس فعجزوا، وهذا التحدي باقٍ ومستمر إلى يوم الدين.

٢- من أنباء الغيب التي أعلمنا الله بها أن البشر لن يستطيعوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ولا بمثل سورة من سوره، وقد تحقق هذا، فلا يزال الناس عاجزين.

٣- الكفار الذين تحداهم القرآن فلم يؤمنوا مكابرون معاندون، ولذلك يستحقون النار وغضب الجبار.

٤- على الدعاة إلى الله استعمال الأسلوب القرآني في الإنذار والتبشير، والترغيب والترهيب، والكتاب والسنّة يفيضان بهذا النوع في مخاطبة الناس، وليحذر الداعية الإكثار من الترهيب وحده، فإنه يُيئِس الناس من رحمة الله، كما عليه أن يحذر من التبشير وحده، فإنه يطمعهم في المعاصي اعتماداً على رحمة الله وعفوه، ويجعلهم يتواكلون ويتكاسلون.

٥- الجنات التي بشَّر بها ربُّ العالمين المؤمنين جنات حقيقية، وما فيها من أشجار وأنهار وثمار كله حقيقة، وهم فيها يأكلون ويشربون وينكحون حقيقة، لا كما يقول أهل

جنـــــــة السـنـــــــة

الضلال: إن كل ذلك تمثيل وتخييل وأمثلة المقصود منها إصلاح الناس وتوجيههم لما يصلح أخلاقهم وأعمالهم، ولكن لا يوجد جنة ولا نار على الحقيقة، وأقوالهم هذه كذب وافتراء وبهتان، وتكذيب للرحمن، وطعن في القرآن.

٦- قوة النار وشدتها، فإنها تشتعل في الناس كما تشتعل في الحجارة على حدٍّ سواء، وفي الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «نارُكم جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم» [البخاري: ٣٢٦٥. ومسلم: ٢٨٤٣] نعوذ بالله من نار جهنم.

جنـــــة الســـــــنة

النص القرآني السادس من سورة البقرة
أمثال القرآن حقٌّ وصدق

أولاً: تقديم

لما عجز أعداء الإسلام عن الإتيان بمثل أصغر سورة من سور هذا القرآن أثاروا الشبه للتشكيك بالقرآن، فقد زعم أعداء الله أنَّ الله أعزّ وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، كضرب المثل بالذي استوقد ناراً، وآخر بالصيب النازل من السماء، وفي مواضع أخرى ضرب الأمثال بالذباب، وبيت العنكبوت، فردَّ الله عليهم في ذلك كله بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة:٢٦].

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الله - سبحانه - لا يستحي من ضرب المثل بالصغير أو الكبير:

قرَّر مطلع هذا النص أن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها، والبعوضة حشرة معروفة، لها جناحان تطير بهما، وهي من أصغر المخلوقات وأضعفها، وقوله: ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة:٢٦] أي ما هو أكبر منها، كالذباب، والنمل، والعنكبوت، ولا يعيب الكلام في لغة العرب أن تضرب الأمثال بأقلّ الأشياء، وقد ضرب العربُ الأمثال بالذرة والذباب، والقراد، فقالوا: «أجمع من ذرة، وأجرأ من الذباب، وأسمع من قراد».

وقد ضُربت الأمثال في التوراة والإنجيل الموجودَيْن بأيدي اليهود والنصارى اليوم بالأشياء المحقرة، «ففي التوراة ضرب المثل بالعوسج والأرز، والكرم والنسر، ومن أمثال الإنجيل الحنطة والزوان وحبة الخردل والخميرة والبذار والخروف الضال، وشجرة التين، وغيرها كثير» [راجع: قاموس الكتاب المقدس: ص٨٣٨].

وقد أجاد سيد قطب - رحمه الله تعالى - في بيان معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة:٢٦] فقال: «الله رب الصغير والكبير، وخالق

جنـــــة السـنـــــة

البعوضة والفيل، والمعجزة في البعوضة هي ذاتها المعجزة في الفيل، إنها معجزة الحياة، معجزة السر المغلق الذي لا يعلمه إلا الله..، على أن العبرة في المثل ليست في الحجم والشكل، إنما الأمثال أدوات للتنوير والتبصير، وليس في ضرب الأمثال ما يُعاب، وما من شأنه الاستحياء من ذكره، والله - جلّت حكمته - يريد بها اختبار القلوب، وامتحان النفوس: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة:٢٦].

ذلك أن إيمانهم بالله يجعلهم يتلقون كلَّ ما يصدر عنه بما يليق بجلاله؛ وبما يعرفون من حكمته، وقد وهبهم الإيمان نوراً في قلوبهم، وحساسية في أرواحهم، وتفتحاً في مداركهم، واتصالاً بالحكمة الإلهية في كل أمر وفي كل قول يجيئهم من عند الله» [في ظلال القرآن: ١/ ٥٠].

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ﴾ [البقرة:٢٦] يخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن الذين كفروا يتساءلون قائلين: ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟ وهو قول فيه استغراب وتعجب عن الأمثلة التي نسبها محمد ﷺ إلى ربه، ويقول الله في الجواب: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة:٢٦].

٢- التعريف بالفاسقين الذين يضلون بالأمثال:

والضلال: العدول عن الصراط المستقيم الذي عرَّفنا به ربُّ العالمين، كالكفر والشرك، وترك ما أوجبه الله، والعمل بمعاصيه، والفسق في لغة العرب الخروج عن الشيء، وهو في استعمال الشرع الخروج عن طاعة الله، وقد يكون خروجَ كفرٍ، كالذين يكفرون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وقد يكون خروجاً ليس بكفر كمن ارتكب بعض المحظورات، أو ترك بعض الواجبات، غير مستحل لها، وأراد بالفاسقين هنا الكفار، لأنَّه وصفهم بوصفهم، وقد وصف الفاسقين الذين يضلون بهذه الأمثال التي ضربها الله في كتابه بثلاث صفات:

الصفة الأولى: نقضهم عهد الله من بعد ميثاقه ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة:٢٧]، وأصل العهد في لغة العرب حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال [المفردات: ٣٥٠].

وهو في الشرع ما عهد الله به إلى رسله وأنبيائه وأتباعهم، وقد ذكر من ذلك الكثير من عهوده للأولين والآخرين ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه:١١٥] ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة:١٢٥]. ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس:٦٠-٦١].

جنـــــة الســــــنة

ونقض العهود إبطالها، وأصل النقض في لغة العرب أن يفسد المرء ما قام بفعله، كأن يهدم ما بنى، وينقض ما غزل ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ [النحل:٩٢].

والميثاق عهد مؤكد بيمين، ومنه الميثاق الذي أخذه يعقوب على أولاده، عندما أراد أن يرسل معهم أخاهم يوسف يرتع ويلعب ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ [يوسف:٦٦] ومنه الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل بعبادته وحده لا شريك له ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [البقرة:٨٣].

الصفة الثانية: قطعهم ما أمر الله به أن يوصل، من بر الوالدين وصلة الأرحام، وحقوق الإخوان، ونحو ذلك ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة:٢٧].

الصفة الثالثة: الإفساد في الأرض بفعل الذنوب والمعاصي، وأعظمها الكفر والشرك ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٧]، «والفساد في الأرض ألوان شتى، تنبع كلها من الفسق عن كلمة الله، وقطع ما أمر الله به أن يوصل، ورأس الفساد في الأرض هو الحيدة عن منهجه الذي اختاره ليحكم حياة البشر ويصرفها» [في ظلال القرآن: ١/ ٥٢].

والفاسقون الذين حدثنا الله عنهم خاسرون ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)﴾ [البقرة:٢٧] خاسرون في الدنيا باتباعهم الباطل، وخاسرون في الآخرة، ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر:١٥]، ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [سورة العصر].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- من صفات الله - تبارك وتعالى - أنه حيي كريم، كما في الحديث عن سلمان الفارسي، عن النبي ﷺ قال: «إن الله حيي كريم، يستحيي إذا رفع الرجل يديه أن يردهما صِفْراً خائبتين» [الترمذي في سننه: ٣٥٥٦، وقال فيه: حسن غريب. وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي: ٣٨٠٩. وانظره في صحيح ابن ماجه: ٣٨٦٥].

ولكن الله لا يستحيي من الحق ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب:٥٣] وفي الحديث: أن أم سلمة قالت: جاءَت أم سُلَيم إلى رسول الله ﷺ، فقالت: إن الله لا يستحيي من الحقِّ، فهل على المرأة من غُسْل إذا احتلمت؟ قال النبي ﷺ: «نعم، إذا رأت الماء» [البخاري: ٢٨٢.

جنـــــة السـنــــة

مسلم: ٣١٣]. ومن جملة ما أعلمنا الله به أنه لا يستحيي من ضرب الأمثال، فإن ما يضربه من الأمثال حق.

وفي هذه النصوص - كما يقول ابن جزي في [التسهيل: ١/ ٤٢] - ردّ على الذين يزعمون أن الحياء مستحيل على الله، لأن الحياء عندهم انكسار يمنع من الوقوع في أمر، وليس كذلك، فالحياء كرم وفضيلة، يمنع من الوقوع فيما يعاب، وحياء الله كرحمته وعلمه وقدرته وبقية صفاته يناسب كماله، ولا يشبه شيئاً من صفات خلقه.

٢- استحباب ضرب الأمثال في الدعوة إلى الله لبيان الحق وتوضيحه.

٣- كشف الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام والرد عليها، فقد ردَّ الحق - تبارك وتعالى - مقالة الذين استعظموا ضرب الأمثال بالنَّملة، والعنكبوت، والنار ونحوها.

٤- المؤمنون الصادقون يسارعون إلى الإيمان بما أنزل الرحمن، ويطردون وساوس الشيطان، عندما يبلغهم أمثال القرآن، أما الذين كفروا فيستنكرون ذلك ويستبعدونه.

٥- الشيء الواحد -كالأمثال المضروبة- يضلُّ الله بها الكافرين، ويهدي بها المؤمنين، والإقرار بإضلال الله من يشاء من عباده، وهداية من يشاء، هو من توحيد الله، فالله على كل شيء قدير، والذين يزعمون أن إضلال العباد غير مقدور لله، اتخذوا إلهين من دون الله، واتهموا الله بالعجز.

٦- وجوب الوفاء بالعهود والمواثيق، وخاصة عهودنا ومواثيقنا مع الله تبارك وتعالى.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني السابع من سورة البقرة
توبيخ الله الكافرين على كفرهم برب العالمين

أولاً: تقديم

قسّم الله الناس - فيما سبق - إلى ثلاثة أقسام: المؤمنين والكفار والمنافقين، ثم أمر الله الناس جميعاً أن يعبدوه وحده، ليكونوا من المؤمنين، ووجَّه اللهُ السؤال إلى الكفار في هذا النص موبخاً ومقرعاً إياهم على كفرهم بالله الذي أحياهم من عدم، ثم يميتهم، ثم يحييهم، ويوقفهم بين يديه في يوم الدين، والله الذي أوجدهم على هذا النحو هو الذي خلق الأرض لهم، لتكون سكنهم، وخلق لهم كلَّ ما فيها، هذا هو الله الذي به يكفرون، فهو كفر مستغرب متعجب منه.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- توبيخ الله الكافرين على كفرهم:

خاطب الله الكفرة المجرمين معجباً من حالهم مع رب العالمين، فقال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة:٢٨] يقول لهم: كيف تكفرون بالله، وقد كنتم أمواتاً، أي: عدماً قبل أن يخلقكم ربكم، وينفخ الروح في أجسادكم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان:١] فالإنسان كان قبل خلقه مواتاً عَدَماً، ثم خلقنا الله في أرحام أمهاتنا، ونفخ الأرواح في أجسادنا، فأحيانا بقدرته، وأصبحنا على الحال التي نشاهدها في هذه الدنيا، أجساداً منتصبة، لنا قلوب عاقلة نفقه بها، وأسماع نسمع بها، وعيون نبصر بها، نذهب ونأتي، ونتنعم بأنواع النعيم، ثم يعقب ذلك موت وفناء، ونغيب في القبور ما شاء الله أن نغيب، وسيأتي يوم ينبت الله من الأرض أجسادنا، ويعيد أرواحنا إلى أجسادنا، فيوقفنا بين يديه، ثم المصير إلى الجنة أو النار.

أفيليق بهذا الإنسان أن يكفر بالرحمن، وهذا فعله به !!

جنـــــة السـنة

٢- **خلق الله لنا ما في الأرض جميعاً:**

خلقنا ربنا على النحو الذي أخبرنا به في الآية السابقة، ثم أعلمنا في هذه الآية أنه خلق لنا الأرض وما فيها لتكون لنا داراً وسكناً ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩].

خلق الأرض بسهولها وجبالها، وعيونها وأنهارها وبحارها، وخلق لنا ما فيها من تراب وهواء وماء ومعادن، وما فيها من حيوانات وطيور وأسماك. وجعل الله الأرض مناسبة لحياتنا، وقد استطاع الإنسان الوصول إلى القمر، وصوَّر المريخ، فوجد أنهما لا يصلحان للإقامة فيهما، فلا ماء، ولا هواء كهواء الأرض، ولا نبات، والحرارة لا تطيقها أجسادنا، فقد تصل في علوها وانخفاضها إلى درجة تجعل أجسادنا عدماً.

٣- **خلقه - تبارك وتعالى - السماء بعد خلقه الأرض:**

بعد أن خلق الله الأرض قصد إلى السماء وكانت دخاناً ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١] فسواهن سبع سموات ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٩].

ومعنى ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:٢٩] أي: قصد إلى السماء، لأنه عدَّى التسوية بالحرف (إلى)، والسماء هنا اسم جنس، ولذا قال: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ [البقرة:٢٩]. وقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة:٢٩] أي: علمه محيط بجميع الخلق، كما قال سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك:١٤].

وهذه الآية فيها إعلام لنا من ربِّ العباد بأنه خلق الأرض والسماء، ويوجد في آيات أخرى كثيرة مبثوثة في القرآن حديثٌ واسع فيه تفصيل عن خلق الأرض والسماء، ومن ذلك ما ذكره الله في سورة فصلت، قال تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت:٩-١٢].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل:

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- كفر الكافرين بالله رب العالمين أمر متعجب منهم مستغرب، فالله الذي كفروا به هو خالقهم ومحييهم، وهو الذي يعيدهم إليه، فيحاسبهم على ما قدَّموا.

جنـــــــة الســــــنة

٢- من الدلائل الدالة على الله العظيم خلقه الإنسان، وخلق الأرض والسماء، ففيهما من الدلائل والآيات ما الله به عليم.

٣- خلق الله الأرض لتكون داراً للإنسان، وخلق الله له فيها ما يحتاج إليه، وسلَّط الله الإنسان على الأرض كي يسير فيها، ويستفيد من خيراتها.

٤- خَلْقُ الله الأرض للإنسان يدلُّ على أن الأصل في الأشياء الإباحة، فلا يحرم علينا إلا ما أخبرنا ربنا أنه محرم علينا.

٥- يجب على المسلمين أن يستعمروا الأرض، ويستغلوا خيراتها، فإن الله خلقها لهم، فإن قعدوا عن ذلك ضعفوا وذلُّوا وهانوا.

٦- خلق الله السماء بعد خلقه الأرض، وفي خلق الأرض والسماء تفصيل سيأتي بيانه في سور أخرى.

٧- خلق الله تبارك وتعالى السموات سبعاً، وهي طباق، بعضها فوق بعض، كما تدلُّ عليه نصوص أخرى.

جنـــــــة الســـــــنة

النص القرآني الثامن من سورة البقرة
قصة الإنسان الأول

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُّنا - تبارك وتعالى - في هذه الآيات عن الأصل الذي منه خلقنا، فالإنسان الأول الذي هو أبو البشر جميعاً، وهو آدم عليه السلام، خلقه الله بيده، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته، وهو أصل كريم، يحقُّ للإنسان أن يفاخر به.

وقد نشأت في الماضي القريب أساطير وخرافات تحاول أن تكشف أصل الإنسان، وباسم العلم نسب بعض الضالين من البشر الناس إلى أصل معيب، فقد زعموا أن الإنسان قد تطور من قرد أو فأر أو صرصور، وهذا النص المنزل من العليم الخبير فيه بيان واضح عن أصلنا الذي منه خلقنا، إنه آدم عليه السلام .

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إعلام الله ملائكته بخلق آدم قبل خلقه:

أعلم الله ملائكته بأنه سيخلق في مقبل الزمان خليفة في الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ [البقرة:٣٠]. وهذا المخلوق الذي نوّه لملائكته بخلقه قبل

جنـــــة السـنــــــة

أن يخلقه هو آدم ﷺ، وذريته من بعده، ويدلُّ على دخول ذرية آدم في الخليفة الذي سيجعله الله في الأرض أن الإفساد في الأرض وسفك الدماء كان في ذرية آدم، ولم يقع من آدم شيء من الإفساد وسفك للدماء فيها.

٢- تحديد المعنى المراد بكون الإنسان خليفة في الأرض:

خلق الله آدم وبنيه ليكونوا خلفاء الأرض، فالأرض كما أعلمنا الله في آية سابقة مخلوقة كلُّها لآدم وبنيه ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩] وقد جعل الله الإنسان خليفة في الأرض بما أعطاه من خصائص الآمر الناهي فيها، وطلب منه أن يستعمرها وفق المنهج الإلهي الرباني.

وقد دلَّت نصوص كثيرة وافرة على أن البشر في الأرض هم خلفاء الأرض على مر العصور، ابتلاءً منه تعالى لبني آدم لينظر كيف يعملون، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وسيجمعهم يوم القيامة، ويوقفهم بين يديه، ويحاسبهم على ما قدَّموا، ومن هذه النصوص المصرحة بذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام:١٦٥] وقال لداود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦] وقال موسى لقومه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف:١٢٩]. وقال هود لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [هود:٥٧]، وقال في هذه الأمة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور:٥٥].

فهذه النصوص وغيرها في معناها كثير، تدلُّ بوضوح على أن الله خلق الأرض وما فيها للإنسان، وجعله السيد فيها، الآمر الناهي، وطلب منه أن يستعمرها وفق شرعه ومنهجه، فإن استقام وفق ما أنزله الله إليه أفلح، وإلا كان من الخاسرين، ووعد الذين يقيمون دين الله في الأرض بالعون والتمكين، وأوعد المخالفين بالبوار والخسران، وهذا هو المعنى المراد بكون الإنسان خليفة في الأرض.

٣- سؤال الملائكة ربَّ العزة عن الحكمة من خلق الإنسان على الوجه الذي أخبرهم عنه:

بعد أن أخبر الله الملائكة بأنه يريد أن يخلق في الأرض خليفة سيكون منه الإفساد في الأرض وسفك الدماء، سأل الملائكة ربَّهم عن الحكمة من وراء خلق هذا المخلوق المفسد في الأرض السافك للدماء، منوهين في سؤالهم بمكانتهم، وأنه لا يقع منهم تجاه ربهم إلا

جنـــــة السـنة

التسبيح والتقديس له، فأجابهم ربُّ العزة سبحانه وتعالى أنه يعلم أنه سيكون من وراء خلقه لهذا الخليفة حِكَمٌ عظيمة لا يعلمونها، ومن هذه الحكم التي ترتبت على خلق هذا المخلوق ما لا يعلمه الملائكة في ذلك الوقت، ومن ذلك أنه سيكون فيهم الأخيار الصالحون من المرسلين والأنبياء والصديقين والشهداء، وسيكون فيهم أهل الجهاد في سبيل الله، والزهاد والعباد والصابرون والمنفقون والمحبون لله الواحد الأحد، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة:٣٠] ومراد الملائكة بقولهم: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ أي: نقول: سبحان الله وبحمده، ومعنى التسبيح: تنزيه الله عما لا يليق به تعالى وتقدس، ومعنى قولهم: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي: نطهر الأشياء ارتساماً لك، وقيل: نَصِفُكَ بالتقديس. [المفردات: ص٣٩٦].

٤- التعريف بالملائكة الذين أخبرهم الله بخلق آدم قبل خلقه:

الملائكة الذين أخبرهم الله بخلق آدم قبل أن يخلقه خلق كريم أبرار أطهار، يقومون على عبادة الله وتسبيحه وتقديسه، وتنفيذ أمره، وهم أولو قدرات فائقة على فعل ما يطلب منهم، وتنفيذه تنفيذاً صحيحاً كما يريد ربُّ العزة، وهم أصحاب أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء، وهم لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، وهم لا يأكلون، ولا يشربون، ويقومون على شؤون الكون على النحو الذي كلفهم الله به، ومنهم الذين اختارهم سفراء إلى الرسل والأنبياء من بني آدم، والإيمان بهم أحد أركان الإيمان.

٥- التعريف بأبينا آدم عليه السلام:

وآدم عليه السلام أبو البشر جميعاً وهو الخليفة الأول الذي خلقه الله لعبادته في الأرض، واسمه مشتق من أدمة الأرض، وهو وجهها الذي خلق منه، وقد ذكر في أحاديث صحيحة أن آدم عليه السلام خلق من قبضة من تراب هذه الأرض، وآدم عليه السلام أبو البشر جميعاً.

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن البشر في يوم القيامة يأتون آدم، فيذكرون فضله، ويطلبون منه أن يشفع لهم عند ربهم، ويقولون له: «أنت أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء» [البخاري: ٤٤٧٦].

٦- تفضيل الله آدم عليه السلام بنوع من العلم لا يعلمه الملائكة:

بعد أن خلق الله آدم عليه السلام أحبَّ أن يظهر لملائكته شيئاً من خصائصه التي يمتاز بها عليهم، فقد علَّم الله آدم أسماء المخلوقات التي خلقها، ثم عرض هذه المخلوقات على

جنـــــة الســـــــنة

الملائكة طالباً منهم أن يضعوا لها الأسماء التي تناسبها، ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [البقرة:٣١]. فاعتذر الملائكة قائلين: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [البقرة:٣٢].

لقد وهب الله لآدم خاصية لا توجد عند الملائكة، وهي قدرته على تسمية كلِّ شيء باسمه المختص به المناسب له، وسيكون لهذه الخاصية أثر كبير في حياته في عالم الأرض.

٧- إظهار الله شرف آدم عليه السلام بإعلامه ما لم يعلمه الملائكة:

بعد أن اعتذر الملائكة إلى ربهم بأنَّهم لا يستطيعون أن يسمُّوا الأشياء بالأسماء المناسبة لها، لأنَّ الله لم يعلمهم هذا العلم طلب ربُّ العزة من آدم عليه السلام أن يقوم بهذه المهمة ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ [البقرة:٣٣] فلما قام آدم بما طُلِب منه، وعرَّفهم بأسمائهم، قال الله للملائكته: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة:٣٣]. قال لهم: إني عالم بكل شيء، وعالم بالغيوب السماوية والأرضية، وعلمي محيط بكم، فأنا عالم بما أبديتموه، وما كتمتموه، أي: أخفيتموه، ومن الذي أظهروه سؤالهم عن الحكمة من وراء خلق آدم عليه السلام ، والذي كتموه أمران: الأول: ما كتمه إبليس في نفسه، ولم تكن الملائكة تعلمه. والثاني: ظن الملائكة أنهم في القمة في الفضل، وأنه لا أحد أفضل منهم، فهم يطيعون الله ولا يعصونه، وهم أهل تسبيح الله وتقديسه.

٨- تكريم الله لآدم بأمره ملائكته أن يسجدوا له بعد تمام خلقه:

أعلمنا ربنا تبارك وتعالى عن تكريمه لأبينا آدم عليه السلام في السماء بعد تمام خلقه، ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة:٣٤].

سرت الروح في آدم عليه السلام ، فأصبح حيّاً سميعاً بصيراً متحركاً، قادراً على القيام والجلوس والانتقال من مكان لآخر، ونظر، فوجد أعظم تكريم يُقابَل به مخلوق، وجد الملائكة كلَّهم ساجدين له في منظر مهيب، ولكنه وجد واحداً يأبى السجود له، هو إبليس، وكان قبل ذلك مخلوقاً صالحاً يعبد الله مع ملائكة السماء، وأصله من الجنِّ ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف:٥٠]. لقد رفض إبليس السجود لآدم عناداً واستكباراً، وحجته الباطلة التي واجه بها الأمر الإلهي الرباني، أنه مخلوق من النار، وآدم من طين، والنار أفضل من الطين بزعمه ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٢].

جنـــة السـنـــة

لقد واجه إبليس الأمر الإلهي الرباني الآمر له بالسجود لآدم بقياس عقلي فاسد، يحمل هذا القياس الباطل في طياته تخطئة ربّ العزة في أمره الذي أمره به، فقاده هذا إلى الكفر والضلال البعيد، ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ [البقرة:٣٤].

٩- إسكان الله آدم وزوجه جنة الخلد مبيحاً لهما أن يأكلا منها رغداً حيث شاءا إلا شجرة واحدة:

شاءت حكمة العليم الحكيم أن يسكن آدم وزوجه جنات النعيم قبل أن يهبطه إلى الأرض التي منها خلق، وأمره أن يسكن هذه الجنة هو وزوجه حواء، ويأكلا مما فيها من خيرات كما يشاءان رغداً، والرغد: الرزق الواسع الهنيء، والجنة مسكن طيب، وأرض صالحة، ينعم سكانها بطيب العيش ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ۝١١٩﴾ [طه:١١٨-١١٩].

ومع الإباحة لآدم وزوجه أن يأكلا من حيث شاءا، حرَّم الله عليهما شجرة بعينها، ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٥﴾ [البقرة:٣٥]. ولم يخبرنا الله تعالى عن اسم هذه الشجرة، ولم يخبرنا الرسول ﷺ باسمها، وليس بنا من حاجة إلى البحث عما لا نجده في الكتاب وصحيح السنّة من الغيوب.

١٠- غرَّر الشيطان بآدم وزوجه حواء فأكلا من الشجرة التي نهاهما ربهما عن الأكل منها:

عندما رفض الشيطان السجود لآدم، طرده الله من رحمته وجنته، فعزم على الوسوسة لآدم وبنيه، وتزيين الباطل لهم حتى يوقعهم في النار وغضب الجبار.

وقد جاء الشيطان إلى آدم وزوجه وزين لهما الأكل من الشجرة، وأقسم لهما أنه ناصح لهما فيما يأمرهما به، وأنّ أكلهما من الشجرة، سيعود عليهما بالنفع، فإما أن يصبحا ملكين أو يكونا من الخالدين ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١﴾ [الأعراف:٢٠-٢١].

ولكنهما عندما أكلا من الشجرة تبين لهما أنه كذب عليهما، في الخطيئة ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٢٢﴾ [الأعراف:٢٢].

لقد فعل آدم وزوجه فعلاً أوجب إخراجهما من دار النعيم إلى دار الشقاء والبلاء، لقد أوقعهما الشيطان في الخطيئة فأخرجهما من جنات النعيم ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا

جنـــــة السـنة

كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٣٦﴾ ﴾ [البقرة:٣٦]، لقد كان أكل آدم وزوجه من تلكما الشجرة بأمر الشيطان، فأخرجهما من النعيم، وأمر الله بإخراج آدم وحواء من جهة، وإبليس من جهة أخرى إلى الأرض، وجعلها مستقراً لهم إلى يوم القيامة، أو مدة آجالهم فيها ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٣٦﴾ ﴾ [البقرة:٣٦].

وقد جعل الله العداوة بين الشيطان وذريته وآدم وذريته قائمة في الأرض إلى يوم الدين.

١١- توبة آدم بعد اقترافه الخطيئة:

أخبرنا ربنا أن آدم عليه السلام تلقى من ربه كلمات فتاب عليه، إنه هو التواب الرحيم، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [البقرة:٣٧] والكلمات التي تلقاها آدم وزوجه هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف:٢٣].

١٢- إهباط آدم وزوجه إلى دار الشقاء:

لقد كان ما وقع لآدم وزوجه عظة لهما ولذريتهما من بعدهما، وتوبتهما وابتهالهما إلى رب العباد لم يمنع من إهباطهما إلى هذه الأرض، فأمر الله بإهباطهما وإبليس إلى الأرض واعداً إياهم بأن يُلاحقهم بكتبه ورسله، يحملون إليهم الهدى، فمن اتبع الهدى المنزل فلا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، والذين كفروا بما أُنزل إلى الرسل، وجاءَت به الكتب فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، وفي هذا يقول رب العزة: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [البقرة:٣٨-٣٩].

١٣- آدم في التوراة:

ذكرت التوراة آدم عليه السلام في مواضع منها، ولكن المعلومات التي فيها عن آدم وخلقه قليلة جداً بالنسبة لما جاء به في القرآن، وقد ذكرت التوراة أن الله خلق آدم وسلطه على «سمك البحر، وعلى طير السماء، وعلى البهائم، وعلى كل الأرض، وعلى جميع الدبابات التي تدبُّ على الأرض» وذكرت أن الله خلقه «ذكراً وأنثى، وباركهم الله، وقال لهم أثمروا وأكثروا، واملؤوا الأرض، وأخضعوها، وتسلطوا على سمك البحر، وطير السماء، وعلى كل حيوان يدبّ على الأرض...» [سفر التكوين، الإصحاح الأول: ٢٧-٢٩].

جنـــــة الســــــنة

وهذا موافق لما أخبر الله به ملائكته من أنه جاعل في الأرض خليفة، فالخليفة في الأرض لا بد أن يكون مسلطاً على الأرض وما فيها، وذكرت التوراة [الإصحاح الثاني من سفر التكوين: ٨] أن «الرب الإله جبل آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفساً حية» وهذا صحيح، ولكن تفصيل هذا الخلق وأطواره في خلق آدم واسع كما سيأتي معنا في القرآن في مواضع كثيرة، والذي ذكرته التوراة أن الجنة التي أسكن الله فيها آدم بعد خلقه ليست جنة الخلد؛ بل هي جنة في الأرض، [تكوين، الإصحاح الثاني: ٩-١٦]. والصواب ما دلَّ عليه القرآن وصحيح الأحاديث أنها جنة الخلد.

وذكرت التوراة أن «الرب الإله أوصى آدم قائلاً من جميع شجرة الجنة تأكل أكلاً، أما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت» [سفر التكوين، الإصحاح الثاني: ١٧-١٨]، وكون الله أباح لآدم وزوجه جميع شجر الجنة إلا شجرة واحدة صحيح مذكور في أكثر من موضع في القرآن، أما تعيين الشجرة التي نهى الله آدم أن يأكل منها، وأنها شجرة معرفة الخير والشر فهذا غير صحيح، فالله خلق آدم ولديه كامل الاستعداد لمعرفة الخير والشر، وقوله لآدم: «إنك يوم تأكل تموت موتاً» غير صحيح، لأنه لو كان صحيحاً لأمات الله آدم وزوجه يوم أكلا من الشجرة.

وقد أخبرنا الله أن الشيطان زيّن لآدم وزوجه الأكل من الشجرة التي حرّم عليه أن يأكل منها بكذبه عليهما، فقد زعم لهما أنهما إن أكلا منها يكونان ملكين، أو يكونان من الخالدين، ولكن الذي نصت عليه التوراة أن الشيطان أو الحية كما تسميها التوراة قالت لهما: «الله علم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر» [سفر التكوين، الإصحاح الثالث: ٦]، وهذا كذب وتحريف للتوراة، وقد جعلت هذه المقالة الشيطان ناصحاً، والله كاذباً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا في آيات هذا النص وجدناها تهدي إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الأصل الذي بثَّ الله منه البشر جميعاً هو آدم ﷺ، خلقه الله بيده، وأسجد له ملائكته، وهو أصل كريم، بخلاف الخرافة التي تدعي أن أصل الإنسان قرد أو فأر.

٢- يدلُّ النص على أنَّ الله يتكلم كيف يشاء، فقد دلَّ على أنه كلَّم الملائكة، ودلَّت نصوص كثيرة أخرى على أنه كلَّم موسى ﷺ، كما كلم نبينا محمداً ﷺ في ليلة المعراج.

جنـــــة الســـــــنة

٣- علم الملائكة أن ذرية آدم سيفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، وهذا مما أعلم الله به ملائكته، فقد صرَّح الملائكة بأنه لا علم لهم إلا ما أعلمهم الله به.

٤- جعل الله الإنسان خليفة في الأرض، والخليفة الأول هو آدم عليه السلام، وذريته من بعده خلفاء الأرض، وكون الإنسان خليفة في الأرض يعني أنه السيد الذي يرسم ويحكم، وقد تكون خلافته خلافة خير وصلاح حينما يمضي على منهج الله، وقد تكون خلافة شر وفساد، حين يتبع الهوى ويضلّ عن الصراط المستقيم.

٥- أخبر الله ملائكته أن بني آدم سيقع منهم الإفساد في الأرض وسفك الدماء، ومن نظر في الماضي والحاضر وما سيأتي في مقبل الأيام يجد أن واقع الإنسان يصدق ذلك.

٦- أفضل الذكر ما اختاره الله لملائكته، وهو التسبيح، ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:٣٠]. وفي صحيح مسلم عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ سئل أي الذكر أفضل؟ قال: «ما اصطفى لملائكته أو لعباده، سبحان الله وبحمده» [مسلم: ٢٧٣١].

٧- مع أن بني آدم يقع منهم الإفساد في الأرض وسفك الدماء إلا أن فيهم كثيراً من أهل الخير والصلاح، ففيهم المرسلون والأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون، وفيهم الزهّاد والعباد، وفيهم الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، ولم يكن الملائكة يعلمون هذه الجوانب الخيرة عندما سألوا ربهم عن الحكمة من خلق آدم.

٨- أعلم الله تبارك وتعالى آدم بعلم خصَّه به دون ملائكته، وهو قدرته على تسمية المخلوقات بأسمائها.

٩- فُضِّل آدم عليه السلام على كثير من خلق الله، فقد أسجد الله له ملائكته، وخلقه بيده، وجعله خليفة في الأرض، وخلق له ما في الأرض جميعاً.

١٠- سعة علم الله تبارك وتعالى، فهو عالم غيب السموات والأرض، وهو يعلم بما يبديه المخلوقات وما يخفونه.

١١- أسجد الله ملائكته لآدم عند خلقه، وهذا سجود تكريم لا سجود عبادة، فهم عبدوا ربَّهم الذي أمرهم بالسجود، ولم يعبدوا الذي سجدوا له.

١٢- على العباد أن يتعظوا بسقوط إبليس، فبينما هو يعبد الله مع ملائكة السماء معززاً مكرماً، إذا به يستكبر على ربِّ العزة، ولا يطيع أمره، فيطرده الله من رحمته وجنته.

١٣- عصى إبليس، وأصرَّ على معصيته، فلعنه الله، وطرده من رحمته وجنته، وعصى آدم عليه السلام، فتاب وأناب وقَبِلَ الله توبته.

جنـــــــة الســـــــنة

١٤- غفر الله لآدم معصيته وزلته، وأخرجه من الجنة، وأهبطه إلى الأرض، وجعلها له دار اختبار، فمن أطاع الله أعاده الله إلى الجنة، ومن عصى دخل النار.

١٥- على المسلم أن يحذر من الشيطان، فقد غرَّر بأبينا آدم وأمّنا حواء، وزيّن لهما الأكل من الشجرة التي حرم الله عليهما الأكل منها، وهو دائم الوسوسة لبني آدم كي يزين لهم الشرك، وارتكاب المحرمات، وترك الواجبات.

١٦- أعلم الله أبا البشر آدم عليه السلام، وأبا الجن إبليس لعنه الله، بعد إهباطهما إلى الأرض بأنه سينزل الهدى إلى أهل الأرض، فمن قبل به واهتدى به فلا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، والذين كفروا وكذبوا بالمنزَّل إليهم أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

١٧- تجاوز بعض المؤرخين والمفسرين والمحدثين، فحدثوا عن أخبار في قصة آدم، ليس لها ذكر في الكتاب، ولا في صحيح السنّة.

١٨- عرضت التوراة لخلق آدم في سفر التكوين، وليس فيها شيء من هذا التفصيل المذكور في سورة البقرة وفي غيرها من السور الكريمة، وفيها مخالفات للحقائق التي جاء القرآن بها، ومن ذلك أن الشجرة التي نُهيا عن الأكل منها شجرة الخير والشر، وهذا كذب بعيد عن الصواب.

١٩- في هذا النص وفي غيره من الآيات أخبار كثيرة عن آدم عليه السلام، وقد أخبرنا رسولنا ﷺ «أن الله خلق آدم وطوله في السماء ستون ذراعاً، ثم قال له: اذهب فسلِّم على أولئك النفر من الملائكة، فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك، وتحية ذريتك فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليكم ورحمة الله، فزادوه رحمة الله. فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن» [البخاري: ٣٣٢٦، مسلم: ٢٨٤١ عن أبي هريرة].

٢٠- خلق الله حواء زوج آدم من آدم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء:١] وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنَّ حواء خُلقت من ضلع آدم، ففي حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء، فإن المرأة خُلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء» [البخاري: ٥١٨٤، مسلم: ١٤٦٨]. وهذا يدل على بطلان قول من زعم من الكفار أن آدم تطور عن غيره من القردة أو غيرها.

٢١- بعض ما حدثت به التوراة عن آدم صحيح ذكره القرآن، وبعضه محرف مغيَّر مبدَّل صوَّبه القرآن.

جنـــــة الســـــــنة

النص القرآني التاسع من سورة البقرة
بداية الحديث عن بني إسرائيل

أولاً: تقديم

هذه الآيات الكريمات التي حواها هذا النص هي بداية الحديث عن بني إسرائيل، وبنو إسرائيل أمة عريقة، أنزل الله عليها التوراة والإنجيل والزبور، وأرسل فيها عدداً كثيراً من الرسل والأنبياء، كموسى وهارون وداود وسليمان وعيسى، وقد اختار الله بني إسرائيل على علم على عالمي زمانهم، وقد أخذ عليهم العهود باتباع الرسول الخاتم محمد ﷺ عندما يبعثه في آخر الزمان، وتصديق ما جاء به من عند الله، فكانوا يبشرون به على مدار تاريخهم، وهاجرت قبائل منهم إلى جزيرة العرب تنتظر مخرج هذا الرسول، فلما بُعث من غيرهم كفروا به إلا قليلاً منهم. وأنزل الله في كتابه الكثير من الآيات التي تتحدث عن بني إسرائيل، ورسلهم وأنبيائهم وكتبهم، وتبين ما في تاريخهم من سقطات وانحرافات، وتحدثت عن الحالة المزرية التي صاروا إليها، وأظهرت آيات الكتاب كثيراً مما أخفوه من الكتاب، ودعتهم إلى الهدى والاستقامة، وقد أقام اليهود اليوم دولة لهم في بلادنا فلسطين، ونحن محتاجون إلى العودة إلى القرآن في حربنا معهم، فقد أضل اليهود اليوم الكثير من الناس، وبقي في مواجهة اليهود المسلمون الذين فقّهَهُم دينُهُم بهم.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ
بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا
تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ
ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ
بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾
يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ
شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لماذا أطال القرآن الحديث عن بني إسرائيل:

مَنْ عَلِمَ ما أنزله الله في كتابه القرآن وجده قد أطال كثيراً في حديثه عن بني إسرائيل، فقد ابتدأ الله الحديث عن بني إسرائيل في هذه السورة بهذا النص، وأول آية منه هي الآية

جنـــــة الســــــنة

الأربعون، وقد امتدّ الحديث معهم متصلاً إلى الآية خمسين ومائة، ولم تخل بقية السورة عن ذكرهم، وذكرهم موجود في سور كثيرة بعد هذه السورة.

وفي مسيرة بني إسرائيل في العهد النبوي، وعبر تاريخهم قبل ذلك تجربة ثرية، فيها كثير من العبر والعظات، وهي صالحة لعرض الصواب والخطأ، وصالحة لعرض نماذج تصلح للتربية والتقويم، والنماذج المتقدمة من بني إسرائيل فيها خير كثير، وفيها مواطن ضعف، وهذه الأمة بحاجة إلى المواقف الراقية للتأسي والاقتداء، وتحتاج إلى معرفة مواطن الضعف كي لا تسقط سقوطهم، ولا تزل زللهم.

وبنو إسرائيل يحملون في بقايا كتبهم البشارات بالرسول ﷺ وكتابه وأصحابه وأمته، ولكنهم يكتمون ذلك كفراً وحسداً، ولذلك فقد أقاموا من أنفسهم أعداء للنبي وأمته، ونحن محتاجون إلى أن نعرف الخصم الذي نواجهه، وخير من يحدثنا عنهم، ويعرفنا بهم ربُّهم الذي كفروا به، وفي كتاب ربنا وسنّة نبينا حديث واسع عن اليهود، يؤدي بنا إلى معرفة جيدة بهم، وبأحوالهم وأخبارهم، فالذي يعرف خصمه يصرعه في مقام النزال، والذي يجهله يضلُّه ويغويه، ومن هنا فإن المسلمين اليوم بحاجة إلى العلم الذي حدَّثنا به عن اليهود المتعالين على ربِّ العالمين وعلى أمّة الإسلام.

إن المسلم الذي يعلم عن الله ما أعلمنا به عن اليهود لا يهون في مجال الصراع، فصفحة اليهود واضحة بيّنة عنده بكل أبعادها في حال استقامتهم على أمر الله، وفي حال ضلالهم وبُعدهم عن الله، وهو يستطيع مواجهة اليهود ومخاصمتهم وإسكاتهم بالحجة والبرهان.

إن المسلم في موقفه مع اليهود يقف موقف المعلِّم الذي يأمر وينهى، ويعلِّم ويسدد ويوجه، ويعرف في ذلك كله مواطن الضعف عند الخصم، ولذلك فإن أكثر الناس قد انحنى لليهود اليوم إلا أتباع محمد ﷺ الذين فقهوا عن الله دينه حق الفقه.

٢- التعريف بإسرائيل وبنيه وذكر نِعَم الله عليهم:

نادى الله بني إسرائيل آمراً إياهم أن يذكروا نعمته التي أنعم بها عليهم ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠] وإسرائيل الذي نادى ربُّ العزة أبناءه هو نبي الله يعقوب بن إسحاق بن خليل الله إبراهيم عليهم جميعاً السلام، ومعنى إسرائيل: عبد الله، فـ (إسرا) عبد، و(إيل) الله.

ونِعَم الله على بني إسرائيل التي أمرهم القرآن أن يذكروها كثيرة، وقد ذكرها القرآن في مواضع كثيرة من سوره، فمنها ما أنزله على أنبيائه ورسله منهم، ومنها ذلك العدد الكبير من

جنـــــة الســـــنة

الأنبياء والرسل الذين أرسلهم فيهم، ومنها إنجاؤهم من فرعون وملئه، وإهلاك عدوهم بإغراقهم في البحر، ومنها تظليلهم بالغمام عندما تاهوا في صحراء سيناء، وإنزال المنّ والسلوى عليهم إلى غير ذلك من النعم.

٣- مطالبة الله بني إسرائيل بالوفاء بعهودهم مع الله:

أمر الله بني إسرائيل في هذه الآيات أن يوفوا بعهدهم الذي عاهدهم الله عليه، ليفي لهم بعهده الذي وعدهم به، ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة:٤٠] وقد كثر في القرآن ذكر العهود التي أخذها الله على بني إسرائيل، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧] ومن ذلك قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا﴾ [البقرة:٨٣] وقال: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة:٦٣].

٤- تذكير الله بني إسرائيل بعهد الله إليهم أن يؤمنوا بمحمد ويتابعوه:

ويدخل في العهود التي عهد الله بها إلى بني إسرائيل ما أمرهم به في كتابهم التوراة من الإيمان برسولنا الخاتم ﷺ، وقد كانت قبائل من اليهود تسكن المدينة المنورة، فلما حلَّ بها رسولنا مهاجراً كفروا به وبكتابه، ولم يؤمن به إلا عدد قليل منهم، منهم عالمهم عبدالله بن سلام، ولا تزال البشارات برسولنا تلوح هنا وهناك في توراتهم، وقد أصابها بعض التحريف، وقد أخذ الله العهد والميثاق على كل نبي من أنبياء بني إسرائيل، كما أخذه على كل نبي من غيرهم أن يؤمن بنبينا إذا بُعث في عصره، ويتابعه، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران:٨١-٨٢].

وأخبرنا ربنا - عزّ وجلّ - أنه أخذ العهد على بني إسرائيل في عهد موسى بوجوب متابعة بني إسرائيل لمحمد ﷺ عند بعثته، فقد حدثنا ربنا تبارك وتعالى في سورة الأعراف أن موسى اختار من قومه سبعين رجلاً لحضور ميثاقه، ووصف حالهم عند أخذ الميثاق عليهم، ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ

جنـــــة الســـــــنة

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف:١٥٦-١٥٧].

هذا ما قاله الله لهم، وفيهم موسى وهارون وسبعون من خيار قومه، ولا تزال بقايا هذا العهد مكتوباً في التوراة الموجودة اليوم، مع ما أصابها من تحريف.

٥- أمر الله بني إسرائيل بأن يرهبوه:

أمر الله - تبارك وتعالى - بني إسرائيل أن يرهبوه وحده ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة:٤٠] أي: خافوني وحدي، والرهبة خوف مع تحرّز واضطراب، وهي دون التقوى، وإن شئت فقل: الرهبة هي مبادئ التقوى، وأصل الكلمة: فارهبوني، وحُذفت منها الياء، لأنها فاصلة، ومعنى الفاصلة رأس آية، ليكون النظم على لفظ منسق، ويسمِّي أهل اللغة رؤوس الآي الفواصل [معاني القرآن للزجاج: ١/ ١٢٢].

٦- لِمَ أمر الله بني إسرائيل بما أمرهم به:

أمر الله بني إسرائيل بذكر نعمه عليهم، وأن يذكروا عهده معهم، وأن يرهبوه وحده كي ترقَّ قلوبهم، ويكونوا أقرب إلى الإيمان والهدى والصلاح، والمسارعة إلى اتباع الرسول الكريم ﷺ.

٧- أمر الله بني إسرائيل بالإيمان بالقرآن المنزَّل على محمد ﷺ:

أمر الله بني إسرائيل بالإيمان بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله الخاتم ﷺ مصدقاً لما أنزله الله في التوراة والإنجيل، ونهاهم عن المسارعة إلى الكفر به ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ﴾ [البقرة:٤١].

ورسولنا مرسل للناس جميعاً، ومنهم اليهود والنصارى، وكان الواجب على اليهود أن يسارعوا إلى الإيمان برسولنا، لأنه مصدق للتوراة، ولو لم يبعث الله رسولنا على النحو الذي بعثه الله به لكانت التوراة كاذبة، والقرآن يصدق التوراة في كثير مما تحدثت به، ويصحح ما وقع فيها من تحريف.

٨- نهي الله بني إسرائيل عن أن يكونوا أول كافر بالقرآن:

نهى الله - تبارك وتعالى - بني إسرائيل الذين كانوا بالمدينة أن يكونوا أول كافر بالقرآن، ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ﴾ [البقرة:٤١].

ومعنى ﴿أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ﴾ أي: من اليهود، فالخطاب ليهود المدينة.

جنـــة الســـــنة

٩- نهي الله بني إسرائيل أن يشتروا بالقرآن ثمناً قليلاً:

نهى ربُّ العزة بني إسرائيل أن يشتروا بالقرآن ثمناً قليلاً ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ [البقرة:٤١] نهاهم ربُّ العزة عن استبدال الخسيس بالنفيس، كما قال عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة:١٦].

والثمن القليل الذي نهاهم الله عن استبداله بالقرآن متع الحياة الدنيا، من الأموال والبنين والنساء والمناصب، فمهما عظم ما يناله الكافرون من متع الدنيا، فإنه عرض زائل، وعارية مسترجعة، وأمر الله بني إسرائيل في ختام الآية بتقواه وحده لا شريك له ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ٤١﴾ [البقرة:٤١] فالتقوى تقود إلى الفلاح والإيمان.

١٠- نهي الله بني إسرائيل عن لبس الحق بالباطل وكتمان الحق:

نهى الله بني إسرائيل عن لبس الحق بالباطل، وعن كتمان الحقِّ عن علم ومعرفة ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤٢﴾ [البقرة:٤٢].

لقد قام اليهود تجاه النصوص المبشِّرة برسولنا ﷺ وبكتابه بأمرين، **الأول**: لبس الحق بالباطل، أي: خلطه به، حتى لا يكاد يهتدي إليه الحذاق. **والثاني**: كتمان الحق الذي جاء صريحاً في التعريف برسولنا ﷺ وبكتابه، فهم يكتمونه عن علم.

١١- أمر الله بني إسرائيل بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والركوع مع الراكعين:

أمر الله بني إسرائيل بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والركوع مع الراكعين ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾ [البقرة:٤٣]، والمراد بها صلاة المسلمين، وزكاتهم، وركوعهم في صلاتهم، وهذه العبادات لا تُقبل منهم إلا إذا دخلوا في الإسلام، فالكفار مطالبون بكل فروع الشريعة، ويوم القيامة يحاسبون على تركهم إياها، ولكن لا تُقبل منهم في الدنيا إلا إذا آمنوا وأسلموا.

والصلاة التي أُمروا بإقامتها هي صلاة المسلمين المعروفة، وكذلك المراد بالزكاة، فهي الزكاة المفروضة علينا، وأمرهم بالركوع مع الراكعين، واليهود ليس في صلاتهم في دينهم ركوع، وهذا يدلُّ على أن المراد أن يركعوا مع الراكعين من المسلمين في صلاتهم.

١٢- التعريف بالركوع الشرعي الذي فرضه الله علينا في الصلاة:

والركوع الشرعي في ديننا أن يحني الرجل صُلْبه، ويمدَّ ظهره وعنقه، ويفتح أصابع يديه، ويقبض بهما على ركبتيه، ثم يطمئن راكعاً ويقول: «سبحان ربي العظيم» ثلاثاً، وذلك أدناه. روى مسلم عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة

جنـــــة الســــــنة

بالحمد لله رب العالمين، وكان إذا ركع لم يشخص رأسه ولم يصوبه، ولكن بين ذلك» [مسلم: ٤٩٨]، وروى البخاري عن أبي حميد الساعدي، قال: «رأيت رسول الله ﷺ إذا كبر جعل يديه حذو منكبيه، وإذا ركع أمكن يديه من ركبتيه، ثم هَصَرَ ظهره» [البخاري: ٨٢٨] الحديث [القرطبي: ١/ ٣٤٥]. فهذه صفة الركوع المأمور به شرعاً.

١٣- توبيخ الله بني إسرائيل الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم:

خاطب الله بني إسرائيل موبِّخاً إياهم في أمرهم الناس بالبر ونسيانهم أنفسهم، فلا يعملون بها أمروا الناس به ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة:٤٤]. يقول ربُّ العزة مخاطباً بني إسرائيل: كيف يليق بكم أن تأمروا الناس بالبرِّ، والبر: الخير، ومجالاته كثيرة، ذكرها الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ الآية [البقرة:١٧٧].

وهذا الخطاب موجه لمن فعل هذا الفعل من هذه الأمة، وقد أخبرنا رسولنا ﷺ في الحديث الذي يرويه أسامة بن زيد، قال: «يجاء بالرجل يوم القيامة، فيُلقى في النار، فتندلق به أقتابه، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه، فيُطيف به أهل النار فيقولون: يا فلان ما لك؟ ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر؟ فقال: كنتُ آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه» [مسند أحمد: ٣٦/ ١١٧، ورقمه: ٢١٧٨٣، وإسناده صحيح على شرط الشيخين. والحديث في البخاري برقم: ٣٢٦٧، ومسلم: ٢٩٨٩] والأقتاب: الأمعاء.

ووجه مخاطبة اليهود بهذا الخطاب، أنَّ بعض يهود المدينة كانوا ينصحون أصهارهم وأقرباءهم ومن بينهم وبينه صلة أن يثبتوا على الإسلام مع الرسول ﷺ فإنه حق، ولا يفعلونه [القرطبي: ١/ ٣٦٥، وعزا هذا القول لابن عباس].

وصدق أبو الأسود الدؤلي حيث يقول:

لا تنـــه عـــن خلـــق وتـــأتي مثلـــه ... عـــار عليـــك إذا فعلـــت عظـــيم
وابـــدأ بنفســـك فانهـــا عـــن غيهـــا ... فـــإذا انتهـــت فأنـــت حكـــيم
فهنـــاك يُقبَـــل إن وعظـــت ويُقتـــدَى ... بـــالقول منـــك وينفـــع التعلـــيم

وقد عظَّم الله شأن الذين يقولون ما لا يفعلون ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الصف:٢-٣] وقال العبد الصالح شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود:٨٨].

جنـــــــة الســـــــنة

١٤- أمر الله بني إسرائيل أن يستعينوا بالصبر والصلاة:

أمر الله بني إسرائيل أن يستعينوا بالصبر والصلاة على علاج ما يخالط نفوسهم من آثام تحول بينهم وبين إظهار الحق، والاستقامة على المنهج والطريق ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة:٤٥] فالصلاة تُقرِّب العبد من ربه، وتنهاه عن الفحشاء والمنكر، وتدفع سيل الشهوات التي ترد على قلبه، والصبر فيه عملية جهاد داخلية، تجعل المرء يقاوم وساوس الشيطان، وهوى النفس الأمارة بالسوء، والصبر المأمور به يشمل الصبر بأنواعه، فهو يشمل الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصية الله، والصبر على أقدار الله المؤلمة.

والاستعانة بالصبر والصلاة منهج قويم، لا يطيقه إلا الخاشعون، والخشوع مخافة الله تتسلل إلى القلب، فتخضعه وتسكّنه، فيسري ذلك من قلبه إلى بصره وسمعه وصوته وجوارحه كلها، والخاشعون الذين خفَّ عليهم أمر الصبر والصلاة، هم ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة:٤٦]. والظن في لغة العرب: الشك مع الميل لأحد الطرفين [فتح القدير: ١/ ١٨٢]، والظن في هذا النص في معنى اليقين، إذ لو كانوا شاكين لكانوا ضلالاً كافرين، والظن يأتي بمعنى اليقين في لغة العرب [معاني القرآن للزجاج: ١/ ١٢٦]. والمراد بملاقاة الله في الآية، أي: في يوم القيامة، فالذين يعتقدون أنهم سيلاقون ربهم، ويقفون بين يدي الله، يوفقهم ربهم إلى الخشوع، ويسهل عليهم الاستعانة بالصبر والصلاة.

١٥- تكرار أمر الله بني إسرائيل بذكر نعمه عليهم:

نادى الله بني إسرائيل آمراً إياهم للمرة الثانية أن يذكروا نعمة الله التي أنعم بها عليهم، وأنه فضّلهم على عالمي زمانهم ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة:٤٧].

١٦- أمر الله بني إسرائيل أن يتقوا يوم القيامة:

وأمر الله بني إسرائيل أن يتقوا يوماً، هو يوم القيامة، ففي ذلك اليوم لا تجزي نفس عن نفس شيئاً، أي: لا تؤاخذ نفس بذنب أخرى، ولا يدفع أحد عن أحد شيئاً، فكلٌّ مجزي بعمله ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة:٤٨].

وفي الحديث في صحيح البخاري أن الرسول ﷺ قال: «من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله، فإنه ليس ثمَّ دينار ولا درهم، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه، فطُرحت عليه» [البخاري: ٦٥٣٤].

جنـــــة الســـــنة

١٧- يوم القيامة الذي أمر الله بني إسرائيل بتقواه لا شفاعة فيه للكافرين:

أخبرنا الله -تبارك وتعالى- أنه لا أحد يشفع في يوم القيامة للكافرين ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة:٤٨]. والشفاعة في الدنيا هي التوسط للغير في جلب مصلحة أو دفع مضرة، وأصلها من الشفع الذي هو ضد الوتر، لأن صاحب الحاجة كان فرداً في حاجته، فلما جاءه الشفيع صار شفعاً [العذب النمير: ١/ ٧٠-٧٢].

والشفاعة في الدنيا إن كانت في خير كانت خيراً، وإن كانت في شر فهي حرام ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾ [النساء:٨٥]. وقد أمر الرسول ﷺ أصحابه بالشفاعة عنده، فعن أبي موسى الأشعري قال: كان رسول الله ﷺ إذا جاءه السائل، أو طلبت إليه الحاجة قال: «اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء» [البخاري: ١٤٣٢، مسلم: ٢٦٢٧].

والشفاعة الدنيوية قد يُدِلُّ فيها الشافع على المشفوع عنده بنسبه أو مكانته أو قوته، وقد يقبل المشفوع عنده الشفاعة في الدنيا كارهاً، وهذه ليس لها وجود في الآخرة، فالكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر:٤٨]. وفي ذلك اليوم يقول أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء:١٠٠-١٠١].

وقد خصّ الله من الشفاعة للكفار في يوم الدين شفاعة الرسول ﷺ في عمه أبي طالب، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ وذكر عنده عمه، فقال: «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه، يغلي منه دماغه» [البخاري: ٣٨٨٥، مسلم: ٢١٠].

والشفاعة المرضية التي دلت عليها النصوص هي الشفاعة لعصاة المؤمنين بإذن رب العالمين ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨] ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ﴾ [البقرة:٢٥٥] ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ﴾ [سبأ:٢٣].

وقوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة:٤٨] أي: لا يقبل منها فداء، قال تعالى مخاطباً المنافقين: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ﴾ [الحديد:١٥].

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [البقرة:٤٨] أصل النصر في لغة العرب: إعانة المظلوم، والمعنى في الآية: ليس لهم معين يدفع عنهم عذاب الله [العذب النمير: ١/ ٧٤].

جنـــــة الســـــــنة

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- رسولنا ﷺ مرسل للناس جميعاً، ولذلك طالب الناس كلهم بالإيمان به واتباعه، ومنهم بنو إسرائيل.

٢- أمر الله بني إسرائيل أن يذكروا نعمة الله التي أنعم بها على آبائهم، وأمرهم بأن يفوا بالعهود التي أخذها على الرعيل الأول منهم، ومنها وجوب إيمانهم بالرسول الخاتم ﷺ، ووجوب متابعته، وأمرهم بالخوف منه وخشيته.

٣- نهى الله بني إسرائيل عن خلط الحق بالباطل، وكتمان الحقِّ الذي في كتابهم، وخاصة تلك المبشرات التي تتعلق برسولنا ﷺ وكتابنا.

٤- أمر الله بني إسرائيل بالقيام بشرائع الدين المنزل على رسولنا محمد ﷺ ، ومن ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والركوع مع الراكعين، وأمرهم أن يستعينوا بالصبر والصلاة، وأعلمهم أن الاستعانة بهما أمر عظيم إلا على الخاشعين.

٥- وبَّخ الله بني إسرائيل على أمرهم الناس بفعل الخير، وتركهم فعله في حق أنفسهم.

٦- أخبرنا الله تبارك وتعالى أموراً كثيرة تتعلق ببني إسرائيل، لم يكن لنا بها علم، ولم يكن لرسولنا ﷺ بها علم، وهذا من دلائل صدق رسولنا ﷺ .

٧- علينا في صراعنا مع اليهود أن نفقه ما حدثنا الله به عن بني إسرائيل، كي لا نضل في مجال النزاع والصراع مع هذا العدو الماكر الخبيث.

٨- نحن أولى بأنبياء بني إسرائيل ورسلهم والصالحين منهم، والذين كفروا من بني إسرائيل بنبينا وكتابنا، ليسوا سائرين على نهج الصالحين من بني إسرائيل.

٩- احتج الحنفية بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة:٤١] على منع الإجارة على تعليم القرآن [التسهيل: ١/ ٤٦].

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة:٤٣] «إرشاد إلى شهود الجماعة والخروج إلى المساجد، وقد أوجب حضور الجماعة بعض أهل العلم، على خلاف بينهم في كون ذلك عيناً أو كفاية، وذهب الجمهور إلى أن ذلك سنّة مؤكدة مرغب فيها، وليس بواجب» [إرشاد الفحول: ١/ ١٧٩].

جنــــــة الســــــنة

١١ - الشفاعة الواقعة في يوم القيامة لا تكون إلا فيمن رضي الله شفاعته، ورضي عمن يشفع فيه، وهذه تكون للأنبياء والمرسلين والملائكة وصالحي المؤمنين، والمشفوع فيهم هم عصاة الموحدين، وقد أنكرت المعتزلة الشفاعة في يوم القيامة والنصوص المثبتة للشفاعة في الكتاب والسنّة التي ترد مقالهم كثيرة وافرة.

أما الشفاعة المرفوضة الممنوعة، فهي الشفاعة يوم القيامة فيمن لا يرضى الله الشفاعة فيه، كالشفاعة في الكافرين، أو الشفاعة ممن لا يرضى منه رب العالمين.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني العاشر من سورة البقرة
إنجاء الله بني إسرائيل وإغراق فرعون وملئه

أولاً: تقديم

يحدثنا الله في هذا النصِّ الكريم عن أمرين عظيمين وقعا في ماضي بني إسرائيل.

الأول منهما: تسلط فرعون مصر على بني إسرائيل، فأذلهم وأهانهم، حتى خلَّصهم الله على يدي موسى ﷺ، فأهلك فرعون وقومه بالغرق، ونجَّى موسى ومن معه.

الثاني: اتخاذ بني إسرائيل العجل إلهاً بعد غياب موسى عنهم عندما ذهب لمقابلة ربِّه في الطور، فأمرهم الله أن يقتل بعضهم بعضاً، فتقبل منهم توبتهم.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- فرعون مصر يسوم بني إسرائيل سوء العذاب:

أمر الله بني إسرائيل أن يذكروا ما امتنَّ الله به على أسلافهم من إنجائهم من فرعون وآله، وهم أتباعه وأشياعه، فقد أذاق آل فرعون بني إسرائيل أشدَّ العذاب وأفظعه، وأعظم ذلك أنهم كانوا يذبحون أبناءهم الذكور، ويستحيون بناتهم الإناث، ليكلفوا النساء بالأعمال الشاقة، وهذا نوع عظيم من البلاء، ابتلى الله به بني إسرائيل في ذلك الزمان، ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة:٤٩] وفرعون لقب لمن كان يحكم مصر في ذلك الزمان، كما كان يلقب حاكم الفرس قديماً بـ(كسرى)، وحاكم الروم بـ(قيصر)، وحاكم الحبشة بـ(النجاشي).

جنـــــــة السـنة

والسبب الذي لأجله فعل فرعون ببني إسرائيل ما فعله هو ما بلغه من أن بني إسرائيل سيكون لهم نبيٌّ، وأن هلاك الملك الفرعون سيكون على يديه، وكان أهل مصر في ذلك الوقت يُسخِّرون بني إسرائيل في أعمالهم الدنيوية من الحرث والزرع، والبناء والخدمة.

٢- إهلاك الله فرعون وآله وإنجائه بني إسرائيل:

أمر الله بني إسرائيل أن يذكروا ما فعله الله بأسلافهم، حيث أنجاهم من فرعون وملئه، وأغرق فرعون وقومه، وهم ينظرون ويشاهدون ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة:٥٠] أخبرنا الله في مواضع من كتابه أنه عندما أذن بخلاص بني إسرائيل من فرعون وقومه أمر موسى عليه السلام وقومه أن يخرجوا من ديار مصر متجهين إلى فلسطين، وفي الصباح وجدوا البحر أمامهم، والتفتوا فوجدوا فرعون وجيشه خلفهم، فأمر الله موسى أن يضرب البحر بعصاه فانشق، وأصبح طرقاً، فدخلها بنو إسرائيل، وعبروا إلى الجانب الآخر من البر، فسلموا، ودخلها فرعون وجنده، فانطبق عليهم البحر فغرقوا ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشعراء:٦٠-٦٦] لقد كان هذا الذي فعله الله بموسى ومن معه، وإهلاك بني إسرائيل آية من آيات الله العظيمة، ولقد عقب الله على هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء:٦٧-٦٨].

ولا شك أن رؤية بني إسرائيل لهلاك فرعون ومن معه في البحر قد شفى صدورهم، وأبهج قلوبهم ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة:٥٠].

وقد كان إهلاك فرعون وقومه، وإنجاء موسى وبني إسرائيل في يوم العاشر من محرم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما قدم النبي ﷺ المدينة، وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسئلوا عن ذلك، فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون، ونحن نصومه تعظيماً له، فقال رسول الله ﷺ «نحن أولى بموسى منكم» ثم أمر بصومه» [البخاري: ٣٩٤٣، مسلم: ١١٣٠].

٣- اتخاذ بني إسرائيل العجل إلهاً من دون الله:

أمر الله تعالى بني إسرائيل أن يذكروا ما كان من أسلافهم بعد أن أنجاهم من عدوهم، وغاب عنهم نبيهم أربعين ليلة ذهب فيها لمقابلة الله تبارك وتعالى، فنكسوا على رؤوسهم،

جنـــــة السـنـــــة

واتخذوا العجل الذي صنعه لهم السامري إلهاً عبدوه من دون الله، وكان هذا ظلماً منهم لأنفسهم، ثم عفا عنهم ربهم بعد ذلك لعلهم يشكرون، ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [البقرة:٥١-٥٢] وقد قرأ جمهور القراء ﴿وَٰعَدْنَا﴾ بصيغة المفاعلة، وقرأه أبو عمرو وحده من السبعة (وَعَدنا)، وقراءة أبي عمرو للتعظيم، فقد وعد الله نبيه موسى أن ينزل عليه كتاباً فيه الحلال والحرام، وكل ما يحتاجون إليه بعد أربعين ليلة، والمراد بقراءة الجمهور ﴿وَٰعَدْنَا﴾ أن الله وعد موسى بوحي يبين له فيه الأمور، وموسى وعد ربه بالإتيان لميقاته المعين له، لتلقي ذلك الوحي [العذب النمير: ١/ ٧٨].

وقد بيّن الله في سورة الأعراف أن هذا الوعد بأربعين ليلة كان مفرقاً، فقد وعده ثلاثين أولاً، ثم أتمها بعشر ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف:١٤٢]. فلما انتهى هذا الميعاد أنزل الله التوراة على نبيه موسى عليه السلام ، وكتبها له في الألواح.

٤- اتخاذهم العجل إلهاً من دون الله كان ظلماً وكفراً:

وقوله ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾ [البقرة:٥١] الظلم هنا ظلم شرك وكفر، لأنه كان بسبب عبادتهم العجل، وأصل الظلم في لغة العرب وضع الشيء في غير موضعه، وهؤلاء رفعوا العجل إلى مرتبة الألوهية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس:١٠٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣]، وقد لا يكون الظلم شركاً، كالذي يظلم نفسه بالمعاصي التي لا تبلغ درجة الكفر، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر:٣٢] فقد وعد الله هؤلاء ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر:٣٣].

وأخبر الله - تبارك وتعالى - أنه غفر لعابدي العجل ذنبهم العظيم، لعلهم يشكرون الله بعبادته وحده، والعفو يكون بعد العقوبة وقبلها، بخلاف الغفران فإنه لا عقوبة معه.

٥- إيتاء موسى التوراة لهداية بني إسرائيل:

أمر الله بني إسرائيل أن يذكروا نعمته عليهم في إنزاله التوراة على نبيهم موسى عليه السلام لتكون كتاب هداية لبني إسرائيل: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الفرقان:٥٣]. والفرقان المذكور في الآية هو التوراة، سميت التوراة فرقاناً، لأنه يُفرق بها بين

جنـــــة السـنة

الحق والباطل، والهدى والضلال، وقد صرح في سورة الأنبياء بأن الفرقان كتاب موسى في قوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنبياء:٤٨] وقد تقرر في العربية أن الشيء الواحد إذا وصف بصفات مختلفة يجوز عطفه على نفسه نظراً لاختلاف صفاته، ومن أمثلته في القرآن قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الأعلى:١-٤].

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [البقرة:٥٣] أي: لأجل أن تهتدوا، ومعنى ﴿تَهْتَدُونَ﴾ تسلكون طريق الهدى، بامتثال أمر الله، واجتناب نواهيه، والكتب السماوية كلها نزلت لتكون كتب هداية، كما قال الله في القرآن فيما مضى من هذه السورة ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [البقرة:٢].

٦- أمر الله بني إسرائيل أن يقتل بعضهم بعضاً ليقبل توبتهم:

وأمر الله بني إسرائيل أن يذكروا ما قاله موسى لقومه في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [البقرة:٥٤].

أخبرنا الله عزَّ وجلَّ أن بني إسرائيل كانوا قد ندموا على ما صدر منهم من فعل قبيح، ودعوا ربهم أن يغفر لهم ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٩] هنا قال موسى لهم: إن ندم قلوبهم على ما فعلوه، ودعاءهم ربهم ليغفر لهم، لا يكفي في توبتهم، فقد ظلموا أنفسهم ظلماً كبيراً، وعليهم لتقبل توبتهم أن يقتل بعضهم بعضاً، فقام بعضهم إلى بعض يقتل الواحد أخاه، أو ابنه، أو أباه، أو من لقيه، فتاب الله على الأحياء، واختار القتلى شهداء.

وقوله عز وجل: ﴿ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ [البقرة:٥٤] أي: خالقكم، وهو المُبْرِزُ لعباده من العدم إلى الوجود، وفي الآية إشارة إلى أن الله الخالق البارئ الذي أظهرنا من العدم إلى الوجود هو المستحق للعبادة دون سواه، ومن لا يخلق لا يستحق أن يُعبد، كما قال عز وجل: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [النحل:١٧]، وقال: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الرعد:١٦]. وقوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة:٥٤] القتل في لغة العرب: إزهاق الروح بشرط أن يكون مِنْ فِعْلِ فاعلٍ كالطعن، والضرب، والخنق.

جنـــــــة الســـــــنة

والمراد بالنفس التي أُمروا بقتلها الإخوة في الدين، فالإخوة في الدين أنفسهم كنفس واحدة، وأخبر الحق - تبارك وتعالى - أنه قَبِلَ منهم توبتهم بعد أن قاموا بها أُمروا به، فتاب عليهم إنه التواب، أي: كثير التوب والمغفرة، وهو الرحيم، أي: كثير الرحمة سبحانه.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

عندما نتدبر آيات هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- قد يبتلي الله عباده ببلاء عظيم، كما ابتلى الله بني إسرائيل بما فعله بهم آل فرعون من قتل للأولاد الذكور، واستحياء للبنات عند الولادة.

٢- من الآيات العِظام التي أوقعها الله لبني إسرائيل أن شقَّ لموسى البحر، فجاوزه هو وبنو إسرائيل، ودخله فرعون وقومه فانطبق عليهم وأهلكهم، وكان بنو إسرائيل على الضفة التي عبروا إليها ينظرون إلى ما يفعله ربهم بالمعذبين.

٣- لم تكد تجفُّ أقدام بني إسرائيل من البحر الذي قطعوه، والذي أهلك الله فيه عدوهم، حتى اتخذوا العجل إلهاً في غيبة نبيهم عنهم، حيث ذهب لمقابلة الله الذي أنزل عليه التوراة بعد أن غاب عن قومه أربعين ليلة.

٤- كان من توبة الله على عابدي العجل أن أمر بني إسرائيل بقتل بعضهم بعضاً، فقاموا بذلك، فغفر للأحياء، واختار القتلى شهداء، ولم يكلفنا بمثل هذا في ديننا، فلو كفر بعض من أمة محمد ﷺ، ثم تاب، فإن الله يتوب عليه، كما وقع في حروب الردة في زمن أبي بكر الصديق.

٥- كتاب الله التوراة، كتاب عظيم، جعله كتاب هداية لبني إسرائيل، وجعله لهم فرقاناً، يفرقون به بين الهدى والضلال والخير والشر، وكذلك كل الكتب السماوية هي كتب هداية.

٦- أخبر الرسول ﷺ بما لم يطلع عليه العرب من أخبار أهل الكتاب، وهذا من دلائل نبوة الرسول ﷺ.

جنـــــة الســــــنة

النص القرآني الحادي عشر من سورة البقرة
اشتراط بني إسرائيل لإيمانهم رؤية ربهم بأعينهم

أولاً: تقديم

آيات هذا النص تتحدث عن ثلاث قضايا جرت للرعيل الأول من بني إسرائيل في عهد موسى، **الأولى**: اشتراط طائفة من بني إسرائيل لإيمانهم أن يروا ربهم عياناً، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، ثم بعثهم الله من بعد موتهم لعلهم يشكرون. **والثانية**: تظليل الله الغمام عليهم، وهم في التيه في الصحراء، وإنزال المنّ والسلوى عليهم وهم في ذلك المكان. **والثالثة**: أمرهم بدخول قرية من القرى التي افتتحوها، وأباح لهم أن يأكلوا منها حيث شاؤوا رغداً، وأمرهم أن يدخلوها ساجدين، وأن يقولوا: حطة، فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم، فأنزل الله عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اشتراط بني إسرائيل لإيمانهم أن يروا ربهم عياناً:

أمر الله بني إسرائيل أن يذكروا مقالة أسلافهم لنبيهم موسى عليه السلام أنهم لن يؤمنوا حتى يروا الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [البقرة:٥٥].

والذين قالوا لموسى عليه السلام هذه المقالة الشنيعة هم السبعون الذين اختارهم لميقات الله المذكور في قوله: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ ﴾ [الأعراف:١٥٥] .

جنـــــة الســـــــنة

والمراد بالجهرة: المعاينة، وأصلها الظهور، والصاعقة: النار المحرقة المصحوبة بصوت مزعج، وسماها في الأعراف الرجفة ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف:١٥٥].

وقد تعاظم بنو إسرائيل أكثر مما ينبغي حيث رفضوا الإيمان لموسى ﷺ ولما جاء به حتى يروا الله جهرة، فرؤية العباد ربهم في الدنيا غير ممكنة، ولا تطيقها أجسادنا، وقد طلب موسى ﷺ من ربه أن يريه نفسه، فأخبره الله أن ذلك غير ممكن، وطلب منه أن ينظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف يراه، فلما تجلى ربنا للجبل جعله دكاً، وخرَّ موسى صعقاً ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ﴾ [الأعراف:١٤٣].

وقد يقال: لِمَ أحلَّ الله الصعقة ببني إسرائيل دون نبيهم، والجواب: أن طلب موسى الرؤية إنما هو شوق إلى ربِّ العزة يحمل كل معاني الحب والتوقير، بينما كان طالبوها من بني إسرائيل متعنتين، لأنهم جعلوا الإيمان مشروطاً برؤيتهم الله جهرة، وإذا كانت رؤية المؤمنين ربهم في الدنيا غير ممكنة فإنها في الآخرة ممكنة، لأن الله يخلقهم خلقاً غير قابل للفناء والزوال، وقد صحت أحاديث كثيرة بلغت مبلغ التواتر برؤية المؤمنين الموحدين ربهم في الآخرة.

وقد أخذت الصاعقة بني إسرائيل فماتوا، بدلالة الآية بعدها التي تخبر بأن الله بعثهم بعد موتهم لعلهم يشكرون ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة:٥٦] والسبب في بعث الله الذين صعقوا بعد موتهم من بني إسرائيل أن موسى توسل إلى ربه واستغاثه، فأجاب الله دعاءه ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ﴾ [الأعراف:١٥٥] والرجفة في هذه الآية هي الصعقة المذكورة في آية البقرة.

وإحياء الأموات في الدنيا آية من آيات الله، وقد ذكرها الله في مواضع من كتابه، فمن ذلك إحياء قتيل بني إسرائيل الذي أمرهم الله أن يضربوه ببعض أجزاء البقرة التي أُمروا بذبحها، وإحياء الطيور التي صَرَّها نبي الله إبراهيم ﷺ، وسيأتي ذكر ذلك مفصلاً في مواضعه إن شاء الله.

٢- تظليل الله الغمام على بني إسرائيل وإنزال المن والسلوى عليهم:

وأخبرنا ربنا بما أنعم به على بني إسرائيل، وهم في التيه أربعون سنة، فقال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة:٥٧]. والغمام الذي ظلَّله عليهم واحدته غمامة، وهو غمام أبيض

جنـــــة السـنـــــة

رقيق كان يظلهم من حرّ الشمس اللافح الشديد، أظله عليهم عندما اشتكوا حرَّ الشمس، فدعا موسى ربّه، فأظلهم الله به.

ومع تظليلهم بالغمام أنزل عليهم في ذلك المقام المنَّ والسلوى، طعاماً لهم، والمن مادة حلوة كالعسل، كانوا يجدونها بعد طلوع الفجر إلى طلوع الشمس في ديارهم، وأعطاهم معها طائر السماني يجدونه قرب منازلهم، وسيأتي قريباً إن شاء الله ذكر الماء الذي أمدهم به في منازلهم حيث نزلوا أو رحلوا، فقد كان موسى يضرب الحجر، فتنساب منه اثنتا عشرة عيناً، لكل سبط من أسباط بني إسرائيل عين من تلك العيون.

وقد نقل ابن كثير عن قتادة قوله في الآية: «كان المن ينزل عليهم في محلَّتهم سقوط الثلج، أشدُّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، يأخذ الرجل منه ما يكفيه يومه ذلك» [ابن كثير: ١/ ٢٤١].

وقال ابن كثير: «فالمن المشهور إن أُكل وحده كان طعاماً وحلاوةً، وإن مزج معه الماء صار شراباً طيباً، وإن رُكّب مع غيره صار نوعاً آخر» [ابن كثير: ١/ ٢٤٢]، وقد أخبرنا نبينا ﷺ أن «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين» [البخاري: ٤٤٧٨، مسلم: ٢٠٤٩] [(١)].

وقد أمر الله بني إسرائيل بعدما أخبر به من إنزال المن والسلوى عليهم أن يأكلوا من تلك الطيبات التي أنزلها الله عليهم ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة:٥٧] ومن تلك الطيبات المن والسلوى.

وكان الواجب على بني إسرائيل أن يكثروا من شكر الله لما امتنّ به عليهم، ولكنهم قابلوا تلك النعم بارتكاب الذنوب والمعاصي، فظلموا أنفسهم بذلك، ولم يظلموا ربهم تبارك وتعالى ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٥٧﴾ [البقرة:٥٧] وظلمهم لأنفسهم بتعريضها لسخط الله وعقابه، فالضرر عائد عليهم، والله لا تضره معاصي خلقه، كما قال تعالى: ﴿إن

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه في ثلاثة مواضع: ٤٤٧٨، ٤٦٣٩، ٥٧٠٨. وأطال ابن حجر في شرحه في كتاب الطب في فتح الباري: (١٠/ ٢٠١)، وقال في الكمأة: «نبات لا ورق لها ولا ساق، توجد في الأرض من غير أن تزرع» أقول: وهو يُعرف اليوم باسم: الفطر، وله وجود في الجزيرة العربية ومصر والشام، وهل مراده بالمن الذي أُنزل على بني إسرائيل، فيه ثلاثة أقوال ذكرها ابن حجر في فتح الباري (٢/ ٢٠٢).

جنـــــة السـنــــة

تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم:٨] وقال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥].

وقد أخبرنا بذلك ربنا في الحديث القدسيِّ الذي يرويه عنه رسولنا ﷺ، وهو قوله عزَّ وجلَّ: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً» [مسلم:٢٥٧٧].

٣- أمرهم بدخول القرية ساجدين وأن يأكلوا منها رغداً حيث شاؤوا:

أمر الله بني إسرائيل أن يذكروا ما أمر الله به أسلافهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [البقرة:٥٨].

لقد كانت القرية التي أمروا بدخولها قريبة منهم، ولذلك أشار إليها باسم الإشارة الدال على القريب ﴿ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [البقرة:٥٨].

وأرجح أقوال المفسرين أنها بيت المقدس، وهي التي أمرهم الله بدخولها قبل أربعين سنة، فأبوا أن يدخلوها، لأن فيها قوماً جبارين، وهم غير مستعدِّين لدخولها لخوفهم ورهبتهم منهم، وطلبوا من موسى عليه السلام وأخيه هارون أن يذهبا مع ربهما، فيقاتلا حتى يخرجوا الجبارين منها، فعندما تصبح خالية، فعند ذلك يكون لديهم استعداد لدخولها، والدليل على أنها كانت بيت المقدس قوله تعالى حاكياً قول موسى لبني إسرائيل: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المائدة:٢١-٢٢]، ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة:٢٤] فالأرض المقدسة التي كتب الله لهم القدس.

عند ذلك حرّم الله عليهم دخولها أربعين سنة، وكتب عليهم التيه في الأرض مدَّةَ هذه السنوات ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [المائدة:٢٦] ففي هذه السنوات الأربعين ذهب الجيل الذي تربى في مصر على الذلِّ والمهانة، ونشأ جيل جديد، تحلى بالعزة والشموخ، واستطاع دخول الأرض المقدسة بقيادة نبي الله يوشع بن نون.

وأمرهم تبارك وتعالى أن يدخلوا تلك القرية، ويأكلوا منها حيث شاؤوا رغداً، ومعنى ﴿رَغَدًا﴾ أي: أكلاً واسعاً لذيذاً لا عناء فيه ولا تعب، ويدخل فيه ما طلبوه أيام التيه من البقول والفوم والعدس والبصل كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

جنـــــة الســـــنة

وقد دلَّت هذه الآية على أن ما كان يغنمه بنو إسرائيل في حروبهم من الطعام والشراب مباح أكله، بخلاف الذهب والفضة فقد كانت تنزل نار من السماء تحرقه وأمرهم ربنا - تبارك وتعالى - بأن يدخلوا تلك القرية ﴿ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [البقرة:٥٨] وأن يقولوا: حطة ليغفر لهم خطاياهم ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ﴾ [البقرة:٥٨] ووعد الذين يستقيمون على ما أمرهم به أن يزيدهم من فضله ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٨﴾ [البقرة:٥٨].

والمراد بدخولهم القرية ساجدين، أي: متواضعين لرب العزة، مخبتين لله الواحد الأحد، كما فعل الرسول ﷺ عندما دخل مكة فاتحاً، فقد دخلها من الثنية العليا مطأْطِئاً رأسه، حتى ليكاد رأسه يمس واسطة رحله، وبعد دخوله صلى في المسجد الحرام ثماني ركعات، وهي صلاة الفتح، وكذلك فعل سعد بن أبي وقاص عندما دخل المدائن، فإنه صلى ثماني ركعات في إيوان كسرى هو والمقاتلون معه [الروض الأنف: ٧/ ٢٨، السيرة النبوية، لابن كثير: ٣/ ٥٦٩]، وقد أمرنا الله عند الفتح أن نكون كذلك ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [سورة النصر].

وقد أمرهم وهم يدخلون لله ساجدين أن يقولوا: ﴿حِطَّةٞ﴾ أي: يا ربنا حطَّ عنا ذنوبنا وخطايانا، ووعدهم إن قالوا ذلك أن يغفر لهم ذنوبهم وخطاياهم.

(والخطايا) في قوله: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ﴾ [البقرة:٥٨] الذنوب العظيمة، والمراد بالمحسنين في قوله: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٨﴾ [البقرة:٥٨] هم المراقبون لله، وعدهم أن يزيدهم خيراً وإحساناً، وقد عرف الرسول ﷺ الإحسان بقوله: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك» [البخاري: ٥٠، مسلم: ٩].

فالعابد لله كأنه يراه يتقن عمله غاية الإتقان.

٤- تبديل طائفة من بني إسرائيل قولاً غير الذي قيل لهم:

حدَّثنا ربُّنا عن الحال الذي أراد الله من بني إسرائيل أن يكونوا عليها عندما يدخلون القرية التي أمرهم بدخولها، وهي دخولهم إليها ساجدين، فبدَّلوا وغيَّروا، ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ۝٥٩﴾ [البقرة:٥٩].

أمرهم الله أن يدخلوها خاضعين متذللين لرب العالمين، فدخلوها على صورة مستنكرة، توحي بالظلم والعدوان، قال رسول الله ﷺ : «قيل لبني إسرائيل: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا

جنـــــة الســـــنة

﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البقرة:٥٨] فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبَّة في شعرة» [البخاري: ٣٤٠٣، مسلم: ٣٠١٥].

لقد بدلوا الفعل الذي أمروا أن يفعلوه في حال دخولهم القرية، أمروا أن يدخلوها خاضعين متذللين، فدخلوها يزحفون على أستاههم، وأمرهم أن يدعوا ربهم في دخلوهم ليحطَّ عنهم خطاياهم، فكانوا يقولون: حبة في شعرة، وقد ظلم هذا الفريق نفسه في الدنيا قبل الآخرة، فقد أُنزل على هذا الفريق الظالم رجز بسبب ظلمهم، والرجز: العذاب، وهو الطاعون الذي سلطه على بني إسرائيل، ففي حديث أسامة بن زيد أن الرسول ﷺ قال: «إن هذا الطاعون رجز سُلِّط على من كان قبلكم، أو على بني إسرائيل، فإذا كان بأرض فلا تخرجوا منها فراراً منه، وإذا كان بأرض فلا تدخلوها» [مسلم: ٢٢١٨].

وقوله في ختام الآية: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة:٨٩] الفسق هو الخروج عن طاعة الله، وهو أوسع من الكفر، فقد يكون خروجاً عن طاعة الله بالذنوب والمعاصي، وقد يكون خروجاً بالكفر والشرك، وهذا ما قرره أهل السنّة والجماعة في هذه المسألة.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- رؤية الله في الدنيا غير ممكنة، واشتراط بني إسرائيل عدم الإيمان لموسى إلا إذا رأوا ربهم عياناً سوأة كبيرة من سوءاتهم، أما رؤية المؤمنين ربهم في الجنة فهو أمر متواتر في الأحاديث، وفي القرآن تصريح به لمن عقل.

٢- أحيا الله الذين أماتهم بالصعقة من بني إسرائيل، وقد ذكر الله في كتابه في مواضع عدة أنه أحيا عدداً من عباده في الدنيا بعد أن أماتهم.

٣- ذكر الله جملةً من النعم التي أنعم بها على بني إسرائيل في زمن موسى، فمن ذلك تظليل الغمام عليهم ليقيهم حرَّ الشمس، ومن ذلك إنزال المنّ والسلوى عليهم، ينالونه بغير جهد.

٤- الطعام الطيب مباح للمؤمنين، وعليهم أن يتناولوه ويشكروا ربهم على ما أنعم به عليهم.

٥- الإنسان الذي يرتكب الذنوب والمعاصي يظلم نفسه، إذ يناله من عقاب الله ما الله به عليم، والله لا يضيره ظلم عباده أنفسهم.

جنـــــة الســــــنة

٦- أباح الله لبني إسرائيل أن يأكلوا مما غنموه من الطعام بخلاف الذهب والفضة، فقد كانوا يجمعون ما غنموه من الذهب والفضة، فتنزل نار من السماء فتحرقه، وقد أباح الله لنا ما حرمه على بني إسرائيل من الغنائم.

٧- المؤمنون في حال انتصارهم على أعدائهم يخضعون لربهم، فيدخلون المدن المفتوحة خاضعين متذللين لله، داعين الله أن يغفر ذنوبهم وزلاتهم، بخلاف الكفرة المشركين الذين يدخلون المدن المفتوحة معربدين متجبرين.

٨- منع بعض أهل العلم من رواية حديث رسول الله ﷺ بالمعنى محتجاً على ذلك بأن الله ذمَّ الظالمين من بني إسرائيل الذين قالوا قولاً غير الذي قيل لهم، وجمهور أهل العلم على جواز رواية الحديث بالمعنى، إذا كان راويه عالماً بما يرويه.

٩- معاقبة رب العزة من تمرد على أمره به، فقد أنزل على الظالمين من بني إسرائيل رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون.

جنـــــة الســـــــنة

النص القرآني الثاني عشر من سورة البقرة
فجَّر الله لبني إسرائيل الماء في الصحراء من الصخر الأصم

أولاً: تقديم

عصى بنو إسرائيل ربَّهم برفضهم دخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، فكتب عليهم أن يتيهوا في صحراء سيناء مدة أربعين عاماً، وأنعم عليهم في تيههم ذاك في الصحراء بنعم كثيرة، فقد أظلهم من حرّ الشمس اللافح بالغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، فكانوا يجدون الطعام قرب منازلهم من غير جهد، وفي الصحراء يحتاج الناس إلى الماء الذي يروي عطشهم، ويزيل غلتهم، فحدثنا في هذه الآيات كيف حصل موسى على الماء، حدثنا أنه كان يضرب بعصاه الحجر الصلد القاسي، فتتفجر منه العيون.

وحدثنا ربنا أن بني إسرائيل لم يصبروا على الطعام الفاخر الذي كان ينزله إليهم في ديارهم، فطلبوا أعداس الأرض وأبصالها وثومها وبقلها وقثائها.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة البقرة

﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير هذا النص من القرآن

١- استسقى موسى عليه السلام ربه، فأمره أن يضرب بعصاه الحجر فتتدفق منه العيون:

أمر الله بني إسرائيل أن يذكروا ما كان من استسقاء موسى لربه حين طلب منه قومه ذلك، وهم في الصحراء ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [البقرة:٦٠].

أمر الله موسى عندما استسقاه قومه أن يضرب الحجر، فكان ينفجر عن اثنتي عشرة عيناً بعدد أسباط بني إسرائيل، لكل سبط منهم عين، والأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب.

جنـــــة السـنـــة

والألف واللام في ﴿ٱلْحَجَرَ﴾ قد تكون للعهد، فيكون الحجر المضروب حجراً مُعيَّناً، يحمله بنو إسرائيل معهم حيث ساروا، ويضعوه حيث حلُّوا، وقد تكون الألف واللام للجنس، فلا يكون حجراً بعينه، وفي قوله: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ﴾ [البقرة:٦٠] محذوف، تقديره: فضربه، فانفجرت.

لقد حصل بنو إسرائيل على السقيا بطريقة سهلة ميسرة، فلم ينزل عليهم المطر من السماء، ولم تسل به الوديان والشعاب، بل كان يضرب موسى بعصاه الحجر، فتتدفق منه العيون، ويعرف كلُّ سِبْطٍ العينَ التي منها يشربون ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة:٦٠] وبعد أن أنزل الله الطعام الذي منه يأكلون، وأجرى لهم العيون التي منها يشربون، قال لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة:٦٠] كلوا ما أنزلت لكم من المن والسلوى، واشربوا من ذلك الماء العذب الزلال المتدفق، ونهاهم عن أن يعثوا في الأرض مفسدين، ومعنى قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟﴾ [البقرة:٦٠] أي: لا تسعوا مفسدين في الأرض.

٢- طلب بنو إسرائيل الأدنى من الطعام وزهدوا في الذي هو خير:

أمر الله بني إسرائيل أن يذكروا ما قاله أسلافهم لنبيهم موسى عليه السلام وهم في التيه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة:٦١].

يقول لهم الحكيم العليم الكريم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٦٠] الذي هو في غاية الجودة والفضل، وإذا بهم ينادون نبيهم متبرمين مما أنزله الله عليهم من الطعام، إنه طعام واحد، وهم يريدون نبات الأرض، يريدون البقل، وهو ما لا ساق له من النبات، ويريدون الثوم والعدس والبصل، قال ابن زيد، فيما نقله عنه ابن جرير: «كان طعام بني إسرائيل في التيه واحداً، وشرابهم واحداً، كان شرابهم عسلاً ينزل من السماء يقال له: المن، وطعامهم طير يقال له: السلوى، يأكلون الطير، ويشربون العسل، ولم يكونوا يعرفون خبزاً ولا غيره، فقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة:٦١]» [ابن جرير الطبري: ١/ ٣١٠].

فخاطبهم نبيهم عليه السلام مقرِّعاً وموبخاً ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة:٦١].

جنـــــة الســـــــنة

نعم، إنهم يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، يريدون البقل والعدس والبصل، ويفضلونها على المنّ والسلوى، يريدون هذه الأطعمة الدنيّة، بدل تلك الأطعمة الفاخرة الهنيّة، وما طلبوه موجود في القرى والأرياف، وهو مبذول لجميع الناس في تلك البلاد، وما عليكم إذا أردتموه إلا أن تسيروا إلى بعض الأمصار، فتجدونه كثيراً وافراً، و(مصراً) مصروف، والمراد به مصر من الأمصار، لا مصراً بعينه، ولم يجز ابن جرير القراءة بغير (مصراً) لاجتماع خطوط مصاحف المسلمين عليه، واتفاق القراء عليه [ابن جرير: ١/ ٣١٥].

إن ما طلبه بنو إسرائيل من نبيهم يدل على أنهم لم يكونوا يقدِّرون المهمة التي يُعَدُّون لها، يقول سيد قطب - رحمه الله - «لقد أخرج الله بني إسرائيل على يدي نبيهم موسى عليه السلام من الذلِّ والهوان، ليورثهم الأرض المقدسة، وليرفعهم من المهانة والضعة، وللحرية ثمن، وللعزة تكاليف، وللأمانة الكبرى التي ناطهم الله بها فدية، ولكنهم لا يريدون أن يؤدوا الثمن، ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف، ولا يريدون أن يدفعوا الفدية، حتى بأن يتركوا مألوف حياتهم الرتيبة الهنية، حتى بأن يغيروا مألوف طعامهم وشرابهم، وأن يكيفوا ظروف حياتهم الجديدة، في طريقهم إلى العزة والكرامة والحرية، إنهم يريدون الأطعمة المنوعة التي ألفوها في مصر، يريدون العدس والبصل والقثاء، وما إليها» [في ظلال القرآن: ١/ ٧٤].

٣- ضرب الله على بني إسرائيل الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله:

لقد كان نتيجة هذه التصرفات من بني إسرائيل، وتلك الحماقات أن ضرب الله عليهم الذلة، ضربها الله عليهم قدراً وشرعاً، وضرب عليهم المسكنة، وهي الصَّغار، فهم أذلاء في أنفسهم، مهانون محتقرون، واستحقوا غضب الله عليهم، وقد كانت أعمالهم تؤهلهم لهذا المصير ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: ٦١].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ عائد إلى الذلة والمسكنة التي ضربت عليهم، وإحلال غضب الله بهم، يقول ابن كثير في تفسير الآية: «هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة، وإحلال الغضب عليهم بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، وكفرهم بآيات الله، وإهانتهم حملة الشرع وهم الأنبياء وأتباعهم» [ابن كثير: ١/ ٢٥٣].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- ذِكْرُ ما أجرى الله على يد كليمه موسى عليه السلام من تفجير عيون الماء من الصخر الأصم في الصحراء، طيلة مكث بني إسرائيل في التيه هو من آيات الله العِظام.

جنـــــــة الســــــنة

٢- على العباد أن يأكلوا من الطعام الطيب الذي رزقهم الله تبارك وتعالى، ويكفُّوا أنفسهم عن الإفساد في الأرض، وقد ضلَّ قوم حرموا الطيبات على أنفسهم.

٣- أجرى الله على يدي نبيه موسى كثيراً من المعجزات، فيها تكثير للطعام والشراب، وقد فجَّر الله - تبارك وتعالى - لرسولنا ﷺ الماء من بين أصابعه، وكان أصحابه يغترفون من ذلك الماء، فيشربون، ويتوضؤون.

٤- كان الله يُعِدُّ بني إسرائيل في التيه إلى الارتقاء إلى مراتب عالية، ليحقق بهم قدره في أن يصبحوا الأمة الفاضلة التي تحقق الخلافة في الأرض، وقد أنزل لهم المن والسلوى وهما من أفخر الطعام، وأخرج لهم الماء من الأرض بأسهل طريق، فلما لم يصبروا على ما أنعم الله به عليهم، وطلبوا ما يطلبه أصحاب المزارع من الأبصال والبقول، فلم يرض الله منهم ذلك، وضرب عليهم الذلة والمسكنة، ورجعوا بغضب الله، وقد انتهى بهم المصير إلى الكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء بغير حق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون.

جنـــــة الســــــنة

النص القرآني الثالث عشر من سورة البقرة
المؤمنون الذين يعملون الصالحات هم الأخيار الفائزون

أولاً: تقديم

ذكر الله بعضاً من عظائم الأمور التي واجه بها بنو إسرائيل ربهم سبحانه وتعالى، مع أنه أنعم عليهم بعظائم النعم، وهم مع ذلك كله يزعمون أنهم الأفضل والأكمل، فأبان الله في الآية الأولى من هذا النص أن الكمال والصلاح والأفضلية في حكم الله وقضائه إنما هو للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، ثم ذم الله بني إسرائيل لتوليهم بعد أخذ الميثاق عليهم، وذكرهم بما كان من أسلافهم في اشتغالهم بالصيد في يوم السبت، فمسخهم قردة وخنازير، وكانت تلك الواقعة موضع عبرة للقرى حولها في زمانها وبعده.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- المؤمنون الذين يعملون الصالحات هم الفريق الصالح الفائز:

سبق أن أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - عما أساء به بنو إسرائيل إلى ربهم، حتى إنه - تبارك وتعالى - ضرب عليهم الذلة والمسكنة، وباؤوا بغضب من ربِّ العزة، وهم مع ذلك كله - كما سيأتي - يدَّعون أنهم الأفضل والأكمل، فبيّن الله تبارك وتعالى أن الأفضل من جميع الأمم هم المؤمنون بالله واليوم الآخر الذين يعملون الصالحات، وفي ذلك يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة:٦٢].

٢- التعريف بالذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين:

والمراد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أتباع محمد ﷺ ، قال ابن جرير: «أما الذين آمنوا فهم المصدقون رسول الله ﷺ فيما أتاهم به من الحق من عند الله» [ابن جرير الطبري: ١/٣١٧]

جنـــــة السـنة

﴿ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ الذين تدينوا بدين اليهود، وهم أتباع موسى عليه السلام، سموا بذلك لقول موسى عليه السلام في دعائه ربه: ﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف:١٥٦] أي: تبنا إليك.

﴿ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾ أتباع عيسى عليه السلام، وواحد النصارى نصراني، وهذا مستفيض في لغة العرب، كما يقول ابن جرير [ابن جرير: ١/ ٣١٨] سُمُّوا بذلك، لأن عيسى عليه السلام سأل الحواريين عن أنصاره إلى الله، فقالوا: نحن أنصار الله ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:٥٢] والصابئون كما يقول الشوكاني: «من خرج من دين على دين، ولهذا كانت تقول العرب لمن أسلم: قد صبأ» [فتح القدير: ١/ ٢٠٥] ونقل ابن جرير عن ابن زيد أن «الصابئين دين من الأديان، كانوا بجزيرة الموصل، يقولون: لا إله إلا الله، وليس لهم عمل، ولا كتاب، ولا نبي» [ابن جرير: ١/ ٣١٩].

وقد أخبر تعالى أن مَن آمن مِن أصحاب هذه المِلل الأربعة بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، فإنه مقبول عند الله مرضي عنه، وله أجره عند ربه، ولا خوف عليهم، ولا هم يحزنون. ومن هؤلاء الذين سماهم القرآن بـ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ العرب أهل الجاهلية، ومنهم البوذيون.

٣- الإيمان بجميع الرسل أصل لا يقوم الإيمان إلا به:

وهذه الملل يجب أن تؤمن بالرسل الذين عرفوهم في زمانهم، فاليهود كانوا مطالبين بالإيمان بموسى وهارون ومن قبلهم من الرسل والأنبياء الذين أخبرهم الله عنهم، والنصارى مطالبون بالإيمان بعيسى، بالإضافة إلى من قبله، فلما بعث محمد ﷺ كان الإيمان به شرطاً في الإيمان، فمن لم يؤمن به، ولم يتبعه، فإنه كافر مطرود من رحمة الله، وهذا الأصل معلوم من الدين بالضرورة.

٤- رفع الله الجبل فوق بني إسرائيل عندما رفضوا الأخذ بالتوراة:

وأمر الله بني إسرائيل أن يذكروا ما أخذه الله عليهم حال رفع الطور فوقهم ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [البقرة:٦٣] أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل بعد أن رفضوا أن يأخذوا التوراة ويلتزموا بها، فلما أبوا أن يعطوا الميثاق رفع فوقهم الطور، وهو الجبل الذي كلم عليه موسى، وأصبح فوقهم كأنه ظلة، أي: غمامة، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ [الأعراف:١٧١] وواضح من النص أنهم لما رأوا الجبل فوقهم كالغمامة يكاد أن ينطبق فوق رؤوسهم، سجدوا، وأعطوا ذلك الميثاق، ومعنى: نتقنا الجبل: رفعناه.

جنـــــة الســـــنة

وقوله ﴿مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم﴾ [البقرة:٦٣] أي: التوراة، وهو كتاب الله المنزل هداية لهم، ومراده ﴿بِقُوَّةٖ﴾ أي بجدٍّ وصدق وعزيمة.

٥- لولا توبة الله على بني إسرائيل بعد توليهم لأصبحوا من الخاسرين:

ثم ذم الله بني إسرائيل لتوليهم بعد ذلك ﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٤﴾ [البقرة:٦٤] والتولي: «الإدبار عن الشيء، والإعراض بالجسم عنه، ثم استعمل في الإعراض عن الأمور والأديان والمعتقدات اتساعاً ومجازاً» [فتح القدير: ١/ ٢٠٦].

وقوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ﴾ [البقرة:٦٤] أي: من بعد تلك الآية العظيمة وهي رفع الجبل فوقهم، وقوله: ﴿فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٤﴾ [البقرة:٦٤] أي: فلولا توبته - سبحانه - عليكم وإنزاله الكتب، وإرساله الرسل لكنتم من الخاسرين.

٦- ذكر القرية التي احتالت على الصيد يوم السبت فمسخ الله أهلها قردة:

ثم خاطب الله - تبارك وتعالى - بني إسرائيل مذكراً إياهم بما فعله بعض آبائهم، وهم طائفة من اليهود كانوا يسكنون مدينة (أيلة)، وهي إحدى مدائن بلاد الشام، وكانت في موضع مدينة العقبة، وكان من شأنهم أن الله تبارك وتعالى ابتلاهم، فكانت تأتيهم الحيتان في يوم السبت ظاهرة بارزة، فإذا كانت الأيام الأخرى ذهبت، فلم يظهر منها شيء، فلما طال بهم الأمد احتال بعضهم، فنصبوا الشباك وحفروا الحفائر قبل السبت، ثم كانوا يأخذون ما علق فيها من صيد في يوم الأحد ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥﴾ [البقرة:٦٥].

لقد أمرهم الله تبارك وتعالى أن يكونوا قردة صاغرين أذلة، ولا يستطيع أحد أن يأمره الله بأن يكون قردة، فلا يصبح كذلك.

وقد حدَّثنا الله عن هذه الواقعة في قوله: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣﴾ [الأعراف:١٦٣].

وأخبرنا الله في سورة الأعراف أن الذين أنكروا عليهم نجوا، وأن الذين أكلوا هلكوا، وسكت عن الذين خالفوهم، ولم يفعلوا فعلهم، وأصبحت تلك الواقعة عبرة للذين يحتالون

جنـــــة السـنـــــة

على أمر الله تبارك وتعالى كما قال الله عزَّ وجلَّ في هذه الآيات ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [البقرة:٦٦]. ونكالاً: عذاباً، أخبر تعالى أنه جعلهم عبرة لمن بحضرتها من أهل القرى الذين شاهدوها وعاينوها، ولمن جاء بعدها وبلغهم خبرها، فمثل هذه الأخبار تنقل وتروى، ويتعظ بها السامعون إن رزقوا الإيمان.

وفيها عظة لهذه الأمة حتى لا يحتالوا كما احتال بنو إسرائيل، وفي الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل» [رواه ابن بَطَّه في جزء إبطال الحيل، ص٤٦، وصححه ابن كثير في (تفسيره): ١/ ٢٦١].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أصحاب الملل يتنازعون الفضل فيما بينهم، وقد حكم الحقُّ - تبارك وتعالى - بأن المؤمنين بالله واليوم الآخر من هذه الملل هم الجماعة الفاضلة، لا فرق في ذلك بين أمة وأخرى.

٢- من آيات الله العظيمة التي أخبرنا بها رَفْعُهُ الجبلَ فوق بني إسرائيل في عهد موسى، حتى أصبح كأنه غمامة.

٣- ذمّ الله بني إسرائيل في رفضهم أخذ التوراة والعمل بها، فرفع فوقهم الطور، فامتلأت قلوبهم رعباً، وخروا ساجدين.

٤- ما فعله بنو إسرائيل من الاحتيال بصيد السمك في يوم السبت، فيه اجتراء واستخفاف بالأمر الإلهي، «وفي ذلك دليل على أنَّ الله لا يرضى بالحيل على تجاوز أوامره ونواهيه، فإن شرائع الله مشروعة لمصالح وحكم، فالتحيل على خرق تلك الحكم بإجراء الأفعال على صور مشروعة، مع تحقق تعطل الحكمة منها جراءَة على الله تعالى» [التحرير والتنوير: ١/ ٥٤٥].

٥- إن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فبكلمة واحدة، أصبح المحتالون على صيد السمك في السبت قردة خاسئين.

٦- على المسلمين أن يأخذوا العبرة من بني إسرائيل، فيبتعدوا عن الطرائق التي اتبعوها، وعليهم أن ينقادوا للشرع الإلهي، حتى لا يوقع الله بهم مثل العقوبة التي أوقعها ببني إسرائيل.

جنـــــة الســـــنة

٧- قصة مسخ مصطادي السمك من بني إسرائيل ليس لها ذكر في التوراة، ومع ذلك فهي معلومة لليهود، وهذا يدلُّ على أن عندهم علماً غير ما في التوراة، لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ [البقرة:٦٥] أي: عرفتم.

جنـــــة الســـــــنة

النص القرآني الرابع عشر من سورة البقرة
قصة بقرة بني إسرائيل

أولاً: تقديم

حدثنا ربنا - تبارك وتعالى - في آيات هذا النص عن سؤال بني إسرائيل نبيهم موسى عليه السلام عن واقعة قتيل منهم وجدت جثته بين حيين من أحيائهم، كل واحدٍ منهما يتهم الآخر بقتله، فأمرهم أن يذبحوا بقرة، فظنوه يهزأ بهم، فقال لهم: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين.

فاشتغلوا بإيراد الأسئلة التي تبين صفات البقرة المقصودة، وكان الواجب عليهم أن ينفذوا ما أمروا به، وكل البقر لديهم موضع للتنفيذ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم، ولم يجدوا إلا بقرة واحدة تتصف بتلك الصفات، فلما ذبحوا البقرة أمرهم نبيهم أن يضربوا القتيل ببعض منها، فأحياه الله، ودلَّ على قاتله.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- موسى عليه السلام يأمر قومه أن يذبحوا بقرة:

أمر الله - تبارك وتبارك - بني إسرائيل أن يذكروا ما كان من أمر نبي الله موسى قومه أن يذبحوا بقرة، فعجبوا من هذا الأمر الذي أصدره إليهم، وظنوه يسخر بهم، فسألوه عن ذلك، فبادر بالإجابة قائلاً: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة:٦٧] أي: أحتمي

جنـــــة الســـــــنة

بالله أن أكون جاهلاً، فالأمر الذي ينسب إلى الله لا يجوز فيه الهزل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة:٦٧].

إنَّ موسى عليه السلام جادٌّ كل الجِدِّ في أمره إياهم، وما كان له ولا لأحد من المؤمنين أن يسخر بأمر منسوب لرب العالمين، وكان الواجب على بني إسرائيل أن ينفِّذوا الأمر من غير تأخير ولا تسويف، فأي بقرة من جنس البقر أخذوها وذبحوها يكونون قد حقَّقوا ما أمروا به، ولكنهم سوّفوا وأخّروا زاعمين أنهم يريدون من رب العالمين أن يصف لهم البقرة المطلوب ذبحها وصفاً دقيقاً، وقد كانوا في ذلك مخطئين، فكان الواجب عليهم ذبح ما تيسر لهم من البقر، من غير وصف لها بصفات، ومن غير تمييز لها بمميزات لم تحدد لهم عند الأمر.

٢- شدَّد بنو إسرائيل على أنفسهم بالسؤال فشدد الله عليهم بالجواب:

طلب بنو إسرائيل من موسى أن يسأل ربه عن هذه البقرة ما هي ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ﴾ [البقرة:٦٨] شددوا في الطلب، فشدَّد الله عليهم في الجواب، ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [البقرة:٦٨] قال ابن عباس: «لو أخذوا أدنى بقرة اكتفوا بها، ولكنهم شدَّدوا، فشدَّد الله عليهم» [تفسير ابن كثير: ١/ ٢٦٥، وحكم على إسناده بالصحة].

وقد جاء الجواب من الله: إنها بقرة شابّة، ليست بالفارض، وهي المسنّة الكبيرة، ولا بالبكر الصغيرة، والشابة هي العوان التي بين هذين السنين، وهي كما يقول ابن عباس: «أقوى ما يكون من الدواب والبقر، وأحسن ما يكون» [ابن كثير: ١/ ٢٦٥].

وأتبع موسى تحديد السن بقوله: ﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [البقرة:٦٨] أي: سارعوا بتنفيذ ما أمرتم به، ولا تُسَوِّفوا بالإكثار من السؤال.

ولكنَّهم لم يفعلوا وعادوا يسألون: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [البقرة:٦٩]، قال الله - عزَّ وجلَّ - في الجواب: إنها بقرة صفراء، وصفارها خالص، لا يشوبه لون آخر، لا بياض، ولا سواد، ولا حمرة، والعرب إذا أرادت الصفار خالصاً نعتته بكونه فاقعاً ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ [البقرة:٦٩] وهي تقول: أصفر فاقع، وأسود حالك، وأحمر قانٍ، وأبيض ناصع، وأخضر ناضر.

جنـــــة السـنـــــة

وليست بصفرة خالصة فحسب، ولكنها مع ذلك تسرُّ الناظرين، أي: تبهج نفوسهم، قال وهب بن منبه: «إذا نظرت إلى جلدها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها» [تفسير ابن جرير الطبري: ١/ ٣٤٦].

ولم يقف بنو إسرائيل عند ذلك، بل تمادوا في السؤال لمزيد من التحديد، ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [البقرة:٧٠]. قالوا: يا موسى ادع لنا ربك يبين لنا ما هي؟ وهذه هي المرة الثالثة التي يسألون فيها عن ماهية البقرة، إنهم يريدون تحديدها تحديداً دقيقاً، بحيث يعرفونها عندما ينظرون إليها، ولا تختلط عليهم بغيرها، فالبقر الذي تنطبق عليه الصفات المذكورة كثير، وإنا إن شاء الله لمهتدون لذبح البقرة التي طُلِب منا ذبحها، فأجاب موسى عليه السلام قائلاً: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة:٧١].

قال لهم: إن البقرة التي أمرتم بذبحها مدللة، غير مذللة بالعمل، فهي لم توضع قيد العمل، فلا تحرث الأرض، ولا يُسْقى عليها الماء، وهي مع ذلك كله سالمة من العيوب، وليس فيها أي لون آخر يخالط الصفرة، وهذا معنى لاشية فيها.

عند ذلك ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ وبحثوا عن هذه البقرة فوجدوها ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ ما أمروا به، لكثرة تعنتهم، ولكثرة تسويفهم بالسؤال، ولقلة الأبقار التي تنطبق عليها تلك الصفات الكثيرة، ويذكر المفسرون أن بني إسرائيل لم يجدوا إلا بقرة واحدة تنطبق عليها جميع الصفات، فاشتط صاحبها في ثمنها، ولذلك كادوا أن يعدلوا عن الذبح لولا هداية الله لهم.

٣- أمر الله بني إسرائيل بضرب القتيل ببعض من البقرة:

لما أتمَّ بنو إسرائيل ذبح البقرة جاءَهم الأمر من الله بضرب القتيل الذي سألوا موسى عنه ببعض منها، فأحياه الله، ودلَّ على قاتله ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة:٧٢-٧٣] وعقَّب الله على إحياء الميت بهذه الطريقة بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة:٧٣]. والتدارؤ المذكور في الآية النزاع والاختصام والتدافع، كل طائفة تدعي أن الأخرى هي القاتلة، وقد أبهم الله البعض الذي أمروا أن يضربوا به الميت من البقرة، فلا نبحث عنه، وإحياء الميت بهذه الطريقة آية من آيات الله العظيمة، الدالة على قدرته سبحانه على البعث والنشور، وقد ذكر الله لنا جملة من الآيات الدالة على إحيائه الموتى في الدنيا، وسيأتي ذكر بعضها في هذه السورة.

جنـــــة الســـــــنة

٤- قسوة قلوب بني إسرائيل من بعد ما رأوا آية إحياء الله الموتى:

رأى بنو إسرائيل آية عظيمة، رأوا الميت تعود إليه الحياة، وسألوه عن قاتله فدلَّ عليه، وكان ينبغي للقلوب القاسية أن تخشع وتلين، ولكن الذي وقع منهم كان خلاف ذلك ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة:٧٤].

هذه الآية مساقة لتوبيخ بني إسرائيل وتقريعهم على ما كان من قساوة قلوبهم، والقلوب القاسية هي القلوب الصلبة الشديدة اليابسة، وتكون القلوب كذلك إذا خلت من الإنابة لله والإذعان إليه، وقد شبهها في قساوتها بالحجارة، ثم جعل قسوتها أشد من قسوة الحجارة، فإن بعض الحجارة يتفجَّرُ منها الأنهار، وبعضها يتشقق فيخرج منه الماء، وبعضها يهبط من خشية الله، وختم الآية بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة:٧٤] فالله لا يغفل عن شيء فعله العباد، وهو عالم بما سيفعلونه قبل أن يفعلوه، وهو مكتوب عنده في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- في هذه الآيات ذكر آية عظيمة أوقعها الله ببني إسرائيل في زمن موسى عليه السلام، فقد أمرهم نبيهم أن يذبحوا بقرة، ثم يضربوا ببعضها قتيلاً منهم تنازعوا في قاتله، فأحياه الله، ودلَّ على قاتله.

٢- ذمَّ الله بني إسرائيل لكثرة مسائلهم، وقد كان الواجب عليهم عندما أمرهم نبيهم بذبح بقرة أن يأخذوا من البقر الكثير الذي حولهم أي بقرة، فيذبحونها من غير هذا التشديد الذي شددوا به على أنفسهم.

٣- كان السلف الأول من الصحابة والتابعين يرون أن حكم الله فيما أمر ونهى في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، على العموم الظاهر، دون الخصوص الباطن، إلا أن يخص بعض ما عمّه ظاهر التنزيل [ابن جرير: ٣٤٨/١] ولم يكونوا يتوقفون فيما أنزل إليهم من ربهم حتى يسألوا عنه سؤال اليهود.

٤- سميت هذه السورة العظيمة باسم سورة البقرة، لذكر قصة البقرة المذكورة في هذا النص فيها.

جنـــــة الســـــنة

٥- لا يجوز أن يسخر المسلم أو يلعب بأمر يتعلق بالله - تبارك وتعالى - ومن فعل ذلك فإنه يكون من الجاهلين، نعوذ بالله أن نكون منهم.

٦- قرَّرتْ آيات هذا النص أن القلوب قد تصبح قاسية، وقد تزيد قساوتها على قساوة الحجارة الصم الصلدة، فمن الحجارة ما يتفجر منه الأنهار، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء، ومنها الذي يهبط من خشية الله، وإذا كانت القلوب تقسو بسبب الغفلة عن الله والبُعد عنه، فإن قلوب الصالحين تكون لينة مخبتة.

٧- فيما حدّثنا الله عنه من قصص بني إسرائيل وأخبارهم عظات وعبر استفاد منها المسلمون عبر تاريخهم، ولا يزالون.

٨- ما ذكره الله في هذا النص هو القصة الصحيحة في موضوع البقرة، وقد أشاع اليهود في هذه الأيام أنه ولد عندهم بقرة صفراء، وأن وجود هذه البقرة ضروري لقيام دولتهم، وأنهم سيذبحونها ويحرقونها ويذرونها للخلاص من ذنوبهم، وكل هذا من الخرافات التي اخترعوها.

جنـــــة الســــــنة

النص القرآني الخامس عشر من سورة البقرة
لوم الله المؤمنين على طمعهم في إيمان اليهود

أولاً: تقديم

أنكر الله - تبارك وتعالى - على المؤمنين في المدينة طمعهم في إيمان اليهود، فاليهود فسدت فطرهم، وتدنست طبائعهم، وقد بلغ بهم السوء إلى تحريف كتاب الله عن قصد بعد أن فقهوه وفهموه، وامتهنوا النفاق، فقد كان بعضهم يزعمون الإيمان عندما يقابلون المؤمنين، ثم يلوم بعضهم بعضاً على فعلهم ذلك، والدين عند عوام اليهود تخرصات وظنون، أما الأحبار والعلماء فإنهم يحرفون الكتاب الذي بأيديهم، وهم يدَّعون دعاوى كاذبة، فيزعمون أن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة، وهم في ذلك يكذبون على ربّ العزة، فكيف تطمعون أيها المؤمنون بإيمان من كانت فيه كل هذه المصائب والبلايا!!!

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إنكار الله على المؤمنين طمعهم في إيمان اليهود:

أنكر الله على المؤمنين طمعهم في إيمان اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة، وحال اليهود في غير المدينة كحالهم فيها، وها قد مرَّ على نزول القرآن أكثر من ألف وأربعمائة عام، ولم يستجب اليهود لنداء الإيمان الذي جاء به القرآن، قال تعالى: ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ [البقرة:٧٥] (والطمع) كما يقول الراغب الأصفهاني: «نزوع النفس إلى الشيء شهوة له» [المفردات: ٣٠٧] والمراد بالإيمان لهم: انقياد اليهود لهم.

جنـــــة الســـــنة

٢- ما يحول بين اليهود وبين الإيمان:

ليس كل إنسان بصالح للإيمان، فبعض الناس تقذَّرت فطرهم وتلطخت بالقاذورات التي تحول بينهم وبين الإيمان، وقد ذكر الله في هذا النص ثلاثة أمور تحول بين اليهود وبين الإيمان.

أولها: تحريف اليهود كلام الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون: قال تعالى في هؤلاء: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة:٧٥].

والمراد باليهود الذين يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون هم بعض أحبارهم وسادتهم، والمحرَّف هو التوراة التي أنزلها الله على نبيهم موسى عليه السلام، فالقرآن لا سبيل إلى تحريفه، فهو محفوظ بحفظ الله، وتوراة اليهود تحمل - اليوم - الكثير من التحريف، وسيأتي ذكر نماذج من هذا التحريف. ومعنى ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ يغيرونه بتبديل ألفاظه، أو بصرفه وتأويله إلى غير معناه الصحيح عن علم وقصد، ولذلك قال: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة:٧٥]، والذين بلغ بهم الأمر إلى تحريف كلام الله عن قصد وعلم يكون الفساد قد بلغ فيهم منتهاه وغايته.

ثانياً: ادعاء اليهود الإيمان إذا لقوا المؤمنين، فإذا خلا بعضهم إلى بعض تلاوموا فيما بينهم: كان بعض اليهود في المدينة يدَّعون الإيمان عندما يقابلون المؤمنين، فإذا خلا بعضهم إلى بعض بعيداً عن المؤمنين تلاوموا فيما بينهم، وقال بعضهم لبعض ناسين أن الله سامع لما يقولونه: أتحدثون المؤمنين بصفات محمد ﷺ التي حوتها التوراة، وهذا هو الحديث الذي فتحه الله عليهم، وكانوا فيما مضى يظهرونها، ويتوقعون متابعتهم له، ومقاتلة المشركين معه، فلما بُعث من غيرهم تنكروا له، وكفروا به، وحاربوه ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [البقرة:٧٦].

ومحاججة المؤمنين لهم، أنهم يقولون لليهود: أنتم كنتم تحدثوننا عن هذا النبي قبل بعثته، وتتوعدوننا بالإيمان به، ومقاتلتنا معه، فكيف تكفرون بالنبي الذي كنتم تتوعدوننا به، وقد ذكَّرهم الله تبارك وتعالى بأنه عالم بما يسرونه من صفات الرسول ﷺ، وما يعلنونه من الكفر به، ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [البقرة:٧٧].

جنـــــة السـنـــــة

الصنف المحرف للتوراة من يهود:

أخبرنا الله أن كثيراً من اليهود أميون عوام لا يحسنون الكتابة والقراءة ولا يعلمون التوراة وما فيها وما عندهم من ذلك إلا ما يتمنونه وتشتهيه أنفسهم وما لفَّق لهم أحبارهم من أكاذيب منمقة من أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، وأنهم أبناء الله وأحباؤه وغير ذلك. وهؤلاء لا أثر لهم ولا فعل في مسيرة اليهود، وكل ما في عقولهم ظنون وتخرصات، أما الفريق الذي يستحق أن يوجه إليه الويل فهم الأحبار والزعماء والرؤساء الذين يقومون بتحريف كتابهم، فهم يكتبون الكتاب بأيديهم، ويقولون: هو من عند الله، فيحصلون من وراء ذلك على ثمن قليل، يتمثل في الزعامة والرئاسة والأموال الزائلة ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة:٧٨-٧٩].

وقد تهدد الله هؤلاء بسبب ما كتبوه بأيديهم، وتهددهم بسبب ما يكسبونه من عرض الدنيا، ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة:٧٩].

والويل: العذاب الشديد الذي ينكل به بمن وجه إليهم، وهذا الويل موجه لهؤلاء الذين اخترعوا هذه الكتب، ونسبوها إلى الله كذباً وافتراءً عليه، وويل لهؤلاء الذين قصدوا من وراء فعلهم عرض الدنيا الزائل.

وإذا كان هذا هو حال اليهود عوامهم وعلماؤهم، فهم لا يصلحون أن يكونوا مصدراً للهداية ولا موضعاً للتأسي بهم، وقد حذر حبر هذه الأمة عبدالله بن عباس المسلمين من اللجوء إلى أهل الكتاب، وسؤالهم عما أشكل عليهم، فقال: «يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء؟ وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه أحدث أخبار الله، تقرؤونه محضاً لم يشب، وقد حدثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط، سألكم عن الذي أنزل إليكم» [البخاري: ٢٦٨٥، ٧٣٦٣، ٧٥٢٣].

ثالثاً: دعواهم زوراً وكذباً أن نار الآخرة لا تمسهم إلا أياماً معدودة: ومما غيره اليهود وبدلوه ما زعموه أنهم يدخلون النار أياماً معدودة، ثم نخلفهم فيها، ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [البقرة:٨٠] إن هذا الذي ادعاه اليهود قول باطل مفترى، وقد سأل الرسول

جنـــــة السـنــــة

ﷺ طائفة من اليهود بعد تسميمهم شاة أهدوها إليه مصلية في خيبر، فقال لهم: «من أهل النار؟» قال: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها، فقال النبي ﷺ: «اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً» [البخاري: ٣١٦٩].

وقد أمر الله رسوله ﷺ في تكذيبه إياهم بهذه الدعوى أن يقول لهم: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [البقرة:٨٠] فكأنه قال لهم: أنتم بين أمرين: **الأول**: أنكم اتخذتم عند الله عهداً بأن لا تصيبكم النار إلا أياماً معدودات، فإن كان الأمر كذلك، فأين هذا العهد؟ فإن لم يكن هناك عهد، فالأمر شقشقة لسان، وواقع الأمر أنكم تكذبون على الله، وتقولون عليه ما لا تعلمون.

٣- تحديد أصحاب الجنة وأصحاب النار:

بعد أن أكذب الله تعالى اليهود في دعواهم أن النار لا تمسُّهم إلا أياماً معدودة، حدد كلاً من أصحاب النار وأصحاب الجنة في قوله: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة:٨١-٨٢].

فأصحاب النار هم الذين سعوا إلى اكتساب السيئات، فالسيئة عندهم مغنم، فلذلك تراهم يبحثون عنها ويحوزونها، ومن ذلك تحصيل الأموال والمناصب بكل الطرق، ويعدُّون ما حصلوه منها مكاسب وأرباحاً، وهم في سعيهم إلى اكتساب السيئات يَغرَقون فيها حتى تحيط بهم الخطايا من كل جانب، فهؤلاء هم أصحاب النار الخالدون فيها أحقاباً. وأصحاب الجنة الخالدون فيها هم الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه من الله تعالى، وعملوا الصالحات من الواجبات والمستحبات المأمور بها في الكتاب والسنّة.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أنكر الله على طائفة من الصحابة طمعهم في إدخال اليهود في الإيمان، فاليهود فيهم من الفساد ما يصدُّهم عن دخول الإسلام، وقد مضى وقت طويل على نزول القرآن، وكان اليهود ولا يزالون أقل الناس إيماناً.

٢- حرّف بعض علماء اليهود ورؤسائهم كتابهم التوراة عن علم وعقل وتعمد، ومن أعظم ما حرفوه أو غيروه ما بشّر الله به من بعثة رسوله محمد ﷺ.

جنـــــــة الســــــــنة

٣- بعض اليهود في عهد الرسالة أظهروا الإيمان برسولنا ﷺ ، وذكروا أن كتابهم التوراة فيه البشارات به، وكانوا إذا خلا بعضهم ببعض يتلاومون على تحديثهم المؤمنين بما في التوراة من مبشرات بالرسول ﷺ ، خشية أن يتخذها المؤمنون حجة على اليهود في دعوتهم للإيمان.

٤- الله عالم السر والعلن، ومن ذلك علمه بما يتناجى به اليهود في تلاومهم فيما بينهم إذا خلوا على النحو الذي أخبرنا الله به.

٥- بعض اليهود أميون عوام، لا علم لهم بحقيقة دينهم، وكل علمهم بدينهم ما هو إلا أكاذيب وظنون وأماني كاذبة منّاهم بها أحبارهم، أما الذي يستحقون اللوم والتوبيخ فهم أحبارهم وزعماؤهم المبدلون لدينهم، الذين غيروا من دينهم ما يبقي لهم الزعامة والرئاسة، وكل ذلك عرض قليل ومتاع زائل.

٦- يزعم اليهود أنهم أصحاب الجنة، وأن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودات، وهذا كذب منهم على الله عزَّ وجلَّ، ودليل كذبهم أنه لا يوجد عندهم ما يدلُّ على أن الله أعطاهم عهداً بهذا القول الذي افتروه.

٧- أصحاب النار يَسعَوْن وراء اكتساب السيئات، وقد أكثروا من الخطايا حتى أحاطت بهم، وهم في النار خالدون، وأصحاب الجنة الخالدون فيها هم المؤمنون الذين يعملون الصالحات.

جنـــــة السـنة

النص القرآني السادس عشر من سورة البقرة
نقض بني إسرائيل عهودهم مع ربهم

أولاً: تقديم

حدثنا ربنا - تبارك وتعالى - في آيات هذا النص عن الميثاق الذي أخذه على بني إسرائيل، فقد أخذ الله عليهم ميثاقه بأن يعبدوه وحده لا شريك له، كما أخذ عليهم العهد بالإحسان إلى الوالدين وإلى ذوي القربى واليتامى والمساكين، وأن يقولوا للناس حسناً، ويقيموا الصلاة ويُؤْتوا الزكاة، فلم يثبتوا على هذا الميثاق، وتولوا وهم معرضون، وأخذ عليهم الميثاق أن لا يؤذي بعضهم بعضاً، فسفك بعضهم دم بعض، وحارب بعضهم بعضاً، والتزموا بفداء أسراهم، فآمنوا ببعض الكتاب، وكفروا ببعض.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ما أخذه الله على بني إسرائيل من مواثيق فرضها عليهم في أنفسهم:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - ببعض ما أخذه الله على اليهود من مواثيق، والميثاق كما يقول الراغب الأصفهاني: «عقد مؤكد بيمين وعهد» [المفردات: ص٥١٢].

والعهود التي ذكر الله أنه أخذها عليهم منها واجبات فرضها الله عليهم نحو ربهم تبارك وتعالى، وتتمثل هذه الواجبات في عبادته وحده لا شريك له، ومنها الإحسان إلى الوالدين، وإلى ذوي القربى واليتامى والمساكين، وأن يقولوا للناس حسناً، وفرض عليهم تجاه ربهم أيضاً إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ

جنـــــة السـنـــــة

إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة:٨٣].

وأعظم هذه المواثيق هو عبادة الله وحده لا شريك له، وقد أخذ الله هذا الميثاق على كل رسول بعثه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥] وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]. وأخذ عليهم الميثاق بأن يحسن كل إنسان إلى والديه، فحقُّ الوالدين يأتي بعد حق الله، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣].

وأخذ عليهم الميثاق بأن يحسنوا إلى ذوي قرباهم، واليتامى، واليتيم من مات والده وهو صغير، وأخذ عليهم الميثاق بأن يحسنوا إلى الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقونه، أو لا يكفي كسبهم لسدّ حاجتهم، وكل هذا الذي أمروا به هو من الإحسان الفعلي، وأمَرهم بعد ذلك بالإحسان القولي: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣] أي: قولوا للناس أطيب الكلام، وبذلك يأخذون الإحسان من طرفيه: الفعلي والقولي.

وأعلمنا ربنا أنه فرض عليهم إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، فالصلاة حق البدن، والزكاة حقُّ المال، ولا ندري كيف فرضت عليهم الصلاة، ولا مقدار المال الذي فرض عليهم إخراجه في الزكاة.

٢- عدم وفائهم بهذا الميثاق:

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن كثيراً من اليهود لم يفوا بهذه العهود التي أخذها ربهم عليهم في أنفسهم، فأعرضوا عنها إلا قليلاً منهم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة:٨٣] وتوليهم إنما كان بإعراضهم عما أخذه عليهم من مواثيق، قال القرطبي: «الإعراض والتولي بمعنى واحد، مخالف بينهما في اللفظ» [تفسير القرطبي: ١/ ٤٤٢] والذين تولوا وأعرضوا هم أوائل اليهود الذين أخذ عليهم العهد، والمخاطبون في العهد النبوي هم سائرون على ما سار عليه المعرضون.

٣- أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل بأن لا يسفك بعضهم دم بعض ولا يخرجون أنفسهم من ديارهم:

وأخذ الله على بني إسرائيل نوعاً آخر من الميثاق، وهذا الميثاق يحدد علاقة بني إسرائيل فيما بينهم، فقد أخذ عليهم أن لا يقتل بعضهم بعضاً، ولا يخرج أحد منهم إخوانه من ديارهم

جنـــــة الســـــنة

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [البقرة:٨٤].

وإقرارهم يعني اعتراف يهود المدينة بأن هذا أخذ على آبائهم، وأنه لازم لهم كما هو لازم لآبائهم.

٤- **نقضهم عهدهم مع الله تبارك وتعالى:**

خاطب الله اليهود في العصر النبوي الذين نقضوا الميثاق الذي أخذه على آبائهم، فقد اقتتلوا فيما بينهم، كما فعلت بنو قريظة وبنو النضير، وعنى بأنفسهم إخوانهم في الدين، فإن الأخوة في الدين تجعل المجموع كنفس واحدة، وقد وصف رسولنا ﷺ المؤمنين بأنهم كالجسد الواحد، فقال: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى» [البخاري: ٦٠١١، مسلم: ٢٥٨٦].

ومن نظر في تاريخ اليهود في المدينة المنورة علم مدى نقضهم للميثاق الذي أخذه الله عليهم، فقد قسموا أنفسهم فيما بينهم إلى قسمين، **الأول**: كانوا مع الأوس، وهم بنو قريظة، والفريق الثاني كانوا مع الخزرج، وهم بنو قينقاع وبنو النضير، فإذا قامت الحرب بين الأوس والخزرج انضم إلى كل فريق حلفاؤه من اليهود، وبذلك يقتتل اليهود في حومة الوَغى فيما بينهم، ويسفك بعضهم دم بعض، وإذا أخرج المنتصر المهزوم من دياره، أخرج اليهودَ حلفاءَ المهزومِ من ديارهم، فإذا كان فيهم أسرى، فإنهم يفتدون أسراهم، ويطلقون سراحهم، بدعوى أن اللهَ أوجب عليهم ذلك، وبذلك وقعوا في تناقض بيّن، ونقضوا الميثاق الذي أخذه الله عليهم، وقد عاب الله عليهم هذا في قوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ [البقرة:٨٥].

وقد وبّخهم رب العزة على فعلهم هذا، وعدّه إيماناً ببعض الكتاب وكفراً ببعض آخر، وما جزاء من يفعل هذا الفعل إلا خزي في الحياة الدنيا، وفي الآخرة يردون إلى أشد العذاب، وما الله بغافل عما تعملون ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة:٨٥].

هذا الفريق فعل ما فعل إيثاراً للدنيا على الآخرة، فما فعل ما فعله مخالفاً ما فرض الله عليهم إلا رجاء تحصيل متع الدنيا وأهوائها وشهواتها وأموالها، ولذلك فإن مصيرهم إلى النار

جنـــــة الســـــنة

وغضب الجبار، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [البقرة:٨٦].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل، ومن المواثيق التي أخذها الله عليهم ما ذكره الله في هذه الآيات، وهي عبادتهم الله وحده، والإحسان إلى الوالدين وأولي القربى واليتامى والمساكين، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأخذ عليهم الميثاق بأن لا يؤذي بعضهم بعضاً.

٢- كل هذا الذي أخذه الله على بني إسرائيل فرضه الله على الأمة الإسلامية، وقد نصّ على هذه الفرائض مع زيادة في قوله: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء:٣٦].

٣- نقض بنو إسرائيل عهودهم مع ربهم تبارك وتعالى، فتركوا كثيراً مما أُمروا به، وإذا كانت فيهم بقية تأخذ بعض الأحكام التي فرضت عليهم، فإنهم مذمومون لإيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض.

٤- بعض هذه الأمة فَعَلَ فعل اليهود، فترك ما فرضه الله عليه، وقتل بعضهم بعضاً، وأخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، ولذلك ذلُّوا واستعلى عليهم أعداؤهم، وأخذوا ديارهم، وهضموا حقوقهم.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني السابع عشر من سورة البقرة
كلما جاء بني إسرائيل رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا

أولاً: تقديم

كشف لنا ربنا في آيات هذا النص الكريم أن وراء تصرفات بني إسرائيل الحمقاء الرعناء هوى النفوس الجامح، والحسد الفاضح، وهذا الهوى هو الذي قادهم إلى الاستكبار، وقتل الأنبياء والصالحين، والكفر بالرسول الخاتم ﷺ، والكتاب المنزل عليه من عند الله، وقد أعلمنا ربنا - تبارك وتعالى - أن البغي والحسد للمسلمين هو الذي جعلهم يكفرون برسولنا وكتابنا، لأن هذا الرسول جاء من غيرهم.

فالقضية عندهم ليست قضية حقٍّ وعدل وصواب، بل قضية هوى متجذر متعمق، وهذا الصنف لا ينفع معه الحجاج، ومصير هؤلاء النار وغضب الجبار.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ
ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟
قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ
وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ
عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟
بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ
تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ
ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - إيتاء الله موسى الكتاب والتقفية عليه بالرسل:

أعلمنا ربنا في الآية الأولى من آيات هذا النص أنه آتى موسى عليه السلام الكتاب، ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [البقرة:٨٧] والكتاب الذي آتاه إياه التوراة، وهو كتاب عظيم، جعله كتاب هداية لبني إسرائيل.

جنـــــة الســـــنة

وقفا على موسى عليه السلام بالرسل ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ [البقرة:٨٧] والتقفية الإتباع والإرداف، مأخوذة من القفا، وهو مؤخر العنق، والرسل الذين قفا بهم كثيرون مثل: هارون، وداود وسليمان وغيرهم.

٢- إيتاء الله عيسى ابن مريم البينات وتأييده بروح القدس:

وأخبرنا ربنا - سبحانه وتعالى - أنه آتى عيسى ابن مريم البينات، والبينات هي المعجزات التي أيده بها، وأجراها على يديه، ومنها ما ذكره في سورة آل عمران ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران:٤٩].

ومنها ما ذكره الله في سورة المائدة في قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة:١١٠].

وأيد الله عيسى بروح القدس ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة:٨٧] وروح القدس الذي أيد الله به عيسى هو جبريل عليه السلام، وهو الذي تمثل لمريم بشراً سوياً، وقال لها: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم:١٩] وهو الذي نزل على قلب الرسول ﷺ بالقرآن ليكون من المنذرين، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥].

وهو الذي دعا رسولُ الله ﷺ ربَّه أن يؤيد به حسان بن ثابت في هجائه المشركين، فقد قال الرسول ﷺ: «يا حسان، أجب عن رسول الله ﷺ، اللهم أيده بروح القدس» [البخاري: ٤٥٣، مسلم: ٢٤٨٥].

وقال حسان بن ثابت ذاكراً أن جبريل روح القدس [فتح القدير للشوكاني: ١/ ٢٢٨]:

وجبريـــــل أمـــين الله فينـــا ... وروح القـــدس لـــيس بـــه خفـــاء

جنـــــة الســــــنة

٣- توبيخ الله بني إسرائيل على اتباعهم الهوى:

وبَّخ الله بني إسرائيل في قوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة:٨٧].

وأخبرنا ربنا - عزَّ وجلَّ - في هذه الآية أن من دَأْب اليهود اتباع أهواء نفوسهم، وقد أدَّى بهم الهوى إلى الاستكبار عن الحقِّ، وقوله: ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾ [البقرة:٨٧] أي: على خلاف ما تشتهيه أنفسكم.

والهوى المتبع على ما قاله الكلبي ونقله عنه ابن القيم: «اتباع مسافِل الأمور، وترك معاليها، وقال آخر: اختار الدنيا على الآخرة، وقال عطاء: أراد الدنيا وأطاع شيطانه» [أعلام الموقعين: ١/ ٢٩٤] وهذه المعاني قريب بعضها من بعض، وبلغ بهم اتباع الهوى والاستكبار عن الحق إلى تكذيبهم الأنبياء كعيسى ومحمد عليهما السلام، وقتلهم طائفة أخرى كزكريا ويحيى عليهما السلام.

وقد حفظت لنا كتب السنّة وقائع عدة حاول فيها اليهود قتل رسولنا ﷺ في المدينة، وفي خيبر، فقد حاولوا أن يلقوا عليه حجراً عندما جاءَهم إلى ديارهم في المدينة مرة، وسحروه أخرى، وأهدوا له شاة مصلية مسمومة في خيبر، فأكل منها أحد أصحابه فمات، وأكل منها لقمة، فحفظه الله حتى أدى الرسالة، وما زالت تلك الأكلة تعاوده حتى قطعت أحد عروق قلبه، وهو الأبهر.

وقوله تعالى: ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة:٨٧] عبر بصيغة المضارع ﴿تَقْتُلُونَ﴾ لأن محاولتهم قتل الأنبياء لم تتوقف، وبقي هذا دأبهم مع رسولنا ﷺ، وهذه الآية فضحت اليهود، وهتكت سترهم، فلم يكن رفضهم الإيمان برسولنا ﷺ بسبب استمساكهم بدينهم، واتباعهم لأنبيائهم، وإنما هو بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، ذلك أن توراتهم وكذلك أنبياؤهم يأمرونهم بمتابعة محمد ﷺ.

٤- دعوى بني إسرائيل أن الإيمان لا يصل إلى قلوبهم لكونها مغشاة:

ادعى اليهود أن قلوبهم مغشاة فلا يصل إليها نور القرآن ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة:٨٨] وهذه الآية كقوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء:١٥٥].

والقلوب الغلفاء: القلوب المغشاة، التي لا ينفذ نور القرآن إليها، والسبب في عدم وصول نور القرآن إليها طبع الله عليها، ولعن الله أصحابها، ولذلك قلَّ أن يدخل أحد منهم في الإيمان، وسُمِّي القلب قلباً لكثرة تقلبه.

جنـــــة السـنـــــة

٥- السبب في عدم إيمانهم بالقرآن المنزل على محمد ﷺ :

كان المتوقع من بني إسرائيل أن يؤمنوا بالكتاب المنزل على رسولنا محمد ﷺ ، لأنَّ الله تبارك وتعالى حدَّث بني إسرائيل في كتابهم التوراة عن هذا الكتاب، ولأن القرآن مصدق للتوراة، وقد كان اليهود يستنصرون على العرب قبل الإسلام بهذا الكتاب وبالرسول المنزل عليه، ويزعمون أنهم سيتبعونه بعد تنزله، فكفروا به بعد مجيئه، فكان هذا منهم عجباً ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة:٨٩].

قال ابن كثير: «كان اليهود من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب، يستنصرون بمجيئه على أعدائهم المشركين إذا قاتلوهم، يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان، نقتلكم معه قتل عاد وإرم، كما قال محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري، عن أشياخ منهم، قال: قالوا: فينا - والله - وفيهم، يعني: في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة، ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٨٩] قالوا: كنا علوناهم دهراً في الجاهلية، ونحن أهل شرك، وهم أهل كتاب، فكانوا يقولون: إن نبياً يبعث الآن نتبعه، قد أظلَّ زمانه، نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله رسوله من قريش كفروا به، يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة:٨٩]» [تفسير ابن كثير: ١/ ٢٨٨].

٦- كفر بني إسرائيل بالنبي الخاتم حسداً منهم للمسلمين:

ذمَّ اللهُ بني إسرائيل، لأنهم باعوا نصيبهم من الآخرة بعرض قريب من الدنيا، قال تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [البقرة:٩٠].

و(بئس) فعلٌ مُستوفي جميع الذم في لغة العرب، كما أن (نِعْمَ) فعل مستوفي جميع المدح، والاشتراء في الآية بمعنى البيع، والمعنى بئس ما باعوا به حظَّ أنفسهم حين اختاروا الكفر بما أنزل الله، وقوله: ﴿بَغْيًا﴾ أي: حسداً أن ينزل من فضله على من يشاء من عباده.

٧- المعنى المراد بقوله تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن اليهود ﴿بَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة:٩٠] ومعنى ﴿بَآءُو﴾: رجعوا، وهذا الغضب هو من عند الله، وهو غضب مضاعف، غضب الله عليهم أولاً لكفرهم بعيسى وبالإنجيل الذي أنزل عليه، ثم كفروا بمحمد ﷺ وبالقرآن الذي أنزل عليه.

جنـــــة الســــــنة

وقوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩٠﴾ [البقرة:٩٠] أخبر الله أن للكافرين عذاباً مهيناً، وهو الخلود الأبدي السرمدي في دار البوار، بخلاف عذاب عصاة المؤمنين في النار، فإنه عقاب يطهرهم به، ثم يدخلهم الجنة. وقد أخبرنا رسول ﷺ عن شيء من العذاب المهين الذي يجريه الله على أمثال هؤلاء من بني إسرائيل، فقال: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر، في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصَّغَار، حتى يدخلوا سجناً في جهنم، يقال له: بُولَس، فتعلوهم نار الأنيار، يسقون من طينة الخَبال، عصارةِ أهلِ النار» [مسند أحمد: ١١/ ٢٦٠، ورقمه: ٦٦٧٧، وإسناده حسن].

٨- دعوى بني إسرائيل أنهم مؤمنون بكتابهم كافرون بما وراءه:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن بني إسرائيل عندما يؤمرون بأن يؤمنوا بما أنزل الله، يزعمون أنم يؤمنون بما أنزل الله عليهم، ويكفرون بغيره، استمساكاً منهم بالمنزل عليهم، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ﴾ [البقرة:٩١].

والمنزل إليهم التوراة، والذي وراء التوراة الإنجيل والقرآن، ودعواهم كاذبة مضللة، فالتوراة تأمر بالإيمان بالقرآن، والقرآن نزل من عند الله حقاً، وهو مصدق لما معهم.

وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يرد عليهم دعواهم الكاذبة، ويقول لهم: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٩١﴾ [البقرة:٩١] يقول لهم: إذا كنتم صادقين في دعواكم، فلِمَ قتلتم أنبياء الله كزكريا ويحيى، وقد حاولوا قتل عيسى ومحمد ﷺ، فحفظهما الله، ونجاهما.

٩- تأنيب الله بني إسرائيل لاتخاذهم العجل بعدما جاءهم موسى بالبينات:

جاء موسى عليه السلام قومه بالبينات، أي: الآيات البينات، والدلائل الواضحات، ومن هذه الآيات الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف:١٣٣] ومن تلك الآيات إنزال التوراة والعصا التي تتحول إلى ثعبان مبين، واليد التي تصبح بيضاء للناظرين، وبعد تلك الآيات كلها اتخذوا العجل إلهاً من دون الله، اتخذوه وكانوا ظالمين، ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ۝٩٢﴾ [البقرة:٩٢]. والظلم في الآية هو الكفر والشرك.

جنـــــة السـنة

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- يدَّعي بنو إسرائيل عندما يدعون إلى الإيمان بمحمد ﷺ وما أنزل عليه أن لهم ديناً يستمسكون به، فأكذبهم الله في دعواهم هذه، وأعلمنا بأنَّ الذي حملهم على الكفر بديننا هو اتباعهم الهوى واستكبارهم عن الحق، فهذا هو الذي جعلهم يقتلون بعض الأنبياء، ويكذبون آخرين.

٢- ادَّعى بنو إسرائيل أن قلوبهم مغشاة، فلا يصل إليها الهدى والنور، ومراده من هذه الدعوى تيئيس المسلمين من إيمانهم.

٣- صبَّ اللهُ على بني إسرائيل غضبه مضاعفاً، لتعدد الكفر الذي أحدثوه، فقد كفروا بعيسى أولاً، وبمحمد ﷺ ثانياً.

٤- كفر اليهود بالقرآن كفر مستغرب متعجب منه، لأنَّ القرآن مذكور في كتابهم التوراة، موصوف فيه، ولأنَّ القرآن مصدق لما معهم، وقد كانوا يستفتحون على العرب في الجاهلية بالقرآن، ويزعمون أنه سينزل، وسيتبعوه، وسيقاتلون العرب به، فلما نزل كفروا به، فكان أمرهم عجباً.

٥- آتى الله موسى عليه السلام آيات بينات مثل العصا، والجراد والقمل والضفادع والدم، وتظليل بني إسرائيل بالغمام، وإنزال المن والسلوى عليهم في الصحراء، إلى غير ذلك من الآيات.

وكذلك آتى عيسى عليه السلام آيات بينات كثيرة ذكرتُ بعضها في تفسير الآيات.

٦- تمجيد روح القدس وهو جبريل عليه السلام، فقد أيَّد الله به عيسى عليه السلام، ونزل بالقرآن على قلب محمد ﷺ، وهو الذي نفخ الروح في آدم عليه السلام فأصبح حيّاً سميعاً بصيراً، ونفخ في مريم فحملت بعيسى عليه السلام.

٧- حسد اليهود للعرب أن جعل الله الرسالة الأخيرة فيهم، ومنهم اختار خاتم الرسل والأنبياء.

٨- من الجرائم الكبار التي ارتكبها بنو إسرائيل بعدما أنزل إليهم التوراة هدى ونور اتخاذهم العجل إلهاً من دون الله.

جنــــــة الســــــنة

النص القرآني الثامن عشر من سورة البقرة
كذب دعوى بني إسرائيل أن الدار الآخرة لهم من دون الناس

أولاً: تقديم

تكشف آيات هذا النص النفسية اليهودية المريضة، فقد أخذ الله على بني إسرائيل الميثاق فرفضوه، فرفع فوقهم الطور آمراً إياهم بأخذ الميثاق، فسمعوا بآذانهم وعصت قلوبهم، وأُشرِبت قلوبهم حبَّ العجل الذي عبدوه من دون الله.

وكشف الله كذب دعواهم أنهم أهل الآخرة دون الناس، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وطالبهم إن كانوا صادقين فيما يدَّعونه، أن يتمنوا الموت، وأخبر أنهم لن يتمنوه، فظهر كذبهم، وأخبر عنهم أنهم حريصون على الحياة أعظم الحرص، وأن الواحد منهم يتمنى أن يعيش ألف سنة، ومع ذلك فإن طول عمره لا ينجيه من العذاب، وكشف الله نفسيتهم المريضة بدعواهم أن عدم إيمانهم سببه أن الذي يأتي بالوحي إلى رسولنا هو جبريل، وهو عدوهم، فلو جاء به ميكائيل لقبلوه، وتلك فرية كبيرة أرادوا بها ستر عيوبهم، وكذبهم واضح ليس به خفاء.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة البقرة

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا
وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن
كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ
ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن
يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ
وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير هذا النص من القرآن

١- رفض بنو إسرائيل الميثاق فرفع الله الطور فوقهم كأنه غمامة:

أمر الله بني إسرائيل أن يأخذوا الميثاق فأبوا، فرفع الله الطور وهو الجبل فوقهم كأنه غمامة، وأمرهم أن يأخذوا التوراة التي أنزلها على نبيه موسى ﷺ، فيعملوا بما أمرهم به،

جنـــــة الســــــنة

وينتهوا عما نهاهم عنه، وأن يطيعوا ربهم في ذلك، وإلا سقط الطور فوق رؤوسهم ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ [البقرة:٩٣].

وقوله: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ [البقرة:٩٣] أمرهم أن يأخذوا شريعة التوراة بقوة، والقوة تتمثل في العزم على فعل المأمور به، والنشاط والجد في التنفيذ، والمراد بالسماع في قوله: ﴿وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ [البقرة:٩٣] أي: سماع القبول، مع الفقه والتنفيذ، فاستمعوا بآذانهم، وعصت قلوبهم ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ [البقرة:٩٣] والآية صريحة في الدلالة على أنهم سمعوا ما شَرَع لهم ربُّهم بآذانهم، وأبت قلوبهم قبوله وتنفيذه.

وقوله: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ ﴾ [البقرة:٩٣] أي: أشربوا حبَّ العجل، وموضع المحبة القلب، وكان ذلك في القوم الذين عبدوا العجل، وقت عبادتهم إياه، وهذا يدلُّ على مدى محبة أولئك الأقوام للعجل المصنوع من الذهب، والفقيه بدينه يعلم أن أفعال الشرك والكفر والذنوب والمعاصي تنغرس في قلوب القائمين بها، وتترك آثارها فيها، ففي الحديث عن حذيفة، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «تُعرَض الفتنُ على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأيُّ قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مُرْباداً، كالكوز مُجَخِّياً، لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، إلا ما أُشرِب من هواه» [مسلم: ١٤٤] [مُرْباداً من الرُّبْدَة: لون بين السواد والغبرة، والمُجَخِّي: المائل عن الاستقامة والاعتدال].

ففي الحديث أن القلوب تشرب الفتن، وأنها تؤثر فيها، وينكت فيها بالبياض والسواد، حتى تصبح القلوب بيضاء كالصفا، أو أسود مِرْباداً، كالكوز مجخيا.

٢- ذمَّ الله إيمان اليهود الذي أمرهم بعبادة العجل وقتل الأنبياء:

وأمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يوبخ اليهود قائلاً لهم: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [البقرة:٩٣] أي: بئس الشيء الذي يأمركم به إيمانكم من عبادة العجل، وقتل الأنبياء، وتكذيب الرسل، وكتمان الحق، ونحو ذلك، وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [البقرة:٩٣] أي: بما زعمتم أنه أنزل عليكم.

٣- إظهار كذب بني إسرائيل في دعواهم أنهم أصحاب الجنة وأنهم أبناء الله وأحباؤه:

وناقش الحقُّ - تبارك وتعالى - اليهود فيما زعموه زوراً وبهتاناً أنهم أصحاب مكانة عالية عند ربهم، فقد زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ

جنـــــة السـنـــــة

﴿وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨] وزعموا أنهم أصحاب الجنة دون الناس: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ [البقرة:١١٢].

وهذه المقالة المفتراة من اليهود كانت ولا تزال تبلبل الأذهان، وتوقع الناس في الحيرة، فكان لا بد من فضح القائلين بها، وإظهار حقيقتهم، وتكذيب مقالتهم، فأمر الله نبيه ﷺ أن يطلب من هذا الفريق الضال الذي يدعي أنه الأكمل والأفضل، أن يتمنى الموت وقال لهم: ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [البقرة:٩٤-٩٥].

طلب من الرسول ﷺ أن يطلب منهم أن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين، وقبل أن يفعلوا أخبر أنهم لن يفعلوا، ولن يتمنوا الموت، فهم يعلمون أن محمداً وصحبه صادقون، وأنهم ضالون كاذبون مفترون، فكيف يتمنون الموت، وفي الموت وما بعده هلاكهم ودمارهم، ولكن هذا الطلب فضحهم، وكشف عوارهم وفريتهم، وبيّن أنهم كاذبون فيما ادعوه، وأن غايتهم من مقالتهم هو إيجاد العذر الذي يحفظ لهم ماء الوجه عند الناس، ولكن الله لا تخفى عليه خافية، فهو عليم بمدى ظلمهم وتعنتهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [البقرة:٩٥].

وقد صح عن ابن عباس رضي الله عنه أن اليهود عندما قال الله لهم: تمنوا الموت أنّهم «لو تمنوه لماتوا» [تفسير عبدالرزاق: ١/ ٢٨١، الحديث رقم (٩١)، مسند أحمد: ٤/ ٩٨ الحديث رقم (٢٢٢٥)، وقال محققوه: صحيح].

٤- السبب في عدم تمني اليهود الموت:

كشف الله - تبارك وتعالى - لنا عن طبيعة النفس اليهودية التي تمنعهم من تمني الموت في قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة:٩٦].

أخبرنا ربنا تبارك وتعالى أنه يمنع اليهود من تمني الموت شدةُ حرصهم على الحياة، فهم أحرص الناس على حياة، وهم في ذلك أحرص من الذين أشركوا، وقد كان المشركون من الفرس يتمنى الواحد منهم أن يعيش ألف سنة أو عشرة آلاف سنة، وهو إن عُمِّرَ هذا العمر الطويل فلن يزحزحه من العذاب الأخروي، وإنما كان حرص اليهود على الدنيا أشد من حرص المشركين، لأن المشرك لا يعتقد أن بعد الموت حساباً وجزاءً بخلاف اليهود الذين يعلمون ذلك ويعتقدونه.

جنـــــة الســـــنة

وقوله في ختام الآية: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [البقرة:٩٦] البصير: العالم بالشيء الخبير به.

٥- دعوى اليهود أن الذي يمنعهم من الإيمان أن الملك الذي يأتي محمداً هو جبريل:

أمر الله - تبارك وتعالى - رسوله ﷺ أن يخاطب اليهود بقوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٩٧ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٩٨﴾ [البقرة:٩٧-٩٨]. قال الشوكاني رحمه الله: «أجمع المفسرون على أن هذه الآية نزلت في اليهود، قال ابن جرير: وأجمع أهل التأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً على اليهود إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم» [فتح القدير: ١/ ٢٣٧].

وخلاصة ما قيل في تفسير الآيتين: أن اليهود تذرعوا لعدم إيمانهم بمحمد ﷺ أن الذي يأتيه بالوحي هو جبريل، وهو الملك الذي يأتي بالشدة والغلظة وسفك الدماء، وفي صحيح البخاري عن أنس أن الرسول ﷺ قدم المدينة، فسمع به عبدالله بن سلام، فجاءه، وسأله عن ثلاث، فقال له: «أخبرني بهن جبريل آنفاً» قال عبدالله: جبريل، قال: «نعم» قال: ذلك عدو اليهود من الملائكة. فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٩٧] [البخاري: ٤٤٨٠].

وقد قالت اليهود لعمر بن الخطاب: إن لهم عدواً من الملائكة وسلماً من الملائكة، فعدوهم جبريل وسِلْمُهم ميكائيل، فقال لهم عمر: «وفيم عاديتم جبريل؟ وفيم سالمتم ميكائيل؟» قالوا: «إن جبريل ملك الفظاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا. وإن ميكائيل ملك الرأفة والرحمة والتخفف، ونحو هذا» [ابن كثير: ١/ ٢٩٩].

إن هذا الذي اعتذر به اليهود فرية سخيفة يدارون بها كفرهم، فجبريل لا يتحرك، ولا ينزل، ولا يتصرف إلا بأمر الله ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤﴾ [مريم:٦٤].

٦- مكانة جبريل عليه السلام وفضله:

إن دعوى اليهود أنهم يعادون جبريل، ويوالون ميكائيل وإسرافيل دعوى باطلة، فالتفريق بين الملائكة برضاهم ببعضهم ومعاداة بعضهم، والتفريق بين الرسل بإيمانهم ببعضهم، وكفرهم بآخرين، نظرية باطلة، بعيدة عن الصواب ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ

جنــــــة الســــــنة

﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة:٩٧-٩٨].

إن التفريق بين الملائكة بموالاة بعضهم ومعاداة بعض ضلال، فمن عادى جبريل فقد عادى الله وميكائيل وإسرافيل والأنبياء جميعاً، ومن كفر بواحد من الرسل، فقد كذب الأنبياء جميعاً.

وقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٩٧] هو كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥] وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة:٩٧] أي: القرآن مصدق لما أنزل من الكتب وخاصة التوراة والإنجيل، وصرَّح الحقُّ - تبارك وتعالى - أن من عادى الله أو ملكاً أو نبياً فإنه كافر، والله يعادي الكافرين.

وقد كان الرسول ﷺ يفتتح صلاته من الليل إذا قام بقوله: «اللهمَّ رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» [مسلم: ٧٧٠]. وحكى البخاري عن عكرمة أنه قال: «جبر، وميك، وسَرافِ: عبد، وإيل الله» [البخاري تعليقاً قبل الحديث: ٤٤٨٠].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - ذم الله بني إسرائيل بنقضهم ميثاقهم مع ربهم، وعصيانهم لما أخذه عليهم فيما أمرهم به ونهاهم عنه، ومن ذلك كفرهم بالنبي الخاتم.

٢ - ذمّ الله اليهود الذين عبدوا العجل من دون الله، وبلغ بهم الحال إلى أن أشربوا محبته في قلوبهم عندما عبدوه.

٣ - فضح الله اليهود الذين كانوا يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن لهم الجنة خالصة من دون الناس، وطالبهم إن كانوا صادقين فيما أخبروا به أن يتمنوا الموت، فظهر كذبهم، ولم يفعلوا ما طالبهم به رسولنا ﷺ.

جنـــــة السـنة

٤- من آيات الله الدالة على صدق الرسول ﷺ أن الله أخبر أن اليهود لن يتمنوا الموت، وكان الأمر على النحو الذي أخبر به، فلم يتمنوا الموت الذي تحداهم به.

٥- كشف الله لنا عن طبيعة اليهود الخفية، فهؤلاء القوم أحرص الناس على حياة، مهما كان لونها، وحبهم للحياة يفوق حب المشركين لها، ولذلك فإنهم لا يستطيعون تمني الموت.

٦- قضى الحقُّ - تبارك وتعالى - على الفرية اليهودية التي تزعم أن السبب في عدم متابعتهم لمحمد ﷺ أن الذي يأتيه من الملائكة هو جبرائيل، وهو عدو اليهود من الملائكة، وهي فرية عظيمة، فجبريل هو الناموس الذي نزل على موسى عليه السلام، وعلى كل الأنبياء والمرسلين، ولا فرق بين جبريل وميكائيل وإسرافيل وبقية الملائكة، فمن عادى واحداً من الملائكة، فقد عادى كل الملائكة والرسل.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني التاسع عشر من سورة البقرة
نبذ بني إسرائيل الكتاب وأخذهم السحر

أولاً: تقديم

لا يزال الحديث في هذا النص مستمراً مع بني إسرائيل الذين كفروا بالشريعة الخاتمة المنزلة، ونقضوا عهودهم مع ربهم التي أخذها عليهم، وكفروا بالرسول الخاتم الذي جاءَهم بالقرآن الذي يصدق التوراة، فنبذ اليهود هذا الكتاب الكريم وراء ظهورهم نبذهم للنواة، حالهم في ذلك حال الجهلاء الذين لا يعلمون، واستبدلوا الخير الطيب الذي جاءهم من عند الله باتباع السحر، وعكفوا على دراسة ما كانت تتلوه الشياطين على عهد ملك سليمان، وما أنزل على الملكين بمدينة بابل العراقية، ولو أنهم آمنوا بالله واتقوه لكان خيراً لهم وأفضل من متابعة السحر الذي يُعبِّدُهم للشيطان.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إنزال الله آياته البينات على عبده ورسوله محمد ﷺ:

خاطب ربّ العزة - تبارك وتعالى - عبده ورسوله محمداً ﷺ ممتناً عليه بما أنزله عليه من آيات بينات، أي: واضحات، وبيّن أنه لا يكفر بهذه الآيات إلا الفاسقون، أي: الخارجون عن طاعة الله ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [البقرة:٩٩].

جنـــــة الســـــنة

«ومن تلك الآيات ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود، ومكنون سرائرهم وأخبارهم، وأخبار أوائلهم، والنبأ عما تضمنته كتبتهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم» [تفسير ابن جرير: ١/ ٤٤٠].

والفاسقون: الخارجون عن طاعة الله وشرعه في كتابهم الذي أنزله عليهم، وهو التوراة، وفي كتابنا المنزل على نبينا وهو القرآن.

٢- نقض بني إسرائيل عهودهم التي أبرموها مع الله ومع عباد الله:

ذم الله بني إسرائيل في نقضهم عهودهم التي أبرموها مع الله ومع الناس ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٠﴾ [البقرة:١٠٠].

وقد شاهدنا في هذه الأيام أن اليهود في فلسطين أسرع الناس نقضاً للعهود، فكلما أجروا اتفاقاً بادروا إلى نقضه، بحيث أصبح هذا ديدنهم ودأبهم.

والواو في قوله: ﴿أَوَكُلَّمَا﴾ في أول الآية للعطف، دخلت عليها همزة الاستفهام، وقوله: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ﴾ [البقرة:١٠٠] وأصل النبذ الطرح والإلقاء، ومنه سمي اللقيط منبوذاً، لأنه مطروح ملقى به، وسمي النبيذ نبيذاً، لأنه زبيب أو تمر مطروح في إناء.

٣- كفر بني إسرائيل بالرسول الخاتم وكفرهم بالكتاب الذي أنزل عليه:

أخبرنا الله تبارك وتعالى أن بني إسرائيل لما جاءهم الرسول الخاتم من عند الله مصدق لما معهم كفروا به، وكفروا بالكتاب الذي أنزل عليه، وهو القرآن ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾ [البقرة:١٠١].

وفائدة تنكير ﴿رَسُولٞ﴾ في الآية التفخيم والتعظيم، أي: لما جاءهم رسول عظيم كريم، وهو رسولنا محمد ﷺ.

وقوله: ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لرسول، أي: رسول كائن من عند الله، وقوله: ﴿مُصَدِّقٞ﴾ صفة أخرى للرسول.

ووجه كونه مصدقاً لما معهم أنه أخبر بصدق التوراة، وأنها منزلة من عند الله، وصَدَّق ما فيها من التوحيد وأصول الدين، وأخبار الأمم والمواعظ والحكم، وأظهر ما سألوه عن

جنـــــة السـنــــة

غوامضها، وقيل: إن تصديقه للتوراة تحقق ببعثته على النعت الذي وصفته التوراة، فقد كان وجوده ونعته مطابقاً للأوصاف التي أخبرت التوراة بها، ولو لم يأت الرسول ﷺ على هذا النحو لكانت التوراة كاذبة، والصحيح أن كلا المعنيين صحيح مراد.

والمراد بـ «النبذ» في الآية الإعراض عما أمرهم به كتابهم من متابعة الرسول ﷺ والإيمان به، والعمل بالكتاب الذي جاء به، قال السدي: «نبذوا التوراة، وأخذوا بكتب آصف وسحر هاروت وماروت. وقال الشعبي: هو بين أيديهم يقرؤونه، ولكن نبذوا العمل به. وقال سفيان بن عيينة: أدرجوه في الحرير والديباج، وحَلُّوه بالذهب والفضة، ولم يُحِلُّوا حلاله، ولم يحرِّموا حرامه، ذلك النبذ» [القرطبي: ٢/ ٤١].

وقد شبّه الحقُّ - تبارك وتعالى - تركهم لكتابه وإعراضهم عنه بحال من يرمي الشيء الذي يُستخفُّ به وراء ظهره، يقول القرطبي: «وهذا مثل يضرب لمن استخف بالشيء فلا يعمل به، تقول العرب: اجعل هذا خلف ظهرك، ودبراً منك، وتحت قدمك، أي: اتركه وأعرض عنه، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّا﴾ [هود:٩٢]».

وفي هذه الآية ذم لليهود، وتقريع لهم، بسبب كفرهم بالرسول الخاتم المرسل من عند الله، المصدق لما معهم الذي يجدونه مكتوباً باسمه وصفاته، وكان المأمول أن يسارعوا إلى الإيمان به، ولكن الذي وقع خلاف ذلك، فقد سارعوا إلى التكذيب به.

٤- نبذ بنو إسرائيل القرآن وتعاطوا السحر:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن بني إسرائيل بعد نبذهم لما جاءهم من عند الله على رسول الله ﷺ اتبعوا السحر الذي كانت الشياطين تقصه على عهد ملك سليمان ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ﴾ [البقرة:١٠٢] وأتى بالفعل المضارع ﴿تَتۡلُواْ﴾ حكاية لما مضى، أي: ما تلته.

وقد بَرَّأ الله عبده ونبيه سليمان مما رمته به اليهود، فقد زعم اليهود أن سليمان كان ساحراً، وبالسحر دانت له الجن والإنس والطير، وسُخِّرت له الريح، ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ﴾ [البقرة:١٠٢].

٥- تعريف السحر وبيان أنواعه:

والسحر في لغة العرب «كل ما لطف مأخذه ودق» [القاموس المحيط: ص٥١٩] وجاء تعريفه في [المعجم الوسيط: ١/ ٤١٩]: «السحر كل أمر يخفى سببه، ويتخيل على غير حقيقته،

جنـــــة السـنة

ويجري مجرى التمويه والخداع»، والصواب أن السحر في معناه الاصطلاحي يختلف تعريفه باختلاف أنواعه، وهي أربعة أنواع:

الأول: «سحر الخداع والتخييلات التي لا حقيقة لها، نحو ما يفعله المشعبذ بصرف الأبصار عما يفعله بخفة يد» [المفردات للراغب الأصفهاني: ص٢٢٦] وقال القرطبي: «السحر أصله التمويه بالحيل والتخاييل» [القرطبي: ٢/ ٤٣].

الثاني: «استجلاب معاونة الشيطان بضرب من التقرب إليه» [المفردات: ٢٢٦، لسان العرب: ٢/ ١٠٦] فالشيطان: يحمل الساحر، ويحلق به في الفضاء، ويقضي له حاجات يظنها الناس من المعجزات، ويضع في فمه أو يده ما يريده ويطلبه، ويُمرِض له من يريد إمراضه، ونحو ذلك.

الثالث: «اسم لفعل يزعمون أنه من قوته يغير الصور والطبائع، فيجعل الإنسان حماراً» [المفردات: ص٢٢٦].

وهذا النوع وَهْمٌ لا حقيقة له، فالساحر وكذلك الشيطان لا يستطيع الواحد منهما أن يؤثر في الكواكب والنجوم، ولا يستطيع أن يغير طبيعة الإنسان أو الحيوان، وإن وقع مثل ذلك أمام الناس، فهو من فعل الشيطان فإنه يضع الإنسان بسرعة لا تدركها عين الإنسان في موضع الحيوان، أو الحيوان في موضع الإنسان.

الرابع: علم من شأنه أن يُكرِّه الزوجَ إلى زوجه، وقد يمرض الإنسان، وهو يتم من خلال تمتمات الساحر، ونفخه في العقد، واستعانته بالشيطان.

٦- للسحر الذي أخذ به اليهود مصدران:

بعد أن برّأ الله عبده ونبيه سليمان عليه السلام مما رمته به يهود، قرر أن للسحر الذي اتبعه اليهود مصدرين: **الأول:** ما تتله الشياطين على عهد ملك سليمان. **والثاني:** ما أنزله الله على الملكين هاروت وماروت بمدينة بابل. ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ [البقرة:١٠٢]. ومدينة (بابل) مدينة لا تزال بقاياها وآثارها وقصورها قائمة إلى اليوم في العراق، قرب نهر الفرات، وكانت قديماً على شاطئه، وكانت من أعظم مدن العالم في وقتها، وقد وصفها (هيروتس)(١) شيخ المؤرخين في عصره باتساعها، وكثرة علومها وفنونها، ومن هذه العلوم علم السحر والفلك.

---

(١) رحالة يوناني، عاش ما بين (٤٨٤-٤٢٥) قبل الميلاد.

جنـــــة الســـــنة

ولا يزال للسحر وجود واضح في العراق على مر التاريخ، فقد ذكر بدر الدين الشبلي أن الإمام مالكاً بلغه أن عمر بن الخطاب أراد الخروج إلى العراق، فقال له كعب الأحبار: «لا تخرج يا أمير المؤمنين، فإن بها تسعة أعشار السحر والشر» وعزا بدر الدين هذا الخبر إلى مالك في موطئه [الموطأ، كتاب الاستئذان، باب ما جاء في المشرق: ٢/ ٩٧٥، الحديث رقم: ٣٠]، وقد ذكر المؤرخون في بابل حكايات وأساطير وأخباراً مغرقة في الخيال [معجم البلدان لياقوت: ١/ ٣٠٩].

و(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ [البقرة:١٠٢] موصولة، على ما قرره ابن جرير الطبري، وهي معطوفة على (ما) في قوله: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة:١٠٢] أي: اتبع اليهود ما تتلوا الشياطين على عهد ملك سليمان، واتبعوا ما أنزل على الملكين، ويصحُّ أيضاً أن تكون معطوفة على السحر، والمعنى: الشياطين يعلمون الناس السحر، ويعلمونهم ما أنزل على الملكين [راجع: ابن جرير: ١/ ٤٥٩].

وهذا النص، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ [البقرة:١٠٢] وفق ما ذهب إليه ابن جرير الطبري وكثير من المفسرين يدل صراحة على أن الله أنزل السحر على ملكين بمدينة بابل فتنةً وابتلاءً واختباراً للناس.

٧- الدليل على أن هاروت وماروت كانا ملكين:

والدليل على أن هاروت وماروت كانا ملكين أنهما كانا إذا جاءهم بعض الناس يريد تعلم السحر ينصحانه بعدم تعلمه، ويخبرانه أن تعلمه كفر، ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢] فلو كانا شيطانين لما نصحا العباد، فالشيطان لا يكون ناصحاً أبداً.

٨- الحكمة من وراء تكليف الله الملكين بتعليم الناس السحر:

لعل الحكمة من وراء تعليم الملكين الناس السحر في ذلك الزمان تنبيه الناس إلى أن السحر ليس بالشيء العظيم الذي لا يناله إلا الخاصة وأصحاب العقول، كما كان كثير من الناس يظن، فقد أقام الله الملكين يعلمان الناس السحر ويقولان لهم: كلٌّ واحد يستطيع أن يكون ساحراً، ولكننا نحذركم من السحر، فإن السحر كفر، يجلب غضب الله.

فإن قيل: وكيف نزل الكفر على الملكين؟ وهم يفعلون ما يؤمرون، ويسبحون الليل والنهار لا يفترون، فأنى يصحُّ أن يتكلموا بالكفر ويعلّموه؟

والجواب أن الملكين ليسا بعاصيين في حال تعليمهما الناس السحر، بل هما مطيعان الله، ذلك أنهما مكلفان بهذا من الله تعالى ابتلاءً واختباراً من الله لعباده.

جنـــــة الســــــنة

والفتنة: الابتلاء والاختبار، ومنه قولهم: فتنت الذهب بالنار، إذا امتحنته لتعرف جودته من رداءته.

٩- لا يجوز لأحد أن يتعلم السحر ويعلمه مدعياً أنه يقتدي بالملكين:

ولا يجوز لأحد أن يتعلم السحر ويعلمه مدعياً أنه يقتدي بالملكين في ذلك، فإن الله كلّف الملكين بما يقومان به من التعليم، ونهى عباده عن تعلمه، وبهذا نكشف عن الزور الذي يقوم به بعض الدجالين من السحرة، الذين يوهمون الناس أنهم روحانيون مقتدون بهاروت وماروت حيث يقولون للناس الذين يعلمونهم الكتابة للمحبة والبغض: نوصيك بألا تكتب هذا لجلب امرأة متزوجة إلى حب رجل غير زوجها؟ وألا تكتب لأحد الزوجين بأن يبغض الآخر؟ وبأن تخصّ هذه الفوائد بالمصلحة كالحب بين الزوجين المتباغضين، والتفريق بين العاشقين الفاسقين، وإنما يقولون هذا ليوهموا الناس أن علومهم إلهية، وأن صناعتهم روحانية، وأنهم صحيحو النية [مختصر تفسير المنار: ١/ ٨٣].

١٠- عدم صحة ما ورد في كتب التفسير من إسرائيليات في هاروت وماروت:

وقد ورد في قصة هاروت وماروت كثير من الأحاديث[١] والآثار محصلها أن هاروت وماروت ملكان أهبطا إلى الأرض، وسبب ذلك أن الله تعالى لما أطلع الملائكة على معاصي بني آدم عجبوا من معصيتهم له مع كثرة أنعمه عليهم، فقال الله تعالى لهم: أما إنكم لو كنتم مكانهم لعملتم مثل أعمالهم.

فقالوا: سبحانك ما ينبغي لنا.

فأمرهم الله أن يختاروا ملكين ليهبطا إلى الأرض، فاختاروا هاروت وماروت، فأهبطا إلى الأرض، وأحلّ لهما كل شيء، على أن لا يشركا بالله شيئاً، ولا يسرقا ولا يزنيا، ولا يشربا الخمر، ولا يقتلا النفس التي حرم الله إلا بالحق، فعرضت لهما امرأة - وكانا يحكمان بين الناس - تخاصم زوجها، واسمها بالعربية الزهرة، وبالفارسية فندرخت، فوقعت في أنفسهما، فطلباها، فامتنعت عليهما إلا أن يعبدا صنماً، ويشربا الخمر، فشربا الخمر، وعبدا الصنم، وواقعاها، وقتلا سابلاً مرَّ بهما خافا أن يشهر أمرهما، وعلماها الكلام الذي إذا تكلم به المتكلم عرج به إلى السماء، فتكلمت وعرجت، ثم نسيت ما إذا تكلمت به نزلت، فمُسخت كوكباً.

---

(١) منها ما رواه أحمد في مسنده: (٦١٧٨) وهو حديث ضعيف السند باطل المتن.

جنـــــة الســــــنة

قال كعب: فوالله ما أمسيا من يومهما الذي هبطا فيه حتى استكملا جميع ما نهيا عنه، فتعجب الملائكة من ذلك، ثم لم يقدر هاروت وماروت على الصعود إلى السماء، فكانا يعلمان السحر [تفسير الماوردي: ١/ ١٤٢].

وهذه القصة التي يذكرها المفسرون عند هذه الآية غير صحيحة، يقول القاضي عياض: «وإن ما ذكره أهل الأخبار، ونقله المفسرون في قصة هاروت وماروت، وما روي عن علي وابن عباس - رضي الله عنهما - في تأويلها فاعلم - أكرمك الله - أن هذه الأخبار لم يرو منها سقيم ولا صحيح عن رسول الله ﷺ، وليس هو شيئاً يؤخذ بالقياس، والذي منه في القرآن اختلف المفسرون في معناه، وأنكر ما قال بعضهم فيه كثير من السلف، وهذه الأخبار من كتب اليهود وافترائهم، كما نصه الله تعالى أول الآيات» [تعليق محقق زاد المسير: ١/ ١٢٥].

ولله در ابن كثير حيث قال بعد سياقه للأحاديث والآثار الواردة في قصة هاروت وماروت: «وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال» [ابن كثير: ١/ ٢٤٨].

وقال أيضاً: «وأما ما يذكره كثير من المفسرين في قصة هاروت وماروت من أن الزهرة كانت امرأة فراوداها عن نفسها فأبت إلا أن يعلماها الاسم الأعظم فعلماها فقالت، فرُفعت كوكباً إلى السماء، فهذا من وضع الإسرائيليين، وإن كان أخرجه كعب الأحبار، وتلقاه عنه طائفة من السلف، فذكروه على سبيل الحكاية والتحديث عن بني إسرائيل» [البداية والنهاية: ١/ ٣٧].

١١- معالجة المسحور:

حَلُّ السحر عن المسحور تسمى (النُّشْرَة)، **وهي نوعان:** حل سحر بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، فإنّ السحر مِن عَمَلِه، فيتقرب إليه الناشر والمنتشر بما يحب، فيبطل عمله عن المسحور، ويحمل على هذا قول الحسن، «لا يحل السحر إلا ساحر»، وهذا النوع مذموم.

والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة، فهذا جائز، بل مستحب [أعلام الموقعين: ٦/ ٥٥٨].

والرقى كثيرة، فالقرآن كله رقية، وأفضله الفاتحة، وأوائل البقرة، وآية الكرسي، وخاتمة البقرة، وقل هو الله أحد، والمعوذتان، وفي الأحاديث النبوية الصحيحة رقى كثيرة.

جنـــــة الســــــنة

١٢- السحرة لا يستطيعون إيقاع الضرر بالعباد إلا بإذن الله:

أخبرنا الحقُّ تبارك وتعالى أن الضرر الواقع من السحرة محدود مقيد بقيود، فهو داخل في مشيئة الله وقدرته ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢]، فالسحرة قد يريدون إيقاع الضرر ببعض العباد، فلا يستطيعون.

١٣- تعلم السحر وتعليمه والعمل به حرام:

وتعلم السحر وتعليمه حرام، وكله ضرر ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة:١٠٢] وهذا خبر صادق، ولا يجوز القول بما يقتضي مخالفته، فبعض الناس يقول: تعلموا السحر، ولا تعملوا به، وهذا قول باطل، فتعلمه وتعليمه كله حرام.

وأعلمنا ربنا في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة:١٠٢] أعلمنا أن بني إسرائيل يَعْلمون بما عندهم في كتابهم أن من اشترى السحر، أي: تعلمه وعلَّمه وأخذ به تاركاً الهدي الإلهي الرباني المنزل من عند الله ما له في الآخرة من خلاق، والخلاق: النصيب، وأكَّد هذا المعنى عندما ذم الذين شروا أنفسهم بالسحر لو كان عندهم عقل لردعهم وجلب لهم المصالح ودفع عنهم المفاسد.

ويدل على حرمة تعلم السحر وتعليمه أن الساحر لا يصبح ساحراً إلا إذا باع نفسه للشيطان، وتخلى عن هدي الرحمن.

١٤- الفرق بين السحر والمعجزة:

والسحر يخالف المعجزة ويضادها، فالمعجزة هبة إلهية ربانية، ليس للتعليم فيها دور، والسحر صنعة شيطانية فاسدة، يفرق الساحر بالسحر الذي تعلمه بين المرء وزوجه، وهو علم باطل مكتسب، يظهر على يد الفساق.

وتحدَّث الله عن السحرة من بني إسرائيل فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة:١٠٣] أي: لو أنهم آمنوا بالله ورسله، واتقوا محارم الله، لحصلوا الثواب العظيم والأجر الجزيل.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أنزل الله على عبده ورسوله ﷺ الآيات البينات، وأعظمها القرآن الكريم، ومن كفر بها فهو فاسق خارج عن طاعة الله.

جنـــــة السـنـــــــة

٢- ذم الله بني إسرائيل لكثرة نقضهم عهودهم مع ربهم، ونقضهم عهودهم مع عباده.

٣- الرسول الخاتم ﷺ مرسل إلى بني إسرائيل كما هو مرسل إلى الناس جميعاً، وقد جاءَهم بما يُصدِّقُ التوراة، فكفروا به ورفضوا اتباعه، واتبعوا الشياطين.

٤- ذمَّ الله بني إسرائيل لتركهم ما أنزل من عند الله واتباعهم للسحر الذي جاءَتهم به الشياطين.

٥- تبرئة نبي الله سليمان عليه السلام مما رمته به اليهود، فقد زعموا أنَّ سليمان إنما سخرت له الريح، وسخر له الإنس والجن بالسحر، والذي قرره ربُّ العزة أن هذا التسخير تسخير إلهي رباني، ولذلك قال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة:١٠٢].

٦- أصل السحر ومصدره أصل خبيث، وأخبرنا ربنا أن سحر اليهود له أصلان: **الأول**: ما قصته الشياطين على عهد ملك سليمان. **والثاني**: ما أنزل على الملكين ببابل، وكان الملكان يقولان لمن أراد تعلم السحر: لا تكفر بتعلمه.

٧- كان للسحرة قديماً مكانة عظيمة، فأنزل الله ملكين وأنزل معهما السحر، وطلب منهما تعليمه للناس، بعد أن يبينا لهم بأن تعلمه كفر، فالذي يصرُّ على تعلمه يعلمانه إياه، ليدلَّ الناس على أن كل واحد يستطيع تعلّمه، وليس هو قصراً على الأذكياء.

٨- وردت روايات إسرائيلية خلطت الحق بالباطل، رواها المؤرخون والمفسرون، وكان الواجب اجتنابها وعدم تفسير القرآن بها، فليس لها سند صحيح.

٩- السحر نوعان: نوع حيل وخزعبلات وخفة يد، ونوع حقيقي، قد يفرق الساحر به بين المرء وزوجه، وقد يمرض الذي سُحر، وقد يشوش عليه قلبه وعقله، وقد نصّ الله على أن الساحر قد يستطيع التفريق بين المرء وزوجه، وصرح بأن السحرة يضرون المسحور إذا شاء الله لهم ذلك، وأمرنا في موضع آخر بالاستعاذة من النفاثات في العقد، ولو لم يكن له حقيقة لما أمرنا بذلك.

١٠- السحر وإن كان له حقيقة، فإنه محدود مقيد بقيود، فهو لا يستطيع أن يجعل الحمار قرداً، أو الإنسان دجاجة، فقد تحدى الله آلهة المشركين بأن يخلقوا ذباباً، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك، ولو اجتمعوا له.

جنـــــة الســـــنة

١١- السحر صنعة يمكن للبشر تعلُّمها، وهو مخالف للمعجزة، فعصا موسى كانت آية تتحول إلى أفعى من لحم ودم، والقرآن آية من عند الله لا يستطيع أحد أن يأتي بمثلها، والمعجزات للأنبياء والرسل، أما السحر فيمكن للأذكياء والأغبياء حيازته.

١٢- العمل بالسحر حرام لا خلاف في تحريمه، وكذلك تعلُّم السحر وتعليمه حرام، ودليل ذلك من وجوه، **الأول**: إخبار الله أن الشياطين كفروا بتعليمهم الناس السحر. **الثاني**: قول الملكين لمن أراد تعلم السحر منهما: إنما نحن فتنة فلا تكفر بتعلمه. **الثالث**: إخبار الله تعالى أنهم يتعلمون ما يضرهم، ولا ينفعهم. **الرابع**: إخبار الله - عز وجل - أن الذي يصبح ساحراً ليس له في الآخرة من نصيب. **الخامس**: ذم الله الذين شَرَوْا أنفسهم بالسحر.

١٣- الساحر الحقيقي لا يستطيع أن يرتقي في سحره ما لم يُعَبِّدْ نفسه للشيطان، فكلما ارتقى في العبودية للشيطان ارتقى في السحر، ولذلك فإن الساحر تتدنس نفسه الخبيثة بالفساد، وتتعاظم عنده الرغبة في الإيذاء.

١٤- ذهب الإمام مالك إلى أن الساحر الذي يسحر بنفسه بكلام كفر، يُقتَلُ ولا يستتاب، ولا تقبل توبته، وهذا قول أحمد وأبي ثور وإسحاق والشافعي وأبي حنيفة، وروي قتل الساحر عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وأبي موسى [القرطبي: ٢/ ٤٧] وخالف بعض أهل العلم في جواز قتله.

١٥- الوقاية من السحر والشفاء منه تكون بالآيات القرآنية، والرقى الشرعية الثابتة في الأحاديث النبوية، ومن أنفع ذلك قراءة الفاتحة وآية الكرسي، والآيتان من آخر البقرة، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١] والمعوذتان، وكل القرآن نافع في دفع السحر، وإزالة أثره.

النص القرآني المتمم للعشرين من سورة البقرة
كيد بني إسرائيل للرسول ﷺ وأصحابه

أولاً: تقديم

كشف الله - تبارك وتعالى - عن النفسية اليهودية التي تغلغل فيها الشر، فإذا قلوبها تفيض كراهية وبغضاً للرسول ﷺ وأصحابه، وبلغ بهم الحقد إلى تحريف بعض ما يخاطبون به الرسول ﷺ ليكون سبّاً وشتماً، وأكل الحقد قلوبهم لما أنزله الله من خير على هذه الأمة، وادَّعوا - كاذبين - أن شريعتهم غير قابلة للنسخ، فردّ الله شبهتهم وبيّن عوار مقالتهم.

وأعلمنا الله أن بني إسرائيل يَوَدُّون أن يردونا بعد إيماننا كافرين حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، وقد أمرنا ربنا أن نعفو ونصفح تجاه ما يقومون به من تصرفات حمقاء، ونشتغل بالصلاة والزكاة وأعمال الخير، والتي سنجد بركتها عندما نلقى الله في يوم الدين.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ
أَلِيمٞ (١٠٤) مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن
رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ (١٠٥) ۞ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ
نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ
رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (١٠٨) وَدَّ
كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ
بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (١٠٩)
وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ
بَصِيرٞ (١١٠) ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- النداء الأول في القرآن بلفظ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾:

كثر في القرآن نداء الله صحابة الرسول ﷺ ، والذين دخلوا في الإسلام من بعدهم بلفظ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة:١٠٤].

جنـــــة الســـــنة

والآية الأولى من هذا النص ابتدأها الله - تبارك وتعالى - بهذا النداء، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤ ﴾ [البقرة:١٠٤].

وأول نداء نادى به ربُّ العزة في هذه السورة، هو نداؤه الناس عامة في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة:٢١] وقد أمر الله فيه الناس جميعاً بالقيام بالواجب الذي خلقهم له، وهو عبادة الله وحده.

والنداء الثاني نادى به بني إسرائيل في قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة:٤٠] وقد ذكَّرهم الله بالنعم الجزيلة التي أنعم بها عليهم، وأمرهم بما فيه صلاحهم، ونهاهم عما فيه فسادهم.

والنداء الثالث هو هذا النداء، الذي ينادي به المؤمنين معلماً إياهم أن يلتزموا الأدب في مخاطبة رسوله، بأن يقولوا: ﴿ٱنظُرۡنَا﴾ بدلاً من قولهم: ﴿رَٰعِنَا﴾.

وقد نصح ابن مسعود ﷺ سامع هذه الكلمة أن يرعها سمعه حين يسمعها، فقال: «إذا سمعت الله يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة:١٠٤] فارعها سمعك، فإنه خير تؤمر به، أو شر تُنهى عنه» رواه البيهقي [قطف الأزهار: ١/ ٣٠٠].

٢- نهي الله صحابة رسوله أن يقولوا راعنا:

نهى الله عزَّ وجلَّ صحابة رسوله ﷺ أن يقولوا: ﴿رَٰعِنَا﴾ للرسول ﷺ والمراد بهذه الكلمة في لغة العرب: راقبنا، وانتظرنا، وتأنَّ **بنا**، حتى نحفظ القرآن الذي تلوته علينا ونفقهه، وكانت هذه الكلمة سبّاً في لسان اليهود، فلما سمع اليهود المسلمين يقولونها للرسول ﷺ انتهزوا الفرصة، فخاطبوا بها الرسول يريدون شتمه ومسبّته.

قال القرطبي: «قال ابن عباس: كان المسلمون يقولون للنبي ﷺ: راعنا، على جهة الطلب والرغبة، من المراعاة، أي: التفت إلينا، وكان هذا بلسان اليهود سبّاً، أي: اسمع لا سمعت، فاغتنموها، وقالوا: كنّا نسبه سرّاً، فالآن نسبه جهراً، فكانوا يخاطبون بها النبي ﷺ، ويضحكون فيما بينهم، فسمعها سعد بن معاذ، وكان يعرف لغتهم، فقال لليهود: عليكم لعنة الله، لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله لأضربن عنقه، فقالوا: أَوَلستم تقولونها؟! فنزلت الآية» [القرطبي: ١/ ٥٧].

جنـــــة الســــــنة

٣- صفة الكلام الذي يصلح لمخاطبة الرسول ﷺ:

بعد أن نهى الله الصحابة عن مخاطبة الرسول ﷺ عن الكلام الذي دخل منه اليهود إلى سبّ الرسول ﷺ علّم الله صحابة رسوله أن يقولوا له: ﴿وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ۗ﴾ [البقرة:١٠٤] ومعنى: ﴿ٱنظُرْنَا﴾: أمهلنا، وانتظرنا، حتى نحفظ. ومعنى قوله: ﴿وَٱسْمَعُوا۟ۗ﴾ أي: أحسنوا سماع ما يكلمكم به رسول الله ﷺ، ولا يكن سماعكم كسماع اليهود، حيث قالوا: سمعنا وعصينا.

وقوله في ختام الآية: ﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة:١٠٤] أي: مؤلم موجع، فالله يعذب عذاباً لا يُعذِّبُ أحدٌ مثله، وهو عذاب النار.

ونظير هذه الآية ما ذكره الله في سورة النساء بشيء من التوسع في قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَـٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء:٤٦] فأخبر أنهم يقولون: راعنا، يلوون ألسنتهم بها لتوافق مقاصدهم الخبيثة.

٤- كراهية اليهود والمشركين للخير الذي أنزله الله علينا:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن الكفرة من اليهود والنصارى والمشركين يكرهون ما أنزل الله إلينا، والمراد به القرآن، وما أنزله الله على رسوله ﷺ في سنته، لأن هذا الذي أنزله الله علينا هو الذي جعل الله لنا به عزّاً وذكراً، وبه جعلنا خير أمة أخرجت للناس، وبه أخرجنا به من الظلمات إلى النور ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ﴾ [البقرة:١٠٥].

وأعلمنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [البقرة:١٠٥] وقد خصّ الله بني إسرائيل فيما مضى برحمات كثيرة، وكذلك خصّ هذه الأمة برحمته العظمى المتمثلة بالقرآن المنزل، وأرسل إلينا خير رسله وأنبيائه، فهو الرحمة المهداة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧] وقوله - عزَّ وجلَّ - في خاتمة الآية: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة:١٠٥] أي: صاحب الفضل الذي لا يحصر بحدّ، ولا يدخل تحت عدّ، ففضله - سبحانه - واسع عظيم.

جنـــــة السـنـــــة

٥- ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها:

قرّر اللهُ - تبارك وتعالى - في قوله: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [البقرة:١٠٦] قرّر أنه ينسخ ما يشاء أن ينسخه من الشرائع التي أنزلها على عبده ورسوله محمد ﷺ، كما هو قادر على أن ينسيه ما يشاء إنساءَه إياه، وهو قادر على أن يأتي بخير مما نسخه أو أنساه إياه، أو يأتي بمثله، فمن المنسوخ الذي جاء الله بأفضل منه نسخ صوم عاشوراء بصوم رمضان، ومثال الذي هو مثله نسخ الصلاة إلى بيت المقدس بالصلاة إلى المسجد الحرام.

والنسخ هو: «رفع الحكم بدليل شرعي متأخر» [ابن كثير: ١/ ٣٢٩].

وقوله: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ فيها قراءتان متواترتان، الأولى: (نَنْسَأْها) أي: نؤخرها، فلا نسخها، والثانية: (نُنْسِها) من النسيان [راجع: ابن كثير: ١/ ٣٣٠].

وقد صحّ أن الرسول ﷺ كان ينزل عليه القرآن، ثم ينسيه الله إياه، قال ابن عباس: «كان مما ينزل على النبي ﷺ الوحي بالليل وينساه بالنهار، فأنزل الله عز وجل: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ [البقرة:١٠٦]» [ابن كثير: ١/ ٣٣٠].

وروى البخاري عن ابن عباس قال: قال عمر ﷺ: «أقرؤنا أُبيّ، وأقضانا علي، وإنّا لندع من قول أُبيّ، وذلك أن أُبيّاً يقول: لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ، وقد قال الله تعالى: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ [البقرة:١٠٦]» [البخاري: ٤٤٨١ و٥٠٠٥].

٦- هذه الآية ردّ على اليهود في أن شريعتهم غير قابلة للنسخ:

وهذه الآية، وهي ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ [البقرة:١٠٦] ردٌّ على اليهود الذين زعموا كذباً وزوراً أن لا نسخ في الشرائع، فأكذبهم الله فيما ادعوه، وقرر الحقُّ سبحانه في هذه المسألة تقريراً ليس به خفاء.

والنسخ واقع بين الشرائع، فشريعة التوراة نسخت الشرائع من قبلها، والإنجيل نسخ بعض ما في التوراة من أحكام، والقرآن نسخ الله به شريعة التوراة وشريعة الإنجيل، وفي التوراة ذكر لما انتسخ من أحكام الشرائع السابقة، فآدم ﷺ كان يزوج أولاده من بنيه، ثم نسخ ذلك، وأباح الله لرسوله نوح ﷺ بعد خروجه من السفينة أكل كل الحيوانات، ثم نسخ حلَّ بعضها، وكان نكاح أخت الزوجة مباحاً لإسرائيل وبنيه، والعمل في يوم السبت كان جائزاً قبل نزول التوراة، ثم حرم الله في التوراة نكاح الأخت، وحرم العمل في يوم السبت،

جنـــــة السـنة

وأمر الله بني إسرائيل بعد عبادتهم العجل أن يقتل بعضهم بعضاً، ثم رفع القتل عنهم، وأمر الله إبراهيم بذبح ولده إسماعيل، ثم نسخه قبل الفعل، ومواضع النسخ في شريعتنا كثيرة.

٧- وجه الرد على اليهود في إنكارهم النسخ:

والرد على اليهود في الآية أن النسخ داخل في قدرة الله سبحانه، والله يتصرف فينا وفي خلقه في السموات والأرض كما يشاء، فالجميع في ملكه، وتحت تصرفه، والذي يمنع الله من النسخ يحجر على رب العزة، وهذا جهل من العباد بخالقهم وفاطرهم، فهو - سبحانه - خالقنا والمتصرف فينا كما يشاء، يسعدنا ويشقينا، ويمرضنا ويشفينا، ويميتنا ثم يحيينا، ويحكم فينا بما شاء، فيحلّ ويحرم، ويأمر وينهى، فنحن في ملكه، وتحت تصرفه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [البقرة:١٠٦-١٠٧].

٨- أنكر اليهود النسخ ليحتجوا بذلك على عدم وجوب متابعتهم لرسولنا ﷺ:

واليهود إنما أنكروا النسخ ليجدوا لهم حجة في عدم متابعة الرسول ﷺ، وهذه دعوى باطلة، فالله نسخ بشريعة القرآن شريعة التوراة والإنجيل. وقد زعم اليهود أن النسخ باطل، لأنه يستلزم البداء، وهو الظهور بعد الخفاء، يقولون: لو وجد النسخ، فإن الله يكون خفي عليه الأمر، فشرع حكماً، ثم ظهر لهم أن هذا الحكم باطل، فيغيره، ويبدله.

وهذا غير صحيح، فالله منذ شرع الحكم الأول، كان يعلم أنه سيغيره ويبدله بخلاف البشر الذين يخفى عليهم الحكم، فيشرعونه، ثم يظهر لهم أنه باطل، فيغيرونه.

٩- نهي الله المؤمنين عن سؤال رسولهم كما سئل موسى من قبل:

خاطب الله صحابة رسوله ﷺ منكراً عليهم أن يسألوا رسولهم كما سئل موسى من قبل ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾ [البقرة:١٠٨].

وفي القرآن عدد كبير من الآيات المتحدثة عن الأسئلة غير المرضية، منها قوله تعالى: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١] ومنها قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ﴾ [النساء:١٥٣] وفي صحيحي البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته» [البخاري: ١١٧٩،

جنـــــة الســــــنة

مسلم: ١٨٣١] وفي صحيح مسلم: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم» [مسلم: ١٣٣٧].

وقد ذكر ابن كثير نقلاً عن ابن جرير عن ابن عباس، قال: قال رافع بن حريملة، ووهب بن زيد: «يا محمد، ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه، وفجر لنا الأنهار نتبعك ونصدّقك، فأنزل الله قوله: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٨]» [ابن كثير: ١/ ٣٣٤].

وقال ابن كثير معقباً على ما سبق نقله: «والمراد أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شيء على وجه التعنت والاقتراح، كما سألت بنو إسرائيل موسى تعنتاً وتكذيباً وعناداً» [ابن كثير: ١/ ٣٣٤].

ومعنى ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٨] بل أتريدون، فـ (أم) هذه هي المنقطعة، ومعناها: بل، وهمزة الاستفهام، وهذا سؤال إنكاري، وهو موجه للمؤمنين وللكافرين.

وقوله: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾ [البقرة: ١٠٨] أي: من يستبدل بالإيمان بالله ورسوله الكفر، فيرتد عن دينه، فقد ضلّ وحاد عن الصراط المستقيم.

١٠ – رغبة اليهود الشديدة في ردتنا عن ديننا حسداً لنا على ما أعطانا ربنا:

قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

حذرنا ربنا في هذه الآية من أهل الكتاب الذين يعملون على ردتنا عن ديننا، ومن هؤلاء الذين ظهرت عداوتهم في العهد النبوي، حيي بن أخطب، وأبو ياسر ابن أخطب، وكعب بن الأشرف، وأمثالهم كثير، فقد كانوا من أشد اليهود حسداً للعرب، وكانوا جاهدين في ردّ الناس عن الإسلام، وهم يفعلون ذلك بعد أن تبين لهم أن محمداً مبعوث من ربه، ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ ﴾ [البقرة: ١٠٩] ولكنه الحسد الذي زلزل قلوبهم، ومزّق نفوسهم، فقد كانوا يريدون أن يكون هذا الرسول منهم، وهاجروا إلى أرض العرب، ينتظرون خروجه، واتباعه، ومقاتلة العرب معه، فلما خرج من العرب كفروا به، وعادَوْه عالمين أنه رسول ربِّ العالمين، وقد أورد ابن حجر العسقلاني ما أخرجه الواحدي بإسناد صحيح أن الآية نزلت في المشركين واليهود من أهل المدينة، كانوا يؤذون النبي وأصحابه أشد الأذى، فأمرهم الله بالصبر والعفو [العجاب في بيان الأسباب: ص١٧١].

جنـــــة السنـــــة

١١ - أمر الله الرسول ﷺ وأصحابه بالعفو والصفح عن اليهود:

أمر الله الرسول ﷺ وأصحابه بالعفو والصفح عن اليهود إلى أن يحين الوقت الذي يأمرهم الله فيه بقتالهم ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البقرة:١٠٩].

وفي مرحلة تالية نسخ الله هذه الآية، وأمر المؤمنين بقتال اليهود، فقاتلوهم وأخرجوهم من المدينة، ومن النصوص الآمرة بقتالهم قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩] وقال: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة:٥]. ومعنى القدير في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة:١٠٩] القوي، القادر على الانتقام منهم أو هدايتهم.

١٢ - أمر الله الرسول ﷺ وأصحابه بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وفعل الخيرات:

أمر الله الرسول ﷺ وأصحابه بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وفعل الخيرات ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة:١١٠].

قال السيوطي: «لما أمر الله في الآية السابقة بالعفو والصفح عن اليهود عقّبه بالأمر بالصلاة والزكاة والحث على فعل الخير، تنبيهاً على أنه كما لزمهم صلاح غيرهم بالعفو والصفح، لزمهم صلاح أنفسهم بفعل الخير» [قطف الأزهار: ١/٣٠٦] وقوله: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٠] أي: تجدون أجره وثوابه، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة:١١٠] أي: بصير بأعمالكم، لا يخفى عليه كثيرها ولا قليلها.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- كان اليهود يتقصدون إيذاء الرسول ﷺ وهم يعلمون أنه رسول الله، ومن ذلك مخاطبته بما لا يليق به من الكلام، وقد نهى الله صحابة رسوله ﷺ عن قولهم لرسولهم ﷺ ما يفتح الباب لليهود أن يقولوا ما قالوه.

٢- أمر الله صحابة رسوله ﷺ أن يسمعوا سماع قبول، وذلك بأن يسمعوا بآذانهم، فتفقه قلوبهم، وتنقاد جوارحهم للعمل، ولا يكونوا كاليهود الذين كانوا يسمعون بآذانهم وتأبى قلوبهم، ولا تنقاد جوارحهم.

جنـــــة الســــــنة

٣- كان اليهود يمتلئون غيظاً وهم يرون ما ينزل الله من خير على رسولنا ﷺ وصحابته، والله سبحانه يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

٤- نسخ الله بالقرآن شريعة التوراة والإنجيل، ونسخ في الشرائع السابقة وفي شريعتنا بعض الأحكام ببعض.

٥- أنكر اليهود النسخ زعماً منهم أن شريعة التوراة لا تقبل النسخ، وزعماً منهم أن النسخ يلزم منه البداء، وهو ظهور الأمر بعد الخفاء، والله يتنزه عن ذلك، وهذا زعم كاذب، فالنسخ لا يستلزم البداء في حق الله، فالله عالم بأنه سينسخ هذه الأحكام.

٦- دلت هذه الآية على صحة قاعدة سدّ الذرائع، والذريعة عبارة عن أمر غير ممنوع في نفسه يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع، ووجه الاستدلال بالآية أن قول: (راعنا) سب في لغة اليهود، فلما علم الله ذلك منهم منع المؤمنين من إطلاق هذا اللفظ، ومما يستدلُّ لهذه القاعدة به قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨] فمنع من سبّ آلهتهم مخافة مقابلتهم بمثل ذلك.

ومن النصوص الدالة على صحة هذه القاعدة نهي الرسول ﷺ الرجل أن يسبَّ أبا الرجل، خشية أن يسب ذلك الرجل أباه، ففي الحديث أن الرسول ﷺ قال: « من الكبائر شتم الرجل والديه» قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «نعم، يسب أبا الرجل، فيسب أباه، ويسبُّ أمه، فيسب أمه [البخاري: ٥٩٧٣. ومسلم: ٩٠ واللفظ لمسلم] فجعل التعرض لسبّ الآباء كسبِّ الآباء، وقد أطال القرطبي في تقرير هذه القاعدة والاستدلال لها [القرطبي: ٢/ ٥٧-٦٠].

٧- بيّن الله تبارك وتعالى أن الرسول ﷺ قد ينسى ما أنزله الله إليه إذا شاء الله إنساءه ذلك ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة:١٠٦] ولا خلاف بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦﴾ [الأعلى:٦] فقد تكفل لرسوله ﷺ في هذه الآية عدم نسيانه ما أنزله عليه إذا لم يرد الله إنساءه ذلك، وقد يعرض للرسول ﷺ شيء من النسيان البشري إذا كان الصحابة حفظوا ما بلغهم إياه، وقد روى أحمد في مسنده عن عبدالرحمن بن أبزى أن النبي ﷺ صلَّى في الفجر، فترك آية، فلما صلَّى قال: «أفي القوم أُبيُّ بنُ كعبٍ؟» قال أُبيٌّ: يا رسول الله نُسِخَتْ آيةُ كذا وكذا أو نَسِيتَها؟ قال: «نُسِّيتُها» [مسند أحمد: ١٥٣٦٥، وانظر أيضاً: ٢١١٤].

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الحادي والعشرون من سورة البقرة
دعوى كل من اليهود والنصارى وعباد الأوثان أنه الأفضل

أولاً: تقديم

ادَّعى كلٌّ من اليهود والنصارى أنه الأفضل والأكمل، وادَّعى كل فريق أنه الذي يستحق جنة الله في الآخرة، وانتقص كلٌّ واحد من الفريقين الفريق الآخر، وادعى أن الفريق الآخر ليس على شيء، ومع أن الذين لا يعلمون وهم مشركو العرب لم يكونوا مؤمنين بالآخرة فإنهم كانوا يدعون مثل دعوى اليهود والنصارى، يعني أنهم الأكمل والأفضل.

وقد أكذب الله الفرقاء الثلاثة فيما ادعاه كلٌّ فريق منهم، وهي أماني باطلة ليس لها دليل قويم تقوم عليه، والصواب من القول: أن أهل الفضل الذين يستحقون الجنة هم الذين أسلموا وجوههم لله وحده لا شريك له، وسيحكم الله يوم القيامة بين الفرقاء المتنازعين، فيما ادعوه، وتنازعوا فيه.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- دعوى كل من اليهود والنصارى أنه صاحب الجنة دون غيره:

أخبرنا الله تبارك وتعالى أن كلاً من اليهود والنصارى ادعى أنه صاحب الجنة دون غيره ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة:١١١] والمعنى أن اليهود قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، والنصارى قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً، وأخبرنا ربنا في سورة المائدة أن كل واحد من الفريقين ادَّعى أنهم أبناء الله وأحباؤه ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨].

جنـــــة السـنــــة

وقد أكذبهم الله جميعاً فيما ادعوه، فقال: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة:١١١] أي: هذا الذي يدَّعونه أماني كاذبة يتمنونها على الله سبحانه، وليس عندهم على ما يزعمونه حجة ولا برهان، ولذلك فإنه طالبهم أن يأتوا ببرهان على ما ادعوه ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١)﴾ [البقرة:١١١]. والبرهان: الحجة والدليل، أي: هاتوا الدليل الدال على صدق ما تدعونه، ولا زلنا ننتظر منهم أن يأتوا بالدليل ولا دليل.

وأكذبهم الله مرة أخرى في سورة المائدة في دعوى كلٍّ منهم أنهم أبناء الله وأحباؤه فقال: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨)﴾ [المائدة:١٨].

٢- أصحاب الجنة في حكم الله:

ثم بيّن الحقُّ - تبارك وتعالى - من يستحق الجنة فقال: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)﴾ [البقرة:١١٢] أي: الأمر ليس كما يدعيه هؤلاء كذباً وزوراً، فالمستحقُّ للجنة هو الذي أسلم وجهه لله - تبارك وتعالى - وهو محسن، وإسلام الوجه لله، توجيهه إليه سبحانه، وإذا انقاد الوجه لله انقاد الجسد كله، وخصّ الوجه بالذكر لكونه أشرف ما يرى من الإنسان، ولأنه موضع الحواس.

وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: باتباعه ما جاءه من عند رسول الله ﷺ، والمراد به إخلاص الدين لله الواحد الأحد، وقد قرر أهل العلم أن العمل لا يقبل عند الله إلا بشرطين، **أحدهما**: أن يكون خالصاً لله وحده، **والثاني**: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل.

وعلى ذلك فالذين يعبدون الله بعد بعثة الرسول ﷺ على غير منهجه يجعل اللهُ أعمالَهم يوم القيامة هباءً منثوراً ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣)﴾ [الفرقان:٢٣]، وجاء في الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم قول الرسول ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» [البخاري: ٢٦٩٧، مسلم: ١٧١٨] والذي يأتي بالعمل موافقاً للشريعة، ولكنه ليس بخالص لله فعمله أيضاً مردود، فإن الله أغنى الأغنياء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك معه فيه غيره، تركه الله وشركه.

٣- دعوى كلٍّ من اليهود والنصارى ومشركي العرب أنه الأفضل:

تنازع كل من اليهود والنصارى الفضل فيما بينهم، فادعى كل منهم أنه الأفضل، ومع أن مشركي العرب ليس لهم كتاب، ولا يؤمنون باليوم الآخر، فإنهم ادعوا الدعوى نفسها،

جنـــــة الســـــنة

وزعموا أنهم أصحاب الفضل والمنزلة العالية، وقد سمّاهم الله بالذين لا يعلمون في الآية التالية، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة:١١٣].

لقد اشتط كل فريق في رفض الطرف المقابل، فكلٌّ واحد من اليهود والنصارى يدعي أن الآخر ليس على شيء يعتدُّ به، بل إن هذه المقولة سرت إلى الطوائف المتنازعة من النصارى فيما بينهم، والطوائف المتنازعة من اليهود فيما بينهم، وادعى هذه الدعوى المشركون من العرب، وهم الذين لا يعلمون.

٤- قضاء الله وحكمه بين الفرقاء المتخاصمين في يوم القيامة:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه سيقضي يوم القيامة بين هؤلاء فيما اختلفوا فيه في دنياهم﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة:١١٣]. وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج:١٧].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- يدعي كل من اليهود والنصارى أن الجنة لهم دون غيرهم من الناس، وأعلمنا ربنا أن ذلك ظنون وتخرصات، وأمرنا أن نطالبهم بالدليل الدال على صدق دعواهم.

٢- عرّفنا ربنا - تبارك وتعالى - أن أصحاب الجنة هم الذين أسلموا وجوههم لله، وأتقنوا أعمالهم، فهؤلاء أهل الجنة المثابون عند ربهم الذين لا يخافون من الآتي، ولا يحزنون على الأهل والذرية.

٣- يدَّعي اليهود أنهم الأفضل دون غيرهم من الناس، ويدعي النصارى أيضاً أنهم هم الأفضل دون غيرهم، ويدعي الذين لا يعلمون وهم مشركو العرب أنهم هم الأفضل دون غيرهم، وكلهم ليسوا كذلك، فكل من لم يؤمن بمحمد ﷺ وكتابه فهو كافر في نار جهنم، وقد أعلمنا ربنا أنه سيفصل يوم القيامة في هذه القضية التي اختلف فيها العباد، ويظهر الفريق الأفضل.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الثاني والعشرون من سورة البقرة
لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه

أولاً: تقديم

هذا النص حوى آيتين، قرر الله - تبارك وتعالى - في الأولى منهما أنه لا أحد أظلم ممن منع ذكر الله في مساجد الله، وسعى في خراب تلك المساجد، وهؤلاء يجب أن يحاربوا ويمنعوا من دخلوها إلا خائفين، ولهم في يوم القيامة عذاب عظيم.

وفي الآية الثانية أجاز الله للمسلمين أن يصلُّوا إلى أي جهة من الجهات في بعض الحالات، كصلاة النافلة في السفر على الدابة، والصلاة في القمر الصناعي، أو عندما يحط الإنسان رحاله على القمر، فالله له الجهات كلها، وهو واسع عليم.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مدى ظلم الذين يمنعون الناس من ذكر الله في مساجد الله:

قرَّر الله - تبارك وتعالى - أنه لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وسعى في خرابها ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ ﴾ [البقرة:١١٤] ومنع الذِّكر في المساجد، وتخريبها يمثل طغيان البشر تجاه الله ومساجده والعباد الذين يعبدونه فيها، وهذا الطغيان من البشر على هذا النحو ظلم عظيم، وقد وقع في الماضي، وهو واقع في الحاضر، وسيقع في المستقبل.

لقد خرّب نبوخذ نصّر المسجد الأقصى، وشرّد أهله وأَسَرهم، ومنع العبادة فيه، وأخرج كفارُ قريش الرسولَ ﷺ وأصحابه من مكة والمسجد الحرام، وقذّروا المسجد بالأصنام والكفر والشرك ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [التوبة:١٧]. وعندما توجه الرسول ﷺ وصحبه إلى مكة في عام الحديبية لأداء العمرة صدّهم الكفار، ومنعوهم من المسجد الحرام، وما كان

جنـــــة السـنـــة

أحد يمنع منه ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح:٢٥].

واستولى النصارى على بيت المقدس وعلى الديار التي حوله، فسفكوا دماء المسلمين في المسجد الأقصى، ومنعوا المسلمين من إعماره، وبقوا في القدس على هذه الحال قرابة مائة عام، حتى أخرجهم صلاح الدين، وحرَّر الأقصى والقدس من رجسهم.

واليوم يحتل اليهود الأقصى المبارك والقدس الشريف وما حوله من المدن والقرى في فلسطين، وهم يبذلون جهدهم في منع المسلمين من الصلاة في المسجد الأقصى، ويسعون إلى تدميره وتخريبه، وقد دمروا كثيراً من المساجد، وهدموها، وعطلوا كثيراً غيرها، وهجّروا أهلها، فأصبحت قفراً يباباً، وصيروا بعض المساجد مطاعم، أو مخازن، أو ملاعب، وقد اجتاحوا بعض المساجد، ومزقوا ما فيها من المصاحف، وضربوا المصلين، وأقاموا مذابح للمصلين في بعض المساجد، والمسلمون وحكامهم غافلون في ديار الإسلام عما يجري في أرض الإسراء، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

٢- على المسلمين أن يأخذوا على أيدي الظالمين المخربين لبيوت الله:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - كيف نعامل هؤلاء الذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، ويسعون في تخريبها، فقال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة:١١٤].

أرشد الله تبارك وتعالى المسلمين أن يأخذوا على أيدي هؤلاء الظالمين، وذلك بحربهم وقتالهم، وقمعهم وإذلالهم، فلا يطمعون بعد ذلك في دخول المساجد إلا أذلاء حقراء، كما فعل الرسول ﷺ وأصحابه بأهل مكة، فإنه لم يزل يحاربهم ويقاتلهم حتى أذلهم، وأخذ منهم المسجد الحرام، وأخذ منهم مكة، وطهَّرهما مما فيهما من الأوثان والأصنام.

وكذلك فعل صلاح الدين بالصليبيين، فإنه لم يزل يقاتلهم ويلاحقهم حتى أخذ منهم الأقصى، وحرّر القدس، فكانوا لا يدخلون الأقصى بعد ذلك إلا خائفين.

وعلى المسلمين اليوم أن يقاتلوا اليهود الذين يدنسون الأقصى، ويمنعون المسلمين من ذكر الله فيه، وهم جادون في تخريبه والإطاحة به، وعلينا أن نقاتلهم حتى نزيلهم عن الأرض المقدسة، ونطهر أرضها منهم، وإن ذلك لكائن بحول الله وقوته.

وقد توعد الله هؤلاء الذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ويخربونها بالعذاب العظيم في الآخرة، فهم أذلاء حقراء في الدنيا والآخرة.

جنـــــة السـنـــــة

٣- **أينما تولوا فثمّ وجه الله:**

أخبرنا الله - تبارك وتعالى - في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة:١١٥] أن الأرض كلها له سبحانه، له المشرق والمغرب وما بينهما، والله تبارك وتعالى فوق سماواته محيط بها سبحانه، فحيثما توجه المسلمون في صلاتهم فهناك وجه الله، وقد وجّه الله المسلمين إلى المسجد الأقصى في صلاتهم، ثم نسخ ذلك ووجههم إلى المسجد الحرام، وأباح لهم أن يصلوا النافلة على رواحلهم في السفر، لا يضرهم حيث توجهت بهم، وكذلك في الأحوال التي لا يعرفون فيها القبلة، أو لا يستطيعون التوجه إليها كالمريض الذي لا يستطيع التوجه إلى القبلة، والذي يركب القمر الصناعي محلقاً في الفضاء، أو يحط رحاله على القمر، فكل هؤلاء لا حرج عليهم أن يصلّوا إلى أي جهة من الجهات.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة:١١٥] يقرر سبحانه أنه واسع، يوسع على عباده في دينهم، ولا يكلفهم ما ليس في وسعهم، وقد وسع علم ربنا كل شيء ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه:٩٨]. وقال الفراء: «الواسع: الجواد الذي يسع عطاؤه كلَّ شيء» [فتح القدير: ١/ ٢٥٨].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- المسجد كل بناء رُفع ليُعبد فيه الله - تبارك وتعالى - بالصلاة والذكر والاعتكاف وقراءة القرآن، وسمي مسجداً لأنه يُسجَد فيه لله تعالى.

٢- يجب تعظيم المساجد التي رفعت للعبادة وتوقيرها وتطهيرها، والذين يسعون في تخريب المساجد بإزالتها وتدميرها أو بمنع العبادة فيها هم أظلم الناس، وهؤلاء يجب أن يؤخذ على أيديهم في الدنيا، ولهم عذاب عظيم في الآخرة.

٣- خرَّب النصارى في الماضي مساجد الله، ومنها المسجد الأقصى عندما احتلوا ديارنا، واليهود يقومون بالدور نفسه اليوم، فقد هدموا وخربوا المئات من المساجد في فلسطين، وهم يحاولون هدم الأقصى وتدميره، ومنع العبادة فيه.

وهذه الآية عامة في كل من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وسعى في خرابها، كما ذهب إليه ابن العربي والقرطبي [أحكام القرآن لابن العربي: ١/ ٣٣، تفسير القرطبي: ٢/ ٧٧] خلافاً لمن جعلها خاصة بالنصارى أو مشركي العرب [ابن جرير الطبري: ١/ ٤٩٨].

جنـــــة الســـــنة

٤- إضافة المساجد لله يقضي أنها للمسلمين جميعاً، فإذا بنى شخص مسجداً فإنه يخرج عن ملكيته، إلا إذا بناه في داره ومنع الناس من الصلاة فيه.

٥- أخذ بعض أهل العلم من الآية جواز حج المرأة الفريضة، إذا لم يكن معها محرم، وهذا ليس بصحيح، لأن الرسول ﷺ منعها من السفر فوق يوم وليلة من غير محرم.

٦- استدلّ الإمام مالك بهذه الآية على منع الكفار من دخول مساجد الله، وذهب الإمام أبو حنيفة إلى جوازه في حال دخولهم إياها خائفين، وذهب الشافعي - وهو الأرجح - إلى منعهم من دخول المسجد الحرام دون غيره من المساجد.

٧- يجب على المسلم أن يتجه بصلاته إلى المسجد الحرام إذا استطاع التوجه إليه، فإذا لم يستطع التوجه إليه كالذي خفيت عليه القبلة لشدة الغيم، أو المأسور المقيد إلى غير القبلة، أو الذي يركب الطائرة لمسافات طويلة، أو الذي يركب القمر الصناعي، أو الذي يصلي فوق سطح القمر، أو الذي يصلي النافلة على دابته أو في سيارته، فهؤلاء جميعاً يصلون إلى أي جهة شاؤوا، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة:١١٥].

وقد روى مسلم في صحيحه عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ كان يصلي سبحته حيثما توجهت به ناقته [مسلم: ٧٠٠ ومعنى سبحته: نافلته] وفي رواية عنه: «أن النبي ﷺ كان يصلي على راحلته حيث توجهت به» [مسلم: ٧٠٠].

وفي رواية ثالثة عنه: «كان رسول الله ﷺ يصلي، وهو مقبل من مكة إلى المدينة، على راحلته حيث كان وجهه، قال: وفيه نزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة:١١٥]» [مسلم: ٧٠٠]. والراحلة: الناقة التي كان يركبها.

وروى البخاري في صحيحه عن جابر بن عبدالله: «أن النبي ﷺ كان يصلي على راحلته نحو المشرق، فإذا أراد أن يصلي المكتوبة نزل فاستقبل القبلة» [البخاري: ١٠٩٩].

وعن عامر بن ربيعة قال: «كنا مع النبي ﷺ في سفر في ليلة مظلمة، فصلى كلُّ رجل حيالَه، فلما أصبحنا ذكرنا ذلك لرسول الله ﷺ، فنزل ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة:١١٥]» [رواه الترمذي: ٣٤٥، ٢٩٥٧، ولابن ماجه نحوه: ١٠٢٠، ورواه ابن جرير والطيالسي في مسنده والبيهقي].

وقد ضعفه بعض العلماء، والذي حققه الشيخ ناصر الدين الألباني أنه يرقى إلى درجة الحسن بمجموع طرقه [إرواء الغليل: ١/ ٣٢٣].

جنـــــة السـنـة

النص القرآني الثالث والعشرون من سورة البقرة
تكذيب الله الذين ادعوا أنه اتخذ ولداً

أولاً: تقديم

أكذب الله في هذا النص الذين زعموا أن الله اتخذ ولداً، وساق الدليل الدال على كذبهم، وأخبرنا ربنا في الآية الأخيرة من هذا النص عن تعنت الكفرة المشركين من العرب فيما طلبوه من الآيات والدلائل، فتشابهت قلوبهم فيما اقترحوه مع قلوب الذين كفروا من قبل.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إبطال الله قول الذين زعموا أن الله اتخذ ولداً:

زعم كثير من الناس في القديم والحديث أن الله اتخذ ولداً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ﴾ [البقرة:١١٦] ومن هؤلاء اليهود الذين قالوا: عزير ابن الله، والنصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، ومشركو العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله.

وقد نزّه الباري - عز وجل - نفسه عن هذه النقيصة الشنيعة، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ [البقرة:١١٦] والتسبيح: التنزيه لله عن كل النقائص والعيوب، وقد ورد في الحديث الصحيح أن نسبة الولد إلى الله مسبَّة للباري تبارك وتعالى، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك، فأمّا تكذيبه إياي، فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله: لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبةً أو ولداً» [البخاري: ٤٤٨٢].

وقد أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - بعظم جريمة الذين ادعوا هذه الدعوى فقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ

جنـــــة السـنـــــة

﴿ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١﴾ [مريم:٨٨-٩١]. وجاء في الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس أحد، أو ليس شيء أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم ليدعون له ولداً، وإنه ليعافيهم ويرزقهم» [البخاري: ٦٠٩٩، مسلم: ٢٨٠٤، واللفظ للبخاري].

٢- الدليل الدال على عدم صحة قول هؤلاء:

ردّ الله تبارك وتعالى على هذا الزعم الكاذب من الأمم السابقة والمعاصرة، قائلاً: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ۝١١٦﴾ [البقرة:١١٦].

أخبرنا ربنا - عزَّ وجلَّ - في ردّه على من افترى هذه الفرية أنه سبحانه السيد العظيم الذي خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، وهما ملكه يصرفهما كيف يشاء، ومن جملة ما فيهما العزير وعيسى ابن مريم والملائكة وغيرهم مما نسبه الكفار إلى الله، وكلُّ السماوات والأرض وما فيهما قانت لله، أي: طائع خاضع لله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ۝٢٦﴾ [الروم:٢٦].

إن نسبة الولد إلى الله تنافي وحدانية الله تبارك وتعالى، فالله واحد في ذاته، وواحد في صفاته وأسمائه وأفعاله، ليس له مثيل، ولا شبيه، ولا نظير، ودعواهم أنّ الله اتخذ ولداً، تعني أن له صاحبة، ولو اتخذ ولداً لكان الولد جزءاً من أبيه، أي: لأصبح إلهاً معبوداً، وكلّ ذلك كذب وباطل من القول، وقد أنزل الله سورة عظيمة قررت الوحدانية والصمدية لله، ونفت عنه أن يكون له والد أو ولد، كما نفت عنه النظير والمثيل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [سورة الإخلاص].

إن هذه الدعوى التي يدعيها الظالمون دعوى هزيلة، تجعل المخلوق المربوب المألوه جزءاً من الخالق العظيم، وسيظهر لهؤلاء كذبهم في يوم الدين عندما يسوق الله العباد جميعاً للحساب ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾ [مريم:٩٣-٩٥] ومما يدلُّ على كذب من ادعى هذه الدعوى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ۝١٥﴾ [الرعد:١٥].

وأخبرنا ربنا - عزَّ وجلَّ - في ردِّه على من ادعى هذه الفرية العظيمة أنه سبحانه وتعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝١١٧﴾ [البقرة:١١٧] والمراد بـ ﴿بَدِيعُ﴾ في قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١١٧] أي: مكونهما على غير

جنـــــة الســـــنة

مثال سابق، ومن جملة ما كوَّنه وأبدعه ما جعلوه - كذباً وزوراً - ابناً لله تعالى، مثل العزير والمسيح والملائكة.

وأخبرنا تبارك وتعالى أن هؤلاء الذين نسبوهم إلى القهار الجبار خُلقوا كما خلق غيرهم، ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة:١١٧]، فالله إذا أراد إيجاد شيء فإنه يقول له كلمة واحدة، وهي ﴿كُن﴾ فيكون كما يريده الله رب العالمين.

فالله لا يعجزه شيء، ولا يستعصي عليه شيء، وكلُّ شيء أمره الله أن يكون، فإنه يكون كلمح البصر ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢] وقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل:٤٠]. وقال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر:٥٠] وقال مبيناً كيف خلق الله عيسى وآدم: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران:٥٩].

٣- تعنتِ مشركي العرب فيما اشترطوه لإيمانهم:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - بما طلبه مشركو العرب كي يؤمنوا ويستجيبوا للرسول ﷺ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [البقرة:١١٨]. والذين لا يعلمون هم مشركو العرب، سموا بذلك لأنه ليس لهم كتاب مثل كتاب اليهود والنصارى، وقوله: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١١٨] أي: هلاّ يكلمنا الله، فـ(لولا) حرف تحضيض.

وقد أخبرنا الله - تبارك وتعالى - في مواضع أخرى عن آيات طلبوها، فقال: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء:٩٠-٩٣].

وهذه الآيات ونظائرها تدلُّ على عظيم كفر مشركي العرب، ومدى عُتوهم وعنادهم، وسؤالهم عما لا حاجة لهم به، وقد سأل اليهود الرسول ﷺ مثل هذه الأسئلة، كما قال: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء:١٥٣] وقوله تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة:١١٨] أي: تشابهت في التعنت والاقتراح، وفي الاتفاق على الكفر على هذا النحو.

جنـــــة السـنـة

وقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [البقرة:١١٨] يقول الله تعالى: وضَّحنا صدق رسولنا بما أنزلناه عليه من الآيات الصادقة كانشقاق القمر، وآيات القرآن، وفيها كفاية لمن اعترف بالحق، وأنصف في القول، وأذعن لأمر الله تعالى، وهذا هو الصنف الذي رزقه الله اليقين، وهداه إلى الحق.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- افترى اليهود والنصارى وعرب الجاهلية أعظم الكذب على الله تعالى عندما نسبوا الولد إلى الله سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

٢- الردُّ على هؤلاء الكذبة المفترين في غاية الوضوح لمن عقل، ورزق حسن التفكر في خلق الله تعالى، فالموجودات غير الله من السموات والأرض وما فيهما وما بينهما كلُّها مخلوقة لله الواحد الأحد، وكون الأشياء مخلوقة ينفي أن يكون منها شيء هو ولد لله سبحانه.

٣- تعنت مشركو العرب فيما يطلبونه كي يؤمنوا، فقد طلبوا أن يخاطبهم الله تعالى مكلماً إياهم، وطلب بعضهم أن ينزل الله عليه من السماء آية عظيمة، وهذه الطلبات التي طلبوها تشبه ما طلبه الذين من قبلهم، وخاصة بني إسرائيل، وهذا يدلُّ على تشابه قلوبهم، وقد كان يكفيهم ما أجراه الله على يدي رسوله من آيات.

٤- على المسلمين أن يُعرِّفوا أبناءَهم وإخوانهم بشبهات الخصوم وكيفية الردّ عليها.

٥- أخذ بعض أهل العلم من مثل هذه الآيات أن الرجل المسلم إذا ملك ابنه عبداً عتق عليه في الحال، لأن الآيات منعت اجتماع الولادة والملك.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الرابع والعشرون من سورة البقرة
لن يرضى عنا اليهود ولا النصارى حتى نتبع ملتهم

أولاً: تقديم

هذا النصُّ يصوّب مسار الأمة الإسلامية وبخاصة العلماء والدعاة منهم في عدة أمور:

الأول: أنَّ الدين الذي جاءنا من عند الله على يدي نبيّنا محمد بن عبدالله ﷺ وهو الإسلام، كلُّه حقٌّ وصدق، وعلينا إبلاغه للناس عن طريق التبشير والإنذار، فإن كفر الناس بعد ذلك فلا نسأل عن كفرهم.

الثاني: أن لا نهتم كثيراً لما يطلبه اليهود منا، فإنهم لن يرضوا عنا مهما قدَّمنا لهم، ولن يرضيهم عنا إلا كفرنا بديننا وردتنا عنه.

الثالث: الهدى هو من عند الله، وهو موجود في القرآن والسنّة النبوية، فالذين يطلبون الهدى من عند الكفار كاليهود والنصارى ضالون.

الرابع: ثناء ربِّ العزة على المؤمنين بالقرآن لأنهم يحكِّمونه في حياتهم.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مهمة الرسول ﷺ التبشير والإنذار بهذا الدين:

أخبر الله - تبارك وتعالى - عبده ورسوله محمداً ﷺ في الآية الأولى من هذا النص أنه أرسله بالحق، وهو دين الإسلام الذي لا يقبل من أحد ديناً سواه ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾ [البقرة:١١٩]، وأخبره أنه أرسله بشيراً، أي: مبشراً برحمة الله وجنته، ونذيراً، أي: مخوفاً الكفار بالنار وغضب الجبار، فإذا قام بالمهمة، وألزم الناس الحجة، فلا يسأل عن أصحاب الجحيم في يوم الدين.

جنــــــة الســــــنة

٢- لن ترضى عنا اليهود ولا النصارى حتى نتبع ملتهم:

أيأس الله عبده ورسوله محمداً ﷺ وأمته من بعده بأن يطمعوا بإيمان اليهود والنصارى ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠].

والنفي بـ ﴿لَن﴾ هو من المبالغة في التيئيس، لأنها لنفي المستقبل وتأبيده، والمراد بملتهم، أي: الشريعة التي يتبعونها، بما فيها من عقائد وأحكام وأعمال وأخلاق، وهي شريعة منسوخة محرفة مبدلة.

وها قد مضى على نزول هذا النص أكثر من ألف وأربعمائة عام، وبقي اليهود والنصارى على دينهم، ولم يؤمنوا بديننا، وإن آمن طوائف منهم.

٣- أثر هذا التوجيه الرباني في هداية الأمة الإسلامية:

إذا فقهنا هذا النص الكريم فإننا نوقف هدر الطاقات في غير مسارها، وسأنبه هنا إلى ثلاثة أمور:

الأول: أن الجهود الإسلامية التي تُبذل في المجتمعات اليهودية والنصرانية لتغيير الرأي العام في تلك الديار جهود ضائعة، فاليهود والنصارى ليس لديهم قابلية للتحول إلى هدي القرآن، والكف عن ظلمنا وتدميرنا، وقد قذفتنا أوروبا بالملايين من المقاتلين قديماً وحديثاً، وأقاموا أخيراً لليهود دولة في ديارنا.

الثاني: اليهود والنصارى فاقدون للهداية، والهدى الخالص في قرآننا وسنّة نبينا، فشريعتهم بُدِّلَت وحُرِّفت ونُسِخت، فهي لا تصلح لتكون منهج حياة، وصدق الله حيث يقول: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة:١٢٠].

وطلب الهداية من اليهود والنصارى، وهم الذين يتبعون أهواءَهم ضلال عظيم ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٢٠﴾ [البقرة:١٢٠].

الثالث: الواجب علينا أن نبلِّغ اليهود والنصارى الدينَ الحقَّ الذي جاءَنا من عند الله، ونقيم عليهم الحجة، حتى لا يكون لهم حجة في يوم الدين.

واللام في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ﴾ موطئة للقسم، ليؤكد الخبر الذي تضمنته، وفي هذه الآية وعيد شديد ترجف له قلوب الصالحين، وتتصدع له قلوب الذين يخشون الله رب العالمين، فالمتبع لأهواء اليهود والنصارى ما له من الله من ولي ولا نصير، يعني «ليس لك يا محمد من ولي يلي أمرك، وقيِّم يقوم به، ولا نصيرٍ ينصرك من دون الله، فيدفع عنك ما ينزل بك من عقوبته» [فتح القدير: ١/ ٦٧٤].

جنـــــة السـ ــــنة

٤- اليهود والنصارى ينصبون أنفسهم هداة:

نصَّبَ كثير من اليهود والنصارى أنفسهم هداة للمسلمين، وقد درسوا ديننا، ورحلوا إلينا في بلادنا الإسلامية مبشرين بالنصرانية، وقدموها لنا مغموسة بلقمة الغذاء، وحبة الدواء، والمعسول من القول، وجاءت جيوش المبشرين مصاحبة للجيوش التي غزت ديارنا لتدخلنا في دينهم.

وفئة أخرى أقاموا الاحتفالات وعقدوا المؤتمرات والندوات والاجتماعات، ودعوا رجالنا ونساءَنا ليقفوا بين أيديهم متعالمين داعين إلى التوفيق بين دينهم والإسلام، وهم في الحقيقة يقصدون هدم الإسلام في نفوسنا، فعجباً لبني ديني يطلبون الهدى من المغضوب عليهم والضالين من اليهود والنصارى.

٥- ثناء الله على المؤمنين الذين يتلون كتاب الله ويهتدون بهداه:

بعد أن ذمّ الله الذين يتبعون أهواء اليهود أثنى على الذين يأخذون كتاب الله، ويتلونه حقَّ تلاوته، ويهتدون بهداه، ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [البقرة:١٢١].

عنى بالذين آتاهم الكتاب كلَّ من آمن بهذا الكتاب من اليهود والنصارى والعرب وغيرهم، وتلاوة هذا الكتاب تكون بترتيله ترتيلاً مقترناً بالفقه لآياته، وبذلك يلقي القرآن خيراته وبركاته في النفوس، كما قال أبو موسى الأشعري ﷺ: «من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة»، وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «هم الذين إذا مروا بآية رحمة سألوها من الله، وإذا مروا بآية عذاب استعاذوا منها» [القرطبي: ٢/ ٩٥].

وقد يكون المراد بقوله: ﴿يَتْلُونَهُۥ﴾ [البقرة:١٢١] أي: يتبعونه، وهذا ما ذهب إليه ابن عباس وعكرمة وأبو العالية [ابن جرير: ١/ ٥١٩]، واتباعهم إياه يكون بإحلال حلاله، وتحريم حرامه، والاهتداء بهداه، مع عدم التحريف له. والدليل على أن معنى يتلونه يتبعونه مجيئها في بعض الآيات على هذا النحو، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾﴾ [الشمس:١-٢].

٦- حثّ بني إسرائيل على تذكر نعمة الله عليهم لتلين قلوبهم:

ختم الله هذا النص بقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [البقرة:١٢٢-١٢٣].

جنـــــــة السـنــــة

وهاتان الآيتان تقدم ذكرهما بنصِّهما في الآية السابعة والأربعين والثامنة والأربعين من هذه السورة، وقد أعيدت هاتان الآيتان بالألفاظ التي ذكرت هناك، ولم يخالف بين الآيتين إلا في الترتيب بين (العدل والشفاعة) فهناك قدَّم ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ وأخَّر ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة:٤٨] وهنا قدَّم ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة:١٢٣] وأخَّر لفظ الشفاعة.

وتكرار هاتين الآيتين بنصهما إنما هو لحث بني إسرائيل على تذكُّر نعمه عليهم لتلين قلوبهم، وتتابع النبيَّ الأميّ الذي أُمروا باتباعه، ولتخويفهم وتحذيرهم مما سيقدمون عليه في يوم القيامة.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الواجب على دعاة الأمة وعلمائها أن يعلموا أن دين الله حق، وعليهم أن يبلغوه للعالمين، ولا يضيرهم بعد ذلك كفر من كفر، فالواجب إقامة الحجة على الناس.

٢- أعلمنا ربنا أن اليهود والنصارى لن يرضوا عنا إلا إذا دخلنا في ملتهم، ودينهم باطل، والهدَى عندنا في كتابنا، فمن اتبع أهواءَهم فليس له من الله ناصر ينصره، وليس له ولي يتولى أمره.

٣- الفئة الخيرة الطيبة التي يرضى الله عنها هم الذين آمنوا بالقرآن، وتلوه حقَّ تلاوته، وعملوا به، أما الفئة الضالة الخاسرة فهم الذين كفروا بالقرآن.

٤- الذين يطلبون الهداية من اليهود أو النصارى أو البوذيين أو المجوس أو الشيوعيين أو غيرهم ضالون، مهددون من الله تبارك وتعالى، ولن يحول بينهم وبين عذاب الله ولي ولا نصير.

٥- ذهب جمع من أهل العلم إلى أن الكفر ملة واحدة، لقوله تعالى: ﴿مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠] ولذلك فإنهم يتوارثون فيما بينهم سواءً كانوا يهوداً أو نصارى أو بوذيين إذا كانوا أقارب، وهذا قول أبي حنيفة والشافعي وداود وأحمد.

وذهب آخرون منهم الإمام مالك إلى أن الكفر ملل شتى، فلا يرث اليهودي النصراني، ولا النصراني اليهودي، لقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون:٦] والأول أصوب.

٦- في آيات هذا النص من أنباء الغيب أن اليهود والنصارى لن يدخلوا بمجموعهم في ديننا، وإن دخل بعضهم فيه.

جنـــــة الســـــــنة

النص القرآني الخامس والعشرون من سورة البقرة
إبراهيم عليه السلام إمام الناس

أولاً: تقديم

هذا النص الكريم والنصوص الأربعة التالية له تتحدث عن النبي الكريم إبراهيم خليل الرحمن الذي ابتلاه الله بجملة من الشرائع فأتى بها وافية، فجعله الله إماماً للناس، كما تتحدث هذه الآيات عن الرعيل الأول من ذريته الأخيار الأطهار، ومنهم نبيا الله إسماعيل وإسحاق، وهما من أولاده، ومنهم نبي الله يعقوب، وهو حفيده من ابنه إسحاق، ويعقوب هو إسرائيل، ومنهم أبناء يعقوب، وهم اثنا عشر ولداً، وهم المذكورون في القرآن باسم الأسباط، وقد أصبح كل سبط بمنزلة القبيلة عند العرب.

واليهود والعرب يعتز كل منهم بالانتساب إلى نبي الله إبراهيم، ويفاخرون بذلك، لكن لم يكن واحد من القبيلين عند البعثة النبوية على دينه ومنهجه، فقد غيروا وبدّلوا، فجاءَت هذه النصوص الخمسة لتبرز مكانة إبراهيم والرعيل الأول من ذريته، وتظهر المنهج الذي كانوا عليه، وتبرز مكانة البيت العتيق الذي بناه نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل، وتبرز الدين والملة التي كانت عليها تلك الأمة، وهم إبراهيم وأولاده وأحفاده، وتطالب ذريته الذين ينتسبون إليه في عهد تنزل القرآن ومن بعدهم أن يقيموا أنفسهم على دينه، بعيداً عن الترهات والأباطيل التي اخترعوها، وهذه النصوص تأصيل للأمة الناشئة الوليدة، التي دعا بها إبراهيم وابنه إسماعيل، وهما يرفعان القواعد من البيت، فهذه الأمة، وهي الأمة الإسلامية، ورسولها، وهو خاتم الرسل، هم الذين أحيوا ملة إبراهيم، وأقاموا الإسلام الذي كان عليه إبراهيم، فهم وإن كانوا متأخرين في الزمان، فإن جذورهم تضرب في أعماق التاريخ لتتصل بالنبع الصافي الذي كان عليه الأخيار: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، ولتقوم على ميراث إبراهيم وابنه إسماعيل، وهو البيت العتيق، أول بيت وضع للناس، فتعمره بالحج والعمرة، والصلاة إليه وعنده، وتحييه بالاعتكاف والطواف.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ
عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ
إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ

جنـــــة الســــــنة

﴿هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في آيات هذا النص من القرآن

١- ابتلى الله نبيّه وخليله إبراهيم عليه السلام بجملة من التكاليف فقام بها:

أمر الله - تبارك وتعالى - رسوله محمداً ﷺ والذين آمنوا معه أن يذكروا ما كان من ابتلاء الله لأبيهم إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة:١٢٤].

والمراد بالابتلاء في هذه الآية الاختبار، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ﴾ [الأنبياء:٣٥].

وسمى الله الشرائع التي كلَّف الله بها إبراهيم ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾ لأنه اقترن بها أوامر ونواه، هي كلمات.

وكلمات الله نوعان: **الأولى**: شرعية دينية، وهي مرضية محبوبة لله، ومنها ما كلف الله به إبراهيم عليه السلام، وما أنزله على محمد ﷺ ونوح وموسى وعيسى وغيرهم من الرسل والأنبياء.

الثانية: قدرية، وهي التي خلق بها الخلق، وصرَّف بها الكون، كخلق الجن والإنسان، وغير ذلك، مما يرضاه الله ومما لا يرضاه.

٢- تحديد التكاليف التي ابتلى الله إبراهيم بها:

اختلف أهل العلم في تحديد التكاليف التي ابتلى الله إبراهيم بها، وساق ابن جرير وابن كثير والشوكاني وغيرهم كثيراً مما ورد في ذلك، ومن ذلك قول بعضهم: هي ما شرعه من المناسك، وقيل: هي ما شرع الله له من الطهارة في جسده، وقيل: الختان، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط، وحلق العانة، والذي ذهب إليه ابن كثير أنها شاملة لكل الأقوال التي أوردها.

والذي في التوراة أن العهد الذي أعطاه لإبراهيم ونسله من بعده ختان الذكور [سفر التكوين، الإصحاح السابع: ١٠-١٤].

وجمع السيوطي في [الدر المنثور: ١/ ٢٧٣-٢٨٨] كل ما قيل في ذلك، وأورد كل الأحاديث الواردة فيه، وما ذكره نوعان: **الأول**: أحاديث ضعيفة لا تُقبل بحال. **والثاني**: أحاديث صحيحة، ولكنه لا يوجد ما يدل على دخولها في النص بحال.

جنـــــة الســـــــنة

ولم يرتض ابن جرير الطبري والشوكاني وعبدالقادر بدران وغيرهم ما ذكر فيها من أقوال، لأنه لا دليل يدلّ على صحة ذلك [راجع: ابن جرير: ١/ ٥٢٧، فتح القدير: ١/ ٢٧٠، جواهر الأفكار: ١/ ٣٣٦].

٣- لا يزال هذا العهد الذي ابتلى الله به إبراهيم مسطوراً في التوراة:

ولا يزال هذا العهد الذي أعطاه الله لإبراهيم موجوداً في التوراة إلى اليوم، ففي [الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين] «ظهر الرب لإبرام - أي: إبراهيم - وقال له: أنا الله القدير سر أمامي، وكن كاملاً فأجعل عهدي بيني وبينك وأُكثِّرك كثيراً جداً».

٤- قيام إبراهيم عليه السلام بالتكاليف التي كلفه الله بها:

وقد أثنى الله على عبده ورسوله إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٢٤]، والمعنى: أنه قام بهنَّ وعمل بهن على الوجه الذي أراده ربُّ العزة سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم:٣٧] أي: عمل ما طلب منه، فجاء به وافياً.

٥- التعريف بنبي الله إبراهيم عليه السلام :

نبي الله إبراهيم من أهل العراق، ومعنى إبراهيم في العربية والسريانية أب رحيم، وكثيراً ما يقع الاتفاق في اللفظ بين هاتين اللغتين [القرطبي: ٢/ ٩٦].

ووالد إبراهيم عليه السلام اسمه (آزر) قال تعالى: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام:٧٤]. وقد دعا إبراهيم أباه وقومه إلى التوحيد، وحطَّم أصنامهم، فقذفوه في النار، فنجاه الله منها، وهاجر إبراهيم عليه السلام من العراق إلى الأرض المقدسة في فلسطين.

٦- جعل الله إبراهيم عليه السلام إماماً للناس:

جعل الله نبيه إبراهيم عليه السلام إماماً للناس، ولذلك فإنَّ اليهود والنصارى والعرب، كلُّهم يفخر في الانتساب إلى نبي الله إبراهيم.

وإبراهيم عليه السلام هو والد إسماعيل أبو العرب المستعربة، فالعرب أحفاد إسماعيل، وهم من نسله وذريته، وقد كانت العرب تفخر بانتسابها إلى خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ، وكان بنو إسرائيل يفعلون مثل ذلك لأنهم من ذرية إبراهيم من حفيده يعقوب بن إسحاق، وكذلك النصارى، فالأمم جميعاً تفاخر بنسبتها إلى إبراهيم، بل ادعى كل من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً، فأكذبهم ربُّ العزة فيما ادعوه، فقال: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة:١٤٠].

جنـــــة السـنـــــة

وقال في موضع آخر نافياً ما ادعاه اليهود والنصارى ومشركو العرب في إبراهيم ﷺ: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران:٦٧].

لقد كان إبراهيم سابقاً في الزمن على اليهودية والنصرانية وما عليه مشركو العرب من الضلال، فقد ولد إبراهيم ﷺ قبل ميلاد المسيح بألفي عام، وموسى ﷺ من ذريته، فما ادعاه اليهود والنصارى والعرب أنه كان منهم فهو باطل، حملهم عليه الدعاوى الباطلة، والمفاخرات الكاذبة.

وقد جعل اليهود والنصارى والعرب إبراهيم إماماً لهم، وصدقوا بفعلهم هذا قول الله عز وجل: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة:١٢٤].

ولم يشذ المسلمون من هذه الأمة عن جعلهم إبراهيم قدوة لهم، بل هم أحق به وأتباعه من اليهود والنصارى ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [آل عمران:٦٨] ذلك أنهم قائمون على ملته، مقتدون به على الوجه الأتم الأكمل.

٧- لا يشمل عهد الله لإبراهيم الكفار من ذريته، بل هو قصر على الصالحين:

عندما قال الله لإبراهيم: إني جاعلك للناس إماماً، سأل إبراهيم ربه عن مدى شمول هذا العهد لذريته من بعده، فأخبره أن من ذريته كفرة ظالمين، وعهد الله لا يشمل أمثال هذا الصنف الضال، والنصُّ يدلُّ بمفهومه على شمول العهد للصالحين من ذريته، أمثال إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وسليمان وداود وعيسى ومحمد عليهم أفضل الصلاة والسلام.

وبعد بعثة الرسول ﷺ الخاتم فإن كل اليهود والنصارى الذين لم يؤمنوا به وبما جاء به كفرة، غير داخلين في عهد الله، وهم مبعدون مطرودون من رحمة الله، وكل العهود التي أعطاها الله لأنبيائهم أمثال إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى والمسيح لا تنالهم بحال، فدعواهم اليوم أن هذه البلاد المقدسة بلادهم، ودعواهم أن معهم عهوداً من رب العزة بذلك، كل ذلك كذب وضلال، فعهود الله لا تشملهم، وهم كاذبون فيما يدَّعونه، ونحن أحق بإبراهيم ﷺ وأنبياء بني إسرائيل منهم ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [آل عمران:٦٨].

٨- جعل الله البيت مثابة للناس وأمناً:

أمرنا ربنا - عز وجل - أن نذكر جعله سبحانه البيت الذي بناه إبراهيم وإسماعيل مثابة للناس، أي: مرجعاً لهم، أي: يعودون إليه مرة بعد مرة، مما يدلُّ على أن في قلوب المؤمنين حنيناً دائماً لزيارة هذا البيت والطواف به، والاعتكاف والصلاة عنده.

جنـــــة السـنـــــة

وكما جعله الله مثابة للناس جعله الله أمناً أيضاً، ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة:١٢٥]. فقد جعله رب العزة حرماً آمناً، فهو في الجزيرة العربية كالواحة في الصحراء، الناس يقتلون ويغتالون فيها، أما الحرم فهو آمن، لا يعتدي أحد فيه على أحد، يلقى الرجل فيه قاتل أبيه، فلا يهيجه ما دام في الحرم، بل تعدى الأمن البشر إلى الحيوان والنبات.

٩- أمرنا ربنا أن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى:

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥] أصحُّ ما قيل في المقام أنه الحجر الذي وقف عليه إبراهيم عليه السلام حين طالت عليه جدران الكعبة في بنائها، فوقف عليه ليستطيع أن يزيد في البناء، وقد جعل الله قدمي إبراهيم تؤثر في صخرة ذلك المقام، ثم زال هذا الأثر لأن الناس كانوا يتمسحون به، وقد كان المقام لاصقاً بجدار الكعبة إلى عهد عمر ابن الخطاب، فأبعد عنها، وفي عصرنا هذا قاموا بإبعاده أكثر وأكثر، حتى يمكن الصلاة عنده ولا يضير الطائفين.

وقد عقد البخاري في صحيحه باباً عنون له بقوله: «بابٌ: قوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥]» وأورد فيه حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي يقول فيه: «وافقت ربي في ثلاث» وإحدى هذه الثلاث قوله: «يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى» [البخاري: ٤٤٨٣].

وقال ابن جرير: «أولى الأقوال بالصواب عندنا ما قاله القائلون: إن مقام إبراهيم هو المقام المعروف بهذا الاسم، الذي هو في المسجد الحرام، لما روينا آنفاً عن عمر بن الخطاب»، وأورد حديث جابر، وفيه: «استلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الركن، فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم، فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥] فجعل المقام بينه وبين البيت، فصلى ركعتين» [ابن جرير: ١/ ٥٣٧].

وهذا الذي أورده ابن جرير رواه مسلم من حديث جابر الطويل، وفيه: «ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام، فقرأ ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥] فجعل المقام بينه وبين البيت» [مسلم: ١٢١٨] وذكر فيه أنه قرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١] و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون:١]» وفي صحيح البخاري عن ابن عمر قال: «قدم النبي صلى الله عليه وسلم فطاف بالبيت سبعاً، وصلَّى خلف المقام ركعتين ثم خرج إلى الصفا» [البخاري: ١٦٢٧].

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى في قوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥]: المراد بالمقام هو الحجر الذي كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة، لما ارتفع الجدار أتاه

جنـــــة السـنــــة

إسماعيل به ليقوم فوقه، ويناوله الحجارة، فيضعها بيده لرفع الجدار، كلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى، يطوف حول الكعبة، وهو واقف عليه، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها هكذا، حتى أتمَّ جدران الكعبة، وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفاً تعرفه العرب في جاهليتها، ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المعروفة باللامية:

ومـوطئ إبـراهيم في الصـخر رطبـة ... عـلى قدميـه حافيـاً غـير ناعـل

ونقل ابن كثير عن أنس بن مالك قال: «رأيت المقام فيه أثر أصابعه عليه السلام، وأخمص قدميه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم» [ابن كثير: ١/ ٣٦٤].

١٠- عهد الله - تعالى - إلى إبراهيم وإسماعيل أن يطهرا بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه عهد إلى خليله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام أن يطهرا بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة:١٢٥].

فالبيت مبني للطائفين الذين يطوفون به للحج والعمرة ولغيرهما. والعاكفون فيه الذين يلازمونه بنية التعبد، والمصلون الذين دلَّ عليهم قوله: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾، والركوع والسجود من أخص خصائص الصلاة.

«وخصّ الله الركوع والسجود بالذكر من جميع أحوال المصلين، لأنهما أقرب أحواله إلى الله، وقدم الركوع على السجود، لتقدمه في الزمان» [قطف الأزهار: ص٣٢٢]. والعهد: أصله الوعد المؤكد وقوعه، وهو هنا بمعنى الوصية، لأنه عُدِّيَ بـ (إلى). وأصل العكوف في لغة العرب: اللزوم للشيء والإقامة عليه.

١١- دعاء إبراهيم عليه السلام لمكة وأهلها:

أمرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن نذكر دعاء إبراهيم عليه السلام لمكة في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة:١٢٦]. وقد دعا إبراهيم عليه السلام لأهل مكة بأمرين: **الأول**: أن يجعلها بلداً آمناً. **والثاني**: أن يرزق من آمن من أهلها من الثمرات.

وقد أصبحت مكة بدعوة إبراهيم حرماً آمناً كما في صحيحي البخاري ومسلم عن عبدالله بن زيد، عن النبي ﷺ قال: «إن إبراهيم حرَّم مكة، ودعا لها، وحرَّمتُ المدينة كما حرَّم

جنـــــة السـنة

إبراهيم مكة، ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم عليه السلام لمكة» [البخاري: ٢١٢٩، مسلم: ١٣٦٠].

وقد وردت أحاديث عدة كلها مصرحة بأن الله حرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض، فمن ذلك ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوم افتتح مكة: «لا هجرة، ولكن جهادٌ ونية، وإذا استنفرتم فانفروا، فإن هذا بلد حَرَّم الله يوم خلق السموات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحلّ لي إلا ساعةً من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضَد شوكُه، ولا يُنفَّر صيدُه، ولا يَلتقِط لُقَطَتَه إلا مَن عرّفها، ولا يُختلى خلاها». قال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخِر، فإنه لِقَيْنِهم ولبيوتهم، قال: قال: «إلا الإذخر» [البخاري: ١٨٣٤، مسلم: ١٣٥٣].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: إن خزاعة قتلوا رجلاً من بني ليث، عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه، فأُخبِر بذلك رسولُ الله ﷺ، فركب راحلته فخطب، فقال: «إن الله عز وجل حبس عن مكة الفيل، وسلّط عليها رسوله والمؤمنين، ألا وإنها لم تَحِلَّ لأحد قبلي، ولن تحلّ لأحد بعدي، ألا وإنها أُحِلّت لي ساعة من النهار، ألا وإنها ساعتي هذه، حرام، لا يُخبط شوكها، ولا يُعضَد شجرُها، ولا يلتقِط ساقطتها إلا مُنشد، ومن قُتل له قتيل فهو بخير النظرين، إما أن يُعطَى (يعني الدية)، وإما أن يُقاد (أهل القتيل)». قال: فجاء رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاه، فقال: اكتب لي، يا رسول الله! فقال: «اكتبوا لأبي شاه». فقال رجل من قريش: إلا الإذخر، فإنا نجعله في بيوتنا وقبورنا، فقال رسول الله ﷺ: «إلا الإذخِر» [مسلم: ١٣٥٥].

وعن أبي سعيد المقبري، عن أبي شُريح العدوي: أنه قال لعمرو بن سعيد، وهو يبعث البعوث إلى مكة: ائذنْ لي أيها الأمير أحدِّثك قولاً، قام به رسول الله ﷺ للغد من يوم الفتح، فسمعته أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي حين تكلم به، إنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن مكة حرَّمها الله، ولم يُحرِّمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، ولا يعضُد بها شجرة، فإن أحد ترخّص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ﷺ ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي ساعة من نهار، وقد عادت حُرمتُها اليومَ كحُرمتها بالأمس، وليُبلِّغ الشاهد الغائب» [البخاري: ١٨٣٢، مسلم: ١٣٥٤].

والصواب من القول: أن الله حرّم مكة يوم خلق السماوات والأرض، ولكن هذه الأحكام لم تظهر، لأن أرضها بقيت خالية لا يسكنها أحد، لعدم وجود الماء فيها، فلما أسكن

جنـــــة الســـــــنة

إبراهيم فيها ذريته، وأظهر الله فيها زمزم، أظهر الله حرمتها بدعاء إبراهيم ربّه بأن يجعلها حرماً آمناً.

ودعا إبراهيم ربه تبارك وتعالى أن يرزق المؤمنين من أهل مكة الثمرات، فاستجاب الله، ولكنه لم يجعلها قصراً على المؤمنين، فرزقُه في الدنيا ينال المؤمن والكافر، أما في الآخرة فيلجِئ الله الكافر إلى عذاب النار وبئس المصير.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- جعل الله - سبحانه - إبراهيم عليه السلام إماماً للناس، وذلك بعد أن قام بها ابتلاه الله به من التكاليف، ولذا فإن جميع الملل التي لها كتاب سماوي من بعد إبراهيم تفخر بالانتساب إليه.

٢- عهد الله لإبراهيم الذي أصبح به إماماً لا يشمل الظالمين الكفرة من ذريته، بل هو قصر على إبراهيم والصالحين من ذريته، فالذين كفروا بعيسى بعد بعثته، وكذلك الذين كفروا بمحمد ﷺ بعد بعثته خارجون عن عهد الله الذي أعطاه لإبراهيم.

٣- تجمع اليهود اليوم واحتلوا أرض فلسطين وأعانتهم الدول الغربية، وقد ادعى اليهود أن لهم وعداً إلهياً أعطاه لآبائهم في تلك الديار المقدسة، وقولهم هذا قول باطل مفترى، لأنهم كفرة خارجون عن عهد الله ووعده.

٤- عظم مكانة البيت العتيق الذي بناه نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، فقد جعله مسجداً يجب على الناس أن يحجوا ويعتمروا إليه، ويعمروه بالصلاة فيه، والاعتكاف عنده.

٥- جعل الله بدعاء نبيه إبراهيم عليه السلام مكة حرماً آمناً، لا يجوز الاعتداء فيه على أحد، وكانت قريش والعرب تلتزم بذلك في جاهليتها، وبعد أن فتح الرسول ﷺ مكة، عادت حرمة مكة إلى ما كانت عليه.

٦- يجب على المسلمين أن يُعْنَوْا بتطهير المساجد المخصصة لعبادة الله من النجاسة، فلا يصح الصلاة في موضع نجس.

٧- يستحب اتخاذ مقام إبراهيم مصلى، خاصة بعد الطواف بالبيت في الحج والعمرة.

جنـــــــة الســـــــنة

٨- استدلَّ أبو حنيفة وطائفة من فقهاء الأمصار على ترك الجلد على المحصن والسارق إذا لجأ إليه، وعضدوا ذلك بقوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران:٩٧] والصواب من القول: أنه يجب إقامة الحد على من لجأ إليه، وعدم إقامة الحد فيه منسوخ.

٩- لا حرج على من صلى داخل الكعبة، لأنه سيستقبل جزءاً منها أثناء صلاته، وقد صلى الرسول ﷺ ركعتين في داخل الكعبة [البخاري عن ابن عمر: ٥٠٥].

جنـــــة الســـــــنة

النص القرآني السادس والعشرون من سورة البقرة
نبيا الله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يرفعان القواعد من البيت

أولاً: تقديم

هذا النص الكريم يظهر لنا نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، وهما يبنيان البيت العتيق، ويدعوان الله أن يتقبل منهما عملهما، ويجعلهما مسلمين له، ويجعل من ذريتهما أمة مسلمة له، وأن يدلهما على مناسك الحج والعمرة، ويتوب عليهما، ويبعث في تلك الأمة المسلمة رسولاً منهم، يتلو عليهم آياته، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.

إن هذا النص يرتقي بالأمة المسلمة إلى درجات عالية، فالمؤمنون بمحمد ﷺ هم الأمة التي عناها إبراهيم وإسماعيل في دعائهما، والرسول محمد ﷺ هو دعوة إبراهيم في الواقع المشهود، وقد حدد الله لتلك الأمة المهمات الملقاة على الرسول الخاتم، فهو يتلو عليهم آيات الله المنزلة عليه، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويطهرهم على النحو الذي يريده الحكيم العليم.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إبراهيم وإسماعيل يبنيان البيت الحرام:

أمر الله - جل وعلا - رسول الله ﷺ والمؤمنين معه أن يذكروا نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل وهما يبنيان البيت العتيق، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة:١٢٧].

والقواعد: جمع قاعدة، وهي الأساس والأصل لما فوقه، ورفع القواعد يكون بالبناء عليها، والنص ببيانه البديع يرد المشهد الغائب إلى حاضر ندركه ونسمعه ونراه، فكأننا نشاهد إبراهيم وإسماعيل يقومان ببناء البيت شاخصة قامتاهما، وهما يدعوان الله أن يتقبل منهما عملهما ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة:١٢٧] و﴿رَبَّنَا﴾ منادى حذف منه

جنـــــة السـنـــة

حرف النداء (يا)، أي: يقولان: يا ربنا، تقبل منا أعمالنا، فقد كانا يبنيان بيت الله، ويخشيان أن لا يتقبل منهما، وهذا شأن المؤمنين الصالحين الأخيار، كما قال الله في حقهم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠] وهؤلاء هم الذين يصلون ويصومون ويزكون ويحجون، ويفعلون أفعال الخير، وقلوبهم وجلة، فهي تخاف أن لا يتقبل الله عملها، وقد روى ابن كثير عن وهب بن الورد أنه كان يقرأ هذه الآية، ثم يبكي ويقول: «يا خليل الرحمن: ترفع قوائم بيت الرحمن، وأنت مشفق أن لا يتقبل منك» [ابن كثير: ١/ ٣٧٢].

وقوله في ختام الآية ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧] أي: السميع لأقوالنا، العليم بنياتنا.

٢- دعاء إبراهيم وإسماعيل ربهما أن يجعلهما مسلمين له ومن ذريتهما أمة مسلمة له:

أخبرنا ربنا - عزَّ وجلَّ - أنه كان من دعاء نبي الله إبراهيم وابنه نبي الله إسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت أن يجعلهما مسلمين له، وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة له ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ [البقرة:١٢٨].

والإسلام الذي دعوا الله أن يجعلهما عليه، ويجعل من ذريتهما أمة تقوم عليه يتحقق بالخضوع والطاعة والاستسلام لله رب العالمين، بفعل ما أمر، وترك ما نهى عنه وزجر، وقد استجاب لهما، ولما دعوا به لذريتهما، فكانا من سادات المسلمين، وأقام الله رب العالمين على يد رسول الله محمد ﷺ أمة مسلمة، هي خير أمة أخرجت للناس.

وقال إبراهيم وإسماعيل في دعائهما: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾ [البقرة:١٢٨] لأن الله تعالى أخبر إبراهيم فيما سبق أن بعضاً من ذريته سيكون ظالماً، فلا يصحُّ لهما أن يدعوا لجميع الذرية.

٣- دعوة إبراهيم وإسماعيل أن يريهما مناسكهما:

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنهما دعوا الله ربهما فقالا: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة:١٢٨] دعوا ربهما أن يريهما المناسك التي فرضها عليهما وعلى المؤمنين من بعدهما، من الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة، والإفاضة منها إلى مزدلفة، والدعاء هناك عند المشعر الحرام، ورمي الجمار، وما أشبه ذلك.

وختما هذا المقطع من الدعاء بقولهما: ﴿وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾ [البقرة:١٢٨] قالا: يا ربنا تب علينا بعفوك عنا، وصفحك عن زلاتنا، وغفران ذنوبنا، والتجاوز عن خطايانا، فأنت كثير التوب والمغفرة، وأنت رحيم، كثير الرحمة.

جنـــــة الســـــنة

٤- دعا نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل الله ربهما أن يبعث في ذريتهما رسولاً منهم:

دعا نبيا الله إبراهيم وإسماعيل الله ربهما أن يبعث في الأمة التي من ذريتهما رسولاً منهم يتلو عليهم آياته، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [البقرة:١٢٩] وقد استجاب الله دعاءَهما، فبعث في العرب رسولاً منهم، كان يتلو عليهم آياته التي أنزلها عليه، ويعلمهم الكتاب الذي هو القرآن، كما يعلمهم الحكمة التي آتاه الله إياها.

وختما هذا المقطع من الدعاء بقولهما: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة:١٢٩] والعزيز: القوي الغالب، الذي لا يعجزه شيء أراده، والحكيم: الذي لا يدخل تدبيره خلل، ولا زلل.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- ثناء الله تبارك وتعالى على رسوليه إبراهيم وإسماعيل في بنائهما البيت العتيق في مكة، وهو أول بيت وضع في الأرض، ليكون معبداً لله تبارك وتعالى، وقد سأل أبو ذر الرسول ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض، قال: «المسجد الحرام» قال: ثم أي؟ قال: «مسجد بيت المقدس» قال: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة» [البخاري: ٣٣٦٦، مسلم: ٥٢٠].

٢- يستحب لمن عمل عملاً يريد به وجه الله تعالى أن يدعو ربه أن يتقبل منه ذلك العمل، كما دعا نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل ربهما أن يتقبل منهما عملهما في بناء البيت الحرام.

٣- يستحب لمن رزقه الله مالاً أن يشيّد المساجد، وقد عمل المسلمون على بناء المساجد في شتى الديار التي سكنوها.

٤- على المسلم أن يدعو لنفسه أن يهديه الله إلى الإسلام، ويدعو لذريته أن يهديهم للإسلام، فالله هو الهادي إلى الصراط المستقيم.

٥- كانت مناسك الحج معروفة منذ عهد إبراهيم، وحصل كثير من الخلل في هذه المناسك في الجاهلية، وقد جاءَنا رسولنا ﷺ، فعرفنا بمناسك الحج والعمرة، وعلى المسلم أن يتعرف إلى هذه المناسك، ويؤديها وفق العلم الذي علمه.

٦- وجود الرسول ﷺ كان تحقيقاً لدعوة إبراهيم وإسماعيل في دعائهما ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة:١٢٩] وجاء في الحديث: «إني عند الله في أم الكتاب خاتم النبيين، وإن

جنـــــة السـنــــة

آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بتأويل ذلك، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى قومه، ورؤيا أمي» [الطبري: ١/ ٥٥٦ وهو في مسند الإمام أحمد: ١٧١٦٣] والمراد أن أول من نَوَّه بذكر رسولنا ﷺ وشهره إبراهيم عليه السلام.

٧- هدمت الكعبة في الجاهلية بفعل السيول، فلما بنت قريش الكعبة اشترطت أن لا تضع في البناء إلا مالاً حلالاً، فقصرت النفقة، فلم تكف لبنائها كلِّها، فبقي جزء منها، وهو المعروف بحجر إسماعيل، وجعلوا للكعبة باباً واحداً مرتفعاً، بعد أن كان لها بابان لاصقان في الأرض، وقد منع الرسول ﷺ من هدمها وإعادة بنائها أن قريشاً كانت قريبة عهد بجاهلية، وقد دلَّ الرسول ﷺ على الطريقة الصحيحة في بنائها، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الجَدْرِ، أمن البيت هو؟ قال: «نعم».

قلت: فما لهم لم يدخلوه في البيت، قال: «إنَّ قومك قصرت بهم النفقة».

قلت: فما شأن بابه مرتفعاً؟ قال: «فعل ذلك قومك، ليدخلوا من شاؤوا، ويمنعوا من شاؤوا، ولولا أن قومك حديث عهدهم بالجاهلية، فأخاف أن تنكر قلوبهم، أن أدخل الجدر في البيت، وأن ألصق بابه بالأرض» [البخاري: ١٥٨٤، مسلم: ١٣٣٣].

وعن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال لها: «يا عائشة لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية، لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له باباً شرقياً وباباً غربياً، فبلغت به أساس إبراهيم» [البخاري:١٥٨٦].

وهذان الحديثان يدلان على أن قريشاً بعد أن هدمت الكعبة، لم تعد بناءَها كما كانت مبنية على عهد نبي الله إبراهيم، لأن النفقة التي جمعت لبنائها، لم تكف لذلك، وقد أرشد الرسول ﷺ أمته كيف تعيد بناءَها على قواعد إبراهيم عليه السلام.

وقد هدمت الكعبة في عهد ابن الزبير، فأعاد بناءَها على النحو الذي ذكره النبي ﷺ، قال يزيد: «شهدت ابن الزبير حين هدمه وبناه، وأدخل فيه من الحجر، وقد رأيت أساس إبراهيم حجارة كأسنمة الإبل.

قال جرير بن حازم: فقلت له: أين موضعه؟ قال: أريكه الآن، فدخلت معه الحجر، فأشار إلى مكان، فقال: هاهنا، قال جرير فحزرت من الحجر ستة أذرع أو نحوها» [البخاري: ١٥٨٦، مسلم: ١٣٣٣].

ولكن عبدالملك بن مروان هدم الكعبة وأعاد بناءها كما كانت عليه أولاً، فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

جنـــــــة السـنة

وقد استدلّ عبدالله بن عمر بن الخطاب بحديث عائشة على السبب الذي منع الرسول ﷺ من استلام الركنين اللذين يليان الحجر أنهما لم يقوما على قواعد إبراهيم، قال عبدالله بن عمر: «لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله ﷺ، ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم» [البخاري: ٤٤٨٤].

٨- بنى نبيُّ الله إبراهيم وابنه إسماعيل أول بيت وُضع للناس وهو الكعبة.

٩- يستحبُّ لمن قامَ بعمل خير أن يدعو ربه أن يتقبله الله منه، فقد كان نبيّا الله إبراهيم وإسماعيل يبنيان البيت، ويدعوان الله أن يتقبل منهما عملها.

١٠- كان نبيّا الله إبراهيم وإسماعيل على دين الإسلام، وكل الرسل كانوا على ذلك.

١١- أُمتنا الإسلامية هي دعوة نبيّا الله إبراهيم وابنه إسماعيل، فقد استجاب الله لهما، في إنشاء أمة مسلمة من ذريتهما.

١٢- نبينا محمد ﷺ هو دعوة أبينا إبراهيم وابنه إسماعيل، فقد دعوا الله عز وجل أن يبعثه في الأمة المسلمة التي تنشأ من ذريتهما.

١٣- ذكر نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل بعض ما اختص الله نبيه محمداً ﷺ، ومن ذلك أنه يعلم أمته الكتاب والحكمة ويزكيهم.

جنـــــة الســــــنة

النص القرآني السابع والعشرون من سورة البقرة
لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه

أولاً: تقديم

حدثنا ربنا عزَّ وجلَّ في النصِّ السابق عن بناء إبراهيم وابنه إسماعيل للبيت العتيق الذي جعله الله مثابة للناس في حجهم وعمرتهم، وأخبرنا في هذا النص أن ملة إبراهيم خير الملل، ومن أعرض عنها فإنه يوقع نفسه في السفه والضلال.

لقد أقام إبراهيم عليه السلام وأبناؤه من بعده إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط هذه الملة، والتزموا بها، ووصّى بها الآباء الأبناء، وهي الملة التي هديت لها هذه الأمة، وجاءها بها نبيها عليه السلام، بعيداً عن أباطيل اليهود والنصارى وترهاتهم.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ
يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ
ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ
وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ
عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ملة إبراهيم عليه السلام خير الملل:

أخبرنا ربنا العليم الحكيم أنه لا أحد يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه، فقال: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠].

وصدر الآية سؤال يحمل معنى التقرير والتوبيخ، والمعنى لا أحد يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه، والملة السنّة والمذهب، والملة لا تضاف إلا إلى النبي، كما هو في هذه الآية، «وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران:٩٥] وقوله: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ﴾ [يوسف:٣٨]. ولا تكاد توجد الملة مضافة إلى الله، أو إلى آحاد أمة النبي ﷺ، ولا تستعمل إلا في حملة الشرائع دون آحادها» [المفردات: ٤٧١].

جنـــة الســــــنة

ومعنى سفه نفسه: أهلكها، وأوبقها، وعنى رب العزة - عزَّ وجلَّ - بالراغبين عن ملة إبراهيم اليهود والنصارى ومشركي العرب، الذين أشركوا بالله وكفروا به، وهذا يدلُّ على كذبهم في دعواهم أن إبراهيم وأبناءه كانوا يهوداً كما يدعي اليهود، أو نصارى كما يدعي النصارى، أو مشركين كما يدعي المشركون ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران:٦٧].

٢- التعريف بملة إبراهيم عليه السلام :

وملة إبراهيم عليه السلام هي الاستقامة على التوحيد، واجتناب عبادة الأوثان والأصنام وكلِّ ما يعبد من دون الله، وكان إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء، وقد واجه أباه وقومه، وأعلن لهم أنه بريء مما يعبدون ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧]. وقال لقومه متبرئاً من الشرك، معتصماً بالتوحيد ﴿ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام:٧٨-٧٩].

وقد كان إبراهيم قد استغفر لأبيه، رجاء إيمانه، فلما رأى أنه عدو لله تبرأ منه ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة:١١٤] وقد أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه اصطفى عبده ورسوله إبراهيم في الدنيا، وأنه سيكون في الآخرة من الصالحين ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [البقرة:١٣٠].

٣- مسارعة إبراهيم إلى الإسلام عندما أمره ربه به :

دعا الله - عزَّ وجلَّ - نبيه إبراهيم عليه السلام إلى الإسلام، فسارع إلى الإجابة من غير تأخير قائلاً: أسلمت لرب العالمين، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [البقرة:١٣١] والإسلام الذي أمر الله به إبراهيم: الاستسلام والخضوع والطاعة والانقياد لله، بفعله ما أمره به، واجتناب ما نهى عنه، وحذَّر منه.

ولا شك أن هذا مما يمدح به نبي الله إبراهيم عليه السلام في مسارعته للاستجابة لربه العظيم، دون أي تأخير.

٤- وصية كل من إبراهيم ويعقوب أولادهما بالتوحيد وعبادة الله وحده :

أعلمنا ربنا - سبحانه وتعالى - أنَّ إبراهيم عليه السلام أوصى أولاده من بعده بالالتزام بملته، وكذلك فَعَلَ حفيده يعقوب من ابنه إسحاق مثل فعله في التوصية لهم بالاستقامة على دين

جنـــــة السـنـــــة

الإسلام، وعبادة الملك الديان - سبحانه - فكل واحد منهما، أي: إبراهيم ويعقوب وصّى أولاده قائلاً: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة:١٣٢].

لقد نادى كلُّ واحد منهما بنيه، وهو على فراش الموت، وأولاده يحيطون به قائلاً لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ [البقرة:١٣٢] أي: دين الإسلام، اختاره لكم، فاثبتوا عليه في كل ساعات حياتكم، حتى إذا جاءكم الموت في أي لحظة من اللحظات تكونون مستعدين للقاء الله وأنتم مسلمون ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة:١٣٢].

وصور النص القرآني مشهد يعقوب عليه السلام وهو متمدد على فراش الموت، وهو يسأل أبناءه عن الإله الذي يعبدونه بعد وفاته ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي﴾ [البقرة:١٣٣] هذه هي القضية الكبرى التي شغلت بال نبي الله يعقوب، وهو يغادر الدنيا إلى الدار الآخرة، سألهم عن المعبود الذي يعبدونه.

ويعقوب كان يعرف أن أبناءه مخلصون في دينهم لله، ولكنه في هذا الموقف الذي يمحض فيه المقدم على ربّه النصح لأبنائه الذين يخلفهم وراءه، عليه أن يتأكد أن هذا الأمر هو أعظم المهمات، فيجيب أبناؤه جميعاً بصريح العبارة: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾ [البقرة:١٣٣].

إنه إله واحد، هو إله الكائنات، ورب الأرض والسماوات، الذي عبدته أنت، وعبده والد هذه الذرية الطيبة، إبراهيم عليه السلام ، وعبده أبونا إسماعيل، وإسماعيل عمٌّ لهم، والعرب تجعل العم أباً، والخالة أماً، وإسحاق هو والد يعقوب، فنحن نعبد الإله الذي عبدته، وعبده آباؤنا، وهو إله واحد، ونحن له مستسلمون خاضعون.

هذه هي الأمة الكريمة التي تضم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وهي أمة واحدة مستسلمة لله، خاضعة له، وقد أثنى الله عليها قائلاً: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٤﴾ [البقرة:١٣٤].

إن هذه الأمة قد خلت، وانتساب اليهود والنصارى والعرب إلى إبراهيم لا ينفع أحداً منهم ما لم يكونوا على مثل تلك الملة التي كان عليها، ولكل واحد كسبه، فالأمة السابقة الموحدة لها كسبها الخير الطيب، وأنتم أيها الكفرة من اليهود والنصارى والعرب لكم ما كسبتم، ولا تسألون عما كانوا يعملون، بل تسألون عن كسبكم.

جنـــــة الســـــــنة

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- عظم مكانة نبي الله إبراهيم ﷺ، فهو باني البيت العتيق، وملته خير الملل، وكل من أعرض عن ملته فإنه يوقع نفسه في السفه، وإبراهيم ﷺ بشهادة الواحد الأحد من المصطفين الأخيار في الدنيا، ومن الصالحين الأطهار في الآخرة.

٢- كان إبراهيم على الدين الإسلامي الخالص، أمره ربّه بالإسلام فاستجاب سريعاً من غير تردد.

٣- يستحب أن يوصي الرجل أبناءَه وذويه عند الموت، بأن يأخذوا الدين القويم الذي اصطفاه لعباده، ويقوموا على عبادة الله وحده، بعيداً عن الشرك والكفر.

٤- جوهر وصية كل من إبراهيم ويعقوب أولادهما من بعدهما أن يعبدوا الله وحده لا شريك له، وأن يحافظوا على ذلك، في كل لحظات حياتهم، حتى يأتيهم الموت وهم مستعدون له.

٥- استدلَّ بقوله تعالى: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ [البقرة:١٣٣] من جعل الجد أباً، وحجب به الإخوة، وهو قول الصديق أبي بكر ﷺ، حكاه البخاري عنه، وهو قول عائشة والحسن البصري وطاووس وعطاء، وهو مذهب أبي حنيفة، وغير واحد من علماء السلف والخلف، وقال مالك والشافعي وأحمد في قول: إنه يقاسم الإخوة، والقول الأول أجود [ابن كثير: ١/ ٣٨٩].

٦- على الدعاة والعلماء أن يهتموا برعاية أبنائهم وبني قومهم والمسلمين، فيحرصوا على إقرار التوحيد فيهم بعيداً عن الكفر المتفشي في العالم اليوم، ومن ذلك العلمانية، والاشتراكية، والقومية، والبعثية، إلى جانب ملل الكفر القديمة كاليهودية والنصرانية، والبوذية، ونحوها.

جنـــــة الســـــــنة

النص القرآني الثامن والعشرون من سورة البقرة
فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا

أولاً: تقديم

يدَّعي كل من اليهود والنصارى أنه الأهدى سبيلاً، والأقوم قيلاً، وبلغت الوقاحة بكل واحد من الفريقين أن يدعو رسول الله ﷺ وأصحابه إلى دينه الذي يدين به، فقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس، قال: «قال عبدالله بن صوريا الأعور للنبي ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله فيهم ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة:١٣٥]» [الدر المنثور: ١/ ١٣٠].

وفي آيات هذا النص ردٌّ عليهم، وبيان وتعريف بأصحاب المنهج الصواب الذين أثنى الله عليهم وامتدحهم.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اليهود والنصارى يطالبون المسلمين أن يكونوا هوداً أو نصارى:

كان اليهود والنصارى ولا يزالون مغرورين بأنفسهم، ويدَّعي كلُّ فريق منهم أنه الأفضل والأكمل، وقد بلغ بهم الغرور والاستعلاء أن يطالبوا المؤمنين، وفيهم رسول الله ﷺ وأصحابه بالدخول في يهوديتهم أو نصرانيتهم، لينقذوا أنفسهم من الضلال ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ [البقرة:١٣٥] وهذا مبني على دعواهم أنهم الأفضل والأكمل،

جنـــــة الســــــــنة

فقد ادعوا أنهم ﴿أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة:١٨] وادّعى كل فريق منهم أن الجنة قصر عليه دون سواه ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ﴾ [البقرة:١١١].

وادّعى كلُّ فريق منهم أن الفريق الآخر ليس على شيء ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْۚ﴾ [البقرة:١١٣].

وهذه الدعوى ليس لها نصيب من الحقيقة، فقد غير اليهود والنصارى والعرب ما كان عليه الآباء والأجداد، غيروا دين التوحيد، وأصبحوا مشركين، ضالين ينتسبون إلى الأخيار من الآباء، وهذا لا ينفعهم، ولا يجعلهم أخياراً مهتدين.

٢- اليهود والنصارى ليسوا بالأنموذج الذي يصلح للمتابعة والاقتداء:

ردّ الله - تبارك وتعالى - على اليهود والنصارى الذين دعا كل منهم الناس، وفيهم المسلمون إلى السير على دينهم، وقال لهم: ليس الأمر كما تقولون، بل الذي يستحق المتابعة هو إبراهيم عليه السلام في ملته ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة:١٣٥] يقول لهم: لا، ليس الأمر كما تدّعُونه وتزعمونه من أنكم الأفضل، وعلى الناس أن يدخلوا في دينكم، فأنتم لستم على الهدى، والهدى ضاع منكم، وأصبحتم كافرين مرتدين بعد أن كفرتم بعيسى ثم بمحمد ﷺ، والهدى في ملة إبراهيم عليه السلام، وملة إبراهيم تدعو إلى القيام بالعبودية لله الواحد الأحد، والحنيف: «المائل عن الأديان الباطلة إلى دين الحق، وهو في أصل اللغة الذي تميل قدماه كل واحدة إلى أختها، قال الزجاج: وهو منصوب على الحال، أي: نتبع ملة إبراهيم حال كونه حنيفاً» [فتح القدير: ١/ ٢٧٩].

إن اليهود والنصارى والعرب يفخرون بالانتساب إلى إبراهيم وأبنائه وأحفاده من بعده، فكان الواجب عليهم أن يسارعوا إلى قبول هذه الدعوة، وهي دعوة محرجة لهم، فإبراهيم ومن معه كان على الحنيفية السمحة، بعيداً عن الشرك والكفر، بينما هؤلاء غارقون في شركهم وباطلهم إلى آذانهم.

٣- وجوب الإيمان بكل ما أنزل الله على رسله جميعاً:

أوجب الله علينا أن نؤمن بالله ربنا، ونؤمن بما أنزل إلينا، وما أنزل إلى رسل الله وأنبيائه ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة:١٣٦].

جنـــــة الســــــنة

إن هذا النهج الذي ألزمنا الله به لازم للرسل والأنبياء جميعاً، ولأتباعهم الذين ساروا على إثرهم، فالرسل والأنبياء على مدار التاريخ الإنساني يبشر السابق منهم بمن يأتي بعده، ويصدق المتأخر منهم السابق، وكل رسول أو نبي يؤمن بالآخرين من الأنبياء والرسل، وقد أمرنا الله بأن نعلن هذا النهج ونرتضيه، فأمرنا أن نقول بصراحة ووضوح: إننا نؤمن بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى رسول الله ونبيه وخليله إبراهيم، وإلى رسوليه إسماعيل وإسحاق، وهما ابنا إبراهيم عليهما السلام، ونؤمن بما أنزل إلى رسول الله يعقوب، وهو إسرائيل، وهو حفيد إبراهيم من ابنه إسحاق، وما أنزل إلى الأسباط، وهم أبناء يعقوب والمراد بهم الرسل والأنبياء الذين كانوا من ذرية هؤلاء الأسباط، وكانوا اثني عشر ولداً، منهم رسول الله يوسف.

وأمرنا أن نؤمن بما أوتي موسى وعيسى عليهما السلام، وموسى أوتي التوراة، وعيسى أوتي الإنجيل، وأمرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن نؤمن بما أوتي الأنبياء الذين بعثهم الله جميعاً، ونهانا أن نفعل فعل اليهود والنصارى بالتفريق بين الرسل، والإيمان ببعضهم والكفر ببعض، وأمرنا في خاتمة الآية أن نعلن إسلامنا، ونقول: نحن مسلمون.

٤- فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا:

بعد أن بين لنا ربنا تبارك وتعالى المنهج الأمثل الذي ينبغي أن نكون عليه في موقفنا من الرسل والأنبياء، أعلمنا أن اليهود والنصارى إن آمنوا بمثل ما آمنا به، فقد أصبحوا مهتدين، وإن تولوا فإنما هم في شقاق، ووعدنا بأن يكفينا إياهم، ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة:١٣٧].

يقول: إن آمن اليهود والنصارى والذين لا يعلمون، وهم مشركو العرب بمثل ما آمنتم به، أي: على النحو الذي ذكر الله في الآية السابقة فقد اهتدوا، وانضموا إلى ركب الأخيار المفلحين، وإن تولوا، أي: أعرضوا عن هذا الهدى الذي أنزلته عليكم، وأعلمتكم به، فإنما هم في شقاق، أي: في نزاع وخصام، وسيكفيكهم الله، وقد كفى الله رسوله ﷺ اليهود، فسلطه على بني قريظة، وبني النضير، وبني قينقاع، وهم اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة المنورة، فحاربهم المسلمون، وأخرجوهم من مدينتهم، وقتلوا بعضاً منهم، وسبوا ذرية ونساء بعض، ولاحقوهم إلى خيبر، وأذلوهم، ثم أخرجوهم منها مدحورين.

وقال عزَّ وجلَّ في خاتمة الآية ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة:١٣٧]، أي: سميع لأقوال هؤلاء، عليم بما يدبرونه، ويخططون له، وإذا كان سمع الله وعلمه محيطاً بهم، فإنه في غاية القدرة على دحرهم وملاحقتهم.

جنـــــة الســـــنة

ولا يزال أوار المعركة بيننا وبين اليهود والنصارى مشتعلاً حتى اليوم، ولا يزالون يقاتلوننا ويجمعون الجيوش والأموال لحربنا، وتبقى آيات القرآن تحدد أبعاد المعركة، وتوضح معالمها، وتهدي للتي هي أقوم.

٥- صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة:

يدَّعي كلٌّ من اليهود والنصارى ومشركي العرب أن الصبغة التي يصبغ كل فريق أتباعهم بها هي خير الصبغ، فأكذبهم الله تعالى في دعواهم، وقرر الحقُّ تبارك وتعالى أن صبغة الله خير الصبغ، قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة:١٣٨] قال ابن جرير: «يعني تعالى ذكره بالصبغة صبغة الإسلام، وذلك أن النصارى إذا أرادت أن تنصِّر أطفالهم جعلتهم في ماء لهم، تزعم أن ذلك لها تقديس، بمنزلة غسل الجنابة لأهل الإسلام، وأنه صبغة لهم في النصرانية، فقال الله - تعالى ذكره - إذ قالوا لنبيه محمد ﷺ وأصحابه المؤمنين به: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ [البقرة:١٣٥] قُلْ لهم يا محمد: أيها اليهود والنصارى: بل، اتبعوا ملة إبراهيم، صبغة الله التي هي أحسن الصبغ، فإنها هي الحنيفية المسلمة، ودَعوا الشرك بالله والضلال عن محجة هداه» [تفسير الطبري: ١/ ٧٣٢].

وإنما سمى الله دينه بالصبغة: «لأنه يظهر أثر الدين على المتدين، كما يظهر أثر الصبغ على الثوب، وقيل: لأن المتدين يلزمه، ولا يفارقه، كالصبغ يلزم الثوب» [البغوي ١/ ١٥٧]. وكانت كل قبيلة من قبائل العرب تفخر بأن صبغها لأبنائها في الجاهلية خير الصبغ، قال بعض شعراء ملوك همدان [القرطبي: ٢/ ١٤٤]:

وكـــلُّ أنـــاس لهـــم صـــبغة ... وصـــبغة همـــدان خـــير الصـــبغ
صـــبغنا عـــلى ذلـــك أبناءَنـــا ... فـــأكرم بصـــبغتنا في الصـــبغ

لقد صدق هذا الشاعر الملك في دعواه أن لكل أناس صبغة، ولكنه كذب في زعمه أن صبغة همدان خير الصبغ، والصواب ما قرره رب العزة ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة:١٣٨].

وختم الله الآية بقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة:١٣٨] أي: مستكينون خاضعون له، في حال كوننا متبعين ملة إبراهيم، مقرين بالخضوع لرب العالمين.

٦- الله ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم:

أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين من صحابة رسول الله ﷺ فمن بعدهم أن يردوا على اليهود الذين يخاصمونهم ويجادلونهم في الله ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ

جنـــــة الســــــنة

﴿أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ١٣٩﴾ [البقرة:١٣٩] والحِجَاجُ الجدال والمخاصمة، ووجه مخاصمة اليهود لنا في الله أنهم يدَّعون أن الله ربٌّ لهم دون غيرهم، فأمرهم الله أن يقولوا لليهود: الله ربنا وربكم، ودعواكم أنه مختص بكم دون غيركم كذب وافتراء، وقد أكذبهم فيما سبق في دعواهم أنهم أصحاب الجنة، وأمرهم أن يقولوا لهم: لنا أعمالنا القائمة على التوحيد والإيمان، ولكم أعمالكم المتصفة بالشرك والكفران، ونحن له مخلصون، أي: موحِّدون، قال سعيد بن جبير: «الإخلاص أن يخلص العبد دينه وعمله لله، فلا يشرك به في دينه، ولا يرائي بعمله» [البغوي: ١/ ١٥٧].

٧- أمرنا الله أن نحاج اليهود قائلين لهم: أأنتم أعلم أم الله:

والمسألة الثانية التي أمر الله المؤمنين أن يردوا على اليهود فيها دعواهم أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ [البقرة:١٤٠].

وقد أمر الله المؤمنين أن يقولوا للمخاصمين في هذه المسألة: ﴿ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٠﴾ [البقرة:١٤٠].

يقول الله لرسوله ﷺ: قل لهؤلاء المجادلين المخاصمين: أأنتم أعلم بواقع هؤلاء وحقيقته أم الله؟ وهذا سؤال يكشف المخاصم ويخزيه، فلا يملك أحد أن يقول: إنه أعلم من الله، فإذا كان الله هو الأعلم، فإنه - سبحانه - يقرر أن هؤلاء الذين خاصموا فيهم وهم إبراهيم والمذكورون معه لم يكونوا يهوداً ولا نصارى.

٨- كتمان اليهود شهادة الله:

قَرَّعَ اللهُ اليهودَ ووبَّخهم ووصفهم بأنهم أظلم الناس، لأنهم كتموا ما شهد الله به في كتابهم أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا مسلمين، ولم يكونوا يهوداً ولا نصارى ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٠﴾ [البقرة:١٤٠].

قال الحسن البصري بعد أن تلا هذه الآية: «والله لقد كان عند القوم من الله شهادة أن أنبياءه بُرآءُ من اليهودية والنصرانية». وعن الربيع في هذه الآية: «أهل الكتاب كتموا الإسلام، وهم يعلمون أنه دين الله، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل: أنهم لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، وكانت اليهودية والنصرانية بعد هؤلاء بزمان» [الطبري: ١/ ٥٧٤].

جنـــــة الســــــنة

والشهادة التي كتمها اليهود موجودة في التوراة، ففي [سفر التكوين، الإصحاح السابع عشر: ٧] «وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً، لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك». وذكرت التوراة في [سفر التكوين، الإصحاح الثامن عشر: ١٨-١٩] أن «إبراهيم يكون أمة كبيرة وقوية، ويتبارك به جميع أمم الأرض، لأني عرفته لكي يوصي بنيه وبيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب ليعملوا برّاً وعدلاً لكي يأتي الرب لإبراهيم بما تكلم به». وختم الله هذه الآية بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٠﴾ [البقرة:١٤٠] ليدل على أنه أحصى عليهم أعمالهم وافتراءَهم وكتمانهم، وسيحاسبهم على ذلك في يوم القيامة.

٩- تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم:

ختمت الآيات في هذا النص بقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤١﴾ [البقرة:١٤١] عنى بالأمة التي خلت إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وهذه الأمة لها أعمالها، ولكم أنتم أيها اليهود والنصارى أعمالكم، ولا تسألون عما كانت تعمله تلك الأمة، وهذه الآية قد سبقت بنصها في الآية أربع وثلاثين ومائة، كررها ربُّ العزة تهديداً ووعيداً لليهود والنصارى.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل:

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- منذ أن قامت دولة الإسلام والمؤمنون يخوضون مع اليهود والنصارى معركة يدَّعون فيها أنهم هم الأفضل والأكمل، وقد طالبوا رسولنا ﷺ وأصحابه وأتباعه باتباعهم في دينهم، وقد أكذبهم رب العزة فيما ادعوه، وبيّن أن خير الملل ملة إبراهيم عليه السلام.

٢- لقّن الله - تبارك وتعالى - عباده المؤمنين الموحدين حججهم التي ينتصرون بها على الضُلاّل من أهل الكتاب وغيرهم، ويجب على المؤمنين أن يتعلموا هذه الحجج، لينتصروا بها على أعدائهم.

٣- أهل الكتاب يحاجُّون بغير علم، ويكذبون في خصامهم، ويتعالمون على ربِّ العزة سبحانه، ويكتمون شهادة الحق الموجودة في كتبهم.

٤- من الحجج العِظام الدالَّة على ضلال اليهود والنصارى أن إبراهيم والمذكورين معه، كانوا قبل اليهودية والنصرانية، فكيف يدَّعي اليهود والنصارى أنهم منهم.

جنـــــــة الســـــــنة

٥- وعد اللهُ رسولَه ﷺ أن يكفيه اليهود والنصارى، وقد نصر الله رسوله ﷺ على اليهود، فأخرجهم من المدينة المنورة، ثم أخرجوا من الجزيرة العربية، واجتاح النصارى العالم الإسلامي في الحروب الصليبية، فكفاهم ربُّ العزة النصارى، ولم يزل المسلمون يحاربونهم حتى أخرجوهم من فلسطين ومما حولها، وهاهم اليهود يحتلون فلسطين اليوم، وقد تأخر النصر بسبب بُعد المسلمين عن دينهم، وسيكون النصر بحول الله عندما يستقيم المسلمون على دينهم.

٦- الإسلام صبغة الله تعالى، وليس مثله صبغة، وعلينا أن نتمثل الإسلام، ونصبغ به أنفسنا، فنكون بذلك الأكمل والأفضل.

٧- لا يجوز اتخاذ التوراة والإنجيل مصدر هداية بعد نسخهما وتحريفهما، وقد قال أبو هريرة: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال الرسول ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة:١٣٦]» [البخاري: ٤٤٨٥].

٨- يستحب لمن صلى ركعتين قبل صلاة الفجر أن يقرأ في الأولى منهما إحدى آيات هذا النص، وهو قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة:١٣٦]، روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر، في الأولى منهما ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة:١٣٦] التي في البقرة، وفي الآخرة منهما ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢﴾ [آل عمران:٥٢]»، وفي رواية عند مسلم عن ابن عباس أن الآية في الركعة الثانية: ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ [آل عمران:٦٤] [مسلم:٧٢٧]. وهذا ليس دائماً، فقد روى أبو هريرة أن الرسول ﷺ كان يقرأ في ركعتي الفجر ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١﴾ [الكافرون:١] و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الصمد:١] [مسلم:٧٢٦].

جنـــــة الســـــنة

النص التاسع والعشرون من سورة البقرة
تحويل القبلة إلى المسجد الحرام

أولاً: تقديم

أثار اليهود عاصفة هوجاء عندما أمر الله - تبارك وتعالى - رسوله ﷺ وأصحابه بالتوجه في صلاتهم إلى المسجد الحرام بعد أن كانوا يصلون إلى بيت المقدس، فكان الردُّ الإلهي على هذه العاصفة قويّاً مدويّاً، ووصم كل من اعترض على تحويل القبلة بأنه سفيه، فالله هو إله الكون وخالقه، والعباد ملكه، ومن حقه أن يوجه العباد الوجهة التي يريد.

إن مقتضى جعل الله الأمة الإسلامية خير الأمم أن يخصها بقبلة خاصة بها، لا تكون فيها تابعة لغيرها، وإنما وجّه الله المؤمنين إلى بيت المقدس أولاً اختباراً منه لهم، فقد كانوا معظمين للمسجد الحرام، وكان يشقّ عليهم التوجه إلى غيره، فاختبرهم بالتوجه أولاً إلى المسجد الأقصى.

لقد وجد عند الرسول ﷺ رغبة قوية في أن يحوله ربه إلى المسجد الحرام، فكان الرسول ﷺ يقلب وجهه في السماء منتظراً أن يأتيه الوحي بهذا التحويل، فاستجاب الله له، فولاه القبلة التي يحب، وأمر أصحابه وأمته بقصد المسجد الحرام في صلاتهم في أي مكان كانوا، وأخبرنا أن أهل الكتاب يعلمون أن هذا التحويل حقٌّ وصدق.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- السفهاء يثيرون عاصفة هوجاء على تحويل القبلة:

كان الرسول ﷺ في فاتحة أمره يصلي نحو بيت المقدس، وكان يجعل الكعبة عند صلاته بين يديه - وهو في مكة - ، فلما هاجر إلى المدينة كان يصلي إلى جهة الشمال جاعلاً الكعبة

جنـــــة السـنـــــة

خلفه، واستمر الحال على ذلك ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وقام في نفس الرسول ﷺ رغبة قوية في أن يوجهه الله في صلاته إلى المسجد الحرام، أول بيت وُضع للناس، وهو الذي في مكة، فلما وجهه الله إليه، أثار السفهاء من اليهود ومشركي العرب والمنافقين عاصفة من الشبهات حول هذا التحويل، وقد سمّى الله كل من شارك في هذه العاصفة بالسفهاء، ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة:١٤٢].

والسفه: خفة في العقل، يؤدي بصاحبه إلى تصرفات حمقاء، بعيدة عن الصواب والاتزان، وهل هناك سفه فوق سفه الذين اعترضوا على أوامر الله ونواهيه، فيما شرعه الله لعباده، قال ابن عطية: «السفهاء هم خفاف الأحلام والعقول، والسفه: الخفة والهلهلة، ثوب سفيه غير متقن النسج» [ابن عطية: ٢/ ١].

وقال ابن جرير: «أعلم الله - جلّ ثناؤه - نبيه محمداً ﷺ ما اليهود والمنافقون قائلون من القول عند تحويل قبلته وقبلة أصحابه من الشام إلى المسجد الحرام، وعلمه ما ينبغي أن يكون من ردّه عليهم من الجواب» [تفسير ابن جرير: ١/ ٧٤٠].

٢- ردّ الله العليم الحليم على السفهاء الذين اعترضوا على تحويل القبلة:

وقد ردَّ الله على هؤلاء السفهاء المعترضين على تحويل القبلة قائلاً: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة:١٤٢].

يقول الحقُّ - تبارك وتعالى - في ردّه عليهم: ماذا أنكرتم من تحويل القبلة، الجهات كلها لله - تبارك وتعالى - هو خالقها ومالكها، ويتصرف فيها كما يشاء ويريد، وليس لعباده أن ينكروا عليه تصرفه فيهم على النحو الذي يريده.

روى البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ صلَّى نحو بيت المقدس ستة عشر - أو سبعة عشر - شهراً، وكان رسول الله ﷺ يُحب أن يُوجَّه إلى الكعبة، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:١٤٤] فتوجه نحو الكعبة، وقال السفهاء من الناس - وهم اليهود -: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة:١٤٢] فصلى مع النبي ﷺ رجل، ثم خرج بعد ما صلى، فمرّ على قوم من الأنصار في صلاة العصر نحو بيت المقدس، فقال: هو يشهد أنه صلى مع رسول الله ﷺ، وأنه توجه نحو الكعبة، فتحرّف القوم حتى توجهوا نحو الكعبة» [البخاري: ٣٩٩].

جنـــــة الســـــنة

وقد رد الله تبارك وتعالى على اليهود فيما قالوه في مواضع من كتابه، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ [البقرة:١٧٧]. فالله - سبحانه - صاحب الأمر والشأن، فحيثما وجهنا توجهنا، فنحن عبيده وتحت تصرفه، وقد أكرمنا - تبارك وتعالى - بهدايتنا إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن، وقبلته أشرف قبلة، وهي أول بيت وضع للناس في الأرض.

ومع كون اليهود اعترضوا على تحويل القبلة إلى المسجد الحرام، إلا أنهم في قرارة نفوسهم حسدونا على هداية الله لنا إليها، فعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «إنهم - أي: أهل الكتاب - لم يحسدونا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله إليها، وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله إليها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام آمين» [مسند أحمد: ٢٥٠٢٩].

٣- الأمة الوسط لا بد لها من قبلة خاصة بها:

جعل الله الأمة الإسلامية أمة وسطاً، والوسط: الأفضل والأكمل والخيار، لأنه مركز الاتزان، فالوسط هو النقطة المتوسطة بين طرفين بدرجة متساوية، والتطرف مذموم، والاتزان والتوسط محمود.

والأمة الفاضلة لا بد أن تخص بقبلة لا تتبع فيها غيرها، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة:١٤٣] أي: مثلما جعلنا لكم قبلة خاصة بكم لا تتبعون فيها غيركم جعلناكم أمة وسطاً.

وكانت هذه الأمة أمة وسطاً لتوسطها في الدين بين الغلو والتقصير وبين الإفراط والتفريط، وقد صرح القرآن في موضع آخر بخيرية هذه الأمة، وأنها أفضل الأمم في قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

٤- من ثمار الأمة الوسط أنها تشهد للرسل في يوم القيامة بأنهم بلغوا أممهم:

من ثمار وسطية هذه الأمة أن تكون شهداء على الناس في يوم القيامة، كما قال في هذه الآية: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

وقد أورد البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء نوحٌ وأمته، فيقول الله تعالى: هل بلّغت؟ فيقول: نعم أي ربّ، فيقول لأمته: هل بلّغكم؟

جنـــــة السـنــة

فيقولون: لا، ما جاءنا من نبي. فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول محمد ﷺ وأمته، فتشهد أنه قد بلغ، وهو قوله جل ذكره: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة:١٤٣] والوسط: العدل» [البخاري: ٣٣٣٩].

٥- المؤمنون شهداء الله في الأرض:

ويدخل في الشهادة على الناس شهادة الأخيار من هذه الأمة على غيرهم، فعن أنس ﷺ قال: «مُرَّ على النبي ﷺ بجنازة، فأثنوا عليها خيراً، فقال: وَجَبت، ثم مُرَّ بأخرى، فأثنوا عليها شراً - أو قال: غير ذلك - فقال: وَجَبت، فقيل: يا رسول الله، قلت لهذا: وجبت، ولهذا وجبت. قال: شهادة القوم، المؤمنون شهداء الله في الأرض» [البخاري: ٢٦٤٢].

وعن أبي الأسود قال: أتيتُ المدينة وقد وقع بها مرض، وهم يموتون موتاً ذريعاً، فجلستُ إلى عمر ﷺ ، فمرّت جنازة فأُثنيَ خيراً، فقال عمر: وجبت، ثم مُرَّ بأخرى فأُثني خيراً، فقال عمر: وجبت. ثم مُرَّ بالثالثة فأُثني شراً، فقال: وجبت. فقلتُ: وما وجبت يا أمير المؤمنين؟ قال: قلتُ كما قال النبي ﷺ : «أيُّما مسلم شهد له أربعة بخير، أدخله الله الجنة، قلنا: وثلاثة؟ قال: وثلاثة، قلنا: واثنان؟ قال: واثنان، ثم لم نسأله عن الواحد» [البخاري: ٢٦٤٣].

٦- الحكمة من توجيه المسلمين أولاً إلى بيت المقدس:

أعلمنا الله - تبارك وتعالى - أنه لم يجعل القبلة التي كنا عليها أولاً، وهي بيت المقدس إلا ليعلم من يتبع الرسول ﷺ ممن ينقلب على عقبيه ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ [البقرة:١٤٣] فالمؤمن الصادق من أتباع محمد ﷺ عندما يأمره الرسول ﷺ بالتحول عن قبلته إلى قبلة أخرى، يكون كلُّ همه هو التوجه إلى حيث أمره الله، ولا يخطر بباله تلك الوسوسات التي تدلُّ على الشك والريب وضعف الإيمان.

انظر إلى الصحابي الجليل سعيد بن المعلى، عندما حضر الرسول ﷺ في مسجده، وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ [البقرة:١٤٤] قال لصاحبه: تعال نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله ﷺ، فنكون أول من صلَّى، فتوارينا، فصليناها، ثم نزل الرسول ﷺ فصلى للناس الظهر يومئذ [الناسخ والمنسوخ في القرآن، لأبي عبيد القاسم ابن سلام: ١/ ٢٠، الحديث (٢٣)، السنن الكبرى للنسائي: ١٠/ ١٧، الحديث (١٠٩٣٧) وفي إسناده ضعف].

وبعض الصحابة لم يعلموا بتحول القبلة إلى المسجد الحرام إلا في صلاة الصبح من اليوم التالي، أخبرهم من مر بهم أنه صلاها مع الرسول ﷺ بالأمس إلى المسجد الحرام،

جنـــــة الســـــنة

فداروا وهم في الصلاة راكعين، فتحول الإمام إلى جهة الجنوب بعد أن كان في جهة الشمال، وتوجه الرجال إلى المكان الذي كان يقف فيه النساء، وكذلك النساء تحولن إلى الجهة الأخرى، ولم يخطر ببال الواحد منهم غير الاستجابة لما أمر الله به.

وروى البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عمر قال: «بينما الناس بقباء في صلاة الصبح، إذ جاءهم آت، فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أُمِر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة» [البخاري: ٤٠٣].

٧- المراد بعلم الله من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه:

الله عالم بكل شيء منذ الأزل، فما وجه قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة:١٤٣] والجواب: أن المراد بهذا العلم علم الظهور، أي: علم الله بالفاعلين حال كونهم متلبسين بالفعل، وليس المراد به علم الله بهم قبل فعلهم، فالعلم قبل التلبس بالفعل مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة كما صحّ في الأحاديث.

٨- التحول في الصلاة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام أمر عظيم شاق إلا على الذين هداهم الله:

الصحابة الكرام الذين بادروا بالتحول إلى القبلة التي أمر الله بها هم الذين عناهم الله بقوله: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٣] فالصحابة ومن سار مسارهم هم الذين هداهم الله، فسهل عليهم التحول إلى المسجد الحرام من غير عناء، وكذلك أهل الإسلام الذين جاؤوا من بعدهم.

وأما غيرهم فالأمر عليه شاق وكبير، وليس من السهل استيعابه وفقهه، وقد عظم أمر تحويل القبلة على اليهود، وعباد الأصنام من العرب، والمنافقين.

٩- الله لا يضيع صلاة من صلّى إلى بيت المقدس:

تساءل الصحابة عن صلاة الأحياء والأموات منهم إلى بيت المقدس، فأخبرهم ربنا - تبارك وتعالى - أنه لا يضيع من تلك الصلاة شيئاً، وسمى الصلاة إيماناً، لأنها داخلة فيه ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة:١٤٣] روى الترمذي في سننه عن البراء بن عازب قال: «مات على القبلة قبل أن تحول رجال وقتلوا، فلم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣]» [البخاري:٤٠].

جنـــــة الســـــنة

١٠- سعة رحمة الله بعباده:

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة:١٤٣] أخبرنا الله عز وجل أنه رؤوف رحيم بنا، والرأفة أشد الرحمة، وقد بيّن الرسول ﷺ لأصحابه وأمته سعة رحمة الله بعباده، ففي البخاري عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي قد تحلّبَ ثديُها تسقي، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: «أترون هذه طارحة ولدها في النار» قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: «الله أرحم بعباده من هذه بولدها» [البخاري: ٥٩٩٩. ومسلم: ٢٧٥٤].

١١- ترديد الرسول ﷺ وجهه إلى السماء:

أعلم الله رسوله ﷺ في هذه الآية أنه رأى ترديد وجهه في السماء، منتظراً أن يأتيه الوحي بتوجيهه إلى المسجد الحرام، فوجَّهه الله إلى القبلة التي طلبها من ربه تبارك وتعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة:١٤٤] وهذا النص يدل على أن الرسول ﷺ كان يتطلع إلى أن يحول الله قبلته إلى المسجد الحرام، وكان يردد بصره في السماء مرة بعد مرة، آملاً أن يأتيه الوحي بذلك، فاستجاب الله له، وولاّه قبلة يرضاها، وأمره بأن يولي وجهه ناحية المسجد الحرام.

وأخبر الله رسوله ﷺ أن أهل الكتاب يعلمون يقيناً أن هذا التوجه إلى البيت العتيق هو حقٌّ من عند الله، وسيحاسبهم في يوم القيامة على كتمانهم لهذا الحق ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة:١٤٤] وكون أهل الكتاب يعلمون ذلك، فيه دليل على أن ذلك موجود في كتبهم وعن أنبيائهم.

رابعاً: ما يهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

عندما نتدبر آيات هذا النص الكريم نجدها تهدينا وترشدنا إلى ما يأتي:

١- الذين يعترضون على شرع الله وأحكامه سفهاء، لا فرق في ذلك بين الأحبار والرهبان وأساتذة الجامعات، والعاملين في مراكز الأبحاث، ومن هؤلاء الذين اعترضوا على تحويل القبلة في القديم والحديث.

٢- ينبغي أن يُعرَّف أبناء الإسلام بما يطرحه أعداء الإسلام من شبهات، ويبين لهم وجه الرد عليها، اهتداءً بهدي الله الذي عرّف المسلمين بما سيقوله السفهاء بخصوص تحويل القبلة، وردّ عليهم الباطل الذي قالوه.

جنـــــة السـنة

٣- ردّ الله على الذين اعترضوا على تحويل القبلة بأن الجهات كلها لله تعالى، والله هو الإله المعبود الملك، ومن حقه أن يوجه العباد الوجهة التي يريد.

٤- الأمة الإسلامية هي الأمة الوسط، وتظهر وسطيتها وفضلها في يوم القيامة عندما تشهد للرسل أنهم بلّغوا أممهم، عندما تزعم تلك الأمم أنهم لم يبلغوهم.

٥- الرسول ﷺ يشهد على أمته في يوم القيامة أنه بلغهم رسالة الله.

٦- الحكمة من وراء تحويل القبلة اختبار الله عباده ليظهر من ينقاد للرسول ﷺ ويتبعه ممن يرفض ذلك، ويرتد على عقبيه.

٧- تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام أمر عظيم شاق على النفوس، إلا على النفوس المؤمنة المهتدية.

٨- الأعمال الصالحة داخلة في الإيمان، فقد أدخل الله الصلاة في مسمى الإيمان في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣].

٩- الأمة الفاضلة لا بد أن تنفرد بقبلة خاصة بها، حتى لا يكون للناس عليهم حجة في أنهم تبع لغيرهم في قبلتهم.

١٠- الأحياء والأموات الذين صلوا إلى قبلة بيت المقدس قبل تحويلهم إلى المسجد الحرام مأجورون مثابون في صلاتهم تلك، وسنّة الله أن لا يضيع أجور من فعل ذلك.

١١- القبلة التي وجه الله المسلمين إليها أفضل قبلة، فهي أول بيت وضع للناس في الأرض، بناها نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل، وفرض الله على الناس الحج إليها، والصلاة عندها بمائة ألف صلاة.

١٢- يجب على المصلي الذي يطيق التوجه إلى المسجد الحرام التوجه إليه في أي بقعة من الأرض كان، فإن كان يراها وجب أن يصيب عينها، وإلا وجب إصابة جهتها.

١٣- تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام دليل قوي على جواز النسخ ووقوعه.

١٤- بعض الصحابة لم يبلغهم تحويل القبلة إلا بعد صلاة أو أكثر، وهذا يدل على صحة عمل من عمل بالمنسوخ حتى يبلغه الناسخ.

جنـــــة السنـــــة

١٥- يجب العمل بخبر الواحد الثقة، فقد تحوَّل المصلون في مسجد قباء في صلاة الفجر عندما أخبرهم من صلى مع رسول الله ﷺ أن القبلة حُوِّلت إلى المسجد الحرام في صلاة الظهر من اليوم السابق [البخاري: ٤٤٨٨، مسلم: ٥٢٦].

١٦- أهل الكتاب يعلمون بأن قبلة محمد ﷺ ستكون إلى المسجد الحرام، ولكنهم كانوا يخفون ذلك.

١٧- ذهب مالك أن المصلي ينظر في قيامه أمامه، لقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ [البقرة:١٤٤]، والصحيح ما ذهب إليه أبو حنيفة والشافعي وأحمد أنه ينظر إلى موضع سجوده، لفعل الرسول ﷺ ذلك، ولأنه أبلغ في الخشوع، وآكد في الخضوع.

١٨- ذهب قلة من أهل العلم إلى أنه يجب على المصلي الذي غابت الكعبة عنه إصابة عينها، وهذا غير صحيح، لأنه تكليف بما لا يطاق.

١٩- قبلة اليهود إلى المسجد الأقصى بعد أن نسخها الله أصبحت قبلة باطلة منسوخة.

جنـــــة الســــــنة

النص المتمم للثلاثين من سورة البقرة
استمساك أصحاب كل دين بقبلتهم

أولاً: تقديم

لا يزال الحديث مستمراً في آيات هذا النص في شأن تحويل القبلة، وقد أطال الله الحديث عن ذلك، لأن أهل الكتاب لا يزالون إلى اليوم يثيرون حوله الشبهات، ويحاولون أن يجدوا فيه ثغرة ينفذون منها إلى إضلال المؤمنين، وقد أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن الصراع والحجاج حول القبلة لن يحسم القضية، فمهما بذلنا من جهد فلن نُحوِّلَ اليهود والنصارى إلى قبلتنا، ومهما بذلوا من عناء، فلن يحولونا إلى قبلتهم، وما بعضهم بتابع قبلة بعض، وقد حذرنا الله تحذيراً شديداً عندما وجه الخطاب إلى الرسول ﷺ محذراً إياه من اتباع أهواء اليهود والنصارى، من بعد ما أنزل الله إليه العلم، فإن فعل ذلك فإنه من الظالمين.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم من سورة البقرة

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اختلاف أهل الأديان في شأن القبلة لن يوقف الحجاج والخصام:

أعلم الله نبيه محمداً ﷺ أنه مهما جاء به اليهود من آيات بينات دالة على صحة قبلته، وعدم صحة قبلتهم، فلن يتابعوه في قبلته ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ ﴾ [البقرة:١٤٥]. وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه مهما بذل اليهود من عناء فلن يتبع الرسول ﷺ وأصحابه وأمته قبلة اليهود ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ ﴾ [البقرة:١٤٥].

جنـــــة الســـــنة

كما أخبرنا أن اليهود والنصارى لن يتبع بعضهم قبلة بعض ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ [البقرة:١٤٥] فاليهود يصلُّون إلى بيت المقدس، والسامريون منهم يصلون إلى جبل قرب مدينة نابلس، والنصارى يتجهون إلى جهة الشرق في صلاتهم، وخبر الله خبر صادق، فقد مضى على هذا الخبر أكثر من ألف وأربعمائة عام، وكل أصحاب دين مستمسكون بقبلتهم لم يفارقوها.

٢- تحذير الله رسوله من اتباع أهواء اليهود:

حذر الله - تبارك وتعالى - رسوله ﷺ أن يتبع أهواء اليهود والنصارى ويترك الحق الذي أنزل إليه، فإن فعل فإنه من الظالمين، والرسول ﷺ لن يتابع اليهود أو النصارى بحال، وحاشاه أن يفعل ذلك، ولكن هذا التحذير إنما هو تحذير للأمة الإسلامية، وتوجيهه للرسول ﷺ أبلغ في تحذير الأمة، من توجيهه إليها مباشرة.

وكلُّ من يتابع اليهود يكون ظالماً، لأنه يترك الحق المنزل عليه من عند الله، ويأخذ الباطل المفترى، وبئس حال من فعل ذلك.

٣- السبب في عدم متابعة اليهود والنصارى لنا في قبلتنا:

بيَّن الله لنا أن اليهود لا يتبعون قبلتنا؛ لأنهم يعلمون في قرارة نفوسهم أنَّ محمداً ﷺ مرسل من ربه، يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم، فالتوراة والإنجيل بشَّرا به، وأعلما اليهود بصفاته وأسمائه، وأمروا فيهما بالإيمان به ومتابعته، ولكنهم يكتمون الحقَّ ويخفونه متعمدين هذا الإخفاء، فكفرهم كفر عناد واستعلاء ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة:١٤٦].

وأخبر - تعالى - رسوله والمؤمنين معه أنهم لن يتبعوا قبلة اليهود والنصارى، لأن المؤمنين لا يقبلون بغير ما جاءَهم الله به، ويعتقدون جازمين أن الهدى فيه، وأن ما عليه اليهود والنصارى ضلال، فكيف يتابعونهم على ضلالهم ويتركون هداهم، قال تعالى مقرراً أن الحق هو المنزل من عنده على رسوله: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [البقرة:١٤٧]، والمعنى: فلا تكونن من الشاكِّين.

وأخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن أهل الأديان الباطلة لن يتبع بعضهم بعضاً، ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ [البقرة:١٤٥] ذلك أن أهل هذه الأديان مختلفون في أهوائهم، فبعد بعثة محمد ﷺ وتحويل القبلة أصبحت القبلة الصحيحة قبلته، وقبلة اليهود هوىً متبعاً، وكذلك قبلة النصارى، فما هم عليه إنما هو أهواء تتصارع فيما بينها.

جنـــــة الســـــــنة

٤- تقرير الله - عز وجل - أن لكل أصحاب دين وجهة هو موليها:

قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [البقرة:١٤٨].

يقول الحقُّ - سبحانه وتعالى -: ولكلٍّ ملة من الملل وجهة يستقبلونها في صلاتهم، قال ابن كثير: «قال أبو العالية: لليهودي وجهة هو موليها، وللنصراني وجهة هو موليها، وهداكم أنتم أيتها الأمة إلى القبلة التي هي القبلة، وروي عن مجاهد، وعطاء، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي، نحو هذا» [ابن كثير: ١/ ٤٣١].

وأمرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن نستبق الخيرات، أي: أمرنا أن نسارع إلى استقبال القبلة التي وجهنا الله إليها، وهي الكعبة، وقد فعل الصحابة ذلك كما مرَّ معنا، فمنهم من صلى ركعتين بعد أن قرأ الرسول ﷺ آيات تحويل القبلة، والذين بلغهم تحويل القبلة وهم في الصلاة، استداروا إلى القبلة الجديدة وهم في صلاتهم، ولم ينتظروا إلى الصلاة التالية.

ويبقى قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة:١٤٨] أعمُّ وأوسع من أن تقصر المسابقة على القبلة، فالمراد المسارعة بفعل الخيرات من الصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها من الأعمال الخيِّرة.

وقد استثار ربنا عباده للمسارعة إلى فعل الخيرات بإخباره إياهم أنهم أينما كانوا وحيثما حلُّوا سيجمعهم بين يديه، وسيحاسبهم على ما قدَّموه، وسيجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ويجزي الذين أساؤوا بما عملوا، وهو على ذلك سبحانه قادر، ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [البقرة:١٤٨].

٥- كرر الله الأمر بتولية الوجه إلى المسجد الحرام ثلاث مرات:

أمرنا الله بأن نولي وجوهنا إلى المسجد الحرام في الآية الرابعة والأربعين ومائة في قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة:١٤٤]. وكرر الله الأمر بالتوجه في الآية التاسعة والأربعين ومائة وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ [البقرة:١٤٩]. ثم كرره في الآية التالية لها، وهذا من باب التأكيد، حتى لا يختلف عليه المسلمون بعد ذلك.

إن استقبال القبلة وإن كان حكماً جزئياً، ولكنه حكم كبير عظيم، له أثر كبير في وحدة الأمة في التوجه إلى ربها، فتوجُّه المسلمين إلى قبلة واحدة خمس مرات في اليوم والليلة يقارب

جنـــــة السـنــــــة

بين القلوب، ويسدد المسار، ويهدي للتي هي أقوم، وهذا التوجه لا يجوز أن يقبل فيه خصام اليهود ولا نزاع النصارى، فقد أثاروا النزاع والخصام عندما تنزلت آيات تحويل القبلة، ولم يتوقفوا عن إثارة الشبهات، فهم لا يزالون يرددون مفترياتهم حتى اليوم، ولذلك فإن الله أمر بالتوجه إلى الكعبة في ثلاث آيات، كلُّها في موضع واحد.

٦- وجهنا ربنا إلى قبلة خاصة بنا كي لا يكون للناس علينا حجة:

أمر الله رسوله ﷺ وأمرنا معه أن نولي وجوهنا إلى المسجد الحرام حيثما كنا من الأرض، فالذين في شرق المسجد الحرام قبلتهم جهة الغرب، والذين في جهة الغرب قبلتهم جهة الشرق، وهكذا الذين في الشمال أو الجنوب، قال تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة:١٥٠]، وأخبرنا سبحانه وتعالى أن هذا الذي أمرنا به يوقف شبهات خصومنا، فاليهود استطالوا على المسلمين عندما كانوا يتجهون في صلاتهم إلى بيت المقدس، فخصَّ الله المسلمين بقبلة لهم دون غيرهم، فالأمة الفاضلة الخيِّرة لا يجوز أن تبقى تابعة لغيرها في قبلتها، ويقول هؤلاء لها: أنتم تبع لنا في القبلة، ولولانا لما عرفتم قبلتكم. ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البقرة:١٥٠].

والذين سيكررون الشبهات، ويحملون راية الخصام والعناد من الكفرة هم الظلمة، وهؤلاء لا يجوز أن نلقي لهم بالاً، وعلينا أن لا نخشاهم، وعلينا أن نخاف الله وحده، وقد وعدنا ربنا - تبارك وتعالى - بأن يتمَّ نعمته علينا، وأن يهدينا إليه صراطاً مستقيماً ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة:١٥٠] وقد أتم ربنا علينا نعمته سبحانه ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة:٣] نزلت قبل وفاة الرسول ﷺ بزمن قصير.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

عندما نتدبر في آيات هذا النص الكريم نجدها تهدينا إلى ما يأتي:

١- لا يجوز أن يختلف المسلمون في القبلة التي يتوجهون إليها من أجل ذلك أمرنا الله في ثلاث آيات أن نتوجه في صلاتنا إلى المسجد الحرام، فإن كان المصلي يرى عين الكعبة وجب عليه إصابة عينها، وإن صلى بعيداً عنها وجب عليه إصابة جهتها.

٢- كل أصحاب ملَّة يدَّعون أن قبلتهم هي الصحيحة، ويدْعون الآخرين إلى متابعتهم، والحق الذي دلَّ عليه القرآن وصحيح الأحاديث أن القبلة الصحيحة هي الكعبة، فعلى من يريد الحق أن يتوجه إلى الكعبة في صلاته.

جنـــــة الســـــنة

٣- الخصام والنزاع بين الأديان في تحديد القبلة لن يؤدي إلى اتفاق بينهم، وسيبقى كل فريق مستمسكاً بما هو عليه إلى يوم الدين.

٤- على المسلمين أن يحذروا من متابعة اليهود والنصارى في شرائعهم وأعمالهم وأقوالهم وأخلاقهم، فالحقُّ ما أنزله على رسوله في كتاب الله وفي سنّة رسوله ﷺ .

٥- للقبلة أثر عظيم في وحدة الأمة الإسلامية، والقبلة التي وجّه الله المسلمين إليها معلم أصيل لازم لأفضلية الأمة، فهي قبلة خاصة بنا، ولسنا فيها تبعاً لغيرنا.

٦- ذمَّ الله اليهود الذين يعلمون أن قبلة محمد ﷺ وأمته المسجد الحرام، ولكنهم كتموا الحق الذي ائتمنهم الله عليه، وهم يعلمون بذلك الحق.

جنــــــة السـنـــــة

النص الحادي والثلاثون من سورة البقرة
فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون

أولاً: تقديم

امتنَّ الله - تبارك وتعالى - على هذه الأمة، وخاصة الرعيل الأول منها بإرساله إليها رسولاً من أنفسها، جعلهم الله به خير الناس، فقد تلا عليهم آيات الله التي أنزلت عليه، وزكَّاهم، فأصلح منهم القلوب والأرواح، وعلَّمهم ما حواه الكتاب المنزل من إيمان وأحكام وأخلاق وقيم، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمونه، وهذا يوجب عليهم الإكثار من ذكر الله وشكره، ويوجب عليهم أن يداوموا على ذلك مستعينين بالصبر والصلاة.

ومن الأعمال العظيمة التي ناطها الله بهذه الأمة الجهاد في سبيل الله، والجهاد يقضي بأن ينفق المسلمون أموالهم في إعداد العدة والإنفاق على الحرب، وإعداد المقاتلين، وسيسقط في الميدان صرعى، يستحقون مرتبة الشهادة، وهؤلاء ليسوا بأموات بل أحياء عند ربهم يرزقون.

وأخبرنا ربنا ونحن نقوم بما كلَّفنا به أننا سنواجه المصاعب والمشاق، فكلُّ من حمل الرسالة الإلهية، سيبتلى بشيء من الجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشَّر الله الصابرين على البلاء، القائلين عندما تصيبهم اللأْواء: إنَّا لله وإنا إليه راجعون، ويطلبوا العون من الله بالصبر والصلاة، أولئك الصابرون يحل الله عليهم رضوانه ورحماته، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم من سورة البقرة

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن
لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ
ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ
وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- امتنان الله على هذه الأمة ببعثه فيهم رسولاً منهم:

امتنَّ الله سبحانه على صحابة رسوله ﷺ، والذين جاؤوا من بعدهم بالنعمة العظمى التي جعلهم بها خير أمة أخرجت للناس، وهي بعثة محمد فيهم، فكان رسولاً منهم، يلقي

جنـــــة السـنة

عليهم آيات القرآن، ويزكي نفوسهم، ويطهرها، ويعلمهم ما حواه كتابهم من الإيمان والإسلام والأحكام والأخلاق والقصص، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمونه، فعرفهم بربهم وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة:١٥١].

وعلينا أن نستحضر ونحن نفسر هذه الآية الكريمة دعاء إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، وهما يرفعان القواعد من البيت العتيق، ويقولان: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة:١٢٩]. وبتدبر الآية المتأخرة، وهي قوله ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ...﴾ [البقرة:١٥١] نجدها تردد ما دعا به نبي الله إبراهيم للنبي الخاتم بالألفاظ نفسها، مما يدلُّ على أن محمداً ﷺ كان هو دعوة إبراهيم.

وقد تضمنت هذه الآية الواجبات التي ناطها الله برسوله ﷺ تجاه أمته، وتحقيق الأمة هذه الواجبات يجعل منها الأمة الخيرة الفاضلة، وأنت إذا دققت النظر فيما يكتسبه المؤمنون من رسولهم، تجد أن هذه الأمة أصبحت أمة رسالية، لدى علمائها فيض من العلم الإلهي الرباني، وهي زاكية النفوس، تموج حياتها بعلوم الكتاب، وتتدفق فيها ينابيع الحكمة.

لقد جاءها رسولها بما لم تكن تعلمه وتعرفه، لقد كان العرب أصحاب القصائد الشعرية الرائعة، والخطب الرنانة، يتفاخرون بالجود والكرم، فإذا بالرسول ﷺ يرفعهم إلى مصافّ الأولياء الصالحين الأخيار بما جاءهم به من علم وهدى.

٢- وعد الله المؤمنين بذكرهم إذا هم ذكروه:

وعد الله المؤمنين بذكرهم إذا هم ذكروه، فقال: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة:١٥٢]. وقد بيّن لنا القرآن والسنّة النبوية المطهرة الطريقة التي نذكر الله بها بعيداً عن البدع والخرافات.

وقد روى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ، قال: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي، وأنا معه إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرَّب إليَّ بشبر تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» [البخاري: ٧٤٠٥، ومسلم: ٢٦٧٥].

جنـــــة الســـــنة

٣- استعانة المسلم بالصبر والصلاة:

وذكر الله وشكره يرقق القلوب، ويزكي النفوس، ويصل العباد بالله الواحد الأحد، وقد يضعف عزم المسلم وهمُّه وهو يؤدي الدور الذي ناطه الله به، وهنا عليه أن يستعين بالصبر والصلاة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة:١٥٣]. أمر الله في هذه الآية المؤمنين وهم يحملون أعباء الرسالة، ويصوغون بها حياتهم، وحياة إخوانهم، وهم يذكرون الله ويشكرونه أن يستعينوا بالصبر والصلاة، وقد سبق أن خاطب الله بني إسرائيل بمثل هذا الخطاب فيما سبق من السورة، فقال: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة:٤٥].

يقول الأستاذ سيد قطب عند هذه الآية في ظلاله: «يتكرر ذكر الصبر كثيراً في القرآن، ذلك أن الله يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع، والذي يقتضيه القيام على دعوة الله في الأرض بين شتى الصراعات والعقبات، والذي يتطلب أن تبقى النفس مشدودة الأعصاب، مجندة القوى، يقظة للداخل والخارج، ولا بد من الصبر في هذا كله، لا بد من الصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصي، والصبر على جهاد المشاقين لله، والصبر على الكيد وصنوفه، والصبر على بطء النصر، والصبر على بُعد الشقة، والصبر على انتفاش الباطل، والصبر على قلة الناصر، والصبر على طول الطريق الشائك، والصبر على التواء النفوس، وضلال القلوب، وثقلة العناد، ومضاضة الإعراض» [في ظلال القرآن: ١/ ١٤١].

ومع الاستعانة بالصبر، لا بد من الاستعانة بالصلاة، فوقوف المصلي بين يدي الله، يقرأ القرآن، ويسبح بحمد ربه، ويقدسه ويمجده، يسكب الرضا في قلبه، ويصله بالله خالقه ومبدعه، ويعينه على حمل الأمانة والقول الثقيل، وقد وجّه الله رسوله ﷺ بالقيام إلى الصلاة ليلاً طويلاً، ليعدّه لتحمل القول الثقيل الذي يُلقى عليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤﴾ [المزمل:١-٤].

وكان الرسول ﷺ وأصحابه، والصالحون من هذه الأمة يفزعون إلى الصلاة إذا حزبهم أمر، فيذهب الله غمهم، ويزيل ما بهم من بأس، ويجدون بها الراحة والسكينة.

وقد وعد الله - تبارك وتعالى - الصابرين بأن يكون معهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة:١٥٣].

جنـــــة الســـــــنة

٤- أجر المجاهدين في سبيل الله:

من التكاليف العِظام التي كلف الله بها أمة الإسلام الجهاد في سبيل الله، والجهاد له مقتضياته، ففي ميدان العراك والنزال تستنزف الأموال، وتزهق الأرواح، ولا أعزَّ على الإنسان من نفسه وماله، ولذلك أعظم الله الأجر للمجاهدين، فعندما يسقطون في ميدان النزال، توهب لهم حياة عظيمة أعظم من هذه الحياة، وقد نهانا ربنا عن القول بأن هؤلاء الشهداء أموات، بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة:١٥٤]. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران:١٦٩].

وقد روى مسلم في صحيحه عن مسروق قال: سألنا عبدالله (هو ابن مسعود) عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران:١٦٩] قال: أما إنّا قد سألنا عن ذلك، فقال: «أرواحهم في جوف طير خُضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطَّلع إليهم ربهم اطِّلاعةً، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي؟ ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يُسألوا، قالوا: يا رب! نريد أن تُردَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نُقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا» [مسلم: ١٨٨٧].

ومن أثر الحياة العظيمة التي توهب للشهداء أن تحفظ أجسادهم بعضهم في قبورهم بعد وفاتهم مُدَداً الله أعلم بمداها، وقد تواتر ذكر هذه الخاصية للشهداء منذ عهد الصحابة وإلى اليوم، وحياة الشهداء ليست كحياتنا في هذه الدنيا، ولذلك قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة:١٥٤] أي: لا تشعرون بأنهم أحياء، بل حياتهم أمر غيبي عرفناه بإعلام الله لنا به، لا بالمعرفة بالحواس.

٥- أنواع البلاء التي ابتلى الله بها عباده من هذه الأمة:

إن ابتلاء الله -تبارك وتعالى- لهذه الأمة لا يقف عند حدود الاستشهاد في ميدان القتال، فقد ذكر الله -تبارك وتعالى- شيئاً كثيراً مما يبتلي الله به هذه الأمة، وهي تواجه خصومها: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة:١٥٥].

جنـــــة السـنــــة

أخبرنا ربنا تبارك وتعالى أنه سيبتلينا ويختبرنا بشيء من الخوف والجوع، فقد تذهب الأموال، وقد يموت الأبناء أو الآباء أو الإخوة، وقد يصيبنا المَحْل، وكل ذلك ألوان من البلاء، وإذا أردت أن تنظر إلى صورة هذه الآية في الواقع، فانظر إلى حياة الرسول ﷺ وأصحابه، فقد ابتلوا بذلك كله، فصبروا، وقد بشر الله الصابرين بما أعدَّ لهم من الأجر والثواب ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر:١٠] ثم عرَّفنا ربنا تبارك وتعالى أن الصابرين هم الذين إذا أصابتهم مصيبة ملكوا زمام أنفسهم، واسترجعوا ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة:١٥٦].

إن علامة الصابرين الذين بشَّرهم ربنا بالأجر العظيم هم الذين يتسلون عما أصابهم بقولهم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة:١٥٦]، فهم يقرون بأنهم ملك له، يتصرف فيهم كما يشاء، وكما يريد، وسيحشرون إليه سبحانه، فيجزيهم على صبرهم أحسن الجزاء.

وقد أثنى سبحانه وتعالى على هذا النمط الخيِّر من هذه الأمة بقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٥٧]. فهؤلاء عليهم صلوات من ربهم، لا صلاة واحدة، وهذه الصلوات تصب عليهم صبّاً، فيجدون أثرها في قلوبهم وفي حواسهم، ومع الصلوات التي تصب عليهم توهب لهم رحمة الله، وهؤلاء هم المهتدون، الذين وفَّقهم ربهم إلى الطريق الأقوم في مثل هذه الأحوال.

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن الصبر المرضي عنه عند الله يكون عند الصدمة الأولى، ففي الحديث الذي يرويه أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى» [البخاري: ١٢٨٣. ومسلم: ٩٢٦]. أما الذين تطيش أحلامهم، وينتفون شعورهم، ويمزقون ملابسهم، ويصرخون بأعلى أصواتهم مستنكرين ما يحلُّ بهم، فهؤلاء بعيدون عن الصبر.

ومن أصابته مصيبة وصبر كما أراد الله له أن يصبر، وقال ما يحسن به أن يقول، عوَّضه الله خيراً مما أخذ منه، فعن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم آجرني في مصيبتي، واخلف لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها».

قالت: «فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ» [مسلم: ٩١٨].

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن الصبر على المصائب يرفع الدرجات، ويمحو الخطايا والسيئات، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقه، إلا كتبت له بها درجة، ومحيت بها عنه خطيئة» [البخاري: ٥٦٤٠، مسلم: ٢٥٧٢].

جنـــــــة السـنة

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفَّر الله بها من خطاياه» [البخاري: ٥٦٤١، مسلم: ٢٥٧٣].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من العلم والعمل

عندما نتدبر في آيات هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من العلم والعمل:

١- خصَّ الله - سبحانه وتعالى - أمة الإسلام بأمرين عظيمين: **الأول**: التوجه في صلاتها إلى المسجد الحرام، وهذه القبلة أفضل قبلة وأعظمها، وهي أول بيت وضع للناس في الأرض، بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. **والثاني**: بعث فيها خير رسله وأنبيائه وهو محمد ﷺ.

٢- حوَّل الله الأمة العربية من أمة تسيح في الجزيرة العربية وراء إبلها، ويغير بعضها على بعض، وتتفاخر بالخطب والأشعار إلى أمة هي خير أمة أخرجت للناس، تحمل آيات الله في قلوبها، وتزكي نفوسها بهذا الدين الذي جاءَها به نبيها، وتعلم علم الكتاب الذي جاءَها من ربِّها، وتهتدي بالحكمة التي جاءَها بها رسولها، وتعلم ما لم تكن تعلمه مما جاءَها به رسولنا.

٣- هذه الأمة أمة ربانية، تديم ذكر الله وشكره، وتبتعد عن الكفر والشرك والذنوب والمعاصي.

٤- هذه الأمة وهي تحمل رسالة ربها في نفوسها، وتحملها إلى العالمين، تعاني معاناة كبيرة، وهي فيما تعانيه من صعاب ومشاق تتحلى بالصبر، وتقيم الصلاة، وبذلك يكون الله معها، يسدِّدها ويصوبها ويعينها.

٥- قد تصل مواجهة الأمة لخصومها إلى الحرب والقتال، فتجاهد بالمال والنفس وقد يسقط منها في ميدان النزال شهداء، وهؤلاء أحياء عند ربهم يرزقون.

٦- القتل في سبيل الله ليس هو البلاء الوحيد الذي يبتلى به المؤمنون، فقد يبتلون وهم يجاهدون في سبيل الله بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وهؤلاء يواجهون هذا البلاء بالصبر، فلا تطيش أحلامهم، ولا تزلزل قلوبهم، ويلجؤون إلى الركن الركين إلى الله رب العالمين، ويدعون قائلين: إنا لله وإنا إليه راجعون.

٧- وعد الله هؤلاء الأخيار أن يحل بهم صلواته ورحماته، ويهديهم السبيل الأقوم.

جنـــــــة السـ‍ـــــــنة

النص الثاني والثلاثون من سورة البقرة
مشروعية السعي بين الصفا والمروة

أولاً: تقديم

قرر الله - سبحانه وتعالى - في هذا النص الكريم أمرين مهمين: **الأول**: أن الصفا والمروة شعيرتان من شعائر الله، فلا حرج على من سعى بينهما إذا حج أو اعتمر، وبذلك رفع ما قام في نفوس الصحابة من التحرج من السعي بينهما.

والثاني: تقريع أحبار اليهود وعلماء النصارى الذين كتموا الحق الذي في التوراة والإنجيل بخصوص ما بشّر الله به بشأن نبيه محمد ﷺ وصفاته وأخلاقه ودينه وأمته.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الصفا والمروة شعيرتان من شعائر الله:

الصفا والمروة جبلان صغيران، شرع الله لمن حجَّ أو اعتمر أن يطوَّف بهما، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [البقرة:١٥٨].

«والصفا في اللغة الحجارة الصلبة الصلدة التي لا تنبت شيئاً، وهو جمع واحدته صفاة وصفا، مثل حصاة وحصى، والمروة والمرو: الحجارة اللينة، وهذان الموضعان من شعائر الله، أي: من أعلام متعبداته، وواحدة الشعائر شعيرة» [معاني القرآن للزجاج: ١/ ٢٣٣].

والشعائر: المعالم التي يُعبد الله بها أو عندها، كالجمال التي تنحر في الحج والأعياد ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحج:٣٦]، فالبدن من الشعائر التي يُعبد الله بها في الحج، والصفا والمروة والمشعر الحرام وعرفات معالم يُعبد الله عندها في الحج.

جنـــــة الســـــــنة

والسعي بين الصفا والمروة من مناسك الحج التي عرَّفها الله لنبيه إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، فقد دعوا الله تبارك وتعالى أن يريهما مناسك الحج، فقالا: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة:١٢٨] وقد استجاب الله دعاءَهما، فأراهما مناسكهما، ومن جملة ذلك السعي بين الصفا والمروة.

٢- أول من سعى بين الصفا والمروة، وصفة ذلك السعي:

أول من سعى بين الصفا والمروة أُمُّنا هاجر أمّ إسماعيل، فقد جاء بها خليل الرحمن هي وابنها إسماعيل، ووضعهما هناك في وادٍ غير ذي زرع قرب المكان الذي سيبنى فيه بيت الله المحرم، ووضع عندهما قربة ماء وتمراً، فلما نفد الماء وعطش الغلام أخذت في طلب الماء له، وأخذت في السعي بين الصفا والمروة، حتى جاء جبريل ﷺ، وأخرج لهما ماء زمزم.

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس، قال: «أول ما اتخذ النساء المِنْطَقَ من قِبَل أُمِّ إسماعيل، اتخذت مِنْطقاً لتُعفِّيَ أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جِراباً فيه تمر وسِقاء فيه ماء، ثم قفّى إبراهيم، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتترُكنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء، فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يُضيِّعنا، ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ حتى بلغ ﴿يَشۡكُرُونَ ۝٣٧﴾ [إبراهيم:٣٧].

وجعلت أم إسماعيل تُرضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نَفِدَ ما في السقاء عطشت، وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوَّى - أو قال: يتلبَّط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف دِرعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس قال النبي: فذلك سعي الناس بينهما.

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صَهٍ تريدُ نفسَها، ثم تسمَّعت أيضاً، فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندك غِواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه

جنـــــة الســـــنة

- أو قال: بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تحوِّضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف.

قال ابن عباس قال النبي ﷺ: يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً مَعيناً. قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضَّيعة، فإن ها هنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يُضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله» [البخاري: ٣٣٦٤].

وقد أورد ابن كثير طرفاً من قصة هاجر، ثم عقَّب على ذلك قائلاً: «لما نفد ماؤهما وزادهما حين تركهما إبراهيم عليه السلام هنالك، وليس عندهما أحد من الناس، فلما خافت على ولدها الضيعة هنالك، ونفد ما عندهما، قامت تطلب الغوث من الله عز وجل، فلم تزل تتردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة، متذللة خائفة وجلة مضطرة فقيرة إلى الله عز وجل، حتى كشف الله كربتها، وآنس غربتها، وفرج شدّتها، وأنبع لها زمزم التي ماؤها (طعام طعم، وشفاء سقم) فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذلَّه وحاجته إلى الله، في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه، وأن يلتجئ إلى الله عزَّ وجلَّ، لتفريج ما هو به من النقائص والعيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم، وأن يثبته عليه إلى مماته، وأن يحوِّله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي، إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة كما فعل بهاجر عليها السلام» [ابن كثير: ١/ ٤١١].

٣- التعريف بالحج والعمرة في اللغة والاصطلاح:

والحج في اللغة: القصد، وفي الشرع: الإتيان بالمناسك التي شرعها الله لعباده، والعمرة في اللغة: الزيارة، وفي الشرع: الإحرام من الميقات، والطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، وقصّ الشعر أو حلقه.

٤- لا حرج على من حجّ أو اعتمر أن يطوّف بالصفا والمروة:

دلّ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ [البقرة:١٥٨] أنه لا حرج ولا مأثم على الحاج والمعتمر من أن يسعى بين الصفا والمروة، والجناح: الإثم، أُخِذ من جنح إذا مالَ، وعدل عن القصد، وأصل يطوَّف: يتطوف، أدغمت التاء في الطاء لقرب المخرجين [معاني القرآن للزجاج: ١/ ٢٣٤] ويطوَّف، أي: يتردد ويسعى.

وهذه الآية تقرر بوضوح أن الله جعل السعي بين الصفا والمروة من شعائر الحج والعمرة، وما فعلته قريش من وضع الصنم إساف فوق الصفا، والصنم نائلة فوق المروة،

جنـــــة الســـــنة

فكانوا إذا طافوا بينهما تمسحوا بهذين الصنمين، فلما فتح الرسول ﷺ مكة، وحطَّم الأصنام، وأزالها من حول الكعبة ومن الصفا والمروة رجعت مشروعية السعي بينهما من غير نكير.

٥- السبب في تحرج الصحابة من السعي بين الصفا والمروة في أول الأمر:

السبب في نزول هذه الآية أن بعض الصحابة تحرج من السعي بين الصفا والمروة، وهذا التحرج عائد لأحد أمرين:

الأول: أن الأنصار أهل المدينة في الجاهلية كانوا يُهِلُّون للصنم مناة الذي كان منصوباً على شاطئ البحر الأحمر عند منطقة تدعى المشلَّل، وكان من أَهَلَّ له يتحرج من السعي بين الصفا والمروة، فسألوا الرسول ﷺ عن تحرجهم ذاك، فأنزل هذه الآية.

قالت عائشة فيما يرويه عنها ابن أختها عروة بن الزبير: «أنزلت - أي: الآية التي تذكر الصفا والمروة - في الأنصار، كانوا قبل أن يسلموا يهلُّون لمناة الطاغية، التي كانوا يعبدونها عند المشلل، فكان من أهلَّ يتحرج أن يطوَّف بين الصفا والمروة، فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة، فأنزل الله ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ ﴾ الآية [البقرة:١٥٨]» [البخاري: ١٦٤٣، مسلم: ١٢٧٧].

وروى عروة عن عائشة أيضاً: «أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا، هم وغسان يهلُّون لمناة، فتحرَّجوا أن يطوفوا بين الصفا والمروة، وكان ذلك سنَّة في آبائهم، ومن أحرم لمناة لم يطف بين الصفا والمروة، وإنهم سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك حين أسلموا، فأنزل الله عز وجل في ذلك ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨ ﴾ [البقرة:١٥٨]» [مسلم: ١٢٧٧].

الثاني: أن فريقاً من الصحابة الذين كانوا يطوفون بالبيت في الجاهلية، تحرجوا من الطواف بينهما ظانين أن الطواف بينهما من شأن أهل الجاهلية، فأنزل الله فيهم الآية، ذكر الزهري عن عروة بن الزبير أنه حدَّث أبا بكر بن عبدالرحمن بما حدثته عائشة، فقال: «إن هذا لعلم ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يذكرون أن الناس - إلا من ذكرتْ عائشة ممن كان يهلُّ بمناة - كانوا يطوفون بين الصفا والمروة، فلما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت، ولم يذكر الصفا والمروة في القرآن، قالوا: يا رسول الله كنا نطوَّف بين الصفا والمروة، وإن الله أنزل الطواف بالبيت، فلم يذكر الصفا، فهل علينا من حرج أن نطوَّف بالصفا والمروة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ ﴾ الآية [البقرة:١٥٨]» [البخاري: ١٦٤٣، مسلم: ١٢٧٧].

جنـــــة الســـــــنة

والصواب من القول أن الآية نزلت في المتحرجين كلِّهم، قال أبو بكر بن عبدالرحمن: «فأسمع هذه الآية نزلت في الفريقين كليهما: في الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا بالجاهلية بالصفا والمروة، والذين يطوفون، ثم تحرجوا أن يطوفوا بهما في الإسلام، من أجل أن الله أمر بالطواف بالبيت، ولم يذكر الصفا، حتى ذكر ذلك، بعدما ذكر الطواف بالبيت» [البخاري: ١٦٤٣].

٦- لعن الله كاتمي الحق الذي أنزله:

بعد أن قرر سبحانه وتعالى أمر السعي بين الصفا والمروة، وأنه من شعائر الله توعد أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى في كتمانهم الحق الذي أنزله إليهم في التوراة والإنجيل، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة:١٥٩] والحقُّ الذي كتمه اليهود والنصارى هو ما يتعلق بشأن محمد ﷺ ودينه وأمته، ففي التوراة والإنجيل كثير في هذا الشأن، فاستكبر اليهود والنصارى عن إعلان هذا الحق والتصديق به، ومتابعته.

واللعن في لغة العرب: الطرد من رحمة الله، فالله عز وجل يطردهم من رحمته وجنته، والملائكة والناس يدعون الله أن يفعل بهم ذلك.

واستثنى رب العزة من الذين لعنهم الذين تابوا وأنابوا ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة:١٦٠] استثنى ربُّ العزة من الملعونين المطرودين من رحمة الله وجنته الذين تابوا، أي: اعترفوا بما كان منهم من جريمة، وندموا واستغفروا، وأصلحوا الخلل الذي وقعوا فيه، ثم بينوا الحقَّ الذي كتموه، فهؤلاء يتوب الله عليهم، ويغفر لهم، ويتجاوز عن خطاياهم.

ثم بيّن الله - تبارك وتعالى - مصير الكفار على وجه العموم الذين يموتون على كفرهم، فأخبر أن لعنة الله تحيط بهم، وكذلك لعنة الملائكة والناس أجمعين، وهم خالدون في هذه اللعنة، وتتمثل هذه اللعنة في الآخرة بإدخالهم النار خالدين في عذابها، لا يخفف عنهم، ولا هم ينظرون ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [البقرة:١٦١-١٦٢].

جنـــــة السـنـــــة

ومعنى ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ أي: لا يمهلون عن العذاب، ولا يؤخر عنهم ساعة؛ بل هو دائم متواصل.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

عندما نتدبر في آيات هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - السعي بين الصفا والمروة في الحج والعمرة من شعائر الله تبارك وتعالى، ولذا فإنه يجب على الحاج والمعتمر أن يسعى بينهما، على النحو الثابت عن رسول الله ﷺ وأصحابه، وذهب بعض أهل العلم إلى أن السعي بين الصفا والمروة مستحب في الحج والعمرة، وليس بواجب، ودليلهم قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ [البقرة:١٥٨] وقد احتج عروة ابن الزبير أمام خالته عائشة بالآية على ذلك، إذ قال بعد أن ذكر هذه الآية: فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة. فقالت له: «بئس ما قلت يا ابن أختي، إنَّ هذه لو كانت كما أوَّلتها عليه كانت: لا جناح عليه أن لا يتطوف بهما».

وقالت له عائشة في ختام كلامها: «وقد سنّ رسول الله ﷺ الطواف بينهما فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما» [البخاري: ١٦٤٣].

وقد سنّ الرسول ﷺ السعي بينهما بفعله، ففي البخاري عن ابن عمر قال: «قدم النبي مكة، فطاف بالبيت، ثم صلى ركعتين، ثم سعى بين الصفا والمروة، ثم تلا: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١]» [البخاري: ١٦٤٧، مسلم: ١٢٣٤].

وقد أمر الرسول ﷺ أصحابه وأمته بالسعي، فعن حبيبة بنت أبي تجراة قالت: «دخلت على دار أبي الحسين في نسوة من قريش، ورسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة، وهو يسعى، يدور به إزاره من شدة السعي، وهو يقول لأصحابه: اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي» [عزاه الألباني في إرواء الغليل: (٤/ ٢٦٩) إلى أحمد: ٢٧٣٦٧، والحاكم: ٤/ ٧٩ الحديث (٦٩٤٤)، والطبراني: ٢٤/ ٢٢٦ الحديث (٥٧٣) وغيرهم، وذكر أن الذهبي ضعّفه، ولم يرتض الألباني تضعيفه له، وذكر أن له طريقاً إسنادها جيد عند الدارقطني والبيهقي، ونقل تصحيحه عن الحافظين المزي وابن عبدالهادي].

«ومذهب مالك والشافعي أن السعي بين الصفا والمروة فرض ركن في الحج، لا يجزي تاركه أو ناسيه إلا العودة، ومذهب الثوري وأصحاب الرأي أن الدم يجزي تاركه، وإن عاد فحسن، فهو عندهم ندب» [المحرر الوجيز لابن عطية: ٢/ ٤٠] والقول بالوجوب أظهر لما سبق من الأدلة، والله أعلم.

جنـــــــة الســـــــنة

٢- لا يشرع التطوع بالسعي بين الصفا والمروة وحده، ولا يكون إلا في الحج والعمرة. ودليله الآية ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة:١٥٨] بخلاف الطواف بالكعبة، فإنه يكون في الحج والعمرة وفي غيرهما.

٣- كتمان العلم الذي أنزله الله جريمة يستحق صاحبها اللعن من الله، واللعن من الملائكة ومن الناس، ومن الذين كتموا العلم أحبار اليهود ورهبان النصارى، ومن العلم الذي كتموه ما أخبر به الله في التوراة والإنجيل عن نبينا وصفاته، وكتابه، ومهاجره ودينه، وأمته.

٤- الذين يتوبون عن كتمان العلم، ويعلنون العلم الذي كتموه، ويبينونه، يتوب الله عليهم، ويغفر لهم.

٥- يجوز لعن الكفار على وجه العموم كما صرَّح اللهُ بذلك في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [البقرة:١٦١] ولا يجوز تخصيص الكافر المعين باللعن إلا المنصوص على كفره، كفرعون وهامان وقارون وأبي جهل وأمية بن خلف ونحوهم.

٦- استدلّ الرسول ﷺ على بدء الله بذكر الصفا قبل ذكر المروة على البدء بها حين يسعى بينهما، روى جابر أن النبي ﷺ حين قدم مكة طاف بالبيت سبعاً، وأتى المقام فقرأ ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥] فصلى خلف المقام، ثم أتى الحجر فاستلمه، ثم قال: «نبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا»، وقرأ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٨] قال أبو عيسى الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أهل العلم، أنه يبدأ بالصفا قبل المروة، فإن بدأ بالمروة قبل الصفا لم يجزه، وبدأ بالصفا» [الترمذي: ٨٦٢ والحديث رواه مسلم: ١٢١٨].

جنـــــــة الســـــــنة

النص الثالث والثلاثون من سورة البقرة وحدانية الله وأدلة وحدانيته

أولاً: تقديم

هذا النص يتحدث عن أعظم قضية حواها هذا الدين، وهي وحدانية الله تبارك وتعالى، فهو الإله الواحد الذي لا إله إلا هو، وقد أورد هذا النص في الآية الثانية منه الدلائل الدالة على وحدانية الإله العظيم، ومن ذلك خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وغيرها من الآيات النافعة للعقلاء من الجن والإنس.

وفي الآية الثالثة من هذا النص ذمّ للناس الذين يتخذون من دون الله آلهة يحبونها كحبّ الله، والذين آمنوا أشد حباً لله، وقد تهدد الله المشركين بالله بالحديث عن مدى ضعفهم حينما ينزل بهم عذاب ربهم، وتحدث عن تبرُّؤ السادة المتبوعين يوم القيامة من الأتباع الضالين، الذين يريهم الله يوم القيامة أعمالهم حسرات عليهم، فيدخلون النار، ولا يخرجون منها.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - إلهنا هو المعبود بحقٍّ الذي لا يستحق العبادة أحد سواه:

قرّر الله في مطلع هذا النص أعظم قضية، وهي وحدانيته - سبحانه - ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣] أي: معبودكم الحقُّ معبود واحد، وهو الله سبحانه، والإله في لغة العرب المعبود، سواء أكان معبوداً بحق أو بباطل، والمعبود الحق الذي لا يستحقُّ العبادة غيره هو الله تبارك وتعالى، وكلُّ ما عبد من دون الله فهو معبودات باطلة.

جنـــــة الســـــنة

والله سبحانه يستحق العبادة لاتصافه بصفات الجلال والكمال، فهو واحد في ذاته، واحد في صفاته وأسمائه وأفعاله، ومع كونه تبارك وتعالى جباراً قهاراً لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء فهو رحمن رحيم، وهذان اسمان عظيمان دالان على صفة الرحمة.

وهذه الآية العظيمة حَوَت اسم الله الأعظم، روى الترمذي عن أسماء بنت يزيد أن النبي ﷺ قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣] وفاتحة آل عمران: ﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾ [آل عمران:١-٢]» [الترمذي: ٣٤٧٨، وقال أبو عيسى الترمذي فيه: هذا حديث حسن صحيح].

٢- الأدلة الدالة على وحدانية الله تبارك وتعالى:

وقد أورد سبحانه وتعالى ثمانية أدلة تدل على وحدانيته واستحقاقه العبادة وحده دون سواه، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة:١٦٤].

وأوّل الآيات وثانيها: خلق الله السماوات والأرض، وقد حدثنا ربنا سبحانه وتعالى في كتابه عن خلق السموات والأرض، فأخبرنا أنه خلقهما تبارك وتعالى بالحق ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر:٨٥] أي: ليُعبد ويُطاع، ولم يخلقهما لعباً ولهواً ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنبياء:١٦] وخلق السماء سبعاً طباقاً ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [الطلاق:١٢] وقد أمرنا - تبارك وتعالى - أن ننظر إلى السماء فوقنا ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق:٦] وقد بني السماء بقوة وأوسع بناءها ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات:٤٧].

وأخبرنا سبحانه أن السموات والأرض تسبح بحمد الله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء:٤٤]، وحدثنا ربنا عن الأرض طويلاً وكثيراً في كتابه، ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ﴾ [الرعد:٣]، وقال: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ [الحجر:١٩]، وقال: ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل:٦١].

وفي حديث الله عن السماوات والأرض كثير من الأسرار التي لا يعلمها البشر مع كل هذا التقدم العلمي اليوم.

جنـــــة الســــــنة

والآية الثالثة الدالة على وحدانيته وبديع صنعه: اختلاف الليل والنهار، كما قال عز من قائل: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:١٢] واختلاف الليل والنهار تعاقبهما، فالليل يعقبه النهار، والنهار يعقبه الليل ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان:٦٢]، وقال: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور:٤٤] وقد جعل الليل لننام فيه، والنهار لننطلق فيه لأعمالنا ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم:٢٣]، والليل شرعاً يبدأ من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، والنهار من طلوع الفجر إلى غروب الشمس كما دلت على ذلك آيات الصيام.

والآية الرابعة من آيات الله العظيمة الدالة على وحدانية الله: ﴿ٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة:١٦٤] والفلك السفن التي تحمل الناس وأثقالهم ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المؤمنون:٢٢] وقد توسّع البشر في صناعة السفن اليوم، فهي تحمل الناس وبضائعهم، وتشقُّ البحار مشرقة ومغربة ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النحل:١٤].

وقد أنجى اللهُ - تبارك وتعالى - نوحاً والمؤمنين معه في الفلك المشحون، وأغرق الكفرة المجرمين ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [المؤمنون:٢٧]، ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المؤمنون:٢٨].

والآية الخامسة من الآيات العظيمة: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة:١٦٤] كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٩٩] وقال: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [طه:٥٣]. وإحياء الأرض بماء السماء آية ظاهرة مشهودة ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم:٢٤].

والآية السادسة من الآيات الدالة على وحدانية الله: ما بثه الله في الأرض من دواب ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة:١٦٤] والدابة كلُّ إنسان أو حيوان يدبّ فوق ظهر هذه الأرض، والدواب التي خلقها في الأرض كثيرة متنوعة ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [الجاثية:٤] ودواب الأرض أمم أمثالنا ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ

جنـــــــة السـنة

﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨]. وجميع دواب الأرض مخلوقة من ماء ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور:٤٥].

والآية السابعة من آيات الله الدالة على وحدانية الله: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ [البقرة:١٦٤]، فهو يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٧] ومنها إرساله إياها لتلقيح الأزهار ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر:٢٢] ومنها إرساله الرياح فتثير السحاب ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الروم:٤٨].

ويرسل الله الرياح فيها برد شديد، فتهلك الحرث والنسل ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران:١١٧] وتسوق الرياح الطيبة السفن في البحار، ثم تأتي هذه السفن ريح عاصفة شديد فتغرقها وأهلها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس:٢٢].

وأرسل الله على عاد الريح العقيم فأهلكتهم: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ [الذاريات:٦١]، ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾ [الحاقة:٦].

والآية الأخيرة من آيات الله العظيمة الدالة على وحدانية الله: ﴿ٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤] والسحاب الذي يخلقه رب العباد بين السماء والأرض حاملاً كميات هائلة من المطر، وتسوقه الرياح إلى المواقع التي يريد الله أن يفرغ فيه حمولتها ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف:٥٧] وقال في موضع آخر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور:٤٣] وهذا الذي ذكره الله في هذه الآية الكريمة فيه آيات لقوم يعقلون ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة:١٦٤] وآيات الله التي يرسلها دالة على توحيده، لا يستفيد منها إلا أولو الألباب أصحاب العقول، ذلك أنها تدلهم على ربهم، فيسارعون إلى الإيمان به.

٣- ذم الله المشركين الذين يحبون آلهتهم كحبّ الله:

بعد أن قرر الحقُّ - تبارك وتعالى - أنه واحد أحد لا شريك له ولا مثيل ولا نظير، وأورد جملة من الأدلة العظيمة الدالة على وحدانيته سبحانه، ذكر أن بعض الناس يشركون بالله في عبادته، وتهددهم وتوعدهم، وذكر حالهم ومصيرهم في الآخرة، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة:١٦٥] أي: يتخذونهم آلهة يعبدونها مع الله، كالأصنام

جنـــــة السـنة

والأوثان، والقادة والزعماء الذين رفعوا إلى مرتبة الألوهية كفرعون ونمرود، وقد أشربت قلوب هذه الطائفة من الناس حب هذه الأنداد، فهم ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥] كما قال عزَّ وجلَّ في عبدة العجل ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة:٩٣].

وحبُّ هؤلاء لله اختلط بحبِّ الأصنام والأوثان، فليس هو بصافٍ ولا خالص، ولذا فإن حُبَّ المؤمنين الموحدين لربهم أعظم وأشد من حب المشركين لله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، لأن المؤمنين يحبون الله حباً خالصاً.

وتهدد ربُّ العزة هؤلاء الظلمة الذين أشركوا به الأصنام والأوثان والأنداد فقال: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة:١٦٥] أخبرنا الله عن حال المشركين الظلمة عندما يشاهدون أهوال الموقف العظيم، وأهوال النيران، فيعلمون يقيناً أن القوة لله جميعاً، وأن الله شديد العذاب، أما آلهتهم التي عبدوها وأحبوها من دون الله، فلا تملك لهم شيئاً، وستكون وقوداً للنيران.

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن «من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار». وقال عبدالله راوي الحديث: «وقلت أنا: من مات وهو لا يدعو لله نداً دخل الجنة» [البخاري: ٤٤٩٧].

٤- تبرأ الأتباع في يوم القيامة ممن اتبعهم:

أخبرنا العزيز العليم تبارك وتعالى أن السادة والمتنفذين في الدنيا الذين كانوا يقودون الناس إلى الشر سيتبرؤون من أتباعهم في ذلك اليوم، فيكون ذلك غصّة وألماً في نفوس الأتباع ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة:١٦٦]. وهؤلاء الذين يتبرؤون من أتباعهم هم الجبابرة والقادة ورؤوس أهل الشرك الذين كان الناس يتبعونهم ويطيعونهم فيما أمروهم به، ويعصون بذلك ربهم في طاعتهم إياهم، ويدخل في القادة الذين يتبرؤون من الأتباع زعيم الكفر الأعظم، وهو الشيطان، ويقف يوم القيامة خطيباً في أتباعه ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم:٢٢].

واستمع إلى هذا الحوار الذي سيقع بين السادة المتبوعين وبين أتباعهم في يوم الدين ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ

جنـــــة السـنة

صَدَدْنَكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ:٣١-٣٣].

٥- تقطع الأسباب بين السادة والأتباع:

ومع تبرؤ السادة والقادة ممن اتبعوهم على كفرهم وضلالهم، ورؤية هؤلاء وهؤلاء لعذاب الله، تتقطع الأسباب التي كانوا يتواصلون بها في الحياة الدنيا، فصلة القربى، وصلة الجيرة، وصلة الروابط الحزبية، وسائر ما كان يجمع الناس ويؤلف بينهم في الدنيا، كلّه تتقطع ويتلاشى في الآخرة، ويحُلُّ محلَّه العداوة والكره والبغضاء، ويحلُّ محل التعظيم والتبجيل الذي كان في الحياة الدنيا اللعنُ والسبُّ والكراهيةُ، كما قال تعالى في آية هذا النص: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة:١٦٦] وقال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت:٢٥]، وقال: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف:٦٧].

والأسباب جمع سبب، وهو الشيء الذي يتعلق به، فالحبل سبب، والمصاهرة سبب، والمحبة والمودة سبب، ويتمنى الأتباع في يوم الدين حين يتبرأ منهم سادتهم وقادتهم أن يعودوا إلى الدنيا كي يتبرؤوا من تلك القيادات التي أضلتهم، ولكن الله قضى أن الرجعة إلى الدنيا غير ممكنة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ﴾ [البقرة:١٦٧] والكرة: الرجعة إلى الدنيا، كما قال عز وجل في هؤلاء في موضع آخر: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام:٢٧].

وقد أخبرنا ربنا تبارك وتعالى بما استقرّ في علمه الواسع الذي لا يخفى عليه شيء أن هؤلاء كاذبون فيما يدّعونه من أنهم لو عادوا إلى الدنيا لاستقاموا على أمر الله، وأخبر أنهم لو عادوا إلى الدنيا لعادوا لمثل ما كانوا عليه أولاً ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام:٢٨] إنَّ النجاسة الشركية متغلغلة في أعماق قلوبهم، مجبولة بها نفوسهم.

وكما يريهم الله - تبارك وتعالى - العذاب في يوم القيامة، فإنه يريهم في ذلك اليوم أعمالهم حسرات عليهم، النار تحيط بهم من كل مكان، وهم في سجنها الكبير، والحسرة والندم تحيط بالقلوب، ولا أمل لهم في الخروج مما هم فيه بحال ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة:١٦٧].

جنـــــــة الســـــــنة

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

عندما نتدبر في آيات هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الله - سبحانه - هو المعبود بحق، لا يستحق العبادة إلا هو.

٢- الدلائل الدالة على استحقاق الله العبادة وحده كثيرة، منها خلق الله السماوات والأرض، وتعاقب الليل والنهار، والسفن التي تخوض عباب البحر محققة منافع الناس، وإنزال الله الماء من السماء، فيحيي به الأرض بعد موتها، وغير ذلك.

٣- كثير من المشركين يعرفون الله عزَّ وجلَّ، ولكنهم لا يخلصون دينهم له، بل يعبدون معه غيره، وهؤلاء لا ينفعهم إيمانهم بالله، لأنه إيمان كدر مخلوط.

٤- الذين أخلصوا دينهم لله - تبارك وتعالى - حبهم لله أعظم من حبِّ الذين اتخذوا من دون الله أنداداً، لأن المؤمنين حبهم لله خالص، وحب متخذي الأنداد مخلوط مغشوش.

٥- يظهر للكفار والمشركين في يوم القيامة أن الله وحده هو المتفرد بالحول والقوة، وأن آلهتهم التي عبدوها من دون الله لا تملك من الحول والقوة شيئاً.

٦- يتبرأ السادة والمتبوعون يوم القيامة ممن عبدوهم وقادوهم إلى الضلال، ويتمنى الأتباع الضالون لو كان لهم مجال في العودة إلى الدنيا، ليتبرَّؤوا من أندادهم وسادتهم، ولا ينفعهم ذلك التمني شيئاً.

٧- يرى بعض أهل العلم كراهية أو تحريم ركوب البحر، وهذا غير صحيح، فقد امتنّ الله على عباده بالفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وامتنّ الله علينا بالفلك التي حملت أبانا نوحاً والمؤمنين معه في الطوفان العظيم، وقد رأى رسول الله ﷺ في منامه طائفة من أمته يركبون السفن ملوكاً على أسرّة أو مثل الملوك على الأسرة [راجع: البخاري: ٢٧٩٩، ٢٨٠٠. ومسلم: ١٩١٢. وأحمد: ٢٧٠٣٢]، واتخذ المسلمون الأساطيل الحربية من السفن، كما اتخذوا السفن التجارية، وركبوها من غير نكير، وكل ذلك يدل على مشروعية ركوب السفن من غير نكير.

جنــــــة الســــــنة

النص الرابع والثلاثون من سورة البقرة
يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً

أولاً: تقديم

الله وحده الذي له الحق في التحليل والتحريم، وقد أمر الله - تبارك وتعالى - الناس جميعاً أن يأكلوا من طيبات الأرض التي أحلّها لهم، ونهاهم عن متابعة الشيطان فيما يدعوهم إليه من التحليل والتحريم، فهو يأمر بالسوء والفحشاء وأن نقول على الله ما لا نعلمه.

وكثير من العباد يصدُّهم عما جاءهم من عند الله إرثُ الآباء والأجداد، وقد يكون الآباء والأجداد لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، فلا يصلحون للتأسي والاتباع، وقد أمر الله المؤمنين بالأكل من الطيبات التي رزقهم إياها وأمرهم بشكره، وهيجهم إلى ذلك بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة:١٧٢].

وحدد الله المحرمات التي حرمها على عباده، وأجاز لهم الأكل منها في حال الاضطرار.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾
إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟
بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ
عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ
عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- التحليل والتحريم حق الله وحده:

نادى ربُّ العزة الناس جميعاً آمراً إياهم أن يأكلوا مما أحله لهم من الطيبات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة:١٦٨].

وقد عاش الكفرة الفجرة قديماً وحديثاً في فوضى تشريعية فيما يتناولونه من الأطعمة والأشربة، فتراهم يحرمون ما أحله الله، ويحلون ما حرمه بأهوائهم، فقد كانت العرب في

جنـــــة السـنــــة

الجاهلية يُحلّون لأنفسهم الميتة والدم ولحم الخنزير، ويحلون المسكرات، ويحرّمون على أنفسهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، وقد أكذبهم الله فيما أحلّوه وحرّموه، وجعله مما افتروه عليه ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة:١٠٣].

ولا تزال هذه الفوضى في التشريع تضرب بأطنابها حتى اليوم، فهناك من يستحل اليوم أكل الكلاب والحيوانات المفترسة والطيور الجارحة بالإضافة إلى استحلال الميتة والدم ولحم الخنزير.

والتحليل والتحريم من شأن الله وحده لا يشرك فيه أحداً غيره ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ﴾ [النحل:١١٦] وذمّ الله المحرِّمين والمحلِّلين بأهوائهم ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس:٥٩] وقد كان الله حرم على الذين هادوا بعض الطيبات بسبب ظلمهم، ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ [النساء:١٦٠] وقد نسخ الله هذا التحريم، وأحلَّ الله لهذه الأمة الطيبات كلها «وأصل الطيب - كما يقول الأصفهاني - ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفوس» [المفردات:٣٠٨].

٢- الشيطان وراء الفتنة التشريعية في التحليل والتحريم:

ووراء الفتنة التشريعية في حلال الأطعمة وحرامها الشيطان، ولذلك حذّرنا الله منه ومن خطواته: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة:١٦٨] ففي هذه الآية نهي عن اتباع الشيطان في خطواته، أي: في آثاره وأعماله، وكل الذنوب والمعاصي من خطواته، وأصل الخَطْوة: بُعْدُ ما بين قدمي الماشي.

والشيطان عدوٌّ مبين لنا مغرق في هذه العداوة ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر:٦] وقال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ﴾ [الكهف:٥٠]. وقد أعلمنا رسولنا ﷺ أن الشياطين وراء الفوضى في تشريع الحلال والحرام، ففي صحيح مسلم عن عياض بن حمار المُجاشِعِيِّ، أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبة: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كلُّ مالٍ نحلته عبداً حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحْلَلْتُ لهم» [مسلم: ٢٨٦٥].

جنـــــة السـنة

وقد ضرب ابن كثير أمثلة لما أخبر العلماء أنه من خطوات الشيطان، فمن ذلك قول الشعبي: نذر رجل أن ينحر ابنه، فأفتاه مسروق بذبح كبش، وقال: هذا من خطوات الشيطان، وقال ابن مسعود للذي قال له: حرمت أن لا آكل ضرعاً أبداً: هذا من خطوات الشيطان، فاطْعَمْ وكفِّر عن يمينك. وعن أبي رافع أنه غاضب يوماً امرأته، فقالت: هي يوماً يهودية ويوماً نصرانية، وكل مملوك لها حرٌّ إن لم تُطلّق امرأتك، فأتيت عبدالله بن عمر، فقال: إنما هذه من خطوات الشيطان، وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة، وهي يومئذٍ أفقه امرأة في المدينة. [ابن كثير: ١/ ٢٧٩].

٣- الشيطان يأمرنا بالسوء والفحشاء وأن نقول على الله ما لا نعلمه:

أعلمنا ربنا - وهو العليم الذي لا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء - أن الشيطان اللعين لا يأمرنا إلا بالسوء والفحشاء، وأن نقول على الله ما لا نعلمه ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة:١٦٩]. والسوء: الإثم، لأن عاقبته تسوء صاحبه، والفحشاء ما بلغ الغاية التي ليس بعدها غاية في الفحش، وأكثر ما يطلق على الزنا، والقول على الله ما لا نعلمه من أعظم الضلال، فالله غيب، ولا يجوز أن نقول في الله أو في شرعه ما لا نعلمه، ولقد وصف بعض الضالين الله بما لا يجوز وصفه من الصفات، وحرموا ما لم يحرمه، وأحلوا ما حرمه.

٤- رفض هؤلاء ما نزل من عند الله ومتابعتهم ما كان عليه الآباء:

وهؤلاء الضالون إذا طالبناهم باتباع الحقِّ الذي أنزله الله رفضوا، وزعموا أنَّهم إنما يتبعون ما كان عليه آباؤهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة:١٧٠].

إن المؤمنين يطالبون الناس جميعاً وفيهم العرب والعجم واليهود والنصارى بأن يتبعوا ما أنزله الله تعالى، فهو الحق الذي لا مرية فيه، فيقول الضالون: لا نتبع ما أنزله الله، بل نتبع ما كان عليه الآباء والأجداد، فيقول الله لهم مبطلاً حجتهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة:١٧٠]. يقول لهم: كيف تتركون الحق النازل إليكم من الله، وتتبعون الآباء والأجداد، وهم خالون من العقل السديد، والرشد والهداية، فهؤلاء لا يجوز متابعتهم في ضلالهم الذي كانوا عليه، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة:١٠٤].

جنـــــة الســــــنة

٥- مثل هؤلاء مع الدعاة كمثل الذي ينعق بما لا يسمع:

ضرب الله مثلاً للذين كفروا بالدواب والحيوانات التي تُنادَى، فتسمع الصوت الذي تُنادى به، ولكنها لا تفقه ما تُخاطَب به، وكذلك الدعاة الذين ينادون الكفار، يسمع الكفار نداءَهم، ولا يعقلون ما يُنادون به، قال ابن عطية: «المراد تشبيه واعظ الكافرين وداعيهم، والكافرين الموعوظين بالراعي الذي ينعق بالغنم أو الإبل، فلا تسمع إلا دعاءَه ونداءَه، ولا تفقه ما يقول، هكذا فسر ابن عباس وعكرمة والسدي وسيبويه» [ابن عطية: ٢/ ٦٤] ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة:١٧١] وقوله: ينعق، أي: يصيح، كقولهم: نعق الراعي بصوته.

وقد وصف الله الكفار الذين ينعق بهم الداعي فلا يفقهون قوله بأنهم ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة:١٧١] أي: صمٌّ عن الحقِّ فهم لا يسمعون، وبكم يعني خُرْساً عن قول الحق والصواب والإقرار بما أمرهم أن يقروا به، فهم لا ينطقون به، وعمي عن طريق الهدى وطريق الحقِّ فلا يبصرونه، وقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة:١٧١] لما تقرَّر فقدهم لهذه الحواس قضى بأنهم لا يعقلون، إذ العقل علوم ضرورية تعطيها هذه الحواس.

٦- أمر الله المؤمنين بأكل الطيبات وشكر الله:

أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين أن يأكلوا من الطيبات التي رزقهم إياها، ويشكروا له نعماءه إن كانوا إياه يعبدون ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة:١٧٢].

وقد أكَّد الحقُّ - تبارك وتعالى - ما أمر به الناس في الآية السابقة من أكل الحلال الطيب في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة:١٦٨] يقول الله للمؤمنين الذين ناداهم في هذه الآية: كلوا من الأطعمة الطيبة التي رزقتكم إياها، واشكروا الله على ما أنعم به عليكم، وهيجهم على الشكر بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

وفي هذا الأمر الذي أمرهم به دعوة لهم إلى البُعد عن منهج الضالين الذين يُحِلُّون ما حرّم الله من الميتة والدم ولحم الخنزير، أو يحرمون ما أحل الله من البحيرة والوصيلة والسائبة والحوامي ونحو ذلك.

وقد هيّج الله المؤمنين على فعل ما أمرهم به بقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة:١٧٢].

جنـــــة الســـــنة

٧- بيان ما حرّمه الله علينا:

بيّن الله لعباده ما حرّمه عليهم ليجتنبوه ويحذروه ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٧٣] و﴿إِنَّمَا﴾ كلمة واحدة تفيد حصر الحكم في المذكورات دون ما سواهن، والمحرمات المذكورات في هذه الآية أربع: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أُهلّ لغير الله به.

وقد فصّل الله - تبارك وتعالى - في ذكر هذه المحرمات في مواضع أخرى، كقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة:٣] والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع، من أنواع الميتة.

أثر أكل الطيبات في إجابة الدعاء:

كان أكل الطيب الحلال معلماً مهماً في حياة المسلمين، وكانوا ولا يزالون يتوقون الحرام ويجتنبونه، وقد أعلمنا رسولنا ﷺ أن الله طيب لا يقبل الحرام إن تصدّق به، وأن الله لا يستجيب دعوة آكل الحرام، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون:٥١] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة:١٧٢].

ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعثَ أغبر، يمدُّ يديه إلى السماء يا ربِّ، يا ربِّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك» [مسلم: ١٠١٥].

التعريف بالمحرمات المنصوص عليها في الآية:

أ- التعريف بالميتة التي حرمها الله تعالى: والميتة: ما فارقها الروح من غير ذكاة، ومن الميتة المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع، وقد خص أهل العلم من عموم هذه الآية ميتة الأسماك والحيوانات التي لا تعيش إلا في البحر ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ [المائدة:٩٦] وقال الرسول ﷺ في ميتة البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» [الترمذي: ٦٩. وقال الترمذي فيه: هذا حديث حسن صحيح].

وقد خُصَّت هذه الآية بقوله ﷺ: «أحلت لكم ميتتان ودمان، فأما الميتتان: فالحوت والجراد، وأما الدمان: فالكبد والطحال» [مسند أحمد: ٥٧٢٣، صحيح ابن ماجه للألباني ورقمه: ٢٦٧٩، وذكر أنه خرجه في الصحيحة: ١١١٨].

جنـــــة الســـــنة

ب- التعريف بالدم الذي حرمه الله علينا: والدم الذي حرمه الله تعالى في هذه الآية هو الدم المسفوح المنصوص عليه في سورة الأنعام ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام:١٤٥] أما الدم الذي خالط اللحم فغير محرم بالإجماع.

ج- لحم الخنزير حرام ذُكّي أو لم يُذكّ: وقوله: ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [البقرة:١٧٣] فيه دلالة بيّنة على أن لحمه حرام، ذبح أو لم يذبح، وقد أجمعت الأمة على تحريم شحمه، لأن الشحم داخل في اللحم.

د- التعريف بالذي أُهِلَّ لغير الله به: والذي أُهِلَّ به لغير الله هو الذي ذُبح لغير الله، كالذي ذُبح للأصنام والأوثان، وأصل الإهلال رفع الصوت، ومنه إهلال الصبي عند ولادته، أي: بكاؤه حين الولادة، وقد جرت عادة العرب على ذكر اسم الإله المقصود بالذبيحة عند ذبحها، فكانوا يذكرون اسم اللات والعزى أو هبل أو غيرها من أصنامهم على ما ذبحوه.

٨- أباح الله للمضطر أن يأكل مما حرّم عليه:

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة:١٧٣] أي: فمن حلّت به ضرورة بأن أصابته مجاعة، ولم يجد إلا ما حرَّم الله عليه من المذكورات، وهن الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهلَّ به لغير الله، جاز له الأكل منها. قال مجاهد: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾، لا قاطعاً للسبيل ولا مفارقاً للأئمة، ولا خارجاً في معصية الله، فله الرخصة، ومن خرج باغياً أو عادياً أو في معصية الله، فلا رخصة له، وإن اضطر إليه» [ابن جرير الطبري: ١/ ٨٣٧].

وختم الله الآية بما يناسبها من صفاته تعالى ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة:١٧٣] فمن مقتضى رحمته وغفرانه سبحانه إباحة المحرمات في حال الاضطرار.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

عندما نتدبر آيات هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الله وحده له حق التشريع والتحليل والتحريم، والذين يُحلُّون ويُحرِّمون بأهوائهم ظَلَمَةٌ اعتدوا على حق الله وسلطانه.

جنـــــة الســــــنة

٢- الشياطين وراء الفوضى التشريعية في تحريم ما أحله الله، وإحلال ما حرّمه، وعلى المسلم الحق أن يقف عند حدود الله في الحلال والحرام.

٣- أعلمنا ربنا أن الشيطان يأمرنا بثلاثة أمور في غاية الفحش والشناعة، فهو يأمر بالأفعال ذات العاقبة السيئة، ويأمرنا بالذنوب والمعاصي الفاحشة كالربا والزنا، ويأمرنا بالقول على الله ما لا نعلم صوابه، كتحليل ما حرمه من الميتة والدم ولحم الخنزير.

٤- اتباع الآباء والأسلاف من أعظم ما صدَّ الناس عن الهدى واتباع الرسل، فالآباء قد يكونون جاهلين ضالين، يعبدون الأوثان، ويسفكون الدم بغير حق.

٥- في قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة:١٧٠] إبطال للتقليد، فهؤلاء الذين تابعوا الآباء من غير حجة ولا برهان مُقلِّدون، والتقليد عند العلماء قبول قول بلا حجة، وقد أذن الله للعامي الذي لا أهلية عنده لاستنباط الأحكام أن يسأل أهل العلم عما ينوبه ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل:٤٣].

٦- مثل الكفار الذين أحاطت بهم ذنوبهم مثل الأنعام التي يدعوها الراعي فلا تجيب، فالدعاة يدعونهم إلى الحق، فلا يفقه المدعوون ما في النداء من الهدى والعلم والخير.

٧- أمر الله المؤمنين بما أمر به المرسلين، وهو أن يأكلوا من طيبات ما رزقهم الله تعالى، وأمرهم أن يشكروه على ما أنعم به عليهم.

٨- حرَّم الله على المسلمين أن يأكلوا الميتة، وهي ما فارقته الروح من غير ذكاة مما يذبح، وخصَّ من الميتة الحرام ميتةَ البحر والجراد، وفي الحديث عن عبدالله ابن أبي أوفى قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد معه» [البخاري: ٥٤٩٥، مسلم: ١٩٥٢ واللفظ لمسلم].

٩- يجوز الانتفاع بجلد الشاة الميتة إذا دبغ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مرّ النبي ﷺ بعنز ميتة، فقال: ما على أهلها لو انتفعوا بإهابها» [البخاري: ٥٥٣٢] وفي البخاري ومسلم عن ابن عباس أيضاً قال: «تُصُدِّقَ على مولاة لميمونة بشاة فماتت، فمرّ بها رسول الله ﷺ، فقال: هلاّ أخذتم إهابها، فدبغتموه، فانتفعتم به. فقالوا: إنها ميتة، فقال: إنما حرّم أكلها» [البخاري: ٥٥٣١، مسلم: ٣٦٣]. وإذا كان جلد الميتة يطهر بالدباغ، فشعرها حلال من غير دباغ، لأنه طاهر لو أخذ منها أثناء الحياة.

جنـــــة الســـــنة

١٠- إذا نحرت ناقة أو ذبحت شاة، وكان في بطن إحداهما جنين ميت، جاز أكله من غير تذكية له في نفسه، إلا أن يكون خرج حياً، فيُذكَّى، لأن الجنين يجري مع أمه مجرى العضو من أعضائها، وفي سنن أبي داود عن أبي سعيد، قال: سألت رسول الله ﷺ عن الجنين، فقال: «كلوه إن شئتم» وقال مسدد: قلنا: يا رسول الله، ننحر الناقة، ونذبح البقرة والشاة، فنجد في بطنها الجنين، أنلقيه أم نأكله؟ قال: «كلوه إن شئتم، فإن ذكاتَهُ ذكاةُ أُمِّهِ»، وعن جابر بن عبدالله عن رسول الله ﷺ قال: «ذكاةُ الجنين ذكاة أمه» [أبو داود: ٢٨٢٧، ٢٨٢٨. وأورده الألباني في صحيح أبي داود، ٢٤٥١، ٢٤٥٢].

١١- اتفق العلماء على أنَّ الدم المسفوح حرام نجس لا يؤكل، ولا ينتفع به. [القرطبي: ١/ ٦١٥]، وأما بقايا الدم الذي يكون في اللحم، فلا حرج فيه، ويؤكل اللحم، وليس بنجس.

١٢- الدم المسفوح حرام، وقد أحل لنا دمان، هما الكبد والطحال، وقد سقنا الحديث الذي صرح بذلك فيما سبق من هذا النص.

١٣- نص الله على حرمة أكل لحم الخنزير، وإنما جاء التصريح بحرمة اللحم لأمرين: **الأول**: أن لحمه حرام ذُبح الخنزير أو لم يُذبَح، فهو حرام نجس ولو تمَّ ذبحه، فالذبح لا أثر له في تحليله. **الثاني**: ليدل على تحريم شحمه، فالشحم المخالط للحم داخل في اللحم، أما إذا دخل اللحم في الشحم فلا يجوز تسميته شحماً.

١٤- يجوز استعمال شعر الخنزير في الخرازة به، لأن الخرازة به كانت على عهد رسول الله ﷺ ، وكانت بعده موجودة ظاهرة، لا نعلم أن رسول الله ﷺ أنكرها، ولا أحد من الأئمة بعده. [القرطبي: ١/ ٦١٦].

١٥- لا يجوز أكل ذبائح المجوس وعباد الأصنام والملحدين الذين لا دين لهم، فإنها جميعاً مما أُهلّ لغير الله به.

١٦- المضطر إلى المحرمات، كالذي يجوع جوعاً شديداً ولا طعام عنده، يجوز أن يأكل الميتة ولحم الخنزير وما أهلَّ به لغير الله، والذي غُصَّ بلقمة ولا ماء عنده، ووجد خمراً في المكان الذي هو فيه، يجوز له أن يسيغها بشرب شيء من الخمر.

١٧- الباغي والعادي هو الذي يأكل فوق حاجته، أو يجد عن هذه المحرمات مندوحة ثم يأكل المحرم، وقيل: غير باغٍ ولا عادٍ على المسلمين، فيدخل في الباغي والعادي قطّاع الطريق، والخارجون على السلطان، والمسافرون في قطع الرحم والغارة على المسلمين [القرطبي: ١/ ٦٢٣].

جنـــــة الســــــنة

النص الخامس والثلاثون من سورة البقرة
عظم جريمة الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب

أولاً: تقديم

في آيات هذا النص تهديد شديد لليهود والنصارى الذين كتموا ما أنزل الله من الكتاب يريد به التوراة والإنجيل، فقد بشّر الله فيهما برسوله الخاتم ﷺ، فكتموا تلك البشارات، وحرفوها عن وجهها، ابتغاء عرض الدنيا، وهو ثمن قليل زائل، وقد تهددهم رب العزة بأنهم سيأكلون نار جهنم يوم القيامة، ولن يكلمهم الله في ذلك اليوم احتقاراً لهم، ولن يُطهِّرهم من ذنوبهم، ولهم عذاب أليم موجع.

وقد ذمهم الله تبارك وتعالى، فأخبر أنهم استبدلوا الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة، ثم قال معجباً منهم: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥﴾ [البقرة:١٧٥].

لقد أنزل الله - تبارك وتعالى - الكتاب بالحق، وإن الذي اختلفوا فيه لفي شقاق بعيد.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - ذم الله اليهود بكتمانهم ما أنزل الله:

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [البقرة:١٧٤] يعني: اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ في كتبهم التي بأيديهم، مما تشهد له بالرسالة والنبوة، فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم، وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم إياهم، فخشوا - لعنهم الله - إن أظهروا ذلك أن يتَّبعه الناس ويتركوهم، فكتموا ذلك إبقاءً على ما كان يحصل لهم من ذلك، وهو نزرٌ يسير، فباعوا أنفسهم بذلك، واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن الله بذلك النزر اليسير، فخابوا وخسروا في الدنيا والآخرة.

جنـــــة السـنـــــة

أما في الدنيا فإن الله أظهر لعباده صِدْقَ رسوله، بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات، فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه، وصاروا عوناً له على قتالهم، وباؤوا بغضب على غضب، وذمّهم الله في كتابه في غير موضع، فمن ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ [البقرة:١٧٤] وهو عرض الحياة الدنيا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ [البقرة:١٧٤] أي: إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق ناراً تأجج في بطونهم يوم القيامة. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴿١٠﴾﴾ [النساء:١٠]، وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الذي يأكل أو يشرب في آنية الذهب والفضة، إنما يُجرجر في بطنه نار جهنم» [البخاري: ٥٦٣٤، مسلم: ٢٠٦٥]. [تفسير ابن كثير: ١/ ٢٣٩].

٢- يعاقب الله كاتمي الحق الذي أنزله بإهمالهم وترك تكليمهم في يوم القيامة:

أخبر جلَّ وعلا أن هذا الصنف من البشر من سَقَطِ الناس في يوم القيامة، فالله يهملهم في ذلك اليوم، ولا يكلمهم، ولا يزكيهم، ولهم في ذلك اليوم عذاب أليم ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [البقرة:١٧٤].

ففي يوم القيامة يقول لهم مقرعاً وموبخاً: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون:١٠٨] وإذا كان الله - تبارك وتعالى - لا يكلم هؤلاء الضلال، فإنه يكلم الصالحين الأخيار. والتزكية: التطهير، فالله لا يطهرهم من دنس ذنوبهم وكفرهم، ولهم عذاب أليم، أي: موجع.

٣- كاتمو الحق اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة:

أخبر الله عن هؤلاء بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾ [البقرة:١٧٥] واشتراؤهم الضلالة بالهدى يتحقق بأخذهم الضلالة وتركهم الهدى، وهم بذلك أخذوا ما يوجب لهم العذاب يوم القيامة، وتركوا ما يوجب لهم غفرانه ورضوانه، وقوله: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾ [البقرة:١٧٥] أي: فما أجرؤهم على العمل الذي يدخلهم النار.

٤- تنزيل الله الكتاب بالحق ليحق الحق ويبطل الباطل:

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة: ١٧٦] أي: أن كاتمي الحق الذين تحدث عنهم في الآيات السابقة استحقوا العذاب الشديد، لأن الله - تبارك وتعالى - أنزل الكتاب على رسله لإحقاق الحق وإبطال

جنـــــة السـنـــــة

ـص. وهؤلاء اتخذوا كتاب الله هزواً يظهرون منه ما شاؤوا، ويكتمون منه ما شاؤوا، ومن ذلك كتمان اليهود والنصارى للحقِّ الذي أنزله الله في كتبهم من أمر رسولنا محمد ﷺ وأمر دينه وأمته والحق الذي أنزل معه.

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة: ١٧٦] أراد بالذين اختلفوا في الكتاب اليهود والنصارى الذين اختلفوا في التوراة، فادعى النصارى أن فيها صفة عيسى، وأنكر اليهود أن تكون فيها صفته، ومعنى الشقاق الخلاف الواقع بينهم، وكونه بعيداً، أي: كثير البُعد، فهو خلاف كبير مستحكم.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي:

١- ذمَّ اللهُ كاتمي الحقّ الذي في كتابهم من اليهود والنصارى في شأن محمد ﷺ وأمته.

٢- هذه الآية وإن كانت في اليهود والنصارى، ولكنها عامة في كل من كتم الحق المنزل من عند الله، ويدخل فيها كاتمو الحق المنزل من هذه الأمة الذين يلبسون على الناس دينهم في أمر الخمر والربا والميسر ونحو ذلك.

٣- كلُّ من كتم شيئاً من الحق الذي أنزله الله مهما كان الثمن الذي حصله من ورائه عظيماً، فإنه ثمن قليل في ميزان الله وحكمه، ويمكنك أن تعلم تفاهة هذا الثمن بالنظر إلى العذاب العظيم الذي سيحل بالكاتمين.

٤- كاتمو الحق يطعمهم الله النار في يوم القيامة، يأكلونها بأفواههم، وتستقر في بطونهم والجزاء من جنس العمل.

٥- من عذاب كاتمي الحقّ أن الله لا يكلمهم في يوم القيامة، ولا يطهرهم، ولهم عذاب أليم.

٦- ذمّ الله كاتمي الحق باستبدالهم الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة، ومصير هؤلاء وأمثالهم النار وغضب الجبار.

٧- اختلف اليهود والنصارى في الحق الذي أنزله الله إليهم خلافاً كبيراً، فلا لقاء بينهم، والاختلاف بينهم واسع وعريض.

جنـــــة الســـــنة

النص السادس والثلاثون من سورة البقرة
سعة دائرة البر

أولاً: تقديم

نفى الله – تبارك وتعالى – أن يكون البرُّ، وهو فعل الخير، محصوراً في جوانب شكلية كتولية الوجه جهة المشرق أو المغرب، ثم عدَّد الله – تبارك وتعالى – أعمال البر التي ينبغي على العباد التنافس في تحصيلها، ودوائر أعمال الخير التي عرضتها الآية ثلاث، **الأولى: أصول الإيمان. والثانية: الأعمال الظاهرة سواء أكانت بدنية أو مالية. والثالثة: الأخلاق الكريمة.**

وهذه الآية فيها ردٌّ على اليهود الذين كان حوارهم شكلياً في موضوع القبلة في الصلاة، فلو عقلوا لأدركوا أن الجهات كلها لله رب العالمين، فلا فضل لإحداها على الأخرى، وتصبح للجهة قيمة عندما يأمر الله بالتوجه نحوها دون غيرها.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- البر ليس قصراً على تولية الوجه قِبَل المشرق والمغرب:

قرَّر الله – سبحانه وتعالى – أن البر ليس قصراً على تولية الوجه في الصلاة إلى جهة المشرق أو جهة المغرب ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة:١٧٧].

والبر – كما يقول القرطبي – : «اسم جامع للخير» [القرطبي: ١/ ٦٢٩] وقال البغوي: «البر كل عمل خير يفضي بصاحبه إلى الجنة» [البغوي: ٢/ ١٨٥].

وهذه الآية متصلة بآيات تحويل القبلة، فعندما أمر الله المؤمنين بالتوجه إلى المسجد الحرام أينما كانوا، وحيثما حلُّوا، أثار اليهود عاصفة من الشبهات، وقد ردّ الله على اليهود مقالتهم، وسفّه رأيهم، وقرر هنا أن تولية الوجه قِبَل المشرق كما تفعل النصارى في صلاتها أو جهة الأقصى كما تفعل اليهود ليس هو البر، فالبر هو ما أمر الله بفعله من الأعمال الخيِّرة، فإذا

جنـــــة السـنـــــة

انبتر العمل عن الله، فإنه يصبح مجرد تقولات ليس لها في مجال الخير نصيب، وبعد أن أمر الله بالتوجه في الصلاة إلى المسجد الحرام دون سواه، تصبح مجادلة اليهود والنصارى في توجههم خارجة عن دائرة البر، وداخلة في دائرة الهوى البعيد عن الحق.

٢- مجالات الخير التي يشملها البر:

بيّن الحق - تبارك وتعالى - الدوائر التي يشملها البر، وهي ثلاث دوائر كبار: **الأولى: أصول الإيمان الخمس** التي لا قوام للإيمان إلا بها، وهي: الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين.

والثانية: الشرائع الظاهرة، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وإعطاء النفقات الواجبة، وقد ذكر الله مجالاتها، وهي إيتاء المال الطيب الذي يحبُّه منفقه لنفاسته، لذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب.

والثالثة: الأعمال القلبية كالوفاء بالعهد، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، وهذه الدوائر الثلاث المعنون لها باسم البر تناولت الدين كله، تناولت الإيمان الذي استقرّ في القلب، كما تناولت الأعمال الظاهرة، والأعمال القولية، والأخلاق الفاضلة.

قال ابن كثير: «قال الثوري: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ...﴾ [البقرة:١٧٧] قال: هذه أنواع البر كلها، وصدق رحمه الله، فإن من اتصف بهذه الآية، فقد دخل في عرى الإسلام كلِّها، وأخذ بمجامع الخير كله» [ابن كثير: ١/ ٢٤٠].

مجالات البر: البر كثيرة، منها:

أ- **الإيمان**: أعظم مجالات البر هو الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة:١٧٧] وقد ذكر الله تعالى في هذا الجزء من الآية أصول الإيمان الخمسة التي لا يتم الإيمان إلا بها.

ب- **إيتاء المال على حبه ذوي القربى**: أعلمنا ربنا - تبارك وتعالى - أنّ من أعمال البر العظيمة إيتاء المال على حبه ذوي القربى، ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة:١٧٧]. والمراد أن يعطي المال النفيس، ولا يقصد المال الحقير فينفق منه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٢٦٧].

ويكون الإنسان منفقاً للمال، وهو يحبُّه أيضاً إذا أنفقه في حال صحته، ففي الصحيحين عن أبي هريرة، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أيُّ الصدقة أعظم أجراً؟

جنـــــة الســـــنة

قال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان» [البخاري: ١٤١٩، مسلم: ١٠٣٢].

وذوو القربى الأقارب من النسب كالآباء والأبناء والأعمام وأبنائهم، وهم أحق الناس بمال المنفق، فعن سلمان بن عامر عن النبي ﷺ قال: «إن الصدقة على المسكين صدقه، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة» [النسائي: ٢٥٨٢]. وقد قال الرسول ﷺ لزينب امرأة عبدالله ابن مسعود وامرأة أخرى أنصارية جاءَتا تسألانه عن الصدقة على الزوج وعلى بني أخ أيتام، قال ﷺ لهما: «نعم لهما أجران، أجر القرابة، وأجر الصدقة» [البخاري: ١٤٦٦، النسائي: ٢٥٨٣].

ج- الإنفاق على اليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب: من أعمال البر العظيمة إيتاء المال لليتامى، واليتامى جمع يتيم، وهو من مات والده، وهو صغير، ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينَ﴾ الذين لا يأتيهم من المال ما يكفيهم هم ومن يعولونهم، مع بذلهم قصارى جهدهم في العمل، ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافر الذي ضاعت نفقته أو نفدت، سمي بابن **السبيل**، لملازمته للسبيل، والسبيل: الطريق، ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ المحتاجون الذين يطلبون منك العون على حاجتهم، ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ هم العبيد الأرقاء يشترون، ثم يعتقون، ويدخل فيهم من طالبك بإعطائه المال لتحرير رقبته من سيده، ويسمى بالمكاتب، كما يدخل فيهم بذل المال لتحرير الأسرى.

د- إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:١٧٧] وإقام الصلاة يتحقق بالإتيان بها بشروطها وأركانها والمداومة عليها في أوقاتها، وإيتاء الزكاة يكون ببذلها إلى من يستحقها في الوقت الذي شرعه الله لها.

هـ- الوفاء بالعهد: وقوله: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾ [البقرة:١٧٧] قال البغوي في هؤلاء: «إذا وعدوا أنجزوا، وإذا حلفوا ونذروا أوفوا، وإذا عاهدوا أوفوا، وإذا قالوا صدقوا، وإذا اؤتمنوا أدّوا» [البغوي: ١/ ١٨٨] وعكس هذه الصفة ما أخبر به الرسول ﷺ في صفة أهل النفاق: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» [البخاري: ٣٣، مسلم: ٥٩] وجاء في الحديث الآخر: «أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» [البخاري: ٣٤، مسلم: ٥٨].

و- الصبر في مجالاته كلها: ومدح الله الصابرين وأثنى عليهم بقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ [البقرة:١٧٧] والبأساء: الفقر، والضراء: الأمراض والأسقام، وحين البأس، أي: في الحرب والقتال.

جنـــــة الســـــــنة

ز- **الملتزمون بما ذكره الله من أعمال البر هم الصادقون المتقون:** قال الله تعالى في ختام الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ [البقرة:١٧٧] أي: هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات المذكورة في هذه الآية الكريمة، هم الصادقون، وهم المتقون، وأنْعِم بهذه الشهادة التي شهد لهم بها ربُّ السموات والأرض ربُّ العالمين.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل:

عندما نتدبر آيات هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من عمل وعمل:

١- ذكرت هذه الآية مجالات الخير العِظام التي أثنى الله - سبحانه - على من اتصف بها، وحكم عليهم بالصدق والتقوى، وهذه المجالات ثلاثة، هي: الإيمان، والأعمال الظاهرة، والأعمال القلبية.

٢- الأعمال التي يجادل فيها العباد بأهوائهم كالتوجه إلى جهة المشرق في الصلاة، وهذا فعل النصارى، أو جهة الأقصى، وهذا توجه اليهود، ليست داخلة في مسمى البر، لأنها غير داخلة فيما أذن الله به وشرعه.

٣- أصول الإيمان التي شرعها الله لعباده خمسة: الإيمان بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين.

٤- في المال حق سوى الزكاة، دلّ عليه تعداد الله تبارك وتعالى للمجالات التي يكون فيها الإنفاق، وهي: اليتامى، والمساكين، وابن السبيل، والسائلون، وفي الرقاب، ثم ذكر بعد ذلك الزكاة في الآية نفسها، فلو كانت المجالات السابقة داخلة في الزكاة، فإنه لا يذكرها بعد ذلك.

٥- استحباب إنفاق المال في المجالات التي عدَّدها ربُّ العزة في هذه الآية الكريمة في حال كون المنفق سليماً صحيحاً، والنفقة في هذه الحال أفضل من التوصية بالمال بعد الموت.

٦- من صفات المؤمنين الصادقين المتقين الوفاء بالعهد، ومن صفات المنافقين إخلاف الوعد.

٧- الثناء على الصابرين الذين يحققون الصبر في البأساء والضراء وحين البأس.

٨- الفئة الأخيرة التي تتصف بالصدق والتقوى بشهادة الله العليم الخبير، هي التي تتصف بالصفات الفاضلة التي أخبرت بها الآية الكريمة.

جنـــــة السـنـــــة

٩- إقامة الصفات التي ذكرها الله - تبارك وتعالى - في الآية الكريمة تقيم الفرد وتصلحه، كما تقيم المجتمع المسلم على منهج سواء، تقيمه على العقيدة السليمة الصحيحة، والأعمال الخيرة الطيبة، وبذل المال الذي يسدّ ما فيه من ثغرات.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني السابع والثلاثون من سورة البقرة
القصاص في القتلى

أولاً: تقديم

أعلم الله عباده المؤمنين في آيات هذا النصِّ أنه أوجب عليهم أمرين:

الأول: القصاص في القتلى، بأن يقتص لكلِّ قتيل من قاتله، وبذلك قضى على الفوضى التي كانت تضرب بأطنابها في العصر الجاهلي، فقد كان أهل العزة والمنعة يتجاوزون القاتل، فيفتكون بقومه وعشيرته، وكان بعضهم لا يرضى إلا إذا قتل بالعبد حرّاً، وبالحر أحراراً، وبالمرأة رجلاً.

والثاني: إيجاب الوصية على من ترك مالاً، يوصي به للوالدين والأقربين، ثم نسخ الله هذا الحكم بآيات الميراث في سورة النساء، وحجَّم الوصية بما لا يزيد على الثلث، وجعلها في غير الأقارب.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أوجب الله على هذه الأمة أن يقتص للقتيل من قاتله:

نادى الله عباده المؤمنين في مطلع هذا النص مخبراً إياهم أنه كتب عليهم القصاص في القتلى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾ [البقرة:١٧٨] وأصل الكتابة الخط الذي يقرأ به، والمراد به هنا الفرض واللزوم، كما قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ ﴾ [البقرة:٢١٦].

ومنه قول عمر بن أبي ربيعة [فتح القدير: ١/ ٣٢١]:

كُتِبَ القتل والقتال علينا ... وعلى الغانيات جرُّ الذيولِ

جنـــــــة الســـــــنة

والمعنى المراد: فرض عليكم القصاص في القتلى، أي: أن يفعل بالقاتل مثل ما فعل القاتل بالقتيل.

وهذا النص جاء ليعالج الفوضى في تشريع القصاص في الجاهلية، فقد كان بعض من قتل له قتيل من أهل العزة والغلبة يقتل بالعبد منهم الحرَّ من غيرهم، وإذا قتلت منهم امرأة لم يقبل إلا بقتل الرجل من غيرهم، فإذا قتل منهم الرئيس والزعيم لم يرضهم إلا أن يستأصلوا غيرهم، كما فعل المهلهل عندما قُتل أخوه كليب وائل، وكان سيد قومه، فقاتل قاتليه دهراً طويلاً حتى كاد أن يفنيهم.

٢- وجوب العدل في القصاص:

وقوله: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ [البقرة:١٧٨] قال ابن كثير: «يقول تعالى: كتب عليكم العدل في القصاص أيها المؤمنون، حرّكم بحرِّكم، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوزوا وتعتدوا كما اعتدى من قبلكم، وغيروا حكم الله فيهم، وسبب ذلك قريظة وبنو النضير، كانت بنو النضير قد غزت قريظة في الجاهلية وقهروهم، فكان إذا قتل النضريُّ القرظيَّ لا يقتل به، بل يفادي بمائة وسق من التمر، وإذا قتل القرظيُّ النضريَّ قُتل به، وإن فادوه فدوه بمائتي وسق من التمر ضعف دية قريظة، فأمر الله بالعدل في القصاص» [ابن كثير: ١/ ٢٤٢].

٣- يستحب لولي القتيل عمداً أن يعفو عن القاتل إلى الدية أو يعفو من غير دية:

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [البقرة:١٧٨] المعنى: أنَّ ولي القتيل إن عفا عن القصاص وقَبِل الدية، وهذا في القتل العمد، فعلى هذا الولي أن يطالب بالدِّية بالمعروف، أي: في المقدار والزمان، فلا يشتط في المطالبة بدية غير متعارف على مقدارها، ولا يطلبها كلَّها في الحال، وإنما يكون ذلك بالمعروف، أي: الذي جرى عليه الأمر فيما بين المسلمين، وعلى القاتل أن يحسن في أداء الدية، فلا يماطل ولا يؤخر في دفعها، ولا يبخس الثمن المقدَّر لها. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٧٨] أي: تخفيف من الله.

٤- أوجب الله القصاص في شريعة التوراة ولم يشرع الدية:

أوجب الله على اليهود القصاص ولم يكن عليهم دية، وأوجب على النصارى الدية، ولم يكن عندهم قصاص، وأجاز الله في شرعنا لولي القتيل القصاص، وليس للحاكم منعه منه، وشرع للولي أن يعفو عن القصاص إلى الدية، وشرع له أن يعفو من غير دية.

جنـــــة السـنـــــة

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان في بني إسرائيل القصاص، ولم تكن فيهم الدية، فقال الله تعالى لهذه الأمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة:١٧٨] فالعفو أن يقبل الدية في العمد ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة:١٧٨] ويتبع بالمعروف ويؤدي بإحسان ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٧٨] مما كتب على من كان قبلكم، ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨)﴾ [البقرة:١٧٨] أي: قَتَلَ بعد قبول الدية» [البخاري: ٤٤٩٨ وانظره في: ٦٨٨١].

وهذا الذي ذكره ابن عباس منصوص عليه في سورة المائدة، قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ الآية [المائدة:٤٣] ثم قال في الآية التالية: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ...﴾ الآية [المائدة:٤٤] وقال بعد ذلك: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ...﴾ الآية [المائدة:٤٥].

وهذا الحكم لا يزال على حاله موجوداً في التوراة كما هو إلى يومنا هذا، ففي [سفر العدد، الإصحاح الخامس والثلاثون: ١٦-٢١] «إن ضربه بأداة حديد فمات فهو قاتل، إن القاتل يقتل، وإن ضربه بحجر يَدٍ مما يقتل به فمات فهو قاتل، إن القاتل يقتل، أو ضربه بأداة يد من خشب مما يقتل به فهو قاتل، إن القاتل يقتل، وَلِيُّ الدم يقتل القاتل، حين يصادفه يقتله، وإن دفعه ببُغضة أو ألقى عليه شيئاً بتعمد فمات، أو ضربه بيده بعداوة فمات، فإنه يقتل الضارب، لأنه قاتل، ولي الدم يقتل القاتل حين يصادفه».

وجاء في [سفر الخروج، الإصحاح الحادي والعشرون: ١٤] «وإذا بغى إنسان على صاحبه ليقتله بغدر، فمن عند مذبحي تأخذه للموت» فالمذبح لا يعيذ القاتل إن احتمى به.

٥- إذا عفا ولي الدم عن القاتل ثم قتله بعد ذلك:

قال تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨)﴾ [البقرة:١٧٨].

والمراد بالاعتداء بعد ذلك، أي: قتل الولي القاتل بعد عفوه عنه، وأخذ الدية منه، والعذاب الأليم عذاب الآخرة الذي سيوقعه الله به، أو هو عذاب الدنيا الذي يتحقق بقتله، والله أعلم بالصواب.

٦- للأمة في القصاص حياة عظيمة:

قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)﴾ [البقرة:١٧٩].

قال الشيخ عبدالقادر بدران: «في هذه الآية حكمة بالغة في التعبير يقصر دونها الوصف،

جنـــــة الســــــنة

فسبحان من هذا كلامه، قال في (الكشاف): كلام فصيح لما فيه من الغرابة، وهو أن القصاص قتل وتفويتٌ للحياة، وقد جعل مكاناً وظرفاً للحياة، ومن إصابة مَحَزِّ البلاغة بتعريف القصاص، وتنكير الحياة، لأن المعنى: ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة، وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة، وكم قتل مهلهل بأخيه كليب، حتى كاد يفني بكر ابن وائل، وكان يُقتلُ بالمقتول غير قاتله، فتثور الفتنة، ويقع بينهم التناحر.

فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة أي حياة، أو نوع من الحياة، وهي الحياة الحاصلة بالارتداع من القتل، لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل، لأنه إذا همَّ بالقتل، فعلم أنه يقتص منه فارتدع، سلم صاحبه من القتل، وسلم هو من القود، فكان القصاص سبباً لحياة نفسين» [جواهر الأفكار: ١/ ٤٧٨].

وقال الزجاج: «معنى الحياة في القصاص - إذا عَلِمَ أنه يُقتلُ إن قَتَل - أمسك عن القتل، ففي إمساكه عن القتل، حياة الذي هَمَّ هو بقتله، وحياة له، لأنه من أجل القصاص أمسك عن القتل فسلم أن يُقتَل» [معاني القرآن: ١/ ٢٤٩].

وقوله: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة:١٧٩] أي: يا أصحاب العقول والبصائر، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ [البقرة:١٧٩] أي: لعلكم تنزجرون، وتَدعونَ محارمَ الله، والتقوى: اسم جامع لفعل الخيرات، وترك المنكرات.

٧- وجوب الوصية للوالدين والأقربين عندما يحضر الموت:

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٨٠﴾ [البقرة:١٨٠]. أوجب الله في هذه الآية على من حضره الموت إن ترك مالاً أن يوصي لوالديه وأقاربه بعد موته، وقد نسخ الله هذا الحكم بعد ذلك بما أنزله في قوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ٧﴾ [النساء:٧] وبعد نزول آيات الفرائض في سورة النساء صارت المواريث المقدَّرةُ فريضة من الله يأخذها أهلوها حتماً من غير وصية، وقد روى الترمذي عن عمرو بن خارجة: أن النبي ﷺ خطب على ناقته، وأنا تحت جرانها، وهي تَقْصَعُ بجُرَّتها، وإن لعابها يسيل بين كتفي، فسمعته يقول: «إن الله قد أعطى كل ذي حقٍّ حقه، ولا وصية لوارث» [الترمذي: ٢١٢١. وقال فيه: هذا حديث حسن صحيح][1].

---

(١) وقال الشيخ أحمد شاكر في حكمه على هذا الحديث: صحيح بالأسانيد التي أشرنا إليها آنفاً، لا شك في صحته، وإن تكلم بعض أهل العلم في أسانيده، فإن بعض هذه الأسانيد يشدُّ بعضها بعضاً، لا يشك في ذلك من شدا شيئاً من العلم بالعلم والأسانيد، والإمام الشافعي لم يصل إليه بإسناد صحيح متصل.

جنـــة الســـــنة

وهذا الحديث ليس بالناسخ لآية الوصية هذه، ولكنه دلّ على الناسخ، فقول الرسول ﷺ فيه: «إن الله قد أعطى كل ذي حقٍّ حقه» أي: في آيات المواريث في سورة النساء.

٨- إذا بدَّل السامع الوصية بعد سماعه إياها فالإثم على المبدل دون الموصي:

قوله تعالى: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١﴾ [البقرة:١٨١] أي: فمن بدّل الوصية وحرفها وغيّرها بعدما سمعها فالإثم واقع على ذلك المغيِّر المبدِّل، والموصي بريء من ذلك التغيير، وختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١﴾ [البقرة:١٨١] فيه ترهيب وتخويف للذين يغيِّرون ويبدِّلون الوصايا بإخبارهم بأن الله سميع لما كتموه، عليهم بما غيروه، وسيجزيهم على فعلتهم النكراء في اليوم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين.

٩- لا حرج على من حضر الوصية أن يسدد الموصي إذا وقع منه خطأ أو انحراف في الوصية:

وقوله: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨٢﴾ [البقرة:١٨٢]، الجنف: الميل في الأمور، وأصله عدم الاستواء، والفرق بين الجَنَفِ والإثم أن الجَنَفَ هو الخطأ الذي لا يعلم الموصي بأنه خطأ، والإثم تعمده الخطأ وهو يعلمه، والظاهر أن المصلح المذكور في الآية هو الموصَى إليه، ويدخل فيه الشاهد على الوصية، فإذا رأى من حضر وصية الموصي، ورأى فيها ميلاً وانحرافاً عن سواء السبيل، فلا بأس عليه أن يسدد الموصي ويأمره بالصواب.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

عندما نتدبر آيات هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أوجب الله على هذه الأمة أن يُقتصَّ لكل قتيل من قاتله إذا تعمد قتله، فيُقتَل الحرُّ بالحرِّ، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى، وبذلك أبطل الحق - تبارك وتعالى - ما كان عليه بعض أهل الجاهلية، مِنْ قتل من كانت فيهم عزةٌ وَمَنَعَةٌ بعبدهم حراً، وبالحر أحراراً، وبالأنثى رجلاً.

٢- الذي يقيم القصاص ولي أمر المسلمين، فالله خاطب المؤمنين جميعاً بإقامة القصاص في القتلى، ولا يمكن أن يجتمع المسلمون جميعاً على فعل ذلك، فأقاموا السلطان مقام أنفسهم في إقامة القصاص والحدود.

جنـــــة الســـــــنة

٣- بيَّنت الآية حكم النوع إذا قتل نوعه، فأوجبت قتل الحر إذا قتل حراً، والعبد إذا قتل عبداً، والأنثى إذا قتلت أنثى، فإذا قتل العبد حراً فإنه يقتل به، وإذا قتلت المرأة حراً قتلت به، وهذا متفق عليه بين أهل العلم.

٤- اختلف أهل العلم في الحر إذا قتل عبداً هل يُقتل به، والمسلم إذا قتل ذمياً هل يُقتل به، وجمهور أهل العلم على أن المسلم لا يُقتل بالكافر، لقوله ﷺ : «لا يقتل مسلم بكافر» [البخاري: ١١١] ولا يصح حديث يخالف هذا الحديث.

ولا يقتل الحرُّ بالعبد عند جمهور أهل العلم، لأنه سلعة يشترى ويباع، ولو قتله خطأ لم تجب فيه دية، وإنما تجب فيه قيمته، ولأنه لا يقاد بطرفه، ففي النفس بطريق الأولى.

٥- جمهور أهل العلم على أن الرجل يقتص منه إذا قتل امرأة، لقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة:٤٥] ولقوله ﷺ في الحديث الذي يرويه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال:

قال رسول الله ﷺ : «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم» [أبو داود: ٢٧٥١. وأورده الألباني في صحيح أبي داود: ٢٣٩٠ وقال فيه: حسن صحيح].

٦- المسلم القاتل لا يخرج من دائرة الإيمان بقتله مؤمناً، ففي الآية الكريمة ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ [البقرة:١٧٨] فالآية صريحة في أن القاتل أخ لولي الدم، وفي هذا ومثله يقال: هو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته.

٧- القصاص حق لولي الدم في قتل العمد، فله أن يقتص ممن قتل قريبه، وله أن يعفو عن القصاص إلى الدية، وله أن يعفو مطلقاً، ولم يكن عند اليهود إلا القصاص أو العفو، وعند النصارى الدية.

٨- في حال عفو الولي عن القصاص إلى الدية عليه أن لا يشتط في رفع الدية ولا يغالي في المطالبة، وعلى القاتل أن لا يسوِّف في أدائها.

٩- إذا عفا ولي الدم عن القصاص إلى الدية، ثم قتل القاتل بعد ذلك، فذهب بعض أهل العلم إلى قتله، وذهب آخرون إلى أن عقوبته عقوبة أخروية، والله أعلم بالصواب.

١٠- إذا قتلت جماعة واحداً، قتلوا به جميعاً إذا لم يعف ولي القتيل عنهم، وعقد البخاري في صحيحه باباً عنون له بقوله: «باب إذا أصاب قوم من رجل، هل يعاقب أو يقتص منهم كلهم» وأورد تحته حديثاً قال فيه: «وقال ابن بشَّار: حدثنا يحيى عن عبيدالله، عن

جنـــــة الســــــنة

نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن غلاماً قُتِلَ غِيلةً، فقال عمر: «لو اشترك فيها أهل صنعاء لقتلتهم». وقال مغيرة بن حكيم، عن أبيه: إن أربعة قتلوا صبياً، فقال عمر مِثْله» [البخاري: ٦٨٩٦].

١١- أخبر الحقُّ - تبارك وتعالى - أن في القصاص حياة، وعندما كانت الأمة الإسلامية تقوم بالقصاص، كان الأمن يحلُّ في ربوعها، والبلاد التي تركت القصاص عربدت الجريمة في مدنها وقراها، لقد كان الذين يشاهدون تنفيذ حكم القصاص تتزلزل قلوبهم، وترجف نفوسهم، وكان من يريد قتلاً يكف ويرتدع عن الجريمة التي يريد الإقدام عليها، وبذلك يحيي نفسه، ويحيي من يريد قتله، وإيجاب قتل القاتل دون غيره إحياء للذين كانوا يقتلون من الأقارب والعشيرة.

١٢- أوجب الله على من حضره الموت أن يوصي لأبويه وأقاربه من بعده إذا كان لديه مال، ثم نسخ الله ذلك بآيات المواريث، وأصبحت الوصية غير جائزة للوارث، لقوله ﷺ: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، ولا وصية لوارث» [الترمذي: ٢١٢١، وقال: حسن صحيح].

وكان يجب على كل من لديه مال أن يكتب وصيته، فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ما حقُّ امرئ مسلم، له شيء يوصي فيه، يبيت ليلتين، إلا ووصيته مكتوبة عنده» [البخاري: ٢٧٣٨، ومسلم: ١٦٢٧].

وبعد فرض المواريث بقيت الوصية مشروعة بما لا يزيد على الثلث، وقد قال الرسول ﷺ لسعد بن أبي وقاص لما كان مريضاً بمكة وكان استأذنه أن يوصي بما له كله: «الثلث، والثلث كثير، إنك أن تدع ورثتك أغنياء، خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس في أيديهم» [البخاري: ٢٧٤٢، مسلم: ١٦٢٨].

١٣- كان لا يجوز لمن تحمل الوصية أن يغيِّر ويبدِّل فيها، فإن رأى الموصي قد انحرف في وصيته فلا حرج عليه أن يسدده ويصوبه.

جنـــــة السـنة

النص الثامن والثلاثون من سورة البقرة
الأحكام المتعلقة بالصيام في رمضان

أولاً: تقديم

بيّن الله - تبارك وتعالى - في آيات هذا النص والنص الذي يليه أحكام إحدى الفرائض العِظام، وهي فريضة الصيام، وهذه الفريضة فريضة عظيمة جليلة، لها أثر كبير في إصلاح النفوس وتطهيرها وتزكيتها، وستبقى هذه الآيات منارة تهدي الصالحين إلى أحكام الصيام على مرّ الزمان.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾
أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾
شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾
وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- فرض الله الصيام على هذه الأمة:

نادى الله عباده المؤمنين مخبراً إياهم بأنه فرض عليهم الصيام فرضاً مماثلاً لصيام الذين من قبلهم، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة:١٨٣].

والصيام في لغة العرب: الإمساك، وترك التنقل من حال إلى حال، ومنه الصيام عن الكلام ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا ﴾ [مريم:٢٦] أي: صوماً عن الكلام، ومنه قول النابغة:

خَيْـــلٌ صـــيام وخَيْـــلٌ غـــير صـــائمةٍ تَحْـتَ العَجـاج وخَيْـلٌ تَعْلِـكُ اللُّجـما

جنـــــة السـنـــــة

فالخيل الصيام الثابتة التي لا تتحرك، والخيل غير الصائمة هي الخيل التي تجول في ميدان القتال.

والصيام في الشرع: الإمساك عن الطعام والشراب والنكاح بنية خالصة لله من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

وقد أخبرنا الله عزَّ وجلَّ أن صيامنا الذي كتبه علينا مماثل للصوم الذي كتبه على الذين من قبلنا، وكان الصوم في أول الإسلام فيه امتناع عن الطعام والشراب والوقاع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، فإذا غربت الشمس حلّ للصائم ما حرم عليه إلى طلوع الفجر، ما لم ينم، فإذا نام قبل الفجر حرم عليه الطعام والشراب والوقاع إلى غروب الشمس من اليوم التالي، فهكذا كان صوم من قبلنا، ثم نسخ ذلك كما سيأتي بيانه.

٢- الحكمة من وراء الصيام:

وقد أخبرنا ربنا أنه كتب **الصيام** على من قبلنا حتى يسهل علينا الصيام، ولنتأسى بالصالحين الذين شرع لهم الصيام، قال الحسن البصري: «نعم والله، لقد كتب الله الصيام على كل أمة قد خلت، كما كتبه علينا شهراً كاملاً وأياماً معدودات، عدداً معلوماً. ورُوي عن السدي نحوه» [ابن كثير: ١/ ٢٤٧].

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة:١٨٣] فيه بيان لحكمة **الصيام**، فالمراد من شرع الصيام تحقيق التقوى في القلوب، وهذه الغاية هي الغاية من كل عبادة فرضها الله علينا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة:٢١] والتقوى مخافة الله المستقرة في القلب التي تدفع إلى العمل بطاعة الله واجتناب معصيته.

٣- مدة الصيام وحكم صيام المريض والمسافر:

بيّن الله تبارك وتعالى مقدار الصوم، وأنه ليس واجباً إلا مدة محدودة في أيام معدودات، فإنه لو كان واجباً مدة طويلة لشقّ على النفوس، وضعفت عن حمله، ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤] أي: الصيام الواجب عليكم هو في أيام معدودات، ومع كونه أياماً معدودات، فإن المريض والمسافر يباح لهما الفطر في السفر والمرض، لما في الصوم من المشقة على من كان في مثل حالهما، وفي الآية محذوف تقديره: فأفطر فعليه عدة من أيام أخر.

جنـــــة الســــــنة

٤- كان يجوز في أول فرض الصيام للمقيم الصحيح أن يفطر ويطعم عن كل يوم مسكيناً:

كان يجوز للمقيم الصحيح أن يصوم، ويجوز له أن يفطر، ويطعم مكان كل يوم مسكيناً، فمن تطوع بإطعام أكثر من مسكين فهو خير له، وبيّن الله سبحانه أن الصوم خير من الإطعام ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ [البقرة:١٨٤].

ومعنى ﴿يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي: يقدرون على صيامه، والفدية تكون بإطعام المسكين.

٥- شرع الصيام على ثلاثة أحوال:

أخبرنا صحابة رسولنا ﷺ أن الصيام أحيل ثلاثة أحوال، ففي السنن لأبي داود، عن عمرو بن مرزوق: «قال: حدثنا أصحابنا أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة أمرهم بصيام ثلاثة أيام، ثم أنزل رمضان، وكانوا قوماً لم يتعودوا الصيام، وكان الصوم عليهم شديداً، فكان من لم يصم أطعم مسكيناً، فنزلت هذه الآية ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة:١٨٥] فكانت الرخصة للمريض والمسافر فأمروا بالصيام.

قال: وحدثنا أصحابنا قالوا: وكان الرجل إذا أفطر فنام قبل أن يأكل، لم يأكل حتى يصبح، قال: فجاء عمر بن الخطاب، فأراد امرأته، فقالت: إني قد نمت، فظنّ أنها تعتلّ، فأتاها، فجاء رجل من الأنصار فأراد الطعام، فقالوا: حتى نُسخِّنَ لك شيئاً، فنام، فلما أصبحوا أنزلت عليه هذه الآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧]»

[سنن أبي داود: ٥٠٦. وأورده الألباني في صحيح أبي داود: ٤٧٨].

وصام الرسول ﷺ عاشوراء، وأمر بصيامه قبل فرض رمضان، روى البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عمر قال: «صام النبي ﷺ عاشوراء وأمر بصيامه، فلما فرض رمضان ترك، وكان عبدالله لا يصومه إلا أن يوافق صومه» [البخاري: ١٨٩٢، مسلم: ١١٢٦].

وعن عائشة: أن قريشاً كانت تصوم عاشوراء في الجاهلية، ثم أمر رسول الله ﷺ بصيامه حتى فرض رمضان، وقال رسول ﷺ: «من شاء فليصمه، ومن شاء أفطر» [البخاري: ١٨٩٣، مسلم: ١١٢٥].

٦- فضل شهر رمضان:

ثم مدح الله شهر رمضان، وأثنى عليه من بين الشهور مخبراً أنه الشهر الذي أنزل فيه القرآن ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة:١٨٥].

جنـــــة الســـــنة

أعلمنا الله في هذه الآية أن القرآن العظيم أُنزل في شهر رمضان هدىً للناس، ﴿وَبَيِّنَٰتٍ﴾ أي: دلائل وحجج بينة واضحة جليلة لمن فهمها وتدبرها دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافي للضلال، والرشد المنافي للغي، ومفرقاً بين الحق والباطل والحلال والحرام.

وقد صحّ عن الرسول ﷺ أن شهر رمضان خصَّ بإنزال الكتب السماوية كلِّها فيه، ففي مسند الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان» [مسند أحمد: ١٦٩٨٤، ابن كثير: ١/ ٢٤٩ وضعفه محقق المسند].

وقد نسخ الله تعالى بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة:١٨٥] ما كان أباحه لمطيق الصيام المقيم أن يفطر ويطعم عن كل يوم مسكيناً، وبذلك أصبح الصوم واجباً حتماً على المقيم الصحيح، وأباح للمريض والمسافر الفطر على أن يصوما عدة ما أفطراه بعد رمضان ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٥] وإنما كرَّر سبحانه النص على هذا الحكم خشية أن يظن السامع أن إباحة الفطر للمريض والمسافر منسوخ أيضاً.

٧- أباح الله الفطر للمريض والمسافر لأنه يريد بنا اليسر:

وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥] أي: أنه - سبحانه وتعالى - رخَّص لنا في الفطر في حال المرض والسفر مع تحتمه في حقِّ المقيم الصحيح تيسيراً علينا ورحمةً بنا.

وقد أصبح اليسر مَعْلَماً من معالم هذا الدين، وصفة التزمها الرسول ﷺ في حياته، ومن اليسر أنه خفَّف علينا الواجبات عند وجود الحرج، فأباح الفطر للمريض والمسافر، وشرع لنا التيمم إذا لم نجد ماءً، وأباح لنا أكل الميتة في حال الاضطرار، وأباح لنا الطيبات كلها، وحرم علينا الخبائث كلها، وكانت حياة الرسول ﷺ يسراً كلها ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ⑧﴾ [الأعلى:٨].

وكان الرسول ﷺ يرقب أصحابه، فإذا رأى منهم عسراً ردّهم إلى التيسير، وفي الصحيحين أن الرسول ﷺ قال لأصحابه: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا» [البخاري: ٦٩، مسلم: ١٧٣٤].

٨- يجب على المريض والمسافر قضاء عدة ما أفطراه:

وإنما أمر الله المفطر بسبب المرض أو السفر بقضاء عدة ما أفطره، ليكمل عدة الأيام التي فرضها الله عليه ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ [البقرة:١٨٥] أي: عدة ما أوجبه علينا في رمضان،

جنـــــة الســـــــنة

وقد شرع لنا ربنا - سبحانه - بعد أن نتم شهر الصيام أن نكبره على ما هدانا، ويكون التكبير في عيد الفطر من صلاة الفجر يوم العيد إلى أن يبدأ الإمام صلاة العيد ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة:١٨٥].

وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة:١٨٥] أي: رجاء شكركم لله ربكم على هدايته لكم، ونعمه التي حباكم إياها.

٩- فضل الدعاء في صيام رمضان:

أنزل الله قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة:١٨٦] في أثناء آيات الصيام، ليحثَّ الصائمين على دعاء ربهم في صيامهم، فالصائم الملتزم بآداب الصيام الشرعية قريب من الله تعالى، وكلما كان العبد قريباً من الله عزَّ وجلَّ كان دعاؤه مقبولاً أكثر.

وهذه الآية تدلُّ على أن بعض الصحابة سألوا عن الله تعالى، فقالوا: أبعيد ربنا فنناديه، أم قريب فنناجيه؟ فجاء الجواب من رب العزة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ﴾ [البقرة:١٨٦] وما دام الله قريباً منا، فإنه يسمع دعاء الداعي، ويجيب ذلك الدعاء، وطلب الله من عباده أن يدعوه ويسألوه، ويؤمنوا به، لعلهم يرشدون، أي: ليكونوا من الراشدين.

وفي صحيح البخاري عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فكنا إذا أشرفنا على وادٍ هلّلنا وكبرنا، وارتفعت أصواتنا، فقال النبي ﷺ: «يا أيها الناس، أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، إنه معكم سميع قريب، تبارك اسمه، وتعالى جدّه» [البخاري: ٢٩٩٢، مسلم: ٢٧٠٤].

وقوله: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة:١٨٦] يدلُّ على أنَّ الله يجيب دعوة العبد، ولا بدَّ، ولكن تختلف صور الإجابة، كما في الحديث الصحيح الذي يرويه الإمام أحمد: عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعةُ رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يُعجِّلَ له دعوته، وإما أن يَدَّخِرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها» قالوا: إذاً نكثر، قال: «الله أكثر» [مسند أحمد: ١١١٣٣].

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزال يستجاب للعبد، ما لم يدع بإثم، أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل، قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: يقول: قد دعوتُ، وقد دعوتُ، فلم أرَ يستجيبُ لي، فيستحسرُ عند ذلك، ويدع الدعاء» [مسلم: ٢٧٣٥].

جنـــــة السـنة

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- فرض اللهُ علينا الصيام طيلة أيام شهر رمضان، والصيام الامتناع عن الشراب والطعام والوقاع بقصد التقرب إلى الله من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

٢- كان الصوم مفروضاً على الأمم من قبلنا، وكان صومهم من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، ثم يحل لهم الطعام والشراب والوقاع إلى طلوع الفجر ما لم يناموا، فإن ناموا قبل طلوع الفجر حرمت عليهم المفطرات إلى غروب الشمس من اليوم التالي، وكان الصيام الواجب على الصحابة في أول الأمر مماثلاً لصوم من قبلنا، ثم نسخ هذا التشريع في الآية الواردة في أول النص التالي.

٣- ذكر الله الحكمة من تشريع الصيام، وهي إيجاد التقوى في القلوب، وإيجاد التقوى في القلوب هي غاية تشريع العبادات كلِّها.

٤- أباح الله في أول الأمر للصائم المقيم الصحيح أن يفطر في رمضان بشرط أن يُطعم عن كل يوم مسكيناً، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة:١٨٤] ثم نسخ هذا التشريع بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة:١٨٥].

٥- يجوز للمريض والمسافر في رمضان أن يفطرا، وعليهما الصيام بعد انقضاء رمضان، وذلك بعد شفاء المريض وإقامة المسافر، وعليهما أن يصوما عدة الأيام التي أفطرها كلٌّ واحد منهما.

٦- إذا شهد الصائم شهر رمضان مقيماً، ثم سافر بعد ذلك في أثناء الصيام، فله أن يصوم، وله أن يفطر، وفي صحيح البخاري «أن الرسول ﷺ خرج إلى مكة في رمضان فصام، حتى بلغ الكديد فأفطر، فأفطر الناس» [البخاري: ١٩٤٤، مسلم: ١١١٣]. وقد خالف بعض أهل العلم في ذلك، ولم يجيزوا الفطر لمن شهد شهر رمضان مقيماً إذا سافر، وكأن الحديث لم يبلغهم، فقالوا بغير ما دلَّ عليه.

٧- ذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يجوز الصيام في السفر، وهذا اجتهاد غير صائب، وقد سبق ذكر الحديث الذي في الصحيحين أن الرسول ﷺ وأصحابه خرجوا في رمضان إلى فتح مكة، فصاموا، حتى إذا بلغوا الكديد أفطروا، وفي الحديث الآخر عن أبي سعيد الخدري، قال: «كنا نغزو مع رسول الله في رمضان، فمنّا الصائم، ومنّا المفطر، فلا يجد الصائم على

جنـــــــة السـنــــــة

المفطر، ولا المفطر على الصائم، يرون أنَّ من وجد قوة فصام، فإن ذلك حسن، ويرون أن من وجد ضعفاً فأفطر، فإن ذلك حسن» [مسلم: ١١١٦].

٨- لا ينبغي للمسافر أن يصوم في الحر الشديد، أو عندما يكون السفر شاقاً متعباً، فعن أنس، قال: كنا مع النبي ﷺ في السفر، فمنا الصائم ومنا المفطر، فنزلنا منزلاً في يوم حار، أكثرنا ظلاً صاحب الكساء، ومنا من يتقي الشمس بيده، قال: فسقط الصوام، وقام المفطرون، فضربوا الأبنية، وسقوا الرِّكاب، فقال الرسول ﷺ: «ذهب المفطرون اليوم بالأجر» [البخاري: ٢٨٩٠، مسلم: ١١١٩] وهذا يدل على أن الفطر أفضل في مثل تلك الحالة.

٨- إذا التقى المسلمون بالكفار في الحرب والقتال، فعلى المسلمين أن يفطروا، وقد قال الرسول ﷺ لصحبه في غزوة فتح مكة، وكانت في رمضان: «إنكم مُصَبِّحو عدوِّكم، والفطر أقوى لكم، فأفطِروا» [مسلم: ١١٢٠].

أما في غير المشقة الشديدة، وفي غير الجهاد، فالأمر متروك للإنسان إن شاء صام، وإن شاء أفطر، سواء في الفريضة أو النافلة، وقد قال الرسول ﷺ لحمزة بن عمرو الأسلمي: «صم إن شئت، وأفطر إن شئت» [مسلم: ١١٢١].

فإذا كان الرجل قوياً جلداً، لا ترهقه المصاعب، ولا تحط من قواه، فلا حرج عليه أن يصوم في السفر الصعب، وقد روى أبو الدرداء قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حر شديد، حتى إن كان أحدنا ليضع يده على رأسه لشدة الحر، وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبدالله بن رواحة» [البخاري: ١٩٤٥، مسلم: ١١٢٢].

١٠- لا يجوز لمن يريد السفر في نهار رمضان أن يفطر فيه حين يعزِمُ على السفر، وإنما يفطر عندما يبدأ بالسفر فعلاً، لقوله تعالى: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ [البقرة:١٨٥]، ولا يكون على سفر إلا إذا بدأ السفر فعلاً.

١١- إذا أفطر في نهار رمضان ناسياً، فليتم صومه، فإنما أطعمه الله وسقاه، كما صحَّ في الحديث، فإذا أفطر متعمداً بغير جماع فهو آثم، وليس عليه غير قضاء ذلك اليوم، وعليه أن يتوب، ويستغفر ويتصدق، لعلَّ الله يتوب عليه، أما إذا أفطر بجماع فعليه صيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع أطعم ستين مسكيناً.

١٢- الكبير الهرم، والمريض الذي يئس من الشفاء على كلٍّ منهما أن يُطعم عن كلِّ يوم أفطره مسكيناً، احتجاجاً بقول ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ

جنـــــــة السـنـــــــة

﴿مِسْكِينٍ﴾ [البقرة:١٨٤] «كانت رخصة للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يطيقان الصوم أن يفطرا عن كل يوم مسكيناً» [أورده القرطبي، وعزاه لأبي داود: ٢٣١٨، وصحح إسناده القرطبي: ١/ ٦٧٠ ورواه البخاري في صحيحه: ٤٥٠٥].

١٣- حال الحامل والمرضع حال المريض والمسافر تفطران وتصوم كلٌّ واحدة منهما عِدَّة ما أفطرتا، ولا إطعام عليهما، قال بذلك الحسن البصري، وعطاء بن أبي رباح، والضحاك، والنخعي، والزهري، وربيعة، والأوزاعي، وأصحاب الرأي [القرطبي: ١/ ٦٧١].

وقد رواه البخاري عن الحسن وإبراهيم [البخاري بعد الحديث رقم: ٤٥٠٤].

١٤- يجوز أن يقال: جاء رمضان، وصمت رمضان خلافاً لمن كره ذلك، ففي الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء رمضان فُتحت أبواب الجنة» [البخاري: ١٨٩٨، مسلم: ١٠٧٩].

وعن أبي هريرة أيضاً، قال: قال رسول الله ﷺ : «لا تقدَّموا رمضان بصوم يوم أو يومين، إلا رجلاً كان يصوم صوماً، فليصمه» [مسلم: ١٠٨٢] فالرسول ﷺ قال: رمضان، ولم يقل شهر رمضان.

١٥- يستحب الإكثار في شهر رمضان من قراءة القرآن، لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥]. فبَيْنَ القرآن ورمضان تناسب واتصال.

١٦- يستحب الإكثار من الدعاء في أثناء صيام رمضان، لقوله تعالى في أثناء آيات الصيام: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية [البقرة:١٨٦].

جنـــــة الســـــــنة

النص التاسع والثلاثون من سورة البقرة
إحلال الله المفطرات طيلة ليلة الصيام

أولاً: تقديم

حوى هذا النص آية واحدة كريمة، أبان الله فيها بقية أحكام الصيام، وقد نسخ الله بها ما كان حرمه على الصائمين من الوقاع والأكل والشرب إذا هم ناموا في الليل قبل الفجر، فأحل الله لهم المفطرات ناموا أو لم يناموا ما دام الليل باقياً، والفجر لم يطلع.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إباحة الله المفطرات في ليلة الصيام للصائم نام قبل الفجر أو لم ينم:

كان الصائم في شهر رمضان إذا غابت الشمس يباح له الطعام والشراب والنكاح إلى طلوع الفجر، فإذا نام قبل طلوع الفجر حرمت عليه المفطرات إلى غروب الشمس من اليوم التالي، فأباح الله في هذه الآية الطعام والشراب والوقاع طيلة ليلة الصيام نام أو لم ينم، قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾ [البقرة:١٨٧].

صرَّح الله - تبارك وتعالى - في هذه الآية بأنه أحلّ لهم ما كان محرماً عليهم، والذي حرَّمه عليهم الوقاع والأكل والشرب بعد نومهم في ليلة الصيام، والرَّفَثُ الذي أحله لهم هو وقاع الزوجة، وقد روى البخاري عن البراء بن عازب قال: «كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائماً، فحضر الإفطار، فنام قبل أن يُفطِر، لم يأكل ليلته ولا يومه، حتى يمسي، وإنَّ قيس بن صِرْمَةَ الأنصاري كان صائماً، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال لها: أعندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك، وكان يومَه يعمل، فغلبته عيناه، فجاءَته امرأته، فلما رأته

جنـــــة الســــــنة

قالت: خيبةً لك، فلما انتصف النهارُ غُشِي عليه، فذُكِر ذلك للنبي ﷺ، فنزلت هذه الآية ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ﴾ [البقرة:١٨٧] ففرحوا بها فرحاً شديداً، ونزلت: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ [البقرة:١٨٧]» [البخاري: ١٩١٥، أبو داود: ٢٣١٤].

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة:١٨٧] فيها دلالة واضحة أن بعض الصحابة كان يأتي زوجته بعد أن ينام، أو بعد أن تنام زوجته، وقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ﴾ [البقرة:١٨٧] جعل الله المرأة لباساً لزوجها، والزوج لباساً لزوجته، لامتزاج كلٍّ واحد من الزوجين بالآخر عند الجماع، كالامتزاج الذي يكون بين الثوب ولابسه.

وقوله: ﴿تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة:١٨٧] أي: تخونوها بمباشرتكم أزواجكم في ليالي الصيام بعد نومكم، وأصل الخيانة: أن يؤتمن الرجل على شيء، فلا يؤدي الأمانة فيه، وإنما سماهم خائنين لأنفسهم، لأن ضرر ذلك عائد عليهم، [فتح القدير: ١/ ٣٣٩].

وقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة:١٨٧] أي: قَبِلَ توبتكم من خيانتكم لأنفسكم، وغفر لكم ذنوبكم، وقوله: ﴿فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ [البقرة:١٨٧] المراد بكلمة ﴿فَٱلۡـَٰٔنَ﴾ الوقت الذي أنت فيه، أي: اللحظة الحاضرة، والمراد بها في الآية الوقت التي نزلت فيه الآية، وقوله: ﴿بَٰشِرُوهُنَّ﴾ أصل المباشرة وضع البشرة على البشرة، كنَّى به عن الجماع والمعاشرة، وقوله: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ [البقرة:١٨٧] أي: ما كتبه لكم من الولد، فهو المقصود الأعلى في النكاح، قال الراغب: «قوله: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ [البقرة:١٨٧] إشارة في تحرِّي النكاح إلى لطيفة، وهي أن الله جعل لنا شهوة النكاح لنتحرى طلب النسل الذي يكون سبباً لبقاء نوع الإنسان إلى غاية قدَّرها، فيجب للإنسان أن يتحرَّى بالنكاح ما جعل الله له على حسب مقتضى العقل والديانة، ومن تحرَّى بالنكاح حفظ النسل وحصانة النفس على الوجه المشروع فقد ابتغى ما كتب الله له» [المفردات: ص٤٢٤].

٢- تحديد مدة الصيام اليومي:

وقوله: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ [البقرة:١٨٧] أباح الله لنا الأكل والشرب مع ما تقدم من الجماع في أي وقت من ليل الصائم إلى أن يطلع الفجر، وعندما نزلت الآية لم يكن فيها من الفجر، فكان بعض الصحابة إذا أرادوا الصوم ربط في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، فأنزل الله بعد ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ [البقرة:١٨٧].

جنـــــة الســـــنة

روى البخاري عن سهل بن سعد قال: «نزلت ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ [البقرة:١٨٧] ولم ينزل ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولم يزل يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعد ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧] فعلموا أنه إنما يعني الليل والنهار» [البخاري: ١٩١٧، مسلم: ١٩٠١].

ومن هؤلاء عدي بن حاتم الطائي، فعن الشعبي عن عدي بن حاتم قال: لما نزلت ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ [البقرة:١٨٧] عَمَدْتُ إلى عقالٍ أسود وإلى عقالٍ أبيض، فجعلتهما تحت وسادتي، فجعلت أنظر في الليل، فلا يستبينُ لي، فغدوت على رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك، فقال: «إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار» [البخاري: ١٩١٦، مسلم: ١٠٩٠]، وفي رواية أخرى قال له: «إنَّ وسادك إذاً لعريض، أن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك» [البخاري: ٤٥٠٩، مسلم: ١٠٩٠].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة:١٨٧] أي: إلى غروب الشمس، فإذا غربت الشمس فقد أفطر الصائم، جاء عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقبل الليل من ها هنا، وأدبر النهار من ها هنا، وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم» [البخاري: ١٩٥٤، مسلم: ١١٠٠].

وحدَّث عبدالله بن أبي أوفى قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر وهو صائم، فلما غربت الشمس، قال لبعض القوم: «يا فلان قم فاجْدَحْ لنا» فقال: يا رسول الله، لو أمسيت؟ قال: «انزل فاجدح لنا» قال: يا رسول الله لو أمسيتَ؟ قال: «انزل فاجْدَحْ لنا» قال: إنَّ عليك نهاراً، قال: «انزل فاجْدَحْ لنا» فنزل فجدح لهم، فشرب النبي ﷺ، ثم قال: «إذا رأيتم الليل قد أقبل من ها هنا، فقد أفطر الصائم» [البخاري: ١٩٥٥، مسلم: ١١٠١]. والجَدْحُ: خلط السويق بالماء، وتحريكه حتى يستوي، وقوله: إنَّ عليك نهاراً، أي: النهار لا يزال باقياً، لرؤيته آثار الضياء والحمرة التي بعد الغروب، وقوله: لو أمسيت، أي: تأخرت حتى يدخل المساء.

٣- لا يجوز للمعتكف أن يباشر زوجته أثناء مدة الاعتكاف:

وقوله: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ [البقرة:١٨٧] عن ابن عباس رضي الله عنها قال: «هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان أو في غير رمضان، فحرَّم الله عليه أن ينكح النساء ليلاً أو نهاراً حتى يقضي اعتكافه» [ابن كثير: ١/ ٢٥٩] والمراد بالمباشرة: الجماع ودواعيه من التقبيل والمعانقة.

وقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة:١٨٧] المعنى: أن ما بيّنه الله من أحكام الصيام، وما أباح فيه وحرم، وما ذكره من

جنـــــة الســـــنة

رخصه وعزائمه، وما ذكره من تحريم مباشرة الزوجة في الاعتكاف هو من حدود الله التي لا يجوز للعبد المؤمن أن يقربها، ومثل هذا البيان يبين اللهُ ما شرعه للناس في كتابه وعلى لسان رسوله، ليتقوا الله ويعملوا بطاعته على الوجه الذي أراده.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- فرض الله الصيام على رسوله ﷺ وأصحابه فرضاً مماثلاً لما فرضه على من قبلنا، وكان الصائم إذا غربت الشمس وأفطر، أبيح له الطعام والشراب والوقاع إلى أن يطلع الفجر، فإذا نام قبل الفجر حرمت عليه المفطرات إلى غروب الشمس من اليوم التالي، ثم نسخ الله - تبارك وتعالى - هذا الحكم، وأبيحت المفطرات من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، لا فرق بين من نام أو لم ينم في ليلة الصيام.

٢- هذا الذي شَرَعَهُ الله ناسخاً الحكم الذي ذكرته، فيه يسر من الله على عباده المؤمنين، وقد شقَّ الحكم المنسوخ قبل نسخه على الصحابة، فبعضهم نام قبل أن يفطر، فغشي عليه في اليوم التالي، وبعضهم عاشر زوجته بعد أن نام أو نامت.

٣- على المسلم إذا واقع زوجته أن يبتغي ما شرع الله من النكاح، وهو الولد، وإعفاف نفسه عن الزنا والفساد.

٤- أباح الله الأكل والشرب حتى طلوع الفجر، وهذا يدلُّ على مشروعية الطعام إلى وقت متأخر في ليل الصيام، وقد رغَّب الرسول ﷺ في ذلك، وهو السحور، ففي صحيح البخاري وصحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «تسحروا فإن في السحور بركة» [البخاري: ١٩٢٣، مسلم: ١٠٩٥]. وأصبحت أكلة السحور فارقاً بين صومنا وصوم أهل الكتاب، فكان أهل الكتاب يحرم عليهم الطعام والشراب بعد نومهم في ليلة الصيام، أما نحن فقد حُبِّبَ لنا أكلةُ السحور، روى عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحور» [مسلم:١٠٩٦].

٥- يجب أن يتوقف الصائم عن الطعام إذا طلع الفجر لقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧].

وقد أخبرنا أنس، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «تسحرنا مع النبي ﷺ، ثم قمنا إلى الصلاة، قال أنس: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين آية» [البخاري: ١٩٢١، مسلم: ١٠٩٧].

جنـــــة السـنـــــة

ولا يجوز الالتفات إلى قول من يجيز الأكل والشرب إلى ما بعد طلوع الفجر، فإنه مخالف لنص الآيات، ولجملة من الأحاديث الصحيحة، منها ما روته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وعن أبيها قالت: «إن بلالاً يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم» [البخاري: ٦٢٣] وهذا يقضي بأن يتوقف الصائم عن الطعام إذا سمع الأذان الثاني، وفي حديث عبدالله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «لا يمنعنَّ أحدكم، أو أحداً منكم، أذان بلال من سحوره، فإنه يؤذن أو ينادي بليل، ليرجع قائمكم، ولينبه نائمكم» [البخاري: ٦٢١، مسلم: ١٠٩٣].

وعن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ : «لا يمنعنكم من سحوركم أذان بلال، ولا الفجر المستطيل، ولكن الفجر المستطير في الأفق» [مسلم: ١٠٩٤، والترمذي: ٧٠٥ واللفظ له، وأورده الألباني في صحيح الترمذي] وهذا يدل على أن الفجر المنتشر شرقاً وغرباً يُحرِّم الطعام، أما الفجر الذي يأخذ شكل ذنب السرحان، ويكون عمودياً، فلا يُحرِّم الطعام.

٦- كان الرسول ﷺ يواصل الصيام، أي: يصل اليوم السابق باليوم اللاحق من غير أن يتناول طعاماً أو شراباً في ليل الصيام، وكان ينهى أصحابه عن الوصال مما يدلّ على أن الوصال كان إحدى خصوصياته.

روى أبو هريرة قال: قال النبي ﷺ : «لا تواصلوا» قالوا: إنك تواصل، قال: «إني لست مثلكم، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني» فلم ينتهوا عن الوصال، قال: فواصل بهم النبي ﷺ، يومين أو ليلتين، ثم رأوا الهلال، فقال النبي ﷺ : «لو تأخر الهلال لزدتكم» كالمنكل لهم [البخاري: ٧٢٩٩، مسلم: ١١٠٣].

وقد أذن الرسول ﷺ بالوصال إلى السحر، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تواصلوا، فأيكم أراد أن يواصل، فليواصل حتى السحر» [البخاري: ١٩٦٧].

وإذا كان الرسول ﷺ نهى أصحابه، وهم خير الأمة عن الوصال، فغيرهم أولى أن يتناوله النهي.

٧- شرع الله لهذه الأمة ملازمة المساجد بقصد التقرب إلى الله تعالى، وقد دلت آية هذا النص على أنه يحرم على المعتكف مباشرة النساء مدة اعتكافه، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة:١٨٧] وقد تكلم الفقهاء عن الأحكام المتعلقة بالاعتكاف، في الباب الذي عقدوه بهذا الاسم في مدوناتهم الفقهية.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني المتمم للأربعين من سورة البقرة
نهي الله المؤمنين عن أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل

أولاً: تقديم

بعد أن بيّن الله - تعالى - أحكام الصيام التي تهذب النفوس، وتصلح القلوب، وتُقرِّبُ العبد إلى ربه، نهى عباده عن أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، وأعلمهم أن حكم الحاكم وقضاء القاضي لا يُحِلُّ لهم الحرام، وأبان الله في الآية الثانية من هذا النصِّ الحكمة من وراء خلق الهلال وتغير أحواله، فقد جعله الله كذلك ليعرف العباد مواقيت الحج والصيام، ويعلموا عدد السنين والحساب، وأبطل في ختام الآية عادة جاهلية، تتمثل في إتيان بيوتهم من ظهورها إذا رجعوا من السفر عامة، أو من سفر الحج والعمرة خاصة.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- نهى الله المؤمنين عن أكل بعضهم مال بعض بالباطل:

نهى الله - تبارك وتعالى - المؤمنين في المجتمع الإسلامي قاطبةً عن أكل بعضهم مال بعض بالباطل ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة:١٨٨]. وقوله: ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾ أي: أموال إخوانكم، جعل النص مال الأخ في الإسلام كمال نفسه، لأن الأخ كالنفس، وقد عرفنا الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ بمسالك المال الحرام، ومنه الربا، وأثمان المحرمات كالخمر والخنزير والميتة، ومهر البغي، ومنه أن يقتطع المسلم مال أخيه، وهو يعلم أنه عليه حرام، ثم يخاصمه به عند الحاكم أو القاضي، فيحكم له به، لأنه لا دليل لخصمه عليه، وفي ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة:١٨٨].

جنـــــة الســـــــنة

قال ابن عباس في الآية: «هذا في الرجل يكون عليه مال، وليس عليه فيه بينة، فيجحد المال، فيخاصمهم فيه إلى الحكام، وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه آثمٌ آكلٌ حراماً» [القرطبي: ٢/ ٩٥٤].

٢- حكم القاضي لا يحلّ المال الحرام:

قال قتادة في هذه الآية: «كان يقال: من مشى مع خصمه، وهو له ظالم، فهو آثم، حتى يرجع إلى الحق، واعلم يا ابن آدم أن قضاء القاضي لا يحل لك حراماً، ولا يحق لك باطلاً، وإنما يقضي القاضي بنحو ما يرى، ويشهد به الشهود، والقاضي بَشَرٌ يخطئ ويصيب، واعلموا أنه من قُضِيَ له بالباطل، فإن خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة، فيقضي على المبطل للمحقِّ، بأجود مما قُضِي به للمبطل على المحق في الدنيا» [الطبري: ٢/ ٩٥٤].

ومصداق هذا الذي ذكره ابن عباس وقتادة ما رواه البخاري عن أم سلمة عن رسول الله ﷺ : أنه سمع خصومة بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: «إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صدق، فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها، أو فليتركها» [البخاري: ٢٤٥٨، مسلم: ١٧١٣].

وعن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «من اقتطع حقَّ امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب له النار، وحرم عليه الجنة»، فقال له رجل: «وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: وإن كان قضيباً من أراك» [مسلم: ١٣٧].

وفي حديث الأشعث بن قيس: أن رسول الله ﷺ قال: «مَن حلف على يمين صبر، يقتطع بها مال امرئ مسلم، هو فيها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان» [البخاري: ٢٣٥٦، ومسلم: ١٣٨].

وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟﴾ ليس المراد منه الأكل خاصة، لأن غير الأكل من التصرفات كالأكل، وإنما خصَّه بالذكر، لأن الأكل هو المقصود الأعظم من المال.

وقوله: ﴿وَتُدْلُوا۟﴾ أصل الإدلاء إرسال الدلو في البئر للاستقاء، ثم استعير لكل إلقاء، قولاً كان أو فعلاً، توصلاً إلى شيء، يقال: أدلى الرجل بحجته. و﴿فَرِيقًا﴾ أي: جزءاً وقطعة. وقوله: ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ أي: بالحرام الذي يوجب الإثم. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ أي: تعلمون أنكم على الباطل فيما أخذتموه من المال.

٣- الحكمة من خلق الله الأهلة على ما تبدو عليه في السماء:

وقوله تعالى: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٨٩] ما يذكره المفسرون من أحاديث في سبب نزول الآية لم يصحّ منها شيء، والآية صريحة في أن بعض الصحابة سألوا الرسول ﷺ عن حكمة ظهور الأهلة في أول كلِّ شهر، فأجاب ربُّ

جنـــــة السـنـــــة

العزة سبحانه أنه جعلها مواقيتَ للناس، أي: جعلها لتوقيت حج الناس وصومهم وإفطارهم وعدة نسائهم، وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ [يونس:٥]. وقال سبحانه: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ [الإسراء:١٢].

وهذه الآيات تدلُّ دلالة صريحة على الغاية المقصودة من جعل الله الأهلة على ما هي عليه، وهي معرفة المواقيت بيسر وسهولة، من غير حاجة إلى منجم أو حاسب، و﴿ٱلْأَهِلَّةِ﴾ جمع هلال، سمي بهذا الاسم، لأن الناس يرفعون أصواتهم بالإخبار عنه، وجمع الهلال على أهلة لأنه يريد به هلال كل شهر أو هلال كل ليلة.

٤- إتيان البيوت من ظهورها عادة جاهلية باطلة:

قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ [البقرة:١٨٩] نفى الله - تبارك وتعالى - في هذه الآية أن يكون إتيانهم البيوت من ظهورها برّاً، وكانت طوائف من العرب تفعل ذلك في حال عودتهم إلى ديارهم من الحج أو العمرة أو عودتهم من السفر، وقد عظمت هذه العادة عند بعضهم فرفعوها إلى مرتبة الدين الذي يُثْنى على من التزم بها، ويذمُّ من حاد عنها، فأنزل هذه الآية مبطلاً هذه العادة، معلناً أن الملتزم بها ليس بممدوح، وأن تاركها ليس بمذموم، روى البراء قال: «كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره» فأنزل الله: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾ [البقرة:١٨٩] [البخاري: ٤٥١٢، مسلم: ٣٠٢٦]، وروى أبو داود الطيالسي عن شعبة عن أبي إسحاق عن البراء، قال: «كانت الأنصار إذا قدموا من سفرٍ، لم يَدْخل الرَّجُلُ من قِبَل بابه، فنزلت هذه الآية» [مسند أبي داود الطيالسي: ٢/ ٩٠ الحديث ٧٥٢] وقد أمر الله - تبارك وتعالى - عباده أن يتقوه، بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ [البقرة:١٨٩] أي: تفوزون عند الله في يوم لقياه، والوقوف بين يديه.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- حرَّم الله على عباده أن يأكل بعضهم مال بعض بالباطل، وقد عرَّفنا الله في كتابه وعلى لسان رسوله طرائق أكل المال بالباطل.

جنـــــــة السـ ـــــنة

٢- حُكْم الحاكم بالأمر لغير صاحبه لا يحلُّه لمن حكم له به إن كان يعلم أنه مبطل فيما أخذه، فحكم الحاكم لا يحلُّ الحرام، ولا يحرِّم الحلال، لا في الأموال ولا الفروج ولا غيرها.

٣- أبطل الله عادةً جاهلية تتمثل في إتيان البيوت من ظهورها بعد عودة أصحابها إليها من حج أو عمرة، وقد كان أهل الجاهلية يفعلونها ظانين أنها قربة تقربهم إلى الله، فأمرهم الله أن يأتوا البيوت من أبوابها.

٤- بيان الحكمة من خلق الهلال وتغيّر أحواله على الصفة التي نراه عليها في كل يوم، وهي أن نعلم عدد السنين والحساب، ونتعرف إلى مواقيت الصيام والحج ونحوها.

٥- على أهل العلم أن يقوِّموا أخطاء العباد التي يتلبسون بها في أمر دينهم، ومن ذلك ما يظنونه قربة إلى الله، وهو ليس كذلك، ومن ذلك كتابة التمائم وبيعها، وأخذ الأجرة على قراءة القرآن للأموات، ونحو ذلك.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الحادي والأربعون من سورة البقرة
القتال في سبيل الله

أولاً: تقديم

فرض الله القتال على المؤمنين، وأمرهم أن يقاتلوا من يقاتلهم، ونهى عن العدوان في القتال، وذلك بقتال مَن لا يقاتل، وكرر الله الأمر بمقاتلة المشركين حيث وجدناهم، وطالبنا بأن نخرجهم من ديارهم كما أخرجونا من ديارنا، ونهانا عن قتالهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلونا فيه.

وبيّن الله لنا أن قتال أعداء الله ماضٍ حتى لا يُفتَن أحدٌ في دينه، وحتى يظهر الإسلام على الأديان كلها، وأعلمنا ربُّنا - عزَّ وجلَّ - أنه لا يجوز أن نقاتل في الأشهر الحرم حتى يقاتلنا المشركون فيها، ولا يجوز لنا أن نرتكب ما حرمه الله علينا في القتال كالتمثيل بالقتلى، وقطع الأشجار، وهدم البيوت إلا إذا فعل المشركون ذلك بنا.

ونهانا في الآية الأخيرة من النص عن التوقف عن القتال، فنلقي بأيدينا إلى الهلاك.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أوجب الله على هذه الأمة القتال بعد أن نهاهم عنه:

أمر الله تبارك وتعالى في الآية الأولى من هذا النص أصحاب رسوله ﷺ بقتال الذين يقاتلونهم من المشركين، قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ ﴾ [البقرة:١٩٠].

وقد جرى تشريع القتال على أربع مراتب:

جنـــــة الســــــنة

الأولى: كان أصحاب الرسول ﷺ منهيين عن القتال في مكة، وكانوا مطالبين بأن يكفوا أيديهم عن القتال ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وفعل الخيرات، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء:٧٧].

الثانية: بعد الهجرة أذن الله لهم بالقتال من غير إيجاب ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج:٣٩].

الثالثة: أوجب الله على الصحابة في الآية الأولى من هذا النص قتال من يقاتلهم ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة:١٩٠] فهذه الآية أول آية أمر فيها بالقتال.

الرابعة: أوجب الله قتال المشركين كافة كما يقاتلوننا كافة ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة:٣٦]. والمسلمون في كل عصر يكونون بحسب الحالة التي هم عليها، فقد يكونون كحال الصحابة في مكة قبل الهجرة، فيكفون أيديهم، ويشتغلون بفعل الخيرات، وقد يكونون أقوياء، فيقاتلون من يقاتلهم، وقد يكونون في الغاية من القوة، فيقاتلون المشركين كافة.

٢- غاية القتال في الإسلام:

حدَّد الله الغاية التي يجب أن يضعها المسلم في قلبه، وأمام ناظريه، وهي أن يقاتل في سبيل الله، كما قال الله في هذه الآية: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة:١٩٠]. وقال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ [البقرة:٢٤٤] ولا يجوز للمسلم أن يقاتل عصبية، ناصراً قومه، أو حاكمه، أو حزبه.

٣- نهي الله - تبارك وتعالى - عن الاعتداء في القتال:

أمرنا الله - تبارك وتعالى - بقتال من قاتلنا، ونهانا عن الاعتداء في القتال، فقال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة:١٩٠].

والاعتداء الذي نهانا الله عنه في هذه الآية يكون بقتال من لا يقاتل من النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأي لهم، ولا قتال فيهم، وكذلك الرهبان وأصحاب الصوامع، ومن العدوان الذي نهينا عنه الغلول، وتحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة، ففي حديث بريدة عند مسلم أن رسول الله ﷺ كان إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه بخاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تغلُّوا، ولا تغدروا، ولا تُمثِّلوا، ولا تقتلوا وليداً» [مسلم: ١٧٣١].

جنـــــــة الســـــــنة

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، «أن امرأة وجدت في بعض مغازي رسول الله مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان» [البخاري: ٣٠١٤، ٣٠١٥، مسلم: ١٧٤٤].

وعقَّب - تبارك وتعالى - على نهيه إيانا عن العدوان بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة:١٩٠] وفي هذا تهييج للمؤمنين على ترك العدوان الذي يبغضه الله ويكرهه.

٤- أمرنا الله بقتال الكفار الذين يقاتلوننا حيث وجدناهم:

أمرنا ربنا - تبارك وتعالى - بقتال الكفار الذين يقاتلوننا حيث ثقفناهم، قال: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ﴾ [البقرة:١٩١].

وأصل الثَّقَف الحِذْقُ والبَصَرُ في الأمور، ومعناه: واقتلوهم حيث بصرتم مقاتليهم، وتمكنتم من قتلهم، والمكان الذي أخرجوا منه المسلمين هو مكة، يقول لهم: أخرجوا الكفار من ديارهم كما أخرجوكم من دياركم، والمراد بالفتنة التي عدَّها الله أشدّ من القتل هي تعذيب الكفار للمسلمين في مكة، أي: فتنتهم إياكم في الحرم عن دينكم، فقد عذَّب الكفارُ المؤمنين وأخرجوهم من وطنهم، واستولوا على ديارهم، والفتنة أشدّ من القتل، إذ لا بلاء على الإنسان أشد من إيذائه بسبب اعتقاده الذي تمكن من عقله وقلبه.

٥- لا يجوز للمسلمين مقاتلة المشركين عند المسجد الحرام حتى يقاتلونا فيه:

نهانا ربنا - تبارك وتعالى - عن مقاتلة المشركين عند المسجد الحرام حتى يقاتلونا فيه، فإن قاتلونا فيه، فعند ذلك أمرنا الله بقتالهم فيه كذلك جزاء الكافرين المقاتلين في المسجد الحرام، قال تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾ [البقرة:١٩١].

٦- أذن الله لرسوله ﷺ أن يقاتل المشركين عند المسجد الحرام عام الفتح ساعة من نهار:

وقد أذن الله لرسوله ﷺ بالقتال في الحرم يوم فتح مكة، ثم عادت الحرمة بعد ذلك إلى يوم القيامة، ففي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا، فإن هذا بلد حرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحلَّ لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا

جنـــــة الســـــنة

ينفَّر صيده، ولا يلتقط لقطته، إلا من عرَّفها، ولا يختلى خلاها» قال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر، فإنه لِقَيْنِهِمْ وبيوتهم، قال: «إلا الإذخر» [البخاري: ١٨٣٤، مسلم: ١٣٥٣].

وكان الرسول ﷺ بايع في غزوة الحديبية أصحابه، وكانوا ألفاً وأربع مائة مقاتل، وكانت قريش قد تألبت عليهم ومن والاهم من أحياء ثقيف والأحابيش، ثم كفَّ الله القتال بينهم، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح:٢٤]. وقال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح:٢٥].

٧- إذا توقف المشركون عن القتال فإن الله غفور رحيم:

وقوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ [البقرة:١٩٢] أي: إن تركوا القتال في الحرم، وأنابوا إلى الإسلام والتوبة، فإن الله يغفر ذنوبهم، ولو كانوا قتلوا المسلمين في حرم الله، فإنه تعالى لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، لمن تاب منه إلى الله. [ابن كثير: ١/ ٣١٤].

٨- الغاية العظمى للقتال:

أمر الله - تبارك وتعالى - بقتال الكفار حتى لا يُفتن أحد في دينه ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة:١٩٣] ومعنى ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ حتى يعبد الله وحده، ويظهر دين الإسلام على سائر الأديان، كما ورد في البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءَهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله» [البخاري: ٢٥، مسلم: ٢٢].

وعندما دعي عبدالله بن عمر للخروج والقتال في الفتنة قال: «قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله» [البخاري: ٤٥١٣].

٩- إذا انتهى الكفار عن كفرهم فلا يجوز قتالهم ومن قاتلهم فهو ظالم:

وقوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة:١٩٣] أي: فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك وقتال المؤمنين وفتنتهم، فكفُّوا عنهم، فإن من قاتلهم بعد ذلك ظالم، ولا عدوان إلا على الظالمين، والمراد بالعدوان هنا: المعاقبة والمقاتلة، كقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤] وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠] وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل:١٢٦].

جنـــــة السـنـــــة

١٠- الحرمات قصاص:

وقوله تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾ [البقرة:١٩٤] نزلت هذه الآية في عمرة الحديبية، وكانت الحديبية في شهر ذي القعدة في السنة السادسة من الهجرة، فمنع الكفار الرسول وصحبه من العمرة في ذلك العام، وصالحوهم على أن يعودوا العام المقبل، فيدخل الرسول ﷺ مكة، ويقيم بها ثلاثاً، فلما كان العام المقبل، وذلك في شهر ذي القعدة سنة سبع من هجرته، خرج معتمراً وأصحابه، وأخلى له أهل مكة البلد، حتى دخلها رسول الله ﷺ، فأقام هو وأصحابه ثلاثاً، ثم انصرفوا إلى المدينة.

وقد جاء في مسند أحمد عن جابر بن عبدالله قال: «لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يُغزى، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ» [مسند أحمد: ١٤٥٨٣، وصححه ابن كثير: ١/ ٣١٥].

وقد كان الرسول ﷺ أرسل عثمان لمفاوضة قريش في الحديبية، فلما بلغ الرسول ﷺ أن عثمان قد قُتل، بايع أصحابه تحت الشجرة، فلما بلغه أن عثمان لم يُقتل، كفَّ عن ذلك، وجنح إلى المسالمة والمصالحة.

وقوله: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ﴾ [البقرة:١٩٤] قال قتادة: «فخرت قريش على النبي ﷺ حين ردوه في الحديبية، فأقصَّه الله منهم، فأدخله الله مكة في ذلك الشهر الذي كانوا ردُّوه في ذي القعدة، فأنزل الله هذه الآية» [الطبري: ٢/ ٩٧٠].

وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾ [البقرة:١٩٤] اتقوا الله أيها المؤمنون في حدوده وحرماته أن تعتدوا، فتتجاوزوا فيها ما بيَّنه وحدَّه لكم، واعلموا أن الله يحب المتقين الذين يتقون الله باجتناب فرائضه، وتجنب محارمه.

١١- الجهاد بالمال في سبيل الله:

قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة:١٩٥] أمر الله عباده المؤمنين بالإنفاق في سبيل الله، أي: الجهاد، ولا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة، فالذين يتركون الجهاد يتسلط عليهم عدوهم، ويذلهم، روى أبو داود عن أسلم أبي عمران قال: «غزونا من المدينة نريد القسطنطينية، وعلى الجماعة عبدالرحمن بن خالد بن الوليد، والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدو، فقال الناس: مَهْ، مَهْ، لا إله إلا الله، يلقي بيديه إلى التهلكة».

جنـــــة الســـــــنة

فقال أبو أيوب: إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما نصر الله نبيه، وأظهر الإسلام، قلنا: هلمَّ نقيم في أموالنا ونصلحها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥] فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا، ونصلحها، وندع الجهاد، قال أبو عمران: فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله، حتى دفن بالقسطنطينية.

[أبو داود: ٢٥١٢، صحيح سنن أبي داود: ٢١٩٣، الترمذي: ٢٩٧٢، وقال فيه: حديث حسن صحيح غريب].

وقوله: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: الجهاد، وقوله: ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾ أي: بأنفسكم، و﴿ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ ما يهلككم، وهو ترك الجهاد، و﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾ أي: ائتوا بالأعمال التي أمركم الله بها على أفضل وجه، ويتحقق ذلك بمراقبة الله عزَّ وجلَّ، وقد فسَّر الرسول ﷺ الإحسان بعبادة الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة:١٩٥] فيه تهييج للمؤمنين على أن يجاهدوا ليكون عملهم على الوجه الأحسن، فالله يحب المحسنين.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الآية الأولى من هذا النص أول آية أوجب الله فيها القتال على المؤمنين، وكان القتال منهياً عنه في أول الأمر، ثم أذن الله فيه من غير إيجاب، ثم أوجبه الله في هذه الآية.

٢- لا يجوز أن نقاتل إلا من يقاتلنا، أما الذين لا يُقاتِلون كالصبيان والنساء والكبار العاجزين عن القتال والرهبان فلا يُقاتَلون، فإن قاتل بعض هؤلاء قتلوا، وفي هذا العصر الذي يقاتَل فيه بالآلات الحربية المتطورة، والذي دخلت المرأة فيه الجيوش، فإنه يجوز قتل من قاتل منهن.

٣- نهى الله عن العدوان في الحرب والقتال، وذلك بالتمثيل بالقتلى، وقتل الذين لا يُقاتِلون، وإهلاك الحرث والنسل، ونحو ذلك.

٤- لا يجوز القتال عند المسجد الحرام، وقد أُبيح القتال للرسول ﷺ في المسجد الحرام ساعة من نهار، ثم عادت حرمته كما كانت إلى يوم القيامة.

٥- يجوز أن نعامل الكفار بمثل ما يعاملونا به، فيجوز لنا أن نُمثِّل بهم إن هم مثَّلوا بقتلانا، ويجوز أن نقاتلهم عند المسجد الحرام إن قاتلونا فيه، ويجوز أن نقاتلهم في الأشهر الحرم إن قاتلونا فيها.

جنـــــة السـنــــــة

٦- فتنة الكفار للمؤمنين بتعذيبهم لهم أشد من القتل، وفي هذا دفع للمؤمنين لخَضْدِ شوكةِ الكفار بتدميرهم وقتلهم.

٧- غاية القتال أن لا يبقى امتحان للناس بسبب عقائدهم، وحتى يعلو منار الإسلام، ويرتفع لواؤه.

٨- لا يجوز القتال في الأشهر الحرم، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان، إلا إذا قاتلنا الكفار في هذه الأشهر، فعند ذلك يجوز قتالهم.

٩- ترك الإنفاق في سبيل الله، وترك الجهاد يقوض بنيان الأمة، ويديل أعداءَها عليها، وبذلك تذل وتهون، كما هو الحال في هذا الزمان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

١٠- الإحسان علامة فارقة، وصفة بارزة للمؤمن في حياته، ولا يتحقق الإحسان إلا بمراقبة الله وخشيته.

جنـــــة السـنــــة

النص الثاني والأربعون من سورة البقرة
أحكام الحج والعمرة

أولاً: تقديم

حدثنا ربنا تبارك وتعالى فيما سبق عن رفع نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل القواعد من البيت، وحدثنا عن تحويله قبلة المسلمين من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، وأخبرنا ربنا في موضع ثالث أن إبراهيم ﷺ عندما أتمَّ بناء البيت أمره ربُّه أن ينادي في الناس قائلاً: إنَّ الله كتب عليكم الحجَّ فحجوا، فأوجب الحجّ على الناس جميعاً، ولا يزال الناس من ذلك الزمان وإلى اليوم يَقْدُمون إلى البيت العتيق ملبين نداء إبراهيم قائلين: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك، لا شريك لك.

وجاء الرسول الخاتم ﷺ فأحيا الله به الحج والعمرة، وأبان الله عن صفة الحج والعمرة، وعن الأحكام المتعلقة بها في هذا النص والنص الذي يليه.

ثانياً: آيات هذا النص

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- يجب على من شرع في الحج والعمرة أن يتمهما:

أمر الله تبارك وتعالى من ابتدأ الحج والعمرة أن يتمهما، ولا يجوز له بعد أن بدأ فيهما أو في واحد منهما أن يدعهما، قال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٦] وبيّن الله الهدف الذي ينبغي أن يضعه الحاج أو المعتمر في قلبه، وهو أن يقصد بحجه وعمرته الله وحده دون سواه.

٢- حكم المحصر بالحج والعمرة:

فإذا أحصر الحاج أو المعتمر، بأن منعه عدو أو مرض من إتمام حَجَّتِهِ أو عمرته، فعليه أن يحلّ حيث مُنِع، وعليه أن يذبح ما يتيسر له، وهو الذي سماه الله بالهَدْيِ، والهدي جمع

جنـــــة الســـــنة

واحده هديَّة، وهو ما يهدى إلى الحرم من النعم، سواءً كان إبلاً أو بقراً أو غنماً، فإن لم يستطع أن يرسل الهدي إلى الحرم، نحره حيث أُحصِر ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة:١٩٦].

ويبلغ الهدي محله بنحر الحاج هديه في اليوم العاشر أو في أيام التشريق في منى أو مكة، وإن كان معتمراً بنحره بعد وصوله إلى مكة، فإن لم يستطع إبلاغه الحرم نحره حيث هو.

٣- محذورات الإحرام:

نهى الله - تبارك وتعالى - الحاجَّ والمعتمر عن حلق رأسيهما حتى يبلغ الهدي الذي ساقوه معهم إلى الحرم ويُنحر ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ [البقرة:١٩٦].

فإن كان الحاج أو المعتمر مريضاً، واحتاج إلى أن يحلق رأسه للتخلص من مرضه، فعليه فدية من صيام أو صدقة أو نسك ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦]. وأراد بالأذى الذي في الرأس القمل، والفدية ما ذكره الله من الصيام أو الصدقة أو النسك، أي: فليأت فدية، أو يعطي فدية.

ومحذورات الإحرام ليست قصراً على المنع من حلق شعر الرأس، بل هي أكثر من ذلك، ومنها تغطية الرأس، ولبس المخيط، ومعاشرة النساء، والصيد.

وقد نَزَلَ قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦] في كعب بن عجرة ﷺ، وقد سئل كعب بن عجرة عن الفدية المذكورة في هذه الآية، فقال: نزلت فيَّ خاصة، وهي لكم عامة، حُمِلتُ إلى رسول الله ﷺ، والقمل يتناثر على وجهي، فقال: «ما كنت أُرَى الوجع بلغ بك ما أَرَى، أو ما كنت أُرَى الجَهْدَ بلغ بك ما أَرَى، تجد شاة؟» فقلت: لا، قال: «فصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، لكل مسكين نصفَ صاع» [البخاري: ١٨١٦، مسلم: ١٢٠١].

وكان ذلك في الحديبية، قبل أن يتبين لهم أنَّهم يحلُّون بها، وهم على طمع أن يدخلوا مكة، فأنزل الله الفدية [البخاري: ١٨١٧، مسلم: ١٢٠١ (٨٣)].

وهذا الحديث يدلُّ على أن الذي يحلق رأسه في الحج والعمرة لمرض أصابه أو لأذى حلَّ في شعره مخير بين الثلاثة، يفعل أيَّ واحد منها من غير حرج، وقد رتبها ربّ العزة ترتيباً متصاعداً، فأمر بصيام ثلاثة أيام، وأفضل منه إطعام ستة مساكين، وأعلاها ذبح ذبيحة، وهو النسك، والنسيكة في اللغة: الذبيحة.

جنـــــة السـنـــــة

٤- وجوب الهدي على من تمتع بالعمرة إلى الحج:

أوجب الله الهدي على من تمتع بالعمرة إلى الحج، قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة:١٩٦]. والذي يجب عليه الهدي لكونه متمتعاً بالعمرة إلى الحج نوعان:

الأول: الذي يعتمر في أشهر الحج، ثم يحلُّ من إحرامه باقياً في الحرم إلى أن يحرم بالحج، وهذا هو الذي يسمى في الشرع بالمتمتع.

الثاني: القارن، وهو الذي يعتمر في أشهر الحج، ويبقى محرماً إلى أن يأتي بالحج، أما الذي يأتي بالحج وحده من غيره عمرة، ويسمى المفرد، فليس عليه هدي.

ويجب على الذي ساق الهدي من بلده أن يقرن بين العمرة والحج، فالرسول ﷺ أمر أصحابه بالتمتع، وامتنع هو والذين ساقوا الهدي من ذلك، وبقوا قارنين.

٥- كيف حج الرسول ﷺ وأصحابه:

«خرج الناس مع رسول الله ﷺ عام حجة الوداع، فمنهم من أهلّ بعمرة، ومنهم من أهلّ بحج وعمرة، ومنهم من أهل بالحج» [البخاري: ١٥٦٢، مسلم: ١٢١١ عن عائشة].

ثم أمر الرسول ﷺ من ساق الهدي بالبقاء على إحرامه إلى أن يتم حجّه، وينحر هديه، ويحلق شعره، وأمر كلَّ من لم يسق الهدي أن يتحلل من إحرامه، بعد طوافه بالبيت، وسعيه بين الصفا والمروة، قال ابن عمر رضي الله عنهما: فلما قدم النبي ﷺ مكة، قال للناس: «من كان منكم أهدى، فإنه لا يحلُّ لشيء حرم منه، حتى يقضي حجّه، ومن لم يكن منكم أهدى، فليطف بالبيت، وبالصفا والمروة، وليُقصِّر، وليحلل، ثم ليهلَّ بالحج، فمن لم يجد هدياً، فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله» [البخاري: ١٦٩١، مسلم: ١٢٢٧].

وقد كان أهل الجاهلية يهلّون بالحج، ويقيمون على إحرامهم حتى يتموا حجهم، وقد أثّر في الصحابة ما اعتادوه فيما مضى، فاستعظموا أن يخرج أحدهم إلى منى وذكره يَقْطُرُ، فلما قالوا ذلك للرسول ﷺ أخبرهم أن فعلهم في حجهم أفضل من فعله، ولو استقبل من أمره ما استدبر، ما ساق الهدي، ولكان أحلَّ كما أحلُّوا، وفي ذلك يقول لأصحابه: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت، ولولا أن معي الهدي لأحللت» [البخاري: ١٦٥١].

٦- الهدي الواجب على المتمتع:

يجب على المتمتع بالعمرة إلى الحج والقارنِ أن يُقَدِّم كلٌّ منهما ما استيسر من الهدي، أي: يذبح شاة، أو يشترك سبعةٌ في ذبح ناقة أو بقرة، فمن لم يجد مالاً يشتري به هدياً، أو لم يجد

جنـــــة الســـــــنة

هدياً يهديه وإن كان معه المال، فيجب عليه أن يصوم ثلاثة أيام في الحج وسبعة أيام إذا رجع إلى أهله ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ [البقرة:١٩٦].

والأيام الثلاثة التي يجب على من لم يجد هدياً أن يصومها، يجب أن تكون بعد الإحرام بالعمرة في التمتع والقرآن، ولو كان حالاً من عمرته، وذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أنه يصوم يوم عرفة، ويومين قبله، قال ابن عباس: «غير أنه إن لم يتيسر له فعليه ثلاثة أيام في الحج، وذلك قبل يوم عرفة، فإن كان آخرُ يوم من الأيام الثلاثة يومَ عرفةَ فلا جناح عليه» [البخاري: ٤٥٢١].

وروى البخاري عن عائشة وابن عمر قالا: «لم يرخص في أيام التشريق أن يصمن إلا لمن لم يجد الهدي» [البخاري: ١٩٩٧، ١٩٩٨]. ونقل ابن كثير عن علي أنه كان يقول: «من فاته صيام ثلاثة أيام في الحج صامهنَّ أيام التشريق» [ابن كثير: ١/ ٢٧٠]. أما صوم الأيام السبعة فيكون عندما يرجع الحاج إلى أهله وموطنه، كما صرح الرسول ﷺ في حديث ابن عمر وقوله: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ [البقرة:١٩٦] تأكيد جارٍ على طريقة العرب في كلامها، فإنها تقول: رأيت بعيني، وسمعت بأذني، وكتبت بيدي.

٧- لا يجوز لأهل الحرم التمتع بالحج:

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ [البقرة:١٩٦] أي: هذا التمتع الذي يجب معه الهدي هو للقادمين من الآفاق، أما أهل الحرم الذين يسكنون الحرم، فلا متعة لهم، وقد كان ابن عباس يقول لأهل الحرم: «يا أهل مكة، لا متعة لكم، أحلت لأهل الآفاق، وحرمت عليكم، إنما يقطع أحدكم وادياً» أو قال: «يجعل بينه وبين الحرم وادياً، ثم يحلّ بعمرة!!».

وما فائدة العمرة لأهل مكة، والطواف بالبيت متيسر لهم كلما أرادوه، وهم في طوافهم وصلاتهم عند الكعبة لهم أجر عظيم.

وإذا كان أهل الحرم لا متعة لهم، فالأرجح أن من يسكن خارج الحرم ودون المواقيت يجوز لهم أن يحرموا من ديارهم، فهم ليسوا بحاضري المسجد الحرام. وأمر الله - تبارك وتعالى - في خاتمة الآية عباده بتقواه، وذلك بالمبادرة إلى عمل ما أمرهم به، وترك ما نهاهم عنه، وأمرهم أن يعلموا أنه شديد العقاب، أي: لمن خالف أمره وعصاه ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾ [البقرة:١٩٦].

جنـــــة الســـــنة

٨- الحج أشهر معلومات:

أخبرنا الله في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة:١٩٧] أن للحج وقتاً حدَّده، فلا يجوز إيقاع الحج إلا في وقته، وأشهر الحج ثلاثة، هي: شوال وذو القعدة وذو الحجة، وقال بعضهم: شوال وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة.

٩- لا يجوز الرفث ولا الفسوق ولا الجدال في الحج:

قوله: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٧] أي: من ألزم نفسه بالحج بإحرامه في هذه الأشهر، فلا يجوز له الرفث في الحج ولا الفسوق ولا الجدال.

والرَّفث هو الجماع، وكل ما يدعو إليه من الأقوال والأعمال، والفسوق: المعاصي والذنوب على اختلاف أنواعها، والجدال: المماراة على وجه المخاصمة والمغالبة، وكثيراً ما يتحول الجدال إلى خصام ونزاع وسباب. وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٩٧] أخبر الحق - تبارك وتعالى - أن كل ما نفعله من أعمال البر والطاعة يعلمه تبارك وتعالى، وفي هذا تهييج للسامع كي يندفع إلى الإكثار من فعل الخير.

١٠- وجوب التزود للحج والعمرة:

وقوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧] عن ابن عباس قال: «كان أناس يخرجون من أهليهم ليس معهم أزودة، يقولون: نحج بيت الله ولا يطعمنا!!! فقال الله: تزودوا ما يكف وجوهكم عن الناس» [ابن كثير: ١/ ٢٧٥]. وروى البخاري عن ابن عباس، قال: «كان أهل اليمن يحجون، ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧]» [البخاري: ١٥٢٣].

ولما أمرهم - تبارك وتعالى - بالزاد في سفرهم إلى الحج أرشدهم إلى زاد الآخرة ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧] وفي هذا حثّ لهم على التزود للدار الآخرة، وخير زاد لها التقوى، والتقوى العمل بطاعة الله على الكيفية التي أرادها، ثم أمر الله أولي الألباب، وهم أصحاب العقول أن يتقوه ويخافوه ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة:١٩٧] أي: اتقوا عقابي ونكالي وعذابي لمن خالفني، ولم يأتمر بأمري، يا ذوي العقول والأفهام.

قال ابن القيم في قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧]: «أمر الحجيج بأن يتزودوا لسفرهم، ولا يسافروا بغير زاد، ثم نبههم على زاد سفر الآخرة، وهو

جنـــــة الســــــــنة

التقوى، فكما أنه لا يصل إلى مقصده إلا بزاد يبلغه إياه، فكذلك المسافر إلى الله والدار الآخرة لا يصل إلا بزاد من التقوى، فجمع بين الزادين» [بدائع التفسير: ١/ ٣٨٨].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- يجب على من بدأ بأعمال الحج أو العمرة، وأول أعمالها الإحرام من الميقات أن يتمّ حجَّه وعمرته، ولا يجوز له بعد الدخول فيهما أن ينكص على عقبيه، فيبطل ما شرع فيه.

٢- قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ يدل على وجوب الإخلاص في أداء الحج والعمرة، فإن دخل الحج أو العمرة الشركُ بطلت العبادة، كما كان يفعل العرب في الجاهلية، يقولون في حجهم: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وكذلك من حج رياءً وسمعة كمن يحج لينال لقب الحاج، أو ليفاخر الناس بحجه وعمرته.

٣- ذهب بعض أهل العلم إلى أن العمرة واجبة كالحج، ويرى آخرون عدم وجوبها، وقد روى الترمذي عن جابر: أن النبي ﷺ سئل عن العمرة، أواجبة هي؟ قال: «لا، وأن تعتمروا هو أفضل» قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

والذي يظهر لي أن هذا الحكم في العمرة المفردة المنفصلة عن الحج، وإلا فقد بيّنت في شرح الآيات أن الرسول ﷺ أمر من لم يسق الهدي أن يعتمر ثم يحل، ثم يحرم بالحج في موعده، ولم يأذن بالخروج عن ذلك إلا لمن ساق الهدي، فيبقى محرماً بعد عمرته حتى يقضي حجه، وعلى ذلك فإن كل من التزم هذا النهج سيعتمر كلما حجَّ، والله أعلم.

٤- إذا منع العدوُّ الحاجَّ أو المعتمرَ من إتمام حجَّه أو عمرته وجب عليه أن يذبح ما تيسر له من الهدي، والهدي جمع هديَّة، وهو ما أهدى إلى مكة من النَّعم، لينحر تقرباً إلى الله عزَّ وجلَّ، ويسمى هذا المنع الإحصار، ولا فرق بين من أُحصِر قبل بلوغ البيت أو قبل بلوغ عرفة.

٥- يرى جمع من أهل العلم أن من أحصر بمرض عليه أن ينحر ما تيسر له من الهدي، كحال المحصر من العدو، واستدلوا على صحة ذلك أن الرسول ﷺ دخل على ضباعة بنت الزبير فقال لها: «لعلك أردت الحج» قالت: والله لا أجدني إلا وجعة، قال لها: «حُجِّي واشترطي، قولي: اللهمَّ مَحِلِّي حيث حبستني» [البخاري: ٥٠٨٩، مسلم: ١٢٠٧]، فدلَّ الحديث على أن اشتراطها يجيز لها أن تحلَّ عند حبس المرض لها، ولا يجب عليها هديٌ في هذه الحال.

أما الذي حبسه المرض، ولم يكن قد اشترط، فيجوز له أن يحلَّ من إحرامه، وعليه أن يأتي بالحج في العام المقبل، وليس عليه هدي بعد الإحلال من إحرامه، ففي الحديث عن

جنـــــة السـنــة

الحجاج بن عمرو الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ : «من كُسِرَ أو عرج، فقد حلَّ، وعليه الحج من قابل» قال عكرمة: سألت ابن عباس وأبا هريرة عن ذلك قالا: صدق. [أبو داود: ١٨٦١، ابن ماجة: ٣٠٧٧، وأورده الألباني في صحيح أبي داود: ١٨٦١ وصحيح ابن ماجة: ٢٤٩٧].

٦- إذا أحرم الحاجُّ أو المعتمرُ، لم يجز له أن يحلق شعر رأسه، فإذا احتاج لحلق شعره لمرض أصابه، أو أذى حلَّ به كالقمل الذي ملأ رأس كعب بن عجرة فعليه أن يقدم فدية، وهي صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو ذبح شاة.

٧- دلت السنّة النبوية على أنّ محذورات الإحرام ليست قصراً على حلق شعر الرأس، بل هي أكثر من ذلك، كقص الأظافر، ولبس المخيط، وتغطية الرأس، ومس الطيب، والصيد، والجماع. فإن احتاج إلى قص الأظافر ولبس المخيط وتغطية الرأس، فعليه مثل فدية الذي حلق شعر رأسه، أما الجماع في الحج أو العمرة فإنه يبطلهما.

٨- يجب على كلٍّ من المتمتع أو القارن أن يذبح ما يسَّر الله له من الهدي، وأقلّه شاة، وأوسطه بقرة، وأعلاه بدنة، ويجوز اشتراك السبعة في البقرة أو البدنة، فمن لم يجد ما يشتري به الهدي، أو وجده ولم يجد الهدي، فيجب عليه أن يصوم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله، فهذه عشرة كاملة.

٩- أهل الحرم الذين يسكنون في الحرم لا يجوز لهم أن يعتمروا من ديارهم التي في الحرم، وليس عليهم الهدي الذي على القادمين من الآفاق.

١٠- أفضل أنواع النسك هو التمتع، فقد أمر الرسول ﷺ من لم يسق الهدي من أصحابه به، وتأسف على أنه لم يفعله.

١١- للحج أشهر معلومة لا يجوز قصد الحج في غيرها، وهي: شوال وذو القعدة وذو الحجة، وعلى ذلك فإن من أحرم بالحج قبل دخوله في أشهره كان كمن صلى الصلاة قبل دخول وقتها، وقد روى ابن خزيمة في صحيحه عن ابن عباس قال: «لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج» قال ابن كثير: هذا إسناد صحيح [ابن كثير: ٢/ ٢٧١].

١٢- لا يلزم الحاجَّ دمٌ إذا هو أخَّر بعض أعمال الحج على قول من قال: إن ذا الحجة كله من أشهر الحج، لأن هذه الأعمال واقعة في أشهره، أما الذين قالوا بأن العشر من ذي الحجة آخر وقته فيلزمون مَن أخَّر بعض أعماله بدم، والله أعلم بالصواب [راجع تفسير ابن عطية: ٢/ ١٦٤].

١٣- على من ابتدأ الحج أو العمرة أن يلتزم بها أمر الله بالالتزام به، ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٧] والرفث: الجماع وما يؤدي إليه، والفسوق: الذنوب

جنـــــة السـنـــــة

والمعاصي، ومنها محظورات الإحرام، والجدال: المخاصمة والمنازعة والمماراة في وقت الحج الذي أحرم به فيه.

١٤- أمر الله الحاجَّ أو المعتمرَ بالتزود لحجّه وعمرته، وقد كان بعض العرب في الجاهلية يزعمون أن الحج بغير زاد هو اللائق بأهل التقى، وكما أمر بالتزود للحج أمر بالتزود للآخرة بالإقبال على أعمال الخير، وترك أعمال الشر، وما أحسن قول الشاعر:

إذا أنـت لم ترحـل بـزادٍ مـن التقـى ولاقيـت بعـد المـوت مَـن قـد تَـزَوَّدَا
نـدمت عـلى أن لا تكـون كمثلـه وأنـك لم ترصـد كـما كـان أرصـدا

جنـــــة الســــــنة

النص الثالث والأربعون من سورة البقرة
بقية أحكام الحج

أولاً: تقديم

ذكر الله - تبارك وتعالى - في آيات هذا النص جملة من الأحكام التي تتعلق بالحج، ففيه تكملة لأحكام الحج المذكورة في النص السابق.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ
فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ
الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾
فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن
يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي
الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ
الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ
فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- يجوز للحجيج التجارة في مواسم الحج:

أباح الله - تعالى - للحجاج أن يبتغوا فضلاً من ربهم في مواسم الحج ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ ﴾ [البقرة:١٩٨] ومعنى تبتغوا فضلاً من ربِّكم: التجارة في مواسم الحج، وقد كانت العرب في الجاهلية تقيم الأسواق في موسم الحج، فتحرَّج المسلمون من تعاطي التجارة في تلك المواسم، فأنزل الله هذه الآية لرفع الحرج الذي قام في نفوسهم في هذا الأمر، روى البخاري عن ابن عباس قال: «كانت عكاظ ومجَنَّة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا في المواسم، فنزلت: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ ﴾» [البخاري: ٤٥١٩].

وقال ابن عطية: «قال ابن عمر وابن عباس ومجاهد وعطاء: إنَّ الآية نزلت لأنَّ العرب تحرَّجتْ لما جاء الإسلام أن يحضروا أسواق الجاهلية كعكاظ وذي المجاز ومجنّة، فأباح لها

جنـــــة السـنة

ذلك» [تفسير ابن عطية: ٢/ ١٧٢]. والجناح في الآية الإثم، سمي الإثم المائل بالإنسان عن الحق جناحاً، ثمّ سمى كل إثم جناحاً [المفردات: ص١٠٠].

٢- الإفاضة من عرفات وذكر الله عند المشعر الحرام في مزدلفة:

أمرنا الله - تبارك وتعالى - أن نذكر ربنا عند المشعر الحرام في مزدلفة، قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾ [البقرة:١٩٨].

وعرفات اسم للبقعة التي يقف فيها الحجاج في اليوم التاسع من ذي الحجة. والوقوف بعرفة هو الركن الأعظم في الحج، فمن فاته الوقوف فيه، فقد فاته الحج، وقد دلَّ على وجوب الوقوف بعرفة قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ﴾ [البقرة:١٩٨]. ومعنى: ﴿أَفَضۡتُم﴾ دفعتم بكثرة، ويقال: أفاض الناس في الحديث، إذا اندفعوا فيه [معاني القرآن للزجاج: ٢/ ٢٧٢].

وروى عبدا لرحمن بن يعمر أنَّ ناساً من أهل نجد أتوا رسول الله ﷺ وهو بعرفة، فسألوه، فأمر منادياً، فنادى: «الحج عرفة، من جاء ليلة جمع قبل طلوع الفجر، فقد أدرك الحج» [الترمذي: ٨٨٩، أبو داود: ١٩٤٩، النسائي: ٣٠٤، واللفظ للترمذي، وإسناده صحيح].

وقال الرسول ﷺ لعروة بن مُضَرِّس وقد جاءَه بمزدلفة: «من أدرك معنا هذه الصلاة، وأتى عرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً، فقد تمَّ حجّه، وقضى تفثه» [الترمذي: ١٩٥٠، وقال: حسن صحيح].

وسميت عرفات بهذا الاسم، لأنهم يتعرفون فيها إلى ربهم، وفيها يعرف بعضهم بعضاً، ووقت الوقوف بعرفة من الزوال في اليوم التاسع إلى طلوع الفجر الثاني من اليوم العاشر، وهو يوم النحر.

وكان أهل الجاهلية يفيضون من عرفات قبل غروب الشمس، قال ابن عباس: «كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة، حتى إذا كانت الشمس على رؤوس الجبال كأنها العمائم على رؤوس الرجال دفعوا، فأخّر رسول الله ﷺ الدفع من عرفة حتى غروب الشمس» [عزاه ابن كثير: ١/ ٢٧٩ إلى ابن أبي حاتم، وهو حديث حسن].

وأمر الله - تبارك وتعالى - بالإكثار من ذكره بعد الإفاضة من عرفات عند المشعر الحرام، والمشعر الحرام هو مزدلفة، وذِكْرُ الله عند المشعر الحرام يكون بصلاة المغرب والعشاء فيها جمعاً وقصراً، كما يكون بالدعاء والتلبية والتكبير، وسمي المشعر مشعراً من الشعار، وهو

جنـــــة الســـــنة

العلامة، والدعاء عنده من شعائر الحج، ووصف بالحرام لحرمته، ومزدلفة فيها جبل قزح الذي يقف عليه إمام المسلمين.

٣- صفة إفاضة الرسول ﷺ من عرفات:

وصف لنا جابر بن عبدالله في حديثه الطويل عن حجة رسول الله ﷺ صفة دفعه من عرفات، وفيه: «فلم يزل (أي: الرسول ﷺ) واقفاً حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص، وأردف أسامة خلفه، ودفع رسول الله ﷺ ، وقد شنق للقصواء الزمام، حتى إن رأسها ليصيب مَوْرِك رحله، ويقول بيده اليمنى: «أيها الناس، السكينة السكينة»، كلما أتى حبلاً من الحبال[1] أرخى لها قليلاً، حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئاً، ثم اضطجع رسول الله حتى طلع الفجر، وصلَّى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتي المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعاه وكبَّره وهلَّله ووحَّده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلع الشمس» [مسلم: ١٢١٨].

٤- أمرنا ربنا أن نكثر من ذكره على هدايته لنا:

وأمر الله الحجاج بذكره مرة أخرى ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨] أي: اذكروه لهدايته لكم لما فيه صلاحكم وخيركم، وبخاصة هدايته لكم إلى مناسك الحج على الوجه الأتم الأكمل، ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝١٩٨﴾ [البقرة:١٩٨] فقد كانوا مشركين عابدين للأصنام، يقتل بعضهم بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً، ويئدون البنات، ويأكلون الميتة والدم ولحم الخنزير، وكل هذا ضلال مبين.

٥- أوجب الله على قريش الوقوف على عرفات والإفاضة منها:

كانت قريش تقف في مزدلفة، ولا يجاوزونها إلى عرفات، وكانت بقية العرب تقف في عرفات، وكانت قريش تدَّعي أنها أهل الحرم، فلا يجاوزونه إلى غيره من الحل في حجهم، مع علمهم بأنَّ أباهم إبراهيم عليه السلام كان يقف بعرفات، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٩٩﴾ [البقرة:١٩٩] أمر الله في هذه الآية أن يقفوا في

---

(١) الحبال جمع حَبَل، وهو التَّل اللطيف من الرمل الضخم. وفي (النهاية): قيل: الحبال في الرمل كالجبال في غير الرمل.

جنـــــة الســــــنة

عرفات، ويفيضوا منها كما يفيض بقية الناس، ويتركوا ما ابتدعوه بأهوائهم في عدم الوقوف بعرفة.

روى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: «كانت قريش ومن دانَ دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يُسمَّون الحُمْسَ، وكان سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام، أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات، ثم يقف بها، ثم يفيض منها، فذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ [البقرة:١٩٩]» [البخاري: ٤٥٢٠، مسلم: ١٢١٩].

٦- **كان العرب غير قريش يطوفون عراة إلا إذا أعارتهم قريش من ثيابها:**

كانت قريش في الجاهلية يخصون أنفسهم بأحكام يفخرون بها على غيرهم من العرب، ومن ذلك طوافهم بالكعبة في ثيابهم، وإلزام غيرهم بالطواف عراة، إلا من أعطوه من ثيابهم، قال عروة بن الزبير: «كان العرب يطوفون بالبيت عراة إلا الحُمْسُ، والحُمْسُ قريش وما ولدت، وكان الحُمْسُ يحتسبون على الناس، يعطي الرجلُ الرجلَ الثيابَ يطوف فيها، وتعطي المرأةُ المرأةَ الثيابَ تطوف فيها، فمن لم يعطه الحمس طاف عرياناً، وكان يفيض جماعة الناس من عرفات، ويفيض الحُمْسُ من جمع» [البخاري: ١٦٦٥، مسلم: ١٢١٩]، وقد أبطل الإسلام هذه الامتيازات التي خَصَّتْ قريش نفسها بها، وهي امتيازات ما أنزل الله بها من سلطان.

٨- **أمرنا الله بالاستغفار بعد تمام الحج:**

أمر الله الحجيج أن يستغفروا ربَّهم في ختام حجِّهم، فهو الغفور الرحيم لمن استغفره وطلب رحمته ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩﴾ [البقرة:١٩٩].

والاستغفار في خاتمة العبادة منهج إلهي رباني، مأمور به في كثير من المواضع، ففي صحيح مسلم عن ثوبان قال: «كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً، وقال: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام» قال الوليد: فقلت للأوزاعي: كيف الاستغفار؟ قال: تقول: أستغفر الله، أستغفر الله» [مسلم: ٥٩١].

وسيد الاستغفار الذي علمناه الرسول ﷺ أن نقول: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي فاغفره لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»، قال: «ومن قالها من النهار موقناً بها، فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة» [البخاري: ٦٣٠٦ من حديث شداد بن أوس].

جنـــــة الســـــــنة

وعلَّم الرسول ﷺ أبا بكر أنْ يقولَ في صلاته: «اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم» [البخاري: ٨٣٤، مسلم: ٢٧٠٥ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص].

٨- أرشد الله المؤمنين بعد تمام حجهم أن يذكروا الله كثيراً:

أمر الله عباده الحجاج إذا هم فرغوا من مناسك الحج أن يكثروا من ذكر الله، فقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة:٢٠٠]، وقد كان أهل الجاهلية من العرب يفخرون بمآثر الآباء، فيقفون في المواسم، ويتغنون بما كان عليه الآباء من المآثر، فأمر الله المؤمنين أن يكثروا من ذكر الله بعد فراغهم من مناسك الحج كما كانوا يذكرون آباءَهم، أو أشدَّ مما كانوا يذكرونهم، ومناسك الحج أعماله وأقواله التي شرعها الله لعباده.

قال الزجاج عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ [البقرة:٢٠٠]: «كانت العرب إذا قضت مناسكها، وقفت بين المسجد بمنى، وبين الجبل، فتعدد فضائل آبائها، وتذكر محاسن أيامها، فأمرهم تعالى أن يجعلوا ذلك الذكر له، وأن يزيدوا على ذلك الذكر، فيذكروا الله بتوحيده، وتعديد نعمه، لأنه إن كانت لآبائهم نعم، فهي من الله، وهو المشكور عليها» [معاني القرآن:١/ ٢٧٤].

٩- أهل الجاهلية كانوا يدعون ربهم بحسنة الدنيا والمؤمنون يدعون الله بحسنة الدنيا وحسنة الآخرة:

وأخبرنا ربنا – عزَّ وجلَّ – أنَّ بعض الناس يدعون ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾ [البقرة:٢٠٠] وهؤلاء هم مشركو العرب وأمثالهم يسألون الله أن يوسع عليهم في أرزاقهم، ويفتح عليهم في أعمالهم في الدنيا، ولا يسألون الله لآخرتهم، لأنهم لا يؤمنون بالآخرة، فهؤلاء ليس لهم في الآخرة من خلاق، والخلاق: الحظ والنصيب.

وأخبرنا ربنا عن المؤمنين الأخيار أنَّهم يدعون ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة:٢٠١].

فهذه دعوة جامعة لكل خير دنيوي، فهي تشمل طلب الصحة والعافية، والدار الرحبة، والزوجة الحسنة، والرزق الواسع، والعلم النافع، والعمل الصالح، والمركب الهني، والثناء الجميل، كما تشمل حسنات الآخرة من الإظلال بعرش الرحمن، وتيسير الحساب، وأخذ الكتاب باليمين، والنجاة من النار، ودخول الجنة، وهذا الفريق أثنى الله عليه ومدحه

جنــــــة الســــــنة

بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٢٠٢﴾ [البقرة:٢٠٢] أي: أن دعاءهم مستجاب، وقوله: ﴿مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ أي: مما عملوا، وقد ضَمِنَ اللهُ الإجابة لمن دعاه إذا كان مؤمناً، أما الكفار فإن الله يحبط أعمالهم، ودعاؤهم من أعمالهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٢٠٢﴾ [البقرة:٢٠٢] هذا كقوله عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢﴾ [الأنعام:٦٢] وقوله: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩﴾ [آل عمران:١٩] وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ١٦٥﴾ [الأنعام:١٦٥] والآيات المثبتة لهذه الصفة لله كثيرة، وتظهر هذه الصفة في يوم الجزاء والحساب عندما يحاسب الله عباده في يوم الدين.

١٠- أمر اللهُ الحجاجَ الإكثار من ذكر الله تعالى في أيام التشريق:

قال تعالى: ﴿۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣﴾ [البقرة:٢٠٣].

أمر الله الحجاج أن يكثروا من ذكره في أيام معدودات، وهي اليوم الحادي عشر، واليوم الثاني عشر، واليوم الثالث عشر من شهر ذي الحجة، وتسمى هذه الأيام بأيام التشريق، وهي التي يقيم فيها الحجاج في منى يرمون الجمرات، وقد قال الرسول ﷺ في هذه الأيام: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله» [مسلم: ١١٤١]، ويوم النحر وهو اليوم العاشر والأيام الثلاثة بعده هي الأيام التي ينحر فيه الحجاج هديهم.

وقد أعلمنا الله تبارك وتعالى أنه من عجَّل من الحجاج عودته إلى بلده في اليوم الثاني من أيام التشريق أو أخّره إلى اليوم الثالث فلا حرج عليه، إذا ما اتقى ربّه، والتزم طاعته، وأمرنا - سبحانه - بتقواه وأن نعلم أننا سنُحشر إليه.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

عندما نتدبر آيات هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- رخَّص الله بالتجارة في موسم الحج، وقد كانت العرب تقيم الأسواق في المواسم، كسوق عكاظ ومجنة وذي المجاز، فتحرَّج بعض المسلمين من الاتجار في موسم الحج ظناً منهم أن ذلك من أعمال الجاهلية، فأعلمهم الله أن ذلك مشروع.

٢- يجب الوقوف بعرفة في يوم الحج الأكبر، وهو اليوم التاسع من شهر ذي الحجة، فمن لم يقف فيه في ذلك اليوم فلا حجَّ له، وعلى الحاج أن يفيض منه إلى مزدلفة ليذكر الله عند

جنـــــة الســــــنة

٣- المشعر الحرام، والوقوف بعرفة يستمرُّ من زوال الشمس في اليوم التاسع إلى طلوع الفجر من اليوم العاشر.

٤- المبيت بمزدلفة ليلة يوم النحر واجب، ويبقى الحاج فيه إلى أن يُسفر جدّاً، ثم يفيض قبل أن تطلع الشمس، ويجوز للنساء والضعفاء الإفاضة بعد منتصف الليل.

٥- على من أدَّى نسكه أن يذكر الله كما كانت العرب تذكر آباءَها أو أشدّ ذكراً، ويدعو ربه أن يُؤْتيه في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وأن يقيه عذاب النار، ولا يكونوا كالذين يدعون ربهم ليبسر له أمور الدنيا، من غير التفات إلى أمور الآخرة.

٦- أيام التشريق، وهي الأيام الثلاثة التالية ليوم النحر أيام ذكر الله عز وجل وأيام أكل وشرب، «وكان ابن عمر يكبر بمنى تلك الأيام، وخلف الصلوات، وعلى فراشه، وفي فسطاطه، وفي مجلسه، وفي ممشاه، وكان عمر ﷺ يكبر في قبته بمنى، فيسمعه أهل المسجد، فيكبرون، ويكبر أهل الأسواق، حتى ترتج منى تكبيراً، وكانت ميمونة تكبر يوم النحر، وكانت النساء يكبرن خلف أبان بن عثمان وعمر بن عبدالعزيز ليالي التشريق مع الرجال في المسجد» [البخاري، كتاب العيدين باب رقم ١٢، باب التكبير أيام منى].

٧- أرجح الأقوال أن التكبير يبدأ بعد صلاة الصبح في يوم عرفة، إلى عصر آخر أيام التشريق، وهذا ما ذهب إليه عمرُ بن الخطاب، وعليٌّ بن أبي طالب، وابن عباس، وفي المسألة أقوال أخرى. [راجع تفسير ابن عطية: ٢/ ١٨٣].

٨- يجب أن يبقى الحاج في أيام التشريق بمنى يومين على الأقل، ولا حرج على من انطلق بعد رميه الجمرات في اليوم الثاني، ومن تأخر إلى اليوم الثالث فلا حرج عليه.

٩- قضى الله - تبارك وتعالى - على كثير مما كان يقع من النزاع في الحج في الجاهلية، فقد كانوا يتنازعون في وقت الحج، فتقول طائفة الحج اليوم، وتقول أخرى: الحج غداً، وكانوا ربما نقلوا الحج بالنسيء إلى غير وقته، فجاءَهم الرسول ﷺ بما قطع دابر النزاع والخلاف في هذه الأمور.

جنـــــة الســـــــنة

النص الرابع والأربعون من سورة البقرة
مثلان ضربهما الله لفريقين من الناس

أولاً: تقديم

حدثنا ربنا - تبارك وتعالى - في هذه الآيات عن صنفين من الناس، **الأول منهما**: هم المنافقون الذين يدَّعون الصلاح، وهم في غاية الفساد، وقد روى محمد بن كعب القرظي أنه يوجد في بعض الكتب السماوية: «إنَّ لله عباداً، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمرُّ من الصبر، لبسوا لباس مسوك الضأن من اللين، يجترون الدنيا بالدين» [الدر المنثور: ١/ ٥٧٢]. وهذا كلام حسن وجميل، والله أعلم بمدى صحته عن أهل الكتاب.

وقد قال ابن كثير في وصف هذا الصنف من الناس: «هو أعوج المقال، سيئ الفعال، كلامه كذب، واعتقاده فاسد، وأفعاله قبيحة» [ابن كثير: ١/ ٢٨٣].

والصنف الثاني: المجاهدون في سبيل الله، الذين باعوا أنفسهم لله، لتحصيل مرضاته والذين جاهدوا أنفسهم في العمل بالإسلام كله، مبعدون عن وساوس الشيطان وطرائقه.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾
وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن
يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ
فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم
مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ
ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

حدثنا الله - تبارك وتعالى - في آيات هذا النص عن صنفين من الناس، وإذا أنت أمعنت النظر في هذه الآيات، وأُعطيت بصيرة في فقهها، فإنَّك تشاهد هذين الفريقين فيما حولك من الناس، فالآيات ترسم في ذهنك صورة كلِّ فريق، حتى إنَّك لتقول: هذا هو الذي عناه الله - تبارك وتعالى - فيما حدثنا عنه في هذه الآيات.

جنـــــة السـنـــــة

الأول: مثل المنافقين:

الفريق الأول هم المنافقون، وإليك المعالم التي أبرزتها الآيات لهذا الفريق:

١- هذا الصنف إذا أنت استمعت إليه يعجبك قوله إذا حدَّث، فكلامه حلو وجميل، فهو يدعي أنه محبٌّ لله ورسوله، محبٌّ للمؤمنين، ملتزم بشرائع الإسلام ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [البقرة:٢٠٤] وقد تحدث الله عن هذا المعلم في هذا الفريق في مواضع من كتابه، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨﴾ [البقرة:٨]، وقال: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ [المنافقون:٤].

٢- يدَّعي هذا الصنف أنَّ ما أعلنه بقوله متغلغل في أعماق قلبه، ويزعم كاذباً أنَّ الله شاهد عليه ﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾ [البقرة:٢٠٤] أي يقول: أشهد الله على صدقي فيما أقول، ويعلم الله أني أحبكم، كما قال تعالى في هذا الصنف: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾ [المنافقون:١].

٣- وصف الله هذا الفريق بأنه ألدّ الخصام ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۝٢٠٤﴾ [البقرة:٢٠٤]، «والألد: الشديد الخصومة والجدل، واشتقاقه من لُدَيْدَي العنق، وهما صفحتا العنق، ومعناه: أن خصمه في أيّ وجه أخذ من أبواب الخصومة غلبه في ذلك» [زاد المسير: ١/ ٢٢١. وانظر: معاني القرآن للزجاج: ١/ ٢٧٧].

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أبغض الرجال إلى الله تعالى الألدُّ الخصم» [البخاري: ٢٤٧٥، مسلم: ٢٦٦٨]، وحدَّثنا الرسول ﷺ عن آيات المنافق، فذكر منها: «إذا خاصم فجر» [البخاري: ٣٣، مسلم: ٥٩، كلاهما من حديث أبي هريرة].

٤- إذا ابتعد هذا الصنف من البشر عن مقامه بين يدي الرسول ﷺ أو مقامه بين يدي المؤمنين يكون همّه الإفساد في الأرض، فيقلع الأشجار، ويحرقها، ويقتل نسل الحيوانات ونسل الإنسان، وهذه أعمال فاسدة، والله لا يحبُّ الفساد ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ۝٢٠٥﴾ [البقرة:٢٠٥].

٥- إذا قيل للواحد من هذا الفريق اتقِّ الله، طغا وبغى وأرغى وأزبد، وكل ذلك من آثار الحمية والأنفة الباطلة المذمومة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ﴾ [البقرة:٢٠٦]

جنــــــة الســــــنة

أي: حملته العزة على الإثم، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾ [ص:٢]. قال ابن كثير: «إذا وُعِظَ هذا الفاجر في مقاله وفعاله، وقيل له: اتق الله، وانزع عن قولك وفعلك، وارجع إلى الحقِّ، امتنع وأبى، وأخذته الحمية والغضب بالإثم، أي: بسبب ما اشتمل عليه من الآثام، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ [الحج:٧٢]».

وقد قال الله في هذا الصنف من الناس: ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة:٢٠٦] أي: يكفي هذا الصنف من الناس الذي يطغى ويبغي عندما تأخذه العزة بالإثم- النار، تذلهم، وتهينهم، وبئس المصير مصيرهم.

الفريق الثاني: مثل المؤمنين:

نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة:٢٠٧] في المؤمنين الصالحين أو في طائفة منهم، وهم المجاهدون في سبيل الله، فهؤلاء باعوا أنفسهم لتحصيل مرضات الله تبارك وتعالى، قال سبحانه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة:١١١].

ونادى الله المؤمنين آمراً إياهم أن يأخذوا بجميع شرائع الإسلام، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة:٢٠٨] والسلم هنا: الإسلام، أُمروا أن يأخذوا بالإسلام كله، فيعملوا بأوامره، ويجتنبوا نواهيه.

وبعد أن أمر الله بالأخذ بالإسلام كله، نهى عما يناقضه ويضاده، والذي يناقضه خطوات الشيطان، أي: مسالكه وطرائقه، والشيطان أعظم أعدائنا، لا يرضيه منا إلا أن يوقعنا في النار وغضب الجبار.

وقد حذّر الله هذا الفريق عن الوقوع في الزلل ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ [البقرة:٢٠٩]، ومعنى زللتم: عدلتم عن الحق بعدما

جنـــــة السـنـــة

قامت عليكم الحجج البينة، فاعلموا أنه عزيز حكيم، والعزيز الغالب الذي لا يعجزه الوصول إليكم ومعاقبتكم، والحكيم الذي يضع كل شيء موضعه، فلا ينتقم إلا بحقٍّ.

وتهدد الله الذين لا يدخلون في السلم كافة بإيقافهم بين يديه، عندما يجيء سبحانه لمحاسبة العباد في يوم القيامة ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة:٢١٠].

والمعنى هل ينتظرون إلا أن يأتيهم الله - تبارك وتعالى - في يوم القيامة في ظلل، والظلل ما يظلل، و(الغمام) السحاب الأبيض الرقيق، سمي غماماً لأنه يستر، وقد حدثنا - تبارك وتعالى - عن هذا المشهد في غير آية، فقال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر:٢٢]، وقال: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان:٢٥]، وقوله: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ﴾ [البقرة:٢١٠] أي: فرغ الله من محاسبة الناس في يوم الدين، وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة:٢١٠] أي: ترد الأمور كلها.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

عندما نتأمل آيات هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - ذمَّ الله فريقاً من الناس إذا استمعت إليه أعجبك حديثه، ويدَّعي أنَّ ما في قلبه موافق لحديثه الظاهر، ويُشهد الله على ذلك، وقد أعلمنا ربنا أنه كاذب فيما يدّعيه، وأنّه أشدّ الناس خصومة، وأن عمله يناقض قوله.

٢ - مدح الله الذين يبيعون أنفسهم لله، ويطلبون بذلك رضوان الله وجنته.

٣ - أوجب الله علينا أن نأخذ بالإسلام كلِّه، وذلك بالاستجابة لأوامره، وترك نواهيه، والالتزام بشرائعه، والابتعاد عن خطوات الشيطان.

٤ - حذَّر الله الذين بلغتهم آيات الله الواضحات، فتركوها وابتعدوا عنها، وهذا هو الزلل في القول والعمل.

٥ - حدثتنا الآية الأخيرة من آيات هذا النص عن مشهد من مشاهد القيامة، وهو مجيء الربّ تبارك وتعالى في ظلل من الغمام الأبيض الرقيق، وتأتي الملائكة في ذلك اليوم في تلك الظلل، فيقضي ربُّ العزة بين العباد، ويكون مردّ الأمور كلها إلى ربّ العزة.

٦ - على المؤمن أن يحذر من العدو الذي حدثنا الله عنه في الآيات، وهم المنافقون، وعليه أن يحرص على أن يكون من الفريق الثاني الذي يبيع نفسه لله.

جنـــــة الســـــنة

النص الخامس والأربعون من سورة البقرة
المؤمنون الصادقون من هذه الأمة هم الفريق الأسمى على مدار التاريخ

أولاً: تقديم

المؤمنون الصادقون من هذه الأمة هم الفريق الأسمى بين الأمم كلها، فبنو إسرائيل كتموا كثيراً من الحق الذي أنزله الله، وكفار العرب شغلتهم الدنيا وزينتها، وسخروا بسبب ما يملكونه منها بالأخيار الفقراء من الصحابة الكرام، واتبع المؤمنون الصادقون من هذه الأمة المسار السديد الذي حادت عنه الأمم وضلّت، وتحمّل الأخيار من هذه الأمة التبعات العظام للتكاليف التي كُلِّفوا بها، تحملوا البأساء والضراء وزلزلوا حتى قالوا: متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ
(٢١١) زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ
يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢) كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ
مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا
جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن
يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمۖ
مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ
(٢١٤) يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ
ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ (٢١٥)﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمر الله - تبارك وتعالى - رسوله ﷺ أن يسأل بني إسرائيل عن الآيات التي آتاهم الله إياها:

أمر الله - عزَّ وجلَّ - رسوله ﷺ أن يسأل الكافرين موبخاً إياهم عن الآيات التي آتاهم الله إياها على أيدي رسلهم وأنبيائهم، كالآيات التي أنزلها على موسى، ومنها العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وإنزاله المنَّ والسلوى عليهم في التيه، وفلق البحر لهم، وإنجاؤهم من فرعون وملئه، وإغراق فرعون وقومه، وغير ذلك من الآيات.

جنـــــة الســـــنة

ومن الآيات العظيمة التي أنزلها على أنبيائهم ورسلهم ما حدَّثوا به عن محمد ﷺ، وصفاته وأسمائه وكتابه وأمته، ومبعثه، ومهاجره، فأخفوا بعض هذه الآيات، وحرفوا بعضها، وسيحاسبهم ربّ العزة على ما بدَّلوه وغيَّروه مما جاءَهم من الآيات، وعقابه سبحانه أليم شديد ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾ [البقرة:٢١١].

وقد تهدَّد الذين بدلوا نعمة الله كفراً، أي: استبدلوا الإيمان بالكفر، وشدة عقاب الله تكون في الدنيا والآخرة.

٢- حال الكفار في تزيين الدنيا لهم وطلبهم إيَّاها وسخريتهم من الذين آمنوا:

ذمَّ الله الكفار في انشغالهم بالدنيا وزينتها، وفي افتخارهم على المؤمنين بما حازوه من الدنيا، وبسخريتهم بهم لفقرهم وحاجتهم، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة:٢١٢].

وقد زيَّن الله الدنيا للناس كلِّهم، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران:١٤].

ولكن المؤمنين لا تشغلهم دنياهم عن أُخراهم، فهم يطلبون حسنة الدنيا وحسنة الآخرة، ويقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة:٢٠١] أما الكفار فلا يطلبون إلا حسنة الدنيا، ويقولون ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾ [البقرة:٢٠٠].

إن زينة الدنيا ابتلاء واختبار، فمن آمن، وشكر الله على نعمائه، فقد أفلح، وإلا خاب وخسر ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف:٧].

وقد ذمَّ الله الكفار في استعلائهم على المؤمنين وافتخارهم عليهم بسبب زينة الدنيا التي حازوها، فهم يسخرون بهم، وغفل هؤلاء عما سيعطيه الله لعباده المؤمنين في جنات النعيم، وما سيرزقهم إياه من الرزق الواسع بغير حساب ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة:٢١٢] وقوله: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ لأنهم يكونون في جنات النعيم والكفار في النار في أسفل سافلين.

جنـــــة السـنــــة

٣- كان الناس على دين واحد فاختلفوا فبعث الله النبيين وأنزل عليهم الكتب:

أخبرنا ربنا - جلَّ وعلا - أن الناس كانوا على دين الإسلام، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين برحمة الله وجنته، ومنذرين غضبه وناره، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [يونس:١٩].

قال السيوطي: أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو يعلى والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس، قال: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة:٢١٣] قال: «على الإسلام كلُّهم» [الدر المنثور: ١/ ٥٨٢].

وكان الناس كلُّهم على الإسلام عبر تاريخهم مرتين، **الأولى**: في عهد آدم ﷺ، **والثانية**: بعد أن أهلك الله الكافرين من قوم نوح ﷺ بالطوفان، وبقي في الأرض نوح ومن معه، وفي الآية محذوف تقديره (فاختلفوا) دلَّ عليه قوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]، وصرَّح بهذا المحذوف في سورة يونس ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [يونس:١٩] واختلافهم كان بإيمان بعضهم، وكفر بعض، قال تعالى: ﴿وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٣].

فلما اختلفوا بعث الله أنبياءه، وأنزل عليهم الكتب ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون:٤٤].

وقد أخبرنا الله - تبارك وتعالى - أنه أنزل كتبه بالحق، ليس فيها شيء من الباطل، والغاية من إنزالها ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣] فالرسل جميعاً يُعرِّفون بالله الواحد الأحد، ويدلُّون العباد على الكيفية التي يعبدون بها الله الواحد.

وقوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة:٢١٣] والذين اختلفوا فيه هم أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران:١٩]. وقوله: ﴿بَغْيًا﴾ أي: حسداً من اليهود لهذه الأمة.

وقد هدى الله - تبارك وتعالى - هذه الأمة لما اختلفوا فيه من الحقِّ بإذنه، هداهم إلى التوحيد، وهداهم إلى الإيمان بالرسول الخاتم، وهداهم إلى الصلاة والزكاة والقبلة، وغير

جنـــــة الســـــنة

ذلك ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة:٢١٣].

٤- لا بد لمن يدخل الجنة أن يعاني الأهوال:

أنكر الله - تبارك وتعالى - على من ظنَّ أنه سيدخل الجنة قبل أن يُبتلَى ويُختبَر ويُمتحَن، كما وقع للأمم السابقة، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة:٢١٤] وقوله: ﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة، بمعنى: بل، والمعنى، بل أحسبتم، وقوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ﴾ [البقرة:٢١٤] هم الرسل وأتباعهم الذين سبقونا، مستهم البأساء والضراء، وهي الأمراض، والأسقام، والآلام، والمصائب والنوائب.

وقد أصاب الصحابة كثير من البأساء والضراء، وهم في مكة، وقد تسلط عليهم الكفار فيها، وفي المدينة، وهم يجاهدون الكفار، وقد طلب الصحابة من الرسول ﷺ في مكة أن يدعو الله لهم فقالوا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا، فقال: «إنَّ من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه، فيخلص إلى قدميه، لا يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه، لا يصرفه ذلك عن دينه» ثم قال: «والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون» [البخاري عن خبَّاب: ٦٩٤٣].

وحدثنا عن البأساء والضراء التي أصابت الرسول ﷺ وأصحابه في الخندق، فقال: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب:١٠-١١].

٥- مصارف النفقة:

سأل الصحابة الرسول عمّا ينفقونه، فأجابهم ببيان مصارف النفقة المرضية لله، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة:٢١٥]. بيّن الله لنا المصارف التي نصرف إليها أموالنا، وهي الوالدان، والأقربون من جهة الأب والأم، كالأجداد والجدات، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، وأولادهم، واليتامى، وهم الفقراء الذين مات آباؤهم وهم صغار، والمساكين، وهم الفقراء الذي لا يملكون مالاً، أو الذين يملكون من المال ما لا يكفي

جنـــــة الســـــنة

نفقاتهم الضرورية، وابن السبيل، وهو المسافر المنقطع به، الذي نفدت نفقته، أو ضاعت، وحثهم الله على الإنفاق بإخبارهم بأنه عليم بكل ما يفعلونه من خير، وإذا كان الأمر كذلك فإنه سيجزيهم ويثيبهم على بذلهم وإنفاقهم.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- آتى الله بني إسرائيل كثيراً من الآيات العظيمة، وبدل أن يشكروا نعم الله التي أنزلت عليهم كفروها، فاستحقوا عقوبة الله.

٢- ملأت محبة الدنيا قلوب الكفار، فاشتغلوا بها عن الآخرة، وترفعوا عن المؤمنين ساخرين بهم، مع أن المؤمنين في جنات النعيم في يوم الدين، والكفار في العذاب الأليم، وقبيح بالمرء أن يسخر ممن هو فوقه.

٣- كان الناس أمة واحدة على الإسلام، فلما اختلفوا بإيمان بعضهم وكفر بعض، بعث النبيين وأنزل عليهم الكتاب بالحق، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وهذا يدلُّ على وجوب تحكيم كتاب الله بيننا فيما اختلفنا فيه.

٤- الذين اختلفوا في الكتاب هم اليهود، بعدما أنزل إليهم من عند الله، والذين آمنوا به واهتدوا به هم المؤمنون من هذه الأمة.

٥- لا بد لمن أراد دخول الجنة أن يعاني في سبيل ذلك اللأواء والضراء ويصاب بشيء من الخوف والجوع ونقص من الثمرات، ويصل به الحال إلى أن يتساءل عن السبب في تأخر نصر الله، ونصر الله قريب.

٦- من مجالات الإنفاق التي حدَّدها الله: الإنفاق على الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل.

جنـــــة الســـــــنة

النص السادس والأربعون من سورة البقرة
الحكمة من فرض القتال على الأمة الإسلامية

أولاً: تقديم

أعلمنا الله - تبارك وتعالى - في الآية الأولى من هذا النص أنه أوجب علينا القتال مع أن نفوسنا تكرهه، وأعلمنا - سبحانه - بقاعدة عظيمة، وهي أنه أوجب علينا ما يعلم أنه خير لنا، ولو كانت نفوسنا تكرهه، وحرَّم علينا ما فيه شر لنا ولو كانت نفوسنا تحبه، ولذلك علينا أن نتبع ما شرع الله موقنين بالعواقب.

وفي الآية الثانية من هذا النص نهى اللهُ عن القتال في الشهر الحرام، وفيه هجوم على الكفرة المشركين الذين ارتكبوا من الحرمات ما هو أشد من القتال في الشهر الحرام، من الصد عن سبيل الله، والكفر بالله ورسوله، وإخراج رسول الله والمؤمنين معه من البلد الحرام، وفتنة الأخيار عن دينهم.

ثانياً: آيات هذا النص

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - أوجب الله في الآية الأولى من هذا النص القتال على صحابة رسوله ﷺ ومن جاء من بعدهم، وكان القتال ممنوعاً في أول الأمر، ثم أذن فيه، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ [البقرة:٢١٦] ومعنى ﴿كُتِبَ﴾: فرض. والمراد بـ ﴿ٱلْقِتَالُ﴾ قتال الأعداء من الكفار.

ووصف الله القتال بأنه كُرْه لمن فرض عليهم، ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦] والكُرْه: المشقَّة، والكَرْه: ما أكرهت عليه، «وإنما كان الجهاد كُرْهاً، لأن فيه إخراج المال، ومفارقة الوطن والأهل، والتعرض بالجسد للشجاج والجراح وقطع الأطراف، وذهاب النفس، فكانت كراهيتهم لذلك، لا أنهم كرهوا فرض الله عليهم» [القرطبي: ٢/ ٣٨].

جنـــــة الســـــنة

وقد أخبرنا ربنا - تقدَّس وتعالى - أنَّ ما تكرهه النفوس كالقتال إذا فرض علينا يأتي بالمحبوب، فبالقتال يكون الاستشهاد، وهو باب عظيم لنيل الحياة الأخروية عند الله، وبالجهاد تكون حماية الدين ورفعته، وبه يكون الحفاظ على الديار، وبترك الجهاد يتقوى علينا أعداؤنا فيغلبونا، ويذلُّونا، ويأخذون أموالنا، ويطبقون علينا قوانينهم ونظمهم، كما حدث في ديار الأندلس، فقد ضاعت تلك البلاد لما ترك المسلمون الجهاد، يقول القرطبي، وكان في الأندلس في آخر العهد بها [القرطبي ٢/ ٣٨]: «كما اتفق في بلاد الأندلس، تركوا الجهاد، وجبنوا عن القتال، وأكثروا من الفرار، فاستولى العدو على البلاد، وأي بلاد؟! وأَسَرَ وقَتَلَ وسَبَى واستَرَقَّ، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون، ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته»، وقال الحسن في معنى الآية: «لا تكرهوا المُلِمَّاتِ الواقعة، فلَرُبَّ أمر تكرهه فيه نجاتُك، ولربّ أمر تحبُّه فيه عطبك، وأنشد أبو سعيد الضرير:

رُبّ أمـــــــر تتقيـــــــه   جـــــرّ أمـــــراً ترتضـــــيه
خفـــــي المحبـــــوب منـــــه   وبـــــدا المكـــــروه فيـــــه»

وقد وقع لنا في أيامنا هذه مثل ما وقع لأهل الأندلس، أو ما هو أعظم، فقد احتل أعداء الإسلام ديار المسلمين، وجزَّؤوها، وأذلوا رجالها، وسلبوا خيراتها، وأعطوا فلسطين لليهود، فأقاموا فيها دولة لهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة:٢١٦].

٢- القتال في الأشهر الحرم:

أعلمنا ربنا تبارك وتعالى أنه قضى في كتابه الذي سجله عند خلقه السموات والأرض أن السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، لا يجوز القتال فيهن ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة:٣٦].

وكان العرب قبل الإسلام يلتزمون بترك القتال في هذه الأشهر الأربعة، فلم يكونوا يسفكون الدم فيها، ولا يُغيرون على عدو، والأشهر الحرم هي: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب، ثلاثة سرد، وواحد فرد.

وقد وقع بعد الهجرة أن سرية أرسلها الرسول ﷺ جهة مكة تستطلع أخبار المشركين، فالتقت بقافلة لقريش، وظَنَّ الصحابة أن الوقت هو اليوم الأخير من شهر جمادى الآخرة، فهاجموا القافلة، واستولوا عليها، واستاقوها إلى المدينة، وتبين أن الوقت كان أول الشهر

جنـــــة الســـــــنة

الحرام رجب، فعيَّر المشركون الرسول ﷺ وصحبه أنهم انتهكوا حرمة الشهر الحرام، قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ ﴾ [البقرة:٢١٧].

وقوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ ﴾ [البقرة:٢١٧] يسألونك عن حكم القتال في الشهر الحرام؟ فقوله: ﴿قِتَالٌ فِيهِ ﴾ بدل اشتمال.

وقد أجاب الله – تبارك وتعالى – وقرر أن القتال في الشهر الحرام أمر كبير، وحرمته في درجة الكبائر، ولكنه لم يقف عند ذلك، بل هاجم الكفرة الذين أثاروا عاصفة من جراء خطأ وقع فيه المجاهدون من غير تعمد، فقال لهؤلاء الذين أثاروا العاصفة: «إنكم يا كفار قريش تستعظمون علينا القتال في الشهر الحرام، وما تفعلونه أنتم من الصدِّ عن سبيل الله لمن أراد الإسلام، ومن كفركم بالله، وإخراجكم أهل المسجد منه، كما فعلتم برسول الله وأصحابه أكبر جرماً عند الله» [القرطبي: ٢/ ٤٤].

لقنت هذه الآيات المسلمين حُجَّتهم التي واجهوا بها المشركين، وصاغ معناها بعض شعراء المسلمين شعراً، وهو عبدالله بن جحش، وردَّ بها على المشركين فقال:

تعــــدون قـــتلاً في الحـــــرام عظيمـــــة ... وأعظـم منـه لـو يـرى الرشـد راشـد

صـــــدودكم عــــما يقــــول محمـــــد ... وكفـــــر بــــــه والله راء وشـــــاهد

وإخـــــراجكم مــــن مســـجد الله أهلـــه ... لـــئلا يُــــرى لله في البيـــــت ســــاجد

والمراد بقوله: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ ﴾ [البقرة:٢١٧] أي: فتنة الكفار المؤمنين في مكة عن دينهم حتى يهلكوا، فإنها أعظم من القتل.

٣- غاية الكفار التي يريدونها من وراء قتالهم المسلمين:

أخبرنا الله عزَّ وجلَّ أن الكفار عازمون على قتال المسلمين أبداً، وأن غايتهم من وراء القتال هو إرجاع المسلمين عن دينهم إن استطاعوا ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ ﴾ [البقرة:٢١٧]، وإعلام الله الصحابة والمؤمنين كلهم بحال المشركين معهم فيه استثارة للمؤمنين كي يواجهوا المشركين بقوة، ويقوموا لهم، ولا يأخذونهم بمعسول القول الذي قد يواجهون به لإضعاف حميتهم في مواجهة الكفار.

٤- حكم المرتد:

أخبرنا ربنا – تبارك وتعالى – بأن الذي يستجيب للكفار فيما عزموا عليه، وقاتلوا من أجله، فيرتد عن دينه، فقد أوبق نفسه وأهلكها، ذلك أن الله يحبط عمل المرتدين، أي: يبطله

جنـــــة الســـــنة

في الدنيا والآخرة إن ماتوا على ردّتهم، ويصبح المرتدون الذين ماتوا وهم كذلك أصحاب النار خالدين فيها أبداً ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة:٢١٧].

٥- ثناء الله على المؤمنين المهاجرين المجاهدين:

أثنى الله - تبارك وتعالى - على العصبة التي بعثها الرسول ﷺ في السرية التي أرسلها قبل مكة تستطلع أخبار المشركين، فأحاطت بقافلة قريش، وأسرت من أسرت، وقتلت من قتلت، وكان أصحاب تلك السرية يتصفون بثلاث صفات كريمات، وهي: الإيمان، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، وأخبر سبحانه أن هؤلاء يرجون رحمة الله، والله غفور رحيم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة:٢١٨].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أوجب الله القتال على الأمة الإسلامية بعد أن كان ممنوعاً منهياً عنه.

٢- القتال مكروه للنفوس، لأن فيه إذهاب النفس والمال، ومع أن النفوس تكرهه ففيه خير كثير لنا في الدنيا والآخرة، والله العليم الخبير، يعلم بالأمور التي عاقبتها إلى شرٍّ أو خير، وعلم البشر في ذلك ناقص أو معدوم.

٣- على المسلمين أن يلتزموا بأحكام الشريعة الإلهية الربانية، فإنها تقودهم إلى الخير دائماً وأبداً، وعليهم أن يحذروا متابعة أهواء النفوس في مواجهة أحكام الشريعة.

٤- لا يجوز القتال في الأشهر الحرم، وهي أربعة، واحد فرد، وهو: رجب الذي بين جمادى الآخرة وشعبان، وثلاثة سرد، أي: متتابعة، وهي: وذو القعدة، وذو الحجة، وشهر الله المحرم، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن تحريم القتال فيها منسوخ، وهذا ليس بصواب، بل الصواب استمرار حرمة القتال فيها أبداً.

٥- أثار أعداء الإسلام عاصفة من الشكوك حول خطأ وقع فيه المسلمون بقتالهم في الشهر الحرام من غير قصد، وقد قرر الحقُّ - تبارك وتعالى - بأن القتال في الأشهر الحرم كبيرة من الكبائر، ولكنه وجّه إلى الكفرة المعترضين سيلاً من الردود، فهم فعلوا كثيراً من الأخطاء التي تجعل ذنب المؤمنين صغيراً بالنسبة لما ارتكبوه من الصدِّ عن دين الله، والكفر بالله،

جنـــــــة السـ ـــــــنة

والاعتداء على المؤمنين في المسجد الحرام، وإخراجهم المؤمنين من ديارهم، وفتنتهم لهم عن دينهم، ثم قتالهم للمؤمنين بعد أن أخرجوهم من ديارهم.

وهذا يعلمنا كيف نرد على خصومنا، ونقهرهم في مجال الحجاج.

٦- شدة عداء الكفار للمسلمين، فقد وطّنوا أنفسهم على قتالنا حتى يردونا عن ديننا إن استطاعوا، ولذلك وجب علينا أن لا ننخدع بمعسول قولهم، وعلينا أن نبذل جهدنا في قتالهم.

٧- عاقبة المرتد الذي يموت على ردَّته عاقبة وخيمة أبداً، فقد أخبر الله أن أعماله تحبط في الدنيا والآخرة، وأن مصيره إلى النار خالداً فيها أبداً.

٨- ثناء الله تبارك وتعالى على المؤمنين الذين حازوا إلى الإيمان الهجرةَ والجهادَ، فهؤلاء يرجون رحمة الله، والله غفور رحيم.

جنـــــة الســـــنة

النص السابع والأربعون من سورة البقرة
الإثم الكبير الذي في الخمر والميسر

أولاً: تقديم

هذا النصُّ فيه تسديد وتصويب للمجتمع الإسلامي الناشئ في المدينة المنورة، فقد بيّن لهم فيه أن الخمر والميسر فيهما إثم كبير، يفوق ما فيهما من منافع، وقد غيرت هذه الآية نظرة المسلمين إلى شرب الخمر ولعب الميسر، وأصبحا محل حرج بعد أن كانا موضع تفاخر. وبيّن الله للمسلمين في هذا النص أن الإنفاق يكون فيما زاد عن الحاجة، فلا يجوز أن ينفق المرء ما يحتاج إليه هو وأهله وولده، لأنه بذلك يصبح فقيراً محتاجاً إلى نفقة غيره. وبيّن في آخر النص التصرف السديد الذي يجب أن يلتزمه ولي اليتيم مع اليتيم، فأجاز الله مخالطتهم بالمال والطعام في حال كون الولي مريداً الإصلاح.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم من سورة البقرة

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- دلالة الأسئلة التي أجابت عليها آيات هذا النص:

حوى هذا النص من القرآن ثلاثة أسئلة وجهها الصحابة إلى الرسول ﷺ، وحوى النص السابق سؤالاً واحداً، كما حوى النص التالي سؤالاً خامساً، فهذه خمسة أسئلة وردت في آيات قريب بعضها من بعض، مع أن كل الأسئلة التي أجاب عليها الله في القرآن ثلاثة عشر سؤالاً لا غير.

وتوجيه هذه الأسئلة من الصحابة للرسول ﷺ يدلُّ على مدى تفاعل الصحابة مع الدين الذي أنزل عليهم، وطرح الإشكالات التي قامت في نفوسهم على رسولهم ﷺ، ليسيروا وفق ما تمليه عليهم النصوص المنزلة من عند الله أو التي يقولها رسول الله ﷺ.

جنـــــة الســـــنة

٢- **التعريف بالخمر:**

السؤال الأول في هذا النص الذي طرحه الصحابة على الرسول ﷺ يتعلق بحكم شرب الخمر ولعب الميسر، والخمر في اللغة: كل ما ستر الشيء وغطاه، ومنه خمار المرأة الذي يغطي رأسها، والخمر في الشرع كل ما يصنع من التمر وغيره، فيؤدي إلى ضياع العقل وفقده.

٣- **ولع أهل الجاهلية بالخمر:**

كان لأهل الجاهلية ولع شديد بالخمر، فكانوا يشترونها، ويخزنون منها الكثير، ويتفاخرون بشربها، ويمتدحون الخمر المُعَتَّقَة، ويتبارون في إظهار محاسنها وصفاتها، وما تحدثه فيهم إذا هم شربوها، قال حسان في جاهليته يثني على نفسه إذا شرب الخمر:

ونشـــــربها فتتركنـــــا ملوكـــــاً   وأســـــداً لا ينهنهنـــــا اللقـــــاء

وقال المنخل اليشكري يصف نفسه إذا هو شرب الخمر، وإذا أفاق من سكرته:

وإذا شربـــــــت فـــــــإنني   ربّ الخورنـــــــق والســـــــدير

وإذا صـــــــحوت فـــــــإنني   ربُّ الشـــــويهة والبعـــــــير

وقال طرفة بن العبد في معلقته مقرراً أن إحدى الخصال التي يطلب الفتيان الحياة لأجلها شرب الخمر، ويصف لون الخمر التي يشربها بأنها كُمَيْتٌ، إذا صُبَّ عليها الماء ظهر على وجهها الزبد:

ولـولا ثـلاث هـنَّ مـن عيشـة الفتـى   وجَـدِّك لم أَحْفِـل متـى قـام عُـوَّدي

فمـنهن سـبقي العـاذلات بشـربة   كُميـت متـى مـا تُعْـلَ بالمـاءِ تُزْبِـدِ

ويفتتح عمر بن كلثوم قصيدته التي كانت إحدى المعلقات طالباً من محبوبته أو ساقيته أن تسقيه في الصباح خمور قرى الأَنْدَرِين، وهي خمور مشعشة أي: ممزوجة بالماء، كأنها من شدة حمرتها بعد امتزاجها بالماء ألقي فيها نُوارُ الحُصِّ، وَوَرْدَتُه ذات لون أحمر قانٍ، ويتحدث عن أثرها في شاربها، حين يشربها، فإنها تدفعه وتحركه إلى السخاء بالأموال والجود بها، وتنسيه همومه وحوائجه وأحزانه، وحتى الشحيح البخيل عندما يشربها تجعله جواداً باذلاً لماله، وفي ذلك يقول:

ألا هُبِّـــي بِصَـــحْنِك فاصـــبحينا   ولا تُبقِـــي خمـــورَ الأَنْـــدَرِينا

مُشَعْشَـــعةً كـــأنَّ الحُـــصَّ فيهـــا   إذا مـــا المـــاء خالطهـــا سَـــخِينا

تَجُـــورُ بِـــذِي اللَّبانَـــةِ عـــن هـــواه   إذا مـــا ذاقهـــا حتـــى يَلِيْنـــا

جنـــــة الســــــنة

تــرى اللَّحِــزَ الشـــحيحَ إذا أُمِـــرَّتْ عليـــه لمالـــــه فيهــــا مهينـــــا
صَـــبَنْتِ الكـــأس عنـــا أمَّ عمـــرو وكـــان الكـــأسُ مجراهـــا اليمينـــا
ومــــا شرُّ الثلاثـــــة أم عمـــــرو بصـــاحِبِك الـــذي لا تَصْـــبحينا
وكـــأس قـــد شربـــتُ بِبَعْلَبَـــكٍّ وأخـــرى في دمشـــقَ وقاصِرينـــا

[شرح المعلقات للزوزني: ص١٦٥]

٤- **كيف عالج الإسلام هذا المرض العضال:**

لقد وصل الحال بالعرب في جاهليتها إلى درجة يصعب معها العلاج والدواء، كما هو الحال في المجتمعات الغربية اليوم، فإن الذي تغلغلت الجريمة في أعماقه وهو يعدّها فضيلة وتقدماً وحضارة لا يفيد معه النصح والعلاج، إن النصح والعلاج ينفع مع رجل يرى أنه عندما يزني ويرتكب الشذوذ ويتعاطى الخمر والمخدرات يرتكب جريمة، وأن فعله انحراف، أما عندما يفعل ذلك، وقد وقر في أعماق نفسه أن هذه الأفعال فضائل يستحق المدح بها يصبح العلاج عزيزاً بعيد المنال.

لقد طالب قوم لوط بإخراج لوط وأهله من ديارهم، لأنهم لا يرضون باللواط ولا يتعاطونه، فكانت تلك جريمتهم التي تستحق الإخراج ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦﴾ [النمل:٥٦]، والمجتمع الغربي اليوم حاله كحال المجتمع الجاهلي يعدّ تعاطي الخمر والزنا والميسر من الفضائل، ولذا فإن الإسلام عالج في بداية الأمر النفوس المنحرفة، والموازين المختلة، والأحكام الجائرة، فما لم يقم ذلك كله فإن العلاج سيفشل، لقد حرمت أمريكا الخمر ثلاثة عشر عاماً في الثلث الأول من القرن الماضي، وفشلت في معالجته ومقاومته، ووجدت أن متعاطيه أصبحوا بعد المنع أكثر، وأن التجارة فيه وتصنيعه قد ازدادت، وأن نوعية المواد التي راجت من الخمور نوعية سيئة، فاضطرت إلى العودة إلى إباحته، وها هي الأصوات ترتفع في عالم الغرب اليوم تدعو إلى إباحة المخدرات بدعوى أن ملاحقة الذين يصنعونها ويروجونها ويتعاطونها لم تحد من الاتجار فيها وتعاطيها، ونخشى أن تتكرر مأساة إباحة الخمر كما حدث في أمريكا.

٥- **مراحل تشريع الخمر:**

مَرَّ تشريع الخمر بأربع مراحل:

الأولى: أشار القرآن لأهل الإيمان في بداية الأمر أن الخمر غير مرضي عنها، وهي إشارة لا يكاد يدركها إلا النبيه البصير ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل:٦٧]، فلم يدخل السكر في الرزق الحسن.

جنـــــة الســـــــنة

الثانية: في فترة لاحقة صوَّب موازينهم في الحكم على الخمر، وقوّم انحراف مثلهم وتصوراتهم، فأنزل قوله: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾ [البقرة:٢١٩].

لقد أنهت هذه الآية تمدح المؤمنين وافتخارهم بشرب الخمر، فكيف يفخر بشربها وتعاطيها من أصبحت عقيدته أنّ ما فيها من الإثم والمضار أعظم مما فيها من المنافع.

لقد كانت هذه الخطوة ضرورية في العلاج، بل إنّ العلاج لن يتحقق من غيرها.

الثالثة: حرمها الإسلام تحريماً جزئياً، كي يعتاد المدمنون تركها إلى حين، ليسهل بعد ذلك عليهم تركها تركاً كلياً ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء:٤٣].

الرابعة: ثم جاءت الآية الفاضحة للخمر الدالة على ما فيها من المفاسد والشرور والآثام، المُعرِّفة بالآثار الخبيثة التي تتركها في المجتمعات الإنسانية، وهي آثار مدمرة، تفرح الشيطان، وتغضب الرحمن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة:٩٠-٩١].

وسنتناول دلالة هذه الآية على تحريم الخمر عندما نعرض لتفسيرها في سورة المائدة إن شاء الله.

٦- التعريف بالميسر:

الميسر: القمار، وقد فشى القمار في أهل الجاهلية، حتى بلغ فيهم كما يقول ابن عباس إلى أن يخاطر الرجل على أهله وماله، فأيهما قمر صاحبه ذهب بماله وأهله [القرطبي: ٢/ ٤٩].

والميسر يورث العداوة والبغضاء، فإنَّ مال الإنسان يصير إلى غيره بغير جزاء يؤخذ عليه [معاني القرآن للزجاج: ١/ ٢٩٢].

وقد فشى القمار اليوم بين المسلمين، وأصبحت جوائز القمار تساوي مبالغ كبيرة، وأصبح بعض الذين يعملون في الخير يغررون بالناس، ويزعمون أن ريع القمار يذهب إلى العمل الخيري، وقد كان أهل الجاهلية يوزعون الجزور الذي قامروا عليه على الفقراء، ولم ينجهم ذلك من غضب الله ولعنته.

جنـــــة الســـــنة

وقد تطورت وسائل القمار اليوم، وأصبح له أندية خاصة به، يقصدها الأثرياء، وقامت بعض البنوك بدور المقامر، وأصبح في بعض الدول مقامرات على مستوى الدولة، والقمار كله سواء، ولا يرقى في الإسلام إلى مرتبة الحلال أبداً.

٧- **حكم شرب الخمر ولعب الميسر:**

عندما أنزلت هذه الآية لم تحرم الخمر ولا الميسر، ولكنها حولت النفوس التي كانت تعدُّ شرب الخمر ولعب الميسر من الشرف الذي يتفاخر به، فخبا ذلك في النفوس، وحلَّ محلَّه ما تضمنته الآية في قوله: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩].

٨- **المنافع التي في الخمر والميسر:**

لا شك أن في الخمر والميسر منافع، ولكنها منافع قليلة مرجوحة، فالتجار يكسبون من وراء التجارة في الخمر، وبعض العلماء عددوا منافع الخمر والميسر فأخطؤوا إذ أدخلوا فيها ما ليس منها، فقد أدخل بعض أهل العلم في منافع الخمر «أنها تهضم الطعام، وتقوي الضعف، وتعين على الباه، وتسخي البخيل، وتشجع الجبان، وتصفي اللون، إلى غير ذلك» [القرطبي: ٢/ ٥٣]. وكل هذا الذي ذكروه غير صحيح، وقد توصل البحث العلمي اليوم إلى خطأ من ظنَّ أن هذه منافع تجتلب، بل هي مضار تجتنب.

وقد أدرك بعض أهل الجاهلية مضار الخمر وهم في الجاهلية، منهم قيس بن عاصم المنقري وكان شراباً لها في الجاهلية، فشربها يوماً، فجاء في شربه بما يلام عليه، فحرمها على نفسه وقال:

رأيـــت الخمـــر صـــالحة وفيهـــا ... خصـــال تفســـد الرجـــل الحلـــيما
فـــلا والله أشربهـــا صـــحيحاً ... ولا أُشـــفَى بهـــا أبـــداً ســـقيما
ولا أعطـــي بهـــا ثمنـــاً حيـــاتي ... ولا أدعـــو لهـــا أبـــداً نـــديما

٩- **دعوة عمر بن الخطاب ربَّه أن يبين لهم في الخمر بياناً شافياً:**

ورد في كتب السنّة أن عمر بن الخطاب دعا ربه تبارك وتعالى أن يبين لهم حكم الخمر بياناً شافياً، وكان يدعو بهذا الدعاء كلما أنزلت آية في الخمر، حتى إذا نزلت الآية المحرمة، قال: انتهينا، انتهينا.

ففي سنن الترمذي عن عمر بن شرحبيل أبي ميسرة، عن عمر بن الخطاب، أنه قال: «اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانَ شفاء، فنزلت التي في البقرة: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ

جنـــــة الســـــنة

﴿وَٱلۡمَيۡسِرِۖ﴾ الآية [البقرة:٢١٩]، فدُعيَ عمر فقُرِئت عليه فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بيان شفاء، فنزلت التي في النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء:٤٣] فدُعي عمر فقُرِئت عليه، ثم قال: اللهمَّ بيِّن لنا في الخمر بيان شفاء، فنزلت التي في المائدة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ [المائدة:٩١] فدُعي عمر فقرئت عليه فقال: انتهينا انتهينا» [الترمذي: ٣٠٤٩، صحيح سنن الترمذي: ٢٤٤٢].

١٠- سؤال الصحابة عن المقدار الذي ينفقونه من أموالهم:

سأل الصحابة رضوان الله عليهم رسولهم ﷺ عن المقدار الذي ينفقونه من أموالهم، فقال لهم ربهم - تبارك وتعالى -: أنفقوا العفو ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ [البقرة:٢١٩] والعفو ما فضل عن النفس والعيال، وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول» [البخاري: ١٤٢٦].

وهذه الآية في نفقات التطوع، وقد حددت آية الزكاة المصارف الواجب إخراجها فيها، والصواب أن في المال حقّاً سوى الزكاة.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ [البقرة:٢١٩-٢٢٠] أي: بيَّن الله لنا الآيات المتعلقة بأمر النفقة، لنتفكر في أمر الدنيا والآخرة، فنحبس من أموالنا ما يصلح نفوسنا وأهلنا وأولادنا، وننفق منها فيما ينفعنا في الآخرة، فالدنيا زائلة فانية، والآخرة باقية خالدة.

١١- على ولي اليتيم أن يتصرف في أمر اليتيم بما يصلحه:

شدَّد الله على المؤمنين في أمر اليتامى، وهذه الآية في هذا النصِّ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ﴾ [النساء:١٠]. فعزل الصحابة أموال اليتامى عن أموالهم، وطعامهم عن طعامهم، فشقَّ ذلك على ولي اليتيم، كما شقَّ على اليتامى، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية مبيناً أن الواجب هو التصرف بما يصلح مال اليتيم، وفي ضوء منهج الإصلاح تكون مخالطتهم خير، والله يعلم المفسد من المصلح، والله عزيز حكيم ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٢٠﴾ [البقرة:٢٢٠].

جنـــــة الســـــــنة

ومثَّل ابن عباس للمخالطة بقوله لولي اليتيم: أن يشرب من لبنك، وتشرب من لبنه، ويأكل من قصعتك وتأكل من قصعته، ويأكل من ثمرتك، وتأكل من ثمرته. [فتح القدير: ١/ ٣٩٢].

والمراد بقوله: ﴿ لَأَعْنَتَكُمْ ﴾ أي: لأحرجكم وضيق عليكم، ولكنه وسَّع ويسَّر عليكم فيما شرعه لكم في مخالطة الأيتام.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - شرب الخمر، ولعب الميسر أمران مذمومان مستقذران، إثمهما كبير، ونفعهما قليل.

٢ - غيَّرت هذه الآية موقف المؤمنين تجاه الخمر والميسر، فقد كانوا يعدُّون شرب الخمر ولعب الميسر من الشرف والسؤدد، فلما تنزلت هذه الآية امتنع كثير من المسلمين عنهما، والذي بقي على حاله منهم لامته نفسه على اقترافهما.

٣- تم تحريم الخمر والميسر على مراحل، كل مرحلة كانت تنسخ ما قبلها، حتى أنزل الله في الخاتمة تحريم الخمر والميسر تحريماً قاطعاً.

٤ - على المسلم أن ينفق ما زاد عن حاجته وحاجة من يعوله، ولا يجوز له أن ينفق ماله كلَّه، أو ما يضير بنفسه أو من يعوله، بحيث يحتاجون إلى غيرهم فيما يحتاجون إليه من النفقة.

٥ - وسَّع الله في تعامل القائمين على اليتامى، فقد أباح الله للأولياء أن يخالطوا اليتامى، بشرط أن يكونوا في ذلك قاصدين الإصلاح، والله يعلم المفسد من المصلح.

٦- كان الصحابة مهتمين في المرحلة التي أنزلت فيها هذه الآيات بالتعرف على تفاصيل المنهجية التي يريدها الله منهم، فكانوا يتوجهون إلى الرسول ﷺ، ليبين لهم ما ينوبهم، فكان الرسول ﷺ يوضح بعضاً مما سئل عنه، وكان القرآن يتنزل بتوضيح بعض آخر.

جنـــــة الســــــنة

النص القرآني الثامن والأربعون من سورة البقرة
حكم النكاح بين المسلمين والمشركين

أولاً: تقديم

ابتداءً من هذا النص، وأوله الآية إحدى وعشرون ومائتان وحتى الآية اثنتين وأربعين ومائتين كلها في بيان أحكام كثيرة متعلقة بالأسرة، وللبشر في الأحكام المتعلقة بالأسرة طرائق كثيرة مختلفة، والأمة الفاضلة تحتاج إلى بيان المنهج الأقوم لتقيم أسرها عليه.

وقد بينت آيات هذا النص حكم تزوج المؤمنين من الكافرات، وحكم تزويج المؤمنات من الكفار، وحكم إتيان النساء في المحيض، ودلت المؤمنين على الطريقة التي يأتون أزواجهم بها.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة البقرة

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تحريم نكاح المسلمين من الكافرات والمشركات:

نهى الله - تبارك وتعالى - المؤمنين عن نكاح المشركات ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ﴾ [البقرة:٢٢١] وقرر الله سبحانه أن زواج المؤمن من أمة مؤمنة، خير عند الله وفي شرعة من الزواج من امرأة مشركة، ولو أعجبت من يريد الزواج بها، لكونها ذات حسب أو نسب أو جمال أو مال.

٢- جواز نكاح الكتابيات:

الكتابيات وهن اليهوديات والنصرانيات داخلات في المشركات، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن

جنـــــة الســـــــنة

يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ﴾ [المائدة:١٧] وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣].

ومع كونهن مشركات فإن الله خصهنَّ بأحكام خاصة بهن من دون المشركات، وأجاز للمؤمنين نكاحهن، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة:٥]. ومع كون نكاحهنَّ مشروعاً، إلا نكاح المؤمنات أولى وأفضل، فقد أمرنا الرسول ﷺ أن ننكح ذوات الدين من المسلمات، فذات الدين أولى من غيرها ممن قلَّ دينها، وعلى ذلك فالمسلمة أفضل من اليهودية والنصرانية، وقد كره عمر بن الخطاب الزواج من الكتابية، فعن أبي وائل،قال: «تزوج حذيفة يهودية، فكتب عمر إليه أن خلِّ سبيلها، فكتب إليه إن كان حراماً خليت سبيلها، فكتب إليه: إني لا أزعم أنها حرام، ولكني أخاف أن تعاطوا المومسات» [صححه الألباني في إرواء الغليل: ٦/ ٣٠١، ورقمه: ١٨٨٩، وعزاه إلى ابن أبي شيبة، والبيهقي].

ويشترط في الكتابية أن تكون محصنة، لا تتعاطى الزنا، ولا تستحله، كما يشترط أن يجري العقد على النهج الإسلامي.

٣- تحريم تزويج المسلمة من مشرك:

حرم الله تزويج المرأة المسلمة من المشرك، لا فرق في ذلك بين وثني، وبين يهودي أو نصراني، قال تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١].

وقد نفَّر الله من تزويج المشركين ورغَّب في تزويج المؤمنين بإخبارنا أن تزويج العبد المؤمن أفضل من تزويج الحر الكافر، وإن كان حسيباً نسيباً ثرياً غنياً قوياً.

٤- الحكمة من وراء تحريم الله تزويج المسلمين من المشركين:

بيَّن الله الحكمة من وراء تحريم تزويج المؤمنات من المشركين، وتزوج المسلمين من المشركات بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة:٢٢١].

والإشارة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للمشركين والمشركات الذين نهي عن تزويجهم والزواج منهم، لأنهم يدعون إلى الاشتغال بالدنيا بعيداً عن أحكام الشريعة، فتقودهم تصرفاتهم إلى النار، والله يدعو إلى أن يشغل العبد نفسه بالأعمال الموصلة إلى الجنة، فالخلطة لها أثر كبير في توجهات الإنسان وأعماله، وقوله: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بإرادته وعلمه وشرعه.

جنـــــة السـنــــة

وقوله: ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة:٢٢١] أي: يبين حججه الدالة على طريق الجنة، وطريق النار، لعلهم يتذكرون ما يوصلهم إلى الله، وينجيهم من عذابه.

٥- لزوم الولي في النكاح:

عندما نهى الله المؤمنين عن نكاح المشركات قال: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟﴾ [البقرة:٢٢١] فنسب الفعل إلى الأزواج، وعندما نهى عن تزويج المؤمنات المشركين قال: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟﴾ [البقرة:٢٢١] وهذا خطاب للأولياء، واستدلّ أهل العلم بهذا على أن الولي لا بد منه لتزويج المرأة، وقد جاءت أحاديث كثيرة مصرحة باشتراط الولي في النكاح منها حديث أبي موسى الأشعري أن الرسول ﷺ قال: «لا نكاح إلا بولي» [صححه الألباني، وعزاه إلى أبي داود والترمذي والدارمي وغيرهم، إرواء الغليل: ٦/ ٢٣٥، ورقمه: ١٨٣٩]. ومنها حديث عائشة مرفوعاً «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل» [صححه الألباني في إرواء الغليل: ٦/ ٢٤٣، ورقمه: ١٨٤٠، وعزاه إلى أبي داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم]، وهناك أحاديث أخرى صحيحة أوردها في إرواء الغليل.

٦- وجوب اعتزال النساء في المحيض:

كان اليهود إذا حاضت المرأة قاطعوها، فلم يآكلوها، ولم يشاربوها، ولم يساكنوها، وقد تأثر العرب بهذا السلوك في الجاهلية، قال ابن جرير: «كان المسلمون قبل بيان الله لهم ما يتبيَّنون أمره، لا يساكنون حائضاً في بيت، ولا يؤاكلونهن في إناء، ولا يشاربونهن» [تفسير الطبري: ٢/ ١١٨٤]. وروى مسلم عن أنس قال: «إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم، لم يؤاكلوها، ولم يجامعوهنَّ في البيوت» [مسلم: ٣٠٢].

وقد أخبرتنا الآية الثانية من هذا النص أن الصحابة رضي الله عنهم سألوا رسولهم ﷺ عن المدى الذي يحل لهم من المرأة الحائض، فجاء الجواب بالبيان من رب العزة ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢٢] أخبر الله - تبارك وتعالى - أن المحيض أذى، أي: هو قذارة ونجاسة، وهو أذى للمرأة الحائض وأذى لمن يجامعها ويعاشرها، ولذلك نهى الله تبارك وتعالى عن معاشرة النساء في مدة المحيض، وفي مكان المحيض وهو الفرج.

وبيّن لنا رسولنا ﷺ الهدي الصواب الذي دلّ عليه القرآن، فقد حرَّم علينا وطأ النساء في المحيض لا غير، وأحلّ لنا مؤاكلة الحائض ومشاربتها، ومخالطتها في المنزل، ومباشرتها في

جنـــــة السـنــــة

غير الوطء، ففي صحيح مسلم عن أنس، أن الرسول ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع شيئاً إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر، فقالا: يا رسول الله، إن اليهود تقول كذا وكذا، أفلا نجامعهنَّ؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ ، حتى ظننا أنه وجد عليهما، فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى النبي ﷺ ، فأرسل في آثارهما، فسقاهما، فعرفا أنه لم يجد عليهما. [مسلم: ٣٠٢].

وبلغ الحال بالرسول ﷺ أن يضع فمه على موضع فم عائشة في الإناء الذي شربت منهن وهي حائض، ففي صحيح مسلم عن عائشة قالت: «كنت أشرب وأنا حائض، فيضع فاه في موضع فيَّ، فيشرب، وأتعرق العِرْق، وأنا حائض، ثم أناوله النبي ﷺ ، فيضع فاه على موضع فيَّ» [مسلم: ٣٠٠].

وحدثتنا كتب السنّة أن أم سلمة كانت مضطجعة في الخميلة مع الرسول ﷺ فحاضت، فانسلت، فأخذت ثياب حيضتها، فقال لها رسول الله ﷺ : «أنفست» فقالت: نعم، قالت: فدعاني فاضطجعت معه في الخميلة. [البخاري: ٢٩٨، مسلم: ٢٩٦].

وقالت عائشة: «كان إحدانا إذا كانت حائضاً، أمرها رسول الله ﷺ أن تأتزر في فور حيضتها، ثم يباشرها». [البخاري: ٣٠٢، ومسلم: ٢٩٣ واللفظ له].

وقالت ميمونة «كان رسول الله ﷺ يباشر نساءه فوق الإزار، وهنَّ حيض». [البخاري: ٣٠٣، مسلم: ٢٩٤].

وكان ﷺ يتكئ في حجر عائشة وهي حائض، فيقرأ القرآن. [البخاري: ٢٩٧، مسلم: ٣٠١].

هذا هو الاعتزال الذي أمر الله به في الآية، وليس هو اعتزال اليهود، وأهل الجاهلية، وكان النصارى يعاشرون النساء في المحيض ويجامعونهن، فالإسلام وسط بين اليهود والنصارى.

وتحريم جماع المرأة الحائض مستمرٌّ حتى ينقطع حيضها، وتتطهر منه بالاغتسال، عند ذلك يحل لزوجها أن يطأها، فقوله: ﴿يَطْهُرْنَ﴾ أي: ينقطع حيضهن، وقوله: ﴿تَطَهَّرْنَ﴾ أي: يغتسلن.

وقوله ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٢٢] أي: في الفرج، وختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢٢] أي: يحب الذين يطهرون أنفسهم بالتوبة إلى الله تعالى، فالتوبة الصادقة تغسل أدران الذنوب، ويحب المتطهرين، أي: من النجاسات المعنوية كالشرك والكفر والمعاصي، ومن النجاسات الحسية، كالحيض والدم والبول، ونحوها.

جنـــــة الســــــنة

٧- حرمة إتيان النساء في أدبارهن:

أمر الله الأزواج أن يأتوا نساءهم بعد أن يتطهرن من الحيض في الموضع الذي يكون فيه الحيض، وهو الفرج، وأخبر تبارك وتعالى في الآية التالية أن نساءَنا حرث لنا، وأمرنا أن نأتي حرثنا أنى شئنا ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣].

وقد جعل الله نساءَنا حرثاً لنا، والحرث هو الموضع الذي يكون فيه الزرع، ومكان الزرع هو الذي يكون فيه الولد وهو الرحم، والطريق إليه هو القُبُل، وقد أخطأ خطأً عظيماً من ظنَّ أنه يجوز له أن يأتي زوجته في دبرها، فالدبر ليس مكاناً للزرع، وإتيان الأدبار هو اللواط الذي عذّب الله بسببه قوم لوط.

وقد روى خزيمة بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يستحيي من الحق لا تأتوا النساء في أعجازهن». [صححه الألباني في: إرواء الغليل: ٧/ ٦٥، ورقمه: ٢٠٠٥، وعزاه إلى ابن ماجه وأحمد والبيهقي والنسائي وغيرهم، وذكر أن أسانيد النسائي والشافعي والبيهقي صحيحة].

وروى أبو هريرة مرفوعاً أنَّ الرسول ﷺ قال: «من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها، فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ». [صححه الألباني في الإرواء: ٧/ ٦٨ ورقمه: ٢٠٠٦، وعزاه إلى أبي داود والنسائي والترمذي وغيرهم].

٨- جواز إتيان الزوجة على الحالة التي يريدها الزوج:

كان اليهود إذا أتوا نساءَهم في الجماع يأتيها وهي مستلقية على ظهرها، وكانوا يزعمون أنه إذا جاءَها من دبرها في قبلها أو على جنبها فحملت، فإن الولد يأتي أحولَ، قال جابر بن عبدالله: «كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبلها، كان الولد أحول، فنزلت: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣]» [البخاري: ٤٥٢٨، مسلم: ١٤٣٥].

وقد تأثر أهل المدينة باليهود، فكانوا يأتون نساءَهم على النحو الذي يفعله اليهود، أما أهل مكة فإنهم كانوا كما يقول الطبري، نقلاً عن ابن عباس يشرحون النساء، ويتلذذون بهن مقبلات ومدبرات، فلما قدموا المدينة تزوجوا في الأنصار، فذهبوا ليفعلوا بهن كما كانوا يفعلون بالنساء بمكة، فأنكرن ذلك، فأنزل الله الآية. [تفسير الطبري: ٢/ ١٢٠٢].

وبعد أن أذن الله للمؤمنين أن يأتوا نساءَهنَّ كيف شاؤوا قال: ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣] وقد دلّنا رسولنا ﷺ على التقديم الذي يأتيه من أراد جماع أهله، فقال: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: بسم الله، اللهم جنِّبنا الشيطان، وجنِّب الشيطانَ ما رزقتنا، فقضي بينهما ولد لم يضره». [البخاري: ١٤١، مسلم: ١٤٣٤]. وقوله في ختام الآية: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟

جنـــــة السـنـــــة

أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ [البقرة:٢٢٣] أي: خافوا الله وانتهوا عما نهاكم عنه، واعلموا أنكم ملاقوه يوم القيامة، فيحاسبكم على أعمالكم التي عملتموها في الدنيا، وبشر المؤمنين، الذين أطاعوا الله فيما أمرهم به، وانتهوا عما نهاهم عنه.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- لا يجوز للمسلم أن يتزوج امرأة مشركة، ولا يجوز تزويج المرأة المسلمة من مشرك، واستثنى الله من المشركات المحصنات من اليهوديات والنصرانيات.

٢- المرأة المسلمة ولو كانت أمة أفضل من المرأة المشركة، ولو كانت غنية حسيبة جميلة، والرجل المسلم ولو كان عبداً أفضل من المشرك ولو كان حرّاً حسيباً نسيباً ذا مال، فالمؤمنون يدعون إلى الله وإلى جنته ومغفرته، والكفار يدعون إلى النار وغضب الجبار.

٣- لا يجوز إتيان النساء في وقت المحيض، ولا في موضع المحيض وهو الفرج، وعلل الله ذلك بأن المحيض أذى، وهناك أحكام أخرى تتعلق بالحائض، فالحائض تترك الصلاة والصوم أيام حيضها، ويجب عليها قضاء الصوم دون الصلاة، ولا يجوز للحائض أن تطوف بالبيت، ولا تمكث في المسجد.

٤- يجب على الحائض أن تغتسل من حيضها، ولا يجوز لزوجها أن يعاشرها إلا بعد أن تغتسل، وكذلك الطواف والمكث في المسجد لا يجوز لها إلا إذا اغتسلت.

٥- لا يجوز للرجال أن يأتوا النساء في أعجازهن، فإن الموضع الذي أباح الله للرجال جماعهن فيه هو مكان الحرث والزرع، والطريق إليه هو القبل.

٦- كَذَبَ اليهود فيما زعموه أن الولد يأتي أحول في حال جاء الرجل زوجته في قبلها من جهة دبرها، أو أتاها على جنب، وقد أجاز الله ذلك كله إذا كانت المعاشرة في الفرج.

٧- تستحب التسمية عند الجماع، وهو من التقديم الذي أمر الله به.

٨- دعوة المؤمنين إلى التطهر من الكفر والشرك والذنوب، والتخلص من النجاسات كالحيض والبول والغائط، والله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

جنـــــة السـنـــة

النص القرآني التاسع والأربعون من سورة البقرة
لا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم

أولاً: تقديم

بيّن الله في آيات هذا النص أن المرء إذا حلف يميناً، وكان الحنث أولى من المضي في اليمين، فعليه أن يكفر عن يمينه، ويأتي الذي هو خير، ولا يجوز له أن يجعل اليمين حائلاً يحول بينه وبين فعل الخير.

وبيَّن الله في هذه الآيات حكم اليمين اللغو، وحكم إيلاء الرجل من زوجته.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لا تجعلوا أيمانكم مانعة لكم من البر:

نهانا ربنا - تبارك وتعالى - عن أن نجعل أيماننا مانعة لنا من البر والتقوى، ففي الحديث: «والله لأن يَلِجَّ أحدُكم بيمينه في أهله آثَمُ له عند الله من أنْ يعطيَ كفارته التي افترض الله عليه» [البخاري: ٦٦٢٥، مسلم: ١٦٥٥]. قال تعالى في الآية الأولى من هذا النص: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ [البقرة:٢٢٤].

وقوله: ﴿عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٤] قال: «لا تجعلن عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير، ولكن كفر عن يمينك، واصنع الخير» [ابن كثير: ١/ ٥٣٥]. وقد قال الرسول ﷺ لأبي موسى الأشعري والأشعريين: «وإني والله، إن شاء الله، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها، إلا كفرت عن يميني، وأتيت الذي هو خير» [البخاري: ٦٢٢٣، مسلم: ١٦٤٩].

وقال رسول الله ﷺ لعبدالرحمن بن سمرة: «وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها، فكفر عن يمينك، وائت الذي هو خير» [البخاري: ١٦٥٢].

جنـــــة السـنـــــة

وعن عدي بن حاتم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حلف على يمين، ثم رأى أتقى لله منها، فليأت التقوى» [مسلم: ١٦٥١].

وقوله: ﴿أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ البر هو فعل الخير كله، والتقوى فعل أوامر الله وترك نواهيه، وقوله: ﴿وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ هو في الإصلاح بين الناس بالمعروف فيما لا مأثم فيه، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي: لما يقوله الحالف منكم إذا حلف، ﴿عَلِيمٌ﴾ بما تقصدونه وتبغونه بحلفكم.

٢- عدم مؤاخذة الله لنا في اللغو في الإيمان:

من رحمة الله بنا أنه لا يؤاخذنا باللغو في أيماننا، قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝٢٢٥﴾ [البقرة:٢٢٥] أي: لا يؤاخذنا الله بما جرى على ألسنتنا من غير قصد، كقول المتكلم: لا والله، وبلى والله، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله ﷺ قال: «هو كلام الرجل في بيته، كلا والله، وبلى والله» [سنن أبي داود: ٣٢٥٤، وصحيح سنن أبي داود: ٢٧٨٩] ومن يمين اللغو أن يحلف المرء اليمين على أمر يظنه صواباً، ويكون غير ذلك، كم حلف أنه جاء مكة، ثم تبين له أنه أخطأ فيما حلف عليه، فهذا لغو يمين.

واليمين التي كسبتها قلوبنا، أي: التي قصدتها، وانعقدت القلوب عليها، وهي التي قال الله فيها: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ [المائدة:٨٩].

وبيّن الله وجه المؤاخذة في سورة المائدة، وذلك بإلزام الحالف القاصد في حلفه بالكفارة ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ﴾ [المائدة:٨٩].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝٢٢٥﴾ [البقرة:٢٢٥] أي: للذين يحلفون وكان يمينهم لغواً، وهو بهم رحيم، ولذلك لم يجعل في أيمانهم كفارة.

٣- حكم الذين يؤلون من نسائهم:

الإيلاء: حلف الرجل أن لا يجامع زوجته مدة، ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٢٦ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٢٧﴾ [البقرة:٢٢٦-٢٢٧]. والآية تدلُّ على أنّ الذين يؤلون من نسائهم مدة تقل عن أربعة أشهر فلا حرج عليهم في ذلك، ولا يجبرون على ترك الإيلاء، فإن زادت عن الأربعة أشهر، أوقفوا عند الأربعة أشهر، وطلب منهم أن يعودوا إلى معاشرة زوجاتهم، فإن رفضوا طلب منهم أن يطلقوهن.

جنـــــة الســـــنة

ومعنى ﴿تَرَبُّصُ﴾: الانتظار، والفيئة: الرجوع لمعاشرة الزوجة، وقوله: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ يدلُّ على أن الطلاق لا يقع بمضي المدة، كما يقول به بعض أهل العلم، بل لا بد أن يوقعه المولي إن أصر على الاستمرار في الإيلاء، وهذا قول عبدالله بن عمر، فإنه قال: «إذا مضت أربعة أشهر يوقف حتى يطلق، ولا يقع عليه الطلاق حتى يطلق» وقال البخاري بعد سياق كلام ابن عمر: «ويذكر ذلك عن عثمان وعلي وأبي الدرداء وعائشة واثني عشر رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، وعن أبي صالح قال: سألت اثني عشر من أصحاب رسول الله ﷺ عن الرجل يؤلي؟ قالوا: ليس عليه شيء، حتى تمضي أربعة أشهر فيوقف، فإن فاء وإلا طلق» [قال الألباني: وإسناده صحيح على شرط مسلم، وعزاه إلى الدارقطني، وعنه البيهقي، إرواء الغليل: ٧/ ١٧٢].

وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾ [البقرة:٢٢٦] أي: غفور رحيم للمؤلي في تقصيره في حقهن بسبب اليمين، وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة:٢٢٧] أي: سميع لطلاقه، عليم به.

وقد ثبت في السنّة عن أنس بن مالك: أن الرسول ﷺ آلى من نسائه شهراً، فمكث تسعة وعشرين يوماً، ثم دخل على نسائه. [البخاري: ٥٢٨٩].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - إذا حلف المسلم يميناً، وكان الحنث في يمينه أولى من المضي فيها، فعليه أن يكفر عن يمينه، ويأتي الذي هو خير، ولا يجوز له أن يجعل اليمين مانعة له من فعل الخير.

٢ - لا يؤاخذ الله عباده بلغو اليمين، وهي التي تجري على ألسنتهم من غير قصد، واليمين التي توجب الكفارة إذا حنث فيها هي اليمين المقصودة التي انعقدت عليها القلوب.

٣ - الذي يحلف على أن لا يعاشر زوجته إن كان حلف على أربعة أشهر فأقل فلا حرج عليه، وإن آلى على أكثر من أربعة أشهر، فإن القاضي يلزمه عند الأربعة بمعاشرتها، أو يطلقها.

جنـــــة الســـــــنة

النص القرآني المتمم للخمسين من سورة البقرة
المطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء

أولاً: تقديم

بيَّن الله - تبارك وتعالى - في آيات هذا النص مدة عدة المطلقات ذوات الأقراء، كما بيَّن عدد الطلقات التي يمكن للزوج بعدها أن يعيد زوجته إليه من غير عقد، وعدد هذه الطلقات طلقتان، فإن طلقها الطلقة الثالثة فلا يمكنه أن يعيدها إلى عصمته إلا إذا تزوجت رجلاً غير زوجها زواجاً صحيحاً ووطأها، ثم طلقها طلاقاً صحيحاً أو مات عنها.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- صلة الآية بما قبلها:

ذكر الله - تعالى - في آيات سابقة حكم الذين يؤلون من نسائهم، وذكر فيها أن المؤلي قد يقع منه الطلاق في قوله: ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ [البقرة:٢٢٧] فناسب أن يذكر بعد ذلك وجوب عدة المطلقة، وشيئاً من أحكام الطلاق.

٢- المطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء:

أوجب الله على المرأة المطلقة إذا كانت مدخولاً بها، وكانت تحيض أن تتربص بنفسها ثلاثة قروء، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة:٢٢٨] والتربص: الانتظار، أراد به في الآية العدة، وهي فترة زمنية لا يحلّ لها فيها الزواج، وتبقى في هذه المدة في بيت الزوج، ومن حقّ الزوج أن يراجعها فيها من غير مهر ولا عقد، ولا يشترط في الرجعة رضاها، هذا بعد الطلقة الأولى أو الثانية.

جنـــــة الســـــنة

أما المطلقة التي لم يدخل بها فليس لها عدة، وعدة الحامل أن تضع حملها، وعدة التي لا تحيض ثلاثة أشهر، وسيأتي أحكام كل نوع من المعتدات عند تفسير الآيات المتعلقة بهنّ، والقروء جمعٌ واحدُه قُرء، والقَرء في لغة العرب يطلق على كل من الحيض والطهر، ومن إطلاقه على الحيض قوله ﷺ لأم حبيبة: «إذا أتى قرؤك فتطهري» [صحيح أبي داود للألباني: ٢٥٠] وفي رواية: «تدع الصلاة أيام أقرائها ثم تغتسل وتصلي» [صحيح أبي داود للألباني: ٢٥٢، وقال فيه: صحيح بما قبله] وفي رواية ثالثة عزاها الألباني لأبي داود ومسلم عن عائشة: «تدع الصلاة أيام أقرائها» [صحيح أبي داود للألباني: ٢٥٤، راجع: القرطبي: ٢/ ١٠٠، وأضواء البيان: ١/ ١٧٦].

وقد اختلف الصحابة والتابعون والأئمة في القروء الواردة في الآية، وسبب الاختلاف اشتراك القرء بين الحيض والطهر.

وقد ذهب الخلفاء الراشدون الأربعة إلى أن القرء في الآية الحيض، وذهب إليه ابن مسعود وأبو موسى، وعبادة بن الصامت، وابن عباس، وغيرهم، وهو الرواية الصحيحة عن أحمد.

وذهب إلى أنه الطهر عائشة، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن عمر، وفقهاء المدينة السبعة، ومالك، والشافعي وغيرهم [أضواء البيان: ١/ ١٧٦].

والقول الراجح أن القرء هو الطهر، لقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١]، فالعدة المأمور بطلاقهن لها هي الطهر، وجاء في حديث ابن عمر «فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها، فتلك العدة كما أمر الله» [البخاري: ٤٩٠٨، مسلم: ١٤٧١].

وهذا الحديث صريح بأن الطهر هو العدة التي أمر الله أن يطلق النساء لها، قال الشيخ الشنقيطي: «الذي يظهر لي أن دليل هؤلاء هذا، فصل في محل النزاع، لأن مدار الخلاف هل القروء الحيضات أو الأطهار، وهذه الآية، وهذا الحديث دلاّ على أنه الأطهار، ولا يوجد في كتاب الله، ولا سنّة نبيه شيء يقاوم هذا الدليل، لا من جهة الصحة، ولا من جهة الصراحة في النزاع» [أضواء البيان: ١/ ١٧٦].

٣- لا يحلُّ للمطلقات أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن:

حرم الله على المطلقات أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ [البقرة:٢٢٨]، والذي يكون في الرحم ويمكن أن تكتمه المرأة هو الولد، أو الحيض، والآية تدلُّ على أنهن مؤتمنات على ما في أرحامهن، وقولهن في ذلك مقبول، ولسنا بحاجة إلى أن نكشف حالهنّ، وكتمان المرأة لما في رحمها يترتب عليه إضرار بالزوج، فكتمانها

جنـــــــة الســـــــنة

للولد قد يسارع بخروجها من العدة، ويحرم الزوج من إرجاعها إذا كان يرغب في ذلك، ودعواها أنها لا تزال حائضاً أو أنها حامل قد يطيل عدَّتها، ويلزمه بالنفقة عليها، فعليها أن تصرح بالأمر على حقيقته من غير تبديل ولا تغيير.

وقوله تعالى: ﴿ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ [البقرة:٢٢٨] فيه تهييج على ترك الكتمان، أي: إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يكتمن ما خلق الله في أرحامهن.

٤- حق الزوج في مراجعة الزوجة ما دامت في عدتها:

قرّر الحقُّ - تبارك وتعالى - أن من حَقِّ الزوج أن يراجع زوجته ما دامت في عدتها من غير عقد ولا مهر، وسواء قبلت أو رفضت هي أو وليها ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَـٰحًا ﴾ [البقرة:٢٢٨].

والبعولة جمعٌ واحدُه بعل، وهو الزوج، وقوله: ﴿فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي: في مدة العدة، وقوله: ﴿إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَـٰحًا ﴾ [البقرة:٢٢٨] إرشاد للزوج بأن مراجعته لزوجته التي طلقها يكون في حالة كونه يريد الإصلاح، أما إذا أراد أن يرجعها ليوقع الضرر بها، وذلك بتطويل عدتها، فهذا ليس من الإصلاح.

٥- ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف:

قرر العليم الحكيم - سبحانه - أن للزوجات على أزواجهن مثل ما لأزواجهن عليهن، قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة:٢٢٨] والذي للزوج على زوجته قد يكون واجباً، وقد يكون من باب المستحبات ومكارم الأخلاق.

فمن الواجبات على المرأة أن تجيب زوجها إذا دعاها إلى الفراش، وعلى الزوج أن لا يدع معاشرة زوجته، وذلك لاشتغاله بالصلاة والصيام وقراءة القرآن ونحو ذلك، وقد أنكر الرسول ﷺ على عبدالله بن عمرو بن العاص مبالغته في الصلاة والصيام، وقال له: «لا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقّاً، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً» [البخاري: ١٩٧٥، مسلم: ١١٥٩].

وأنكر الرسول ﷺ على عثمان بن مظعون تبتله، وأخبره أنه هو ينام ويصلي، ويصوم ويفطر، وينكح النساء [الحديث في سنن أبي داود: ١٣٦٩، وهو في صحيح أبي داود: ١٣٦٩].

وأخذ ابن عباس من الآية أنه يجب على الزوج أن يتزين للمرأة كما يحبُّ أن تتزين المرأة له، لأن الله يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة:٢٢٨] [عزاه إلى ابن جرير وابن أبي حاتم].

جنــــة الســــنة

ويجب على الرجل إن كان له أكثر من زوجة أن يعدل بينهن في المبيت والنفقة، ويجب على الزوج أن ينفق على زوجته في مسكنها ومأكلها ومشربها وملبسها ونحو ذلك.

وقوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ «المعروف اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو الشرع حسنه» [المفردات للراغب: ص٣٣١]، فتحدد النفقة والمعاشرة والزينة بما يدلُّ عليه الشرع، ويستحسنه العقل.

٦- الدرجة التي للرجال على النساء:

جعل الله للرجال على النساء درجة، قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ﴾ [البقرة:٢٢٨]، والدرجة: المنزلة والرتبة، وقد بيَّن الله أن هذه الدرجة تتمثل في القوامة، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ﴾ [النساء:٣٤] والقوامة تقضي بأن يكون الزوج هو الرئيس في المنزل، ولفضل الرجال جعل النبوة فيهم، وجعل الخلافة فيهم لقوله ﷺ: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة» [البخاري: ٤٤٢٥ عن أبي بكرة].

ولأنَّ الرجل قَوَّامٌ على المرأة أمرت بطاعته، روى ابن جرير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرّتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣٤].

وقد سرى إلى المسلمين اليوم ما درج عليه الغربيون من إنكار هذه الدرجة، والصواب ما قرره العليم الخبير الذي خلق الرجال والنساء، وهو أعلم بخصائص كل منهم.

وإذا كانت الزوجة غير مبغضة لزوجها، فلا يجوز لها أن تطلب منه أن يطلقها، أو يخالعها، ففي الحديث عن ثوبان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير بأس، فحرام عليها رائحة الجنة» [الترمذي: ١١٨٧، وقال فيه: حديث حسن، وذكره الألباني في صحيح الترمذي: ٩٤٨، وصحيح ابن ماجه: ٢٠٥٥].

٧- الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان:

كان الزوج في الجاهلية يطلق زوجته ويعيدها إلى عصمته من غير عدد، واستمرَّ الحال على ذلك في الإسلام إلى نزول قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ﴾ [البقرة:٢٢٩] أي: الطلاق الذي يحقُّ للرجل أن يعيد فيه زوجته إلى عصمته مرتان، وهو الذي يسمى بالطلاق الرجعي فيجوز للزوج أن يعيد زوجة إلى عصمته بشرط أن يريد الإصلاح بمراجعته لها، وهذا هو الإمساك بالمعروف، فإن كان لا يريدها، فعليه أن يسرحها بإحسان، أي بالكلمة الطيبة، والفعلة الحسنة.

جنـــــة الســـــــنة

٨- لا يجوز للزوج أن يأخذ شيئاً مما آتاه زوجته إلا إذا خافا ألا يقيما حدود الله:

إذا شاء الرجل تطليق زوجته لرغبته عنها، فلا يجوز أن يضيرها ليأخذ منها ما آتاها كلَّه أو بعضه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ [البقرة:٢٢٩] أي: سواءٌ كان الذي آتاها قليلاً أو كثيراً، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٢٠].

وقد استثنى الله - تبارك وتعالى - حالة واحدة أجاز فيها للزوج أن يأخذ فيها ما آتاه زوجته، وهي التي قال الله فيها: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة:٢٢٩].

وواضح من الآية أن الحالة التي يجوز للزوجة أن تفتدي فيها نفسها من زوجها هي الحالة التي تكون الرغبة في الفراق ناشئة منها، لكونها مبغضة لزوجها، وكارهة له، ونسب الخوف إلى الزوجين كليهما، لأن الزوجة تكون كارهة لزوجها، فتخاف أن لا تقيم حدود الله التي ألزمها الله بها تجاه زوجها، فإذا لم تقم بواجبها تجاه زوجها، فيؤدي ذلك إلى تقصير الزوج في حق زوجته.

وقد وقعت المخالعة في عهد الرسول ﷺ ، فقد تزوج ثابت بن قيس بن شماس صحابية، فأبغضته، وكان قد أمهرها حديقة له، روى ابن عباس قال: جاءت امرأة ثابت بن قيس إلى رسول الله ﷺ ، فقالت: إني لا أعتب على ثابت في دين ولا خلق، ولكني لا أطيقه، فقال رسول الله ﷺ : «فتردين عليه حديقته؟» قالت: نعم [البخاري: ٥٢٧٥]، وفي رواية أن الرسول ﷺ قال لزوجها: «اقبل الحديقة، وطلقها تطليقة» [البخاري: ٥٢٧٣].

٩- لا يجوز تعدي حدود الله:

نهى الله عن تعدي حدوده بقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة:٢٢٩] والمشار إليه بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ ما بيّنه الله في آيات هذا النص، وآيات سابقة عليه، ومن ذلك نهيه عن نكاح المشركات، ونهيه عن إنكاح المؤمنات المشركين، ووجوب اعتزال النساء في المحيض، ونهيهم أن يجعلوا الله عرضة لأيمانهم، ومؤاخذتهم بالأيمان التي كسبتها قلوبهم، ونحو ذلك.

والحدود قسمان: حدود يجب امتثالها، ولا يجوز تعدِّيها كالذي ذكره الله في هذه الآيات، ومنها حدود يجب اجتنابها، وهي التي قال الله فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧] ومن ذلك مباشرة النساء من قِبَل العاكفين في المساجد.

جنـــــة الســـــنة

وقد ثبت في الحديث الصحيح: «إن الله حدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وفرض فرائض فلا تضيعوها، وحرَّم محارم فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان، فلا تسألوا عنها» [ابن كثير: ١/ ٥٥٥ وعزاه محققه إلى البخاري ومسلم، وهذا وَهم فالحديث رواه الدارقطني والحاكم والبيهقي وغيرهم، وهو حَسَنٌ بشواهده - الطحاوية - (٢/ ٦٣) وحسَّنه النووي في رياض الصالحين مع أنّ سنده منقطع، لكن له شاهد].

وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة:٢٢٩] فيه تهديد ووعيد للذين يعتدون حدود الله، فقد حكم عليهم بالظلم، وسيقتص منهم.

١٠- إذا طلق الزوج امرأته طلقة ثالثة فإنها لا تحلُ له حتى تنكح زوجاً غيره:

إذا طلق الزوج امرأته طلقة ثالثة فإنها تحرم عليه، ولا يجوز له إعادتها إلى عصمته حتى تنكح زوجاً غيره، فإن نكحت زوجاً غيره نكاحاً صحيحاً، لم يرد به التحايل على تحليلها لزوجها الأول، وعاشر الرجل زوجته بعد نكاحه إياها، ثم توفي عنها، أو طلقها لعدم رغبته فيها، فعند ذلك يجوز لزوجها الأول أن ينكحها بعقد جديد ومهر جديد إن ظنّا أنهما يستطيعان إقامة حدود الله، ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ﴾ [البقرة:٢٣٠].

وما ذكره الله في هذه الآيات هو من حدود الله التي بيّنها الله لعلماء الأمة ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ [البقرة:٢٣٠].

١١- إذا طلق الرجل زوجته ثلاثاً دفعة واحدة:

كثر في ديار الإسلام طلاق الناس أزواجهم ثلاثاً، وقد يطلقها مائة وألفاً، وقد كان طلاق الثلاث في عهد الرسول ﷺ وعهد أبي بكر وصدر خلافة عمر واحدة، ثم إن عمر أراد معاقبة الذين يطلقون ثلاثاً، فأمضاه عليهم، لعلهم يتوقفون عن طلاق الثلاث، ولكنهم لم يرتدعوا، ومضوا يطلقون ثلاثاً، وتتابع العلماء يفتون بقول عمر، وأصاب الناس حرج شديد بسبب ذلك، ولجأ كثير منهم إلى اتخاذ المحلِّل الملعون فاعله، حتى إذا كان عهد شيخ الإسلام ابن تيمية أفتى بأن الطلاق الثلاث يعدُّ طلقة، فأوذي بسبب ذلك، وسُجن، حتى إذا جاء هذا العصر، أفتى كثير من أهل العلم بأن طلاق الثلاث يعدُّ واحدة، وأصبح هذا القول هو القول الشائع المنتشر.

جنـــــة السـنـــــة

روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال: «كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وسنتين من خلافة عمر، طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر بن الخطاب: إنَّ الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم».

وفي صحيح مسلم أن أبا الصهباء قال لابن عباس: «أتعلم أنما كانت الثلاث تجعل واحدة على عهد النبي ﷺ وأبي بكر، وثلاثاً من إمارة عمر؟ فقال ابن عباس: نعم».

وفي رواية أن أبا الصهباء قال لابن عباس: «هات من هناتك، ألم يكن الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر واحدة؟ فقال: قد كان ذلك، فلما كان على عهد عمر، تتايع الناس في الطلاق، فأجازه عليهم» [مسلم: ١٤٧٢]. وعلى ذلك فإن جعل من طلق ثلاثاً دفعة واحدة طلقة واحدة له مستند قوي.

١٢- لا يجوز لرجل أن يتزوج المطلقة ثلاثاً ليحلّها لزوجها الأول:

لا يجوز لرجل أن يتزوج امرأة يقصد إحلالها للزوج الأول، وهو الذي يسمى بالمُحَلِّل، فإذا تمالأ هو والزوج الأول على زواجه منها ليحلَّها له، فإنهما ملعونان.

روى الترمذي في سننه بإسناد قال فيه: حسن صحيح عن عبدالله بن مسعود قال: «لعن رسول الله ﷺ المحلِّل والمحلَّل له» [الترمذي: ١١٢٠]، وقد ساق ابن كثير جملة من الأحاديث التي تحرم التحليل. [ابن كثير: ١/ ٥٦٥].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- المطلقات المدخول بهن من ذوات الأقراء عدتهن ثلاثة قروء، والأصحُّ أن المراد بالقروء الأطهار لا الحيض.

٢- يجب على الزوجة المطلقة إن كانت تخاف الله أن تخبر عن عدَّتها على الوجه الصحيح، ولا يجوز لها أن تخفي حالها الذي هي عليه من كونها حاملاً أو حائضاً.

٣- للزوج بعد الطلقة الأولى أو الطلقة الثانية أن يراجع زوجته أثناء عدَّتها من غير عقد ولا مهر إلى عصمته، ولو لم تكن راضية بذلك.

٤- على الزوج إذا أرجع زوجته إلى عصمته أن يكون قاصداً الإصلاح بذلك، وسيحاسب ربُّ العزة الذي يعيد زوجته ليضيرها بتطويل عدَّتها.

جنـــــة السـنة

٥- للزوجة على زوجها حقوق، كما أن لزوجها عليها حقوقاً.

٦- الطلاق الذي تصحُّ فيه الرجعة طلقتان، وبعد كلِّ واحدة من الطلقتين على الزوج أن يعيدها إليه بمعروف أو يفارقها بإحسان.

٧- لا يجوز للزوج أن يضير زوجته ليلجئها إلى أن تفتدي منه بما أعطاها من مال، إلا في حال واحدة، وهي أن تكون الزوجة هي الراغبة في فراقه لبغضها إياه.

٨- إذا طلق الرجل زوجته الطلقة الثالثة وجب عليها أن تنتقل من بيت الزوجية، وحرم عليه إعادتها إلى عصمته، حتى تنكح زوجاً غيره، فإن طلقها الثاني جاز رجوعها إلى الأول في حال ظنهما صلاح الحياة الزوجية بينهما.

٩- يشترط لجواز إعادة الزوج الأول مطلقته إلى عصمته بعقد ومهر جديدين أن يكون الزواج الثاني صحيحاً، وأن يطأها فيه، فإن كان تزوجها ليحللها للأول، أو لم يطأها فيه، فلا تحل للأول.

١٠- إذا طلق الرجل زوجته ثلاثاً دفعة واحدة، فالصواب من القول أنها طلقة واحدة.

جنـــــة الســــــنة

النص القرآني الحادي والخمسون من سورة البقرة
إذا قاربت المطلقة بلوغ أجلها فعلى زوجها إمساكها بمعروف أو تسريحها بمعروف

أولاً: تقديم

أمر الله الزوج إذا قاربت زوجته بلوغ نهاية عدتها أن يمسكها بمعروف أو يسرحها بمعروف، ولا يجوز له أن يمسكها ليضرها، ونهى الله الوليَّ إذا خرجت موليته من عدتها أن يمنعها من الرجوع إلى الزوج إذا جاء المطلق خاطباً، ورضيت به المرأة.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم من سورة البقرة

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- يجب على الزوج المطلق إذا قاربت عدة المطلقة على الانتهاء أن يمسكها بمعروف أو يسرحها بمعروف:

أوجب الله على الزوج الذي طلق زوجته، إذا قاربت عدة زوجته على الانتهاء أن يمسكها بمعروف، أو يفارقها بمعروف، ولا يجوز له أن يمسكها ليضرها بتطويل عدتها، وذلك بتطليقها مرة أخرى ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة:٢٣١] والمراد بقوله: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣١] مقاربتهن بلوغ الأجل، أي: الوقت الذي تنتهي فيه العدة، لأنه إذا انتهت العدة فلا يجوز له إمساكها.

والإمساك بمعروف، يكون بإمساكها ومراجعتها وإصلاح ما بينه وبينها، ويكون التسريح بمعروف بأن يدعها حتى تنقضي عدتها، ثم تمضي لحالها، مشيعاً إياها بالكلمة الحسنة، والفعلة الطيبة، وأصل التسريح يكون بإطلاق الراعي الماشية لترعى في الحقل.

ونهى الله الزوج المطلق أن يمسك زوجته التي قاربت بلوغ العدة للإضرار بها، أي: ليطيل عليها عدَّتها، وذلك بمراجعته إياها، ثم يطلقها في طهر قادم، قال تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ﴾ [البقرة:٢٣١].

جنـــــة السـنـــــة

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن من فعل ذلك فقد ظلم نفسه، لأنه عصى ربه، وحمَّل نفسه عقوبته.

وهذا الذي ضرّ زوجته بإعادتها إلى عصمته ليطلقها من جديد قد اتخذ آيات الله هزواً، أي: لعباً، وآيات الله وأوامره ونواهيه ينبغي أن تكون موضع احترام وتوقير وتقدير، ولذلك قال ربُّ العزَّة: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ [البقرة:٢٣١]، وهذا النص نهى عن كل تلاعب بآيات الكتاب، ولذلك فإن من زوَّج أو طلق أو أرجع، وادعى أنه كان لاعباً، فإن المذكورات تلزمه، أخرج أبو داود والترمذي وحسّنه وابن ماجه والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «ثلاث جدُّهن جدّ، وهزلهنَّ جدّ: النكاح، والطلاق، والرجعة» [تفسير الشوكاني: ١/ ٤٢٣].

وأمر الله المؤمنين أن يذكروا نعمة الله عليهم، وما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة، قال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٣١] ومقتضى النعمة أن يعملوا وفقها وبمقتضاها، ولا يتخذوها هزواً، وما أنزل علينا من الكتاب والحكمة وهو السنّة ينبغي أن تصلح منا القلوب والنفوس، هذا معنى كونها عظة.

وأمرنا الله بتقواه ومخافته، كما أمرنا أن نعلم أنه بكل شيء عليم ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٣١﴾ [البقرة:٢٣١].

ومن اتقى الله وخافه، وعلم أنه بكل شيء عليم فإنه يراقبه، ويعلم أنه موقوف بين يديه، فيحاسبه على ما كان منه.

٢- لا يجوز للولي أن يمنع موليته من العودة إلى زوجها الذي طلقها إذا خطبها راغباً في زواجها:

إذا طلق الرجل زوجته طلاقاً رجعياً، ثم خرجت من عدتها، ثم جاء الزوج إلى الولي خاطباً المرأة التي طلقها، فلا يجوز للولي أن يمنع موليته من العودة إلى زوجها إذا كانت راغبة فيه ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾ [البقرة:٢٣٢].

وهذه الآية نزلت في معقل بن يسار حين منع أخته من الرجوع إلى زوجها الذي طلقها، ثم خطبها بعد انقضاء عدتها، قال الحسن: حدثني معقل أن هذه الآية نزلت فيه، قال: «زوّجت أختاً لي، من رجل فطلقها، حتى إذا انقضت عدَّتها جاء يخطبها، فقلت له: زوجتك، وفرشتك، وأكرمتك، فطلقتها، ثم جئت تخطبها؟! لا والله لا تعود إليك أبداً، وكان رجلاً لا

جنـــــة السـنــــة

بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فأنزل الله هذه الآية ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٢]، فقلت: الآن أفعلُ يا رسول الله، قال: فزوجها إياه» [البخاري: ٥١٣٠].

وقد مضى القول بوجوب الولي في نكاح المرأة عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُوا۟ۚ﴾ [البقرة:٢٢١]. وفي آية هذا النص ما يدلُّ على وجوب الولي فيه، فلو كان للمرأة إنكاح نفسها بغير إذن وليها، أو كان لها تولية من أرادت توليته في إنكاحها، لم يكن لنهي وليها عن عضلها معنى مفهوم، وقد رفع سبب النزول الاستدلال بالآية إلى درجة النص الذي لا يصح العدول عنه، ولا تجاوزه، ولذا قال الشافعي بعد إيراده حديث معقل: «لا أعلم أن الآية تحتمل غيره، لأنه إنما يؤمر بأن لا يعضل المرأة من له سبب إلى العضل، بأن يكون يتم به نكاحها من الأولياء» [الأم، للشافعي: ٥/ ١].

وقوله تعالى: ﴿إِذَا تَرَٰضَوۡا۟ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾ [البقرة:٢٣٢] يدلُّ على أن الزواج لا يُقبل إلا إذا كانت المرأة راضية به.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾ [البقرة:٢٣٢] المشار إليه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما فصَّله الله من الأحكام في الآيات السابقة، وقوله: ﴿يُوعَظُ بِهِۦ﴾ «الوعظ» زجر مقرون بالتخويف، وقال الخليل: «هو التذكير بالخير فيما يرقُّ له القلب» [المفردات، للراغب: ص٥٢٧].

والذي ينتفع بالوعظ هم الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويخافون وقوفهم بين يدي الله، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ [البقرة:٢٣٢] أي ردّ أولياء المطلقات اللاتي انقضت عدتهن إلى الأزواج إذا خطبوهن بعد انقضاء عدتهن، والله يعلم ما في ذلك من المصالح، وأنتم لا تعلمون، فعلمنا ناقص قليل بالنسبة إلى علم العزيز الحكيم.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- يجب على من طلق زوجته، وقاربت عدتها على بلوغ نهايتها أن يمسكها بمعروف، أو يفارقها بإحسان، ولا يجوز له أن يعيدها إلى عصمته ليطلقها إضراراً بها، وذلك بإطالة عدتها.

٢- الذي يعيد زوجته إلى عصمته إضراراً بها ظالم لنفسه، وهو متخذٌ آيات الله هزواً، وهؤلاء يجب أن نعظهم، ونقول لهم في أنفسهم قولاً بليغاً.

جنـــــة الســـــنة

٣- لا يجوز للولي أن يمنع موليته من العودة إلى الزوج الذي طلقها، وانقضت عدتها منه إذا تراضوا بينهم بالمعروف، وهذه الآية تدلُّ على وجوب الولي في النكاح.

٤- من زوَّج أو طلَّق أو أرجع لاعباً هازلاً، لزمه الزواج والطلاق والرجعة، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ [البقرة:٢٣١] وللحديث الصحيح الدال على ذلك، وقد ذكرناه في التفسير.

جنـــــة الســــــــنة

النص القرآني الثاني والخمسون من سورة البقرة
إرضاع الوالدات المطلقات أولادهن

أولاً: تقديم

بيّنت آية هذا النص الأحكام المتعلقة برضاع الطفل الذي أثمره الزواج الذي انتهى بالطلاق، والآية تقرر العلاقة التي تحكم الزوجين في هذه الحال في مدة الرضاع وما تستحقه الأم المرضعة من نفقة على الزواج، كما بينت كيف يتصرف الأبوان عند الاختلاف.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم من سورة البقرة

﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آية هذا النص من القرآن

١- الوالدات يرضعن أولادهنّ حولين كاملين:

بيَّن الله – تعالى – في قوله: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ ﴾ [البقرة:٢٣٣] مدة الرضاعة الكاملة للمولود من حين ولادته، ومدتها حولان كاملان، والحول: السنة، فهما سنتان كاملتان لا ينقص منهما شيء.

وإرضاع الحولين الكاملين ليس واجباً ولا لازماً، ولذلك قال: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ ﴾ [البقرة:٢٣٣].

ومدة الرضاع للرضيع ليست خاصة بابن المطلقة التي بانت عن زوجها، بل هي عامة في كل رضيع، وقوله: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ ﴾ [البقرة:٢٣٣] خبر معناه الأمر.

٢- على والد الطفل أن ينفق على مطلقته إذا أرضعت ابنه:

أوجب الله على والد الطفل أن ينفق على مطلقته إذا أرضعت ابنه بالمعروف ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴾ [البقرة:٢٣٣] أي: وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف، أي: بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير إسراف ولا

جنـــــة السـنـــــة

تقتير، بحسب قدرته في يساره وتوسطه وعُسْره، كما قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [الطلاق:٧].

والوالد مكلف برزق مرضعة ولده بعد تطليقها، لأن الولد له، وينسب إلى أبيه، لا إلى أمه.

٣- لا يجوز لأي من الوالدين أن يضارَّ الآخر في ولده:

ولا يجوز لأيٍّ من الوالدين أن يتصرف تجاه الطفل بما يضارُّ الآخر، قال تعالى: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣٣] فلا يجوز للوالدة أن تضار الأب برفضها إرضاعه، كما لا يجوز للأب أن ينزع الولد من الأم المرضعة إضراراً بها، ومع ذلك فإنهما إذا تعاسرا فيجوز أن يدفع الأب الطفل لأخرى ترضعه ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾﴾ [الطلاق:٦].

٤- في حال عدم وجود الوالد أو فقره أو موته يقوم الوارث بالإنفاق:

فإذا توفي الوالد، فيجب على وارثه أن يقوم بالدور المناط به، وهو نفقة المرضعة، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:٢٣٣] أي: على الوارث مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل، والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها.

٥- فإن أرادا فصالاً عن تراضٍ منهما وتشاور فلا جناح عليهما:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه يجوز للوالدين أن يفطما ولدهما إذا اتفق رأيهما على أن ذلك في صالحه، وهذا في حال كون الطفل أصبح قوياً شديداً قبل بلوغه العامين وبعد اعتماده على أكل الطعام ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة:٢٣٣].

والفصال: الفطام، ويكون هذا جائزاً في حالة رضا الوالدين بذلك، فإن اختلفا في تقدير وقت فطامه، فإن أمه ترضعه إلى تمام الحولين.

فإن اتفق رأي الوالدين على أن تترك الأم إرضاع الطفل، ويعهد به الأب إلى امرأة أخرى ترضعه، فلا جناح عليهما في ذلك، بشرط أن يسلم الوالد المرضعة أجرها لنهاية مدة إرضاعها ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٣٣].

وختم الله الآية بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ [البقرة:٢٣٣] أمر الله تعالى في هذه الآية بتقواه، وهذا يدعونا إلى العمل بأوامره، واجتناب نواهيه، وأمرنا بأن نَعْلَمَ أنه بصير بما نعمله، وهذا يدلنا على أنه سيحاسبنا على ما قدمناه.

جنـــــة الســـــنة

رابعاً: ما تهدي إليه آية هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا في آية هذا النص وجدناها تهدي إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- يكون الرضاع كاملاً إذا رضع الطفل حولين، وهذا حقّه إذا احتاج إليه، وقال: ﴿كَامِلَيْنِ﴾ لئلا يظن أنّ التمام ليس مقصوداً.

٢- الرضاع المُحَرِّمُ هو ما كان في الحولين، فإذا كان بعد ذلك فلا يؤثر في التحريم، وسيأتي بيان ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ [النساء:٢٣].

٣- يجب على والد الطفل أن يرزق الأم المرضعة ويكسوها بمقدار ما تعارف عليه الناس في البلد التي هي فيه، ويراعى في النفقة حال الوالد يسراً وعسراً.

٤- يجوز للوالدين أن يفطما ابنهما عن الرضاع إذا اتفقا على ذلك، فإن اختلفا مضت أمه في إرضاعه إلى نهاية الحولين.

٥- يجوز للوالد أن يعهد بإرضاع طفله إلى غير أمّه، بشرط أن يسلم أمه أجرة إرضاعه عن المدة السابقة.

جنـــــــة الســــــــنة

النص القرآني الثالث والخمسون من سورة البقرة
عدة المرأة المتوفى عنها زوجها

أولاً: تقديم

البشر عندما يبتعدون عن هدي الله - تبارك وتعالى - يظلمون أنفسهم، ومن ذلك عدة المرأة التي توفي عنها زوجها، فبعض الأمم والشعوب لا يوجد عندهم عدة وفاة، وبعض النساء في بعض المجتمعات يغرقن في الالتزام بعدة طويلة، وقد يكون في العدة مبالغات في التصرفات تؤذي المعتدات أذىً كثيراً.

ومن العدة التي كانت تسوم النساء الخسف عدة نساء الجاهلية، وقد أشار الرسول ﷺ إلى نوعية تلك العدة بقوله: «كانت إحداكن ترمي بالبعرة على رأس الحول» [البخاري: ٥٣٣٦، مسلم: ١٤٨٨].

وقد فسَّرتْ زينب بنت أم سلمة مراد الرسول ﷺ من كلمته هذه بقولها: «كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها، دخلت حِفْشاً، ولبست شرَّ ثيابها، ولم تمسَّ طيباً حتى تمرَّ بها سنة، ثم تؤتى بدابة، حمار أو شاة أو طائر، فَتَفْتَضُّ به، فقلما تفتض بشيء إلا مات، ثم تخرج فتعطى بعرة، فترمي به، ثم تراجع بعد ما شاءت من طيب وغيره» [البخاري: ٥٣٣٧، مسلم: ١٤٨٩].

هذا الذي ذكرته زينب صورة جاهلية حقًّا، حولت العدة إلى فترة عذاب طويلة للمرأة المعتدة، فعدة النساء في الجاهلية سَنَةٌ كاملة، تلبس فيها المعتدة شرّ ثيابها، ثم تدخل حِفْشاً - بكسر الحاء - وهو البيت الصغير الذليل الضيق [راجع النهاية، لابن الأثر: ١/ ٤٠٧] وكانت الأوساخ والأقذار تتراكم عليها في تلك الفترة الطويلة، لأنها لم تكن تغتسل بالماء، ولا تقص أظافرها، ولا تمشط شعرها، ولا تزيل أوساخها.

وكان من التعليمات الجاهلية لهذه المرأة المسكينة أن تفتض، أي: تتمسح بحيوان عندما تنقضي عدتها، وكان يؤتى لها بحمار أو طائر أو شاة، فتعذب هذا الحيوان بتمسحها به، وكانت قلما تمسحت بحيوان إلا مات، لكثرة ما تلقيه عليه من الأوساخ.

إن العدة في الإسلام هي حقٌّ للزوج، وبراءَة للرحم، وحفظ لمشاعر الزوجة وأهل الزوج، تمتنع المرأة في العدة عن أن تخطب أو تتزوج، كما تمتنع عن الزينة والحلي، ولكنها تبقى في منزلها، تلبس الملابس النظيفة، وتغتسل، وتتوضأ، وتمشط شعرها، وتقص أظفارها، فأين الثرى من الثريا.

جنـــــة الســـــنة

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- عدة المرأة التي توفي عنها زوجها:

بيّن الله – تبارك وتعالى – فيما سبق عدة المرأة المطلقة المدخول بها من ذوات الحيض، ثم بيّن الله أحكام رضاع المولود، فناسب أن يذكر عدة المرأة المتوفى عنها زوجها، فقال عزّ من قائل: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٣٤].

أخبرنا الله – تبارك وتعالى – في هذه الآية أن الذين يقبض الله أرواحهم، ويتركون وراءهم أزواجاً يجب على هؤلاء الزوجات أن يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرة أيام، والتربص: الانتظار، وعنى بالتربص في هذه المدة عدة الزوجة التي توفى عنها زوجها.

وقال: ﴿وَعَشْرًا﴾ مع أن المعدود مذكر، وهو الأيام، فكان حقُّ ذلك أن يقال: (عشرة)، «لأن العرب – كما يقول الفراء – إذا أبهمت العدد من الليالي والأيام، غلبوا عليه الليالي، حتى إنهم ليقولون: قد صمنا عشراً من رمضان، لكثرة تغليبهم الليالي على الأيام» [معاني القرآن: ١/ ١٥١].

وقد جاءت السنّة موافقة لما صرح به القرآن، فعن أم سلمة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحلُّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدَّ على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج فإنها تحدُّ عليه أربعة أشهر وعشراً» [البخاري: ١٢٨٠، مسلم: ١٤٨٦].

٢- عدة الحامل المتوفى عنها زوجها:

ظاهر الآية أن كل معتدة من وفاة تعتدُّ بأربعة أشهر وعشرة أيام، ولكن الله خص عموم هذه الآية بقوله في المعتدات الحوامل اللاتي توفي عنهن أزواجهن: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٤].

جنـــــة السـنـــة

وقد ذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أن المعتدة من وفاة إذا كانت حاملاً، تعتد بأبعد الأجلين، فإن كان وضع الحمل هو الأبعد اعتدت به، وإن كانت الأربعة أشهر وعشراً هو الأبعد اعتدت به، قال بذلك جمعاً بين الآيتين، ولكن هذا الاجتهاد مردود، ففي صحيح البخاري وغيره أن سبيعة الأسلمية، توفي عنها زوجها وهي حامل، فخطبها أبو السنابك بن بعكك، فأبت أن تنكحه، فقال لها: والله ما يصلح أن تنكحيه حتى تعتدي آخر الأجلين، ثم جاءت إلى الرسول ﷺ فاستفتته، فقال لها: «انكحي» [البخاري: ٥٣١٨].

والظن بابن عباس أنه رجع عن فتواه باعتدادها بأبعد الأجلين، فقد أفتى ابن عباس بهذه الفتوى وأبو هريرة جالس عنده، فخالف راوي الحديث وهو أبو سلمة ابن عباس فيما أفتى محتجاً بالآية ﴿أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٤] ووافق أبو هريرة على ما قاله أبو سلمة فأرسل ابنُ عباس غلاماً له إلى أم سلمة يسألها، فذكرت أم سلمة الخبر الذي أفتى فيه الرسول ﷺ سبيعة بأنها خرجت من عدتها، وأمرها بأن تنكح [البخاري: ٤٩٠٩].

٣- عدة الأمة المتوفى عنها زوجها:

ذهب جمهور أهل العلم إلى استثناء الأمة المتوفى عنها زوجها، وحكموا بأن عدتها على النصف من عدة الحرة، أي: شهران وخمسة أيام، وذهب قليل من أهل العلم إلى التسوية بين الحرة والأمة في عدة الوفاة [ابن كثير: ١/ ٥٧٠].

٤- عدة غير المدخول بها المتوفى عنها زوجها:

اختلف أهل العلم في من توفي عنها زوجها ولم يدخل بها، فالجمهور أن عليها العدة، وقد روى الترمذي أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة، ولم يفرض لها صداقاً، ولم يدخل بها حتى مات، فقال ابن مسعود: «لها مثل نسائها، لا وكس ولا شطط، وعليها العدة، ولها الميراث» فقام معقل بن سنان الأشجعي، فقال: «قضى رسول الله ﷺ في بَرْوَع بنت واشق امرأة منا، مثل الذي قضيته، ففرح بها ابن مسعود» [سنن الترمذي: ٦٤٥، صحيح الترمذي: ٩١٤، وقال الترمذي فيه: حسن صحيح] وقوله: «لا وكس ولا شطط» أي لا زيادة ولا نقصان. وقال الترمذي بعد سياقه للحديث: «والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيره، وبه يقول الثوري وأحمد وإسحاق».

ونقل الترمذي عن بعض الصحابة وعن الشافعي أن لها الميراث ولا صداق لها وعليها العدة، ونقل عن الشافعي أنه رجع عن قوله هذا إلى ما يقتضيه حديث بَرْوع بنت واشق.

٥- إذا أنهت المعتدة عدتها جاز لها أن تتزين وتتزوج:

وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة:٢٣٤] المخاطب بنفي الجناح عنهم أولياء المرأة، فلا يجوز لهم أن ينكروا على من تزينت

جنـــــة الســـــــنة

وخطبت وتزوجت بعد إكمال عدتها، وقوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِۗ﴾ يدلُّ على أن الأولياء يتدخلون في أمر المتوفى عنها زوجها إذا تصرفت تصرفاً مخالفاً للشرع، كالتي تتبرج وتُظهر زينتها وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾ [البقرة:٢٣٤] والخبير اسم من أسماء الله تبارك وتعالى، وهو العالم بأعمالنا، الذي لا تخفى عليه خافية، وسيجازينا على ما يعلمه منا.

٦- صفة عدة المرأة التي توفي عنها زوجها:

المرأة المعتدة من وفاة لا يجوز لها أن تتزوج، كما لا يجوز لها أن تُخطَب خطبة صريحة، ولا يجوز لها أن تتزين، فلا تلبس الملابس التي هي زينة في نفسها، ولا تلبس الحلي، ولا تتعطر، ولا تكتحل، وتبقى طيلة العدة في منزل الزوجية الذي توفي فيه عنها زوجها، ويجوز أن تخرج من بيتها لمراجعة الطبيب، أو شراء حاجاتها، أو لزيارة أمها أو أبيها أو إخوانها، ولكن لا يجوز أن تبيت خارج منزلها.

وقد جاءت أحاديث عدة تبين ذلك كله:

١- روت أم سلمة زوج النبي ﷺ، أن الرسول ﷺ قال: «المتوفى عنها زوجها لا تلبس المعصفر من الثياب، ولا الممشقة، ولا الحلي، ولا تختضب، ولا تكتحل» [سنن أبي داود: ٢٣٠٤، صحيح أبي داود: ٢٠٢٠].

٢- عن أم عطية أن رسول الله ﷺ قال: «لا تلبس المعتدة ثوباً مصبوغاً إلا ثوب عصب، ولا تكتحل، ولا تمس طيباً إلا إذا طهرت بنبذة من قسط أو أظفار» [البخاري: ٣١٣، مسلم بعد الحديث: ١٤٩١، وأبو داود: ٢٠١٨].

وثوب العصب: هو من برود اليمن، يعصب غزله، أي: يجمع، ثم يصبغ، ثم ينسج، والنبذة: القطعة، والقسط ويقال: الكست، وهو والأظفار نوعان معروفان من البخور وليسا من مقصود الطيب، رُخِّص فيه للمغتسلة من الحيض لإزالة الرائحة الكريهة، تتبع به أثر الدم، لا للتطيب.

٣- عن أم سلمة أن امرأة جاءت إلى الرسول ﷺ، قالت: يا رسول الله، إن ابنتي توفي عنها زوجها، وقد اشتكت عينها، أفنكحلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا» (مرتين أو ثلاثاً)، كل ذلك يقول: «لا» [البخاري: ٥٣٣٦، مسلم: ١٤٨٨].

٤- في سنن الترمذي أن الفُرَيعة بنت مالك بن سنان، وهي أخت أبي سعيد الخدري جاءت الرسول ﷺ طالبة منه أن يأذن لها أن ترجع إلى أهلها في بني خدرة، وكانت معتدة من وفاة، ولم يترك لها زوجها مسكناً يملكه، ولا نفقة.

جنـــــة الســـــــنة

فأذن لها أولاً، ثم ردَّها، واستمع لها مرة أخرى، وقال لها: «امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله» قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشراً [سنن الترمذي: ١٢٠٤، وقال الترمذي فيه بعد سياقه له: هذا حديث حسن صحيح].

وقال الترمذي بعد ذلك: «والعمل على هذا الحديث عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم لم يروا للمعتدة أن تنتقل من بيت زوجها حتى تنقضي عدتها، وهو قول سفيان الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق، وقال بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم: للمرأة أن تعتد حيث شاءت وإن لم تعتد في بيت زوجها. قال أبو عيسى: والقول الأول أصح» [سنن الترمذي: ص٢١٤].

٥- **خروج المعتدة من وفاة في عدتها لقضاء حاجتها**: أما أنه يجوز لها الخروج من المنزل لقضاء **حاجتها** أو لزيارة أقاربها أو جيرانها أو صديقاتها فدلّ عليه حديث جابر بن عبدالله قال: طُلِّقت خالتي، فأرادت أن تجدَّ نخلها، فزجرها رجل أن تخرج، فأتت النبي ﷺ، فقال: «بلى، فجدّي نخلك، فإنك عسى أن تصدَّقي، أو تفعلي معروفاً» [مسلم: ١٤٨٣].

وقد بوّب مسلم على هذا الحديث بقوله: «باب جواز خروج المعتدة البائن والمتوفى عنها زوجها في النهار لحاجتها».

٦- وورد في صحيح مسلم أن فاطمة بنت قيس طلقها زوجها ثلاثاً، وهو غائب، فأرسل إليها وكيله بشعير، فسخطته، فقال: والله ما لك علينا من شيء، فشدَّت عليها ثيابها وأتت رسول الله ﷺ فسألته [مسلم: ١٤٨٠] فلو لم يكن مأذوناً لها أن تخرج من بيتها، وتأتي رسول الله ﷺ لأنكر عليها الرسول ﷺ ذلك.

٧- **حكم خطبة المعتدة إذا توفي عنها زوجها**: لا يجوز التصريح بخطبة المرأة المعتدة في طلاق رجعي، قال الشافعي: «لا يجوز لأحد أن يعرض بالخطبة لامرأة يملك زوجها رجعتها، لأنها في كثير من معاني الأزواج، وقد يخاف إذا عرض لها من ترغب فيه أن تدعي أن عدتها حلت، ولم تحل» [الأم: ٥/ ٣٢].

أما المعتدة من وفاة فيجوز خطبتها تعريضاً لا تصريحاً، قال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة:٢٣٥].

وهذا الخطاب موجه للرجال الذين يرغبون في النساء المعتدات عدة وفاة، فقد أجاز لهم أن يُعرِّضوا بخطبتهن، والخطبة الصريحة طلب يد المرأة للزواج، كأن يقول لها: إني أريد

جنـــــة السـنـــة

الزواج منك، والتعريض: أن يقول: إنك لجميلة أو حسنة، أو يقول: مثلك يرغب فيه، ونحو ذلك، فليس في هذا كلام صريح في طلب يدها، ولكنها فقهت من كلامه أنه يريدها.

وقوله: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْۚ﴾ [البقرة:٢٣٥] أي: أضمرتم في قلوبكم، فقد يخفي الراغب في نكاحها هذا الأمر في قلبه.

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًاۚ﴾ [البقرة:٢٣٥] أي: علم الله أنكم ستذكرون المعتدات في نفوسكم، والله عفا لنا عما حدثتنا به أنفسنا، ولا يجوز لمن يرغب في الزواج من معتدة أن يصرح لها بذلك، كما لا يجوز أن يبرم اتفاقاً صريحاً بينه وبينها في الخفاء، وأسوأ من ذلك كله أن يتزوجها في عدتها سرًّا، وهو زواج باطل، والقول المعروف الذي أجاز الله قوله للمعتدة، هو التعريض الذي سبق ذكره.

ونهى الله الراغبين في زواج المعتدات من وفاة عن إبرام عقد الزواج حتى يبلغ الكتاب أجله، أي: حتى تخرج المعتدة من عدتها ﴿وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ﴾ [البقرة:٢٣٥].

ويبلغ الكتاب أجله بانقضاء العدة، وأصل العقد الشدُّ والربط، وسميت العقود عقوداً، لأنها تعقد كما تعقد الحبال.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- المرأة التي يتوفى عنها زوجها، وهي غير حامل عليها أن تعتدّ أربعة أشهر وعشراً، ويدخل في هذا المتوفى عنها زوجها قبل دخوله بها، أما الحامل فأجلها أن تضع حملها، وعدة الأمة نصف عدة الحرة، أي: شهران وخمسة أيام.

٢- دلّ قوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۗ﴾ [البقرة:٢٣٤] على أنهن ممنوعات قبل بلوغ الأجل من أشياء منها ما نصت عليه الآية، وهو الخطبة الصريحة، والزواج.

ومنه ما بيّنه الرسول ﷺ من لبس ملابس الزينة، ولبس الحلي، والكحل، ووجوب لزوم بيت الزوجية حتى تنقضي العدة.

٣- إذا انقضت عدة المتوفى عنها زوجها جاز لها أن تتزين، وتنكح، وتنتقل من الدار التي تسكنها، ولا يجوز لوليها منعها من ذلك، إذا فعلته بالمعروف.

جنـــــة الســـــنة

٤- لا يجوز للمطلقة الرجعية أن تخطب لا تصريحاً ولا تعريضاً، ويجوز خطبة المعتدة من وفاة تعريضاً لا تصريحاً، أما المطلقة ثلاثاً فذهب المالكية والحنابلة إلى جواز خطبتها تعريضاً، قياساً على المتوفى عنها زوجها، وهذا القول الأظهر عند الشافعية، والأظهر عند الحنفية عدم جواز ذلك، والأول أرجح [راجع: جواهر الإكليل: ١/ ٢٧٦، المغني لابن قدامة: ٧/ ٥٢٥، مغني المحتاج: ٣/ ١٣٧].

٥- لا يجوز للمتوفى عنها زوجها أن يعقد عليها عقد النكاح حتى تخرج من عدتها.

٦- على كل مسلم ومسلمة الالتزام بشرع الله، فهو يعلم بما في نفوسنا وسيحاسبنا ويجازينا.

جنــــــة الســـــــنة

النص القرآني الرابع والخمسون من سورة البقرة
الحقوق المالية الواجبة للمطلقة قبل الدخول

أولاً: تقديم

بيّن الله في الآيتين اللتين حواهما هذا النص الحقوق المالية التي تستحقها الزوجة المطلقة على زوجها إذا لم يدخل بها.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- المطلقة قبل الدخول التي لم يحدد لها مهر لها متعة:

أعلمنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه لا إثْمَ على الأزواج إذا طلقوا زوجاتهم قبل أن يمسوهن أو يفرضوا لهن فريضة، وأوجب عليهم أن يمتعوا زوجاتهم المطلقات بحسب حال الزوج يسراً أو عسراً، قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة:٢٣٦] والجناح المنفي هو الإثم، وقوله: ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: ما لم تجامعوهن، وقوله: ﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ المراد بالفريضة هنا المهر والصداق، وأخبر أن هذه المتعة ليس لها حدٌّ محدود لا يجوز تجاوزه، فهي تختلف باختلاف العصور والبلاد، وباختلاف يسر الزوج وعسره، وتحديد مقدار العدة فيه مجال واسع للعلماء والقضاة، وقد جعل ابن عباس هذه المتعة على ثلاثة مستويات: فأعلاها خادم، وأوسطها الوَرِق، وهو الفضة، وأدناها الكسوة [ابن جرير: ٢/ ١٣٦٠] وللمجتهدين في ذلك تقديرات أخرى غير ما قدره ابن عباس. وقد أمتع رسول الله ﷺ أميمة بنت شراحيل، وكان قد فارقها قبل دخوله بها، ولم يكن سمى لها مهراً بثوبين رَازِقِيَّيْنِ [البخاري: ٢٥٥٧].

جنـــــة الســـــنة

وقوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: ما تعارف عليه الناس في البلد الذي وقع فيه الطلاق، وقوله: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة:٢٣٦] أي: المتعة حق واجب على المحسنين، والإحسان درجة عالية، لا يبلغها إلا من عبد الله على حال يكون فيها كأنه يراه.

٢- المطلقات قبل الدخول اللواتي فرض لهن فريضة:

وأخبرنا الله - تبارك وتعالى - في الآية الثانية من هذا النص، أن الأزواج إذا طلقوا زوجاتهم قبل الدخول، وقد فرضوا لهن فريضة، فيجب عليهم نصف الصداق المفروض، إلا إذا عفت المرأة عما تستحقه من صداق، أو عفا الذي بيده عقدة النكاح، وهو الزوج، بأن يعطي مطلقته كامل المهر، والعفو من كل واحد من الزوجين يجعله أقرب إلى الله، وأمر عباده بأن لا ينسوا أن يتعاملوا فيما بينهم بالفضل، والفضل هنا العطية غير اللازمة، والله مطلع على أعمال عباده، بصير بها ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة:٢٣٧] وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ أي: الزوجات المطلقات على الحال التي ذكرتها الآية، وعفوها يكون بمسامحتها الزوج بنصف المهر المستحق لها و﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ هو الزوج الذي أبرم العقد، وبيده أن ينهيه بإيقاع الطلاق، و﴿ٱلْفَضْلَ﴾ في الآية العطية غير اللازمة.

٣- عدة المطلقات قبل الدخول:

بينت هاتان الآيتان الحقوق المالية الواجبة للمطلقة قبل الدخول، ولم تبين عدتها، وقد بيّن الله في سورة الأحزاب أن المطلقات قبل الدخول لا عدة عليهن، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب:٤٩] وسيأتي بيان ذلك عند بلوغ هذه الآية إن شاء الله تعالى.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- المطلقة المدخول بها تستحق المهر كاملاً لما استحلَّ زوجها من فرجها.

٢- المطلقة قبل الدخول التي لم يحدد لها مهر يجب لها متعة، ويختلف مقدار هذه المتعة باختلاف البلاد والعصور، وباختلاف حال الزوج عسراً أو يسراً، وعلى كل الأحوال لا تزيد المتعة عن نصف المهر.

جنـــــة السـنـــــة

٣- المطلقة قبل الدخول التي سمي لها مهر، تستحق نصف المهر المسمى، ورغَّب الله كل واحد من الزوجين أن يعفو عما يستحقه، فالزوجة مرغبة بإسقاط النصف المدفوع لها، والزوج مرغب في دفع كامل المهر.

٤- إذا عُقِد عَقْدُ الزواج من غير ذكر للمهر فالعقد صحيح، ويحدد فيما بعد مقداره، فإن اتفقا على تحديده، وإلا كان تقديره بمهر المثل.

٥- ليس للمطلقة قبل الدخول عدة، ويجوز أن تنكح بعد طلاقها مباشرة.

جنـــــة الســـــــنة

النص القرآني الخامس والخمسون من سورة البقرة
حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى

أولاً: تقديم

يأتي هذا النص في خاتمة الآيات المتحدثة عن الأسرة، وقد أمرنا الله فيها بالمحافظة على الصلوات الخمس المفروضة، وخصَّ الصلاة الوسطى وهي صلاة العصر بمزيد من العناية، وأمرنا أن نقوم في صلاتنا خاشعين.

وبيَّن لنا كيف نصلي في حالة الحرب والقتال، وهي التي تسمى بصلاة الخوف، وعاد بعد ذلك إلى بيان بعض الأحكام التي تتعلق بالأسرة، وهما حكمان، طلب في الأول منهما ممن حضرته الوفاة من الأزواج أن يوصي لزوجته أن تبقى في بيت الزوجية لمدة عام إن رغبت في ذلك، والثاني: الأمر بتمتيع المطلقات.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم من سورة البقرة

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ
أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ
أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ
أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾
كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمرنا ربنا - تبارك وتعالى - بالمحافظة على الصلاة في أوقاتها وخاصة الصلاة الوسطى:

أمرنا ربنا - تبارك وتعالى - بالمحافظة على الصلاة في أوقاتها، وحفظ حدودها، والإتيان بها وفق ما بيَّن لنا رسولنا ﷺ، وخصَّ الله الوسطى بمزيد من العناية، فالوسطى التي أمر الله بها مؤنث الأوسط، وأوسط الشيء ووسطه خياره، قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨] وقد اختلف الصحابة فمن بعدهم في تحديد الصلاة الوسطى إلى أقوال كثيرة أوردها ابن كثير في تفسيره، فما من صلاة إلا وقيل: إنها الصلاة الوسطى، ومنهن كل صلاة من الصلوات الخمس، ومنها صلاة الجمعة، وصلاة

جنـــــة السـ ـــــنة

العيد، وصلاة الخوف، وصلاة الجماعة، وصلاة الوتر، والضحى، وقد عدَّ الشوكاني الأقوال فبلغت ثمانية عشر قولاً.

ومن عجب أن يبلغ الخلاف هذا المبلغ وفي السنّة ما يحسم الخلاف، ويقضي عليه، فقد صحّ عن الرسول ﷺ أنها صلاة العصر، روى عليّ بن أبي طالب عن النبي ﷺ أنه قال في يوم الخندق: «ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن صلاة الوسطى حتى غابت الشمس» [البخاري: ٤١١١، مسلم: ٦٢٧].

وعن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الوسطى صلاة العصر» [سنن الترمذي: ١٨٢، وقال فيه: هذا حديث حسن صحيح]. وقال الشوكاني: «وأما حجج بقية الأقوال، فليس فيها شيء مما ينبغي الاشتغال به، لأنه لم يثبت عن النبي ﷺ» [الشوكاني: ١/ ٤٤٥].

٢- أوجب الله على المصلين القيام لله قانتين:

وأمرنا الله – تبارك وتعالى – أن نقوم لله في صلاتنا قانتين، قال تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة:٢٣٨] أي قاموا لله ساكنين خاشعين طائعين، فلا يجوز الكلام في الصلاة، فعن زيد بن أرقم قال: «كنا نتكلم في الصلاة، يكلم الرجل صاحبه وهو إلى جنبه في الصلاة، حتى نزلت ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة:٢٣٨] فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام» [البخاري: ٤٥٣٤، مسلم: ٥٣٩].

وعن عبدالله قال: كنا نسلم على النبي ﷺ، وهو في الصلاة، فيرد علينا، فلما رجعنا من عند النجاشي سلمنا عليه فلم يردَّ علينا، وقال: «إنَّ في الصلاة شغلاً» [البخاري: ١١٩٩، مسلم: ٥٣٨].

وعن معاوية بن الحكم السلمي: أن رسول الله ﷺ قال له بعد أن تكلم في صلاته: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن» [مسلم: ٥٣٧].

فهذه الأحاديث تدل على ما ينبغي أن يكون المصلي عليه في صلاته من القنوت، وهو السكون، والخشوع، وعدم الكلام، وقراءة القرآن، والتسبيح والتكبير.

٣- الصلاة في حالة الخوف:

بعد أن أمرنا الله – تبارك وتعالى – أن نأتي في حالة الأمن والطمأنينة بالصلاة على الوجه الأكمل بيّن لنا أن الصلاة لا تسقط عنا في حالة الخوف، وعلينا أن نأتي منها بما نطيقه ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة:٢٣٩] أي: صلوا على أي حال كنتم، لا فرق بين أن تكونوا راكبين أو ماشين، وسواءٌ أصليتم إلى القبلة أو إلى غيرها، وهذا في حال الالتحام في ميدان القتال.

جنـــــة الســــــنة

فإذا زال الخوف، وعاد الخائفون إلى حالة الأمن فعليهم أن يأتوا بالصلاة على وجهها الذي أمرنا به، وذلك بالصلاة إلى القبلة، وإتمام القيام والركوع والسجود ونحو ذلك ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة:٢٣٩]. أي: كما علمكم الله ما لم تكونوا تعلمونه من الشرائع، وهذه الآية كقوله تعالى بعد ذكره لصلاة الخوف: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء:١٠٣].

وسيأتي بيان الأحكام الواردة في صلاة الخوف عند الآية الثانية بعد المائة في سورة النساء إن شاء الله.

٤- والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج:

ذهب جمهور العلماء إلى أن هذه الآية جعلت عدة المرأة مدة عام كامل، ونسختها الآية المتقدمة عليها، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة:٢٣٤]، فتكون هذه الآية متقدمة في التلاوة، متأخرة في النزول. والصواب من القول أن الآية غير منسوخة، فالعدة اللازمة للمتوفى عنها زوجها هي أربعة أشهر وعشر، أما الآية التي تطلب من الأزواج أن يوصوا لنسائهم بأن يبقين في منزل الزوجية لمدة سنة كاملة من غير إخراج، فإذا خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف، فهذا من باب الوصية للأزواج بالأمر بذلك، فتكون العدة أربعة أشهر وعشراً في بيت الزوجية، ولا يجوز لأولياء الزوج وورثته إخراجهن، وليس لهن أن يخرجن، ويكون بقية العام ومقدارها سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية، إن شاءت سكنت، وإن شاءت خرجت.

وهذا الذي بيّنته ذكره البخاري عن مجاهد قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ [البقرة:٢٣٤]، قال: كانت هذه العدة، تعتد عند أهل زوجها واجباً، فأنزل الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَـٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ [البقرة:٢٤٠].

قال: «جعل لها تمام السنة، سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية، إن شاءت سكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت، وهو قوله الله تعالى: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ [البقرة:٢٤٠] فالعدة كما هي واجب عليها» [البخاري: ٥٣٤٤].

جنـــــة الســـــنة

وقوله تعالى في خاتمة الآية: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٤٠﴾ [البقرة:٢٤٠] فالله - سبحانه - عزيز، أي: لا يقهر، حكيم، أي: محكم لما يأمر الله به عباده، وفي هذا تهديد ووعيد لمن أخرج المرأة، وهي لا تريد الخروج.

٥- للمطلقات متاع بالمعروف حقًّا على المتقين:

استدلَّ بهذه الآية جمع من أهل العلم على وجوب المتعة لكل مطلقة، وقد سبق ذكر قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٢٣٦﴾ [البقرة:٢٣٦]، ولا تعارض بين هذين النصين، فالآية الآمرة بالمتعة للمطلقة قبل الدخول التي لم يفرض لها مهر، هي أحد أفراد العموم في قوله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٤١﴾ [البقرة:٢٤١].

وقوله: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٤١﴾ [البقرة:٢٤١] أي: واجب على المتقين الذين يُنفِّذون ما أوجبه الله على عباده.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢٤٢﴾ [البقرة:٢٤٢] أي: مثل هذا البيان الذي بيّناه لكم هنا، يبين الله لكم آياته في التشريعات المختلفة، كالحلال والحرام، والفرائض وغيرها، لعلكم تعقلون عن الله قوله، أي: تفهمونه، وتتدبرونه.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أوجب الله علينا المحافظة على الصلاة في أوقاتها، والإتيان بها كاملة على الوجه التي بينتها آيات القرآن والأحاديث الصحيحة عن الرسول ﷺ.

٢- خصَّ الله صلاة العصر بالذكر، فهي الصلاة الوسطى، ويجب على المسلم أن يُعنَى بها عناية خاصة.

٣- يجب على المصلي أن يقوم في صلاته عند قراءة القرآن، ويقوم ساكناً خاشعاً متفكراً فيما يقرؤه ويذكره.

٤- إذا انعدم الأمن بسبب العدو أو غيره، فلا يجوز أن يدع المسلم الصلاة، ولكنه يأتي منها ما يمكنه سواءً كان راكباً أو ماشياً، فيصلي بحسب حاله، مستقبل القبلة، أو غير مستقبل لها، فإذا أَمِن المصلي فيجب عليه أن يأتي بالصلاة على وجهها الأكمل.

جنـــــة السـنـــــة

٥- عدة المرأة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً، وعلى الأزواج أن يُوصُوا بتمام السنة لأزواجهن، لا يخرجن من البيوت، فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف.

٦- تجب المتعة لكل مطلقة، لا فرق بين المدخول بها وغير المدخول بها.

جنـــــة الســــــنة

النص القرآني السادس والخمسون من سورة البقرة
قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت

أولاً: تقديم

قصَّ الله علينا في طليعة آيات هذا النص قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، ثم أحياهم بعد ذلك، وإنما قصَّهم الله علينا لنعلم أن الموت يأتي الذين يهربون منه، ويحتاطون له، كما يأتي الذين يعيشون في ديارهم، فكم من أقوام خاضوا غمار الحروب، وطلبوا الموت باقتحامهم مواطنه، ثم ماتوا على فُرُشهم، وإيمان المسلم بهذه الحقيقة يجعله يخوض غمار الحروب غير هيَّاب ولا وجل.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت:

حدثنا ربنا في الآية الأولى من هذا النص عن قوم بلغ تعدادهم ألوفاً، خرجوا من ديارهم خشية أن يأتيهم الموت، فقال الله لهم بعد خروجهم: موتوا، فماتوا جميعاً، ثم أحياهم، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر، فالله أحياهم في الدنيا قبل الآخرة، ليدلَّ الناس أنه قادر على إحياء الناس في يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ ﴾ [البقرة:٢٤٣].

وقد جاءت الأحاديث الصحيحة ناهية عن الخروج من أرض وقع فيها الطاعون، أو الدخول إلى تلك الديار، ففي صحيحي البخاري ومسلم أن عمر بن الخطاب لما ذهب ليدخل إلى الشام وجد الطاعون وقع بها، فاستشار الصحابة في دخوله إليها، ثم عزم على الرجوع، فجاء عبدالرحمن بن عوف، وكان متغيباً في بعض حاجته، فقال: «إن عندي في هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه». قال: فحمد الله عمر، ثم انصرف» [البخاري: ٥٧٢٩، مسلم: ٢٢١٩].

جنـــــة الســــــنة

وما أخبرنا الله به عن هذه القصة كافٍ شافٍ، لا يحتاج إلى غيره، فما ذكره بعض المفسرين عن بني إسرائيل لا نحتاج إليه، فقد أخبرنا الله أنهم ألوف، وأنه أماتهم، ثم أحياهم، وهذا يكيفنا، والعبرة تتحقق بإحياء الواحد فمن فوقه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٢٤٣﴾ [البقرة:٢٤٣] لقد تفضل الله على الذين أحياهم بعد موتهم، وتفضل علينا سبحانه بإخبارنا عنهم، ففي ذلك دلالة على الآيات العظيمة الباهرة التي تدل على قدرة الله سبحانه في إحياء الموتى، وذم الله أكثر الناس في عدم شكرهم لله تبارك وتعالى على ما أراهم وعرفهم به من نعمه.

٢- الأمر بالقتال في سبيل الله:

بعد أن أخبرنا ربنا خبر الذين خرجوا من ديارهم فارين من الموت، أمرنا أن نقاتل في سبيله غير خائفين، ولا فارين منه ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٤٤﴾ [البقرة:٢٤٤].

فالفرار عن ميدان الحرب والقتال لا ينجي من الموت، ولا يبعد الآجال، فالآجال موقتة، ولا يزاد فيها، ولا ينقص منها كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾ [آل عمران:١٦٨]، وقال تعالى: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ [النساء:٧٨]، وقد حرص خالد بن الوليد ﷺ على نيل الشهادة في كل مشهد حضره، فما بقي في جسده عضو إلا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة، ثم مات على فراشه كما يموت العَيْر.

٣- الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله:

بعد أن أمرنا الله بالقتال في سبيله، أمرنا بالنوع الآخر من الجهاد وهو جهاد المال، فأمرنا بالإنفاق في سبيله ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾ [البقرة:٢٤٥] حثَّ الله على الإنفاق في سبيل الله، ورغَّب فيه بإخبارنا أنه يجزي المقرضين أضعافاً مضاعفة، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة:٢٦١] والله غني كريم، يضيق على من يشاء، ويوسع على من يشاء، وإليه مرجعنا، فيحاسبنا على ما قدمنا.

جنـــــة الســـــنة

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - الله قادر على إحياء الناس في يوم القيامة، وقد أحيا العباد في الحياة الدنيا، ليدلهم على قدرته على ذلك الإحياء.

٢- على العباد أن لا يفروا من الطاعون إذا حلّ بأرضهم، وعليهم البقاء فيها، وعلى غيرهم ممن ليس في أرضهم أن لا يدخلوا الديار الموبوءة بالطاعون.

٣- ذكر الله من أخبار الغيب الماضية قصة الذين خرجوا من ديارهم خائفين من الموت أن ينزل بهم، فأماتهم بعد خروجهم، ثم أحياهم.

٤ - أمر الله بمجاهدة أعدائه، وهذا هو القتال في سبيل الله، والمجاهدون في سبيل الله يسمع الله أقوالهم، ويعلم أحوالهم، وسيثيبهم، ويجزيهم خير الجزاء.

٥ - رغب الله في الإنفاق في سبيل الله، ووعد عليه بأن يجزي المنفقين أضعافاً مضاعفة.

جنــــــة الســـــــنة

النص القرآني السابع والخمسون من سورة البقرة
بنو إسرائيل يطلبون من نبي لهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله

أولاً: تقديم

قصّ الله علينا في آيات هذا النص قصة الملأ من بني إسرائيل الذين طلبوا من نبي من أنبيائهم من بعد موسى أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله، وهي قصة كاملة وافية، لا تحتاج إلى مزيد بيان، ولم يرد في السنّة النبوية بيان لها إلا حديث واحد، ذكر فيه الرسول ﷺ عدة الذين اجتازوا النهر مع طالوت، وأنهم كانوا عدة أصحاب بدر، ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً.

ومع عدم حاجة الآيات التي وردت في هذه القصة إلى مزيد بيان إلا أن كثيراً من المفسرين أغرموا بنقل القصص التي صدَّرها بنو إسرائيل إلينا، وكثير منها إنما هو حديث خرافة، وبعضها يناقض ما قصّه الله علينا، فمن ذلك أن النبي الذي طلب منه بنو إسرائيل أن يبعثه الله لهم هو نبي الله يوشع الذي خلف موسى عليه السلام، مع أن الله أخبرنا في هذه القصة أن أحد الجنود الذي كان في جيش طالوت هو نبي الله داود عليه السلام، وهو الذي قتل جالوت رئيس جيش الأعداء، ولم يكن داود آن ذاك قد أوتي الحكم والنبوة، وداود كان بعد موسى بزمن طويل.

لقد أطال جمع من المفسرين في سرد قصص بعيدة عن الصواب، وجعلوا ما ورد في تلك القصص الواهية تفسيراً لآيات هذه القصة، فأذهبوا بهاء هذه القصة القرآنية، ومن عجب أن هذه القصة التي جاءَت بها آيات هذا النص موجودة في التوراة بشكل واضح، ولكن المفسرين لم يقتربوا من القصة التوراتية القريبة في محتواها من القرآن، وذهبوا يوردون قصصاً واهية ضعيفة.

ذكرت التوراة هذه القصة في الإصحاح السابع عشر من سفر صموئيل الأول، ولكن القصة في التوراة ليست واضحة وضوحها في القرآن، ففي التوراة أن اسم ملك اليهود شاول، وسماه في القرآن طالوت، واسم ملك الأعداء وقائد جيوشهم جُلْيات، وتتفق التوراة والقرآن على أن داود هو الذي قتل جالوت، وبذلك انتصر اليهود على جالوت وقومه، وفي التوراة تفصيلات كثيرة، ولكنها مع كثرتها لا تعطي البينات النيرة التي جاء بها القرآن.

جنـــــة الســــــنة

وقد ردّ بعض المفسرين هذه القصص، فالشوكاني صرح بأن اليهود أقْمَأَهم الله جاؤوا بهذه القصص للتلاعب بالمسلمين والتشكيك عليهم، وذَكَرَ ما في ذلك من التناقضات [فتح القدير: ١/ ٤٥٨].

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ
بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ
ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ
وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ
لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا
تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ
يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ
كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ
وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا
يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- بنو إسرائيل يطلبون من أحد أنبيائهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله:

يخبرنا الله - تبارك وتعالى - في آيات هذا النص أن الملأ من بني إسرائيل وهم أشراف القوم ووجوههم توجهوا إلى نبي من أنبيائهم، فطلبوا منه أن يختار لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [البقرة:٢٤٦] وحدد الله لنا الفترة الزمنية التي كانت فيها هذه الواقعة، فقد كانت

جنة السنة

من بعد موسى ﷺ، أي: بعد موته، وزادها تحديداً، عندما أخبرنا أن الذي قتل قائد جيش الأعداء هو داود ﷺ، وهذا يعني أنها كانت بعد نبي الله موسى بزمن طويل.

ولم يستجِبْ نبيُّهم لطلبهم مباشرة، وإنما ناقشهم فيما طلبوه، وقال لهم: هل عسيتم إن فرض عليكم القتال ألا تقاتلوا، فأجابوه قائلين: كيف لنا ألا نقاتل في سبيل الله، وقد أخرجنا عدوُّنا من ديارنا، وسبى أبناءنا، وأخبرنا الله أنهم عندما فرض عليهم القتال لم يفوا بما فرضه عليهم، وسيأتي تفصيل هذا التولي في بقية آيات النص ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة:٢٤٦].

وقوله: ﴿تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عما أوجب الله عليهم، ولم يفوا بما وعدوا، وقوله: ﴿عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ يدخل فيه هؤلاء الذين تولوا عن القتال الذي فُرض عليهم.

٢- اختار الله طالوت ملكاً:

وأخبرهم نبيهم بالملك الذي اختاره الله لهم: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة:٢٤٧] هكذا قال رسولهم لهم: إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً، وقد أكد الله هذا الخبر بحرف التأكيد: ﴿إِنَّ﴾. وما دام الله قد اختاره، فالواجب عليهم السمع والطاعة، وعدم الحوار والمناقشة والاعتراض ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور:٥١].

ولكنهم حاوروا واعترضوا و﴿قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ [البقرة:٢٤٧] قالوا لنبيهم: كيف يكون له الملك علينا، ونحن أحق بالملك منه، ويبدو أن هذا المَلِكَ لم يكن من البيوت التي ملك أصحابها من قبل، ولذلك قالوا: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ [البقرة:٢٤٧] والأمر الثاني الذي يمنعه من استحقاق الملك في نظرهم أنه ﴿لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ [البقرة:٢٤٧].

فردّ عليهم نبيهم مبيناً وجه استحقاق طالوت للملك قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة:٢٤٧] فطالوت يستحق الملك لأمور: **أولاً:** لأن الله اصطفاه واختاره عليهم جميعاً، والله عليم بمن يختاره، فلولا صلاحيته لهذه المهمة ما اختاره الله، واختيار الله يقطع خيار الناس، وقد قال المشركون المعترضون على بعثة محمد ﷺ ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ

جنـــــة الســـــــنة

عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف:٣١] يريد بالقريتين مكة أو الطائف، فرد الله عليهم قائلاً: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف:٣٢].

وثانياً: أن الله أهّله ليكون ملكاً، فوهبه بسطة في العلم والجسم، فهو لم يؤت العلم والقوة البدنية فحسب، ولكنه زاده بسطة في كل واحد منهما، والملك يحتاج إلى العلم الذي يسوس به الناس، ويقودهم به في الحروب، ويحتاج إلى القوة البدنية التي تؤهله للقيام بشؤون الحكم، ومصارعة الأعداء في ميدان الحرب والقتال.

وقال لهم نبيهم: إن الملك لله، يؤتيه من يشاء من عباده، ولا يجوز للبشر أن يناقشوا الله في التصرف فيما هو حقٌّ له، وختم الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة:٢٤٧] أي: واسع الفضل، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه.

٣- آية الملك طالوت:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة:٢٤٨].

قال لهم نبيهم: إن آية ملك طالوت أن يأتيهم التابوت، وهو صندوق مستطيل الشكل يحوي السكينة، والسكينة الهدوء والطمأنينة ﴿هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح:٤]، وقال: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٢٦]، والمراد: أن وجود التابوت معهم يجلب لهم السكينة في قلوبهم ويثبتهم، وكان فيه بعض ما تركه آل موسى وآل هارون، ولا ندري شيئاً عن هذا الذي في التابوت، هل هو التوراة، أو هو عصا موسى، وهل فيها شيء من ثياب موسى وهارون، أو فيه كل ذلك، الله أعلم بذلك.

وقد جاءهم الله بالتابوت تحمله الملائكة، ولم يخبرنا الله أين كان التابوت قبل مجيء الملائكة به، وقوله في ختام الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة:٢٤٨] أي: إن في مجيء الملائكة بالتابوت على هذا النحو الذي وصفه الله تعالى آية، أي: علامة تدلكم على اختيار الله لطالوت، وصلاحيته لهذا الملك.

٤- طالوت ينطلق بالجيش لمقاتلة العدو:

حدثنا ربنا - تبارك وتعالى - عن انطلاق طالوت بجيش بني إسرائيل لمواجهة العدو الذي أخرجهم من ديارهم، وسبى أبناءهم، وفي طريقه إلى المعركة مرّ طالوت وجيشه بنهر،

جنـــــة الســــــنة

ولعله نهر الأردن الواقع بين الأردن وفلسطين، فاختبر طالوت أفراد ذلك الجيش، ليبين الذين يصلحون للقتال من الذين لا يصلحون له، قال طالوت لهم: إن الله مبتليكم ومختبركم بنهر، فمن شرب من ذلك النهر، فليس مني، ولا يتبعني، ومن لم يشرب منه ولم يذقه فإنه مني، إلا من اغترف غرفة بيده، لقد أذن لهم بغرفة واحدة فقط، وكانت نتيجة الامتحان موجعة مؤلمة، لقد شربوا منه إلا قليلاً منه، وقد بيّن لنا رسولنا ﷺ أن هذا العدد القليل وهم الذين لم يشربوا منه إلا غرفة واحدة والذين جاوزوا معه النهر كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وهم الذين خاض بهم طالوت المعركة، وانتصر فيها، روى البخاري في صحيحه عن البراء، قال: حدثني أصحاب محمد ممن شهد بدراً، أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت، الذين جازوا معه النهر، بضعة عشر وثلاثمئة، قال البراء: «لا والله، ما جاوز معه النهر إلا مؤمن» [البخاري: ٣٩٥٧-٣٩٥٩].

وقد دلَّ هذا الحديث على ثلاثة أمور: **الأول**: أن عدة أصحاب طالوت كانوا بضعة عشر وثلاثمائة. **الثاني**: أن الذين اجتازوا معه النهر وحاربوا معه هم الذين شربوا من النهر غرفة واحدة، والباقي رجعوا ولم يصحبوه، خلافاً لما قرره بعض المفسرين. **الثالث**: أن عدة أصحاب طالوت كانوا عدة المسلمين في غزوة بدر الكبرى.

وقال تعالى في وصف انطلاق طالوت بالجنود ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة:٢٤٩].

ومع أن القسم الأكبر من الجيش لم ينجح في الاختبار، ورجع إلى الديار، وبقي عدد قليل، فقد تسرب إلى نفوس بعض هؤلاء الأخيار شيء من الخوف بسبب قلتهم، وكثرة عدوهم، وقالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾ [البقرة:٢٤٩].

قال بعض الذين نجحوا في الاختبار: لا قدرة لنا - بسبب قلة عددنا - على مواجهة طالوت وجنوده، عند ذلك برز الصوت المؤمن الواثق بلقاء الله المؤمن بنصره قائلاً في مواجهة ذلك الصوت الضعيف: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾ [البقرة:٢٤٩] ابتغاء وجه الله في ميدان الحروب.

ولقد فقه المسلمون من هذه الأمة أن النصر من عند الله، وأنه لا يتحقق بكثرة الجند ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦)﴾ [آل عمران:١٢٦]، ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣] وقد أوجب الله على الرعيل الأول من هذه الأمة أن يواجه المؤمنون

جنـــــة السـنـــــة

عشرة أضعافهم ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال:٦٥] ثم خفف الله عنهم فأوجب عليهم أن يصبروا لضعف عددهم.

٥- الانتصار في المعركة:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن طالوت والعدد القليل ممن كان معه عندما برزوا لجالوت ومن معه من الأعداء دعوا الله ربهم أن يفرغ عليهم صبراً، ويثبت أقدامهم، وينصرهم على القوم الكافرين ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [البقرة:٢٥٠].

و(البروز): الظهور في ميدان الحرب والقتال، و﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [البقرة:٢٥٠] أي: صبّ علينا الصبر صباً، وثبت أقدامنا، أي عند مواجهة الأعداء.

وقد أخبرنا ربنا - عز وجل - أن الفئة المؤمنة التي صفيت من الخليط الفاسد، والتي ابتهلت إلى ربها طالبة منه النصر، هزمت أعداءَها في ميدان الحرب والقتال، وقتل أحد أفراد جيش طالوت - وهو داود - قائدَ الأعداءِ ورئيسَهم، وهو جالوت، وأخبرنا تعالى أنه بعد ذلك الانتصار آتى داود الملك والحكمة، وعلمه مما يشاء سبحانه، فمن ذلك تعليمه سياسة الأمة، وقيادة المعارك، وصناعة الدروع، وغير ذلك مما شاء تعليمه له.

٦- لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض:

أخبرنا الله - تبارك وتعالى - أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة:٢٥١] «أي: لولا أن الله يدفع أهل الباطل بأهل الحق، لغلب أهل الباطل في الأرض، وبغوا على الصالحين، وأوقعوا بهم، حتى يكون لهم السلطان وحدهم، فتفسد الأرض بفسادهم، فكان من فضل الله على العالمين، وإحسانه إلى الناس أجمعين أن أذن الله لأهل دينه الحق المصلحين في الأرض، بقتال المفسدين فيها من الكافرين والبغاة المعتدين» [تفسير المنار: ٢/ ٣٩٥].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج:٤٠].

جنـــــة الســـــــنة

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٥١﴾ [البقرة:٢٥١] بيّن الله -سبحانه- أنه يدفع بالمؤمنين شر الكافرين فضلاً منه ونعمة.

وختم الله هذا النص بقوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٢٥٢﴾ [البقرة:٢٥٢] الإشارة بقوله: ﴿تِلۡكَ﴾ إلى ما حدثنا الله به في هذه القصة، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه قصَّ علينا هذه القصص بالحق، أي: أخبرنا به وفق ما وقع، ليس فيه تغيير ولا تبديل، وقال في خاتمة الآية: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٢٥٢﴾ [البقرة:٢٥٢] ولذلك أنزل الله عليه ما أنزل، وبيّن له ما بيّنه.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- قصَّ الله علينا قصة الملأ من بني إسرائيل الذين طلبوا من نبي لهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله، وهذه القصة كما حدث الله بها هي الحق الذي يصوب ما عند اليهود من خلل وتحريف.

٢- إذا ضيمت الأمة خسفاً، واستعلى عليها أعداؤها، فيجب على أشرافها وأهل الرأي فيها أن يبحثوا عن الذي يقودها إلى العزة والمجد، كما فعل الملأ من بني إسرائيل في بحثهم عمن يقودهم إلى رفع الذل عنهم.

٣- أصحاب الرأي الحصيف ينبهون الأمة إلى التروي وعدم الاستعجال والنظر في العواقب، فنبيُّ بني إسرائيل قال لهم منبهاً ومحذراً: هل عسيتم إن كُتب عليكم القتال ألا تقاتلوا.

٤- هناك دواعٍ تدعو الأمة إلى أن تصبح دولة مقاتلة، فاليهود أُخرجوا من ديارهم، وسبيت أبناؤهم، وصحابة رسولنا ﷺ أخرجوا من ديارهم، وأهل فلسطين اليوم احتُلت ديارهم من قِبَل اليهود، وأُخرجوا من بلادهم.

٥- قوة بصيرة نبي بني إسرائيل، وصدق فراسته في قومه، فبعد أن كتب القتال عليهم، نكصوا وأعرضوا عن الجهاد.

٦- كان الجهاد في سبيل الله مفروضاً على بعض الأمم من قبلنا، كما فُرض علينا.

جنـــــة السـنة

٧- اعتراض بني إسرائيل على نبيهم فيما أخبرهم به من ابتعاث الله طالوت ملكاً عليهم.

٨- يشترط في الملك الذي يقود أمته إلى العزة والمجد أن يؤتى العلم والقوة المتصفة بالحكمة، فإن خلا منهما أو من واحد منهما وقع خلل في تصريف الدولة، وإدارة المعارك والحروب.

٩- أرسل الله لبني إسرائيل آية تدل على استحقاق طالوت الملك، فقد جاءت الملائكة بني إسرائيل بالتابوت، وكان فيه السكينة، محتوياً على بقايا مما تركه آل موسى وآل هارون.

١٠- لا بد لاستقامة أمر الدولة أن يطاع الحاكم المدبر لتلك الدولة، ومن هنا كان الواجب على بني إسرائيل أن لا يشربوا من النهر الذي نهوا عن الشرب منه إلا غرفة باليد.

١١- النصر من عند الله، والكثرة ليست ميزان النصر، وقد هزم المسلمون في أول معركة حنين عندما أعجبتهم كثرتهم.

١٢- لجأت القلة التي كانت مع طالوت إلى الله، فاستنصرت به، فنصرها، وأعزها، وهزم القوة الكبيرة الهائلة التي كانت تقف في وجهها.

١٣- إنعام الله على داود ﷺ، فقد أقدره على قتل جالوت، ثم بعد ذلك آتاه الله النبوة والملك.

١٤- وجود قوة تحمل الحق وتتبناه، وتصارع الباطل، وتقف في وجهه أمرٌ ضروري، يقي الأرض من حلول الفساد فيها.

١٥- هذه القصة وأمثالها آية من آيات الله تعالى، فالإتيان بالخبر على الوجه الذي وقع عليه من غير تبديل ولا تغيير، هو من شأن العليم الخبير.

١٦- المجاهد في سبيل الله لا يضيره أن يقصد رفع الظلم عن أهله وذويه، ويقصد هزيمة من أذلُّوه، واسترداد أرضه وبلاده، كما فعل بنو إسرائيل في هذه الواقعة.

جنـــــة الســــــنة

النص القرآني الثامن والخمسون من سورة البقرة
تفضيل الله بعض رسله على بعض

أولاً: تقديم

أشار الله - تبارك وتعالى - إلى رسله الذين سبق الحديث عنهم في هذه السورة باسم الإشارة الموضوع للبعيد ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ ﴾ [البقرة:٢٥٣] ليدلّ على مدى علوِّهم ورفعة شأنهم، وأعلمنا ربنا - سبحانه - أنه فضَّل بعض النبيين على بعض، فمنهم إبراهيم الذي اتخذه الله خليلاً، ومنهم موسى الذي اتخذه كليماً، ومنهم عيسى الذي آتاه البينات، وأيده بروح القدس، ومنهم محمد ﷺ الذي أعطاه منزلة في الجنة ليست لأحد غيره.

وأعلمنا الله عن سنّة من سننه في أتْباع كلِّ رسول من رسله، في اقتتالهم فيما بينهم، لحكمة يعلمها ربنا عز وجل، وأمر الله بالمسارعة بالإنفاق في الدنيا، قبل أن نصير إلى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تفضيل الله بعض الرسل على بعض:

أشار الله تعالى باسم الإشارة ﴿ تِلْكَ ﴾ الموضوع للبعيد، للدلالة على المكانة العالية التي يحظى الرسل بها عند ربهم، والرسل المشار إليهم في هذه الآية، هم الذين سبق ذكرهم في هذه السورة كإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ومحمد عليهم السلام، أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن الرسل متفاوتون فيما بينهم، ولكل واحد منهم خصوصية فضَّله الله بها، فمنهم الذي كلمه الله تكليماً، ومنهم الذي اتخذه خليلاً، ومنهم الذي جعله في أعلى درجة في الجنة، ومنهم عيسى ابن مريم الذي آتاه الآيات البينات، وأيّده بروح القدس ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا

جنــــــة الســــــنة

بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة:٢٥٣].

ودلّ على تفاضل الرسل فيما بينهم أن الرسول ﷺ عندما أُسري به وجد في كل سماء بعضاً من الرسل، فوجد في السماء الأولى آدم، ووجد في السابعة إبراهيم، وكان موسى في السادسة، وهارون في الخامسة، ويحيى وعيسى في الثانية، وأفضل الرسل أولو العزم، وهم الخمسة المذكورون في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ⑦﴾ [الأحزاب:٧].

وقد نهى الرسول ﷺ عن تفضيل الأنبياء بعضهم على بعض، فقال: «لا تفضلوا بعض الأنبياء على بعض» [البخاري: ٣٤١٤، مسلم: ٢٣٧٣]. وهذا المنهي عنه هو التفضيل على وجه العصبية، التي ينتقص فيها الرجل رسولاً، ويرفع رسولاً، فإن الرسول ﷺ قال ذلك لمن ضرب اليهودي لقوله: والذي اصطفى موسى على البشر، ومن المعلوم أنَّ أفضل الرسل والأنبياء محمد ﷺ.

والبينات التي آتاها الله عيسى عليه السلام ذكرها الله تعالى في موضع آخر كقوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران:٤٩].

والبينات: الحجج الواضحات، والمعجزات الظاهرة، وروح القدس الذي أيد الله به عيسى عليه السلام هو جبريل عليه السلام.

٢- اختلاف أتباع الأنبياء واقتتالهم فيما بينهم:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن أتباع النبيين اختلفوا فيما بينهم، فآمن بعضهم، وكفر آخرون، وكان عاقبة الاختلاف الاقتتال، ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة:٢٥٣].

ومن نظر في تاريخ الأمم السابقة وتاريخ هذه الأمة، وجد أنهم اقتتلوا فيما بينهم بعد أنبيائهم، اليهود اقتتلوا فيما بينهم، والنصارى اقتتلوا فيما بينهم، وهذه الأمة اقتتلت فيما بينها، وأول اقتتال وقع فيها قتال المرتدين ومانعي الزكاة في عهد الخليفة الراشد أبي بكر الصديق.

جنـــــة السـنـــــة

وهذا الاقتتال شاءَه الله وقضاه، ووقع كما شاء الله وقضاه.

٣- أمر الله - تبارك وتعالى - المؤمنين في الآية الأخيرة من هذا النص بالإنفاق مما رزقهم الله، من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه، ولا خلة، ولا شفاعة، وهذا اليوم هو يوم القيامة، ففي ذلك اليوم، لا يشترى ولا يباع، وتنقطع الخلة بين الناس، أي: المحبة والمصادقة، إلا ما كان لله وفي الله، وليس في ذلك اليوم شفاعة، إلا لمن رضي الله عنه، والكافرون في يوم القيامة هم الظالمون، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٤].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الرسل أفضل الناس جميعاً، وهم متفاضلون فيما بينهم، ومراتبهم عند الله متفاوتة.

٢- لكل رسول فضيلة خصَّه الله بها، فإبراهيم خليل الرحمن، وموسى كليمه، وعيسى خلقه الله من غير أب وأيده بالبينات، ومحمد ﷺ مرسل إلى الناس كافة.

٣- وقع الخلاف في كل أمة بعد موت رسولها، واقتتل الكفار والمؤمنون فيما بينهم.

٤- دعا الله المؤمنين من هذه الأمة إلى الإنفاق مما رزقهم الله من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا ينفع فيه أحداً إلا ما قدَّمه في حياته.

٥- الكافرون هم الذين ظلموا أنفسهم الظلم الأكبر، وهو الشرك.

جنـــــة الســــــنة

النص القرآني التاسع والخمسون من سورة البقرة
آية الكرسي أعظم آيات القرآن

أولاً: تقديم

أول آيات هذا النص آية الكرسي، وهي أعظم آية في كتاب الله تبارك وتعالى، ففي صحيح مسلم عن أبيّ بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر، أتدري أيّ آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: الله، ورسوله أعلم، قال: «يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة:٢٥٥]. قال: فضرب في صدري، وقال: «والله، ليهنك العلم أبا المنذر» [مسلم: ٨١٠].

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلتُ: والله لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج، وعليّ عيال، ولي حاجة شديدة. قال: فخلَّيتُ عنه. فأصبحتُ، فقال النبي ﷺ: «يا أبا هريرة ما فعل أسيرُك البارحة؟» قال: قلت: يا رسول الله شكا حاجةً شديدةً وعيالاً، فرحمته فخلّيت سبيله، قال: «أما إنه قد كذبك وسيعود».

فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ: إنه سيعود، فرصدته، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال: دعني فإني محتاج، وعليّ عيال، لا أعود. فرحمته فخليت سبيله، فأصبحتُ، فقال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة ما فعل أسيرُك؟» قلت: يا رسول الله شكا حاجةً شديدةً وعيالاً، فرحمته فخليت سبيله.

قال: «أما إنه قد كذبك، وسيعود». فرصدته الثالثة، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، وهذا آخر ثلاث مرات، أنك تزعم لا تعود ثم تعود. قال: دعني أُعلِّمْك كلماتٍ ينفعُك الله بها. قلت: ما هو؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة:٢٥٥] حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنك شيطان حتى تُصبح، فخلّيت سبيله.

فأصبحتُ فقال لي رسول الله ﷺ: «ما فعل أسيرُك البارحة؟» قلتُ: يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلماتٍ ينفعني الله بها فخليت سبيله، قال: «ما هي؟» قلت: قال لي إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة:٢٥٥] وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا أحرص شيء

جنـــــة الســـــنة

على الخير. فقال النبي ﷺ: «أما إنه قد صدَقَك وهو كذوب، تعلمُ من تخاطب مذ ثلاث ليالٍ يا أبا هريرة؟» قال: لا. قال: «ذاك شيطان» [رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم: ٢٣١١، ووصله النسائي في (الكبرى): ١٠٧٢٩].

ومن فضل هذه الآية أن فيها اسم الله الأعظم، فعن أسماء بنت يزيد أن النبي ﷺ قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣] وفاتحة آل عمران: ﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾ [آل عمران:١-٢]» [رواه الترمذي: ٣٤٧٨، وقال: هذا حديث حسن صحيح].

وهذه الآية إنما كان لها هذا الفضل، لأنها عرفتنا بربنا - تبارك وتعالى - تعريفاً كاملاً وافياً، لا مزيد عليه، كما سنبينه في تفسيرنا للآيات.

وقد وقع بين يديّ أثناء كتابة هذا النص كتيب من تأليف جلال الدين السيوطي بعنوان: «فتح الجليل للعبد الذليل» أودع فيه مائة وعشرين نوعاً بلاغياً أخذها من الآية الثالثة في هذا النص، وهي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...﴾ [البقرة:٢٥٧].

وقد قصد السيوطي ومن سار مساره من العلماء إلى بيان وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، فوجد من خلال التدبر والتأمل في آية واحدة هذا الحشد الهائل من وجوه البلاغة.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- التعريف بالله رب العالمين:

هذه الآية أعظم آيات القرآن الكريم، لأنها تُعرِّف بالله العظيم، وسنتناول في هذا الموضع ما عرفتنا به عن الله ربنا تبارك وتعالى.

جنـــــة الســــــنة

أ- **الله هو المعبود الذي لا يستحق العبادة أحد إلا إياه:** أول ما عرفنا الله به عن نفسه أنه الإله الذي لا يستحق العبادة أحد سواه، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة:٢٥٥] والإله: في لغة العرب المعبود، وكلُّ من عُبِد فهو إله، وقد عبد الناس البشر والشجر والحجر والشمس والقمر، وعبدوا اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وكلُّ هذا الذي عبدوه آلهة باطلة، والإله الحقُّ الذي يستحق العبادة هو الله، وهذا هو توحيد الألوهية، وكان المشركون ينكرونه، ويجادلون في استحقاقه العبادة وحده.

ب- **الله هو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم:** الله تبارك وتعالى هو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، والله - تبارك وتعالى - حيّ، وحياته تامة كاملة، وهو قيوم، أي: قائم بنفسه، لا يحتاج إلى غيره، وهو مقيم لغيره، وحياته وقيوميته أبديتان سرمديتان - سبحانه وتعالى - فهو حيٌّ أبداً وسرمداً، وهو قيوم كذلك ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥].

والله - تبارك وتعالى - لكمال حياته وقيوميته لا تأخذه سِنَة، وهو النعاس، كما لا يأخذه النوم، بخلاف الإنسان الذي جاء عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، ثم أحياه الله فجعله سميعاً بصيراً، ولكن حياته ناقصة لها بداية، ولها نهاية بالموت، وهو ينعس وينام.

ج- **الله له ملك السماوات والأرض:** الله تبارك وتعالى هو خالق السماوات والأرض، وهو: مالكهما، وهما تحت قهره وتصرفه، يأمرهما فتطيعان ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٥٥] وقد قال لهما: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت:١١].

د- **لا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه:** لا يشفع في يوم القيامة أحد عند الله إلا بإذنه، فحتى تقبل الشفاعة لا بد أن يرضى الله عن الذي يشفع، ولا بد أن يرضى عن المشفوع له، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وأخبرنا رسولنا ﷺ أن نبي الله إبراهيم عليه السلام يشفع عند الله في أبيه عندما يلقاه في عرصات القيامة، فلا تقبل شفاعته فيه، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك.

فيقول إبراهيم: يا ربّ إنك وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرَّمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت

جنـــــة الســـــنة

رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ مُلتطخٍ، فيؤخذ بقوائمه، فيلقى في النار» [البخاري: ٣٣٥٠] والذيخ: الضبع الذكر الملتطخ بالنتْن.

فالله لا يقبل شفاعة إبراهيم في أبيه الكافر في يوم القيامة، ويمسخه الله في ذلك اليوم ضبعاً، حتى لا يخزى به إبراهيم، فيؤخذ من قوائمه، ويلقى به في النار.

هـ- يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم: الله يعلم ما بين أيدي مخلوقاته وما خلفهم، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة:٢٥٥] أي: يعلم ماضيها وحاضرها ومستقبلها، ومن هؤلاء الملائكة الذين قالوا: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم:٦٤].

ومع أن علم الله محيط بجميع الكائنات، فإن الجن والإنس والملائكة لا يحيطون بشيء من علم الله إلا بمقدار ما يشاء الله أن يحيطوا به، وهو قليل، لا يساوي قطرة من بحر، أو ذرة في صحراء.

و- وسع كرسيه السماوات والأرض: يدلُّ قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥] على أن لله كرسيًّا، والكرسي كما قال ابن عباس: «موضع القدمين» أي، موضع قدمي الرب تبارك وتعالى [وحديث ابن عباس صحيح موقوف عليه، أخرجه ابن خزيمة في «التوحيد»، والدارمي في «الرد على المريسي» وعبدالله بن أحمد في «السنّة» وقال الألباني فيه: «هذا إسناد صحيح، رجاله كلهم ثقات» مختصر العلوم للذهبي تحقيق الألباني، ص:١٠٢].

وقد أخبرنا ربنا عز وجل أن الكرسي أعظم من السماوات والأرض، ولذلك قال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وقد ساق الشيخ ناصر الدين الألباني حديثاً رواه أبو ذر الغفاري، قال فيه الرسول ﷺ: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة» وقد ذكر الألباني طرقه في كتب السنّة [وأصح طرقه الطريق التي ساقها ابن جرير الطبري، ثم قال الألباني: الحديث بهذه الطرق صحيح. سلسلة الصحيحة: حديث رقم: ١٠٩]. فدلّ هذا الحديث على أن الكرسي غير العرش، وأن الكرسي أعظم من السموات والأرض، والعرش أعظم من الكرسي.

ز- الله لا يثقله حفظ السموات والأرض: أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه لا يثقله حفظ السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، بل ذلك سهل ويسير عليه، فالله بكل شيء

جنـــــة الســــــنة

عليم، وهو على كل شيء قدير، وهو ﴿ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة:٢٥٥] فالله له العلو كله، أي: الحسيّ والمعنوي، وهو العظيم الكامل في عظمته سبحانه.

٢- لا إكراه في الدين:

قرّر اللهُ - تبارك وتعالى - أنه ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦] والمعنى: لا تكرهوا أحداً على الدخول في الإسلام، لأن الله يريد أن يتحمل كلُّ إنسان مسؤولية نفسه بنفسه، وكل ما يجب علينا هو إقامة الحجة على الناس، بإبلاغهم هذا الدين وتعريفهم به، فإذا قامت عليهم الحجة، فعليهم أن يتحملوا النار، وغضب الجبار إن لم يؤمنوا.

وقد ذكر أبو داود في سبب نزول الآية عن ابن عباس، قال: «كانت المرأة تكون مقلاتاً، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦]» [سنن أبي داود: ٢٦٨٢، وقد أورده الألباني في الصحيحة والمقلات التي لا يعيش لها ولد].

وقوله: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦] والرشد: الإيمان، والغي: الكفر، وما دام قد ظهر الإسلام وتبين، فعلى المرء أن يختار لنفسه، وعليه أن يتحمل نتائج قبوله بالإسلام أو رفضه له، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة:٢٥٦] قال الله تعالى: الذي يكفر بالطاغوت، والطاغوت هو الذي تجاوز حدّه من معبود أو متبوع أو مطاع، وفي مقدمة هؤلاء الشيطان، وفيهم فرعون والزعماء والرؤساء الذين نصبوا أنفسهم مشرعين وسدنة وشركاء، فالذي يكفر بهم، ويؤمن بالله تبارك وتعالى، فقد استمسك بالعروة الوثقى، والعروة الوثقى: هي الحلقة القوية التي لا تنفصم ولا تنكسر، وأراد بها: الإسلام والإيمان والقرآن. وقوله: ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة:٢٥٦] أي: لا انكسار لها، وقد فسر الرسول ﷺ لعبدالله بن سلام العروة الوثقى في رؤيا رآها بالإسلام، وقال له: «أنت على الإسلام حتى تموت» [البخاري: ٣٨١٣، مسلم: ٢٤٨٤].

٣- الله ولي الذين آمنوا والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه ولي الذين آمنوا، أي: ناصرهم ومعينهم وحافظهم، ومن آثار ولايته لهم أنه يخرجهم بما أنزله إليهم على عبده ورسوله محمد ﷺ من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإسلام، أما الذين كفروا فأولياؤهم الطاغوت، وهم الجبابرة الذين طغوا وبغوا، ورفعوا أنفسهم إلى مرتبة الألوهية، فهؤلاء يخرجونهم من النور إلى الظلمات، وبذلك

جنـــــــة السـ‍ـــــــنة

يصيرون إلى نار جهنم خالدين فيها أبداً ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة:٢٥٧].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النصّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - الله هو المعبود الحقّ الذي لا يستحق العبادة أحد غيره.

٢- الله يستحقّ العبادة دون غيره، لأنه حيٌّ دائم الحياة، قيوم، أي: قائم بنفسه مقيم لغيره، ولتمام حياته وقيوميته لا تأخذه سِنَة ولا نوم.

٣- الله له ملك السموات والأرض وما فيهما وما بينهما.

٤- لا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه.

٥- علم الله محيط بالعباد لا يخفى على الله منهم شيء.

٦- لا يعلم العباد عن الله إلا ما أراد إعلامهم إياه.

٧- من مخلوقات الله العظيمة الكرسي، وهو أعظم من السموات والأرض، وهو موضع قدمي الرب.

٨- الله حافظ للسموات والأرض، ولا يشقُّ عليه حفظهما.

٩- لا يجوز أن يُكْرَهَ أحد على الدخول في دين لا يرضاه.

١٠- الذي كفر بالطواغيت وهي الآلهة التي تُعبَد من دون الله، وآمن بالله وحده فهو على الدين الحق.

١١- الله ولي المؤمنين يخرجهم من الظلمات إلى النور، والكفار أولياؤهم الشيطان يخرجهم من النور إلى الظلمات، وهؤلاء أصحاب النار.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني المتمم للستين من سورة البقرة
الله يحيي ويميت

أولاً: تقديم

ساق الله - تبارك وتعالى - في آيات هذا النص ثلاث قصص يجمعها جامع واحد، وهو قدرة الله على إحياء الموتى، فقد احتج إبراهيم ﷺ في القصة الأولى على ملك زمانه الملحد بأن ربه يحيي ويميت، وفي الثانية أمات الله الرجل الذي مرَّ على قرية خربة مهدمة، فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة:٢٥٩]، وفي الثالثة سأل نبي الله إبراهيم ﷺ ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، فأراه ذلك عياناً.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - الذي حاج إبراهيم في ربه:

حدثنا ربنا مذكراً إيانا بالمَلِك الذي حاجَّ نبيه إبراهيم ﷺ في ربه، فقد كان هذا الملك منكراً لوجود الله، فقال له نبي الله إبراهيم ﷺ محتجًّا عليه: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ۖ﴾ [البقرة:٢٥٨].

قال له إبراهيم: ربي الذي أؤمن به يحيي النفوس بإدخال الروح فيها، فتصبح عاقلة مدركة، تذهب وتأتي، وتسمع وتبصر، فسارع ذلك الطاغية بالرد قائلاً: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ۖ﴾،

جنـــــة الســـــنة

وعنى بذلك أنه يأتي برجلين من أحد سجونه، فيطلق أحدهما، ويقتل الآخر، سمَّى ذلك إحياءً للأول منهما، وإماتة للثاني منهما.

لقد كان همُّ ذلك الطاغية أن يجيب، ولو كان في إجابته خلل واضح، إن مراد إبراهيم بإحياء الله وإماتته أمر مخالف لما يفعله ذلك الطاغية، وتوضيح الأمر من قِبَل إبراهيم لذلك الملك سيدخله في جدال معه، فساق إبراهيم دليلاً آخر بهت الخصم وحيَّره وأسكته، ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٨].

قال له إبراهيم: إن الله ربي يأتي بالشمس من جهة المشرق، فإذا كنت ربّاً كما تدعي، فأت بها من جهة المغرب، وبذلك تكون قد غَلَبْت وقَهرت.

لقد جاءه إبراهيم بجواب أعجزه وأسكته، وكشف حقيقة أمره، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة:٢٥٨] أي: لا يهديهم إلى الإجابة الحقة، ولكنه يهدي إلى الإجابة الصواب رسله وأنبياءه ومن سار على طريقهم، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام:٨٣].

٢- قصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها:

وقصَّ علينا ربنا قصة الذي مرَّ على قرية، فوجدها خاوية على عروشها، ومعنى: خاوية، أي: ساقطة، والعروش: السقوف، أي: ساقطة على سقوفها، سقطت السقوف، ثم وقعت عليها الحيطان، يشير إلى خرابها علواً وسفلاً [عمدة الحفاظ: ٣/ ٦٥]. ومنه قوله تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ [الحج:٤٥] وقال: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴾ [النمل:٥٢] فالقرية التي مرّ عليها ذلك الرجل كانت محطمة مهدمة خالية من الناس، فهي على ذلك ميتة، وهذه القصة معطوفة في المعنى على قصة إبراهيم التي سبق ذكرها بحرف العطف (أو) قال تعالى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ [البقرة:٢٥٩].

وكان عند هذا الرجل الذي مرّ على تلك القرية المهدمة الخاوية على عروشها علم بأن الله سيحيي هذه القرية بعد موتها، أي: بعد خرابها وتدميرها، فلما رآها على تلك الصفة قال: ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ ﴾ [البقرة:٢٥٩] أي: قال ذلك مستغرباً متعجباً لشدة ما أصابها من الدمار والخراب.

جنـــــة السـنـــــــة

عند ذلك أماته الله بقبض روحه مائة عام، وبعد تمام المائة أحياه، فسأله كم لبثت؟ فقال: لبثت يوماً أو بعض يوم، وكذلك قال أصحاب الكهف بعد أن ناموا ثلاثمائة وتسع سنين ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف:١٩].

فلما قال ذلك، قال الله له: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ﴾ [البقرة:٢٥٩] وقد تلاشى في هذه المدة لحمه، وفنيت عظامه، وتقطعت أوصاله، أما الطعام الذي كان معه والذي يفسد في العادة في يوم أو في عدة أيام، فقد حفظه فلم يفسد، ولم يتغير، ولم يتبدل، وأما العظام فقد بليت.

وقد كان معه عند موته حماره أماته الله بموته، فأحياه هو أولاً، ثم أحيا حماره، وأراه كيف ينشئ عظامه ويكوِّنها، ثم يصل ما بينها، ثم يكسوها لحماً، ثم ينفخ فيها الروح وتدب فيها الحياة، عند ذلك قال وقد امتلأ قلبه خوفاً وخشية من الله: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة:٢٥٩]، وأنه لا يعجزه شيء أراده وقال الله له: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة:٢٥٩].

٣- إحياء الله الموتى لنبيه إبراهيم عليه السلام:

قصَّ علينا ربنا في آيات هذا النص قصة ثالثة طلب فيها إبراهيم عليه السلام من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٠] فسأله ربُّه قائلاً له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ [البقرة:٢٦٠] فأجاب قائلاً: بلى آمنت، ولكنني أريد مزيداً في طمأنينة قلبي ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة:٢٦٠] عند ذلك أمره ربُّه أن يأخذ أربعة من الطير، ثم يصرهن إليه، أي: يقطعهن بعد أن يذبحهن، ثم يجعل على كل جبل منهن جزءاً، أي: يفرق أجزاءَهن على عدة جبال، ثم أمره أن ينادي عليهن طالباً منهن أن يجتمعن، فتجمعت الأجزاء المقطعة، وتواصلت وتلاحمت، ونفخت فيها الحياة ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة:٢٦٠] والعزيز: المنيع الذي لا يغلب، ولا يعجزه شيء، وهو ﴿حَكِيمٌ﴾ سبحانه فيما يدبره.

٤- هذه قصص وافية كاملة:

هذه الأخبار والقصص التي حدثنا الله عنها قصص وافية، إذا قرأها الذي يفقه العربية أدرك منها الغرض المسوقة من أجله، وهي لا تحتاج إلى قصص اليهود وأخبارهم لتوضيحها، فلا تحتاج إلى معرفة اسم الملك الذي حاجّه إبراهيم، ولا نحتاج إلى معرفة الموضع الذي وقع

جنـــــة الســـــنة

فيه الحجاج، المهم أن إبراهيم ﷺ استطاع أن يوقف هذا الطاغوت، وينتصر عليه في موضع الخصام.

ولسنا بحاجة إلى معرفة اسم الشخص الذي مرَّ على القرية، ولا نحتاج إلى معرفة اسم القرية، فالقصة كاملة واضحة من غير معرفة اسم الشخص واسم القرية، وهي تعطي مقاصدها بكل وضوح من غير معرفة ذلك.

وهل معرفتنا بأسماء الطيور التي اختارها إبراهيم ﷺ ، فذبحها وقطعها، يفيدنا في إدراك حقائق القصة ومقاصدها، هل هناك من فرق بين إحياء الله العصفور أو الطاووس، أو الحمامة، أو الدجاجة، إن إحياء الله لأيٍّ من الطيور هو الإعجاز، لا فرق بين طير وطير.

لقد أتعب كثير من المفسرين أنفسهم وهم يبحثون في بقايا كتب أهل الكتاب المحرفة المغيرة، وهم عنها أغنياء، وكان الواجب عوضاً عن ذلك أن يبحثوا في دلالة الآيات، وبيان المقصود منها.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناه تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - يحسن بأهل العلم من هذه الأمة أن يتصدَّوْا لخصوم الإسلام، فيظهروا عوار قولهم، ويبينوا ما في أقوالهم من ضلال وباطل كما فعل إبراهيم عندما احتج على الملك في زمانه، فأسكته وبهته.

٢ - الأدلة تتفاوت فيما بينها في القوة، فالدليل الأول الذي جاء به إبراهيم كان للملك فيه بعض الجدال والمخاصمة، أما الدليل الثاني فقد أسكت المحاور وخصمه.

٣- آيات الله في الكون كثيرة متعددة، ومن فقه عن الله كتابه المنزل فإنه يستطيع أن يحتج على خصوم الإسلام بأسهل الطرق وأوضحها.

٤ - قدرة الله تعالى على إحياء الناس بعد موتهم في الحياة الدنيا، فقد أحيا الله قتيل بني إسرائيل فدلَّ على قاتله، وأمات الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، ثم أحياهم، وذبح إبراهيم ﷺ الطيور الأربعة التي اختارها، ثم قطعها، وفرقها على رؤوس الجبال، فأمرها أن تجتمع فاجتمعت.

٥ - الله يُظْهر في كل عصر من الآيات ما يدلُّ عليه، ويحق الحق، ويبطل الباطل.

جنـــــة الســــــــنة

النص الحادي والستون من سورة البقرة
مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله

أولاً: تقديم

هذا النصُّ والنصان بعده في الإنفاق، وقد رغَّب الله بالإنفاق في سبيل الله ببيان الأجر العظيم الذي يجنيه المنفقون من وراء نفقتهم، واشترط الله لتحصيل المؤمنين ذلك الأجر العظيم أن لا يُتْبِعوا نفقتهم شيئاً من المنّ والأذى، وبيّن أن القول المعروف للسائلين والمحتاجين أفضل عند الله من الصدقة التي يعقبها أذى، وضرب الله المثل للمتصدِّقين الذين يمنُّون ويؤذون وينافقون بصدقاتهم بالحجر الصلد يكون عليه القليل من التراب، فيسقط عليه المطر الشديد، فيعريه من التراب، فلا ينفع بعد ذلك للزرع، ولا للإنبات.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله:

سبق أن دعا الله - تبارك وتعالى - عباده إلى أن يقرضوه قرضاً حسناً في قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ﴾ [البقرة:٢٤٥] وبيَّن الله تبارك وتعالى في الآية الأولى من آيات هذا النص مقدار الأضعاف إذا كانت النفقة في سبيل الله، أي: في الجهاد ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة:٢٦١].

ضرب الله في هذه الآية مثلاً للنفقة التي يبذلها المنفق في سبيل الله بحبة غرسها زارعها في الأرض، فانبثق منها سبع سنابل، في كل سنبلة منها مائة حبة، والمشبه به أمر متعدد،

جنـــــة السـنـــــة

يلاحقه العاقل بتصوره، إنها حبة تلقى في أرض طيبة، فيخرج منها سبع سنابل، في كل سنبلة منها مائة حبة، وعندما يعمل العقل النظر يجد أن الحبَّة أعطت سبعمائة حبة.

وقد يضاعف الله الحسنة بأكثر من ذلك ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٦١] أي قد تتجاوز المضاعفة السبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وختم الله الآية باسمين من أسمائه، هما الواسع والعليم، فالله - سبحانه - واسع العطاء، وهو عليم بمن يستحق هذه المضاعفة، وقد صرَّحت الأحاديث بمثل ما صرّحت به الآية، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنةُ عَشْرُ أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله عز وجل: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به» [مسلم: ١١٥١] وعن أبي مسعود الأنصاري قال: جاء رجل بناقة مخطومة، فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة، كلها مخطومة» [مسلم: ١٨٩٢].

٢- النفقة المقبولة هي النفقة التي لا يُتبِعها صاحبُها منّاً ولا أذى:

النفقة المقبولة عند الله تبارك وتعالى هي النفقة التي يبذلها صاحبها، ثم لا يتبعها بالمنّ والأذى، فهؤلاء هم الذين ينالون الأجر الذي ذكره الله في الآية السابقة، ولا خوف عليهم فيما يأتي عليهم في مقبل الأيام، لا عند الموت، ولا في القبر، ولا عند البعث والنشور، ولا في الموقف، ولا يحزنون على ما خلفوه من ذرية وأولاد، ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة:٢٦٢].

والمنُّ الذي نهى الله عنه المنفقَ، يكون بالتحدث عما أنعم به على من أنفق عليه وجاد به، والأذى يكون بتقريع المحسن لمن أحسن إليه وتوبيخه، وهذا الذي ينفق، ويمنُّ، لم يستحضر نعمة الله عليه، وأن المال الذي أنفقه، هو هبة من الله تحتاج إلى الشكر، ولذا فإنه يحسن بالمنفق أن يستحضر نعمة الله عليه، فهو سبحانه الذي أعطاه المال وأقدره على الإنفاق، وبذلك لا تجمح نفسه إلى إيذاء عباد الله بالمن عليهم.

وذكر أهل العلم أنه يحسن ذكر النعمة عندما يكفرها المُحْسَنُ عليه، ولذلك قيل: «إذا كُفِرَت النعمةُ حَسُنَت المنَّةُ» [المفردات: ٤٧٤].

٣- قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى:

بيَّن الله - تبارك وتعالى - لنا أن القول الحسن والمغفرة التي يواجه بها المسؤول من سأله خير من الصدقة التي يتبعها أذى، قال تعالى: ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ [البقرة:٢٦٣].

جنـــــة الســــــنة

وإنما كان القول المعروف والمغفرة، خيراً من الصدقة التي يتبعها المنُّ، لأنَّ القول المعروف والمغفرة نوعان من الإحسان، والصدقة التي يتبعها أذى صدقة باطلة، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال: «الكلمة الطيبة صدقة» [مسلم: ١٠٠٩].

وختم الله الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ [البقرة:٢٦٣] أي: غنيٌّ عنكم، لا يناله شيء من صدقاتكم، ونفع هذه الصدقات عائد لكم، فلماذا تمنُّون بصدقاتكم مع غنى الله عنها، وهو سبحانه حليم، لا يعاجل المنَّان بالعقوبة، وهذا فيه شيء من الوعيد والتهديد.

٤- المنُّ بالصدقة والمراءاة بها يبطلها:

المنُّ بالصدقة يبطلها، ويصيب صاحبها بعذاب عظيم في يوم القيامة، عن أبي ذر، عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلِّمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم»، قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرارٍ، قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: «المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب» [مسلم: ١٠٦]. والمسبل الذي يطيل إزاره أسفل الكعبين. وقد حذَّر الله عباده عن إبطال صدقاتهم بالمن والأذى، وشبَّه الذين يمنُّون بصدقاتهم، ويؤذون المتصدَّق عليهم بالذين ينفقون أموالهم رئاء الناس، وهؤلاء هم الذين يريدون من وراء صدقاتهم مديح الناس وثناءَهم ونيل الحظوة عندهم، ولا يريدون بها وجه الله، ونيل الأجر والثواب في يوم القيامة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ [البقرة:٢٦٤].

وقد ضرب الله مثلاً للمرائي بصدقته، فقال: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة:٢٦٤].

شبَّه الله المرائي بصدقته بحجر صلد أملس عليه تراب، فنزل على ذلك الحجر وابل، وهو المطر الشديد، فأذهب التراب الذي عليه، وبقي الحجر أجرد، لا يصلح لأن يزرع عليه، ولا يستفاد منه.

وقوله: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ [البقرة:٢٦٤] أي: لا ينتفع هؤلاء المراؤون بما فعلوه رياءً، ولا يجدون له ثواباً في يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة:٢٦٤] أي: لا يهديهم في كفرهم، لأن كفرهم ضلال، ولا يهديهم في صدقاتهم وأعمالهم وهم على الكفر.

جنـــــة السـنة

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله، أي: في الجهاد بالإخبار بما في الإنفاق من الأجر الجزيل، فالمنفق في سبيل الله له بكل نفقة سبعمائة حسنة.

٢- روعة التشبيه، فقد شبه الحسنة المنفقة بالحبة تلقى في الأرض، فينبثق منها سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، فإذا جمعت ما في السنابل من حبٍّ وجدته سبعمائة حبة.

٣- الصدقة المُتَقَبَّلَة هي الصدقة التي يُبتغَى بها وجه الله، وهي بعيدة عن المن والأذى، والرياء، ووجود واحد من هذه الثلاثة في الصدقة يبطلها.

٤- القول المعروف والمغفرة التي يواجه بها السائل والمحتاج خير من الصدقة التي يتبعها أذى.

٥- المن والأذى والرياء يبطل الصدقات.

٦- روعة التشبيه، فقد شبَّه المرائي بالحجر الصلد الأملس الذي عليه القليل من التراب، فهطل عليه المطر من السماء، فعرّاه، فأصبح لا يصلح للزرع والإنبات.

جنـــــة الســـــــنة

النص القرآني الثاني والستون من سورة البقرة
مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله

أولاً: تقديم

هذا النص كسابقه يتحدث عن المنفقين، وقد ضرب الله لهم في هذا النص مثلين:

الأول: الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم فمثلهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل، أي: مطر شديد، فآتت أكلها ضعفين.

والثاني: الذين يراؤون أو يمنون بنفقتهم، فهم كصاحب جنة عظيمة أصابها إعصار فيه نار فاحترقت.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ
أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ
أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ
وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ
لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ
ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ
﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ
عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ
أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله:

ضرب الله تعالى مثلاً للذين ينفقون أموالهم يطلبون بها رضوان الله تعالى، وتقوية معاني الخير في أنفسهم، كمثل جنة، أي: بستان واقع بربوة، وهي المكان المرتفع من الأرض، أصابها وابل، والوابل: المطر الغزير الذي يروي الأرض، فآتت أكلها ضعفين، والأُكُل ما يؤكل منها، والمراد به الثمار، والمراد بالضعفين أنها آتت حصادها مضاعفاً، أي: مرتين، فإن لم يصب تلك الجنة مطر قويٌّ أصابها الطلُّ، وهو الندى، وهو كافٍ في إحيائها، وجعلها تثمر ثمراً

جنـــــة السـنـــة

جيداً، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة:٢٦٥]، فهو بصير بعملكم، ويعلم من يستحق الجزاء الوافي الطيب ممن لا يستحقه ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة:٢٦٥].

٢- مثل الذين أوبقتهم الذنوب فأذهبت صالح أعمالهم:

ضرب الله تعالى مثلاً للمؤمنين الذين لهم أعمال صالحة كثيرة، فأذهبوا تلك الأعمال وأبطلوها بما اقترفوه من الذنوب والمعاصي، قال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ﴾ [البقرة:٢٦٦].

خاطب الله - تبارك وتعالى - المؤمنين في هذه الآية، وقال لهم: أيحبُّ الواحد منكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب، وهي عند العرب خير الجنان، وثمارها خير الثمار، وهذه الجنة تجري من تحتها الأنهار، وثمار هذه الجنة ليس مقصوراً على ثمار النخيل والأعناب، ففي الجنة من كل الثمار، وذكر الله لنا أن صاحب هذه الجنة كَبِرت سِنُّه، وشاخ، وضعُفت قواه، فهو يعتمد على تلك الجنة فيما يحتاج إليه، ولهذا الشيخ العجوز ذرية ضعفاء، إما لصغرهم أو مرضهم أو لغير ذلك، فأصابها إعصار، أي: ريح شديدة عاصفة تحمل في طياتها ناراً محرقة، فيبست أشجارها، وغارت أنهارها، وبادت ثمارها، فياحسرة صاحبها العجوز، ويالضياع ذريته الضعفاء.

روى البخاري عن عبيد بن عمير قال: قال عمر يوماً لأصحاب النبي ﷺ: فيم ترون هذه الآية نزلت ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ [البقرة:٢٦٦] قالوا: الله أعلم، فغضب عمر، فقال: قولوا: نعلم، أو لا نعلم.

فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: يا ابن أخي، قل، ولا تحقِّر نفسك، قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل، قال عمر: أيُّ عمل؟ قال ابن عباس: لعمل.

قال عمر: «لرجل غني يعمل بطاعة الله عز وجل، ثم بعث الله الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله» [البخاري: ٤٥٣٨].

وقد ضرب الله تبارك وتعالى في سورة الكهف مثلاً قريباً مما ضربه هنا في قوله: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾

جنـــــة السـنة

كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الكهف:٣٢-٣٤]. وذكر الله فيها كيف أحرق الله جنتيه، فأصبحت مدمرة خاوية على عروشها، ولذلك قال الله في خاتمة آية هذا النص: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٦] ضرب الله المثل للعمل بطاعة الله الذي تتبعه الذنوب والمعاصي، فتدمره وتهلكه، وفي ذلك آية للمتفكر المعتبر.

٣- أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض:

نادى الله الذين آمنوا آمراً إياهم أن ينفقوا من طيبات ما كسبوه من التجارة، ومما كسبوه مما أخرجه الله لهم بطريق الزراعة، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ ﴾ [البقرة:٢٦٧] وقد كانت أموال المهاجرين أغلبها من التجارة، وأموال الأنصار أغلبها من الزراعة، فالأنصار كانوا أصحاب حرث وزرع، وغير هذين النوعين من المال يعتمد عليهما، كالذي يرثه الإنسان من مورثه.

والمال المكتسب فعل الإنسان، أما الزرع فأسنده الله سبحانه إليه، لأنه فعله، لا فعلهم، فهو الذي ينبته، ويخرج ثمره.

ونهى ربُّ العزة - تبارك وتعالى - عن قصد إخراج الرديء مما يتصدق به، فقد اعتاد بعض الناس أن يمسكوا الجيد، ويخرجوا الرديء، أما الذي يخرج الرديء، لأن كل ثمره كذلك، فلا حرج عليه، قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ [البقرة:٢٦٧] أي: لو كنتم أنتم المنفق عليكم، وتُصُدِّق عليكم بالخبيث، أي: الرديء من التمر والعنب أو الملابس والأمتعة، ما كنتم لتأخذوه إلا أن تغمضوا فيه، أي: إلا أن تتسامحوا في أخذه، والإغماض هنا من إغماض الجفن، فكان الآخذ الرائي لكراهته لما أوتيه لم يملأ عينه منه [راجع: بدائع التفسير: ١/ ٤٢٨].

وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٧] فالله - تبارك وتعالى - لكمال غناه وحمده يأبى قبول الرديء، والذي يقبل الرديء من المنفق عليهم يقبله لشدة حاجته إليه، أو لعدم كمال شرفه.

٤- سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾:

روى الترمذي في سننه عن البراء بن عازب، قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ [البقرة:٢٦٧] قال: «نزلت فينا معشر الأنصار، كنا أصحاب نخل، فكان الرجل يأتي من نخله

جنـــــة الســـــنة

على قدر كثرته وقلّته، وكان الرجل يأتي بالقِنْو[١] والقِنْوَيْن فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصُّفّة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع أتى القِنْوَ فضربه بعصاه، فيسقط من البُسْرِ والتمرِ فيأكل، وكان ناسٌ ممن لا يرغب في الخير يأتي الرجلُ بالقِنْوِ فيه الشِّيص والحشفُ[٢]، وبالقِنْو قد انكسر، فيعلقه، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ﴾ [البقرة:٢٦٧] قالوا: لو أن أحدكم أُهديَ إليه مِثْلُ ما أعطاه لم يأخذه إلا على إغماض وحياء، قال: فكنا بعد ذلك يأتي أحدنا بصالح ما عنده» [الترمذي: ٢٩٨٧، وقال فيه: هذا حديث حسن غريب صحيح، وأورده الألباني في صحيح الجامع: ٢٣٨٩، وقال فيه: صحيح، وهو في صحيح ابن ماجه: ١٨٢٢].

٥- الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء:

أخبرنا العليم الخبير أن الشيطان يعدنا بالفقر، ويخوفنا منه، ويدعونا إلى البخل والشح، ويأمرنا بالفحشاء، والفحشاء في هذا الموضع البخل بإجماع المفسرين، فإذا أراد الإنسان الإنفاق، حذّره الشيطان من الفقر، وأمره بالإمساك، كي يسيء ظنه بالله تعالى، ولا ينفق مما أمره به، فيغضب ربُّه عليه، وأما الله - تبارك وتعالى - فإنه يعد عبده بالتوسعة عليه في الدنيا والآخرة، ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة:٢٦٨].

وختم الله الآية بقوله: ﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ فهو واسع العطاء، عليم بمن يستحق فضله، ومن يستحق عدله، فيعطي هذا بفضله، ويمنع هذا بعدله، وهو عليم بهذا وهذا.

٦- إيتاء الله الحكمة من يشاء:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه يؤتي الحكمة من يشاء، ومن آتاه الحكمة فقد آتاه خيراً كثيراً ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة:٢٦٩] والحكمة: العلم والفهم والإصابة بالقول، وقال مالك: «إنه ليقع في قلبي أن الحكمة الفقه في دين الله، وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله» [ابن كثير: ١/ ٣٦٥]. ولا تختص الحكمة

(١) القنو: العذق بما فيه من الرطب.

(٢) الشيص: التمر الرديء الذي لم يتم نضجه، والحشف: أردأ التمر وهو الذي يجف من غير نضج ولا إدراك فلا يكون له نوى ولا لحاء ولا حلاوة ولا لحم.

جنـــــة الســـــنة

بالنبوة، كما ذهب إليه بعض أهل العلم، فلقمان أوتي الحكمة، ولم يكن نبياً، ولكن الأنبياء لهم الحظ الأعلى من الحكمة.

ومما يدلُّ على أن الحكمة الفقه في الدين ما رواه ابن مسعود قال: قال النبي ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها ويعلمها» [البخاري: ٧٣، مسلم: ٨١٥] وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة:٢٦٩] ثناء من رب العزة على الذين تتلى عليهم آيات الله، فيفقهونها، ويتذكرون ما فيها من عبر وعظات، وهؤلاء هم أولو الألباب، أي: أصحاب العقول الوافية الزاكية.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- ضرب الله المثل للذين ينفقون أموالهم طالبين مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم، كمثل جنة تقع بربوة، وهي المكان العالي المرتفع، أصابها من المطر ما أروى أشجارها، فآتت أكلها ضعفين، أي: كان الناتج مضاعفاً، فإن لم يصبها الوابل من المطر، فيكفيها الندى الذي يبلل الأشجار، ويسقط على الأغصان ففيه خير كثير، وهذا مثل لما يحصّله المنفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله، فلهم الأجر الجزيل والثواب العظيم.

٢- وضربت الآيات المثل بالذي يهلك أعماله الصالحة بالذنوب والمعاصي بالذي له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار في حال كبره وله ذرية ضعفاء، فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت.

٣- على المسلم أن ينفق من مصادر كسبه الطيبة ومما أخرجه الله له من الأرض.

٤- على المسلم أن يُخرِجَ من طيب ماله، ولا يقصد المال الخبيث من الثمار والملابس ونحوها.

٥- الشيطان يحاول منعنا من الإنفاق والبذل في سبيل الله، والله يدعونا إلى البذل والعطاء، ويعدنا بالمغفرة والسعة على ما نقدمه لآخرتنا.

٦- الله يؤتي بعض عباده الفقه في الدين، وهي الحكمة.

جنــــــة الســـــــنة

النص القرآني الثالث والستون من سورة البقرة
وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر

أولاً: تقديم

هذا النص يقوِّم المنفقين، ويصحِّح نياتهم، ويرشدهم إلى الطريقة المثلى في الإنفاق، ففي هذا النص إخبار من ربنا أنه عليم بالمنفقين، ومطلع على أحوالهم، وفيها ترغيب بإخفاء الصدقات وإيتائها الفقراء، وفيها إعلام بأن الصدقة يعود نفعها على صاحبها، وفيها دعوة إلى معالجة المنفق قصده ونيته، بابتغاء وجه الله في إنفاقه، وفيها إعلام بأن المنفق سينال الأجر عند الله في يوم لقياه، وفيها توجيه للمنفقين أن يبحثوا عن الفقراء الذين يستحقون النفقة، ومدح في ختامها الذين يديمون الإنفاق بالليل والنهار سرًّا وعلانية.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة البقرة

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه:

رغبنا الله - تبارك وتعالى - في هذه الآية بالإنفاق في مرضاته، والوفاء بما نذرناه من نذور، فالله عالم بما نفقه وننذره، وسيجزينا على ما فعلناه من ذلك، ومع ما في هذه الآية من ترغيب ففيها ترهيب في الوقت نفسه، فالذي ينفق فيؤذي ويمنُّ، أو يرائي بنفقته ونذره، فإن الله عالم به، مطلع عليه، وصدقته مردودة غير مقبولة.

جنـــــة السـنـــــة

وقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾ [البقرة:٢٧٠] أي: أن الذين ظلموا أنفسهم بالمنِّ والأذى على من أنفقوا عليهم، أو راءوا بنفقتهم، فليس لهؤلاء من أنصار، وسيبطل الله أعمالهم، وفي هذا ترهيب للظالمين.

وقد جاءت النصوص في القرآن وافرة كثيرة ترغب في الصدقة والإنفاق وعمل الخير ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾﴾ [الزلزلة:٧] وقال: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ [التوبة:١٢١] وقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣].

٢- صدقة السر أفضل من صدقة العلانية:

أخبرنا ربُّنا أن الذي يظهر صدقته يريد بها وجه الله فصدقته نعم الصدقة، والله يتقبلها، كما أخبرنا أن صدقة السر أفضل من صدقة العلانية، قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ [البقرة:٢٧١].

وقد جاء في الصحيحين في حديث أبي هريرة في الذين يظلهم الله بظل عرشه يوم القيامة «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» [البخاري: ٦٦٠، ١٤٢٣، ومسلم: ١٠٣١]. فهذا أحد الأصناف السبعة الذين يظلهم الله بظل عرشه، يوم لا ظل إلا ظِلُّه.

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - في هذه الآية أن الصدقات تكفِّر السيئات، وتحطُّ الخطايا، وأعلمنا في ختام الآية أنه خبير بما نعمله، أي: لا يخفى عليه خافية من أعمالنا، وسيجزينا بما عملناه ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة:٢٧١].

٣- ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء:

قرر الله - تبارك وتعالى - في هذه الآية أنه ليس من مهمة رسوله ﷺ والدعاة من بعده إدخال الهدى في قلوب العباد، فهذا لله وحده ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ﴾ [البقرة:٢٧٢] وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [القصص:٥٦].

ولكنه لا رابط بين هذه الحقيقة وقصر النفقة على المؤمنين دون غيرهم، فيجوز لنا في غير الزكاة أن ننفق على غير المؤمنين من اليهود والنصارى وغيرهم، وبيَّن الله في سورة الممتحنة أنه لا حرج علينا أن ننفق على غير المحاربين، والممنوع هو إنفاقنا على المحاربين، قال سبحانه:

جنــــــة الســـــــنة

﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ﴾ [الممتحنة:٨-٩].

وأعلمنا الله تبارك وتعالى أن نفع النفقة يعود على المنفق ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ﴾ [البقرة:٢٧٢]. والواجب على المنفق أن يخلص دينه لله، بأن يبغي، أي: يطلب بنفقته وجه الله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة:٢٧٢].

وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ [البقرة:٢٧٢] ترغيب في الإنفاق، فأجر الذي تنفقونه سيعود إليكم وافياً، بل سيرجع إليكم أضعافاً مضاعفة.

وقد ورد في الأحاديث الصحيحة ما يدلُّ على أن النفقة التي أخرجها صاحبها يريد بها وجه الله تعالى مقبولة، وإن وقعت في يد زانية، أو يد غني، أو سارق، وسيأتي قريباً ذكر الحديث الدال على ذلك.

٤- للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله:

حدَّد الله - تعالى - الذين يستحقون الصدقة بقوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ﴾ [البقرة:٢٧٣] وقد وصف تبارك وتعالى الذين يستحقون الصدقة الواجبة بست صفات:

الأولى: أنهم فقراء.

الثانية: حبسهم أنفسهم على الجهاد في سبيل الله.

الثالثة: عدم استطاعتهم السفر والتقلب في الأرض، لكونهم قصروا أنفسهم على الجهاد، وقد استعمل القرآن الضرب في الأرض بمعنى السفر في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ﴾ [المزمل:٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النساء:١١٠].

الرابعة: شدة تعففهم، وإظهارهم الغنى، حتى إن الجاهل بأحوال الناس يظنهم أغنياء.

جنـــــة السـنـــــة

الخامسة: أنهم يُعرَفون بسيماهم، وهي العلامة الدالة على حالتهم التي وصفهم الله بها، وإذا كان الجاهل بأحوال الناس يظنهم أغنياء، فإن صاحب الفراسة يستدلُّ على فقرهم بسيماهم، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر:٧٥].

السادسة: تركهم مسألة الناس، فلا يسألون الناس إلحافاً، والإلحاف هو الإلحاح، وهذا يدلّ على أن المذموم هو الإلحاف في السؤال، أما السؤال بقدر الحاجة فلا بأس به.

وقد بيّن الله صفات الذين يستحقون الصدقة كي يوجه الصالحين من الأثرياء إلى البحث عمن تتحقق فيه الحاجة، بعيداً عمن يدعيها، وليس من أهلها.

وقد روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة ولا اللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفف، واقرؤوا إن شئتم، يعني قوله: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة:٢٧٣]» [البخاري: ١٤٧٦] وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطوّافِ الذي يطوف على الناس، فترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان»، قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يجد غنىً يغنيه، ولا يُفطَن له، فيُتَصَدَّق عليه، ولا يسأل الناسَ شيئاً» [البخاري: ١٤٧٩، مسلم: ١٠٣٩].

٥- إذا تصدق على من يظنه من أهل الصدقة فبان أنه ليس من أهلها:

قد يتصدق المسلم على من يظن أنه من أهل الصدقة، فيظهر أنه ليس من أهلها، فهذا صدقته مقبولة، روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «قال رجل: لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّقَ على سارقٍ. فقال: اللهم لك الحمد، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّقَ الليلة على زانية.

فقال: اللهم لك الحمد، على زانية، لأتصدقن بصدقة. فخرج بصدقته فوضعها في يدي غني، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّقَ على غني. فقال: اللهم لك الحمد، على سارقٍ، وعلى زانية، وعلى غني، فأُتِيَ، فقيل له: أما صدقتك على سارق فلعله أن يَسْتَعِفَّ عن سرقته، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زِناها، وأما الغني فلعله أن يعتبر، فيُنفق مما أعطاه الله» [البخاري: ١٤٢١، مسلم: ١٠٢٢].

وهذه القصة في رجل صالح ممن كان قبلنا.

٦- تحذير الرسول ﷺ من لا يستحقُّ من السؤال:

حذّر الرسول ﷺ عن المسألة إلا أن يسأل سلطاناً، أو فيما لا بد له منه، ففي الترمذي عن سمرة بن جندب، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المسألة كَدٌّ يكدُّ بها الرجل وجهه، إلا أن

جنـــــة الســــــنة

يسأل الرجل سلطاناً، أو في أمر لا بد منه» [سنن الترمذي: ٦٨١، وقال فيه: هذا حديث حسن صحيح، وأورده الألباني في صحيح الترمذي: ٥٤٨].

وفي الترمذي أيضاً عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ : «من سأل الناس وله ما يغنيه جاء يوم القيامة، ومسألته في وجهه خموش، أو خدوش، أو كدوح» قيل: يا رسول الله: وما يغنيه؟ قال: «خمسون درهماً أو قيمتها من الذهب» [صحيح الترمذي: ٥٢٦، وخرجه الألباني في صحيح أبي داود: ١٤٣٨].

٧- **ثناء الله تبارك وتعالى على الذين يديمون الإنفاق:**

أثنى الله تبارك وتعالى على الذين يديمون الإنفاق من أموالهم بالليل والنهار، سرًّا وعلانية، ووعدهم بالثواب الجزيل والأجر العظيم، وطمأنهم على الآتي عليهم عند الموت وفي القبر وعند البعث والنشور، كما طمأنهم على ما خلفوه من الأهل والولد، فالله وليهم، وهو حسبهم ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة:٢٧٤].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- رغَّبنا ربنا - تبارك وتعالى - في الإنفاق ابتغاء وجه الله، وبالوفاء بالنذور، وأخبرنا بأنه عالمٍ بأعمالنا، وسيجزينا على ما عملناه.

٢- الذين ظلموا أنفسهم، وأبطلوا أعمالهم هم الذين يقبضون أيديهم عن الإنفاق، ولا يوفون بما نذروه، أو الذين ينفقون، ولا يبتغون وجه الله فيما ينفقونه، أو يؤذون المنفقين أو يراؤون.

٣- إذا أخلص المنفق وأظهر صدقته فهي صدقة مقبولة، ونعم الصدقة هي، وتبقى صدقة السر أفضل وأكثر أجراً.

٤- الإنفاق ابتغاء مرضاة الله يكفِّر الله بها الذنوب ويحطُّ الخطايا.

٥- يجوز الإنفاق في غير الصدقة الواجبة على الفقراء غير المسلمين.

٦- الإنفاق المقبول عند الله هو الذي يقصد به المنفق وجه الله تبارك وتعالى.

٧- وصف الله الفقراء الذين يستحقون الصدقة، وعلى المنفق أن يتعرف عليهم، ويوصلها إليهم.

٨- أثنى رب العزة على الذين يديمون الإنفاق من أموالهم بالليل والنهار في السر والعلانية، ووعدهم بالأجر الوافي، ولا خوف عليهم، ولا هم يحزنون.

جنـــــة الســــــنة

النص القرآني الرابع والستون من سورة البقرة
يمحق الله الربا ويربي الصدقات

أولاً: تقديم

كان الربا ولا يزال مرضاً عضالاً فتّاكاً، يدمر نفوس المرابين كما يدمر الأموال والمجتمعات الإنسانية، ويفتك باقتصاد الدول، وقد حدثنا ربنا في هذا النص عن جريمة الربا، فأخبرنا أن المرابين لا يقومون في يوم القيامة إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، وأخبرنا أن المُصِرِّين على التعاطي بالربا هم أصحاب النار وهم فيها خالدون.

وأخبرنا - تبارك وتعالى - أنه يمحق الربا، ويربي الصدقات، وأخبرنا أن آكل الربا كفَّار أثيم، وتهدد المرابين أكلة الربا، وأمرهم أن يَدَعوا الربا، فإن أصرُّوا على التعامل به فأعلمهم بأنه سيشنُّ هو ورسوله عليهم حرباً عظيمة، وقد كان المجتمع الجاهلي غارقاً في الربا إلى أذنيه.

روى مالك عن زيد بن أسلم قال: «كان الربا في الجاهلية أن يكون للرجل على الرجل حقٌّ إلى أجل، فإذا حلَّ قال: أتقضي أم تربي؟ فإن قضاه أخذ، وإلا زاده في حقِّه، وزاده الآخر في الأجل» وروى الطبراني بإسناده إلى قتادة قال: «ربا أهل الجاهلية يبيع الرجل البيع إلى أجل مسمى، فإذا حلَّ الأجل، ولم يكن عند صاحبه قضاء زاد، وأخَّر عنه» [فتح الباري: ٤/ ٣٩٥].

وكانت الدول النصرانية تحارب الربا، ولم يزل اليهود يفتلون في الذروة والغارب حتى أقروا الربا في تلك الدول والمجتمعات، وقامت البنوك والمؤسسات المالية بالإقراض بالربا، وعجن الربا في تلك الديار بالمعاملات الاقتصادية كلها، وانتقل هذا المرض العضال إلى المجتمعات الإسلامية، وقامت المؤسسات المالية بعملية إقراض الربا، وأسرت المجتمع بأسره في بوتقتها.

ووصل بنا الحال إلى أن غرقت مجتمعاتنا بالربا ووصلنا إلى الزمن الذي قال فيه الرسول ﷺ: «فليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ أمن الحلال أم من الحرام» [البخاري: ٢٠٨٣].

لقد زاد التعامل بالربا في مجتمعاتنا اليوم عما كان عليه الحال في الجاهلية، واستشرى الربا في هذه المجتمعات، لقد دمر الربا المرابين، فولد عندهم الجشع، كما ولد فيهم الحرص والبخل، وهما مرضان ما اعتورا نفساً إلا أفسدا صاحبها، ومع الحرص والبخل يكون الجبن والهلع، فالانتظار صنعة المرابي، والمرابي جبان يكره الإقدام.

جنـــــة الســــــنة

وأفسد الربا مجتمعاتنا، فقد نشر فيها العداوة والبغضاء والمشاحنات والخصومات، وقلَّ فيها التراحم والتعاطف.

لقد شقيت المجتمعات المعاصرة اليوم بسبب توزيع الثروة، ولم تظهر عيوب الربا كما ظهرت في العام الماضي (٢٠٠٨م) فقد انهار الاقتصاد العالمي كله، وتصدعت أركانه، واهتزّ بنيانه، وأخذ يموج ويتهاوى، لا في البلاد العربية، بل في الدول الكبرى، كأمريكا، وبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وغيرها.

وتنادى أصحاب هذه الدول مذعورين، وهم يرون مؤسساتهم المالية العملاقة وهي تهوي، وأصبح ملايين العاملين مشردين مسرَّحين من أعمالهم، وأخذت هذه الدول تضخ المال بكميات هائلة في الجسد المريض العليل، ولكن أنى يكون الشفاء!! لقد محق الله المال القائم على الربا، فكانت عاقبته إلى قلة واضمحلال، ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة:٢٧٦] لقد تبين أن تلك الأرقام الفلكية من الأموال ليس فيها بركة، وليست لها حقيقة، لقد ترنحت الدول الكبرى طويلاً بسبب داء الربا الذي أصابها، ومضت في ترنحها، حتى هوت في العام الماضي، ولم ينج من هذا المصاب إلا الذين ابتعدوا عن هذا المرض الفتاك، وهو الربا.

لقد أصابت العالم مصيبة كبرى ما بين عام ١٩٢٩ إلى عام ١٩٣٣ وقد دمرت تلك الهزة الاقتصادية أسواق المال، ولكن الهزة التي وقعت في عام ٢٠٠٨م أشد فتكاً، وأعظم هولاً.

لقد آن لنا أن نرفع أصواتنا نحن المسلمين مبينين منهج الإسلام في تحريمه للربا، وأن نعلن بوضوح أحكام شريعتنا المنزلة من عند العليم الخبير، بعيداً عن المضبوعين بالنظريات الغربية الضالة الفاسدة، وبعيداً عن الذين يَدْعون إلى تحليل الربا من قبل الشيوخ الذين ينسبون إلى العلم زوراً وكذباً، فالله حسيبهم، فقد أضلوا بضلالهم كثيراً من العباد.

وسنتناول في هذا النص الآيات التي حاربت الربا حرباً لا هوادة فيها، وهي آخر ما نزل من القرآن.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ

جنـــــة السـنـــــة

﴿أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مناسبة هذه الآيات لما قبلها:

ذكر الله فيما سبق مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله، وبيَّن ما أعدَّ لهم عنده في جنات النعيم، وهؤلاء أخيار صالحون، ينفقون أموالهم في سبيل الله، ولا يُتْبِعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى، ثم أتبع الحديث عن ذلك الصنف الخيِّر الطيب بالحديث عن الفريق البخيل الجبان الجشع الذي يأكل الربا، فيدمر نفسه، كما يدمر المجتمع الذي يعيش فيه.

التعريف بالربا:

لم يواجه القرآن أصحاب كبيرة من الكبائر بمثل ما واجه به الذين يأكلون الربا، والربا في اللغة الزيادة، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت:٣٩] والمراد بربوها: ارتفاعها بسبب نزول الماء عليها، وتحرك النبات في جوفها.

والربا في الاصطلاح: «الزيادة المشروطة التي يتقاضاها صاحب المال من المدين على رأس ماله نظير أجل معلوم يتفقان على تحديده» [راجع أحكام الجصاص: ١/ ٤٦٧].

٢- الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس:

رهَّب الله أكلة الربا والمتعاملين به بإخبارهم بالحال الذي يبعثون عليها في يوم القيامة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥] فالمرابون يبعثون من قبورهم في يوم القيامة حالهم حال الذي يتخبطه الشيطان من المس، وصورة الذي يتخبطه الشيطان من المس معروفة للمخاطبين، الشيطان إذا خالط الإنسان سلب منه عقله، وأصيب باضطرابات في جسده، فأخذ يخبط خبط عشواء، ويتصرف تصرفات خرقاء، والخبط الضرب على غير استواء.

وقد رأى الرسول ﷺ رؤيا، ورؤيا الأنبياء حق، وفيها ما يفعل بأكلة الربا، فعن سمرة ابن جندب ﷺ، قال: قال النبي ﷺ: «رأيتُ الليلة رجلين أتياني، فأخرجاني إلى أرض

جنـــــة الســــــنة

مقدسة، فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم، فيه رجل قائم، وعلى وسط النهر رجل بين يديه حجارة، فأقبل الرجل الذي في النهر، فإذا أراد الرجل أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه، فردَّه حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر، فيرجع كما كان، فقلتُ: ما هذا؟ فقال: الذي رأيته في النهر آكل الربا» [البخاري: ٢٠٨٥. مسلم: ٢٢٧٥].

٣- تخبط الشيطان الإنسان من المس:

شبه الله تبارك وتعالى قيام أكلة الربا في يوم القيامة من قبورهم بالذي يتخبطه الشيطان من المس، وقد ساق الله هذه الحقيقة مخبراً بها، فلا وجه لإنكارها، لأن أخباره صدق لا كذب فيها.

وقد زعم المعتزلة أن القرآن حكى أساطير العرب وخرافاتهم، يقول الزمخشري: «تخبط الشيطان من زعمات العرب، يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان، فيصرع» [الكشاف: ١/ ٣٩٨].

وهذا الذي ذهب إليه الزمخشري خطأ كبير، فالقرآن أجلُّ وأعظم من أن يحكي خرافات العرب وأساطيرهم من غير بيان لكونها أسطورة أو خرافة، فالله ساق هذه الحقيقة وأخبر بها، وأخبار القرآن صدق كلها.

وأقوى الأدلة الدالة على وجود المس وقوعه، فوقوع الشيء أقوى الأدلة على وجود ذلك الشيء، ودعوى بعض الأطباء أن ذلك مرض ليس صواباً على إطلاقه، فمنه مرض، ومنه مسُّ الشيطان، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة دالة على مثل ما صرَّح به القرآن، ففي الحديث عن صفية أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم» [البخاري: ٢٠٣٨، مسلم: ٢١٧٥].

وعن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: «ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ، فقالت: إني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي، قال: إن شئت صبرتِ، ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف، فادع الله أن لا أكشف، فدعا لها» [البخاري: ٥٦٥٢، مسلم: ٢٥٧٦].

وقد حكى ابن القيم رحمه الله تعالى أنه شاهد شيخه ابن تيمية وهو يعالج المصروعين، وكان يخاطب الجنيّ الذي يصرع الإنسان، ويأمره بالخروج، وقد يضربه، وقد يقرأ عليه آية الكرسي، أو يقرأ عليه المعوذتين، وقد يرسل إلى المصروع من يقول للجني: إن الشيخ يأمرك بالخروج [زاد المعاد لابن القيم: ص٦٧٨].

فالذي يرى أن لا صرع، وأن علاج الصرع باطل، فإنه يكذب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وأمثالهما، ويدعي أنهم كانوا كذابين يدجِّلون على الناس، وحاشاهم أن يكونوا كذلك.

جنـــــة الســـــنة

٤- ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا:

بيَّن الله تبارك وتعالى في هذا الجزء من الآية أن المرابين جعلوا البيع والربا شيئاً واحداً، وشبهوا البيع بالربا مبالغة بجعلهم الربا أصلاً والبيع فرعاً، فردَّ الله عليهم قائلاً: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة:٢٧٥] والله تبارك وتعالى يحكم لا رادَّ لحكمه، وعلى العباد طاعته فيما حكم وقضى فيه، ولذلك قال: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة:٢٧٥].

أي من بلغه نهي الله - تبارك وتعالى - عن الربا فانتهى فله ما سلف، أي له ما أكله من الربا في الجاهلية قبل بلوغ النهي إليه، ومن عاد إلى أكله بعد بلوغه النهي حال كونه رافضاً ما جاء به الشرع من تحريم، فهذا من أصحاب النار الذين هم فيها خالدون.

٥- يمحق الله الربا ويربي الصدقات:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه يُذهِب أموال الربا، ويجعلها تقلُّ وتضمحل، وفي مقابل ذلك يربي الصدقات ويباركها، وينميها، قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [البقرة:٢٧٦].

ومال الربا مال خبيث، وقد قال الله في المال الخبيث ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ﴾ [المائدة:١٠٠]، وقال: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ﴾ [الأنفال:٣٧]، وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ﴾ [الروم:٣٩].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [البقرة:٢٧٦] يدل على عظم جريمة الكَفَّارِ الذي يأكل الربا، فكفَّارٌ صيغة مبالغة من الكفر، وأثيم صيغة مبالغة من الإثم، فأكلة الربا كثير كفرهم عظيم إثمهم.

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ كيف يقبل ربنا الصدقات الخالصة لوجهه، ويستثمرها لصاحبها، حتى تصبح الصدقة القليلة كالجبل العظيم، روى أبو هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه، كما يُربِّي أحدكم فُلُوَّه، حتى تكون مثل الجبل» [البخاري: ١٤١٠، مسلم: ١٠١٤].

وقد دلَّ على أن الربا عاقبته إلى اضمحلال وفي حديث جابر قال: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا، ومؤكله، وكاتبه، وشاهديه وقال: هم سواء» [مسلم: ١٥٩٨].

جنـــــة السـنـــــة

٦- سعة أبواب الربا وكثرتها:

أبواب الربا واسعة كثيرة، ففي سنن ابن ماجه عن عبدالله، عن النبي ﷺ ، قال: «الربا ثلاثة وسبعون باباً» [سنن ابن ماجه، ٢٢٧٥، صحيح ابن ماجه: ١٨٤٤]. وفي سنن ابن ماجه أيضاً: «الربا سبعون حوباً، أيسرها أن ينكح الرجل أمّه» [سنن ابن ماجه:٢٢٧٤، وصحيح ابن ماجه: ١٨٤٤]، ومن أنواع الربا ما يأتي:

أ- الفائدة التي تستحق على المال المقترض، فيدفع صاحب المال للمصرف أو لرجل مالاً، ويأخذ عليه فائدة، كأن تكون ثمانية أو عشرة في المائة، وقد يكون المصرف هو المقرض الذي يستحق الفائدة.

ب- بيع العينة، وهو أن يشتري المرء سلعة في الذمة إلى أجل، ثم يبيعها بنقد حالاً بسعر أقل، وقد باعت أم مُحِبَّة وهي أم ولد لزيد بن أرقم عبداً لزيد بن أرقم بثمانمائة درهم إلى العطاء، فاحتاج إلى ثمنه، فاشترته منه قبل أن يحلَّ الأجل بستمائة درهم، فاستفتت عائشة، فقالت لها: «بئس ما شريت، وبئس ما اشتريت، أخبري زيداً أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ ، قد بطل إن لم يتب، فقلت: أرأيت إن تركت المائتين وأخذت الستمائة، قالت: نعم، ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ [البقرة:٢٧٥]» [ابن كثير: ١/ ٦٤٤ وعزاه إلى ابن أبي حاتم، وقال ابن كثير: وهذا الأثر مشهور، وهو دليل لمن حرم مسألة العينة].

ج- ربا الفضل، وهو أن يبيع الرجل ذهباً أو فضة أو تمراً أو زبيباً أو قمحاً كل صنف بمثله بزيادة عليه، وقد ساق البخاري عدة أحاديث تبين حرمة هذه البيوع إلا بشرطين، الأول: التقابض في مجلس العقد، والثاني: التساوي، ومن هذه الأحاديث حديث عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ﷺ : «الذهب بالذهب رباً إلا هاءَ وهاءَ، والبُرُّ بالبر رباً إلا هاء وهاء، والشعير بالشعير رباً إلا هاء وهاء، والتمر بالتمر رباً إلا هاء هاء» [البخاري: ٢١٧٤، مسلم: ١٥٨٦].

وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ : «الذهب بالذهب مثلاً بمثل، والورق بالورق مثلاً بمثل» [البخاري: ٢١٧٦]. والمراد بهاء وهاء: خذ وهات، وهي المقايضة في مجلس العقد، فإذا اختلفت هذه الأصناف كبيع الذهب بالفضة، أو القمح بالتمر، جاز التفاضل، ولزم التقابض.

٧- الذين آمنوا وعملوا الصالحات:

أورد الله في أثناء آيات الربا قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧﴾ [البقرة:٢٧٧].

جنـــــة السـنـــــة

وقد يعجب المتدبر لهذا النص، ويصعب عليه إيجاد المناسبة بين هذه الآية وآيات الربا التي وقعت الآية في أثنائها، وقد بلغ الأمر بالمفسِّرين الشهيرين ابن كثير والشوكاني أنهما لم يذكرا كلمة واحدة عن هذه المناسبة في تفسير هذه الآية.

والمناسبة فيما يبدو لي - والله أعلم - أن الله - سبحانه - ذكر حال المجتمع الإسلامي القائم على الإيمان والأعمال الصالحة، ومن هذه الأعمال إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وهذا المجتمع المؤمن الخيِّر بعيد عن الربا، فهو مجتمع متراحم، يجود فيه الأغنياء على الفقراء، ويعين القويُّ الضعيف، بخلاف المجتمع الربوي الذي يمصُّ فيه الأغنياء دماء الفقراء، ويبطش فيه الأقوياء بالضعفاء، فهما مجتمعان: المجتمع المؤمن الذي يتعاطى بالنفقة لله، ويعطي ويبذل من غير منٍّ ولا أذى ولا رياء، والمجتمع المرابي الذي يقهر فيه المرابون الضعفاء ويذلونهم.

وأصحاب المجتمع الخيِّر لهم أجرهم عند ربهم، وهو يتولاهم، ولا خوف عليهم فيما يأتي من الزمان في القبر والبعث والنشور، ولا يحزنون على ما خلَّفوه من الأهل والذرية.

٨- تهديد أكلة الربا وتوعُّدهم:

تهدد الله - تبارك وتعالى - أكلة الربا وتوعَّدهم، وطالب المؤمنين أن يخافوا الله ويخشوه، ويتركوا ما بقي من الربا إن كانوا مؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة:٢٧٨]، فإن لم يفعلوا واستمروا على استحلالهم للربا وأكلهم له، فإنَّ الله سيحاربهم، وكذلك رسوله ﷺ، فإن تابوا عن الربا فإنهم يستحقون رؤوس أموالهم، ولا يجوز لهم المطالبة بالمزيد من المال، وإن لم يُعطَوا رأس المال الذي لهم كانوا مظلومين ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة:٢٧٩].

وقد وضع رسول الله ﷺ ربا الجاهلية، وكان مما قاله في خطبته في حجة الوداع: «وربا الجاهلية موضوع، وأوّل ربا أضع ربانا، ربا العباس بن عبدالمطلب، فإنه موضوع كلُّه» [مسلم:١٢١٨].

وهذه الآية حددت الربا تحديداً دقيقاً، حيث جعلت كلَّ زيادة يأخذها ربّ المال على المقترض رباً، قَلَّت تلك الفائدة أو كثرت.

٩- إذا كان المدين معسراً وجب إنظاره إلى ميسرة:

إذا كان المدين معسراً وجب إنظاره إلى حين يسره، والأفضل من ذلك مسامحته بما عليه من مال، وهذه المسامحة تعدُّ صدقة عظيمة عند ربِّ العزة ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ [البقرة:٢٨٠].

جنــــــة الســــــنة

وقد ورد في فضل إنظار المعسر أحاديث تدلُّ على فضل عظيم، وأجر كثير، ففي صحيح البخاري ومسلم عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: «تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم، قالوا: أعملت من الخير شيئاً؟ قال: كنت آمر فتياني أن ينظروا ويتجاوزوا عن المعسر، قال: فتجاوزوا عنه» [البخاري: ٢٠٧، مسلم: ١٥٦٠].

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كان تاجر يداين الناس، فإذا رأى معسراً قال لفتيانه: تجاوزوا عنه، لعل الله يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه» [البخاري: ٢٠٧٧، مسلم: ١٥٦٢].

وعن أبي قتادة أنه طلب غريماً له، فتوارى عنه، ثم وجده، فقال: إني معسر، فقال: آلله؟ قال: آلله، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سَرَّهُ أن ينجيه من كُرَبِ يوم القيامة، فلينفس عن معسر، أو يضع عنه» [مسلم: ١٥٦٣]. وفي رواية مسلم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنظر معسراً أو وضع عنه أظلَّه الله في ظلّه» [مسلم: ٣٠٠٦]. فإذا كان الغريم موسراً، فعدم سداده ما عليه من دَيْن ظلم، ويجيز هذا للدائن ملاحقته، ومقاضاته، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مطل الغني ظلم» [البخاري: ٢٢٨٧، مسلم: ١٥٦٤].

وقد امتنع الرسول ﷺ عن الصلاة على جنازة كان على صاحبها ثلاثة دنانير، فتحملها أبو قتادة، فصلى عليه الرسول ﷺ [البخاري: ٢٢٨٩].

وأخبرنا رسولنا ﷺ أن الشهيد تغفر له جميع ذنوبه باستشهاده إذا قُتل في سبيل الله وهو صابر محتسب، مقبل غير مدبر إلا الدين [مسلم: ١٨٨٥].

١٠- واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله:

آخر ما نزله الله من كتابه على رسوله ﷺ آيات الربا من سورة البقرة، وآخر هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة:٢٨١]، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا» [البخاري: ٤٥٤٤]. وفي سنن ابن ماجه بإسناد صحيح عن عمر بن الخطاب قال: «إن آخر ما نزلت آية الربا، وإن رسول الله ﷺ قُبض، ولم يفسرها لنا، فدعوا الربا والريبة» [ابن ماجه: ٢٢٧٦ وهو في صحيح ابن ماجه: ١٨٤٦]. ويبدو أن آيات الربا كلها وآخرها: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١] نزلت مرة واحدة.

وقد أمرنا الله - تبارك وتعالى - في هذه الآية أن نتقي ذلك اليوم الذي نرجع فيه إلى الله، وهو يوم القيامة، وفي ذلك اليوم توفى كل نفس ما كسبته من خير أو شر، وهم لا يظلمون، فالله الذي يحاسب عباده، يحاسبهم بالعدل الذي لا عدل يشبهه أو يدانيه.

جنـــــة السـنـــة

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - حرّم الله الربا الذي كان سائداً في الجاهلية تحريماً قاطعاً، لا شبهة فيه.

٢- عظم جرم الذين يموتون غير تائبين من الربا، فإنهم يُبعثون يوم القيامة كالمصروعين الذين مسّهم الشيطان، فأصابهم بالجنون.

٣- جعل المرابون في الجاهلية الربا أكثر حلاً من البيع، فقد شبهوا البيع بالربا، على وجه المبالغة، فردّ الله عليهم بأنّه أحل البيع وحرّم الربا.

٤ - الذين بلغتهم النصوص المحرمة للربا فاتعظوا بها، وتركوا الربا لا يجوز مطالبتهم بالربا الذي أخذوه قبل ذلك، أما الذين يستمرون على استحلال الربا والتعامل به فهم أصحاب النار الذين يخلدون فيها.

٥ - احتجّ المعتزلة على خلود أصحاب الكبائر في النار بهذه الآية التي تخبر عن خلود أكلة الربا في النار، واستدلالهم غير صحيح، لأن خلودهم في النار بسبب استحلالهم للربا الذي حرمه الله واستمرار تعاملهم به.

٦- في الآية الأولى ردٌّ على الذين يُنكرون أن يكون الصرع من الشيطان، فقد أخبر الله - تبارك وتعالى - أن المرابين يقومون يوم القيامة من قبورهم كالذي يتخبطه الشيطان من المس.

٧- المال المستفاد من الربا عاقبته إلى قلّ، فالله لا يبارك فيه، ويمحقه في الدنيا والآخرة، بخلاف الصدقات، فإن الله يربيها، ويباركها.

٨- المجتمع الربوي يجتمع فيه الكثير من الفساد والظلم والطغيان، بخلاف المجتمع المؤمن الذي تقام فيه الصلاة، وتؤتى الزكاة، فهذا مجتمع خيِّر مرحوم، وأصحابه لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم.

٩- تهدد الله أكلة الربا بالحرب يشنها الله عليهم، ويشنُّها عليهم رسوله ﷺ ، وعلى خلفاء رسول الله ﷺ من بعده أن يأخذوا على أيدي المرابين ويحاربوهم.

١٠ - الربا هو الفائدة على رأس المال، لا فرق في ذلك بين الكثير والقليل، لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [البقرة:٢٧٩] فكل زيادة على رأس المال فهي رباً.

١١ - إذا عجز المدين فيجب على الدائن إنظاره لحين يسره، والأفضل والأطيب أن يتصدق الدائن بما له عليه من دَيْن.

١٢ - الذين يزعمون أن الفائدة القليلة ليست رباً، والفائدة الكبيرة هي الربا، بعيدون عن فقه شرع الله تبارك وتعالى.

جنـــة الســــنة

النص القرآني الخامس والستون من سورة البقرة
كتابة الدَّيْن والإشهاد عليه

أولاً: تقديم

أطال القرآن فيما سبق الحديث عن المجتمع الإسلامي المنفق في سبيل الله، وأتبع ذلك بالترهيب العظيم من الربا والمرابين، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، ويدمرون أنفسهم والمجتمع من حولهم، ثم أتبع الله ذلك في آيات هذا النص الأمر بتوثيق الدين بكتابته والإشهاد عليه، حفظاً لأموال الناس من الضياع، فإن لم نجد كاتباً، أو لم نستطع التوثيق فرهان مقبوضة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة البقرة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ (٢٨٢) ۞ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ (٢٨٣)﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الأمر بكتابة الدَّيْن:

نادى الله المؤمنين آمراً إياهم إذا تداينوا فيما بينهم بدَيْن إلى أجل مسمى أن يكتبوه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ [البقرة:٢٨٢]. «والدين – كما يقول الشوكاني – عبارة عن كلِّ معاملة كان أحد العوضين فيها نقداً، والآخر في الذمة نسيئة، فإنَّ العين ما كان حاضراً، والدَّيْن ما كان غائباً» [فتح القدير: ١/ ٥٠٦].

جنـــــة الســــــنة

وقوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [البقرة:٢٨٢] دلَّ على أن الدَّيْن ينبغي أن يكون إلى أجل محدد معلوم، ولا يجوز أن يكون إلى أجل مجهول، وعن ابن عباس قال: قدم الرسول ﷺ المدينة، والناس يسلفون في الثمر العام والعامين - أو قال: عامين أو ثلاثة، شك إسماعيل - فقال: «من سَلَّف في تمر، فَلْيُسْلِفْ في كيل معلوم، ووزن معلوم» [البخاري: ٢٢٣٩، مسلم: ١٦٠٤]. وفي رواية: «من أسلف في شيء، ففي كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم» [البخاري: ٢٢٤٠، مسلم: ١٦٠٤].

وأمر الله بكتابة الدَّيْن، لأن في الكتابة حفظاً للأموال، وقطعاً للاختلاف، وقد رأيت الذين لا يكتبون يقع بينهم النزاع في مدة الأجل ومقدار الدَّيْن.

وظاهر النص يدلُّ على الوجوب، لأنه أمر بذلك عباده أمراً صريحاً لا خفاء فيه، وذهب بعض أهل العلم إلى أن الأمر للإرشاد والاستحباب.

٢- وليكتب بينكم كاتب بالعدل:

أمر الله الدائن والمدين أن يعهدا بكتابة الدَّيْن إلى شخص يحسن الكتابة ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [البقرة:٢٨٢]، والعدل متعلق بمحذوف صفة لكاتب، أي: كاتب متصف بالعدل، فإذا كتب فيجب عليه أن يتحرى الحق، ولا يزيد، ولا ينقص، ولا يميل إلى أحد الطرفين، ونهى الله الكاتب الذي يحسن الكتابة عن الامتناع عن الكتابة، ﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ﴾ [البقرة:٢٨٢]، والمعنى: لا يمتنع القادر على الكتابة عن الكتابة، فالكتابة نعمة من نِعَم الله - تبارك وتعالى - ومن شكر النعمة أن يقوم بها في حال القدرة عليها، ومِن كُفْرِ النعمة عدمُ الكتابة في حال طلبها منه.

٣- وليملل الذي عليه الحق:

أمر الله - تبارك وتعالى - الذي عليه الحقُّ وهو المدين، أن يملي على الكاتب ما في ذمته من دَيْن من غير زيادة ولا نقصان، وعلى المدين المملي أن يتقي الله ربه، بحيث لا يبخس من الدَّيْن شيئاً، أي: لا ينقص منه شيئاً، ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [البقرة:٢٨٢].

فإن تعذر على المدين أن يملي لوجود حائل يحول دون ذلك، كأن يكون المدين سفيهاً، أي: محجوراً عليه، أو ضعيفاً كالصغير، أو ضعيف العقل، أو كان أبكم لا يتكلم، ونحو ذلك، فيحلُّ محلَّه وليُّه بالعدل ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [البقرة:٢٨٢].

جنـــــة الســـــنة

٤- واستشهدوا شهيدين من رجالكم:

لم يكتف الله - تبارك وتعالى - بكتابة الدَّيْن فحسب، ولكنه مع ذلك أمر باستشهاد شهيدين، فإن لم نجد رجلين فرجل وامرأتان ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ﴾ [البقرة:٢٨٢].

أمر الله باستشهاد رجلين من رجالنا، أي: من المسلمين، فلا يجوز استشهاد الكفار، فإذا لم نجد رجلين، فنستشهد رجلاً وامرأتين، وينبغي أن يكون الشهود عدولاً، ولذلك قال: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ فغير العدل ليس مرضياً في شهادته.

وبيَّن الحكمة من وراء استشهاد رجل وامرأتين إن لم نجد رجلين، وهي أن تذكِّر إحداهما الأخرى إن هي نسيت.

ونهى الله - سبحانه - الشهود عن الامتناع عن أداء الشهادة، وهذا يكون في حال تحملهم لها، أما إذا دعوا للشهادة فلا يجب عليهم تحملها، وإنما يستحب لهم ذلك فحسب، وقد روى زيد بن خالد الجهني أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير الشهداء، الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسْأَلها» [مسلم:١٧١٩] والأحاديث الصحيحة التي ذمت الشهود الذين يسارعون في أداء الشهادة من غير أن يُسْأَلوها، هؤلاء شهود الزور.

٥- ذلكم أقسط عند الله:

مما يدلُّ على وجوب الكتابة التي أمر الله بها في أول الآية أن الله تعالى نهى المتداينين عن السأم من كتابة الحقِّ، سواءً كان الدَّيْن صغيراً أو كبيراً ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ﴾ [البقرة:٢٨٢] وقوله: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟﴾ أي: لا تملُّوا أن تكتبوا الدَّيْن، ثم بيَّن الله تبارك وتعالى الحكمة من وراء الكتابة، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ﴾ [البقرة:٢٨٢].

والمشار إليه بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الكتابة للحق المؤجل، و﴿أَقْسَطُ﴾: أعدل، وقوله: ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: أثبت للشاهد، فالشاهد إذا شهد، ووضع خطَّه على وثيقة الشهادة، ثم رآه بعد ذلك تذكر شهادته، بينما لو لم يكتب الدَّيْن، فإن الشاهد قد ينسى أو يخطئ، وقوله: ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾ [البقرة:٢٨٢] أي: أقرب إلى عدم الريبة، فإن الكتاب الذي كتبوه ينفي عنهم الريبة، أي: الشك.

جنــــــة الســــــنة

٦- لا يجب كتابة التجارة الحاضرة:

إذا كانت التجارة حاضرة يداً بيد، أي: إذا كانت السلعة حاضرة والثمن حاضراً، فلا داعي للكتابة، قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ [البقرة:٢٨٢] والتجارة الحاضرة هي الناجزة الذي يستلم فيه المشتري السلعة، ويستلم البائع القيمة يداً بيد، وقوله: ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أي: تتداولونها وتتعاطونها من غير تأجيل، وقوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ [البقرة:٢٨٢] والجناح هنا الإثم، وهذا يدلُّ على أن الكتابة واجبة إن لم تكن التجارة حاضرة.

٧- الإشهاد على البيع الناجز:

أمر الله بكتابة الدَّيْن إلى أجل والإشهاد عليه، وبيَّن أن التجارة الحاضرة لا تحتاج إلى كتابة، ولكنه أمر بالإشهاد عليها، فقال: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة:٢٨٢].

والحكمة من وراء ذلك أن الإشهاد يقطع دابر الخلاف في فترة التسليم، فالمتبايعان قد يقع بينهما خلاف في هذه الفترة الوجيزة، وقد وقع هذا مع الرسول ﷺ، «فعن عمارة بن خزيمة أن عمَّه حدَّثه، وهو من أصحاب النبي ﷺ، أن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي، فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع رسول الله ﷺ المشي، وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي، فيساومونه بالفرس، ولا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه، فنادى الأعرابيُّ رسولَ الله ﷺ فقال: إن كنتَ مبتاعاً هذا الفرس وإلا بعتُه، فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي، فقال: أو ليس قد ابتعتُه منك؟ فقال الأعرابي: لا، والله ما بعتُكَهُ، فقال النبي ﷺ: بلى، قد ابتعتُه منك، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً، فقال خزيمة بن ثابت: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي ﷺ على خزيمة، فقال: بِمَ تشهد؟ فقال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين» [سنن أبي داود: ٣٦٠٧، وأورده الألباني في صحيح أبي داود].

٨- لا تجوز مضارة الكاتب أو الشهيد:

نهى الله - تبارك وتعالى - عن مضارَّة الكاتب أو الشهيد ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ [البقرة:٢٨٢] وأعدل الأقوال في معنى الآية ما قاله ابن عباس ومجاهد وعطاء، قالوا: «يُمْنَعُ الكاتب أن يكتب، ويُمْنَعُ الشاهد أن يشهد» [تفسير الماوردي: ١/٢٩٦]، والآية أوسع وأعمّ، فلا يجوز لأحد أن يضرَّ الكاتب أو الشهيد، كأن يمنع أحد المتعاقدين الكاتب أن يكتب، أو يلزمه بكتابةٍ مخالفة للحقّ، أو يمنع أحد المتعاقدين الشاهد أن يأتي بالشهادة على وجهها، ومن فعل شيئاً من ذلك استحق اسم الفسق، وقد أخبر الله

جنـــــة الســـــنة

تبارك وتعالى أن الإضرار بالكاتب أو الشهيد يوقع الفسق في القوم الذين جرى فيهم هذا الأمر، أي يصبح المجتمع فاسقاً مختلاً، بعيداً عن الصواب.

وأمر الله - تبارك وتعالى - في ختام الآية عباده المؤمنين أن يتقوه، ووعدهم على التزامهم بالتقوى أن يعلِّمهم، وهو بكل شيء عليم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢)﴾ [البقرة:٢٨٢].

ولهذه الآية نظائر في كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد:٢٨].

٩- إذا لم نجد في السفر كاتباً فرهان مقبوضة:

إذا تداين المسلمان في السفر ولم يجدا كاتباً يكتب الدَّيْن على النحو الذي شرعه الله في الآية السابقة، أو وجدا الكاتب، ولم يجدا أدوات الكتابة، فعلى المدين أن يسلم الدائن رهاناً مقبوضة، والرهان جمع رهن، والرهن ما يوضع وثيقة للدين [المفردات: ص٢٠٤]. قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ [البقرة:٢٨٣] ومعنى ﴿فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ أي: فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة، أي: في يد الدائن، وهذا يدلُّ على أن الرهن لا بد أن يكون في يد الدائن. وقد ذهب بعض أهل العلم أن الرهن لا يكون إلا في السفر، وهذا ليس بصحيح، فقد صحَّ «أن رسول الله ﷺ اشترى طعاماً من يهودي إلى أجل، ورهنه درعاً من حديد» [البخاري: ٢٠٦٨، مسلم: ١٦٠٣ من حديث عائشة].

١٠- فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤدِّ الذي اؤتمن أمانته:

قد يتداين المسافران في سفرهما، ولا يوجد كاتب يكتب ذلك الدَّيْن المؤجل، ويكون الدائن واثقاً من المدين في دينه وخلقه، فلا حاجة في هذه الحال إلى الرهن، وعلى المدين عندما يحلُّ الأجل أن يؤدي المال الذي اؤتمن عليه من غير وثيقة، وليتق الله تبارك وتعالى في رعايته لحقوق الأمانة ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٣].

١١- جريمة كتمان الشهادة:

نهى الله - تبارك وتعالى - الشهود عن كتمان الشهادة، وأخبر أن كاتم الشهادة آثم قلبه، فالفساد والفجور تغلغلا في قلبه، وحذر الله الكاتم للشهادة، فأعلمه بأنه عليم بكتمانه، وسيوقفه بين يديه، ويحاسبه على ما كان منه من الكتمان ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا

جنة السنة

﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ [البقرة:٢٨٣] ونسب الإثم إلى القلب، لأن كاتم الشهادة يضمر الكتمان في قلبه، والقلب رئيس الأعضاء والمؤثر فيها.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أوجب الله كتابة الديون التي تكون إلى أجل مسمى.

٢- على المتعاقدين في دَيْن إلى أجل مسمى أن يختارا كاتباً عدلاً يحسن كتابة الدَّيْن، ويبين فيه مقداره والأجل الذي يحلُّ فيه الدين.

٣- أمر الله المدين أن يملي على كاتب الدَّيْن، وعليه أن يتقي الله بذكر مقدار الدَّيْن وأجله من غير زيادة ولا نقصان.

٤- إذا كان المدين لا يستطيع أن يملي لصغره، أو خرفه، أو ضعف عقله، أو لكونه أبكم، فإن وليه يحُلُّ محله في الإملاء.

٥- أمر الله مع كتابة الدَّيْن بإشهاد رجلين من المسلمين، فإن لم نجد رجلين فنُشهد رجلاً وامرأتين، ويجب أن يكون الشهود عدولاً، فلا يرضى بشهادة فاسق، فإنه لا يأتي بالشهادة على وجهها.

٦- بيّن الله الحكمة من استشهاد شاهدتين اثنتين إذا لم نجد إلا شاهداً واحداً، وهو أن تذكِّر التي حفظت الشهادة من نسيتها.

٧- لا يجوز للشاهد الذي تحمل الشهادة أن يكتم الحق الذي تحمله إذا دعي للشهادة.

٨- دعا الله إلى كتابة الدَّيْن، لا فرق في ذلك بين الكبير والصغير.

٩- بيَّن الله - تبارك وتعالى - وجه الحكمة من إيجابه لكتابة الدَّيْن، فالكتابة فيها تقييد للعلم الذي قد ينسى، ويذهب الريب، وهو الشك الذي يخالط عقول الشهود في بعض الأحيان، ويجعل الشاهد يأتي بالشهادة على وجهها الصحيح.

١٠- لا داعي لكتابة التجارة الحاضرة، التي يدفع فيها الشاري الثمن ويقبض السلعة حالاً من غير تأخير، ولكنه أمر بالإشهاد على التجارة الحاضرة حتى لا يقع النزاع والاختلاف.

١١- لا يجوز إيقاع الضرر بالكاتب أو الشهيد، ومن أوقع الضرر بأي منهما فقد أفسد نفسه، وحلَّ به الفسق.

جنـــــة السـنة

١٢- التقوى باب لتحصيل العلم الشرعي، فالذي يتّقي ربَّه يعلمه الله عز وجل، وهو بكل شيء عليم.

١٣- إذا كان المتداينان مسافرين، ولم يجدا كاتباً يكتب لهما، أو لم يجدا أدوات الكتابة فعلى المدين أن يدفع للدائن رهناً يقبضه، وثيقة لدَيْنه، ولا بأس بتوثيق الدَّيْن برهن في حال الإقامة كما ورد في الأحاديث.

١٤- لا حاجة إلى الرهن إذا وثق الدائن في سفره في دِيْن المدين وخُلُقِه.

١٥- رهَّب الله الذين يكتمون الشهادة بإخبارهم بأن قلوبهم آثمة بسبب ذلك الكتمان، وبأنه سيحاسبهم في يوم القيامة عن كتمانهم.

جنـــــة السـنــــة

النص القرآني السادس والستون من سورة البقرة
خاتمة سورة البقرة

أولاً: تقديم

هذا النص الكريم يحوي ثلاث آيات هي خاتمة هذه السورة العظيمة، سورة البقرة، والآيتان الأخيرتان من هذه الخاتمة هما من أفضل آيات القرآن كما سيأتي بيانه، وهما منزلتان من كتاب كتبه ربُّ العزة قبل أن يخلق الله السماوات والأرض بألفي عام [الترمذي، وقال فيه: حسن غريب، الترمذي: ٢٨٨٢، صحيح الترمذي: ٢٣١١].

وأخبرنا ربنا - عزَّ وجلَّ - في الآية قبل الأخيرة من هذا النص أن رسولنا ﷺ آمن بما أنزل إليه من ربه، وكذلك المؤمنون آمنوا بمثل ما آمن به رسولهم، وأنهم جميعاً آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وأنهم لا يفرقون بين أحد من رسله، والتفريق بين الرسل يكون بالإيمان ببعض الرسل والكفر ببعض، وهم مع إيمانهم بما ذكره الله يقولون: سمعنا وأطعنا، ويستغفرون ربهم، ويؤمنون بأن المرجع والمصير إلى الله، أي: يؤمنون بيوم الدين.

وفي الآية الأخيرة بيان لطبيعة هذا الدين، فهو تكاليف إلهية ربانية، مراعى فيها طاقة الإنسان ووسعه، لا يؤاخذ فيها على الخطأ ولا النسيان، بعيداً عن التكاليف الشاقة والآصار التي حملتها بعض الأمم السابقة.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لله ما في السموات والأرض:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - في آيات كثيرة أنه خالق السموات والأرض، وأنه المتصرف فيهما كيف يشاء، والخالق المتصرف هو المالك لهما وحده لا شريك له، وهذا يبطل

جنـــــة الســــــنة

قول كلِّ من يدَّعي أن في الوجود إلهاً غير الله يستحق العبادة ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٨٤].

٢- وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله:

أعلمنا الله - عز وجل - في هذه الآية أنه يحاسبنا على ما أظهرناه من أمورنا كإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والجهاد في سبيل الله، ونحو ذلك، كما يحاسبنا على ما أخفيناه، وهو الذي أضمرناه في قلوبنا، كالنيات، والهم بالحسنات والسيئات، فيغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، والله - تبارك وتعالى - قادر على كل شيء، ومن ذلك محاسبة العباد على ما أظهروه أو أخفوه ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة:٢٨٤].

٣- شدة هذه الآية على صحابة رسول الله ﷺ عند نزولها ونسخها بعد ذلك:

عندما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٤] ثقلت على الصحابة، واشتدت عليهم، وجاؤوا يشكون إلى رسول الله ﷺ.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: «لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة:٢٨٤] قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم بركوا على الرُّكَب، فقالوا: أي رسول الله! كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أُنزلت عليك هذه الآية، ولا نطيقها.

قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة:٢٨٥]» قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾. فلما اقترأها القومُ ذلَّت بها ألسنتُهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة:٢٨٥].

فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، «قال: نعم» ﴿رَبَّنَا وَلَا

جنــــــة الســــــنة

﴿تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ﴾ «قال: نعم» ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ «قال: نعم» ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ «قال: نعم» [البقرة:٢٨٦]» [مسلم: ١٢٥].

وروى مسلم أيضاً في صحيحه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة:٢٨٤] قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء، فقال النبي ﷺ: «قولوا: سمعنا وأطعنا وسلَّمنا» قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ قال: «قد فعَلْتُ» ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ﴾ «قال: قد فعلتُ» ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا﴾ «قال: قد فعلتُ» [البقرة:٢٨٦]» [مسلم: ١٢٦].

٤- فضل الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة:

أنزل الله - تبارك وتعالى - قوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾ [البقرة:٢٨٥] والآية التالية لها، وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن في هاتين الآيتين فضلاً عظيماً، وثواباً جزيلاً، فمن ذلك:

أ- أخبرنا رسولنا ﷺ أن نورهما أحد نورين أوتيهما رسولنا ﷺ لم يؤتهما نبي قبله، فعن ابن عباس قال: «بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فُتح اليوم، لم يُفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قطُّ إلا اليوم، فسلَّم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبيٌّ من قبلك، فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته» [مسلم: ٨٠٦].

ب- أخبرنا رسولنا ﷺ أن من قرأ بالآيتين الأخيرتين من سورة البقرة في ليلة كفتاه، فعن أبي مسعود قال: قال النبي ﷺ: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه» [البخاري: ٥٠٠٩، مسلم: ٨٠٧، ٨٠٨].

ج- هاتان الآيتان أنزلهما الله من كتاب كتبه قبل خلقه السماوات والأرض بألفي عام، فعن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها الشيطان» [الترمذي: ٢٨٨٢، وقال فيه: هذا حديث حسن غريب، صحيح الترمذي للألباني: ٢٣١١].

جنـــــة الســـــنة

٥- آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - مثنياً على رسوله محمد ﷺ وأصحابه الكرام أنهم آمنوا بما أنزل عليهم من ربهم، وآمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وأنهم لا يفرقون بين أحد من رسله، والتفريق بينهم يكون بالإيمان ببعض الرسل والكفر ببعض، كاليهود الذين آمنوا بإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وغيرهم وكفروا بعيسى ومحمد ﷺ ، والنصارى الذين آمنوا بالأنبياء وبعيسى، وكفروا بمحمد ﷺ ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٨٥].

وقد ذكرت هذه الآية أصول الاعتقاد التي لا يكون مؤمناً من كفر بواحد منها، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله جميعاً، غير مفرقين بينهم، أما الأصل الخامس وهو الإيمان باليوم الآخر، فقد ذكره الله في خاتمة الآية في قوله: ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة:٢٨٥]. والمصير: الجزاء والحساب في يوم القيامة.

ومعنى قوله: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [البقرة:٢٨٥] أي: سمعنا قولك يا ربنا، وفهمناه، وامتثلناه، وعملنا بمقتضاه.

٦- لا يكلف الله نفساً إلا وسعها:

هذه الآية هي الآية الناسخة لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة:٢٨٤]، وقد أعلمنا الله - تبارك وتعالى - أنه لا يكلف أحداً فوق طاقته، وهذا من رحمته سبحانه بعباده، ولطفه بهم، وقرر - سبحانه - في هذه الآية أن لكل نفس ما كسبته من خير، وعليها ما اكتسبته من شر، وهذا في الأعمال الظاهرة التي يطيق العباد التحكم بها كالصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ [البقرة:٢٨٦].

وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ﴾ فيه ترغيب بفعل الخير، ﴿وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ ترهيب من فعل الشر.

وأعلمنا ربنا أنهم يقولون في دعائهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ﴾ [البقرة:٢٨٦].

جنـــــة الســـــنة

يقولون: يا ربنا لا تؤاخذ إن نسينا شيئاً مما فرضته علينا، كالذي ينسى صلاة، أو ركعة من الصلاة، أو طوافاً بالبيت أو شوطاً في السعي، أو نحو ذلك ولا تؤاخذنا إن أخطأنا، كالذي لا يهتدي إلى وجه الصواب فيما كلف به من أعمال، دعا الرسول ﷺ وأصحابه بهذا الدعاء فقال الله: «نعم» أي: لا أؤاخذكم بذلك. ومن دعائهم قولهم: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة:٢٨٦] أي: «لا تحمل علينا إصراً يثقل علينا كما حملته على الذين من قبلنا، نحو أمر بني إسرائيل بقتل أنفسهم، أي: لا تمتحنا بما يثقل» [معاني القرآن، للزجاج: ١/ ٣٧١] والإصر: الأثقال التي تثبط عن الخيرات.

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن ربنا استجاب دعاء رسوله ﷺ ودعاء أصحابه، فلم يحمل علينا الآصار والأغلال التي حملها على الذين من قبلنا، ودعوا ربهم أن لا يحملهم ما لا طاقة لهم به، ودعوه أن يعفوا عنهم ويغفر لهم، وقالوا في ختام هذا الدعاء الطيب المبارك: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة:٢٨٦] أي: ناصرنا، ومتولي أمورنا، فانصرنا على الكفرة المشركين الذين رفضوا دينك، وأعرضوا عن كتابك، وحاربوا رسولك.

وقد جاءت أحاديث كثيرة تدل على ما تضمنته هاتان الآيتان الكريمتان، من صفة التكاليف التي كلف الله بها عباده:

أ- فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدَّثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به» [مسلم: ١٢٧].

ب- وعن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عزَّ وجلَّ: إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة، فلا تكتبوها عليه حتى يعملها، فإن عملها فاكتبوها بمثلها، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف» [البخاري: ٧٥٠١، مسلم: ١٢٨].

ج- عن أبي هريرة قال: جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «وقد وجدتموه؟» قالوا: نعم، قال: «ذلك صريح الإيمان» [مسلم: ١٣٢].

د- وعن عبدالله قال: سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة، قال: «تلك محض الإيمان» [مسلم: ١٣٣].

هـ- وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم، فيقول: من خلق كذا، من خلق كذا، حتى يقول من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته» [البخاري: ٣٢٧٦، مسلم: ١٣٤].

جنـــــة السـنة

دلت هذه الأحاديث على عدم مؤاخذة الله إيانا بما حدثتنا به أنفسنا ما لم نتكلم أو نعمل، وأنه لا يؤاخذ المؤمنين بما وسوست به الشياطين، وسمَّى دفع هذه الوسوسة: صريح الإيمان ومحض الإيمان.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الله -تبارك وتعالى- هو خالق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، وهو مالكهما، وكل ما فيهما مخلوق مربوب خاضع لله رب العالمين، وهذا ينفي وجود آلهة مع الله، وينفي وجود الولد لله.

٢- أخبر الله - تبارك وتعالى - أنه يحاسبنا على كل ما نبديه ونخفيه من أعمالنا، ثم نسخ ذلك، وقرر أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها.

٣- الله قادر على كل شيء، ومن ذلك محاسبة عباده جميعاً، فيغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء.

٤- أصول الإيمان التي لا يتمُّ الإيمان إلا باعتقادها وتقريرها والعمل بمقتضاها خمسة، وهي - كما ورد في الآية - الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

٥- يجب الإيمان برسل الله جميعاً، ومن كفر بواحد من الرسل فهو كافر بهم جميعاً، وهو من أهل النار، ومن الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض الذين كفروا بنبينا محمد ﷺ من اليهود والنصارى.

٦- يجب على المؤمن أن يفقه وحي الله إليه، ثم بعد ذلك يعمل بمقتضى ما فقهه من الكتاب والسنّة، ويدعو الله أن يغفر له ما يقع فيه من تقصير.

٧- الله رحيم بعباده، شفيق بهم، لا يكلفهم فوق ما يطيقون، ولا يحاسبهم إلا على ما عملوه، من خير أو شر.

٨- هذا الدين الذي أنزله الله على محمد ﷺ ليس فيه شيء من الآصار والأغلال التي حملها اليهود من قبلنا، فقاعدة الحلال والحرام في ديننا: إحلال الطيبات وتحريم الخبائث.

٩- فضل هاتين الآيتين اللتين ختم الله بهما سورة البقرة، وعلى المسلم أن يكثر من تلاوتهما، والتأمل في معناهما، والإكثار من الدعاء بما جاء فيهما من دعاء.

١٠- الله مولانا وناصرنا ومؤيدنا، وهو وحده القادر على نصرنا على القوم الكافرين.

جنـــــة الســـــنة

سورة آل عمران

أولاً: التعريف بهذه السورة

قال أبو عمرو الداني: «سورة آل عمران مدنية، ولا نظير لها في عددها، وكَلِمُها ثلاثة آلاف كلمة وأربعمائة وثمانون كلمة، وحروفها أربعة عشر ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرون حرفاً، وهي مئتا آيةٍ في جميع العدد» [البيان في عد آي القرآن: ١٤٣].

وسميت هذه السورة بآل عمران، لأنها تحدثت عن آل عمران، وبينت فضلهم، وعمران والد مريم التي هي أم عيسى عليهما السلام.

وسمى الرسول ﷺ البقرة وآل عمران بالزهراوين.

ونزلت الثمانون آية من أول سورة آل عمران في وفد نصارى نجران الذين قدموا على الرسول ﷺ ، قال ابن تيمية: «سبب نزول هذه الآية كان قدوم نصارى نجران ومناظرتهم للنبي ﷺ في أمر المسيح، كما ذكر ذلك أهل التفسير وأهل السيرة، وهو من المشهور، بل من المتواتر أن نصارى نجران قدموا على النبي ﷺ ، ودعاهم إلى المباهلة المذكورة في سورة آل عمران. «المباهلة: الملاعنة، ومعناها أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء، فيقولوا: لعنة الله على الظالم منا» فأقروا بالجزية ولم يباهلوه. وصدر آل عمران نزل بسبب ما جرى، ولهذا عامتها في أمر المسيح» [مجموعة فتاوى شيخ الإسلام: ١٧/ ٢٠٤].

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن حذيفة، قال: جاء العاقب والسيد، صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبياً، فلاعنَّا، لا نفلح نحن ولا عقبُنا من بعدنا، قالا: إنّا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال: «لأبعثنَّ معكم رجلاً أميناً حقَّ أمين» فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح» فلما قام قال رسول الله ﷺ : «هذا أمين هذه الأمة» [البخاري: ٤٣٨٠، مسلم: ٢٤٢٠ مختصراً].

جنـــــة الســـــنة

ثانياً: فضل هذه السورة

سبق ذكر الأحاديث الواردة في فضل سورة البقرة وسورة آل عمران، ومنها:

١ – ما رواه أبو أمامة الباهلي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرؤوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فِرْقانِ من طير صوافَّ. تحاجان عن أصحابهما» [مسلم: ٨٠٤] وقوله في الحديث: «الزهراوين» سميتا بذلك لنورهما وهدايتهما وعظيم أجرهما. وقوله: «كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان» أي: ثوابهما يأتي كأنه غمامتان أو غيايتان، والغمامة أو الغياية كلُّ شيء أظلَّ الإنسان فوق رأسه، سحابة أو غيرها.

٢ – وعن النواس بن سمعان الكلابي قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهلِه الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران» وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال، ما نسيتهن بعد. قال: «كأنهما غمامتان أو ظُلَّتان سوداوان، بينهما شَرْقٌ، أو كأنهما حِزْقان من طير صوافّ. تُحاجّان عن صاحبهما» [مسلم: ٨٠٥] وقوله: «شَرْقٌ» أي ضياء ونور. و«حِزْقان» و«فرقان» بمعنى واحد.

جنـــــة الســــــنة

النص القرآني الأول من سورة آل عمران
التعريف بالله الحي القيوم

أولاً: تقديم

حدثنا الله في طليعة هذه السورة عن نفسه سبحانه وتعالى، فهو الله الواحد الذي لا يستحقُّ العبادة أحدٌ سواه، وهو الحي القيوم، القائم بنفسه المقيم لغيره، وهو الذي أنزل الكتب على رسله هداية للناس، وهو القوي الغالب الذي يضع كل شيء موضعه، المنتقم من أعدائه، المطلع على جميع المخلوقات، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو الذي خلقنا وصورنا في أرحام أمهاتنا كيف أراد، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الله هو المعبود بحق لا إله إلا هو الحي القيوم:

افتتح الله هذه السورة بمثل ما افتتح به سورة البقرة من الحروف المقطعة ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ [آل عمران:١] وقد قلنا هناك: إن أصح الأقوال في تفسيرها: أن هذا القرآن الذي أعجز الجن والإنس أن يأتوا بمثل سورة واحدة من سوره، حروف كلماته مكونة من هذه الحروف وأمثالها من حروف اللغة العربية.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾ [آل عمران:٢] المعنى: أن الله هو المعبود الحق الذي لا يستحق العبادة أحد إلا إياه و﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ أي: الذي حياته تامة كاملة، فهو حي دائماً وأبداً، وهو قيوم، أي: قائم بنفسه مقيم لغيره، وقد سبق بيان هذا المعنى في آية الكرسي في سورة البقرة: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

جنـــــة السـنة

٢- الله الذي أنزل كتبه على رسله وأنبيائه:

امتنّ الله على عبده ورسوله محمد ﷺ أنه نزَّل عليه كتابه وهو القرآن، إنزالاً كائناً بالحق مصدقاً لما أنزله من قبله من الكتب، كما أنزل من قبله التوراة التي أنزلت على موسى والإنجيل الذي أنزله على عيسى ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾﴾ [آل عمران:٣]، والغاية من إنزال الكتب هو هداية الناس إلى الحق وإلى الصراط المستقيم، وأخبر الله أنه أنزل الفرقان، والفرقان يطلق على كل كتاب أنزله الله فقال في الكتاب الذي أنزل على موسى وهارون ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء:٤٨]. وقال في الكتاب الذي نزله على رسولنا ﷺ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان:١] سمى المنزل فرقاناً، لأنه يفرق به بين الحق والباطل، والخير والشر، والصلاح والفساد. قال تعالى في هاتين الآيتين اللتين بيّنا معناهما: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران:٣-٤].

وقد تهدَّد ربُّ العزة الكفرة الذين يجحدون هذه الكتب وينكرونها، وأخبر أن لهم عذاباً شديداً في يوم القيامة، وأنه عزيز، أي: منيع الجناب عظيم السلطان، وهو منتقم ممن كذب بآياته وخالف رسله الكرام، وأنبياءه العظام ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ [آل عمران:٤].

٣- الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء:

عرَّف الله عباده بنفسه، فأخبر في خاتمة الآية السابقة أنه عزيز ذو انتقام، وذكر في الآية التالية أن علمه محيط بجميع خلقه، لا يخفى على الله منهم شيء، لا في الأرض ولا في السماء، فهو يعلم كل أحوالنا، ويرانا ويشاهد الكبير منا والصغير، وأعلمنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه هو الذي يصورنا في الأرحام كيف يشاء، وقد توصل العلم البشري اليوم إلى معرفة بعضاً من العمليات الهائلة التي تجري في الرحم منذ أن تتحد بويضة المرأة بالحيوان المنوي إلى أن يصبح الجنين طفلاً كاملاً، فسبحانه الواحد الأحد، الذي يستحقُّ العبادة دون سواه، وهو العزيز، أي: القويُّ الغالب، الحكيم الذي يضع كلَّ شيء موضعه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ [آل عمران:٥-٦]. وقد حدَّثنا الله تبارك وتعالى عما يجريه في الأرحام في غير موضع من كتابه، كقوله

جنـــــة السـنـــــة

تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ [الزمر:٦].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - الله هو المعبود الواحد الذي لا يستحق العبادة أحدٌ سواه، فهو الذي يملك صفات الألوهية والربوبية، ومن ذلك أنه حيٌّ قيوم.

٢ - الله هو الذي أنزل كتبه على رسله هداية للناس للتي هي أقوم، وأعظم هذه الكتب ما أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن، وعلى موسى وهو التوراة، وعلى عيسى وهو الإنجيل.

٣- جميع الكتب التي أنزلها الله تبارك وتعالى تسمى فرقاناً، لأن المنزل عليهم يفرقون بها بين الخير والشر، والهدى والضلال، والصلاح والفساد.

٤ - الذين كفروا بآيات الله المنزلة من الأولين والآخرين، لهم عذاب شديد في يوم القيامة، وقد يوقع الله بهم العذاب في الدنيا.

٥ - الله عالم بخلقه، مطلع عليهم، لا يخفى عليه من أمورهم شيء، لا في الأرض ولا في السماء.

٦ - الله الذي يخلق عباده في الأرحام، ويصورهم فيها كما يشاء، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

٧- عيسى عليه السلام عبد مخلوق، خلقه الله في رحم أمه مريم كما يشاء، وأجرى عليه السنن التي أجراها على عباده، وإن كانت أمه قد حملت به من غير زوج.

جنـــــة السـنـــة

النص القرآني الثاني من سورة آل عمران
بعض آيات القرآن محكمات وأخر متشابهات

أولاً: تقديم

بيّن الله لنا في آيات هذا النص شيئاً من طبيعة هذا القرآن، فالقرآن الذي أنزله الله تعالى قسمان: **الأول**: الآيات المحكمات الواضحة في دلالتها على المقصود منها، وهذه الآيات هن أم الكتاب، أي: أصله الذي يرد إليه المتشابه. **والثاني**: الآيات المتشابهات، وهي التي تحتمل أكثر من معنى، وقد اتخذها أهل البدع من الباطنية والخوارج والمعتزلة وغيرهم سبيلاً لإثارة الفتن، بخلاف الراسخين في العلم الذين يؤمنون بها، فإن علموها وإلا وكلوا علمها إلى الله تبارك وتعالى.

وهذا النص أصل كبير في فقه القرآن وتفسيره.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الآيات المحكمات والآيات المتشابهات:

الإحكام والتشابه في القرآن نوعان: الأول: الإحكام العام، والتشابه العام. والثاني: الإحكام الخاص، والتشابه الخاص.

الأول: الإحكام العام والتشابه العام: أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن آيات القرآن كلها محكمات، قال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ [هود:١]، والمراد بالإحكام هنا في النظم والرصف، وأنها حقٌّ كلُّها، وصدق كلها، وهذا هو الإحكام العام، أي: الشامل لجميع آيات القرآن.

وكما أن آيات القرآن كلها محكمة، فهي أيضاً متشابهة كلُّها، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ ﴾ [الزمر:٢٣]. أي: يشبه بعضه بعضاً، ويصدق بعضه بعضاً، وهذا هو التشابه العام.

جنـــــة الســـــنة

الثاني: الإحكام الخاص والتشابه الخاص: وهذا نوع آخر من المحكم والمتشابه، وهو الذي تحدَّث الله عنه في قوله في آيات هذا النص: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران:٧].

والمراد بالآيات المحكمات في هذه الآية اللاتي هنَّ أم الكتاب الآيات البينات الواضحات الدلالة، التي يستوي في فهمها من يعلم العربية، لوضوح مفرداتها، وإتقان تركيبها، قال الراغب: «المحكم ما لا يعرض فيه شبهة من حيث اللفظ، ولا من حيث المعنى» [المفردات: ص١٢٨].

وقد وصف الله - تعالى - الآيات المحكمات بأنهن أمُّ الكتاب، أي: أصل الكتاب الذي يرجع إليه عند الاشتباه.

وأما الآيات المتشابهات فقال الراغب الأصفهاني في بيان المراد منها: «المتشابه من القرآن ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره، إما من حيث اللفظ أو من حيث المعنى» [المفردات: ٢٥٤].

٢- هل يُعرف معنى الآيات المتشابهات:

سبق أن بينت أن الآيات المحكمات هي الآيات المصاغة صياغة تدل على معنى واضح ظاهر بيِّن لا يختلف أهل العلم في فقه معناه، كقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [البقرة:١٦٣]، وقوله: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾ [طه:١٤]، وقوله: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ [المؤمنون:٩١]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ [الفرقان:٢] وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص:٣-٤]. ومن الآيات المحكمات قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝١٥١ ﴾ [الأنعام:١٥١] والنصوص المحكمات في القرآن كثيرة.

وقد جعل الله الآيات المحكمات أمَّ الكتاب، والمراد بالكتاب القرآن، أي جعلها أصله المعتمد عليه، وعلى ذلك فيجب ردّ المتشابه إليها.

والآيات المتشابهات هي التي تحتمل أكثر من معنى، وليست هي التي لا يعلمها أحد إلا الله تبارك وتعالى، فالقرآن كلُّه نزل بلغة العرب، وكلُّه معروف المعنى، وقد أمرنا الله تبارك وتعالى بتدبره كلِّه، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤﴾ [محمد:٢٤]،

جنـــــة السـنـة

وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:٨٢]،
وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون:٦٨].

فالآيات المحكمات والمشابهات كلها لها معانٍ، ومطلوب من العباد تدبر معانيها، وقد كان الصحابة يفقهون القرآن كلَّه، وكانوا يعلِّمونه لمن بعدهم، لا فرق في ذلك بين المحكم والمتشابه.

قال ابن تيمية: «فسَّر الصحابة للتابعين القرآن كما قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره، أقف عند كل آية منه، وأسأله عنها. ولهذا قال سفيان الثوري: «إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به» وكان ابن مسعود يقول: «لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لأتيته» وكل واحد من أصحاب ابن مسعود وابن عباس نقل عنه من التفسير ما لا يحصيه إلا الله» [مجموعة فتاوى شيخ الإسلام: ٥/ ١٠١].

٣- موقف العباد من المحكم والمتشابه:

ذمَّ الله الذين في قلوبهم زيغ، الذين يتبعون المتشابه، ويعرضون عن المحكم، ويجعلون المتشابه هو الأصل، ويفسرونه وفق ما يشتهونه، فيحرفونه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلونه عليها ابتغاء الفتنة، أي: لإضلال أتباعهم، وإيهامهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧].

وهؤلاء الذين في قلوبهم زيغ الذين يتبعون المتشابه هم أصحاب البدع والضلال من الخوارج والمعتزلة والشيعة وغيرهم، وأهل العلم إذا نظروا في هؤلاء عرفوهم باتباعهم للمتشابه بعيداً عن المحكم، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها، قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران:٧] قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمَّى الله فاحذروهم» [البخاري: ٤٥٤٧، مسلم: ٢٦٦٥] والذين خاطبهم الرسول ﷺ آمراً إياهم أن يحذروا هؤلاء، هم أهل العلم.

وهؤلاء الذين يتبعون المتشابه علمهم قليل، وجهلهم كثير، ومنهم الخوارج، وقد قال أولهم للرسول ﷺ وهو ذو الخويصرة اليماني عندما قدم على الرسول ﷺ وهو يقسم غنائم

جنـــــة الســـــنة

حنين: «يا رسول الله، اعدل» فقال له: «ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل، خبت وخسرت إن لم أكن أعدل».

لقد تعالم هذا الجاهل على رسول الله ﷺ، واتهمه في قسمة الغنائم، وعندما طلب عمر من الرسول ﷺ أن يأذن له بضرب عنقه، أمره أن يتركه، وأخبره أن لهذا الرجل أصحاباً جهلاء، وقال في وصفهم: «دعه، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة» [البخاري: ٣٦١٠، مسلم: ١٠٦٤].

وقد وصفهم الرسول ﷺ في حديث عليّ بن أبي طالب فقال: «يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة» [البخاري: ٣٦١١، مسلم: ١٠٦٦].

٤- موقف الراسخين في العلم من المتشابه:

بيّن الله في آيات هذا النص موقف الراسخين في العلم من المتشابهة، فهم يؤمنون بالمتشابه كما آمنوا بالمحكم، لأن مصدرهما واحد وهو الله، وهم يتدبرون آيات المتشابه كما يتدبرون آيات المحكم اهتداءً بما أمرهم الله من تدبره، فآيات القرآن كلها أنزلت بلغة العرب، وتُفْقَهُ وفق هذه اللغة، والله يحب مَنْ تدبر آيات كتابه، توصلاً إلى فقه معناها، وعليه أن يرد المشكل من هذه الآيات إلى المحكم، فإن لم يجد ما يزيل إشكاله آمن به ووكل علمه إلى الله.

وقد كان الصحابة إذا أشكل عليهم من القرآن آية سألوا عنها رسول الله ﷺ، فبينها لهم، فزال الإشكال، وعادت محكمة، وكذلك كان الناس بعد ذلك يسألون الراسخين في العلم عن المشكل من الآيات، فيزيلون الإشكال الذي فيها.

فمن ذلك، أن الرسول ﷺ قال: «ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك»، فأشكل ذلك على عائشة رضي الله عنها، فقالت: «يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق:٧-٨]» فقال رسول الله ﷺ: «إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب» [البخاري: ٦٥٣٧، مسلم: ٢٨٧٦].

وعندما نزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] قلنا: يا رسول الله، أينا لا يظلم نفسه؟ قال: «ليس كما تقولون، ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٣] بشرك: أولم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾

جنـــــــة الســـــــنة

[لقمان:١٣]» [البخاري: ٣٣٦٠، مسلم: ١٢٤]، فبيّن لهم أن المراد بالظلم في آية الأنعام هو الظلم الأكبر وهو الشرك، وليس هو ظلم الإنسان نفسه ببعض الذنوب.

٥- المراد بالتأويل الذي لا يعلمه إلا الله تعالى:

سبق أن بينت أن جميع آيات القرآن لها معنى لا فرق في ذلك بين المحكم والمتشابه، والمتشابه مع البيان والتوضيح يصبح محكماً، ولا توجد آية لا معنى لها، والمجهول الذي لا نعرف كيفية هو الآتي من المغيبات، وكذا ذات الله وأسمائه وصفاته.

وقد ذكر أهل العلم أن المراد بالتأويل الذي لا يعلمه إلا الله تعالى هو حقيقة الشيء التي يؤول إليها الكلام، فقد حدثنا الله عن الأخبار الغيبية الآتية وأشراط الساعة، كخروج الدجال، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، وأخبرنا عن قيام الساعة، وأخبرنا عن الحشر، وقيام الناس لرب العالمين، وسوق الكفار إلى النار، وسوق المؤمنين إلى الجنة، وحدثنا عما في النار من أهوال، وعما في الجنة من نعيم، فحدثنا عن أشجارها وثمارها وعيونها وأنهارها وقصورها وحورها، وكل ذلك نعلم معناه، ولكننا لا نعرف تأويله، أي: حقيقة ما يكون عليه.

وعلى ذلك فتأويل هذه الأخبار المغيبة التي ذكرها الله تعالى هو نفس ما أخبرنا الله عنها إذا جاءت تلك الأخبار، فنحن نعرف معنى ما حدثنا الله عنه اليوم، ولكننا لا نعرف كنهه وحقيقته حتى يكون يوم القيامة، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة:١٧]. وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» [البخاري: ٧٤٩٨، مسلم: ٢٨٢٤].

ومن التأويل الذي لا يعلمه إلا الله كيفية صفاته سبحانه وتعالى كاستوائه على عرشه، وسمعه، وبصره، وقوته، وعلمه، وقدرته، ونحو ذلك، فإن لصفاته معانيَ واضحة بيّنة في لغة العرب، أما كيفيتها وكنهها فلا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى، وقد قال الإمام مالك في تعريف الاستواء: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول» ومما يدلُّ على أن التأويل هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام قول يوسف عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:١٠٠] فجعل سجود أبويه له وسجود إخوانه الأحد عشر له هو تأويل رؤياه التي رآها قبل ذلك، وهو صغير.

ويدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٥٣] فتأويله هو وقوعه يوم القيامة على النحو الذي أخبر الله به في كتابه.

جنـــــة الســـــنة

هذا معنى التأويل في القرآن، وقد كان الأوائل من هذه الأمة يطلقون التأويل ويريدون به التفسير، فابن جرير الطبري عندما يريد تفسير الآية يقول: القول في تأويل هذه الآية من القرآن.

٦- دعاء الراسخين في العلم ربهم أن لا يزيغ قلوبهم:

أخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن الراسخين في العلم الذين يؤمنون بالمحكم والمتشابه الذي أنزل إليهم من عند الله يَدْعون ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران:٨] أي: لا تمل قلوبنا عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه، فلا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن، وهب لنا من عندك رحمة تثبت بها قلوبنا، وتزيدنا بها إيماناً ويقيناً.

وأخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن الراسخين في العلم يقولون في دعائهم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩﴾ [آل عمران:٩] أي: يا ربنا إنك ستجمع الناس ليوم ليس فيه ريب ولا شك، وذلك اليوم هو يوم القيامة، وسيجزي الله الذين في قلوبهم زيغ الذين ضَلّوا وأضَلّوا، وسيجزي الراسخين في العلم بإيمانهم واستقامتهم.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ منه آيات محكمات هن أم الكتاب، أي: آيات واضح معناها، ليس بها خفاء، ومنه آيات متشابهات، قد يخفى معناها، ويلتبس على بعض الناس.

٢- الذين في قلوبهم ميل عن الهدى يتركون المحكم، ويعملون رأيهم في المتشابه بغية إضلال عباد الله وفتنتهم، أما الراسخون في العلم فيؤمنون بالمحكم والمتشابه، ويردُّون المتشابه إلى المحكم.

٣- الآيات المتشابهات لها معنى في لغة العرب، ومطلوب تدبرها وفقهها، وأخطأ الذين ادعوا أن الرسول ﷺ والراسخين في العلم من الصحابة فمن بعدهم لا يعلمونها.

٤- التأويل في اصطلاح القرآن هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، كالذي حدثنا الله عنه في القيامة والجنة والنار، فحقيقة تلك الأخبار لا نعلمها إلا عندما يصير العباد إلى القيامة والجنة والنار.

جنـــــة السـنة

٥- كان الصحابة يسألون الرسول ﷺ عن المتشابه من آيات القرآن، فيبينه لهم، ويرفع عنهم المشكل من الآيات، ولا يزال الراسخون في العلم يُسألون عن المتشابه، فيظهرونه ويبينونه.

٦- على الراسخين في العلم أن يدعوا ربهم أن لا يزيغ قلوبهم كما أزاغ قلوب الضالين، ويطلبوا الهداية من رب العباد.

٧- سيجمع الله الذين في قلوبهم زيغ والراسخين في العلم يوم القيامة، ويجزي كل فريق بعمله.

جنـــــة الســـــــنة

النص القرآني الثالث من سورة آل عمران
سيُغلب الكفار ويحشرون إلى جهنم وبئس المهاد

أولاً: تقديم

كان الصراع محتدماً بين المؤمنين والكفار في العصر النبوي بعد الهجرة إلى المدينة، وكانت رحى الحرب دائرة بينهم، وقد كانت آيات القرآن تتنزل مهوِّنة من شأن الكفار، مثبتة لأنفس المؤمنين، فالكفار سيغلبون ويقهرون في الدنيا والآخرة، ولن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، وسيكونون وقود جهنم في يوم القيامة، وحالهم حال فرعون وقومه الذين دمرهم الله وأهلكهم.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾
كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل
لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ
ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ
مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لن تغني عن الكفار أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً:

كانت رحى الحرب دائرة بين المسلمين والكفار عندما كانت هذه الآيات تتنزل من عند الله تبارك وتعالى، وقد قرر الله - تبارك وتعالى - في الآية الأولى من هذا النص أن قوة الكفار إلى زوال واضمحلال، فما يملكه الكفار ويعتزون به من الأموال والأولاد لا يغني عنهم شيئاً، والله تبارك وتعالى قوي قاهر غالب، له جنود السموات والأرض ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [آل عمران:١٠].

وعدم إغناء الأموال والأولاد عن الكفار شيئاً هو في الدنيا والآخرة، قال تعالى مبيناً عدم إغناء الأموال والأولاد عن الكفار شيئاً في الدنيا: ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [التوبة:٨٥]، وما عند الكفار من مال وأولاد متاع قليل فانٍ زائل ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٧].

جنـــــة السـنة

وفي الآخرة يكونون هم وأولادهم الذين ساروا مسارهم وقود النار ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠﴾ [آل عمران:١٠] أي: يكون الكفار حطباً ووقوداً الذي تشعل فيه النار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨﴾ [الأنبياء:٩٨].

ويدلُّ على عدم انتفاع الكفار بأموالهم وأولادهم وسلطانهم يوم القيامة قوله تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢﴾ [المسد:٢]، وقوله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾ [الحاقة:٢٨-٢٩].

٢- حال الكفار حال واحد في الماضي والحاضر والمستقبل:

حال الكفار الذين قاتلهم المؤمنون في العهد النبوي حال فرعون وآله، وحال الذين من قبلهم من الكفار، كلهم كذَّبوا بالله ورسله وكتبه، فأخذهم الله بذنوبهم، فأهلكهم في الدنيا، كما أغرق فرعون وآله في اليم ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١١﴾ [آل عمران:١١]، والدأب: الحال والشأن، وأخْذ الله لهم بذنوبهم: إهلاكهم وتدميرهم، والله شديد العقاب، أي: عذابه شديد أليم موجع.

وضرب الله المثل بآل فرعون، لأن الخطاب مع اليهود، واليهود يعلمون ما حدَّثهم الله به في كتابهم عن إغراقه فرعون وقومه في البحر، وإنجائه موسى ومن معه من بني إسرائيل، وقد أصبح حال بني إسرائيل في العهد النبوي كحال فرعون وقومه في عهد موسى، فقد كفر بنو إسرائيل بمحمد ﷺ وكتابه كما كفر فرعون وآله بموسى وكتابه.

٣- أمر الله رسوله ﷺ أن يقول للكفار: ستغلبون وتحشرون إلى جهنم:

أمر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ أن يقول للكفار الذين اغتروا بأنفسهم وقُوَّتهم وأموالهم وأولادهم: ﴿سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٢﴾ [آل عمران:١٢]، قال ابن كثير: «ذكر محمد بن إسحاق بن يسار، عن عاصم بن عمر بن قتادة: أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب، ورجع إلى المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع، وقال: «يا معشر اليهود: أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً»، فقالوا: يا محمد، لا يغرنَّك من نفسك أن قاتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً [الأغمار: جمع غُمْر، وهو الجاهل الذي لم يجرب الأمور، ولم تحنكه التجارب] لا يعرفون القتال، إنك - والله - لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلقَ مثلنا، فأنزل الله في ذلك قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٢﴾ [آل عمران:١٢]». [ابن كثير: ٢/ ١٥، والحديث فيه ضعف].

جنـــــة الســــــنة

وقد خاض الرسول ﷺ وأصحابه القتال مع اليهود، فأخرج بعضاً منهم من ديارهم، وقتل بعضاً منهم في ديارهم، وفتح ديار آخرين منهم، وفرض عليهم الجزية، وكان ذلك مصداق قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران:١٢].

٤- ما جرى في بدر آية لمن يحسن التدبر والاعتبار:

لقد كان في النصر الذي أنزله الله على المسلمين في بدر عظة وعبرة لمن يحسن الاتعاظ والاعتبار بالوقائع والأحداث، ولكن اليهود تعالوْا واغتروا بأنفسهم، ولم يتعظوا بالواقعة التي وقعت ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران:١٣].

والمعنى: لقد كان لكم يا كفار بني إسرائيل آية عظيمة في واقعة بدر، فهناك التقى فئتان إحداهما تقاتل في سبيل الله، وهم محمد وأصحابه، والأخرى كافرة وهم مشركو قريش، وعندما التحم الفريقان رأى الكفار المؤمنين مثليهم، ولم يكن ذلك تخيلاً ولا تخرصاً، بل هو رأي العين، فقد أنزل الله ألوفاً من ملائكته يقاتلون مع المؤمنين، وكان الكفار يرون الملائكة يقاتلون مع المؤمنين على صورة رجال ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران:١٣] لقد أيد الله رسوله والمؤمنين معه بملائكته، وأحلّ بهم نصره، وفي ذلك عبرة لمن رزقه الله البصيرة والفهم.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الله - تبارك وتعالى - هو القوي الغالب، وسيغلب أعداءه من الكفرة والمشركين، ولن يستطيع الكفار بأموالهم وأولادهم أن يهزموا جند الله من المسلمين، ولذلك عندما كان المسلمون يحاربون في سبيل الله متوكلين على الله كان النصر حليفهم.

٢- الكفرة والمشركون مهزومون في الدنيا والآخرة، وسيجعلهم الله وقود النار في يوم الدين.

٣- مثل الكفار من اليهود والصليبيين والمشركين اليوم مثل فرعون وآله، كذبوا برسولي الله: موسى وهارون، وكذبوا بالتوراة المنزلة عليهما، فأهلكهم الله، وأغرقهم في البحر، ومصير الكفرة اليوم مصير فرعون وقومه.

جنـــــة السـنة

٤ - على المؤمنين أن يواجهوا الكفار بقوة وشدة، وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لكفار زمانه: ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد.

٥- ضرب الله المثل بالفريقين اللذين التقيا في حومة الوغى وميدان القتال، وهم الرسول ﷺ وأصحابه وكفار قريش في غزوة بدر، فأيد الله المؤمنين بنصره وأذلّ المشركين، وفي ذلك عبرة لأصحاب العقول.

٦- كان الكفار بعد التحام الفريقين في غزوة بدر يرون المؤمنين ضعف عددهم، ذلك أنهم كانوا يشاهدون الملائكة مع المؤمنين، فأوقع ذلك الرعب في قلوبهم.

جنـــــة الســــــنة

النص القرآني الرابع من سورة آل عمران
متاع الحياة الدنيا

أولاً: تقديم

عدَّد الله في آيات هذا النص الشهوات التي غرسها في قلوب عباده، وهي متاع قليل بالنسبة لنعيم الآخرة الدائم الخالد، الذي أعدَّه للأتقياء الذين آمنوا وكانوا من الصابرين الصادقين القانتين المنفقين الذين يتهجدون بالليل، ويستغفرون بالأسحار.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تزيين الله الشهوات للناس:

أخبرنا ربنا – جلّ وعلا – أنه زيَّن للناس حبَّ الشهوات، والمزين في هذه الآية هو الله تبارك وتعالى، لأنه هو الذي جَبَل العباد على حب هذه الشهوات، وغرسها في أعماق قلوبهم، لأن صلاح نفوسهم ومجتمعاتهم قائم على تحصيل العباد لهذه الشهوات، ولذلك ذمَّ سبحانه الذي حرّم هذه الزينة ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف:٣٢].

وقد حدثنا ربنا – تبارك وتعالى – حديثاً صريحاً أنه هو الذي خلق لنا هذه الزينة، وحدَّثنا عما فيها من المصالح والمنافع، فقال: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل:٥-٨].

جنـــــة الســــــنة

٢- لماذا خلق الله هذه الزينة في أعماق النفوس البشرية:

حدثنا الله عما زينه لعباده في أعماق نفوسهم، لأن في ذلك صلاحهم وصلاح مجتمعاتهم، ولو فقدت هذه الزينة التي حدَّثنا الله عنها فلن يقوم وجود للبشر فوق ظهر هذه الأرض، فلو خلق الله الرجال، ولم يخلق النساء، أو لم يخلق الذهب والفضة، أو لم يخلق الخيل المسومة والأنعام والحرث، فأنى تقوم حياة الإنسان، إن قيام حياة الإنسان فوق ظهر هذه الأرض على النحو الذي نراه ونشاهده لا تتأتى بدون هذه الزينة التي يندفع الإنسان إلى تحصيلها كي يمتد وجوده في ذريته، وتتم حياته بالمراكب من الخيل والإبل، ويوجد طعامه من الحيوان والنبات.

٣- كيف تدفع هذه الرغائب إلى تحقيق مطلوبها في الإنسان:

يجد الرجل في أعماق نفسه باعثاً قوياً للاقتران بالمرأة، فتنشأ عن ذلك الأسرة، التي تثمر الذرية من الأولاد والبنات، ويجد في نفسه الدافع لتحصيل الذهب والفضة كي يحقق بهما المصالح والمنافع، ويحصل على المراكب من الخيول والجِمال، ويحصل على الطعام من الحيوان والنبات والأشجار، ولو لم يغرس الله له حبَّ ذلك كله في أعماق نفسه، لم تسر حياته على النحو الذي خلقه الله عليه، ولكن يجب أن يأخذ المرء هذه الشهوات وفق ما شرعه الله وأباحه، بعيداً عن الزنا والربا والسرقة والغصب.

٤- أنواع الشهوات التي هي زينة الدنيا:

فصَّل الله القول فيما زينه لنا في الدنيا من شهوات، فقال: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [آل عمران:١٤].

والنص صريح في أن هذه الزينة هي للمؤمنين والكافرين على حدٍّ سواء، وأعظم الشهوات التي تهم القطاع الأعظم من الناس النساء، ولولا النساء، وما يأتي من الاتصال بهن من الذرية لخلت الأرض من سكانها، والذين يدعون إلى ترك الزواج يَدْعون إلى فناء الجنس البشري، والذين يدعون إلى الإباحية، وتواصل الرجال بالنساء بغير حدود ولا قيود يفسدون المجتمعات الإنسانية إفساداً يكاد يدمرها، والطريق الأمثل هو الزواج الذي يعفُّ به المرء نفسه وزوجه، وبه يتحقق إشباع الغريزة والفطرة، وتحصيل السكون النفسي.

ويأتي بعد شهوة النساء شهوة البنين، وهي شهوة قوية عارمة، وهي ثمرة الزواج الصحيح، فإذا وقع الاتصال بين الرجال والنساء من غير زواج، كان الأبناء الحصاد المرّ الذي تشقى به الأم، كما تشقى به الأمة.

جنـــــة الســـــنة

والشهوة الثالثة التي زيَّنها الله للناس القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والقنطار المال الكثير، والقنطار عند العرب اسم لأعظم المعايير التي يوزن بها، وتقول العرب: قنطر الرجل إذا بلغ ماله أن يوزن بالقنطار، وأصحُّ الأقوال في القنطار أنه ألف ومئتا أوقية [المحرر الوجيز، لابن عطية: ٢/ ١٧١].

وقوله: **المقنطرة**، أي: المضعَّفة، فالقناطير جمع، وهي ثلاثة، والمقنطرة تسع، وفي الحديث عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب» [البخاري: ٦٤٣٦، مسلم: ١٠٤٩].

والشهوة الرابعة: التي **زينها للناس** الخيل المسومة، وسمي الفرس بالخيل، لأنه يختال في مشيه، والمسوَّمة: الراعية في المروج والمسارح، وقال مجاهد: «المسوَّمة: المطهَّمة الحسان» [تفسير القرطبي: ٢/ ٤٠٧].

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله، فأطال لها في مرج،... ورجل ربطها تغنياً وستراً وتعففاً، لم ينس حقَّ الله في رقابها وظهورها، فهي له كذلك ستر، ورجل ربطها فخراً ورياءً ونِوَاء لأهل الإسلام، فهي وزر» [البخاري: ٣٦٤٦، وأخرجه مسلم مطولاً: ٩٨٧].

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ في الحديث الذي رواه عنه عبدالله بن عمر قال: «الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» [البخاري: ٢٨٤٩، مسلم: ١٨٧]. وفسَّر الرسول ﷺ الخير «بالأجر والمغنم» [البخاري: ٢٨٥٢، مسلم: ١٨٧٣].

وقد قلّت حاجة الناس إلى الخيل بعد اختراع السيارات والدبابات اليوم، ولكن لا يزال للناس بها حاجة، وهذا مصداق حديث رسولنا ﷺ أن فيها الخير إلى يوم القيامة.

والشهوة الخامسة التي زينها الله للناس هي: الأنعام، وهي: الإبل، والبقر، والغنم، والإبل عزٌّ لأهلها، والغنم بركة، ففي الحديث عن عروة البارقي يرفعه: «الإبل عزٌّ لأهلها، والغنم بركة» [سنن ابن ماجه: ٢٣٠٥، صحيح ابن ماجه: ١٨٦٦]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «الشاةُ من دوابِّ الجنة» [سنن ابن ماجة: ٢٣٠٦، صحيح ابن ماجه: ١٨٦٧].

والشهوة السادسة والأخيرة التي زينها لعباده هي الحرث، والحرث اسم لكلِّ ما يحرث، والناس يحرثون الأرض الخالية لزراعة الحبوب والنبات، كما يحرثونها ليزرعوها بالأشجار، لأجل الثمار.

جنـــــة السـنة

وهذه الشهوات الستة ذكر العلماء أنها تصير إلى أربعة أصناف من المال، كل نوع يتمول به صنف من الناس، فالذهب والفضة يتمول بها التجار، والخيل المسومة يتمول بها الملوك، والأنعام يتمول بها أهل البوادي، والحرث يتمول بها أهل السواد والقرى، وأما النساء والبنون ففتنة للجميع [تفسير القرطبي: ٢/ ٤٠٩].

٥- هذه الشهوات هي متاع الحياة الدنيا:

هذه الشهوات الستة التي زينها الله للناس هي متاع الحياة الدنيا، أي: يتمتع بها، ويستلذ بها، ثم تزول، وتفنى، والله عنده حسن المآب، أي: حسن المرجع في جنات النعيم في يوم الدين ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ۝١٤﴾ [آل عمران:١٤].

٦- نعيم الآخرة أفضل من زينة الدنيا:

أمر الله رسوله ﷺ أن يقول للناس: ﴿ ۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝١٥﴾ [آل عمران:١٥] وتوجيه السؤال مسلك تربوي، يثير السامعين لما يريد المعلم تعليمهم إياه، ويُذْهب عنهم الغفلة، ويدعوهم إلى حسن التفكر والاستماع.

قال لهم: هل أخبركم بخير من الشهوات التي زينتها لكم، وهذا يدلُّ على أن شهوات الدنيا هي من تزيين الله، لا من تزيين الشيطان، لأنه جعل نعيم الآخرة خير من متاع الدنيا، فلو كانت من الشيطان لما كان فيها خير، وهي خير للذين اتقوا عند الله، أي: الذين خافوا منه، وعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي: في الآخرة في جنات النعيم، فالأشجار وارفة الظلال، والأنهار تجري في تلك الجنات، ﴿أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ [محمد:١٥].

وهؤلاء الأتقياء خالدون في تلك الجنات، لا يرحلون عنها، ولا يتحولون منها، ولهم فيها أزواج مطهرة، أي: مطهرة من الأدناس والأرجاس، فلا حيض، ولا نفاس، ولا بصاق، ولا مخاط، ولا أمراض ولا أقذار.

وفوق ذلك كله، وأعظم منه رضوان الله تعالى، روى أبو سعيد الخدري قال: قال النبي ﷺ : «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربّ، وقد أعطيتنا ما لم تعطِ أحداً

جنـــــة الســـــــنة

من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا ربّ، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً» [البخاري: ٧٥١٨، مسلم: ٢٨٢٩]. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝١٥﴾ [آل عمران:١٥] أي: عالم بهم، ويعطي كل واحد منهم ما يستحقه.

٧- **الذين يستحقون نعيم الآخرة:**

عرَّف الله - تبارك وتعالى - بالأتقياء الذين يستحقون نعيم الآخرة الذي حدثنا عنه ربنا - تبارك وتعالى - فيما سبق، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ۝١٧﴾ [آل عمران:١٦-١٧].

هؤلاء الأتقياء الذين يستحقون تلك الجنات هم الذين يؤمنون بربهم تبارك وتعالى، فيقولون في دعائهم لربهم: ربنا إننا آمنا، ولا حرج أن يصرحوا بإيمانهم في مخاطبتهم لله عز وجل، طالبين رضاه، والذي لا يجوز هو إخبارهم العباد بإيمانهم لنيل الحظوة عندهم، وقد توسلوا إلى الله تعالى بإيمانهم ليغفر لهم ذنوبهم، فالذي يقول: اللهم اغفر لي ذنبي بإيماني بك، وإيماني برسلك وكتبك، وبطاعتي لك، ومحبتي لك، ونحو ذلك يكون محسناً، كما توسل الثلاثة الذين انطبقت عليهم صخرة في الغار، فتوسلوا إلى الله بصالح أعمالهم، فانفرجت الصخرة عن فم الغار وخرجوا يمشون [الحديث رواه البخاري: ٢٢١٥، مسلم: ٢٧٤٣].

وقد وصف الله هؤلاء الأتقياء الذين يستحقون جنات النعيم بأنهم صابرون، أي: في السراء والضراء وحين البأس، وصادقون في أعمالهم وأقوالهم، وقانتون، أي: مطيعون لله تبارك وتعالى، والمنفقون أموالهم في الوجوه التي شرع الإنفاق فيها، وهم يقومون الليل في الأسحار، والسحر آخر الليل، فيصلون، ويدعون ربهم، ويستغفرونه، ووقت السحر وقت حَرِيٌّ بالإجابة، روى أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له» [البخاري: ١١٤٥، مسلم: ٧٥٨].

وقد أثنى ربنا تبارك وتعالى على الأتقياء الذين يقومون بالليل متهجدين مستغفرين بالأسحار، فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ۝١٦ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝١٨﴾ [الذاريات: ١٥-١٧].

جنـــــة السـنـــة

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- زين الله للعباد حبَّ الشهوات، وذلك بأن خلقها في أعماق قلوبهم، وليس لهم غنى عنها.

٢- فصَّل الله القول في ذكر الشهوات التي زينها لهم، وهي ستة: النساء، والبنون، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة، والأنعام، والحرث.

٣- هذه الست التي ذكرها الله - تبارك وتعالى - هي المتاع الذي تقوم به حياة الإنسان في دنياه، وهي متاع قليل زائل، والله عنده حسن المآب، أي: المرجع في جنات النعيم.

٤- نعيم الآخرة أفضل من متاع الدنيا، فالأتقياء ينالون من الجنات والأنهار في الآخرة ما هو أفضل من نعيم الدنيا، فالدنيا متاعها قليل زائل، والآخرة نعيمها طيب كثير دائم.

٥- يحلُّ الله بأهل الجنة رضوانه، فلا يسخط عليهم أبداً.

٦- يستحبُّ أن يتوسل العبد إلى ربه بإيمانه وعمله الصالح كما توسل الذين مدحهم الله في هذه الآيات بإيمانهم طالبين أن يغفر الله لهم ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [آل عمران:١٦].

٧- الصفات الطيبة التي يتحلى بها الأتقياء المؤمنون هي من الإيمان، كالصبر والصدق والقنوت والإنفاق والاستغفار بالأسحار.

٨- على المؤمن الصادق أن يعتدل في طلب الدنيا، ولا يغرق في تطلابها، وليكن طلبه لها على حد قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة:٢٠١].

جنـــــة الســــــنة

النص القرآني الخامس من سورة آل عمران
شهادة الله وملائكته وأولي العلم على التوحيد

أولاً: تقديم

شهد الله تبارك وتعالى لنفسه في آيات هذا النص بالوحدانية، وشهد له بذلك ملائكته وأولو العلم، وهذا الذي شهد الله لنفسه به وملائكته وأولو العلم أعظم قضية على الإطلاق وهو توحيد الله، وقرر سبحانه أن الدين الحق الذي لا يقبل ديناً سواه هو الإسلام، وعلينا أن نلتزم به، وندعو الناس إليه، فإن قبلوه فقد اهتدوا، وإلا فقد أقمنا الحجة عليهم، والله حسيبهم.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم من سورة آل عمران

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ
﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ
بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ
وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا
عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ
وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- شهادة الله لنفسه بالوحدانية وشهادة ملائكته وأولي العلم له بذلك:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه شهد لنفسه بالوحدانية، وأنه هو المعبود الذي لا يستحقُّ العبادة أحد غيره، والشهادة تقوم على العلم، وهو سبحانه هو الأعلم بنفسه، فلا أحد أعلم منه بذاته ولا بأفعاله وصفاته، وقرن الله بشهادته لنفسه بالوحدانية بشهادة ملائكته وشهادة أولي العلم ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران:١٨].

والملائكة أعلم الخلق بالله تعالى، فهم أعظم اطلاعاً على آيات الله من البشر، وإيمانهم بالله أعظم من إيمان كثير من الناس، والراسخون في العلم الذين يعلمون آيات الله عندهم من المعرفة والعلم ما استحقُّوا به أن يقرن الله شهادتهم بشهادته، وتلك منقبة عظيمة وميزة فاضلة.

جنـــــة السـنـــــة

وقد شهد الله لنفسه بالتوحيد في حال قيامه بالقسط، أي: بالعدل، والقسط وضع الشيء موضعه، وأعظم العدل التوحيد، كما أن أعظم الظلم الشرك، ﴿قَآيِمًا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران:١٨].

وقد أكد التوحيدَ الذي شهد لنفسه به بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران:١٨]، أي: لا معبود يستحق العبادة إلا هو، وختم الآية باسمين عظيمين هما: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨﴾ [آل عمران:١٨] والعزيز: القوي الغالب، والحكيم، أي: في أقواله وأفعاله سبحانه.

٢- الدِّين الحق عند الله سبحانه هو الإسلام:

شهد الله تعالى لنفسه في الآية السابقة بأعظم حقيقة، وهي الوحدانية التي تفرد بها الله ربُّ العزة، وقرر لنا في هذه الآية حقيقة أخرى لها أثر عظيم في هداية الناس، فقرر أن الدين الصحيح عنده هو الإسلام، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩] وقرر الله سبحانه في موضع آخر أن كل من تدين بدين غير الإسلام، فلن يُقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾ [آل عمران:٨٥].

فإبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء كان مسلماً ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٣١﴾ [البقرة:١٣١] وأنبياء بني إسرائيل كانوا مسلمين يحكمون بالتوراة للذين هادوا ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة:٤٤].

وهذه الأمة أمة مسلمة، سماها إبراهيم عليه السلام بهذا الاسم ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج:٧٨] وسمانا إبراهيم عليه السلام بهذا الاسم وهو يرفع وابنه إسماعيل القواعد من البيت وهما يدعوان الله قائلين: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً﴾ [البقرة:١٢٨].

وقد جاء موسى عليه السلام بني إسرائيل بالإسلام، ثم جاء عيسى النصارى بالإسلام، ثم جاء محمد ﷺ البشر كلهم بما فيهم اليهود والنصارى بالإسلام، فاختلف اليهود والنصارى فيما بينهم في الحق لتحاسدهم وتباغضهم، وحملهم التحاسد والتباغض على مخالفة الحق الذي جاءهم من عند الله ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران:١٩].

جنـــــة السـنة

والذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى، والبغي: الظلم، أي: اختلفوا لأجل بغي بعضهم على بعض.

وقد تهدد الله اليهود والنصارى الذين اختلفوا في العلم الذي جاءهم من عند الله، فتركوه، وخالفوه بقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران:١٩] لقد كفروا بالحق الذي جاءهم من عند الله، وكفروا بآياته المنزلة على عبده ورسوله محمد ﷺ، وسيحاسبهم الله على هذا الكفر، وهو سريع الحساب، وسيسألهم عن ذلك في قبورهم، ثم سيحاسبهم على ذلك عندما يقوم الناس لرب العالمين.

٣- إقامة الحجة على الناس:

بيَّن الله لنا الموقف الذي علينا أن نقفه من اليهود والنصارى ومشركي العرب والناس كافة، فعلينا أن نعلن للناس الذين يحاجوننا في الدين، ويخاصموننا فيه أننا مسلمون ملتزمون بالإسلام ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران:٢٠] أي: فإن حاجَّك اليهود والنصارى في الدين، فقل لهم: إنني أسلمت وجهي لله ومن اتبعني.

ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لليهود والنصارى ومشركي العرب: أأسلمتم، وهذا القول هو دعوة لهم إلى الإسلام، فرسولنا ﷺ رسول عالمي مرسل إلى الناس جميعاً، وكما هو مرسل إلى العرب فهو مرسل إلى اليهود والنصارى، والناس جميعاً، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان:١]. وفي كتب السنّة في البخاري ومسلم وكتب السنن وغيرها أن رسولنا دعا الناس جميعاً إلى الإسلام، وأرسل الوفود والرسل إلى كسرى وقيصر وغيرهم من ملوك الأرض، فدعاهم إلى الإسلام، وفي الحديث عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموت، ولم يؤمن بي إلا كان من أصحاب النار» [مسلم: ١٥٣]، وعن جابر بن عبدالله الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ : «أعطيت خمساً لم يعطهنَّ أحد قبلي، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى كل أحمر وأسود» [مسلم: ٥٢١].

وعن أنس قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: «أسلم» فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم، فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار» [البخاري:٥٦٥٧].

جنـــــة الســـــنة

وكما خاطب الرسول ﷺ هذا اليهودي آمراً إياه بالإسلام، فأسلم، فإنه خاطب الناس جميعاً آمراً إياهم بالإسلام، فإن هم أسلموا فقد اهتدوا، وإن هم رفضوا وكفروا فقد أقام عليهم الحجة، والرسول ﷺ وأتباعه من بعده مطالبين بتبليغ هذا الدين للعالمين، والله بصير بالعباد الذين يستحقون الهداية، والذين لا يستحقونها ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران:٢٠].

٤- مصير الكفار النار وغضب الجبار وإحباط الأعمال:

لا تقف المواجهة بين المسلمين والكفار على الحجاج بالكلام، ولكن تصل المواجهة إلى درجة القتال وإزهاق النفوس، فكثير من بني إسرائيل كفروا بالله، وقتلوا أنبياء الله، ومنهم زكريا ويحيى، وحاولوا قتل عيسى عليه السلام فنجاه الله منهم، وقتلوا العلماء الذين يأمرونهم بالقسط، أي: بالعدل من التوحيد والأعمال الصالحة، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران:٢١] ومع التبشير بالعذاب الأليم في القبر والمحشر ثم النار يكون إحباط الأعمال، أي: بطلانها وفسادها في الدنيا والآخرة، ولن يكون لهم ناصر ينصرهم من عذاب الله وناره ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [آل عمران:٢٢].

وقد حاول الكفار من بني إسرائيل ومشركي العرب أن يقتلوا رسولنا ﷺ، تآمروا على قتله في الخفاء، فسحروه، وقدموا له شاة مسمومة، وأرادوا أن يلقوا عليه حجراً وهو جالس بجانب جدار بيت عندهم، وجيَّشوا له الجيوش، ولكن الله عصمه منهم، ونصره عليهم ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال:٣٠] وقال – تبارك وتعالى –: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ – إقامة أعظم دليل على أعظم قضية، فقد شهد الله كما شهد ملائكته وأولو العلم على أنه هو المعبود الذي لا يستحق العبادة إلا هو.

٢ – الدين الصحيح الذي يتعبد الله به الأولين والآخرين هو الإسلام، وذلك بأن يسلم المرء وجهه لله تبارك وتعالى.

جنـــــــة الســـــــنة

٣- اليهود والنصارى اختلفوا فيها بينهم بعد ما جاءَتهم الآيات المعرِّفة بالدين الحق، فضلُّوا وأضلُّوا.

٤- عرَّفنا الله بالموقف الحق الذي نقفه من اليهود والنصارى ومشركي العرب والناس جميعاً، فعلينا أن نعلن إسلامنا بلا خفاء، ثم ندعو غيرنا إلى الإسلام الذي نؤمن به.

٥- الذين ندعوهم إلى الإيمان إن آمنوا فقد اهتدوا، وإن كفروا فقد أقيمت عليهم الحجة، وسيحاسبهم رب العزة في يوم الدين.

٦- رسولنا ﷺ رسول للناس جميعاً، وهو يدعو الناس جميعاً للإسلام.

٧- يبلغ طغيان البشر إلى الكفر بالله، وقتل دعاة الله من الأنبياء وأهل العلم الذين يدعون إلى الله، وهؤلاء يستحقون عذاب الله، وعلى المؤمنين أن يبشروهم بهذا العذاب، ويخبروهم ببطلان أعمالهم.

٨- ليس للكفار من ناصر يحميهم من الله وعذابه وناره.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني السادس من سورة آل عمران
إعراض أهل الكتاب عن تحكيم كتاب الله الذي أنزل إليهم

أولاً: تقديم

عجّب الله رسوله ﷺ من حال فريق من أهل الكتاب في دعواهم أنهم من أتباع التوراة والإنجيل، ولكنهم إذا دعوا إلى تحكيم كتابهم فيما أوجبه عليهم، تولوا وأعرضوا، ووراء هذا الإعراض عن كتاب الله فرية افتروها في دينهم، فقد زعموا كاذبين أنهم يدخلون النار أياماً، ثم يخرجون منها، ويدخلون جنات النعيم، وقد قرر الحق تبارك وتعالى أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى يحاسبون كما يحاسب غيرهم على أعمالهم.

وزعم اليهود كاذبين أن الملك باقٍ فيهم إلى يوم الدين، لا ينزعه منهم أحد، وقد علّم الله رسوله ﷺ دعاء يدعو به ربه، يخبر الله في هذا الدعاء أنه هو مالك الملك، يهب الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، وأخبر أنه كما يصرِّف الملك في عباده، فإنه يصرف شؤون الكون، فهو يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحيَّ من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويرزق من يشاء بغير حساب.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تعجيب الله رسوله ﷺ من حال أهل الكتاب الرافضين لتحكيم كتاب الله:

لا تزال بقايا التوراة في أيدي اليهود، ولا تزال بقايا الإنجيل في أيدي النصارى، وقد عجّب الله رسوله محمداً ﷺ من حال الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، وهم اليهود والنصارى، والحظ الذي أوتوه من الكتاب بقايا التوراة والإنجيل التي لا تزال عندهم، وفي تعجيب الله رسوله ﷺ من الذين أوتوا نصيباً من الكتاب تعجيب لأتباع هذا الرسول ﷺ .

جنـــــة السـنـــــة

والأمر الذي عجَّب الله رسوله ﷺ منه أن اليهود يُدْعون إلى تحكيم التوراة فيرفضون، والنصارى يُدْعون إلى تحكيم التوراة والإنجيل فيأبون ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [آل عمران:٢٣] وإنما كان أمرهم عجباً، لأن الله أنزل الكتب من عنده ليتعبد الله عباده بها، وليطاع ما فيها من أوامر، ويجتنب ما فيها من نواهٍ، أما أنْ يدَّعوا أنها منزلة من عند الله، ويرفضون تحكيمها والعمل بها فإنه أمر عجب.

وقد كان اليهود والنصارى لا يقيمون حد الزنى لمن وجب عليه، وهو الرجم حتى الموت، وحفلت التوراة والإنجيل بالنصوص المبشرة برسولنا ﷺ، مطالبة من يؤمن بالتوراة والإنجيل باتباعه وطاعته، ولكنهم نكصوا وأعرضوا ورفضوا.

٢- السبب في عدم تحكيم اليهود والنصارى للكتاب المنزل إليهم:

أخبرنا الله - تبارك وتعالى - بالسبب الذي من أجله جفا كل من اليهود والنصارى كتابهم، فقد ادَّعى كلٌّ منهم أنهم أهل الجنة من دون الناس ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة:١١١]، وزاد اليهود في الفرية، فزعموا أنهم يدخلون النار أياماً، ثم يخرجون منها، وغرَّتهم هذه الفرية التي اخترعوها وافتروها، إذ جعلتهم يتهاونون في الالتزام بأحكام الكتاب ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران:٢٤].

٣- يجمع الله أهل الكتاب في يوم القيامة ثم يحاسبون على أعمالهم:

أخبرنا الله - تبارك وتعالى - أن حال اليهود والنصارى كحال غيرهم في يوم الدين، فالله - تبارك وتعالى - يجمعهم في ذلك اليوم، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [آل عمران:٢٥].

وقوله في أول الآية: ﴿فَكَيْفَ﴾ يدلُّ على أن الذين قالوا هذه المقالة غطت هذه الفرية على عقولهم، وسيظهر لهم يوم القيامة عندما يحاسبهم ربهم على أعمالهم أنهم كانوا كاذبين، وأن كفرهم سيخلدهم في النار.

٤- الله هو مالك الملك يصرفه في عباده كيف يشاء:

كان اليهود يظنون أن الملك باقٍ دائم فيهم، فأمر الله رسوله ﷺ أن يدعو ربه قائلاً: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران:٢٦] وقوله: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ معناها: يا الله، قال الزجاج: «قال

جنـــــة السـنة

الخليل وسيبويه وجميع النحويين الموثوق بعلمهم: إن ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ بمعنى يا الله، وأن الميم المشددة عوض من (يا) لأنهم لم يجدوا ياءً مع هذه الميم في كلمة» [معاني القرآن: ١/ ٣٩٤].

وقوله: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ أي: أن الملك بيده سبحانه في الدنيا، يصرفه في عباده كيف يشاء، فيؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعزُّ من يشاء، ويذلُّ من يشاء، ومن تصفح كتب التاريخ في القديم والحديث رأى مصداق ما حدثنا الله به في هذه الآية، فالدول كالأفراد، تنشأ وليدة، ثم ترتقي شيئاً فشيئاً، ثم تصبح في غاية القوة والعنفوان، ثم تتلاشى وتزول، وقد جاء الله بالإسلام، فأزال المسلمون عروش الأكاسرة والقياصرة، وامتدت الدولة الإسلامية، وانهارت عروش كثيرة، وحكم الخلفاء الراشدون، ثم جاء الأمويون والعباسيون، وأخيراً جاء العثمانيون، وزال العثمانيون، وجرت بعد ذلك خطوب وأهوال، وقدر الله ماض في عباده.

وكما يصرف الله الملك في عباده، فهو وحده مصرِّف الأمر في كونه، ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران:٢٧].

ومن تصريف الله كونه بإرادته أنه يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، فهما من جهة متعاقبان، ومن جهة أخرى يأخذ الليل من النهار، ثم يأخذ النهار من الليل، وقد يتعادلان.

وهو سبحانه يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، فهو سبحانه ينزل الماء من السماء، فيحيي الأرض بعد موتها ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [فاطر:٩] ونحن نشاهد الماء ينزل على الحبّ والنوى في باطن الأرض فتتشقق الأرض، وينبت الحبُّ، ويورق، ويخضر ويثمر ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنعام:٩٥] وهذا النبات الحي يخرج من الحب الميت، وصور الإحياء والإماتة في الأرض كثيرة، فمن النطفة والبويضة يخلق الإنسان، ومن البيضة الميتة تتكون الطيور، ومن الطيور الحية تكون البيضة.

ومن ألوان التصريف في الخلق أنه سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب، فيمدُّ بعض عباده بالمال الكثير، الذي لا يعدُّ، ولا يحصى، وقد يضيق على آخرين، كل ذلك وفق مشيئته وحكمته وتقديره.

جنـــــة الســـــنة

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - ذم الله أهل الكتاب الذين يرفضون تحكيم كتابهم، وهذا يشمل أهل الإسلام الذين حكَّموا القوانين الوضعية معرضين عن الشريعة الإسلامية.

٢ - السبب الذي جعل كثيراً من أهل الكتاب يعرضون عن تحكيم كتابهم هو دعواهم كاذبين أن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودات.

٣- يجري الله عدله على الناس جميعاً على حدٍّ سواء في يوم الدين حيث يحاسب الناس على أعمالهم خيراً كانت أو شراً، والكفار خالدون في النار.

٤ - الله يصرف الملك في الناس، فيعطي ويمنع، ويرفع ويضع، وهو الذي يصرِّف مراده في الكون، فيدخل الليل في النهار، والنهار في الليل، وهو الذي يخرج الحي من الميت، والميت من الحي.

٥ - الرزق بيد الله، ومنه يُطلَب، فيعطي الله من يشاء، ويقتر على من يشاء، وله في ذلك الحكمة البالغة، والتقدير العظيم.

جنــــــة الســـــــنة

النص القرآني السابع من سورة آل عمران
لا يجوز اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء من دون المؤمنين

أولاً: تقديم

المؤمنون الصادقون لا يتخذون الكفار أولياء وأنصاراً وأحباباً، فمن اتخذهم أولياء فقد أغضب الله، وتخلى الله عنه، والله عالم بالذين يتولون الكفار ويحبونهم، وسيحاسبهم في يوم القيامة، ومحبة الله لها طريق واحد هو التأسي والاقتداء برسول الله ﷺ، والمؤمنون المحبون لله يطيعون الله ورسوله ﷺ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - نهى الله المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين:

حدثنا الله تبارك وتعالى في آيات النص السابق عن الذين كفروا من أهل الكتاب الذين يرفضون تحكيم كتاب الله عندما يُدْعون إلى ذلك، وفي هذا النص «نهى الله المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم، إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين، أو يكون المؤمن في قوم كفار يخافهم، فيداريهم باللسان، وقلبه مطمئن بالإيمان، دفعاً عن نفسه من غير أن يستحلّ دماً حراماً أو مالاً حراماً، أو يظهر الكفار على عورة المسلمين، والتقية لا تكون إلا مع خوف القتل وسلامة النية» [تفسير البغوي: ٢/ ٢٦]، قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران:٢٨].

وتكون التقية المشروعة عندما يكون في المسلمين ضعف، فإذا أعزّ الله الإسلام والمسلمين فلا يجوز أن يستعمل المسلمون التقية، وقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران:٢٨] أي:

جنـــــة الســـــــنة

يخوفكم عقوبته على موالاة الكفار، وارتكاب المنهي عنه ومخالفة المأمور، وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران:٢٨] أي: المرجع والمآب إلى ربِّ العباد في يوم المعاد، فيحاسب الناس على ما قدَّموه، ومن ذلك موالاة الكافرين.

ونهي الله المؤمنين عن موالاة الكفار أصل عظيم، جاءت نصوص كثيرة مرهبة منه، قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:٥١] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾ [النساء:١٤٤].

وإنما نهى الله المؤمنين عن موالاة الكافرين، لأن الموالاة تفضي إلى حب المشركين ومباطنتهم، والإفضاء لهم بأسرار المسلمين، ولا يجوز موالاة الكفار، لأن الكفار أعداء الله، والمؤمن يحبُّ الله، ويكره أعداءه ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢].

٢- علم الله بما نخفيه وما نعلنه:

لما كانت موالاة المؤمنين الكفار قائمة على حبٍّ قلبي منغرس في أعماق القلوب، فقد رهَّب الله الذين يوالون الكافرين بإعلامهم بأنه يعلم ما يخفونه في قلوبهم، كما يعلم ما يبدونه ويظهرونه، وعلمه واسع محيط بالسموات والأرض وما بينهما وما عليهما، وهو على كل شيء قدير ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [آل عمران:٢٩].

ومتى استقر هذا المعنى في قلوب العباد، فإن نفوسهم ستنفر من موالاة الكافرين الذين نهى الله عن موالاتهم.

٣- يوم تجد كل نفس ما عملت من خير أو شر محضراً:

ذكَّر الله عباده المؤمنين بأنهم سيجدون ما عملوه من خير أو شر حاضراً في يوم الدِّين، كما قال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة:١٣] فإذا رأى الإنسان عمله الصالح في ذلك اليوم سرّ وابتهج، وإذا رأى أعماله السيئة تمنى لو أنه لم يعملها، وودّ لو أن بينه وبينها أمداً بعيداً ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران:٣٠]، وقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل

جنـــــة السـنــــة

عمران:٣٠] أي: يخوفكم عقابه، ومن رأفته بهم حذَّرهم نفسه، ومن رأفته سبحانه بعباده محبته أن يستقيموا على صراطه وطاعته، ويتبعوا رسوله ﷺ.

٤- علامة محبة الله أن نتبع رسول الله ﷺ :

قد يدَّعي كثير من الناس محبة الله تبارك وتعالى، وقد وضع لنا ربنا علامة تُظهر الصادق من الكاذب في دعواه أنه يحب الله، فقال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران:٣١].

أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لأصحابه وأتباعه من أمته: إن كنتم صادقين في دعواكم أنكم تحبون الله، فاتبعوني يحببكم الله، أي اقتدوا بي، وتأسوا بي، عند ذلك يكون حبكم صادقاً، ويحبكم الله تبارك وتعالى، أما الذين يدَّعون محبة الله من غير عمل ولا متابعة للرسول ﷺ فإن حبهم لله دعوى لا يقوم عليها دليل.

والذين يحبون الله، ويتبعون رسول الله ﷺ ، يحبهم الله - تبارك وتعالى - ويحظون بمغفرته لذنوبهم، والله غفور رحيم.

وختم الله آيات هذا النص بأمره عباده بطاعته وطاعة رسوله ﷺ ، ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ ﴾ [آل عمران:٣٢]، وتهدد الذين لا يطيعون الله ولا يطيعون الرسول ﷺ بأنهم يصبحون في زمرة الكافرين، والله لا يحب الكافرين ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [آل عمران:٣٢]، وإذا كان الله يكرههم فسيهلكهم في الدنيا والآخرة.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- حرّم الله على المؤمنين موالاة الكافرين، وتجوز موالاتهم تقية باللسان في حال كون القلوب مطمئنة بالإيمان إذا كان الكافرون غالبين ظاهرين.

٢- تهدد الله الذين يوالون الكافرين بإعلامهم أنه يحذرهم نفسه، وأنه سيحاسبهم في يوم الدين، وأنه يعلم ما يخفونه وما يعلنونه.

٣- الذي يدَّعي أنه يحبُّ الله، عليه أن يتابع النبي محمداً ﷺ ، فيحبُّه الله، وإلا كانت دعواه دعوى باطلة.

٤- يجب علينا طاعة الله وطاعة رسوله، باتباع ما جاءنا من عند الله، وترك ما نهينا عنه، ومن أبى طاعة الله وطاعة رسوله، فإنه يدخل في زمرة الكافرين المكروهين من رب العالمين.

جنـــــة السـنــــــة

النص القرآني الثامن من سورة آل عمران
قصة مريم ابنة عمران أم عيسى عليه السلام

أولاً: تقديم

لقد ضلَّ النصارى ضلالاً عظيماً عندما زعموا أن عيسى ابن الله، وقد حدثنا الله في آيات هذا النص عن الأسرة التي أنجبت عيسى عليه السلام، فجدُّ عيسى لأمِّه هو عمران، وقد نذرت امرأة عمران عندما حملت بمريم أن تجعل حملها متفرغاً لعبادة الله، قائماً على بيت الله، فلما وضعتها وجدتها أنثى، والأنثى يصعب عليها أن تقوم على المسجد، وقد سمتها مريم، وطلبت من ربها أن يحميها وذريتها من الشيطان الرجيم، فتقبلها ربها بقبول حسن، وأنبتها نباتاً حسناً، وكان عمران والد مريم قد مات وأمُّها حاملٌ بها، فكفلها نبيُّ الله زكريا، وكان زوجَ خالتها، وقد نشأها الله تنشئةً صالحة، وكان الله يمدُّها بالرزق من عنده في غير أوانه، وعندما سأل زكريا مريم عن مصدر الرزق الذي يجده عندها، قالت: هو من عند الله.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اصطفاء الله آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين:

أخبرنا الله - تبارك وتعالى - أنه ﴿ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران:٣٣] والله تبارك وتعالى يصطفي من الملائكة والناس ما يشاء، كما قال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج:٧٥] وقد ذكر الله في (سورة ص) أنبياءه أيوب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب، ثم قال فيهم: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [ص:٤٧]. والرسل والأنبياء جميعاً من

جنـــــة السـنــــة

المصطفين الأخيار، وليس الاصطفاء قصراً عليهم، فالله اصطفى من بني إسرائيل طالوت ملكاً، وقال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة:٢٤٧].

وفي آية هذا النص أخبرنا الله أنه اصطفى آدم وهو نبي مكلم، ونوحاً وهو نبي مرسل، وأخبرنا أنه اصطفى آل إبراهيم وآل عمران، وإبراهيم نبي مرسل، وهو أفضل الأنبياء والمرسلين بعد نبينا محمد ﷺ ، ويدخل في المصطفين الأنبياء والمرسلون من أولاده وأحفاده، وهم إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف، ومن جملتهم خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد ﷺ ، كما يدخل في المصطفين من آل إبراهيم زوجات إبراهيم وأحفاده، ومنهم الأسباط وهم يوسفُ وإخوته.

وأخبرنا تبارك وتعالى أنه اختار آل عمران ومنهم عمران والد مريم، وزوجته أم مريم، كما يدخل فيهم مريم أم عيسى، وهؤلاء جميعاً ليسوا بأنبياء، ويدخل فيهم أيضاً عيسى ابن مريم وهو نبي مرسل.

ولا شك أن هذا الاصطفاء ليس اعتباطاً، بل لخصائص وجدت في كل واحد من المصطفين الأخيار، كما قال تعالى في مريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ﴾ [آل عمران:٤٢] وكما قال في طالوت: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة:٢٤٧].

ولا شك أن الله حبا كل واحد من هؤلاء المصطفين الأخيار بمزايا وخصائص، كما قال الله لموسى عليه السلام : ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف:١٤٤] وكل الذين اصطفاهم الله - تبارك وتعالى - أخذوا هذا الدين، وقبلوه، وإن وقع منهم بعض الذنوب والمعاصي، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾ [فاطر:٣٢].

فالذين اصطفاهم الله منهم الذين ظلموا أنفسهم بالذنوب، ومنهم الذين اقتصروا على فعل الصالحات وترك السيئات، ومنهم السابقون بالخيرات.

والمصطفون الذين ذكرهم الله في آية هذا النص وهم آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران اصطفاهم الله على عالمي زمانهم، أما الرسل والأنبياء فأفضلهم أولو العزم من الرسل، وهم: محمد وإبراهيم ونوح وموسى وعيسى، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾ [الأحزاب:٧].

جنـــــة الســـــــنة

٢- المصطفون المذكورون في الآية ذرية بعضها من بعض:

أثنى الله - تبارك وتعالى - على هؤلاء المصطفين بأنهم ذريةٌ بعضها من بعض ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾ [آل عمران:٣٤] فعمران وآله من ذرية إبراهيم عليه السلام، وإبراهيم وآله من ذرية نوح عليه السلام، ونوح من ذرية آدم عليه السلام، وختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾ [آل عمران:٣٤] أي: سميع بأقوال العباد في هؤلاء المصطفين، وعليم بأفعالهم.

٣- امرأة عمران تُنذِر ما في بطنها لله:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن امرأة عمران نذرت ما في بطنها لله - تبارك وتعالى - ودعت ربها أن يتقبل منها ما نذرته ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥﴾ [آل عمران:٣٥] وعمران كان من أخيار بني إسرائيل في عصره، وهو العصر الذي كان فيه نبي الله زكريا، وبعد موت عمران جاء نبيّا الله يحيى بن زكريا، وعيسى ابن مريم، وكان عمران جدّ عيسى من قِبَل أمه.

وقد حملت زوجة عمران، ثم توفي عنها زوجها بعد حملها، وأخبرنا ربنا أن امرأة عمران نذرت لله ما في بطنها محرراً، أي: نذرته خالصاً لأمر الله، لا يشوبه شيء من أمر الدنيا، ونذرته ليقوم على أمر بيت المقدس، ويتفرغ لذلك، والذي يخلص دينه لله - تبارك وتعالى - هو الحر على وجه الحقيقة، أما الذين يعبدون أنفسهم لغير الله عز وجل، فهؤلاء عبيد المخلوقات من الأصنام والأوثان والبشر وغيرهم، وطلبت من رب العزة أن يتقبل منها نذرها، قائلة ﴿فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥﴾ [آل عمران:٣٥]. وهكذا الصالحون يعملون ويطلبون من الله أن يقبل عملهم، كما كان إبراهيم وإسماعيل يرفعان القواعد من البيت ويدعوان ربهما أن يتقبل منهما ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البقرة:١٢٧].

والدعاة الصادقون يعلمون أن الله يسمع دعاءَهم، وهو عليم بأفعالهم ونياتهم.

٤- امرأة عمران تضع أنثى:

أخبرنا الله - عز وجل - أن امرأة عمران وضعت حملها، فوجدتها أنثى ﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران:٣٦] وأخبر تعالى أنه: ﴿أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰ﴾ [آل عمران:٣٦] فالفوارق التي تفرق بين الذكر والأنثى بيّنة لا تخفى على أحد، وقالت في دعائها لربها: ﴿وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾ [آل عمران:٣٦].

جنـــــة السـنـــــة

إنها سمتها مريم، وطلبت من ربها أن يعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم، «والشيطان الرجيم: المطرود عن الخيرات وعن منازل الملأ الأعلى» [المفردات: ص١٩٠].

وقد استجاب الله دعاء امرأة عمران، فإن الشيطان ينخس جميع ولد آدم عند ولادتهم، حتى الأنبياء والأولياء إلا مريم وابنها، روى أبو هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من بني آدم مولود إلا يمسُّه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخاً من مس الشيطان، غيرَ مريمَ وابنِها» ثم يقول أبو هريرة: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾ [آل عمران:٣٦]، [البخاري: ٣٤٣١، مسلم: ٢٣٦٦].

٥- تقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً:

أخبرنا الله - تبارك وتعالى - أنه تقبل مريم ابنة عمران بقبول حسن، وأنبتها نباتاً حسناً، وهذا يدلُّ على أنها كانت جميلة الشكل مليحة المنظر، ووراء ذلك نفس طيبة صالحة ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا﴾ [آل عمران:٣٧]. ويوضح هذا القبول الحسن والإنبات الحسن قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾ [آل عمران:٤٢-٤٣].

وقد أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه كفَّلها نبي الله زكريا، وكان زوج خالتها، ففي صحيح مسلم عن أنس بن مالك في حديث الرسول ﷺ عن إسرائه إلى بيت المقدس، ثم العروج به إلى السماء، قال عندما فُتح له باب السماء الثانية: «فإذا أنا بابنيّ الخالة عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما، فرحَّبا بي، ودعوا لي بخير» [مسلم: ١٦٢]، قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾ [آل عمران:٣٧] وإنما كفلها زكريا، لأنَّ والدها كان قد توفي قبل ولادتها، فوُلدت يتيمة.

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً، فكان يتعجب، ويسألها من أين لها هذا الرزق، فتقول له: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧﴾ [آل عمران:٣٧]. والمحراب: أشرف موضع في المجلس، وهذا يدلُّ على أنها كانت تسكن سكناً طيباً شريفاً، «وقال مجاهد وعكرمة وسعيد ابن جبير وأبو الشعثاء وإبراهيم النخعي وقتادة والربيع بن أنس وعطية العوفي في الرزق الذي كان يجده زكريا عند مريم: فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف» [ابن كثير: ٢/ ٣٢]، وهذا الرزق الذي كان يصل إلى مريم على هذا النحو هو من كرامات الأولياء.

جنـــــة الســـــــنة

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- اختار الله واصطفى الأنبياء والرسل، وأخبر في الآية الأولى من هذا النص أنه اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين.

٢- هؤلاء المصطفون الأخيار تناسل بعضهم من بعض، فآل عمران من ذرية إبراهيم، وآل إبراهيم من ذرية نوح، ونوح من ذرية آدم.

٣- كانت مريم من أسرة طيبة صالحة، فوالدها عمران من خيار بني إسرائيل، وأمها امرأة صالحة، نذرت حملها لله، وقد تقبل الله نذرها وأنبتها نباتاً حسناً.

٤- ولدت مريم يتيمة، فكفلها زوج خالتها نبي الله زكريا، فكان يرعاها ويقوم على شؤونها.

٥- أجرى الله على مريم بعضاً من كراماته، فمن ذلك أنه كان يأتيها بفاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف.

٦- يجوز تسمية الولد في اليوم الأول الذي وُلد فيه، فقد سمت أم مريم مولودتها عندما وضعتها، وقد جاء في السنّة ما يدلُّ على ذلك، ففي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : «ولد لي الليلة غلام، فسميته باسم أبي إبراهيم» [مسلم: ٢٣١٥].

وفي الصحيحين أنه وُلد لأبي طلحة ولد، فأرسله أبو طلحة مع أنس بن مالك إلى رسول الله ﷺ في اليوم التالي، فحنّكه وسماه عبدالله [البخاري: ٥٤٧٠، ومسلم: ٢١٤٤].

ومن أراد أن يعقَّ عن مولوده فلا حرج عليه أن يؤخر التسمية إلى اليوم السابع، ففي سنن الترمذي بإسناد صحيح عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ : «الغلام مرتهن بعقيقته يذبح يوم السابع، ويسمى ويحلق رأسه» [الترمذي: ١٥٢٢، وقال فيه: هذا حديث حسن صحيح].

جنـــــة السـ‍ـــــنة

النص القرآني التاسع من سورة آل عمران
زكريا يطلب من ربه أن يهبه ذرية طيبة

أولاً: تقديم

كان نبي الله زكريا عليه السلام إذا دخل على مريم عليها السلام أيام كفالته إياها يجد عندها الرزق في غير أوانه، فيجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، فلفت هذا نظره وفكره إلى أن القادر على إعطاء الرزق في غير أوانه، قادر على أن يهب له الولد بعد أن وهن عظمه، واشتعل رأسه شيباً، وقادر أن يأتي بالولد من الزوجة العاقر التي كبر سنّها، فتوجه في الحال داعياً ربَّه أن يرزقه الذرية الصالحة، فاستجاب الله دعاءه، وقبِلَ رجاءه، وبشّره بيحيى عليه السلام، ولم يجعل له من قبل سمياً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في معاني آيات هذا النص من القرآن

١ - زكريا يبتهل إلى ربه أن يرزقه ذرية طيبة:

سبق أن بيّن الله تعالى في الآية السابقة أنّه كفّل نبي الله زكريا مريم، وأنه كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً، فلما سألها قائلاً: أنّى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

فأهاج هذا زكريا إلى أن يتوجه إلى الله طالباً منه أن يهبه من عنده ذرية طيبة ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران:٣٨] وقوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك الزمان وذلك المكان اللذين كان فيهما عند مريم من غير تقديم ولا تأخير، وكان زكريا قد كبرت سنُّه، ووهن عظمه، واشتعل رأسه شيباً، وكانت امرأته عاقراً، فنادى ربه بأن يهبه الذرية الطيبة، قال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ

جنـــــة السـنــــــة

نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم:٢-٦].

٢- استجابة الله دعاء نبيه زكريا:

أخبرنا ربنا - سبحانه وتعالى - أن الملائكة نادت زكريا وهو قائم يصلي في المحراب يدعو الله عز وجل، مخبرة إياه بأن الله استجاب دعاءه، وسيرزقه بغلام اسمه يحيى، وأخبرنا في سورة مريم أن هذا الاسم لم يُسَمَّ به أحد من قبله، وحددت الملائكة المنادية في هذا النص الصفات التي اختصّ الله بها يحيى ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران:٣٩] وقال في سورة مريم: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ [مريم:٧].

والكلمة التي يصدِّق بها يحيى هي عيسى عليه السلام، فإن الله خلق عيسى من مريم بأمره إياه أن يكون، فكان كما أراد الله من غير أن يكون له أب، والمراد أن يحيى صدَّق بعيسى، وآمن به، ولعله كان أول المؤمنين به.

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه جعل يحيى سيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين، والسيد الذي يسود قومه بما وهبه الله من المزايا، ومن ذلك عفته وتقاه وصلاحه وعلمه وحلمه، قال ابن عطية: «خصَّه الله بذكر السؤدد الذي هو الاعتمال في رضا الناس على أشرف الوجوه دون أن يقع في باطل، وهذا اللفظ يعم السؤدد، وتفصيله أن يقال: بذل الندى، وكفُّ الأذى، واحتمال العظائم» [المحرر الوجيز: ٢/ ٢١٠ بشيء من الاختصار].

وقوله: ﴿وَحَصُورًا﴾ أي: لم يجعل الله له ما يدعوه إلى وطء النساء في الحرام، فهو محصور ومعصوم عن الفواحش والقاذورات، ولكنه ليس ممنوعاً عن النساء في الحلال، وأخبرته الملائكة في بشراها له أنه سيكون نبياً من الصالحين، وهذا يدل على عظم ما بشَّرت به الملائكة زكريا، فهي بشرى بولد يكون نبياً.

٣- زكريا يتعجب من رزق الله له الولد وهو وزوجته على تلك الحال:

تعجب زكريا من رزق الله له الولد، وهو على تلك الحال، فسأل ربه قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران:٤٠]

جنـــــة الســـــنة

وقال في سورة مريم: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ ﴾ [مريم:٨]. فالمعتاد أن الإنسان ينقطع نسله في الكبر، والزوجة العاقر في شبابها تزداد عقراً في شيخوختها، والمرأة العاقر: هي التي لا يولد لها، ويقال ذلك للرجل والمرأة، فكان الجواب أنه قادر على كل شيء، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، إذا أراد شيئاً كان كما يريد، ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران:٤٠] وقال في سورة مريم: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ ﴾ [مريم:٩].

٤- زكريا يطلب من ربه آية تدلُّ على وقوع الحمل:

بعد أن جاءت زكريا البشرى بيحيى طلب من ربه أن يرزقه آية، والآية: العلامة ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ ﴾ [آل عمران:٤١]. وقال في سورة مريم: ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۚ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾ [مريم:١٠-١١]. جعل الله لزكريا آية، وهي حبسه عن كلام الناس، فلا يقدر عليه مدة ثلاثة أيام، لا لعيب وُجد فيه، فقد كان قادراً على التسبيح وذكر الله وقراءة التوراة، ولكنه إذا شاء تكليم الناس لم يقدر عليه.

وقوله: ﴿رَمْزًا﴾ فسَّرها في آية مريم بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ ﴾ [مريم:١١] والرمز في اللغة: حركة تُعْلِمُ بما في نفس الرامز، سواء أكانت الحركة باليد أو الرأس أو العين أو غيرها، وأوحى إليهم أشار إليهم بحركة يده.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- يستحب لمن منع من إنجاب الأولاد أن يلجأ إلى الله يدعوه أن يرزقه الذرية الطيبة كما فعل نبيا الله إبراهيم وزكريا عليهما السلام.

٢- الله قادر على أن يرزق الشيء في غير أوانه، فقد رزق الله مريم فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، ورزق زكريا الولد وهو شيخ كبير من زوجته الكبيرة، وقد كانت عاقراً في شبابها، ورزق مريم الولد من غير زوج، والله قادر على كل شيء، إذا أراد شيئاً كان.

جنـــــة الســـــنة

٣- إكرام الله لزكريا، فقد وهبه الولد في شيخوخته من زوجه الكبيرة العاقر، وكان الولد الذي وهبه إياه سيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين.

٤- استجاب الله لزكريا مرة أخرى، فجعل له علامة تدلُّه على أنه سيهبه الولد من زوجه العاقر، والآية تتمثل في منعه عن كلام الناس ثلاث ليالٍ سوياً، أي: من غير آفة، بينما هو قادر على ذكر الله وتسبيحه والثناء عليه.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني العاشر من سورة آل عمران
تبشير الله مريم بعيسى عليه السلام

أولاً: تقديم

بعد أن حدثنا ربنا - تبارك وتعالى - عن دعوة زكريا ربه أن يهبه الولد عندما رأى رزق الله لمريم الفاكهة في غير أوانها، عاد النص إلى مريم سليلة آل عمران التي أعاذها ربها وذريتها من الشيطان الرجيم، فحدَّثنا ربنا عن صفاتها الكريمة، وعما رزقه لها من الولد بكلمة منه من غير أب.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم من سورة آل عمران

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧)﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- فضل الصدِّيقة مريم ابنة عمران عليها السلام:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن ملائكته نادت مريم مبشرة إياها بأن الله اصطفاها، أي: اختارها، وطهَّرها، أي: من الشرك والكفر والذنوب والمعاصي، واختارها على نساء العالمين من الأولين والآخرين ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢)﴾ [آل عمران:٤٢].

وقد وردت عدة أحاديث تتحدث عن أفضل النساء المؤمنات في الأولين والآخرين، ومريم من هؤلاء، إن لم تكن أفضلهن، ففي البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال النبي ﷺ: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون» [البخاري: ٣٤٣٣، واللفظ له، ومسلم: ٢٤٣١].

جنـــــة السـنــــــة

وعن علي بن أبي طالب، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة» [البخاري: ٣٤٣٢، مسلم: ٢٤٣٠].

وفي الترمذي عن أنس قال: «حسبك من نساء العالمين مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسيا امرأة فرعون» [الترمذي: ٣٨٧٨، وقال: هذا حديث صحيح].

وهذه الأحاديث ذكر في مجموعها أن أفضل نساء العالمين أربع: مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة ابنة محمد ﷺ، والأظهر أن أفضلهن على الإطلاق مريم ابنة عمران، كما دلت عليه الآيات، والله أعلم.

٢- أمر الملائكة لمريم بالقنوت والسجود والركوع:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن الملائكة بعد أن بشَّرت مريم باصطفاء الله لها أمرتها بالقنوت لربها، والقنوت: طاعة الله عموماً، وطول القيام في الصلاة مع الخشوع خصوصاً، كما أمرتها بالإكثار من السجود والركوع ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران:٤٣]. والعلماء يقولون: إنه لم يكن في صلاة بني إسرائيل ركوع، فإن كان هذا صحيحاً، فإنَّ الركوع مما خص الله به مريم عليها السلام دون غيرها في ذلك الزمان، وهذه الأوامر التي أمرت الملائكة بها مريم تدلُّ على أنَّ التشريف يلازمه الاجتهاد في القيام بالتكاليف التي ترفع مقام العبد، وترضي عنه ربّه، وقد كان رسولنا ﷺ يطيل القيام من الليل، فتسأله عائشة عن إطالته القيام مع أن الله غفر له ما تقدم من ذنبه، فيقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً» [البخاري: ٤٨٣٧. ومسلم: ٢٨٢٠].

٣- ما أخبر الله به رسوله ﷺ هو من الغيب الذي أوحاه الله إليه:

المشار إليه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران:٤٤] إشارة إلى ما أوحاه إلى رسوله ﷺ فيما سبق من نذر امرأة عمران، ووضعها الأنثى، وتقبلها ربها بقبول حسن، وتكفيلها زكريا، وما كان يجده عندها من الرزق، ودعاء زكريا ربه، وما وهبه الله من الولد، كل ذلك من أنباء الغيب الصادق، وأنباء الغيب التي من عند الله هي من الإيمان بالغيب الذي أوحى به إلى رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة:٢-٣] ومن كذَّب بالغيب الصادق الذي أوحى الله به في كتابه فقد كفر بالله.

والوحي المذكور في قوله تعالى: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران:٤٤] هو الإعلام الخفي الذي كان يأتي به جبريل عليه السلام إلى رسولنا ﷺ، أو يلقيه في قلبه من غير أن يشعر به.

جنـــــة السـنـــــة

وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران:٤٤] إشارة إلى ما أعلم الله رسوله ﷺ به من التنافس بين الأخيار من بني إسرائيل، وفيهم زكريا، فقد تنافسوا فيها بينهم، كل منهم يريد أن يكون هو الكافل لمريم، حتى أدى بهم خصامهم إلى الاقتراع على ذلك، فألقوا سهامهم، فقرعهم زكريا عليه السلام، ففاز سهمه على سهامهم، وكانت خالة مريم هي زوج زكريا، فهو أولى بكفالتها منهم.

٤- بشارة الملائكة برزق الله لها ولداً من غير أب:

أخبرنا ربنا - عز وجل - أن الملائكة بشَّرت مريم ابنة عمران قائلة: يا مريم، إن الله يبشِّرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم، وسمى عيسى بالكلمة، لأن الله خلقه بكلمة ﴿كُن﴾ كما قال عز وجل: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران:٤٧].

وأخبرتها الملائكة أن هذا الولد الذي سترزقه ولد عظيم، له شأن عظيم، فهو وجيه عند الناس في الدنيا بما أعطاه الله من علم وحلم وفضل، وهو وجيه عند الله في الآخرة، وهو من المقربين عند الله في يوم الدين ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران:٤٥].

والمسح في لغة العرب: إمرار اليد على الشيء وإزالة الأثر عنه، ومسح الأرض ذرعها، وعبّر عن السير بالمسح كما عبر عنه بالزرع، وسمي عيسى عليه السلام بالمسيح لكونه مسح الأرض لأنه مشاها، أو لكونه يمسح ذا العاهة فيبرأ [المفردات: ٤٦٨].

والمسيح لقب لعيسى عليه السلام، وعيسى هو اسمه.

وقد أخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن الملائكة أخبرت مريم عليها السلام بأن الولد الذي بشرتها به المسمى بالمسيح عيسى ابن مريم له خاصية أنه يكلم الناس في المهد، أي: وهو صبي صغير، والمهد: المضجع الذي ينام فيه الطفل الصغير، وقال: ﴿وَكَهْلًا﴾ كي لا يظن ظان أنه يكلم الناس في الصغر، ولا يستطيعه في الكبر، فأخبرت الملائكة أنه يكلم الناس في المهد، كما يكلمهم في كبره، والكهل مرتبة في العمر تأتي بعد مرحلة الشباب وقبل الشيخوخة، وهي ما بين ثلاثة وثلاثين عاماً إلى الثانية والخمسين، وفي الآية أن عيسى بقي في الأرض إلى أن أدرك مرحلة الكهولة، ولم يدرك سن الشيخوخة ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران:٤٦].

وقد بيّن الله في سورة مريم الكلام الذي تكلم به عيسى في المهد، فبعد أن وضعته أمه، جاءت به قومها تحمله فقالوا لها: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ

جنـــــــة السـنــة

﴿ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩﴾ [مريم:٢٧-٢٩] عند ذلك تصدى عيسى لتبرئة أمه، والكشف عن حقيقة نفسه ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾ [مريم:٣٠-٣٢].

٥- مريم تدعو ربها سائلة إياه عن كيفية إعطائها الولد:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن مريم سألت ربها عن كيفية إعطائها الولد، مع أنها كانت غير ذات زوج، ولم يَمَسَّها بشر، أي: لم يعاشرها أحد من الرجال ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٧﴾ [آل عمران:٤٧].

وقد أجابها ربُّ العزة أنه أراد أن يخلق منها الولد وهي على هذه الحال، أي: من غير أن يكون لها زوج، فالله لا يعجزه شيء أراده، و﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٧﴾ [آل عمران:٤٧]. وإذا شاء شيئاً، وقال له: كن، فإنه يتشكل على النحو الذي أراده أسرع من لمح البصر ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۢ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾ [القمر:٥٠].

وقال - عز وجل - في سورة مريم: ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١﴾ [مريم:٢٠-٢١].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- مريم ابنة عمران أفضل نساء العالمين من الأولين والآخرين، ويدانيها في الفضل آسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة ابنة محمد ﷺ.

٢- أمرت الملائكة مريم بعد تبشيرها باصطفاء الله لها بالقنوت وهو طاعة الله، والقيام في الصلاة والسجود والركوع، وهذا مقتضى التكريم والتفضيل.

٣- ما حدثنا الله به عن أخبار امرأة عمران وزكريا ومريم هو من الغيب الصادق الدال على صدق الرسول ﷺ فيما جاء به.

جنـــــــة السـنة

٤- عندما ولدت مريم اقترع خيار بني إسرائيل أيهم يكفلها، والاقتراع منهج سليم جاءَت به الشريعة الإسلامية عند التنافس المشروع.

٥- بشَّرت الملائكة مريم بأن الله سيُخرج منها ولداً عظيماً من غير أب.

٦- سمَّى الله الولد الذي ستلده مريم المسيح ابن مريم، وسيكون وجيها في الدنيا والآخرة، وسيكون من المقربين، وسيكلم الناس في المهد وهو رضيع، ولن ينقطع عن الكلام وهو كبير.

٧- عندما استغربت مريم أن يأتيها ولد مع أنها ليس لها زوج، ولم يمسسها بشر، أخبرها الله أنه قادر على ذلك، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له: كن فيكون.

جنـــــة الســـــــنة

النص القرآني الحادي عشر من سورة آل عمران
المواهب والآيات التي أنعم الله بها على عيسى عليه السلام

أولاً: تقديم

حدّثنا الله تبارك وتعالى عن النِّعم والآيات التي أكرم بها عبده ورسوله عيسى عليه وعلى أمه السلام، فمن ذلك إيتائه الكتاب والحكمة، وتعليمه التوراة والإنجيل، وإقداره على أن يصنع من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وإبرائه الأكمه والأبرص وإحيائه الموتى بإذن الله، وغير ذلك مما ذكر الله تعالى في هذا النص، وكلُّ ذلك من الآيات المعجزات الدالات على أن الله أرسله للناس رسولاً، فهو عبد رسول، وليس بإله.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تعليم الله عيسى الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل:

أخبرنا ربنا - عزَّ وجلَّ - أنه علَّم عيسى عليه السلام الكتاب والحكمة، والكتاب هنا الكتابة، أي: الخطُّ باليد، ولا يجوز حمله على التوراة والإنجيل، لأنه نصّ عليهما في الآية، والحكمة إصابة الحق بالعلم والعقل، وعلَّمه مع الكتابة وإصابة الحق التوراة والإنجيل، والتوراة الكتاب الذي أنزله على موسى عليه السلام، والإنجيل الكتاب الذي أنزله على عيسى عليه السلام ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران:٤٨].

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه أرسل عيسى رسولاً إلى بني إسرائيل، وكان أول رسل بني إسرائيل يوسف بن يعقوب، وآخرهم عيسى ابن مريم.

جنـــــة الســـــنة

٢- الآيات التي أجراها على يديه:

أخبرنا ربنا - عزَّ وجلَّ - أن عيسى عليه السلام قال متحدثاً عن الآيات التي وهبه الله إياها، وأجراها على يديه، فمن ذلك أنه كان يصنع من الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه بشفتيه، فيصبح بإرادة الله ومشيئته طائراً من لحم ودم، ويحلق في الهواء كبقية الطيور بإذن الله ومشيئته.

ومن ذلك أن الله كان يشفي على يديه الأعمى والأبرص، وكان يحيي الموتى بإذن الله تبارك وتعالى، وكان يخبر الناس بما يأكلونه، وما يدَّخرونه في بيوتهم، أي: يخزنونه في منازلهم، وكلُّ هذا آيات دالة على صدق نبوته ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران:٤٩].

٣- تصديق عيسى لما بين يديه من التوراة:

أخبر عيسى عليه السلام قومه أنه بُعث مصدِّقاً لما بين يديه من التوراة، وجاءَهم بإحلال بعض ما حرَّمته التوراة، وأخبرهم أنه جاءَهم بآية عظيمة من عند الله دالة على صدقه، وهذا يوجب عليهم مخافة الله وتقواه وإطاعته فيما جاءَهم به، وقال لهم: إن الله هو ربي وربكم، وهذا يوجب عليهم عبادته وحده لا شريك له، وأعلمهم أن هذا هو الصراط المستقيم الذي يوصلهم إلى رضوان الله وجنته ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران:٥٠-٥١].

وهذا الذي ذكره الله عن عيسى عليه السلام يدلُّ على أنه عبد مأمور، وليس بإله - كما يزعم النصارى.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - علَّم الله عيسى عليه السلام الكتابة وإصابة الحق بالقول والفعل، كما علَّمه التوراة والإنجيل.

٢- أرسل الله عيسى رسولاً إلى بني إسرائيل، وأجرى على يديه كثيراً من الآيات المعجزات التي لا يستطيع البشر الإتيان بمثلها، وهي توجب على الناس الإيمان برسالته ونبوته.

جنـــــة الســـــنة

٣- كان عيسى ﷺ وكتابه الإنجيل مصدِّقاً لما بين يديه من التوراة.

٤- أحلَّ الله لبني إسرائيل في شريعة عيسى بعض ما حرّم عليهم في التوراة، وبقي بعض ما في التوراة محرماً، كالزنا والربا والخنزير.

٥- عيسى عبد رسول، وليس بإله ولا ابن الله، وما أجراه على يديه من إحياء الموتى، وشفاء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك بإذن من الله، فالله هو المحيي، وهو الشافي على يدي عيسى ﷺ .

٦- كانت التوراة موجودة كاملة من غير تغيير ولا تحريف ولا نقصان في عهد عيسى ﷺ ، فقد أخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن الله علَّمه التوراة وأنزل عليه الإنجيل.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الثاني عشر من سورة آل عمران
رفع الله عيسى ﷺ إلى السماء وتطهيره من الذين كفروا

أولاً: تقديم

يتضمن هذا النص بيان أمرين عظيمين: **الأول**: الإخبار عن الحواريين الذين حملوا رسالة عيسى إلى بني إسرائيل، وهم الأنصار الذين آمنوا بالله، وصدقوا رسول الله، ودعوا بني إسرائيل إلى هذه الرسالة الطيبة.

والثاني: أن الله رفع عيسى إلى السماء عندما تعاظم كفر الكافرين به من بني إسرائيل، فعزموا على قتله والفتك به، وقد طهَّره الله برفعه من الكافرين، وسينزل عيسى في آخر الزمان، فيبيد الكافرين به، حتى لا يبقى إلا دين الله الإسلام.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ
وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ
﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ
وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ
مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى
ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ
أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- حواريو عيسى ينصرون الله ورسوله:

دعا عيسى قومه، وبلَّغهم رسالة ربه على النحو الذي سبق، فآمنت به طائفة من بني إسرائيل، وكفرت طائفة أخرى، وتمالأت الطائفة الكافرة على قتله والفتك به، وأدرك عيسى ﷺ تصميمهم على ما تمالؤوا عليه، عند ذلك قال لأتباعه: من أنصاري إلى الله؟ ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:٥٢]. أي: من أنصاري إلى الله في حمل الدعوة ، كما كان رسولنا ﷺ يبحث عمن يؤويه حتى يبلّغ دين الله إلى الناس بعد أن كفر به

جنـــــة السـنة

قومه في مكة، فآمن به الأنصار، فهاجر إليهم فآووه ونصروه، ومنعوه من الأبيض والأسود والأحمر.

وهكذا فعل عيسى ﷺ دعا بني إسرائيل إلى نصرته، فآمن به الحواريون، وحملوا الدين معه، وآزروه ونصروه، وقد سمى رسولنا ﷺ ابن عمته الزبير حواريه عندما انتدب الصحابة في غزوة الأحزاب أن يأتوه بخبر القوم، فقال: «من يأتيني بخبر القوم» قال: الزبير: أنا. ثم قال: «من يأتيني بخبر القوم» قال الزبير: أنا. فقال رسولنا ﷺ : «إن لكل نبيٍّ حوارياً، وحواريّ الزبير» [البخاري: ٢٨٤٦، مسلم: ٢٤٥١، واللفظ للبخاري].

قال تعالى: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران:٥٢-٥٣] أخبر الله أن بعضاً من أتباع عيسى وهم الحواريون أعلنوا أنهم أنصار الله، آمنوا بالله وشهدوا له بالوحدانية، ولعيسى بالرسالة، وهم عازمون على حمل رسالته إلى بني إسرائيل، وطلبوا من عيسى ﷺ أن يشهد عليهم أو لهم بأنهم مسلمون، والإسلام دين الرسل جميعاً كما سبق بيانه.

وتوجهوا إلى ربهم قائلين: ربنا آمنا بما أنزلت من الحق، يريدون التوراة والإنجيل، واتبعنا الرسول، يريدون به عيسى ﷺ ، وقولهم: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران:٥٣] أي: من الشاهدين لك بالوحدانية، ولنبيك بالرسالة.

٢- إنجاء الله عبده ورسوله عيسى من كفار قومه الذين أرادوا قتله:

أخبرنا الله - تبارك وتعالى - أن الذين كفروا من بني إسرائيل مكروا بعيسى ﷺ ، ليقتلوه، وأصل المكر في اللغة: الاحتيال والخداع، ومكر الله باليهود الكفرة، فلم يمكِّنهم من قتله، ومكر الله بهم تحقَّق برفع عيسى ﷺ إلى السماء، وألقى شبهه على غيره، فقتلوا الشبيه، قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٥٧].

وبيَّن الله - تعالى - أنه مكر باليهود الذين أرادوا قتله فقال: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران:٥٤] وإنما كان الله خير الماكرين، لأنه أقواهم مكراً، وأنفذهم كيداً، وأقواهم على إيصال الضرر إلى من يريد إيصاله إليه من حيث لا يحتسب.

وقد ذكر الله لعيسى ﷺ قبل رفعه إلى السماء ما يريد فعله به، فقال: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران:٥٥].

جنـــــة السـنـــــة

حدثنا الله عزَّ وجلَّ أنه نادى عيسى عليه السلام مخبراً إياه أنه قال له: يا عيسى إني متوفيك، ورافعك إليّ، ومطهرك من الذين كفروا، والصواب من القول: أن المراد بالوفاة هنا النوم، فالوفاة في الاصطلاح القرآني تكون بالموت كما تكون بالنوم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام:٦٠]، وقال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ [الزمر:٤٢].

ولا يمكن حمل الوفاة في الآية على الموت لأمرين:

الأول: أن الله أكذب اليهود الذين زعموا أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم، وقرر أنهم لم يقتلوه، ولم يصلبوه، ولكن شبّه لهم، قال سبحانه: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ﴾ [النساء:١٥٧-١٥٨].

الثاني: أن عيسى ابن مريم سينزل آخر الزمان، فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويقتل الدجال، ويُؤَذِّن بالصلاة، ويحكم بالقرآن، وعند ذلك يؤمن به النصارى، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء:١٥٩] فدلت الآية أنه سيموت في الأرض بعد نزوله، وعلى ذلك فلو أنه أماته عندما رفعه إلى السماء، لكان كتب عليه الموت مرتين، وعلى ذلك فإن عيسى عليه السلام مرفوع إلى السماوات العلى، وهو حي فيها، وسيبقى حيّاً إلى أن يهبط إلى الأرض في آخر الزمان، روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والله لينزلنَّ ابن مريم حكماً عادلاً، فليكْسِرنَّ الصليب، وليقتلنَّ الخنزير، وليضعنَّ الجزية» [مسلم:١٥٥] وعن جابر بن عبدالله قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام، فيقول أميرهم: تعال صلِّ لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله لهذه الأمة» [مسلم:١٥٦].

وقوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران:٥٥] أي: إلى السماء، وقوله: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [آل عمران:٥٥] أي: مطهرك من الأدناس والأوساخ التي تَلَبَّسَ بها الذين كفروا وأخبره أنه سيجعل أتباعه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، ولا يصلح أن تكون الآية في النصارى الذين جعلوا عيسى ثالث ثلاثة، أو جعلوا عيسى هو الله أو ابن الله، لأن هؤلاء

جنـــــة الســـــنة

كفار، ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣]، ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:١٧].

والصواب من القول: أن المراد بالذين اتبعوه على الدين الحق، وقالوا في عيسى ما قاله الله فيه هم المسلمون من أمة محمد ﷺ الذين يقولون فيه: هو كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه، وهو عبد الله ورسوله ونبيه، وما جاء به من آيات من نفخه في الطين الذي يصنعه فيصبح طيراً، وإحيائه الموتى، وشفائه الأعمى والأبرص هي آيات معجزات أجراها الله على يديه، وهي من صنع الله، وبديع قدرته.

وقد ظهر دين الإسلام الذي كان عليه عيسى وجميع الرسل فوق كل دين، وحطمت الجيوش الإسلامية عروش الأكاسرة والقياصرة، وزالت الدول القديمة، وعلا منار الإسلام.

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه سيجمع الأولين والآخرين إلى يوم الدين، فيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، ومن ذلك اختلافهم في عيسى عليه السلام، فاليهود يقولون فيه: هو ابن زنا، والنصارى يقولون فيه: هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، ونحن المسلمين نقول فيه: إنه عبد الله ورسوله.

٣- مصير الكافرين ومصير المؤمنين:

بيّن الله في الآية السابقة أن مصير العباد إليه، فيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، والناس فريقان: الكافرون والمؤمنون ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [آل عمران:٥٦-٥٧].

أخبر الله - تبارك وتعالى - أن الذين كفروا بعيسى من اليهود والنصارى سيعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا، ومن ذلك تسليط عباده المؤمنين على الكافرين، ويكون عذابهم بالأسر والقتل والجزية والإهانة، وهذا ما وقع فعلاً من المؤمنين بهؤلاء الكافرين، ويعذبهم في الآخرة بأهوال المنشر والمحشر، والخلود في النار.

وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم في الدنيا بالنصر والتمكين، وفي الآخرة بالظفر بالجنات العاليات، خالدين فيها أبد الآبدين، وقرر في ختام الآية أن الله لا يحب الظالمين، والمراد بهم الكفار المجرمون.

جنـــــة الســـــنة

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ [آل عمران:٥٨] أي: هذا الذي قصصناه عليك من أخبار عيسى، وكيف أنشأه الله تبارك وتعالى وخلقه، وما أعطاه الله من آيات، وما جرى له مع قومه، ورَفْعُ الله له إلى السماء، وتطهيره من الذين كفروا، كل ذلك مما تلاه الله على عبده ورسوله محمد ﷺ من الآيات والذكر الحكيم.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ – عندما أحس عيسى عليه السلام كفر قومه به، وأنهم يريدون قتله دعا أتباعه إلى مناصرته في الدعوة إلى الله، فاستجاب له الحواريون، وآمنوا به، واتبعوه.

٢– أراد الكفرة من بني إسرائيل قتل عيسى عليه السلام ، فتوفاه الله بالنوم ورفعه إلى السماء، وطهَّره من الذين كفروا، وسينزله في آخر الزمان، فيقضي على الملة النصرانية الباطلة، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويقتل الدجال، ويحكم بالإسلام.

٣– أخبر الله أنه سيجعل المؤمنين القائمين بالحق فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، وهؤلاء هم أتباع عيسى على الحق من دينه، والمؤمنون من الأمة الإسلامية.

٤ – سيحكم الله بين الذين كفروا بعيسى من اليهود والنصارى وبين الذين آمنوا به، فالذين كفروا يعذبهم في الدنيا والآخرة، والذين آمنوا وعملوا الصالحات يأجرهم في الدنيا والآخرة.

٥ – امتنّ الله على رسوله بما تلاه عليه من الآيات التي حدثنا فيها عن عيسى عليه السلام وما جرى له فيما سبق.

جنـــــة الســــــنة

النص القرآني الثالث عشر من سورة آل عمران
مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب

أولاً: تقديم

قرر الله - تبارك وتعالى - في أول هذا النص أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم عليه السلام، فآدم عبد مربوب مخلوق، مع أنه لا أب له ولا أم، خلقه الله بيده من تراب، ثم قال له: كن، فكان كما يريده الله أن يكون.

ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يدعو زعماء وَفْدِ نَجْران الذين زعموا أن المسيح عيسى ابن الله إلى المباهلة، وصورتها أن يأتي رسولنا ﷺ بأبنائه ونسائه ويأتي زعماء الوفد بنسائهم وأولادهم، ويقفوا في مكان واحد، ثم يدعون الله طالبين منه أن ينزل لعنته على الكاذبين في أمر عيسى.

ولكن زعماء الوفد النجراني نكصوا وتراجعوا، ودفعوا الجزية، وأمر الله رسوله ﷺ في ختام هذا النص أن يدعو وفد نجران إلى التوحيد الخالص، وعبادة الله وحده، وهجران الكفر والشرك.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مثل عيسى عند الله كمثل آدم:

احتج النصارى على قولهم الباطل بأن عيسى عليه السلام هو ابن الله - تعالى الله عما يقولونه علواً كبيراً - بأنه ليس له أب، وقد بيّن الله لهم بطلان هذا القول بقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران:٥٩] فعيسى عليه السلام خلق من

جنـــــة الســـــنة

أنثى من غير أب، وآدم ﷺ خلق من تراب من غير أب ولا أم، وكلاهما مخلوق لله عز وجل، خُلق كما يريده الله تبارك وتعالى.

فإذا كان عيسى ابن الله لكونه خلق من غير أب، فآدم ﷺ أولى بأن يكون إلهاً أو ابن الله، لكونه لا أب له ولا أم، والنصارى يعتقدون في آدم أنه عبد مخلوق، فأولى بهم أن يعتقدوا بأن عيسى عبد رسول.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [آل عمران:٦٠] أي: هذا هو القول الحق الكائن من عند الله في أمر عيسى ﷺ ، فلا تكونن من الشاكين في أمره.

٢- دعوة النصارى إلى المباهلة:

جاء وفد نصارى نجران إلى المدينة المنورة وحاجُّوا الرسول ﷺ في شأن عيسى مدَّعين أنه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، فأقام الرسول ﷺ عليهم الحجة، وضرب لهم المثل بآدم ﷺ ، وهو يقول فيه: إنه عبد نبي، مع أنه خلق من غير أب ولا أم.

فلما ازداد ذلك الوفد حجاجاً وخصاماً بعد أن أقام الرسول ﷺ الحجة عليهم دعاهم الرسول ﷺ إلى المباهلة كما أمره الله في هذه الآية قائلاً: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران:٦١].

وقد جاء رسولنا ﷺ معه بحفيديه من فاطمة، وهما الحسن والحسين، وجاء بعلي وفاطمة تمشي خلفهم، وروى مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ [آل عمران:٦١] دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فقال: «اللهم هؤلاء أهلي» [مسلم: ٢٤٠٤].

وطلب الرسول ﷺ من زعماء النصارى أن يبرزوا للمباهلة، فتراجعوا خوفاً أن تصيبهم دعوة الرسول ﷺ ، وتصيب عقبهم، ففي صحيح البخاري عن حذيفة قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله يريدان أن يلاعناه، فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبياً فلاعنَّا، لا نفلح نحن، ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال: «لأبعثنَّ معكم رجلاً أميناً حقَّ أمين»، فاستشرف له أصحاب رسول الله، فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح»، فلما قام، قال رسول الله : «هذا أمين هذه الأمة» [البخاري:٤٣٨٠].

جنـــــة الســـــــنة

ونجران التي دعا رسول الله ﷺ وفدها إلى المباهلة، فنكصوا، «بلد كبير على سبع مراحل من مكة المكرمة إلى جهة اليمن، كان يشتمل على ثلاث وسبعين قرية، مسير يوم للراكب السريع» [فتح الباري: ٨/ ١٨].

والقارئ النبيه يعلم أن هؤلاء الذين نكصوا عن المباهلة، إنما فعلوا ذلك لعلمهم بأن محمداً رسول حقاً، فخافوا على أنفسهم وذراريهم أن تصيبهم دعوته. «وخصَّ الأبناء والنساء، لأنهم أعزُّ الأهل، وألصقهم بالقلوب، وربما فداهم الرجل بنفسه، وحارب دونهم حتى يقتل، ومن ثمة كانوا يسوقون مع أنفسهم الظعائن في الحروب، لتمنعهم من الهرب، ويُسمون الذادة عنهم بأرواحهم حماة الحقائق، وقدّمهم في الذكر على الأنفس، لينبه على لطف مكانهم، وقرب منزلتهم، وليؤذن بأنهم مقدمون على الأنفس مفدون بها» [الكشاف: ١/ ٤٣٤].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران:٦١] بيان لما يقال في المباهلة.

٣- ما قصّه الله في أمر عيسى عليه السلام هو القصص الحق:

أخبرنا الله تعالى أن ما قصّه علينا في شأن عيسى هو القصص الحق ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [آل عمران:٦٢-٦٣].

فعيسى عليه السلام هو عبدالله ورسوله، خلقه كما خلق آدم، فليس هو كما يقول اليهود ابن زنا، وليس هو كما يقول النصارى ابن الله، أو هو الله أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عما يقولونه علواً كبيراً.

والقصص جمع واحده قصَّة، والقصة في لغة العرب الأخبار المروية، والأنباء المحكية، وقد سمى الله ما حدثنا به عن أنباء الغابرين قصصاً، وأصل القصص عند العرب تتبع الأثر، فالعليم بالآثار يسير وراء ما يريد معرفة خبره، ويتتبع أثره، حتى ينتهي إلى موضعه الذي حلّ فيه، سميت حكاية الأخبار قصصاً، لأن القاص يتتبع أحداث القصة كما وقعت، ويتتبع ألفاظها ومعانيها، ولذا لا يكون المرء قاصّاً حقاً إلا إذا جاء بأحداث ما يرويه على وجهه الذي وقع عليه، ويرى أهل العلم والأدب أن القصة لون خاص من الأخبار ذو طبيعة خاصة، وعلى ذلك فكل قصة خبر، وليس كل خَبَرٍ قصة، وعرَّفوا القصة بقولهم: «فن حكاية الحوادث والأعمال بأسلوب لغوي ينتهي إلى غرض مقصود» [صحيح القصص النبوي، ص١١ بشيء من الاختصار].

جنـــــــة الســـــــنة

وما قصَّه ورسوله ﷺ الله علينا كلُّه حق، بخلاف قصص البشر، فقد يكون حقاً وقد يكون باطلاً، وقد يكون مخلوطاً، وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٦٢] معناه: لا يوجد معبود يستحقُّ العبادة إلا الله تبارك وتعالى، وغيره من الآلهة المعبودة كالشمس والقمر والنجوم والأصنام معبودات باطلة، ومن الآلهة الباطلة ما ادعاه النصارى في عيسى ﷺ أنه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، وعيسى ﷺ لا يرضى بهذا التأليه ويكفر به.

وقوله في ختام الآية: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٢﴾ [آل عمران:٦٢] العزيز: القويُّ الغالب الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، والحكيم، أي: في قوله وعمله، فهو أحكم الحاكمين سبحانه.

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝٦٣﴾ [آل عمران:٦٣] أي: إن أعرضوا عن الحق الذي قررناه، وهو وحدانية الله سبحانه، فهؤلاء مفسدون بأقوالهم وأعمالهم ولا أفسد من الذين زعموا أن عيسى هو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، ولفساد قولهم وعظمه تكاد السموات والأرض أن ينفطرن ويتشققن ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾ [مريم:٨٨-٩٢].

٤- دعوة مشركي أهل الكتاب إلى توحيد الله تعالى:

أمر الله تبارك وتعالى رسوله محمداً ﷺ أن يدعو أهل الكتاب إلى كلمة سواء بينه وبينهم، تؤدي هذه الكلمة إلى عبادة الله وحده، والانتهاء عن الشرك بالله تعالى، والانتهاء عن عبادة العباد ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٦٤﴾ [آل عمران:٦٤].

والكلمة التي أمر الله رسوله ﷺ أن يدعو إليها وفد نجران هي كلمة التوحيد، وهي لا إله إلا الله، وهي أعظم كلمة، والقضية التي تحملها أعظم قضية، ولذلك وصفها بأنها ﴿سَوَآءٍ﴾ أي: عدل، فالإيمان بوحدانية الله أعدل شيء في الوجود كلِّه، وهذه الكلمة تجعل الناس كلهم متساوين، أي: كلهم عبيد الله الواحد الأحد.

جنـــــة السـنــــــة

والدعوة إلى هذه الكلمة هي دعوة جميع الرسل الذين أرسلهم الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

ومع أن هذه الآيات من سورة آل عمران نزلت في وفد نصارى نجران الذين وردوا المدينة، إلا أن الخطاب في الآية موجه إلى جميع أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وقد أرسل رسول الله ﷺ خطاباً إلى قيصر الروم يدعوه إلى الإسلام، وفيه هذه الآية، وهي: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ...﴾ الآية [آل عمران:٦٤] [البخاري: ٧، ٤٥٥٣، مسلم: ١٧٧٣].

وقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:٦٤] هذا تفسير للكلمة السواء، التي تقضي بتوحيد الله بعبادته وحده لا شريك، ورفض عبادة الأوثان والأصنام والصلبان والنجوم والنيران.

وقوله: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٦٤] وقد كان النصارى ولا يزالون يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، فقد عبدوا المسيح عيسى إلهاً من دون الله، وكانوا ولا يزالون يتخذون رهبانهم أرباباً يحلون ويحرمون ويشرعون لهم خلاف ما شرع الله.

وقوله في ختام الآية: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران:٦٤] أي: إن رفضوا ما دعوتهم إليه، فقولوا لهم موبخين لهم ومهددين: اشهدوا بأنا مسلمون، وسنصير وإياكم إلى الله، فترون عاقبة توليكم.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- استحباب مناظرة الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، كما ناظر رسولنا ﷺ وفد نصارى نجران، وناظر اليهود، وغيرهم، وهذه المناظرات لإقامة الحجة عليهم، ودعوتهم إلى الإسلام.

٢- رفع النصارى عيسى من مرتبة العبودية إلى مرتبة الألوهية، فأشركوا بالله تعالى ما لم ينزل به سلطاناً.

٣- أعظم ما ندعو الناس إليه توحيد الله تبارك وتعالى، وعبادة الله وحده، وترك الأصنام والأوثان والنيران كما نصت الآية الأخيرة على ذلك في هذا النص.

٤- جواز مباهلة الكفار الذين يفترون على الله الكذب، كما أمر الله رسوله ﷺ زعماء وفد نجران إلى مباهلته، فنكصوا، وقد بقي أهل العلم من هذه الأمة على استعداد دائماً وأبداً للمباهلة.

جنـــــة الســــــنة

النص القرآني الرابع عشر من سورة آل عمران
ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً

أولاً: تقديم

خاصم اليهود والنصارى نبينا محمداً ﷺ بالباطل في شأن إبراهيم عليه السلام، فادَّعت كل طائفة منهم أن إبراهيم على دينه وطريقته، وادعى هذه الدعوى مشركو العرب، فأكذبهم الله تعالى، وقرر أن إبراهيم ما كان يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده:

نادى الله تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى منكراً عليهم دعوى كلٍّ منهم أن نبي الله إبراهيم عليه السلام كان على دينه ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [آل عمران:٦٥].

والرد على شبهتهم التي أوردوها أن التوراة المنزلة إلى اليهود، والإنجيل الذي أُنزل إلى النصارى منزلان بعد إبراهيم عليه السلام بعصورٍ طويلة، فليس فيهما ما يدلُّ على دعواهما، ولذلك خاطبهم منكراً عليهم قائلاً: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [آل عمران:٦٥].

وقد أنكر الله عليهم هذه الدعوى الباطلة في سورة البقرة في قوله: ﴿ أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ ﴾ [البقرة:١٤٠].

جنـــــة الســــــنة

٢- إنكار الله على اليهود والنصارى محاجتهم فيما ليس لهم به علم:

قال الله لليهود والنصارى: هاأنتم حاججتم فيما لكم به علم من أمر دين كل منكم، مما تضمنته التوراة والإنجيل، فلم تحاجُّون فيما ليس لكم به علم من أمر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، والله تبارك وتعالى هو العالم بحال هؤلاء، وما كانوا عليه من دين، وأنتم لا تعلمون، قال تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [آل عمران:٦٦].

٣- كان إبراهيم عليه السلام حنيفاً مسلماً:

نفى الله - تبارك وتعالى - أن يكون إبراهيم عليه السلام يهودياً أو نصرانياً، وأخبرنا أنه كان حنيفاً مسلماً، والحنيف المائل عن الأديان الباطلة، المستقيم على الدين الحق وهو الإسلام، بعيداً عن الشرك وعبادة غير الله من الأوثان والأصنام والنيران، وعبادة الشمس والقمر والنجوم ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران:٦٧]، وقال الله سبحانه في سورة البقرة مقرراً ملة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [البقرة:١٣٥]، وقال في سورة النحل: ﴿ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ ﴾ [النحل:١٢٣].

٤- أولى الناس بإبراهيم عليه السلام:

أعلمنا ربنا - تبارك وتعالى - أن أولى الناس بإبراهيم الذين اتبعوه في حياته أو بعد مماته، فقد اتبعه في حياته نبي الله لوط ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ ﴾ [العنكبوت:٢٦] وزوجته سارة، ومملوكته هاجر، وأولاده إسماعيل وإسحاق، ويعقوب بن إسحاق، وأولاد يعقوب وهم اثنا عشر ولداً، وهم الأسباط، وكلُّ من جاءَ بعدهم من ذرية إسماعيل، ويدخل في زمرة الذين هم أولى به نبينا محمد ﷺ، والذين آمنوا به ﴿ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [آل عمران:٦٨].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من عمل وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- دعوى اليهود والنصارى أن إبراهيم عليه السلام كان على دين كل واحد منهم دعوى باطلة كاذبة.

جنـــــة السـنة

٢- نبي الله إبراهيم ﷺ كان حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين.

٣- محاجة اليهود والنصارى في شأن إبراهيم ﷺ محاجة قائمة على الجهل، فليس عندهم علم بأنه كان يهوديًّا أو نصرانيًّا.

٤- أولى الناس بإبراهيم الذين اتبعوه، في حياته، وبعد موته، وهم الذين اتبعوه على طريقته حنفاء مسلمين، وهذا النبي الذي هو محمد ﷺ، والذين آمنوا معه.

٥- لا يجوز لمن كان يتقي الله - تبارك وتعالى - أن يجادل في أمر من الأمور المتعلقة بالدين إن لم يكن عنده حجّة من الله أو من رسول الله ﷺ.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الخامس عشر من سورة آل عمران
جهود زعماء وعلماء اليهود والنصارى في إضلال المسلمين

أولاً: تقديم

في آيات هذا النص بيان لما انغرس في قلوب اليهود والنصارى من رغبة عارمة في إضلال المسلمين، ومع أن علماءهم يعلمون في قرارة نفوسهم أن الإسلام حقٌّ، ومحمداً حقٌّ، إلا أنهم يكتمون هذا الحقَّ، ويكفرون به، وقد فصَّل لنا هذا النص بعضاً من مكر اليهود في إضلال عباد الله المؤمنين.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن من سورة آل عمران

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ودَّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم:

أخبرنا الله - تبارك وتعالى - أنه قام في نفوس طائفة من أهل الكتاب رغبة عارمة في إضلال المسلمين ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ [آل عمران:٦٩]. وقد أخبرنا الله - تبارك وتعالى - أن الحامل لهم على إضلالنا هو حسدهم إيانا على ما أتانا من فضله ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ [النساء:٨٩]. وهذه الرغبة قائمة عند اليهود والنصارى منذ عهد الرسالة إلى اليوم، وقد أقاموا في العصور الأخيرة مراكز البحوث، والجامعات، والمعاهد، ودرسوا ديننا، وأقاموا المؤسسات التبشيرية التي تضم عشرات الألوف من المبشرين، وأمدُّوها بالرجال والنساء والأموال، وعقدوا المؤتمرات، وجاسوا خلال ديار المسلمين، وبرز منهم رجال ادعوا أنهم علماء بديننا، وأخذوا يدسُّون فيه، ليخربوا تعاليم الإسلام وعقيدته وشرائعه.

جنـــــة الســــــنة

وقد أخبرنا الله – تبارك وتعالى – أن هذه الطائفة من أهل الكتاب التي تودُّ إضلالنا وتسعى فيه إنما يضلُّون أنفسهم وما يشعرون بذلك ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [آل عمران:٦٩] لأن الذي يودُّ الإفساد، ويسعى فيه، هو ضالٌّ فاسد في نفسه، فهم ضالُّون، وهم يحسبون أنهم مصلحون.

٢- تبكيت الله أهل الكتاب وتوبيخهم:

نادى الله – عزَّ وجلَّ – أهل الكتاب مرتين نداء توبيخ، فقال: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران:٧٠-٧١].

نادى الله أهل الكتاب أولاً موبخاً إياهم على كفرهم بآيات الله، مع أنهم يشهدون أنها حق، فاليهود في قرارة أنفسهم يعلمون أن محمداً مرسل من ربه، وأن آيات القرآن منزلة من عند الله العزيز الحكيم، فهم يجدون هذا في كتابهم، فالتوراة والإنجيل تزخران بالتبشير بمحمد ﷺ وكتابه وأصحابه، والتعريف بموضع بعثته ومهاجره وغير ذلك، ولكنهم كفروا بذلك حسداً للعرب على ما أتاهم الله من فضله، وقد كانوا في الجاهلية يحدِّثون العرب عن ذلك كله، ويقول لهم: سيُبعث نبي نتبعه ونقتلكم معه، فلما بُعث من العرب كفروا به ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [البقرة:٨٩]، ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة:١٠١].

ونادى الله – تبارك وتعالى – أهل الكتاب موبخاً إياهم على لبسهم الحق بالباطل وكتمانهم الحق، وهم يعلمون أنه حق، فقال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران:٧١].

ومن يرجع إلى كتابات المستشرقين من اليهود والنصارى يجد هذا الخلط بين الحق والباطل ظاهراً جلياً، ويجد أنهم يكتمون الحق ويسترونه حال كونهم عالمين بذلك.

فترى الواحد منهم يقرّ بشيء من الحق، ثم يدسُّ في كلامه باطلاً كثيراً، ثم يأتي غيره ليبطل ما أقرَّ به السابق، ويقر ببعض الباطل الذي نفاه السابق، وكلامهم في نفي الحق والإقرار بالباطل شبيه بالأساطير والخرافات التي يتحدث بها العوام، فمثلاً «راف لنتون» مؤلف «شجرة الحضارة» يصور في هذا الكتاب [٢/ ٣٤٠] أن الرسول ﷺ كان في صغره

جنـــــة السـنـــــة

متشرداً، كل يوم يأوي إلى بيت، وكل يوم تحنو عليه مرضعة، ويدَّعي - زوراً وباطلاً - أنه خاض غمار حرب دينية عندما سافر مع عمه في تجارة إلى الشام.

و«هنري ماسيه» يدَّعي كاذباً في كتابه «الإسلام» [ص٤٣] أن زوجة الرسول ﷺ خديجة كانت تدير بيتاً تجارياً مخصصاً للفسق والرذيلة، ويدعي المؤرخ الإنجليزي «ويلز» في كتابه «معالم تاريخ الإنسانية» [٣/٧٧٦] أن الرسول ﷺ وُلد له ولد من خديجة اسمه عبد مناف، ومناف - كما يزعم كاذباً - اسم للرب المكي - ، ويدَّعي هذا المؤرخ الكذاب أن نبينا محمداً ﷺ كانت تلم به أدوار صرع روحي عظيم، وأنه كان يخرج إلى الصحراء في آلام مبرحة من الشك والرغبة القدسية، وإذا شئت أن تتطلع على شيء من ترهات المستشرقين من اليهود والنصارى والعلمانيين، فارجع إلى كتابنا «محاضرات إسلامية هادفة» [ص١٠٤-١٠٨].

٣- زعماء اليهود والنصارى يقولون لأتباعهم آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا أول النهار واكفروا آخره:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - عن مخطط اخترعه شياطين اليهود والنصارى منذ تنزل القرآن، ولا يزال هذا المخطط معمولاً به من قِبَل المستشرقين وأساتذة الجامعات والعاملين في مراكز البحوث في عالم الغرب وفي ديارنا، ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران:٧٢] أمر السادة أتباعهم أن يؤمنوا أول النهار، ويكفروا آخره، فإن عوام الناس، ومن لا علم عندهم، إذا رأوا كفر هؤلاء بعد إيمانهم، قالوا: لا بد أن في هذا الدين ما يعيبه حتى رجعوا عنه.

وقد رأيت هؤلاء المستشرقين يمدحون رسول الإسلام، وما جاء به من دين، ثم ينسبون إليه الطامات والعظائم، ولو كان كلامهم كلُّه ذماً وقدحاً في الرسول ودينه، فإنه لا يقرأ كتابهم أحد، ولا يلتفت إليه أحد، وقد رأيت كثيراً من الذين ذكروا محاسن الإسلام ورسول الإسلام جاؤوا بطامات، تكفي واحدة منها لإبطال كل ما ذكروه من محاسن، وتغطي عليه، ولا يسلم من هؤلاء إلا القليل، ومنهم أولئك الذين أسر الإسلام نفوسهم فأسلموا.

٤- زعماء اليهود والنصارى يوصون أتباعهم أن لا يؤمنوا إلا لمن تبع دينهم:

أعلمنا الله - عز وجل - أن الزعماء والعلماء والمنظرين من اليهود والنصارى يوصي بعضهم بعضاً، كما يوصون أتباعهم أن لا يؤمنوا إلا لمن تبع دينهم، وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يقول في مواجهة هذه المقالة الباطلة: إن الهدى هدى الله ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ

جنـــــة السـنـــة

﴿ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٧٣] ودعوتهم إلى عدم إيمانهم إلا لمن تبع دينهم دعوة لأتباعهم أن لا يطمئنوا ولا يظهروا سرَّهم وما عندهم إلا لمن تبع دينهم، حتى لا يحتج عليهم المسلمون بما لديهم في كتابهم من آيات. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٧٣] أي: إن الهدى هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى الإيمان على الوجه الأكمل، وهذا الهدى هو الذي أنزله الله على عبده ورسوله من الآيات والدلائل والحجج، فالمؤمنون ليسوا بحاجة إلى ما كتمه اليهود من شأن رسولنا ﷺ وديننا.

وقوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران:٧٣] المعنى أن أولئك الزعماء والرؤساء نَهَوْا أتباعهم عن الإيمان إلا لمن تبع دينهم، حتى لا يعلم المسلمون بما كتموه من الحق، فيحاجُّونهم بما أخفوه عن الناس، وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء الضالين: ﴿إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [آل عمران:٧٣].

أمر الله رسوله أن يقرَّ الحقَّ في نصابه، فالفضل بيد الله، وليس بأيديهم، فإذا كتموا الحق وأخفوه عن المؤمنين، ومنه ما بشر الله به في التوراة والإنجيل عن رسولنا ﷺ وديننا وأمتنا، فإن علم ذلك كلَّه عند الله، والله يبارك من يشاء، إذا شاء، كيف يشاء، ولا يحتاج إلى ما عند هؤلاء المُخْفين الكاتمين للحق، وقد ختم الله الآية بصفتين من صفات الله تبارك وتعالى فقال: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [آل عمران:٧٣]، والله سبحانه واسع، أي: كثير العطاء، وهو عليم بالمستحقِّ لهذا الفضل، وذلك العطاء.

وأخبرنا ربنا تبارك وتعالى أنه: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [آل عمران:٧٤]. وقد اختص الله رسله وأنبياءه ومن اتبعهم على إثرهم، وآخرهم رسولنا ﷺ وأمته برحمته وفضله.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- على المسلمين أن يحذروا من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فإنهم يريدون إضلال المسلمين، ويسعون في ذلك.

٢- كثير من الأحبار والرهبان يعلمون في قلوبهم أن محمداً مرسل من ربه، وأن دينه حقٌّ يجب اتباعه، ومع ذلك فإنهم يكفرون بما يعلمون أنه حق.

جنـــــــة السـنــــــة

٣- علماء اليهود والنصارى يلبسون الحق بالباطل، وقد أدخلوا في أحاديث رسولنا، وتفسير القرآن، وتاريخنا شيئاً كثيراً ألبسوا فيه علينا ديننا، وكتموا كثيراً من الحق.

٤- من تخطيط علماء اليهود والنصارى أن يؤمنوا بديننا ثم يكفروا به، ويظهروا بعض الحقِّ، ويكتموا كثيراً منه، ليوقعوا ضعاف النفوس في البلبلة والشك.

٥- يتواصى اليهود فيما بينهم، وكذلك النصارى أن يكتموا ما عندهم في كتبهم من بشارات تزخر بها هذه الكتب، حتى لا يتخذها المسلمون حجة يحاجُّون بها، وحتى لا نحاججهم بها عند الله، ونسي هؤلاء أن الفضل والهداية بيد الله لا بأيديهم.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني السادس عشر من سورة آل عمران
من أهل الكتاب أمناء ومنهم خونة

أولاً: تقديم

حدَّثنا ربنا - عزَّ وجلَّ - في هذا النص عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين يجادلوننا في ديننا، ويريدون فتنتنا عما أنزل الله علينا، فأخبرنا أنهم فقدوا الخصائص التي تؤهلهم لقيادة البشرية، فمع أن فيهم أمناء إلا أن فيهم خونة أكلة لأموال الناس بالباطل، ومصابهم الأكبر أنهم يزعمون أن دينهم هو الذي أباح لهم أموال غيرهم كذباً وزوراً.

إن دين الله يقوم على الوفاء بالعهد وتقوى الله سبحانه، ومن اتصف بهذه الصفات لا يمكن أن تمتد يداه إلى الحرام.

وبينت آيات النص المصير المؤلم للذين يشترون الدين بالدنيا في يوم القيامة، كما بيَّن أن أهل الكتاب فقدوا الكتاب الحق الذي كان يقيم أمرهم على الصراط المستقيم، لأنهم حرفوا ما أُنزل إليهم من ربهم.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن من سورة آل عمران

﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- من أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك:

أخبرنا الله - تبارك وتعالى - أن بعضاً من أهل الكتاب أمناء، إذا ائتمنت الواحد منهم على المال الكثير أداه إليك وإن كان قنطاراً، ومنهم خونة فجرة إذا ائتمنت الواحد منهم على المال القليل، لم يؤده إليك وإن كان ديناراً، إلا إذا أزعجته بكثرة مطالبتك له ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ

جنـــــة السـنة

ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًاۗ﴾ [آل عمران:٧٥].

وقد حدَّثنا رسولنا ﷺ عن واحدٍ من بني إسرائيل في عصورهم الخيرة كان أميناً فاضلاً، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ «أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يُسْلفه ألف دينار فقال: ائتني بالشهداء أُشهِدُهم، فقال: كفى بالله شهيداً، قال: فائتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلاً. قال: صدقتَ، فدفعها إليه إلى أجل مسمى.

فخرج في البحر، فقضى حاجته، ثم التمس مركباً يركبُها يَقْدَمُ عليه للأجل الذي أجَّله فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة فنقرها، فأدخلَ فيها ألف دينار وصحيفةً منه إلى صاحبه، ثم زجَّج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر فقال: اللهم إنك تعلم أني كنتُ تسلّفتُ فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلاً، فقلتُ: كفى بالله كفيلاً، فرضي بك، وسألني شهيداً، فقلتُ: كفى بالله شهيداً، فرضي بذلك، وأني جهدتُ أن أجد مركباً أبعثُ إليه الذي له فلم أقدر، وإني أستودعُكَها.

فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما نشرها وجد المال والصحيفة.

ثم قدِمَ الذي كان أسلفه فأتى بالألف دينار فقال: والله ما زلتُ جاهداً في طلب مركبٍ لآتيك بمالك فما وجدتُ مركباً قبل الذي أتيتُ فيه. قال: هل كنتَ بعثتَ إليّ بشيء؟ قال: أُخبرك أني لم أجد مركباً قبلَ الذي جئتُ فيه. قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثتَ في الخشبة، فانصرفْ بالألف الدينار راشداً» [البخاري: ٢٢٩١].

٢- ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل:

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن عدم تأدية أهل الكتاب المال الذي ائتمنهم الناس عليه كان بسبب دعواهم أن الله أحلّ لهم أموال الأميين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران:٧٥]، والأميون: العرب، لأنهم لا يحسنون الكتابة، وقد أطلق اليهود كلمة «الأميين» على غيرهم من الأمم والشعوب.

وقد أخبرنا ربُّنا - تبارك وتعالى - أن اليهود في دعواهم أن الله شرَّع لهم أكل أموال غيرهم بالباطل يقولون عليه الكذب، وهم يعلمون أنهم كاذبون ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [آل عمران:٧٥].

جنـــــة السـنــــة

٣- تحذير ابن عباس رضي الله عنهما الأمة الإسلامية أن يفعلوا فعل اليهود:

حذَّر ابن عباس ﷺ هذه الأمة أن يفعلوا فعل اليهود من قبلهم، فقد سأله رجل، وقال له: إنَّا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة؟ قال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال: نقول: ليس علينا بذلك من بأس، قال: هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾ [آل عمران:٧٥] إنهم إذا أدّوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم [تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٤].

٤- ثناء الله - تبارك وتعالى - على الذين أوفوا بعهودهم واتقوا:

أثنى ربُّ العزة - سبحانه - على الذين أوفوا بعهودهم واتقوا من أهل الكتاب، فقال: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران:٧٦].

ومعنى قوله: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: لكن من أوفى بعهده الذي عاهدكم الله عليه من الإيمان بمحمد إذا بُعث، وطاعته، واتباع أمره، واتقى هؤلاء ربهم، فإن هؤلاء موضع محبة الله وتقديره، ومن أحبّه الله سعد في الدنيا والآخرة.

٥- الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً:

ذكر الله في الآية السابقة أن الذين يفون بعهودهم التي أخذها عليهم في التوراة ويتقون الله يحبّهم الله تبارك وتعالى، وذكر في الآية التالية أن الله يغضب على الفريق الذي يشتري بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران:٧٧].

قال عكرمة: نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا ...﴾ الآية [آل عمران:٧٧] في رؤوس اليهود، كتموا ما عهد الله إليهم في شأن محمد ﷺ، وبدَّلوه، وكتبوا بأيديهم غيره، لئلا يفوتهم المآكل والرشا التي كانت لهم من أتباعهم [تفسير البغوي: ٢/ ٥٧].

وقوله: ﴿يَشۡتَرُونَ﴾ أي: يستبدلون بعهد الله وأيمانهم، أي: ما عاهدوا الله عليه، وما أعطوه من أيمان باتباع محمد ﷺ واعتناق الدين الذي أنزل عليه، معتاضين عن ذلك بالأثمان القليلة الزائلة الفانية، وهي عروض هذه الحياة ومتعها التي سرعان ما تفنى وتبيد.

وقد بيّن الله مصير هذا الفريق في يوم القيامة، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران:٧٧].

جنـــــة الســـــــنة

والخلاق: الحظُّ والنصيب، ولا يكلمهم الله يوم القيامة، أي: كلام تكريم، ولا ينظر إليهم نظر رحمة، ولا يزكيهم من الذنوب والمعاصي والأدناس، ولهم عذاب أليم، وهو عذاب الموقف يوم القيامة، ثم يساقون إلى النار.

وروى البخاري عن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين، وهو فيها فاجر، ليقتطع بها مال امرئ مسلم، لقي الله وهو عليه غضبان».

وقال الأشعث: «فيَّ - والله - كان ذلك، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض، فجحدني، فقدَّمته إلى النبي ﷺ، فقال لي رسول الله ﷺ: «ألك بينة؟» قلت: لا، قال: فقال لليهود: «احلف» قال: قلت: يا رسول الله، إذاً يحلف، ويذهب بمالي، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية [آل عمران:٧٧]» [البخاري: ٢٤١٦، ٢٤٧٧، مسلم: ١٣٨، واللفظ للبخاري].

٦- تحريف اليهود والنصارى ما أنزل الله إليهم من الكتاب:

حدَّثنا الله - عز وجل - أنَّ اليهود والنصارى حرَّفوا ما أُنزل إليهم من كتاب، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران:٧٨].

وأصل اللوي: فتل الحبل، وَلَوَى الرجل يده أو رأسه: حركه وأماله بشكل دائري، وليُّهم ألسنتهم بالكتاب كناية عن كذبهم على الله تعالى، وتحريفهم لكتابه، وقد زعم وهب بن منبه وطائفة من أهل العلم أن التوراة والإنجيل بقيا كما أنزلهما الله، ولم يتغير منهما شيء، وإنما كان تحريفهم بالتفسير والتأويل، وبكتب كتبوها من عند أنفسهم، وادعوا أنها من عند الله، وهم كاذبون في دعواهم [راجع تفسير القاسمي: ٢/ ٣٣٩]. وهذا الذي ادعاه وهب ليس بصحيح على إطلاقه، نعم أوّل اليهود والنصارى بعض النصوص على غير وجهها، ولكنهم حرفوا التوراة والإنجيل، فحذفوا بعض النصوص، وزادوا بعض النصوص، وخلطوا كلامهم بكلام الله - تبارك وتعالى - فمن الذي افتروه على الله تبارك وتعالى دعواهم أن الله بعد أن خلق السموات والأرض في ستة أيام تعب واستراح في اليوم السابع، ففي [سفر التكوين، الإصحاح الثاني: ٢] «وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل» وفي [سفر الخروج، الإصحاح العشرون: ١١] «لأن في ستة أيام صنع الربّ السماء والأرض والبحر وكلّ ما فيها، واستراح في اليوم السابع».

جنـــــة السـنـــــة

وقد أكذب الله اليهود في دعواهم أنه تعب فاستراح، وأخبر أنه لم يمسَّه شيء من التعب ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق:٣٨]. واللغوب: التعب.

ومن كذبهم في التوراة زعمهم أن رسول الله نوحاً عليه السلام شرب الخمر، فسكر وتعرَّى ودخل خبائه، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه، فلما علم أبوه بها فعله لعنه [سفر التكوين، الإصحاح التاسع: ٢١-٢٥].

ومن تحريفهم للتوراة كذبهم على نبي الله لوط، إذ زعموا أن لوطاً لما جاءَه الضيوف، وجاء قومه يريدون فعل الفاحشة بهم، قال لهم: «هو ذا لي بنتان لم تعرفا رجلاً، أُخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم» [سفر التكوين، الإصحاح التاسع عشر: ٨]. بل كذبوا على لوط أعظم من ذلك، فقد نسبوا إليه أنه زنى بكل واحدة من ابنتيه، تقول الفرية التي سُطِّرت في التوراة كذباً على الله: «سقتا أباهما خمراً في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت البارحة مع أبي، ونسقيه الليلة خمراً، فادخلي فاضطجعي معه، فنحيي من أبينا نسلاً، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، فحبلت ابنتا لوط من أبيهما» [سفر التكوين، الإصحاح التاسع عشر: ٣٣-٣٦].

ومن كذبهم على نبي الله إبراهيم أنه تزوج بسارة، وكانت أخته من أبيه، ففي [سفر التكوين، الإصحاح العشرون: ١٢] أن إبراهيم قال لأبي مالك عن زوجته سارة: «وبالحقيقة أيضاً هي أختي ابنة أبي، غير أنها ليست ابنة أمي، فصارت لي زوجة».

ومن كذبهم على إبراهيم وابنيه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام أن الله قال لإبراهيم: «خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المريّا وأصعده هناك محرقة» [سفر التكوين، الإصحاح الثاني والعشرون: ٢] وقد كذب اليهود، فأدخلوا إسحاق في النص، فأصبحت التوراة متناقضة، لأن إسماعيل وُلِدَ لإبراهيم، وعمر إبراهيم ستة وثمانون عاماً، وولد إسحاق وكان عمر إبراهيم مائة عام، وهذا ما نصت عليه التوراة في سفر التكوين، فالذي كان وحيد إبراهيم مدة ستة عشر عاماً هو إسماعيل عليه السلام.

هذا غيض من فيض مما نجده في التوراة من تحريف وكذب، ولكن يوجد في التوراة أمور صحيحة، صرَّح القرآن بوجودها فيها، وسيأتي ذكر شيء منها.

وفي الإنجيل من التحريف والكذب الشيء الكثير، فمن ذلك دعواهم في تلك الأناجيل أن عيسى عليه السلام هو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، ومن ذلك أن الله أنزل إنجيلاً

جنـــــة الســــــنة

واحداً، فجعلوه أربعة أناجيل، وهذا هو العدد الذي اعترفوا به في مجامعهم، وإلا فالأناجيل أكثر من ذلك بكثير.

والأناجيل متناقضة فيما بينها، وكل إنجيل متناقض في نفسه، وإصحاحات الأناجيل تتفاوت فيما بينها قلة وكثرة، فإصحاحات إنجيل متى ثمانية وعشرون إصحاحاً، وإصحاحات إنجيل مرقص ستة عشر إصحاحاً، وإصحاحات إنجيل لوقا أربعة وعشرون إصحاحاً، أما إنجيل يوحنا فعدد إصحاحات إنجيله واحد وعشرون إصحاحاً.

وقد ذكر الآلوسي «أن كل إنجيل تضمن من الحكايات والقصص ما أغفله الآخر، واشتمل على أمور وأشياء قد اشتمل الآخر على نقيضها أو ما يخالفها، وفيها ما تحكم الضرورة بأنه ليس من كلام الله أصلاً، فمن ذلك أن متَّى ذكر أن المسيح صُلب ومعه لصان، أحدهما عن يمينه، والآخر عن شماله، وأنهما جميعاً كانا يهزآن بالمسيح مع اليهود ويعيِّرانه، وذكر لوقا خلاف ذلك، فقال: إن أحدهما كان يهزأ به، والآخر يقول له: أما تتقي الله تعالى، أما نحن فقد جوزينا، وأما هذا فلم يعمل قبيحاً، ثم قال للمسيح: يا سيدي، اذكرني في ملكوتك، فقال: حقّاً إنك تكون معي اليوم في الفردوس، ولا يخفى أن هذا يؤول إلى التناقض، فإن اللصين عند متَّى كافران، وعند لوقا أحدهما مؤمن والآخر كافر، وأغفل هذه القصة مرقص ويوحنا» [روح المعاني: ٣/ ٢٠٦ وللنص بقية فإن شئت المزيد فارجع إليه].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم أو عمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم أو عمل:

١- من أهل الكتاب أقوام أمناء إن ائتمنتهم على المال الكثير أدوه إليك، وإن كان قنطاراً، ومنهم خونة إن ائتمنتهم على المال القليل لم يؤدوه إليك وإن كان ديناراً.

٢- الخونة من أهل الكتاب يزعمون كاذبين أن الله أباح لهم أكل أموال الناس بالباطل، وقد قرر الحق سبحانه أنهم يكذبون على الله في دعواهم هذه وهم يعلمون.

٣- الله يحب الذين يفون بعهودهم مع ربهم، ومنهم اليهود الذين آمنوا بالرسول الخاتم محمد ﷺ آخذين بعهد الله إليهم أن يؤمنوا به ويتابعوه إذا بُعث.

٤- الذين رفضوا الالتزام بالعهود التي أخذها الله عليهم بالإيمان برسولنا ﷺ عندما يُبعث ليحصلوا على متاع الدنيا القليل الزائل لا خلاق لهم في الآخرة، ومصيرهم فيها إلى الهلاك والبوار.

جنـــــــة الســــــنة

٥- التعرف على أنواع العذاب التي تحيق بالظالمين في يوم الدين، فمن ذلك امتناع الله - تبارك وتعالى - من تكليم الظالمين، وعدم نظره إليهم، وعدم تزكيتهم، ومسهم العذاب في الموقف، ودخولهم النار.

٦- ذمَّ الله أهل الكتاب الذين حرفوا التوراة والإنجيل، فقد زادوا فيهما ما لم يكن موجوداً، وأنقصوا منهما ما كان منصوصاً عليه، وأدخلوا في بعض النصوص ما ليس فيها، وأوَّلوا بعض النصوص على غير وجهها.

٧- اليهود والنصارى يقولون على الله الكذب وهم يعلمون أنه كذب.

٨- على الأمة الإسلامية أن تحذر من الوقوع في مثل ما وقع فيه اليهود، ومن ذلك أكل أموال الناس بالباطل بدعوى أن الله أباح لهم ذلك.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني السابع عشر من سورة آل عمران
لا يمكن للرسل والأنبياء دعوة الناس إلى عبادتهم من دون الله

أولاً: تقديم

هذا النص الكريم يقرر قاعدة عظيمة، وهي أن الأنبياء والمرسلين لا يمكنهم دعوة الناس إلى عبادة أنفسهم، ولا يمكن أن يأمر الله الناس إلى عبادة الملائكة والنبيين، وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه أخذ على كل نبي أرسله أنه إذا بُعث محمد ﷺ وهو حي فإنه يجب عليه الإيمان به واتباعه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ما كان لنبي أن يقول للناس اعبدوني من دون الله:

يزعم النصارى أن عيسى ﷺ أمر قومه أن يعبدوه من دون الله، وقد قرَّر الله - سبحانه - في الآية الأولى من هذا النصِّ قاعدة عظيمة مفادها أنه لا يمكن لبَشَرٍ آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يقول للناس: اعبدوني من دون الله، فما آتاه الله إياه فيما أوحاه إليه يصقل نفسه ليصبح عبداً له، ثم يدعو الناس بعد ذلك إلى أن يُعبِّدوا أنفسهم لله الواحد الأحد، إن الذين يدَّعون أن أحداً من الرسل والأنبياء يمكن أن يكون دعا الناس إلى عبادة شخصه لا يعرفون طبيعة النبوة والرسالة، إن الله - تبارك وتعالى - يختار نوعية خاصة للنبوة والرسالة، تستطيع أن تستوعب ما أوحى الله إليها، وتستطيع أن تحقق العبودية لربها في أجْلى صورها ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:٧٩].

جنـــــة الســـــنة

إن الرسل والأنبياء يأمرون الناس بأن يكونوا ربانيين بما كانوا يعلِّمون الكتاب وبما كانوا يدرسونه ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران:٧٩].

ومعنى ربانيين، «أي: علماء حكماء فقهاء، والرباني الذي يجمع إلى العلم الإلهي الشرعي البصر بالسياسية، وتربية الناس، وهو مأخوذ من قول العرب: رَبَّ أمرَ الناس يربُّه، إذا أصلحه وقام به، فهو رابّ ورباني على التكثير» [تفسير القرطبي: ٢/ ٤٨٢].

وفي يوم القيامة يُظهِر الله كذب الذين زعموا أن عيسى عليه السلام أمر قومه بعبادته من دون الله، ففي ذلك اليوم يسأل الله عيسى على رؤوس الأشهاد عن مدى صحة ما افتراه عليه قومه ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦]، فيجيب عيسى عليه السلام مبرئاً نفسه مما كَذَبه النصارى عليه: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة:١١٦].

هذه الآية تعلمنا بأن عيسى عليه السلام ينفي ما افتراه عليه الكفار، ويقول: إنه ما كان له أن يقول ما ليس له بحق، فكيف يأمر الناس بعبادته، وهو عبد مخلوق مربوب، واحتج على كذب قومه عليه بعلم الله له، فلو كان قال هذه المقالة لعلمها الله العليم الحكيم الخبير، ثم أخبر عيسى عليه السلام بالذي قاله، فهو ما قال لهم إلا ما أمره الله، فقد دعاهم إلى عبادة الله وحده، الذي هو ربُّه وربهم، وبقي شهيداً عليهم ما دام فيهم، فلما توفاه الله تعالى بالنوم، ورفعه إلى السماء أصبح الله تعالى هو الرقيب المطَّلع عليهم، والله على كلِّ شيء شهيد ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة:١١٧].

٢- الله لا يمكن له أن يأمر الناس بعبادة الملائكة والنبيين:

أعلمنا الله فيما سبق أن الأنبياء والمرسلين لا يمكن أن يدعوا الناس إلى عبادتهم من دون الله، وبيَّن الله أيضاً أنه لا يمكن أن يأمر العباد أن يتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً من دون الله، فالله يأمر بالإيمان به وبطاعته وعبادته، ولا يمكن أن يأمر عباده بالكفر والشرك ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران:٨٠] وإذا كان الأمر بعبادة غير الله لا يمكن أن يتأتى لا من الله، ولا من رسل الله وأنبيائه، فإن دعوى

جنـــــة السـنـــــة

النصارى ومن سار مسارهم في أن عيسى أمرهم بأن يعبدوه من دون الله باطل من القول وكذب.

٣- أخذ الله العهد على كل نبي بعثه الله أن يتَّبع محمداً ﷺ إذا بُعث في زمانه:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه أخذ الميثاق على جميع أنبيائه كل واحد في عصره بأن يتَّبع محمداً ﷺ إذا بُعث في زمانه ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران:٨١].

والميثاق الذي أخذه الله على النبيين هو عقد مؤكد بيمين وعهد، وقوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ...﴾ [آل عمران:٨١] أي مهما آتى الله الأنبياء من كتاب وحكمة وعلم، ومهما كان لهم من فضل، فإنه يجب على كل واحد منهم اتباع محمد ﷺ إذا بُعث في عصره، وأخبر الله تعالى أن محمداً مصدق لكل رسول بعثه الله تعالى، وقد أوجب الله على كل رسول أن يعزم على نصرة هذا الرسول والإيمان به واتباعه، وقد غلَّظ الله عليهم الميثاق، فقررهم وأخذ عليهم إصره، والإصر: العهد المؤكد، وقد أقرّ كل الأنبياء بما أخذ الله عليهم، فلما أقروا قال لهم: ﴿فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران:٨١].

روى الطبري بإسناده عن علي بن أبي طالب، قال: «لم يبعث الله نبياً آدم، فمن بعده، إلا أخذ عليه العهد في محمد، لئن بُعث وهو حيٌّ ليؤمن به، ولينصرنَّه، ويأمره، فيأخذ العهد على قومه، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ...﴾ الآية [آل عمران:٨١]» [الطبري: ٣/ ١٨٥٣].

وروى الطبري أيضاً عن ابن عباس قال: «ذكر الله ما أخذه عليهم، يعني أهل الكتاب، وعلى أنبيائهم من الميثاق بتصديقه، يعني محمداً إذا جاءهم، وإقراره به على أنفسهم، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ...﴾ إلى آخر الآية [آل عمران:٨١]» [الطبري: ٣/ ١٨٥٣].

وقال ابن كثير: «الرسول محمد خاتم الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم إلى يوم الدين، وهو الإمام الأعظم، الذي لو وجد في أي عصر لكان هو الواجب طاعته، المقدم على الأنبياء كلِّهم، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس، وكذلك هو الشفيع في المحشر في إتيان الرب جلَّ جلاله لفصل القضاء بين عباده، وهو المقام المحمود الذي لا

جنـــــة السـنـــة

يليق إلا له، وهو الذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين، حتى تنتهي النبوة إليه، فيكون هو المخصوص به صلوات الله وسلامه عليه» [ابن كثير: ٢/ ٦٠].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - طبيعة النبوة والرسالة تأبى أن يأمر الرسول أو النبي ﷺ الناس بعبادته من دون الله.

٢- الرسل والأنبياء يأمرون الناس بأن يكونوا ربانيين، أي: علماء حكماء فقهاء لما علموه من دين الله الذي أنزله الله على رسوله، ولدراستهم لهذا الدين.

٣- الله يكره الشرك ويبغضه، ولذلك فلا يمكنه أن يدعو الناس إلى عبادة غيره من الملائكة والأنبياء والصالحين.

٤ - أخذ الله العهد على كل الأنبياء، وفيهم أنبياء بني إسرائيل أن يتابعوا محمداً ﷺ إذا بُعث في عصر الواحد منهم.

جنـــــة الســـــــنة

النص القرآني الثامن عشر من سورة آل عمران
الإسلام الدين الوحيد الذي لا يقبل الله من أحد إلا الدينونة به

أولاً: تقديم

ذمَّ الله الذين يدينون بدين غير دين الإسلام، وهو الدين الذي تدين به السموات والأرض ومن فيهما طوعاً أو كرهاً، وهذا الدين هو الذي جاءت به الرسل جميعاً، ولذلك فإننا نؤمن بهم جميعاً، ونحن نعلن بأننا مسلمون، وقد أعلمنا الله - تعالى - أن من يبتغي غير الإسلام ديناً فلن يقبله الله منه، وسيكون في الآخرة من الخاسرين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إنكار الله على الذين يطلبون ديناً غير الدين الذي دانت به السماوات والأرض ومن فيهما:

أنكر الله - تبارك وتعالى - على الذين يطلبون ديناً غير الإسلام، وهو الدين الذي دانت به السموات والأرض ومن فيهما طوعاً وكرهاً وإليه ترجعون ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران:٨٣].

إن الذين يطلبون ديناً غير الإسلام أمرهم نشاز، فهم يريدون الدينونة لغير الله، والسموات والأرض ومن فيهما وما بينهما كلُّها يدين لله الواحد الأحد، ويستسلم له، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت:١١].

فالسموات والأرض ومن فيهما وما بينهما خاضعة لله مستسلمة لأمره، وكذلك الملائكة، والذين استجابوا للرسل من الجن والإنس مسلمون كذلك، والكفرة من الجن والإنس وإن رفضوا الإسلام بقلوبهم وأقوالهم، إلا أنهم خاضعون لما يريده الله فيهم، فهم

جنـــــة السـنــــــة

مسلمون بهذا المعنى، قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران:٨٣] وقوله: «﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ﴾ أي: استسلم وانقاد وخضع وذلّ، وكلُّ مخلوق فهو منقاد مستسلم، لأنه مجبور على ما لا يقدر أن يخرج عنه» [القرطبي: ٢/ ٤٩١]، وقال أيضاً: «وقيل: المعنى أن الله خلق الخلق على ما أراد منهم، فمنهم الحسن والقبيح، والطويل والقصير، والصحيح والمريض، وكلُّهم منقادون إليه اضطراراً، فالصحيح منقاد طائع محبٌّ لذلك، والمريض منقاد خاضع، وإن كان كارهاً، والطوع: الانقياد والاتباع بسهولة، والكره: ما كان بمشقَّة وإباء نفس» [القرطبي: ٢/ ٤٩١].

وعلى ذلك فمن رضي بالإسلام عن قناعة، فقد دانَ لله عن رضاً وطواعية، ومن رفض الإسلام فهو خاضع للسنن والقوانين التي يجريها الله عليه، ولا يستطيع الخروج عنها، فالله خلقه خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث، والله قدَّر يوم ولادته، وهو الذي أعطاه خلقه، وهو الذي خلق له دورته الدموية، وهو الذي خلق له جهازه التنفسي، وجهازه الهضمي والعصبي، وأعطاه الطول والقصر، والجمال والقبح، فهو محكوم بسنن الله التي تجري عليه، وهو خاضع لها مستسلم لها، وعندما تنتهي أيامه في هذه الدنيا، يأتيه الموت، ويؤوب إلى الله.

٢- وجوب الإيمان بما أنزله على جميع رسله وأنبيائه:

أمر الله رسوله ﷺ وأصحابه وأمته أن يعلنوا إيمانهم بالله تعالى، وبما أنزله عليهم، وبما أنزل على أنبيائه ورسله ومنهم أبو الأنبياء إبراهيم، وما أنزل على ولديه إسماعيل وإسحاق، وهما نبيان رسولان، وإلى ما أنزل إلى حفيد إبراهيم رسول الله يعقوب، وما أنزل إلى ذرية يعقوب، وهم الأسباط ومنهم رسول الله يوسف، وما أوتي موسى وعيسى، وقد آتى الله موسى التوراة، وآتى عيسى الإنجيل، ثم أجمل جميع الأنبياء بقوله: ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [آل عمران:٨٤] أي: ما أنزل إلى النبيين جميعاً، ومعنى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [آل عمران:٨٤] أي: لا نؤمن ببعض، ونكفر ببعض، وإنما نؤمن بهم جميعاً، قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران:٨٤]. وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: خاضعون مستسلمون.

٣- الإسلام الدين الوحيد الذي يقبل الله من دان بغيره:

أمر الله - تبارك وتعالى - في الآية السابقة رسولَه وأصحابه وأمته أن يقولوا: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران:٨٤] وقرر الله في قوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ

جنـــــــة الســــــــنة

﴿وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران:٨٥] قرر الله - عزَّ وجلَّ - أن الذي يدين بدين غير الإسلام كاليهودية والنصرانية والبوذية والصابئة، والمجوسية، والشيوعية، وعباد الأصنام، لن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين، ومصيره إلى النار، وبئس القرار.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- كفر الكافرين وشرك المشركين دين نشاز في هذا الكون الواسع المستسلم لله الواحد الأحد.

٢- الأرض والسماء والجماد والنبات والملائكة ومؤمنو الإنس والجن مستسلمون لله طوعاً، أما الكفرة من الجن والإنس فإنهم مستسلمون لله تعالى اضطراراً.

٣- يجب الإيمان بكل ما أنزل على رسل الله، ومن آمن ببعضهم، وكفر ببعض فهو كافر بالله.

٤- الإسلام الدين الوحيد المرضي عند الله، والذي يدين بدين غير الإسلام فلن يقبله الله منه، وهو في الآخرة من الخاسرين.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني التاسع عشر من سورة آل عمران
كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم

أولاً: تقديم

هذا النص يتحدث عن اليهود والنصارى الذين حفلت كتبهم بذكر رسول الله ﷺ، فكانوا يبشرون به قبل بعثته، ويدَّعون أنهم سيتبعونه بعد خروجه، فلما بُعث من غيرهم كفروا به، وكذَّبوه، وعادَوْه، وقاتلوه، فهؤلاء ملعونون من الله والملائكة والناس أجمعين، وهم خالدون في عذابه يوم الدين، إلا الذين تابوا وأنابوا واتبعوا الإسلام، وأعلنوا ما عندهم من بشارات تتعلق بالرسول ﷺ.

وقد بيَّن في الآيتين الأخيرتين المصير الرهيب الذي ينتظر هؤلاء في الدنيا والآخرة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لا يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم:

أعلمنا ربنا تبارك وتعالى أنه لا يهدي قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حقٌّ، وبلغتهم الآيات البينات فكفروا بها ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [آل عمران:٨٦].

وقد قرّر الله هذه الحقيقة مورداً إياها بصيغة سؤال ليعجِّب السامعين من حال هؤلاء، والمتحدَّث عنهم في هذه الآية هم اليهود والنصارى، فقد كانوا في الجاهلية قبل بعثة رسولنا ﷺ يتحدثون عن قرب مبعثه، ويحدِّثون الناس بصفاته وكتابه، ويتحدثون عن مكان بعثته وموضع مهاجره، ويخبرون الناس بأنهم سيتبعونه عندما يُبعث، ويقاتلون العرب معه، فلما بُعث من العرب كفروا به، وعادَوْه وقاتلوه، فكان حالهم عجباً، فبينما هم يبشرون به،

جنـــــة السـنـــــة

ويتحدثون عنه، ويقصدون الجزيرة العربية لمتابعته عندما يُبعث، إذا بهم يعادونه أشدَّ العداء بعد بعثته، فيتحول إيمانهم كفراً، وبعد أن عرفوه من خلال كتبهم التي تحدثت عنه أنكروه وكذَّبوه، ورفضوا الآيات البينات الواضحات التي جاءَتهم من عند الله، وقد أدخلهم هذا الذي فعلوه في زمرة الظالمين الذين حرمهم الله من الهداية.

٢- أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين:

أعلمنا الله - تبارك وتعالى - عن اليهود والنصارى الذين وصف حالهم في الآية السابقة أن لعنة الله حلَّت بهم، وكذلك لعنة الملائكة والناس أجمعين ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [آل عمران:٨٧].

«واللعن - كما يقول الراغب - الطرد والإبعاد على سبيل السَّخَطِ، وذلك من الله في الآخرة عقوبة، وفي الدنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه» [المفردات:٤٥١] واللعن من الملائكة والناس دعاؤهم ربَّهم أن يلعن هؤلاء.

قد يقال: كيف يَلْعَنُ الناسُ كلُّهم هؤلاء، واليهود والنصارى من الناس، والجواب: أن هؤلاء جميعاً سيلعن بعضهم بعضاً في يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا ﴾ [العنكبوت:٢٥] وأخبرنا ربنا أنه كلما دخلت أمةٌ النارَ في يوم القيامة لعنت أختها ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨].

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن لعنة الله ستصحبهم حتى تدخلهم النار دخولاً أبديًّا سرمدياً ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ ﴾ [آل عمران:٨٨]، وسيبقى هذا العذاب شديداً، فلا يخفف عنهم منه شيء، وقوله: ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: لا يؤخرون عن العذاب.

٣- الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا:

استثنى ربُّ العزة - سبحانه وتعالى - من الذين تحيط بهم لعنته في الدنيا والآخرة والذين يدخلون النار خالدين فيها الذين تابوا وأصلحوا ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ [آل عمران:٨٩].

ولا يكفي من هؤلاء الذين كتموا الحق أن يندموا على ما كان منهم من كتمان الحق، بل يجب عليهم مع الندم والاستغفار أن يصلحوا، والإصلاح يكون بإظهارهم الحقِّ الذي كتموه، فإن فعلوا فإن الله غفور رحيم.

روي عن عكرمة عن ابن عباس، قال: «كان رجل من الأنصار أسلم، ثم ارتدّ، ولحق بالشرك، ثم تندم، فأرسل إلى قومه: سلوا لي رسول الله ﷺ هل لي من توبة، فجاء قومه إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا: إن فلاناً قد ندم، وأمرنا أن نسألك: هل له من توبة، فنزلت: ﴿كَيۡفَ

جنـــــة السـنة

يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [آل عمران:٨٦-٨٩] فأرسل إليه فأسلم» [النسائي في سننه: ٤٠٦٨ وأورده الألباني في صحيح سنن النسائي: ٣٧٩٢].

٤- الذين لا تُقبل توبتهم من الكفار في الحياة الدنيا:

أخبرنا الله في الآية السابقة أن من تاب من الكفار فإنه يتوب عليه مهما كان كفره، وعظم ذنبه، والنصوص المتحدثة عن توبة التائبين كثيرة وافرة، فقد أخبر سبحانه أنه تاب على آدم بعد أكله من الشجرة هو وزوجه، وأخبر الله سبحانه أن ﴿ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧]، وفتح باب التوبة للذين ارتكبوا أكبر جريمة بادعائهم أن الله اتخذ ولداً وقال لهم: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة:٧٤] ونادى الله عباده قائلاً: ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر:٥٣].

أما الذين كفروا بعد إيمانهم، ثم ازدادوا كفراً حتى إذا حضرهم الموت قال الواحد منهم: إني تبت الآن فهذه توبة غير مقبولة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾ [آل عمران:٩٠].

والحالة التي لا تقبل فيها التوبة هي بلوغ الإنسان في موته مرحلة الغرغرة، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ﴾ [النساء:١٨].

٥- قتل الذي يرتدُّ عن دينه:

وقد جاءت النصوص مقررة قتل من ارتد عن الإسلام، ولم يقبل العودة إليه، ففي البخاري عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «من بدَّل دينه فاقتلوه» [البخاري: ٦٩٢٢].

وفي البخاري أن رسول الله ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن، فلما قدم ألقى إليه أبو موسى الأشعري وسادة ليجلس، قال: اجلس، وإذا رجل موثق، قال: ما هذا؟ قال: كان يهوديًّا، فأسلم، ثم تهوَّد، قال: اجلس، قال: لا أجلس، حتى يقتل، قضاء الله ورسوله، ثلاث مرات، فأمر به، فقُتل. [البخاري: ٦٩٢٣].

أما الذي يؤمن ثم يرتد، ثم يؤمن ثم يرتد، فهذا زنديق اتخذ دين الله لعباً، ولا يستتاب.

جنـــــــة السـنة

٦- الذين ماتوا على الكفر لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً:

الذين يموتون وهم كفار أولئك أهل النار خالدون فيها أبداً، والله لا يقبل من الواحد منهم في يوم القيامة ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ [آل عمران:٩١].

والكفار بعد أن يموتوا لا ذهب عندهم ولا مال ليفتدوا به، ولكن النص يصوِّر مدى جرمهم وخسرانهم بما تعارف عليه الناس أنه ينفعهم وينجيهم مما يحيق بهم من آفات وبلايا، فلو أن هؤلاء يملكون المال العظيم الذي يملأ الأرض كلها بسهولها وجبالها ووديانها وصحاريها وبحرها ذهباً ليفتدوا به من عذاب الله، فلن يقبل الله منهم ذلك، وعذاب الله محيط بهم، وليس لهم ناصر ينصرهم من عذابه.

وفي حديث أنس يرفعه: «إن الله يقول لأهون أهل النار عذاباً: لو أن لك ما في الأرض من شيء كنتَ تفتدي به؟ قال: نعم، قال: فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت في صلب آدم: أن لا تشرك بي، فأبيتَ إلا الشرك» [البخاري: ٣٣٣٤، مسلم: ١٦٧٧، واللفظ للبخاري].

٧- لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون:

أخبرنا ربنا تبارك وتعالى في خاتمة هذا النص أننا لن ننال البر حتى ننفق مما نحبه ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢].

قال بعض السلف منهم ابن مسعود وابن عباس وعطاء ومجاهد والسدي: «المعنى لن تصلوا إلى الجنة وتعطوها حتى تنفقوا مما تحبون، وقيل: البر: العمل الصالح»، وفي الحديث الصحيح: «عليك بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة» [مسلم: ٢٦٠٧] قال عطاء: «لن تنالوا شرف الدين والتقوى حتى تتصدقوا وأنتم أصحاء أشحاء، تأملون العيش، وتخافون الفقر» [القرطبي بشيء من الاختصار: ٢/ ٤٩٦].

وبعد أن قرر الله هذه الحقيقة دعا المؤمنين إلى الإنفاق في وجوه البر ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران:٩٢] وإذا كان الله عليم بما ننفقه فإنه سيجزينا به ويثيبنا عليه، وقد كانت هذه الآية وأمثالها دافعة الصحابة إلى الإنفاق في وجوه البر، والتنافس في عمل الخير، فعن طلحة أنه سمع أنس بن مالك ﷺ يقول: «كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرُحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها،

جنـــــة الســــــنة

ويشرب من ماءٍ فيها طيب. قال أنس: فلما أُنزلت هذه الآية ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢] قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إليّ بيرُحاء، وإنها صدقةٌ لله أرجو برّها وذُخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. قال: فقال رسول الله ﷺ : بخ، ذلك مالٌ رابح، ذلك مالٌ رابح، وقد سمعتُ ما قلتَ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين. فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه» [البخاري: ١٤٦١، مسلم: ٩٩٨].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- اليهود والنصارى كانوا يؤمنون بالرسول ﷺ قبل بعثته، وعندما بُعث كفروا به عامدين عالمين مع قيام الأدلة على صدقه عندهم.

٢- عاقبة الكفرة المجرمين الذين كفروا بالرسول ﷺ ، أن يلعنهم الله، والملائكة والناس أجمعين، ويوم القيامة مصيرهم إلى النار.

٣- يجوز لعن الكفار الذين أعلمنا الله أنهم ماتوا كافرين، كفرعون وهامان وقارون، وأبي لهب وأبي جهل، وأضرابهم، كما يجوز أن نلعن الكافرين مطلقاً من غير تعيين واحد منهم.

٤- من كفر بعد إيمانه فإنه يُقتل إذا أصَرَّ على كفره إلا إذا تاب وأناب.

٥- الذي تكررت ردَّته يُقتل، وإن ادعى أنه تاب وأناب.

٦- عظم جريمة من ارتدَّ عن دينه ومات على ردَّته، فهذا لن يقبل منه الله ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به.

٧- عظم ثواب المؤمنين الذين ينفقون ما يحبونه من المال يرجون به ثواب الله.

جنـــــة السـنة

النصُّ القرآني المتمم للعشرين مِنْ سورةِ آل عمرانْ
الطعام الذي حرَّمهُ اللهُ على بني إسرائيل قبل نزول التوراة

أولاً: تقديم

أخبرنا الله -تعالى- في آياتِ هذا النصِّ عن الطعامِ الذي حرَّمه على بني إسرائيل قبل نزول التوراةِ، وكان هذا العلم مما يكتمه اليهودُ، وهو مسطورٌ في كتابهم، وأخبرنا تعالى عن الملة المرضيّة عنده، وهي ملَّةُ إبراهيمَ، وأخبرنا أنَّ أوَّلَ بيتٍ أقيم معبداً لله في الأرض البيتُ الحرامُ الذي بناه إبراهيمُ وابنهُ إسماعيلُ بمكّة، وأعلمنا بأنَّه مبارك وهدى للعالمين، وأنَّ فيه آيات بينات، وأنَّه أوجب على النَّاسِ الحجَّ إليه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران:٩٣-٩٧].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ مِنَ القرآن

١- كُلُّ الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حَرَّم إسرائيل على نفسه من قبل نزول التوراة:

أخبرنا ربُّنا - تبارك وتعالى - أنَّ الطعامَ كُلَّه كان حِلاً لبني إسرائيل إلا ما حرَّم إسرائيلُ على نفسه قبل نزول التوراة، ﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ﴾ [آل عمران:٩٣] و(الحِلُّ) الحلال. والذي حَرَّمَهُ إسرائيل على نفسه مِنْ قبل أنْ تنزَّل التوراةُ لحومُ الإبلِ وألبانها، وروى الترمذي بإسناد قال فيه: هذا حديث حسن غريب (٣١١٧) وصَحَّحه الألباني في صحيح الترمذي: (٢٤٩٢) عن ابن عباس أنَّ اليهود قالوا للرسول ﷺ: «أخبرنا عمَّا حرَّم إسرائيلُ على نفسه؟ فقال: اشتكى عِرْقَ النَّسا، فلم يجد شيئاً يلائمه إلا لحومَ الإبلِ وألبانها، فلذلك حرَّمها. قالوا: صدقت».

جنـــــة الســــــنة

والجِمالُ لحومها طيِّبةٌ، وألبانُها طيِّبةٌ، ولكنَّها حُرِّمت على بني إسرائيل في التوراة بسبب ظُلْمِهِم ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء:١٦٠] ولذلك أُبيحَ لنا أكْلُ لحومها، وشُرْبُ ألبانها، لأنها مِنَ الطيبات.

٢- الدليل على حرمة الإبل على بني إسرائيل:

أمر اللهُ - تبارك وتعالى - الرسول ﷺ في محاجَجَتِهِ لبني إسرائيل أن يأمرهم أن يأْتوا بالتوراة، ويتلوها إن كذَّبوه فيما أخبر به ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران:٩٣].

وما أمر الله تعالى اليهود به من إحضارِ التوراةِ وتلاوتها إلا لبيان صِدْقِ الرسول ﷺ فيما أخبر به، وإظهارِ كذب اليهود فيما أخبروا به، ولا أعظم من أن يكون الحكمُ الذي كَذَّبوا به موجوداً في كتابهم المقدس، وهو التوراة، ولا يزال النصُّ على تحريم الإبل مكتوباً في التوراة إلى اليوم، ففي سفر اللاوين، الإصحاح الحادي عشر، فقرة (٤): «إلا هذه فلا تأْكُلوها مما يَجْتَرُّ ومما يشقُّ الظِّلْفَ، الجَمَلُ، لأنَّه يَجْتَرُّ، لكنَّه لا يَشُقُّ ظِلْفاً، فهو نجس لكم» وجاء في سفر التَّثْنِيَةِ، الإصحاح الرابع عشر، الفقرة (٧): «إلا هذه فلا تأكلوها مما يَجْتَرُّ، ومما يشقّ الظِّلْفَ المنقسم، الجمل والأرنب والوَبْرِ، لأنها تَجْتَرُّ، لكنها لا تَشُقُّ ظلفاً، فهي نجسة لكم».

٣- عِظَمُ جرمِ الذين افتروا الكَذِبَ على الله:

أعلمنا اللهُ تعالى أنَّ اليهودَ الذين افْتَرُوا على الله الكذبَ ظالمون: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾. وقوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [آل عمران:٩٤] أي: المفرطون في الظُّلْمِ، المبالغون فيه، فإنَّه لا أظلم ممن حُوكم إلى كتابه، وما يعتقده شرعاً صحيحاً، ثم جادل بعد ذلك مفترياً على الله الكذب.

٤- أمَرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ أنْ يدعو أهلَ الكتابِ خصوصاً والناسَ عموماً إلى اتِّباعِ ملَّةِ إبراهيم عليه السلام:

أمر اللهُ رسولَه ﷺ أن ينادي في الناس قائلاً: صَدَقَ اللهُ فيما أخبر به مِنْ تحريم الإبلِ على بني إسرائيلَ، وفيما أخبر بِهِ مِنْ أنَّ ذلك موجودٌ في التوراة، وكَذَّبَ المنكرين لذلك مِنْ بني إسرائيل، ثم أمره أنْ ينادي بالنَّاس مطالباً إياهم باتباع ملَّة إبراهيم عليه السلام، ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران:٩٥]، وقد جاءَ رسولنا ﷺ بهذه المِلَّة، وبَيَّنَها أعظم البيانِ، كما قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ

جنــــــة الســـــــنة

﴿إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام:١٦١]. وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل:١٢٣].

٥- الكعبةُ أوّلُ بيْتٍ وُضعَ لعبادةِ الله في الأرض:

أخبرنا الله -تبارك وتعالى- أنَّ أوّل بيت أُقيم في الأرضِ لعبادةِ الله هو البيتُ الذي ببكَّة، وبكَّة هي مكة ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران:٩٦] وقد أُبدِلَتْ الميمُ في مِكَّةَ بالباء، فصارتْ بَكَّة، ولهذا نظائر في اللُّغَةِ العربية، فقالوا في لازبٍ: لازم، وقالوا في أرْبَد: أرْمَد.

و﴿ٱلْبَيْتِ﴾: هو البناءُ الذي يَأْوي الناسُ إليْه للسُّكْنَى أو الاجتماعِ أو العبادةِ، ومعنى ﴿وُضِعَ﴾: بُني وأُثْبِتَ، وهو مَبنيٌّ ليكون معبداً للناسِ جميعاً، ولذلك قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:٩٦].

ولا شك أنَّ النَّاسَ بَنوا بيوتاً كثيرة قبل بناءِ الكعبةِ لسكناهم ولحيواناتهم، فقد بَنَتْ عادٌ مدينة إرمٍ، وبني قوم لوط مدينة سَدُوم وعَمُّورِيَّة، وكانت المدنُ عامرةً بأهلها قبل بناءِ الكعبة في العِراقِ والشامِ ومصرَ وغيرها، والأوّلية التي حازَتْها الكعبة، أنها أُوّلُ بيتٍ أقيم في الأرضِ لعبادةِ الله.

وكما أنَّ هذا البيتَ أوّلُ البيوتِ المقامةِ لعبادةِ الله، فإنَّه أفضلُ البيوتِ المقامةِ لهذا الغرض في الأرضِ، ولذلك وَصَفَهُ اللهُ تبارك وتعالى بوصفين كريمين، هما: مبارك، وهدىً للعالمين.

والمباركُ الكثيرُ البركةِ، فالصَّلاةُ فيه بمائة ألف صلاة فيما سواه، كما صحَّت بذلك الأحاديث، وهو قبلةُ المسلمين، والدعاءُ حَرِيٌّ بالإجابة عنده، وهو هدىً للعالمين، فمن جعله قبلته في الصلاةِ، وحجَّ إليه، واعْتَمَرَ، وطافَ به، فإنَّه يكون قد هُدِيَ إلى صراط مستقيم.

وقد اختصَّ هذا البيت بأنَّ بانيه رسولُ الله وخليلُه أبو الأنبياء إبراهيمُ وابنه نبيُّ الله إسماعيل، وهذه الميزة لا توجد لغيره مِنْ بيوت الله المقدَّسة، وقد سبق بيان ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة:١٢٧].

وقد ذهب جمعٌ من العلماء إلى أنَّ البيت بُنِيَ قبل إبراهيم، وزعموا أنَّ الملائكةَ بنته أو آدم، وهذا لا دليل يدلُّ على صِحَّتِهِ، فقد كان موضِعُ البيتِ عِنْدَ بنائه أرْضاً خاليةً، ليس فيها

جنـــــة السـنـــــة

ماءٌ، ولا بناءٌ، ولا سكَّان، ولا يوجَدُ فيها ما يدلُّ على أنها سكنت مِنْ قَبْلُ كما دَلَّت على ذلك الآياتُ والأحاديثُ الصحيحةُ.

ومما يَدُلُّ على أنَّ الكعبة هي أوَّلُ بيت وضع لعبادة الله في الأرض ما رواه البخاري ومسلم عن أبي ذَرٍّ ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ في الأرضِ أولاً، قال: «المَسْجِدُ الحرامُ» قال: قلت: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «المسجدُ الأقصى» قلت: كَمْ كان بينهما؟ قال: «أربعون سَنَةً» [البخاري: ٣٣٦٦. ومسلم: ٥٢٠].

ويبعد أن يكون باني الأقصى أوّلاً هو نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام ، فإبراهيم عليه السلام بنى الكعبةَ بعد أن كان إسماعيل رجلاً، فيكون عمر إبراهيم عليه السلام بلغ مائة وخمس سنةً ، والأقصى بني بعد ذلك بأربعين سنة، وإبراهيمُ توفاه اللهُ قبلَ ذلك، فالذي بنى الأقصى أولاً هو إسحاق أو يعقوبُ عليهما السلام.

٦- الآياتُ البيناتُ التي في المسجدِ الحرامِ:

أخبرنا اللهُ - تبارك وتعالى - في الآيةِ السابقةِ أنَّ الكعبةَ التي بناها نَبيَّا الله إبراهيمُ وإسماعيلُ هي أوَّلُ بيتٍ وُضِعَ في الأرض، وأنَّها مباركةٌ وهدىً للعالمين، وأخبرنا - عَزَّ وجَلَّ - أنَّ فيه آياتٍ بيِّناتٍ، ومَنْ دخله كان آمناً ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ [آل عمران:٩٧].

وقد ذكر اللهُ أنَّ الآياتِ البيناتِ التي في البيت مقامُ إبراهيمَ عليه السلام ، وهو الحَجَرُ الذي كان يقفُ عليه إبراهيمُ عندما ارتفعَ بناءُ البيت، وكان إسماعيل يرفعُ إليه لوازمَ البناءِ من الحجارةِ وغيرها، وكان المقامُ لاصِقاً بالكعبة ثم أُبعد عنها، لأنَّ الصلاة عنده مع طوافَ الناس حولَ الكعبة فيها مشقة، وقد أمرنا اللهُ أنْ نتخذ مِنْ مقام إبراهيمَ مُصَلَّى في قوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾ [البقرة:١٢٥].

وقد أثَّرت رِجْلا إبراهيم بقدرةِ الله ومشيئته في الصخر عندما وقف عليه ليُعْلِيَ بناءَ الكعبةِ، قال أبو طالب في أثرِ رجل إبراهيمَ في المقام:

ومَــوْطِئ إبــراهيمَ في الصَــخْرِ رَطْبَــةٌ عَــلَى قَدَمَيْــهِ حافيــاً غــيرَ نَاعــلِ

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنَّ من خصائص البيت أنَّ مَنْ دخله كان آمناً، وهذا الأمْنُ لداخله كان موجوداً مِنْ زمنٍ طويلٍ في الجاهليَّةِ، فالحرمُ كان في الجاهلية مَفْزَعَ كلِّ خائفٍ، وملجأ كلِّ جانٍ، وكان الرجلُ يلقى في الحرم قاتلَ أبيه أو ابنه، فلا يَعْرِض له بسوء،

جنـــــة السـنــــة

وكان النّاسُ يُتَخطّفُون مِنْ حوْلِه، ولا يمسُّ أهلَهُ وساكنيه واللائذينَ بِهِ سوءٌ، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت:٦٧].

وقد بَقِيتْ حرمةُ الحرمِ على ما كانتْ عليه بعد الإسلامِ أو أشدَّ، فقد أُبيحَ للرسول ﷺ القتالُ في الحرم ساعةً مِنْ نهار، ثمَّ عادتْ حرمتُه بعد ذلك إلى ما كانت عليه إلى يوم القيامة.

فعن أبي هُرَيرةَ أنَّ خُزاعة قتَلوا رَجُلاً من بني لَيثٍ عامَ فتْحِ مكةَ بقَتيلٍ منهم قَتلوه، فأُخْبِرَ بذلكَ النبيُّ ﷺ ، فرَكِبَ راحلتَه فخطَب، فقال: «إنَّ اللهَ حَبَسَ عن مَكّةَ القَتْلَ -أو الفِيلَ، شَكَّ أبو عبدِالله- وسَلَّطَ عليهم رسولَ الله ﷺ والمؤمنينَ، ألا وإنَّها لم تَحِلَّ لأحَدٍ قَبلي، ولم تَحِلَّ لأحَد بَعدي، ألا وإنَّها حَلَّتْ لي ساعةً مِن نهار، ألا وإنَّها ساعتي هذه، حَرامٌ: لا يُختَلى شَوْكُها، ولا يُعْضَدُ شَجَرُها، ولا تُلْتَقَطُ ساقِطَتُها إلا لِـمُنْشِد، فَمَنْ قُتِلَ فهوَ بخَيرِ النَّظَرَينِ: إمَّا أنْ يُعْقَلَ، وإمّا أنْ يُقادَ أهلُ القَتيلِ».

فقال رجلٌ من قُرَيشٍ: إلاَّ الإذْخِرَ يا رسولَ الله، فإنَّا نَجعلُهُ في بيوتِنا وقبورِنا، فقال النبيُّ ﷺ : «إلاّ الإذْخِرَ» [البخاري: ١١٢. ومسلم: ١٣٥٥].

وعن أبي شُرَيح أنّه قالَ لعَمرِو بنِ سَعيدٍ - وهُو يَبعثُ البُعوثَ إلى مَكةَ - : ائذَنْ لي أيُّها الأميرُ أُحَدِّثْك قولاً قامَ بِهِ النبيُّ ﷺ الغَدَ مِنْ يوم الفَتْحِ، سَمِعَتْهُ أُذُنايَ وَوعاهُ قلبي، وأبْصَرَتْه عيناي حِينَ تكلَّمَ بِهِ: حَمِدَ اللهَ، وأثنى عليهِ، ثمَّ قال: «إنَّ مَكَّةَ حَرَّمَها الله، ولم يُحَرِّمْها الناسُ، فلا يَحِلُّ لامرئٍ يُؤمنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ أن يَسْفِكَ بها دَماً، ولا يعْضِدَ بها شَجَرةً، فإنْ أحدٌ تَرَخَّصَ لِقتالِ رسولِ الله ﷺ فيها فقولوا: إنَّ اللهَ قد أذِنَ لِرَسولِه، ولم يَأْذَن لكم، وَإنَّما أذِنَ لي فيها ساعةً مِنْ نهار، ثمَّ عادَتْ حُرْمتُها اليومَ كحُرمَتِها بالأمسِ، ولْيُبَلِّغِ الشاهدُ الغائبَ» [البخاري: ١٠٤، ومسلم: ١٣٥٤].

«وقد ذَهَبَ جَمْعٌ مِنْ أهلِ العلم منهم الحسنُ وقتادةُ وعطاءٌ ومجاهدٌ وغيرُهم إلى أنَّ هذا الوصف كان في الجاهليةِ، فَمَنْ ارتكب جرماً ثم دخل في الحرم، لا يقتصُّ منه، فأمَّا في الإسلام، فإنَّ الحَرَمَ لا يمنع حدّاً من حدود الله، فيقامُ الحد فيه على السارق والزاني والقاتلِ، واستحسنَ بعضُ مَنْ قال بهذا القولِ أن يُخرج مَنْ وَجَبَ عليه الحدُّ إلى الحِلِّ، فيقامُ عليه هناك.

ويرى ابنُ عباس أنَّ الذي يعوذُ بالبيت بعد أن يرتكبَ جرماً فهو آمن، وأنَّ الأمر في الإسلام كما كان في الجاهلية، والإسلامُ زاد البيت شرفاً وتوقيراً، فلا يجوز لأحد أن يعرض في

جنـــــة السـنـــــة

الحرم لقاتل وليِّه، ولكنْ يجب على المسلمين أنْ لا يبايعوا ذلك الجاني ولا يُكَلِّموه وَلا يُؤْوُوه، حتى يُضيَّقَ عليه الحال، فيخرج مِنَ الحرم، فيقامُ عليه الحدُّ» [المحرر الوجيز بتصرف يسير: ٢/ ٢٩٢] والله تعالى أعلم بالصواب.

٧- وُجوبُ الحجِّ على النَّاسِ جميعاً:

أَوْجَبَ اللهُ الحجَّ على النَّاسِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران:٩٧] «واللاَّمُ في قوله: ﴿لله﴾ لامُ الإيجابِ والإلزام، وأكَّد اللهُ الوجوبَ بقوله: ﴿عَلَى﴾ التي هي مِنْ أَوْكدِ ألفاظِ الوجوبِ عندَ العرب، فإذا قالَ العربيُّ: لفلانٍ عليَّ كذا، فقد وَكَّده وأَوْجَبَهُ، فذكر اللهُ تعالى الحجَّ بأبلغِ ألفاظِ الوجوبِ، تأكيداً لحقِّه، وتعظيماً لحرمته، ولا خلافَ في فَريضَتِه، وهو أَحَدُ قواعد الإسلامِ، وليسَ يجبُ إلاَّ مرةً في العمر» [تفسير القرطبي: ٢/ ٥٠٣].

وقد دلَّت على وَجُوبِهِ أحاديثُ كثيرة منها ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: خَطَبَنا رسولُ الله ﷺ، فقالَ: «يا أيُّها الناسُ، قد فرضَ اللهُ عليكم الحجَّ فحجُّوا».

فقالَ رجَل: أكُلَّ عام يا رسولَ الله، فسَكَتَ، حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: «لَوْ لقُلْتُ: نَعَمْ، لوجَبَتْ، ولما اَسْتَطَعْتُمْ» ثم قال: «ذَرُوني مَا تركْتُكُمْ، فإنَّما هَلَكَ مَنْ كان قَبْلَكُمْ بِكَثْرةِ سُؤَالِهِمْ، واختلافِهِمْ على أنْبيائِهِم، فإذا أمرتُكُم بشيءٍ، فائتوا مِنْه ما اسْتَطَعْتُمْ، وإذا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شيءٍ فدَعُوهُ» [مسلم: ١٣٣٧].

والذي يَجِبُ عليه الحجُّ هو الذي يكونُ قادراً على الحجِّ بنفسه، ويَجِدُ النفقة التي تكفيه لذهابِهِ وإيابِهِ، وقد يكونُ الحاجُّ مِنْ أهل مكَّة، أو يسكنُ في مكانٍ قريبٍ منها، ولا يحتاجُ إلا إلى القليل مِنَ النفقة.

وقد يحتاجُ إلى الجملِ أوْ الفَرَسِ أو الحمارِ أو السيارةِ للوصول إلى الحرم، وقد يأتي مِنْ بلادٍ بعيدة، فهو يحتاجُ إلى ركوبِ السفينةِ أو الطائرةِ وقد أمَرَ اللهُ تعالى نَبِيَّه إبراهيمَ بَعْدَ بنائِهِ البيتَ العتيقَ أنْ ينادي النَّاس بالحجِّ، ووعده أنْ يُسْمِعَ الخلائقَ نداءَه، فيأتونه ماشين وراكبين، قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج:٢٧] ومعنى ﴿رِجَالًا﴾ أيْ: ماشين، و﴿ضَامِرٍ﴾ أي: على كل فرسٍ ضامرٍ، أي: راكبين، وقد قلَّ استعمالُ الخيلِ والبغالِ والحميرِ والجِمالِ في هذه الأيام، وحلَّ محلها السياراتُ والطائراتُ والسفن.

جنـــــة الســـــــنة

فإذا كان الإنسانُ مريضاً لا يستطيعُ ركوبَ وسائلِ النَّقْلِ، أو فقيراً لا يملك دفع تكاليف الحجِّ سَقَطَ عنه وجوبُ الحج.

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران:٩٧] يدلُّ على كُفْرِ جاحِدِ الحج، فكلُّ مَنْ أنكر أنَّ الله كتب الحجَّ على النّاس، فاللهُ غنيٌّ عنه، وهو كافرٌ كفراً أكبر، والله غنيٌّ عن حَجِّهِ وعبادته.

رابعاً: ما تَهْدِي إليه آياتُ هذا النص مِنْ علمٍ وعمل

عندما نَتَدبَّرُ آياتِ هذا النصِّ نجدها تهدينا إلى ما يأتي من عِلمْ وعملٍ:

١- أخبرنا اللهُ - تبارك وتعالى - أنَّ الطعام كلَّه كان حَلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرَّمه أبوهم إسرائيلُ على نَفْسِهِ مِنْ قبل نزولِ التوراةِ.

٢- أخْبَرَنا رسولُنا ﷺ أنَّ الذي حرَّمه إسرائيلُ على نفسه قَبْلَ نزول التوراةِ هو لحومُ الإبلِ وألبانها.

٣- تحريمُ لحوم الإبل لا يزالُ مسطوراً في التوراة إلى اليوم، وقد أمَرَ اللهُ اليهودُ عندما كذَّبوا بهذا الحكم أنْ يأتوا بالتوراةِ فيتلوها، ليظهر كَذِبُهم.

٤- في هذه الآية دلالة على مدى علم رسولنا ﷺ وعلم أمته من بَعْدِهِ بما كان يُخْفيهِ اليهودُ مِنْ كتابهم وعلمهم.

٥- تهديدُ الله اليهودَ الذين أخفوا ما عندهم مِنْ علمٍ مسطورٍ في كتابهم، وأخْبَرَ أنَّهم يفترون على الله الكذبَ، وأنَّهم ظالمون.

٦- أوْجَبَ اللهُ - تعالى - على النَّاس جميعاً بعد إبراهيم أن يتبعوا ملته عليه السلام، ومِلَّتُه التوحيدُ الخالص الذي لا شِرْكَ فيه، وقد كان رسولنا ﷺ على ملةِ أبيه إبراهيم.

٧- الكعبةُ التي بناها نبيُّ الله إبراهيمُ وابنهُ نبيُّ الله إسماعيلُ أول بيتٍ وأعظم بيتٍ بني لله في الأرضِ كلها، وما يدَّعيه بعض أهل العلم أنَّ الكعبةَ بنيت قبلَ إبراهيم فلا يوجد دليل يدلُّ على صحته.

٨- الكعبةُ هدىً للعالمين، فهي قبلة الصلاةِ، وإليها يكون الحجُّ والعمرةُ، والطوافُ بها والصلاة عندها فيه أجر عظيم.

جنـــــة السـنة

٩- في الكعبةِ آياتٌ بيِّناتٌ وعلاماتٌ ودلائلُ واضحاتٍ، ومِنْ هذه الآياتُ البيناتُ أثرُ رِجْل نبيِّ الله إبراهيمَ ﷺ مطبوعة على صخرة المقام، وهي صخرةٌ قاسية.

١٠- وجوبُ الحجِّ إلى البيتِ العتيق على كلِّ مسلم ومسلمةٍ إذا كان مستطيعاً للسفر واجداً للنفقة.

١١- الذي يَجْحَدُ وجوبَ الحج فهو كافرٌ، والله غنيٌّ عنه وعَنْ عمله.

جنـــــة الســـــنة

النصُّ الحادي والعشرون مِنْ سورةِ آل عمران
فضْح الله ضَلالَ اليهودِ والنصارى

أولاً: تقديم

فَضَحَ اللهُ في هذه الآياتِ سِتْرَ اليهودِ والنصارى، وأبان ما تُضْمِرُهُ قلوبُهم مِنْ كفرٍ وضلالٍ وأظْهَرَ تعمُّدَهْم كتمانَ الحقِّ الذي أوْدَعَه اللهُ في كتبهم مما أخبر بِهِ عن رسولنا ﷺ وكتابنا، ليَصُدُّوا الناسَ عن الإيمانِ بِهِ واتِّباعِهِ، وهذا يجعلنا نَنْتَبِهُ، فلا نُخدَع بما يقولونَهُ لنا مِنْ معسولِ القولِ، ولا نُناصرهم، ولا نَتَوَّلاهُم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران:٩٨-١٠١].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آياتِ هذا النصِّ مِنَ القرآن

١- توبيخُ أهْلِ الكتابِ عَلَى كُفْرِهِمْ وصَدِّهم عن سبيلِ الله:

أمَرَ اللهُ - تبارك وتعالى - رسولَهُ محمداً ﷺ أنْ ينادي اليهودَ والنصارى مِنْ أهلِ الكتابِ موبخاً ومؤنباً إياهم على كفرهم بما تحدثتْ به آياتِ التوراةِ والإنجيلِ عن محمد ﷺ ودينه وكتابِهِ، وأخبَرَهُمْ بأنَّ اللهَ تعالى شاهِدٌ على كُفْرِهِمْ وعملهم، لا يَخْفَى عليه شيءٌ مِنَ أحوالهم ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [آل عمران:٩٨]. قال ابن جرير في تفسير هذه الآية: «﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٩٨] لِمَ تَجْحَدُونَ حُجَجَ اللهِ التي آتاها محمداً في كُتُبِكُم وغيرها، التي قد ثَبَتَتْ عليكم بصدقِهِ ونُبُوَّته وحُجَّتِهِ، لِمَ تجحدونَ أمْرَهُ، وأنتم تعلمونَ صِدْقَهُ؟ فأَخبر جلَّ ثناؤه عنهم أنَّهم مُتعمِّدون الكفر بالله وبرسوله، على عِلْمٍ منهم ومَعْرِفَةٍ بكفرهم» [تفسير الطبري: ٣/ ١٨٩٤].

جنـــــة السـنـــــة

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران:٩٩] وهذا مما أمر الله به رسولَهُ ﷺ أنْ يُوَبِّخَ بِهِ اليهودَ والنصارى، فيقولُ لهم لائماً إياهم: لِمَ تصدُّون المسلمينَ عِنْ سبيلِ الله، وهو دينُ الله عزَّ وجلَّ بادعائكم أنَّ صفات رسولِ الله ﷺ ليست في كتبكم، فأنتم بذلك تردُّونَ النَّاس إلى الضَّلالِ والباطلِ والكفرِ، وأنتم شهداءُ، أي: تعلمون أنَّ الدِّينَ الحقَّ هو ما عليه رسولُ الله محمد ﷺ ، واللهُ تبارك وتعالى غيرُ غافلٍ عَنْ أعمالكم التي تعملونها، وسيجيزكم بها، و﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ والعِوَج يقال فيما يُدْرَكُ بالفكرِ والبَصيرةِ، أخبرنا ربنا أنهم يجتهدون في طلب العِوَجِ والفسادِ لها، قال ابن جرير: «﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ عن دين الله مَنْ صَدَّق اللهَ ورسولَه، تَبْغُونَ دينَ الله اعْوَجاجاً عن سُنَنِهِ واستقامته، وقوله ﴿عِوَجًا﴾: ضلالاً عن الحقِّ وزيغاً عن الاستقامة على الهدى والمحجّة» [تفسير الطبري ٣/ ١٨٩٥].

٢- دورُ اليهودِ والنصارى في إفسادِ دين المسلمين:

نَزَلَتْ الآيتانِ السابقتانِ في اليهودِ والنصارى الذين كانوا يُنصِّبونَ أنفسهم مصلحين هداةً، فكشفت الآياتُ باطنَهُمْ، وفضحتْهُمْ، فهم كفرةٌ يَصُدُّون الناس عن سبيلِ الله، وقد وردت رواياتٌ كثيرةٌ تدلُّ على سبب نزول هذه الآيات، الله أعلم بمدى صحتها، منها ما رواه السيوطي، قال: «أخرج ابن إسحاق وابن جريرٍ وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم، قال: مرَّ شاس بن قيس، وكان شيخاً قد عسا في الجاهلية، عظيمَ الكُفْرِ، شَديدَ الضِّغن على المسلمين، شديدَ الحسدِ لهم، على نَفَرٍ مِنْ أصحاب رسول الله ﷺ مِنَ الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يَتَحدَّثُونَ فيه، فغاظه ما رأى من أُلْفتِهم، وجماعتهم وصلاحِ ذاتِ بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم مِنْ العداوةِ في الجاهلية.

فقال: قد اجتمع ملأ بني قَيْلَةَ بهذه البلادِ، والله ما لنا معهم إذا اجتمع مَلَؤُهُمْ بها مِنْ قَرارٍ، فأمرَ فتًى شاباً معه مِنْ يهود، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم ذَكِّرهم يومَ بُعاثٍ وما كان قبله، وأَنْشِدْهُمْ بعضَ ما كانوا تقاولوا فيه مِنَ الأشعار.

وكان يَومُ بُعاثٍ يوماً اقتتلت فيه الأوسُ والخزرجُ، وكان الظفرُ فيه للأوس على الخزرج، ففعلَ، فتكلم القومُ عند ذلك، وتنازَعُوا، وتفاخروا حتى تواثب رجلان مِنَ الحَيَّيْنِ على الركب، أَوَسُ بن قَيْظي أَحَدُ بني حارثة مِنْ الأوسِ وجَبَّارُ بنُ صَخْرٍ أحد بني سَلِمَةَ مِنَ الخزرج، فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رَدَدْناها الآن جَذَعَةً، وغضبَ الفريقان جميعاً، وقالوا: قد فعلنا، السلاحَ السلاحَ...، موعدكم الظاهرةُ، والظاهرةُ: الحرة.

جنـــــة السـنـــــة

فخرجوا إليها، وانضمت الأوسُ بعضها إلى بعضٍ، والخزرج بعضُها إلى بعضٍ على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية.

فَبَلَغَ ذلك رسولَ الله ﷺ، فخرج إليهم في مَن معه مِن المهاجرين مِنْ أصْحابه، حتى جاءهم فقال: يا معشر المسلمين اللهَ اللهَ... أبدعوى الجاهليةِ وأنا بينَ أظهركم بعد إذْ هداكم اللهُ إلى الإسلامِ، وأكرمكم به، وقَطَعَ بِهِ عنكم أمرَ الجاهلية، واستنقذكم به مِنَ الكفر، وألَّف به بينكم! تَرجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً؟! فعرَف القومُ أنَّها نزغةٌ مِنَ الشيطان، وكيدٌ مِنْ عدوّهم لهم، فألقوا السلاح، وبَكَوْا وعانَقَ الرجالُ بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيدَ عدوِّ الله شاس.

وأنزل اللهُ في شأنِ شأسِ بن قيس وما صنع: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [آل عمران:٩٨] إلى قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران:٩٩] وأنزل في أوس بن قَيْظِي، وجَبَّارِ بن صخر، ومَنْ كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران:١٠٠] إلى قوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران:١٠٥]» [الدر المنثور: ٢/ ٢٧٩].

٣- تحذيرُ اللهِ المؤمنينَ مِنْ فِتْنَةِ أهلِ الكتاب:

نادى اللهُ المؤمنين مُحذِّراً إياهم مِنْ طاعةِ الكفرةِ مِنْ أهْلِ الكتاب، فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران:١٠٠] وهذا يقضي أنْ نَحْذَرهم، ولا نَجْعَلَهُمْ مرجعاً لنا في الهدايةِ، ولا نعتمدَ أقوالَهُمْ في التاريخ والاجتماع والاقتصاد وغيرها، فهم كفرةٌ ضالُّون يريدونَ إضلالَ المؤمنين، قال قتادة: «تقدَّم اللهُ إليكم فيهم كما تسمعون، وحذّركموهم، وأنبأكم بضلالتهم، فلا تأمنوهم على دينكم، ولا تنصحوهم على أنفسكم، فإنَّهم الأعداءُ الحَسَدة، الضُّلاَّل، كيفَ تأمنون قوماً كفروا بكتابهم، وقتلوا رُسُلَهُمْ، وتحيَّروا في دينهم، وعَجَزوا عَنْ أنْفسِهِمْ، أولئك - والله - أهلُ التهمةِ والعداوةِ» [الدر المنثور: ٢/ ٢٨٠].

وقد وردتْ نصوص قرآنية كثيرة في المعنى الموجود في هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة:١٠٩].

جنـــــة السـنـــــة

٤- كيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آياتُ الله وفيكم رسولُهُ:

أخبرنا الله -تبارك وتعالى- في قوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران:١٠١] أخبرنا أنَّ الكفْرَ بعيدٌ مِنْ صحابة رسولِهِ ﷺ، لأنَّ فيهم أمرين يثبتانهم على الإيمانِ، ويحُولانِ دون كفرهم. الأوَّلُ: آياتُ الله التي تتنزَّلُ عليهم. والثاني: وجودُ الرسولِ ﷺ فيهم.

ومع وجود هذين الأمرين يكون كفرُهُمْ مُسْتَغْرَباً ومتعجباً منه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [الحديد:٨-٩].

وكتابُ الله لا يزالُ موجوداً محفوظاً كما أُنزلَ على محمدٍ ﷺ، ورسولُهُ ﷺ توفَّاه اللهُ، وذهبَ إلى ربِّه تبارك وتعالى، ولكنَّ سنته محفوظةٌ موجودةٌ، وكتابُ الله وسنَّةُ رسولِهِ ﷺ لا تزال عصمةً للمؤمنين، ومناراً للسالكين، وهدىً للمتقين، وما أحسن ما قاله أبو العالية: «إنَّ الله قضى على نفسه أنَّه من آمَن بِهِ هَداه، ومَنْ توكَّل عَلَيْه كَفاه، ومَنْ أقْرضه جَزاه، ومَنْ وَثِق بِهِ أنجاه، ومَنْ دعاه استجابَ له بعد أن يستجيبَ لله» [الدر المنثور: ٢/ ٢٨١].

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النصِّ مِنْ علمٍ وعملٍ

عندما نَتَدَبَّرُ آياتِ هذا النصِّ نجدُها تهدينا إلى ما يأتي مِنْ علمٍ وعملٍ:

١- فَضَحَ الله أمرَ اليهودِ والنصارى، وهَتَكَ سِتْرَهُمْ، وأخبرنا أنَّهم يكفرون بما تَضَمَّنَتْهُ كتبُهم مِنْ آيات تُعرِّف برسولنا ﷺ ودينِهِ وكتابِهِ وأمته.

٢- الكفارُ مِنَ اليهود والنصارى بكتمانهم للحقِّ في كتابهم المتعلِّق برسولنا ﷺ يصدُّون الناسَ عَنْ دينِ الله تبارك وتعالى.

٣- تهدَّد اللهُ تعالى اليهودَ والنصارى الكاتمينَ للحقِّ الصادِّينَ عن سبيلِ الله تعالى بأنَّه ليس غافلاً عنهم، بل علمُهُ بهم محيطٌ، وسيجزيهم ويحاسبهم.

٤- لا يجوزُ للمؤمنين الذين أعلمهم اللهُ بشأنِ اليهودِ والنصارى أن يطيعوهم ويناصروهم، فهم أعداء، وليسوا بأولياء.

٥- بيَّنَ الله - تبارك وتعالى - لنا ما يعصمنا مِنَ الضلالِ والكُفْرِ، وهو الإيمانُ بكتابِهِ وسنَّةِ رسوله ﷺ، والعملِ بهما.

٦- على الأُمَّةِ الإسلامية أن تحْذَر اليهودَ والنصارى، فلا هدايةَ عندهم، وعلينا أنْ نعتَصم بالله، فنهتدي إلى صراطٍ مستقيم.

جنـــــة الســـــــنة

النصُّ القرآنيُّ الثاني والعشرون مِنْ سورةِ آل عمرانَ
اتَّقوا اللهَ حقّ تقاتِهِ ولا تموتُنَّ إلاَّ وأنتم مسلمونَ

أولاً: تقديم

نادانا رَبُّنا -تبارك وتعالى- آمراً إيَّانا أن نَتَّقيه حَقَّ التقوى، ونَهانا عَنِ الموت إلاَّ على الإسلام، وأمَرَنا أن نعتصمَ بحبله، وهو كتابُهُ، ونَهانا عَنْ الفُرْقَةِ، وأمَرَنا أن نذكر نعمته علينا، فقد كُنَّا أعداءً، فألَّف بَيْنَ قلوبنا، فأصبحنا إخوةً بدينه المنزل، وكُنَّا في الجاهلية على شَفَا حفرةٍ مِنَ النَّارِ، فأنقذنا منها بالإيمان، وأمَرَ هذه الأمَّة أن تكون مِنَ المفلحين، بالدعوة إلى الله، والأمْرِ بالمعروفِ، والنهيِ عنِ المنكر.

ونَهانا عَنْ الاختلاف والفُرْقَةِ كما وقَعَ للذين مِنْ قبلنا عندما اختلفوا مِنْ بعد ما جاءتهم البيناتُ، فكان مصيرهم العذابَ الأليمَ، ووَصَفَ اللهُ حالَ الناس يومَ القيامةِ عندما تبيضُّ وجوه المؤمنين، وتسودُّ وجوه الكافرينِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ
جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ
عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ
يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ
تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا
ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ
وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ
﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾ [آل عمران:١٠٢-١٠٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ مِنَ القرآن

١- نداء الله المؤمنين آمراً إياهم بتقواه حقّ التقوى:

نادى اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين آمراً إيَّاهم باتِّقائه حَقَّ التقوى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران:١٠٢]، وقد فَسَّر عبدالله بن مسعود

جنـــــــة الســـــــنة

قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران:١٠٢] بقوله: «أن يُطاعَ فلا يُعْصَى، وأنْ يُذْكَرَ فلا يُنْسَى، وأنْ يُشْكَرَ فلا يُكْفَرُ» [قال ابن كثير ١/ ٤٣٥: هذا إسنادٌ صحيحٌ موقوفٌ].

وأمَرَ اللهُ تبارك وتعالى الإنسانَ بملازَمَةِ التقوى ما دامَ حيّاً، حتى إذا جاءَه الموتُ خُتِمَ لَهُ بالخاتمةِ الطيِّبَةِ، وهي الوفاةُ على الإسلام ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران:١٠٢].

والتقوى أن يجعل العبد بينه وبين عذابِ الله وقايَةً، وقد أخبرنا ابنُ عباس أنَّ رسولَنا ﷺ قرأَ قولَهُ تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران:١٠٢] فقال: «لو أنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُوم قَطَرَتْ في دارِ الدُّنْيا، لأفْسَدَتْ على أهْلِ الدُّنْيا مَعَايِشَهُمْ، فكيف بمن يكونُ طعامُهُ» [الترمذي: ٢٥٨٥، وقال فيه: هذا حديث حسن صحيح].

وفي الحديث إشارةٌ إلى أنَّه لا خَلاصَ مِنْ عذابِ الله العظيمِ الشَّديدِ، ومنه الزَّقوم الذي إذا وَقَعَتْ قطرةٌ منه في دار الدنيا أفْسَدَتْ على أهلِ الدنيا دنياهُمْ إلا بالتقوى، وعلى العَبْدِ أنْ يقتدي بنبيِّ الله يوسف ﷺ في دعائه ربَّه أنْ يتوفَّاهُ عَلَى الإسلامِ ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف:١٠١] والوفاةُ على الإسلام تكونُ بحرص العبدِ على طاعةِ الله والاستقامةِ دائماً وأبداً عليه، حتى إذا جاءَه الموتُ وجدَهُ مسلماً.

وقد أرْشَدَنا رسولُنا ﷺ إلى أنْ نحسنَ الظنَّ بربِّنا إذا حَضَرنا الموتُ، فعن جابر بن عبدالله قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ قبلَ وفاته بثلاثٍ يقولُ: «لا يموتَنَّ أحَدُكُم إلا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بالله تعالى» [مسلم: ٢٨٧٧].

وفي الحديث عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ النبيُّ ﷺ : «يقولُ اللهُ تعالى: أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي» [البخاري: ٧٤٠٥. ومسلم: ٢٦٧٥].

فإذا جاءَ الموتُ، فعلى العبد أن يعتقدَ جازماً أنّه قادِمٌ على ربٍّ كريم، رحمنٍ رحيم، كثيرِ التَّوبِ، واسعِ العطاءِ، لا يستعظمه شيءٌ أعطاه، وليكثر مِنْ قولِ: «لا إلَه إلا الله»، فمن كان آخر كلامه: لا إله إلا الله، دخل الجنّة.

٢- اللهُ يَدْعونا إلى الاعتصامِ جميعاً بحبله:

قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران:١٠٣]. أمَرنا اللهُ تبارك وتعالى أنْ نستمسك بحبلِ الله، وحَبْلُ الله هو القرآنُ الذي يوصلنا إلى رضوان الله وجنته، وأصْلُ الحبلِ: السَّببُ الذي

جنـــــة الســـــــنة

يَتوصَّل بِهِ المرءُ إلى ما يَبْتَغِيهِ، وسُمِّي الإيمانُ أوْ القرآن حبلاً، لأنّه يتوصل به إلى رضوانِ الله وجَنَّتِهِ.

وإذا اعتصمَ المسلمونُ بحبلِ الله، وَهُوَ القرآن أصْبَحوا أُمَّةً واحدةً، وأصبحوا على اختلافِ أجناسِهِمْ وألوانِهِمْ ولغاتِهِمْ إخوةً فيما بينهم، وقد كان العربُ في الجزيرةِ العربية مع كونهم مِنْ جنس واحدٍ متباغضينَ متدابرينَ، يُغير بعضُهم على بعضٍ، ويقتلُ بعضُهم بعضاً، ويأْسِرُ بعضُهم بعضاً، وينهبُ بعضُهم مالَ بعضٍ، فجاءَهم اللهُ بالإسلامِ، فألَّف بينَ قلوبهم، فأصبحوا بنعمةِ الله إخواناً، يُحِبُّ بَعْضُهم بعضاً، ويصونُ بعضُهم أموال الآخرين، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال:٦٢-٦٣].

وقد قال الرسولُ ﷺ للأنْصارِ بعد معركةِ حُنَينٍ: «يا مَعْشَرَ الأنصارِ، ألَمْ أجِدْكُم ضُلاَّلاً فَهَداكُم اللهُ بي، وكُنْتُمْ متفرقين فألَّفكم اللهُ بي، وعالةً فأغناكم اللهُ بي».

وبعد أنِ انفرط عقدُ الخلافةِ العثمانيةِ، تفرَّقَتْ الولاياتُ التي كانت تحتَ لوائها، وثارَتِ العصبياتُ، ولم يتمكن المسلمون من الاجتماعِ على كلمةٍ سواء، ولا يوحِّدُ المسلمين إلا الإسلامُ، والله المستعان.

وتحدَّثَ ابنُ القيم رحمهُ اللهُ تعالى عن أثَرِ اعتصامِ العَبْدِ بالله وبحبلِهِ، فقال: «ومدارُ السعادةِ الدنيويةِ والأُخرويةِ على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبْلِهِ، ولا نجاةَ إلا لمنْ تمسَّكَ بهاتينِ العِصمتينِ، فأمّا الاعتصامُ بحبْلِهِ فإنَّهُ يَعصِمُ مِنَ الضلالَةِ، والاعتصامُ بِهِ يَعْصِمُ مِنَ الهَلَكة، فإنَّ السائرَ إلى الله كالسائر على طريقٍ نحو مَقْصِدِهِ، فهو محتاجٌ إلى هدايةِ الطريقِ والسلامةِ فيها، فلا يَصلُ إلى مقصدِهِ إلا بعد حصولِ هذين الأمرين لَهُ، فالدليلُ كفيلٌ بعِصْمتِهِ مِنَ الضلالة، وأن يهديه إلى الطريقِ، والعُدَّةِ والقوَّةِ والسلاحِ التي بها تَحصُلُ له السلامةُ مِنْ قُطَّاع الطريقِ وآفاتها.

فالاعتصامُ بحَبْلِ الله يوجبُ له الهدايةَ واتباعَ الدليلِ، والاعتصامُ بالله يوجِب له القوةَ والعدَّةَ والسلاحَ والمادةَ التي يَسْتَلئِمُ بِهَا في طريقه» [مدارج السالكين: ١/ ٤٥٨].

وقد أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- أنَّ المسلمين قبل إسْلامهم كانوا على شَفَا حفرةٍ مِنَ النَّار، أيْ: على طرفِ النَّار يوشِكُ أنْ يقعوا فيها، فأنقذهم اللهُ منها ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران:١٠٣]. لقد كانوا كُفَّاراً ظَلَمَةً فَسَقَةً، يستحقُّونَ النَّار، وغضبَ الجبَّارِ، فأنقذهم اللهُ مِنَ النَّار بإيمانهم واتِّباعِهِم الرسولَ ﷺ.

جنـــــة الســـــنة

وبيّن اللهُ تعالى في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٠٣﴾ [آل عمران: ١٠٣] أنَّ مثل هذا البيانِ الذي بيَّنه في هذا الموضعِ، يُبَيِّن لنا آياتِهِ لعلَّنا نهتدي، فالقرآنُ كتابُ هدايَةٍ، يهدي بِهِ اللهُ قلوبَ مَنْ شاءَ هدايتَهُ.

٣- أمَرَ اللهُ الأمةَ الإسلاميةَ أنْ يكونوا دعاةَ خيرٍ آمرين بالمعروف ناهين عَنِ المنكر:

أمر اللهُ هذه الأمةَ أن تكونَ داعيةً إلى الخير، آمرةً بالمعروفِ، ناهيةً عن المنكر، فقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٠٤﴾ [آل عمران:١٠٤].

وهذا الذي أمَرَنا اللهُ به أخصُّ خصائِصِ هذه الأمةِ، وهو الذي رَفَع منارها، وأعْلَى لواءَها، وجعلَها خيرَ أُمةٍ، كما قالَ بعد هذه الآيةِ بآياتٍ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ﴾ [آل عمران:١١٠].

والخَيْرُ الذي دعانا اللهُ إلى القيام به يتمثَّل في الأعمال الصالحةِ التي أمَرَنا اللهُ بها، كالعدْلِ والفَضْلِ والصِّدْقِ والصلاةِ والإنفاقِ، ونحو ذلك، والمعروفُ: اسم لكلِّ فِعْلٍ يُعْرَفُ بالشَّرْعِ حسنه، والمنكر ما ينكره الشرعُ، والقائمون بما أمَرَ اللهُ بِهِ في هذه الآيةَ هم المفلحونَ الفائزونَ.

ومع أنَّ أفرادَ الأُمة متفاوتون فيما يَقْدِرون عليه مِنَ الدَّعْوَةِ إلى الخيرِ والأمرِ بالمعروف، والنهي عَنِ المنكر، فهم متفاوتون فيما يَجِبُ عليهم من الدعوةِ إليه، فكلٌّ منهم يدعو إلى الخيرِ، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر بمقدارِ عِلْمِهِ وما يُطيقُه، ويقولُ الرسول ﷺ في الحديثِ الذي يرويه أبو سعيدٍ الخُدرِيُّ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فليغيِّره بِيَدِهِ، فإنْ لم يَسْتَطِعْ فبلسانِهِ، فإنْ لَمْ يستطِعْ فبِقَلْبِهِ، وذلك أضْعَفُ الإيمانِ» [مسلم:٤٩].

وعن حذيفةَ بنِ اليمانِ عن النبيِّ ﷺ قال: «والذي نَفْسي بيدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بالمعروفِ، ولَتَنْهَوُنَّ عَنِ المنكرِ، أو ليوشِكُنَّ اللهُ أنْ يبعثَ عليكم عقاباً منه، ثمَّ تدعونَه فلا يَسْتَجيبُ لكم» [الترمذي: ١٦٩. وقال فيه: هذا حديث حسن].

٤- النهيُ عَنِ الفرقةِ والاختلافِ:

نهى اللهُ - تبارك وتعالى - هذه الأُمةَ عَنِ الفُرقةِ والاختلاف الذي أصاب الأممَ مِنْ قبلنا ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠٥﴾ [آل عمران:١٠٥].

جنـــــة الســـــنة

لقد اختلفَ اليهودُ فيما بينهم إلى فِرَقٍ كثيرةٍ، واختلفَ النصارى أيضاً فيما بينهم إلى فِرَقٍ كثيرةٍ، وقال بعض النصارى: إنَّ عيسى ابنُ الله، وقال آخرون: هو الله، وقال فريق ثالث: هو ثالث ثلاثةٍ، وقال أهلُ الحقِّ منهم: هو عبدُ الله ورسولِه، وجاءهم محمدٌ ﷺ بالقولِ الحقِّ، فآمنَ قليلٌ منهم، وبقيَ كثيرٌ منهم على كُفْرِهِمْ وتنازُعِهِمْ حتى اليوم.

وقد أنْبأنا رسولُنا ﷺ بكثرةِ اختلافِ الأمم مِنْ قبلنا، وأخبرنا أنَّ اختلافَنا سيكونُ أكثَر مِن اختلافِهِم، فعن معاويةَ بن أبي سفيانٍ قال: ألاَ إنَّ رسولَ الله ﷺ قامَ فينا فقال: «ألاَ إنَّ مَنْ قبْلَكُمْ مِنْ أهْلِ الكتابِ افترقوا على ثِنْتَيْنِ وسبعين مِلَّةً، وإنَّ هذه الأمَّةَ ستفترقُ على ثلاثٍ وسبعين، ثنتان وسبعونَ في النَّار، وواحدةٌ في الجنَّة وهي الجماعة» [أبو داود: ٤٥٩٧. وأورده الألباني في صحيح أبي داود: ٣٨٤٣. وذكر أنه خَرَّجَهُ في الصحيحة: ٢٠٤].

٥- ابيضاضُ وجوهِ المؤمنين واسودادُ وجوهِ الكافرين في يومِ الدين:

أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- أنَّ الذين تفرقوا واختلفوا لهم عذابٌ عظيم، ففي يوم القيامة تبيضُّ وجوهُ المؤمنين وتسودُّ وجوهُ الكفرةِ المجرمين، ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران:١٠٦-١٠٧].

أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- أنَّ اعتقادَ النَّاس وأعمالهم تظهر في يوم القيامة على وُجُوهِهِمْ، فالكفَّارُ تَسودُّ وُجوهُهُم كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر:٦٠]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ﴾ [يونس:٢٧]، وقال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس:٤٠-٤٢].

ويقالُ للكفَرةِ الذين اسودَّت وجوههم في يوم الدِّين: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران:١٠٦] وهذا خِطابُ تأنيبٍ وتوبيخٍ، واسودادُ وجوههم يكون بسبب كُفْرِهِمْ وذنوبهم.

وأمَّا أهلُ الإيمان والأعمال الصالحة، فيبيِّضُ اللهُ وجوهَهم ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران:١٠٧] وقد أشارَ اللهُ بقولِه: ﴿تِلْكَ﴾ في قولِه: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [آل عمران:١٠٨] إلى الآياتِ السابقة

جنـــــة الســــــنة

هٰذه الآيات، أيْ: تلك آياتُ الله التي حَوَتْ حُجَجَه وبيِّناتِهِ نتلوها عليك يا محمدُ، وهذا الذي ذكره من تعذيب الذين اسودَّت وجوههم في النَّارِ ليس ظلماً للعبادِ، بل هو الحكم العدلُ الذي لا ظُلْمَ فيه.

وقال تعالى في خاتمة هذا النص: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾ [آل عمران:١٠٩] فاللهُ -سبحانه- هو المالكُ للسماواتِ والأرضِ ما فيهما وما بينهما، ونحن نعيشُ فوقَ هذه الأرض، والله يتصرَّفُ في السمٰواتِ والأرضِ، ويتصرف فينا كما يشاءُ ويريدُ، وكلّ الأمور ترجعُ إليه.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النصِّ مِنْ علمٍ وعملٍ

عندما نَتَدَبَّرُ آياتِ هذا النصِّ نجِدُها تهدينا إلى ما يأْتي مِنْ علمٍ وعملٍ:

١- دعانا ربُّنا -تبارك وتعالى- إلى أنْ نَتَّقِيهُ حقَّ التقوى، وتحقيقُ ذلك يكونُ بأنْ يُطاعَ فلا يُعْصَى، ويُذكرَ فلا يُنسى، ويُشْكَرَ فلا يكفر، وعلينا أنْ نديم تقواه، حتى يأتينا الموتُ ونحن على ذلك.

٢- أمَرَنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنْ نعتصمَ بكتابِهِ، فنصبحَ أمةً واحدةً، ونهانا عن الفرقَةِ والاختلافِ، وأمرنا أن نديمَ تذكُّر نعمةِ الله علينا إذ أصبحنا بعد العداوةِ إخوةً في الله، وكنّا على شَفَا حفرةٍ مِنَ النَّار فأنقذنا منها.

٣- الإنقاذُ مِنَ النَّار يكون بالإيمان والعملِ الصالحِ، والاستمساكِ بالشريعةِ المباركةِ.

٤- الهدايةُ الحقيقيةُ تتحقق بما بَيَّنَهُ اللهُ وشرعَهُ لنا.

٥- أخصُّ خصائصِ الأمَّةِ الإسلامية، التي تجعلها خير أمَّة: الدعوةُ إلى الله وإلى دين الله، والأمرُ بالمعروفِ، والنهي عن المنكرِ، ومن كان كذلك كان مِنَ المفلحين.

٦- نهى الله هذه الأُمة أن تختلف فيما بينها كما اختلفتِ الأمم السابقةُ في دينها بعدما جاءَتها البيناتُ مِنْ ربِّ الأرضِ والسماواتِ.

٧- رَغَّبنا اللهُ وَرَهَّبَنا بإخبارنا أنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات تَبْيَضُّ وجوههم، ويكونون في رحمة الله هم فيها خالدون، أمَّا الكفارُ فتسودُّ وجوهُهم يومَ القيمةِ، ويُبَكَّتون، ويدخُلون النَّار.

٨- الله -تعالى- هو مالكُ السمواتِ والأرضِ وما فيهما وما بينها، وهو يتصرف في ملكه تعالى كما يشاء.

جنـــــة السـنة

النصُّ القرآنيُّ الثالثُ والعشرونَ مِنْ سورةِ آل عمرانَ
الأُمَّةُ الإسلاميةُ خيرُ أُمةٍ أُخرجتْ للناسِ

أولاً: تقديمٌ

أخبرنا اللهُ -تعالى- في هذا النصِّ أنَّ الأمة الإسلامية خيرُ أُمَّةٍ أُخرجت للنَّاس، لما اتصفتْ به مِنْ خصائصَ، وأنَّ أهلَ الكتابِ اليوم فقدوا الخيريَّةَ التي كانت فيهم، وأنَّهم أصبحوا كَفرةً فَسَقَةً، وأنَّ ضررَهم لا يتعدَّى الأذى، وإنْ قاتلونا فسنهزمهم، وأخبرنا أنَّ بني إسرائيل ضُرِبتْ عليهم الذلَّةُ والمسكنةُ وباؤوا بغضبٍ مِنَ الله، وأخبرنا تعالى في هذه الآياتِ أنَّ الذلَّةَ ستُرْفَعُ عنهم فترةً مِنْ الزمان، ثم تزولُ، وقد رُفِعتْ الذلَّةُ عنهم في أيامنا، ويوشك أن يزول هذا الاستثناء.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم من سورة آل عمران

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران: ١١٠-١١٢].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آياتِ هذا النصِّ مِنَ القرآن

١- الأُمَّةُ الإسلاميةُ خيرُ أُمَّةٍ أُخرجتْ للنَّاسِ:

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّ أُمَّةَ محمدٍ ﷺ خيرُ أُمةٍ أخرجها اللهُ للناس، وقد دلَّ على صِحَّة هذا القول أمور:

أ- تصريح الله -تبارك وتعالى- بهذه الحقيقةِ في الآيةِ الأولى مِنْ هذا النصِّ في قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، قال ابن كثير: «الصحيح أنَّ هذه الآيةَ عامةٌ في جميعِ الأُمَّةِ، كلُّ قَرْنٍ بحسَبِهِ، وخيرُ قرونهم الذي بعث فيه رسولُ الله ﷺ، ثم الذين يَلونهم، ثم الذين يَلونَهم» [ابن كثير: ١/ ٤٣٨].

جنـــــة السـنـــــة

وقال الشوكاني: «فيه دليلٌ على أنَّ هذه الأمة الإسلامية خيرُ الأُمَمِ على الإطلاقِ، وأنّ هذه الخيرية مشتركةٌ ما بين أوّلِ هذه الأمةِ وآخرها بالنسبة إلى غيرها مِنَ الأُممِ، وإن كانت متفاضلة في ذاتها» [فتح القدير: ٢/ ٦٠٨].

ب- قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣]، والوسطُ: الأفضلُ والأكملُ والأعدلُ، والوَسَطُ - وهو مركز الاتزان في الشيء - ممدوح، والأطرافُ مذمومةٌ، وقد دلَّ على أفضليةِ هذه الأمة أنَّها تشهدُ للرُّسُلِ يوم القيامة، فنوحٌ ومَنْ بعده عندما تكذِّبهم أُممهم، تشهدُ لهم هذه الأمةُ أنَّهم بَلَّغوا دينَ الله إلى أقوامهم.

ج- تصريحُ الرسولِ ﷺ أنَّ أمته خيرُ الأمم، ففي سنن الترمذي عن مَعْمَرٍ، عن بَهْزِ بنِ حكيم، عن أبيه، عن جَدِّه، أنَّه سمع النبي ﷺ يقول في قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١١٠] قال: «أنتُم تُتِمُّونَ سبعينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خيرُها وأكرمُها على الله» [الترمذي:٣٠٠١، وقال فيه: حديث حسن، وأورده الألباني في صحيح الترمذي: ٢٣٩٩، وقال: حسن].

د- أنَّ رسولَ هذه الأمة محمداً ﷺ خيرُ الرسلِ وأفضلُهُمْ، ودينُ هذه الأُمَّةِ خيرُ دينٍ، وأُعْطِيَ رسولُها ما لم يُعْطَهُ أحدٌ مِنْ الأنبياءِ، وفي مسند أحمد عن عليٍّ بن أبي طالب قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ : «أُعْطِيتُ ما لم يُعْطَ أحدٌ مِنَ الأنبياء، فقلنا: يا رسول الله ما هُوَ؟ قال: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ، وأعطيتُ مفاتيحَ الأرض، وسُمِّيت أحمدَ، وجُعل الترابُ لي طَهوراً، وجُعلتْ أُمتي خيرَ الأمم» [ابن كثير: ١/ ٤٣٩. وقال فيه: تفرَّدَ بِهِ أحمدُ مِنْ هذا الوجه، وإسناده حسن]. ومن الفضائل التي حازها رسولُنا ﷺ أنّه أُرْسِلَ إلى النَّاس كافةً، وكلُّ نبيٍّ قبله بُعث إلى قَوْمِهِ خاصةً.

هـ- أُمَّةُ محمدٍ ﷺ أكثرُ الأمَمِ دخولاً الجنةَ، ففي البخاريِّ ومسلم عن عبدِالله قال: كنَّا مع النبيِّ ﷺ في قُبَّةٍ، فقالَ: «أَتَرْضَونَ أن تكونوا ربعَ أهلِ الجنّة؟» قلنا: نَعَمْ. قال: «أترضون أَنْ تكونوا ثُلثَ أهْلِ الجنةِ؟» قلنا: نعم، قال: «أترضون أَنْ تكونوا شَطْرَ أهلِ الجنَّة؟» قلنا: نعم، قال: «والذي نفسي بيدِهِ إنِّي لأرجو أنْ تكونوا نصفَ أهلَ الجنَّةِ، وذلك أنَّ الجنةَ لا يَدْخُلُها إلا نفسٌ مُسْلمةٌ، وما أنتم في أهلِ الشركِ إلا كالشَّعرةِ البيضاءِ في جِلْدِ الثورِ الأسود، أو كالشَّعرةِ السوداءِ في جِلْدِ الثورِ الأبيض» [البخاري: ٦٥٢٨. ومسلم: ٢٢١].

٢- خصائصُ هذهِ الأمَّةِ:

ذَكَرَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- أنَّ هذه الأُمَّةَ خيرُ أمَّةٍ أُخرجتْ للناس، وذكر لها ثلاث خصائص فُضِّلت بها على غيرها، أولاها: أمرُها بالمعروفِ. والثانية: نهيُها عن المنكر. والثالثة: إيمانها بالله

جنـــــة السـنة

تعالى. وقد سَبَقَ ذكرُ النصوصِ الدالَّةِ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤].

٣- لِمَ أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بفضْلِنا:

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- بفضْلِنا على بقيَّةِ الناس حتى لا ينحرف بنا المسارُ، ولا ننخدعَ بدعوى الضالِّينَ مِنَ البشر مِنَ اليهودِ والنصارى والمشركين وغيرهم، الذين يدَّعون أنَّهم الأفضلُ والأكملُ والأحسنُ، وحتى نقوم بالدورِ المناطِ بنا في هداية البشر إلى دينِ الله الذي جاءَنا مِنْ عندِ الله.

ونحن اليوم في معترك صِراع ضَخْم، يريدُ اليهودُ والنصارى أن يَغْرسوا في قلوبنا أنَّنا قومٌ متخلِّفُونَ ضالون ضائعون، وأنَّهم أهلُ الحضارةِ والمدنيةِ والتقدُّم والرِّفعةِ، ولذلك علينا أنْ نَفْقَهَ هذا الدين، ونصوغَ حياتنا وَفْقَ تعاليمه، ونغسلَ قلوبنا وأعمالنا ومجتمعنا مِنْ أدناسِ جاهليةِ الغربِ وقاذوراتِها، وبذلك نعودُ إلى الأصالةِ والفَضْلِ.

إنَّ الأصالَة والفضل ليست بالقصورِ العالية، والحدائقِ الغنّاءِ، والطعام الطيِّبِ، والملابسِ الزاهيةِ، فقد كان صحابةُ رسول الله ﷺ الذين مثَّلوا الإسلامَ في واقعِ الحياةِ تمثيلاً عمليًّا مشهوداً، كانوا لا يملكون الكثيرَ ممَّا تملكه الحضارةُ الغربيةُ، ولكنَّهم كانوا خيرَ النَّاسِ وأفضلَ الناسِ، وسمَّى الرسولُ ﷺ (طيبة) البلد التي كانوا يسكنونها بـ(المدينة) لأنَّها تضمُّ المجتمعَ المتحضر الراقي، مع أنَّ بيوتها كانت صغيرة مبنية من الطين، وشوارعها ضيقة، وأهلها فقراءَ.

٤- لو آمن أهلُ الكتابِ لكان خيراً لهم:

آمنتْ فئةٌ قليلةٌ مِنَ اليهودِ والنصارى، وكفرتْ فئةٌ عظيمة، ولو آمنوا كُلُّهم لكانَ خيراً لهم ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران:١١٠].

ودخولُ أهلِ الكتاب في الإيمانِ خيرٌ لهم، لأنهم عندما يدْخُلُون في هذا الدِّين يصبحون مِنْ جُملَةِ الأُمَّةِ التي هي خيرُ أُمةٍ أُخرجتْ للنَّاس، فعبدُ الله بنُ سلام عندما دخل في الإسلام وكان حَبْراً من أحبارِ اليهود، أصبح مِنْ صحابةِ رسولِ الله ﷺ، وأصبحَ مِنَ الرعيلِ الأول مِن هذه الأمةِ، وكذلك كلُّ مَنْ آمنَ من اليهودِ والنصارى في مختلفِ العصورِ يصبحُ من هذه الأُمَّةِ التي هي خيرُ أُمَّةٍ أُخرجتْ للناس على مدارِ التاريخِ الإسلامي.

جنـــــة السـنـــــة

وقد وصفَ الله الكفرةَ من أهلِ الكتابِ بالفسق، أي: الخروج عَنْ طاعةِ الله ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات:١١].

٥- لا يستطيع اليهود الإضرار بالمؤمنين:

أخْبرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ محمداً ﷺ أنَّ اليهودَ والنصارى لن يَضُرّونا إلاَّ أذى، ومن ذلك ما قاموا بِهِ مِن كتمانِ النصوصِ التي في كتبتهم التي تبشِّرُ بمحمدٍ ﷺ وكتابه، وادَّعوا أنَّه لا ذِكْر لرسولنا ﷺ في كُتُبِهِمْ، ومِنْ ذلك دعواهم كاذبين أنَّهم الأفضلُ والأكملُ، وأنّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطَ كانوا هوداً أو نصارى، ودعواهُمْ أنَّهم أهلُ الجنةُ، وأننا أهلُ النارِ.

وكان المسلمون يُؤْذَوْنَ، وهم يسمعونَ هذه الأكاذيبَ والافتراءاتِ، ولم يكن يتعدى ضرر بني إسرائيل الأذى، وأخبرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه وأصحابَهُ أنَّ اليهود والنصارى إذا قاتلوا المسلمين، فسيولُّون الأدبارَ، ويهزمون في ميدانِ القتالِ، ولن يكتب لهم النَّصرُ علينا ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١١١﴾ [آل عمران:١١١].

وقد وقع الأمرُ وفق ما أخبرَ اللهُ تعالى به، فقد قاتلَ المسلمون اليهود، في المدينة فهُزِمَ اليهودُ في كلِّ المعارك التي خاضوها في مواجهة المسلمين، فمنهم مَنْ أخرجَهُمْ المسلمون بعد انتصارِهِم عليهم مِنَ المدينة، ومنهم الذين قُتِلَت مقاتِلَتُهُمْ وسُبِيَت ذريَّتهُمْ ونساؤُهم، وقاتل المسلمون يهودَ خيبرٍ فانتصروا عليهم نصراً مؤزراً.

٦- ستُهزمُ يهودُ اليوم الذين احتلوا بلادنا فلسطين إن شاء الله:

القاعدةُ العامة في مسيرةِ بني إسرائيل عَبْرَ تاريخهم بعد فسادِهِمْ أنَّ اللهَ ضربَ عليهم الذلَّةَ والمسكنةَ، وأنَّهم باؤوا بغضبٍ من الله تعالى، قالَ سبحانه فيهم: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٦١].

وقَضى ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- أنَّه سَيَبْعَثُ عليهم مِنْ يسومهم سوءَ العذابِ إلى يومِ القيامةِ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف:١٦٧].

ومَنْ يقرأُ تاريخَ اليهود يرى صِدْقَ ما أَخْبَرَ اللهُ به عنهم، ويجدُ أنَّ اللهَ سامَهُمْ سوءَ العذاب طيلةَ الفترةِ الماضية، وقد عَرَضْتُ شيئاً مِنْ العذابِ الذي سامتهم به الدول الأوروبية في كتابي الذي أسميته: «وليتبروا ما عَلَوْا تتبيراً».

جنـــــة السـنة

وقد أعلمنا اللهُ -عزَّ وجلَّ- أنَّ لهذه القاعدةِ استثناءً، وقد وَقَعَ هذا الاستثناءُ في أيامنا هذه، ولم أجْد أحداً من المعاصرين، فضلاً عن السابقينَ مَنْ نَبَّهَ إلى وقوعِ هذا الاستثناء في أيامنا. وهذا الاستثناء هو المذكور في قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران:١١٢].

أخبرنا ربنا -عزَّ وجلَّ- في هذه الآيةِ أنَّه ضربَ على بني إسرائيلَ الذلَّةَ أينما حَلُّوا وفي أيِّ بلدٍ عاشوا، وكان المفسرون ولا يزالونَ يفسِّرونَ رفعَ الذلَّةِ عن بني إسرائيل بحبلِ الله وحبلِ الناسِ الذين هم أمةُ محمدٍ، وهذا الحبلُ هو عَقْدُ الذِّمَّةِ الذي يأمنون به إذا دخلوا ديارَ الإسلامِ على أموالِهِمْ وأنْفُسِهِمْ وأبنائهم ونسائهم، وقد عاش اليهودُ في ظلِّ الدولةِ الإسلامية في اليمن والعراق وفلسطين ومصرَ وغيرها، كما عاشَ جمعٌ كبيرٌ منهم في الأندلسِ، فلما طُرِدَ المسلمونَ منها طُرِدَ منها اليهودُ، ولم يجدُوا بلداً يأوون إليه إلا الدولة العثمانية، والآيةُ تحتمل هذا المعنى.

ولكنَّ وراءَ هذا المعنى معنىً آخر، فقد ذكر الله أنَّه ضرب الذلَّةَ على اليهودِ إلا بحبلٍ مِنَ الله وحبلٍ مِنَ الناس، أي: أنَّ الذلَّة سترفعُ عنهم بحبلٍ مِنَ الله وحَبْلٍ مِنَ الناسِ، وقد رُفِعتِ الذلة عن اليهود اليوم، فقد احتلُّوا فلسطينَ وأقاموا لهم فيها دولةً، وأقاموا جيشاً قوياً، وزوَّدُوه بأنواعِ السلاحِ، وأصبح لديهم قدرةٌ على مقاومةِ الدولِ العربيةِ كلِّها في الميدانِ، ومع أنَّ الله غضبانُ على اليهودِ، ويكرهُهُمْ أشدَّ الكُرْهِ، فإنّه قضى بِرَفْعِ الذلَّة عنهم عقوبةً للأمَّةِ الإسلاميةِ بسبب بُعْدِها عنْ دينها، وتَرْكِها لتحكيم كتابِها، وقضاؤُه -سبحانه- برفعِ الذلَّةِ عن اليهودِ قضاءٌ قدريٌّ، وليس بقضاءٍ شرعيٍّ.

وحبلُ النَّاسِ الذي رَفَعَ الذلَّةَ عن اليهودِ تمثَّلَ في تسخير بريطانيا لهم، فقد احْتَلَّتْ فلسطينَ، وحاربتْ أهلَها، حتى سلَّمتْها لليهودِ في عام ١٩٤٨م، وقامت الدولُ العظمى بأعْظَمِ ظُلْمٍ عندما اعترفتْ بدولةِ اليهودِ، وأمدَّت تلكَ الدولةَ الظالمةَ بالمالِ والرجالِ والسلاحِ، وامتدَّ حَبْلُ النَّاسِ إلى الدولِ العربيةِ والإسلاميةِ، فقد أقامتْ بعضُ هذه الدولِ علاقاتٍ دبلوماسيةً مع دولةِ اليهودِ، فزادوا مِنْ غضب الله علينا.

وقد وقعَ مثلُ هذه الواقعة لليهود أيامَ كان فيهم نبيٌّ، وفيهم بعض الخير، فقد قتَلَ منهم نبُوخذُ نَصَّرَ مَنْ قتَلَ، وسبى مَنْ سبى، وقد ساقَ ذلك السبي وفيهم ذلك النبيُّ إلى ديارِهِ في بابلِ العراق.

وهذه الآيةُ التي تخبر بهذه الوقعة تُبَشِّرُنا في الوقتِ نفسِهِ أنَّ هذا الاستثناءَ لن يدومَ طويلاً، وأنّ النصرَ آتٍ آت، فبعد أن أخبر الله برفعِ الذلَّة عنهم بحبلٍ مِنْ الله وحَبْلٍ مِنَ

جنـــــة السـنــــة

الناسَ، أخبرنا أنَّ غضبَ الله عليهم باقٍ لا يشمله الاستثناءُ، وأنَّ المسكنةَ مضروبة عليهم لا تُرْفَعُ، فإذا عاد المسلمون إلى دينهم الذي بسببه سلَّط اللهُ عليهم اليهودَ انقطع حبلُ الله الذي رَفَعَ بِهِ الذلَّة عنهم، وعادت الذِّلةُ تتلبسهم، مع استمرارِ غضبِ الله عليهم، واستمرارِ المسكنةِ التي لا تفارقهم، ومَنْ نَظَرَ في موقفِ اليهودِ مِنْ رَبِّهم رأى هذا الغضب واقعاً بهم، ورأى المسكنةَ تتلبَّسهم في موقفهم مِنَ الدول الكبرى، فلولا حمايةُ أمريكا وبريطانيا وفرنسا وروسيا وغيرها لليهود لزالوا من الوجودِ سريعاً، وسيزولُ هذا العلوُّ قريباً إنْ شاء الله، وسأفصِّل القولَ في هذه المسألة إن شاء الله في تفسير الآيات الأولى من سورة الإسراء، عندما نتحدث عن المرتين التي يُفْسد فيها بنو إسرائيل في الأرض، ويَعْلُونَ علواً كبيراً، ونبيِّن هناك أنَّ هاتين الإفسادتين هما الواقعتان الآن، وقد بينتُ هذا في كتابي: «وليتبروا ما علوا تتبيراً».

٧- السببُ في ضَرْب الله الذلَّةَ والمسكنةَ على بني إسرائيل، وإحاطة غضب الله بهم:

بَيَّن اللهُ -عزَّ وجلَّ- أنَّ ضَرْبَ الذلَّةِ والمسكنةِ على اليهودِ وإحاطةَ غضبِ الله بهم كان بسبب كفرهم بآياتِ الله، وقتلهم الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ، وكان أيضاً بسبب عصيانِهِمْ وعُدْوانِهِمْ، قالَ سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران:١١٢].

لقد كَفَرَ كثيرٌ مِنَ بني إسرائيل بآياتِ الله التي في كتابِهِمْ التي تُحدِّثهم عَنْ محمدٍ ﷺ وبعثتِهِ وكتابِهِ وأُمَّتِهِ، وكفروا بآيات الله التي أنزلتْ إليه، وهي القرآن، وقتلَ بنو إسرائيل بعضَ أنبيائهم، وحاولوا قتلَ عيسى عليه السلام، كما حاولوا قَتْلَ رسولِنا ﷺ، وقتلوا الذين يأمرون بالقسط مِنَ الناس، وكثرتْ ذنوبهم ومعاصيهم، وكثر عدوانهم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النصِّ مِنَ علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي مِنْ علمٍ وعملٍ:

١- هذه الأُمَّةُ هي أفضلُ الأمم على مدارِ التاريخ الإنساني بتفضيلِ الله لها، وبما حازَتْهُ مِن الصفاتِ والخصائصِ.

٢- ذكر اللهُ خصائصَ الأمَةِ الإسلاميةِ التي جعلتْها أفضلَ أمة، وهي أمرها بالمعروفِ، ونهيها عن المنكرِ، وإيمانُها بالله، وهذا يجعل الأمةَ الإسلاميةَ هي الأفضلُ بمقدار ما تحوزه من هذه الخصائص.

جنـــــــة السـنة

٣- أهلُ الكتابِ الذين رفضوا الدخولَ في دينِ الله قومٌ كفرة فَجَرَةٌ، لا يجوزُ أخذ الهدى والحقِّ منهم، ولا تجوز متابعتهم في كفرهم وضلالِهِمْ.

٤- إذا استقامَ المسلمونُ على دينهم أعزَّهم اللهُ ونصرهم على عَدُوِّهِمْ، كما نصرهم الله على بني إسرائيل في زَمَنِ رسولِنا محمد ﷺ وفي زمن الصحابة رضوان الله عليهم.

٥- اليهودُ مضروبٌ عليهم الذلة والمسكنةُ، وقد بَعَثَ اللهُ عليهم مَنْ يسومُهُمْ سوءَ العذابِ إلى يومِ القيامةِ.

٦- استثنى اللهُ فترةً زمنيةً، ترفع فيه الذلَّةُ عن بني إسرائيلَ، وهذه الفترة واقعة اليوم، ومع أنَّ الذلَّةَ مرفوعةٌ عنهم في أيامنا، لكنَّ المسكنة لا تزالُ تحيطُ بهم، وغضبُ الله لم يُرفعْ عنهم، وهذا مؤذنٌ بأنّ الذلة ستعودُ إليهم، وسيهزمون في ميدانِ الحربِ والقتالِ بإذن الله، كما هَزَمَ المسلمون الصليبيين مِنْ قبل.

جنـــــة الســـــــنة

النصُّ الرابعُ والعشرونَ من سورة آل عمرانَ
الذين آمنوا والذين كفروا من أهل الكتاب

أولاً: تقديم

حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ أنَّ أهلَ الكتابِ فريقان: الأولُ: الذين آمنوا منهم، واتصفوا بصفاتِ المؤمنين، فهؤلاء أخيارٌ صالحون، لهم أجرُهمْ وثوابُهُمْ عند ربِّهم.

والفريقُ الثاني: الكفارُ منهم، وهؤلاءُ سيحيطُ بهم عذابُ الله تعالى في يوم الدِّين، ولن تغني عنهم أموالُهُمْ ولا أولادهم شيئاً مِنْ عذابِ الله، وهم أصحابُ النَّارِ لملازمتهم لها، وما ينفقوه مِنْ مال لا ينفعهم شيئاً يومَ القيامة، ومثله كمثل ريحٍ باردةٍ أصابتْ حرثَ الظالمين فأهلكته.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم من سورة آل عمران

﴿ ۞ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [آل عمران:١١٣-١١٧].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آياتِ هذا النصِّ مِنَ القرآن

١- المؤمنون من أهل الكتاب:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ أهلَ الكتابِ ليسوا سواءً، ﴿ ۞ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [آل عمران:١١٣] وقد دلت الآية على أنهم فريقان: فريقٌ آمن، وفريقٌ كفر، فقد آمن مِن اليهودِ عبدُالله بن سلامٍ وزوجته وأولاده وعمته، وآمنَ منهم أَسَدُ بنُ عُبيدٍ، وثَعلَبَةُ بنُ سَعْيَةَ، وأُسَيْدُ بنُ سَعْيَة وغيرهم، وآمنَ النجاشيُّ وطائفةٌ مِنْ قومه في الحبشة، وآمنتْ طائفةٌ من نصارى نجران، وآمنت طوائفُ من اليهود والنصارى بعد ذلك في كلِّ عصر ومصر.

جنـــــة السـنـــــة

وهؤلاء الذين دخلوا في الإيمانِ صادقين كانوا يقومون الليل يتهجدون، ويتلون في صلاتهم آياتِ القرآنِ وقوله: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي: يصلّون. وهؤلاء الذين آمنوا مِنْ أهلِ الكتابِ دخلوا في هذه الأمة التي هي خيرُ أُمةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاس، واتصفوا بالصفاتِ التي أَهَّلَتْهم للخيريَّة التي ذكرها الله في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠]، وقد ذكر اللهُ صفاتِ المؤمنينَ من أهلِ الكتاب في هذه الآية فقال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران:١١٤].

وأوّل هذه الصفات التي وصف اللهُ الذين دخلوا في الإسلام مِنْ أهلِ الكتابِ بها هي: إيمانهم بالله واليوم الآخر، والصفة الثانية: أمرُهُم بالمعروفِ ونهيهم عن المنكر، والصفة الثالثة: مُسارَعَتُهُمْ في الخيراتِ، أي: المسابقةُ والتنافس في الخيرات، وهي الأعمالُ الصالحةُ. وقد حَكَمَ اللهُ على من اتَّصَفَ بهذه الصفاتِ بأنَّهم مِنَ الصالحين. وقد وَعَدَ ربُّ العزَّةِ أهلَ الكتابِ الذين آمنوا واتصفوا بهذه الصفات العظيمة بأنْ يثيبهم على ما فعلُوه من خيراتٍ، وأنَّه لَنْ يُضيِّعَ هؤلاءِ من المتقين، واللهُ عليمٌ بالمتقين، وسيجيزهم الجزاءَ الأوفى ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران:١١٥].

وقد وَصَفَ اللهُ تعالى هذا الصنف مِنْ أهل الكتاب في موضع آخر فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران:١٩٩].

٢- **الفريق الثاني من أهل الكتاب وهم الكفار:**

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الفريقَ الثاني مِنْ أهلِ الكتاب، وهم الكفَّار لن تُغْنِيَ عنهم أموالهم ولا أولادُهم مِنَ الله شيئاً، وأنهم أصحاب النَّارِ هم فيها خالدون، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [آل عمران:١١٦].

وهذه الآيةُ الكريمةُ جاءتْ بصيغةٍ شملت الكفارَ جميعاً مِنْ أَهْلِ الكتاب وغيرهم، فالكفارُ جميعاً على اختلاف فرقهم لنْ تُغْنِيَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهُمْ مِنَ الله شيئاً، وهم جميعاً أصحابُ النَّارِ هم فيها خالدون، ولا فرقَ بين أهلِ الكتابِ وغيرهم في ذلك.

جنــــة الســــــنة

قال ابن جريرٍ الطبريُّ في تفسيره لهذه الآية: «هذا وَعيدٌ مِنَ الله للأمَّةِ الأخُرى الفاسقةِ مِنْ أهلِ الكتاب، الذين أخْبَرَ عنهم بأنَّهم فاسقون، وأنهم قد باؤُوا بغضبٍ منه، ولمن كان مِنْ نظرائهم مِنْ أهل الكفر بالله ورسولِهِ» [تفسير الطبري: ٣/ ١٩٣٠].

و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: الذين أشركوا بالله تعالى، وكفروا بالرسول الخاتم ﷺ وبما أنزلَ اللهُ عليه، وقوله: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١١٦]، أي: لا تَدْفعُ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم شيئاً مِنْ عذابِ الله، ذلك أنَّ عذابَ الله ساحقٌ ماحقٌ، لا يقف في وجْهِهِ شيءٌ، وسمَّى اللهُ الكفرةَ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، لأنهم بعد دخولهم النار يلازمونها، ولا يفارقونها، ولا يخرجون منها، وهي صحبةٌ دائمة، لا انقطاع لها.

٣- **مَثَلُ ما يُنْفِقُهُ الكفارُ:**

ذكر اللهُ - عزَّ وجلَّ - أنَّ ما ينفقه الكفارُ مِنْ مالٍ سواء أحاربوا به الإسلام والمسلمين، أو أنفقوه يريدونَ بِهِ وجهَ الله، فإنَّه إلى اضمحلالٍ وفناءٍ وخسران، ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران:١١٧]. أخبرنا اللهُ أنَ ما ينفقه الكفرةُ مِنْ المالِ في هذه الحياة، فإنَّه إلى بوارٍ وخسران، ومَثَلُه كمثل ريح فيها صِرٌّ أصابتْ بستاناً أو حديقةً لقومٍ ظلموا أنفسهم فأهلكَتْهُ، وقال ابن عطيةُ: «الصِّرُّ: البردُ الشديدُ المحرقُ لكلِّ ما يهبّ عليه، وهو معروفٌ، قال ابن عباسٍ وجمهور المفسرين: الصِّرُّ: البرد، وتسميه العرب: الضَّريب، وذهب الزجَّاجُ وغيرُه إلى أنَّ اللفظة من التصويتِ، من قولهم: صَرَّ الشيءُ، ومنه الريحُ الصَّرْصَرُ، قال الزجّاج: فالصِرُّ، صوت النَّار التي في الريح» [المحرر الوجيز: ٢/ ٣٢٨].

والحرثُ في الآية شاملٌ للزَّرْعِ والثمار، ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: بالذنوب والمعاصي، ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ أي: هبتْ به فدُمِّرَ واحترق، وما ظلمهم اللهُ بفعله هذا بهم، وإنما جازاهم بأفعالهم الخبيثة.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النصِّ مِنْ علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي مِنْ علمٍ وعملٍ:

١- بعضُ أهلِ الكتابِ على مدارِ العصورِ آمنوا بالله واليوم الآخر، واتصفوا بصفاتِ المؤمنينِ، وهؤلاءِ مِنَ الصالحين ولن يُضيعَ ربُّ العزَّة شيئاً مِنْ أعمالهم.

جنـــــة الســــــنة

٢- الكفارُ مِنْ أهلِ الكتاب وغيرُهُمْ لَنْ تُغنيَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهُمْ يومَ القيامةِ مِنْ عذابِ الله شيئاً، فاللهُ سبحانه قويٌّ غالبٌ، ولا يستطيعُ أَحَدٌ أن يقفَ في وجهِ عذابِهِ في يومِ الدِّينِ.

٣- يُشْتَرَطُ الإيمانُ لصحَّةِ قبولِ الأعمالِ الصالحةِ، ولذا فإنَّ إنفاقَ الكفارِ أموالَهُمْ في الدنيا لا يقبله اللهُ، وقد ضَرَبَ اللهُ له مثلاً بالريح الباردةِ التي أصابتْ حرثَ قومٍ فأهْلكتْهُ.

جنـــــة السـنة

النصُّ القرآنيُّ الخامسُ والعشرونَ مِنْ سورةِ آل عمرانَ
الموقفُ الذي يجبُ أنْ يَقِفَهُ المسلمونَ مِنَ اليهودِ والنصارى

أولاً: تقديم

أعْلَمَ اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين مِنْ صحابةِ الرسولِ ﷺ فَمَنْ بعدهم إلى يوم الدِّين بالموقفِ الذي يقفه اليهودُ منَّا، وأعلمنا بالموقفِ الذي يجبُ أنْ نقفه منهم، وما أحْرانا بأنْ نقفَ عندِ آياتِ هذا النصّ طويلاً، فقد عادَ اليهودُ اليومَ لمواجهةِ الأمَّةِ الإسلاميَة، فقد احتلُّوا ديارنا، وعَرْبدوا في مقدساتِنا، وأخرجونا مِنْ أوطاننا، وقتلوا رجالَنا ونساءَنا وأطفالنا، ولا نستطيعُ أنْ نُوقِف مكرَهُمْ وكيدَهُمْ إلا إذا فقهنا عن ربِّنا كيفَ تكونَ معاملتنا لهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ
ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ
تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ
ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ
يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [آل
عمران:١١٨-١٢٠].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ من القرآن

١- نهي الله -تعالى- المؤمنين أنْ يتخذوا اليهودَ والنصارى بطانةً مِنْ دون المؤمنين:

نهانا اللهُ -عزَّ وجلَّ- عن اتخاذ اليهودِ والنصارى بطانةً مِنْ دونِ المؤمنين، وبطانةُ الرجلِ أصدقاؤه وخُلاَّنُهُ الذين يستبطنون أمْرَهُ، وأصْلُهُ من البَطْنِ الذي هو خِلافُ الظهر، شَبَّه الأصدقاءَ والأخلاءَ بما يلي بطنَ الإنسانِ من ثوبه، وقوله تعالى: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ أي: مِنْ غيركم مِنَ اليهودِ والنصارى.

وإنما نهانا اللهُ -تعالى- عن اتخاذِهِمْ بطانةً، لأنهم كما أخبر اللهُ عز وجلَّ لا يألونَنا خبالاً، والخبالُ: الفَسادُ، وهم يحبُّون في أعماق قلوبهم أن يصيبنا العنتُ والشرُّ في ديننا ودنيانا، والعنَتُ: المشقَّةُ والمكروه.

جنـــــة الســــــنة

روى ابن جرير عن ابن عباس، قال: «كان رجالٌ مِنَ المسلمين يواصلون رجالاً مِنَ اليهودِ لما كان بينهم مِنَ الجوار والحِلْفِ في الجاهليةِ، فأنزل اللهُ فيهم يَنْهاهم عن مُباطَنَتِهم، وتَخَوُّفَ الفتنةِ عليهم منهم، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ [آل عمران:١١٨-١١٩]» [تفسير ابن جرير الطبري: ٣/ ١٩٣٥].

وأخبرنا ربُّنا -سبحانه- أنَّ البغضاءَ بدتْ مِنْ أفواهِ هؤلاءِ، أي: بَدَتْ مِنْ فلتات ألسنتهم، فالألسنةُ قد تَشي بما تُكِنُّه النفوسُ مِنْ بغضاء، كما قد يبدو ذلك في نظراتِ الأعين، وحركاتِ اليديْن، وقسماتِ الوجه، وأخبرنا رَبُّنا أنَّ ما يخفونه في صدورهم مِنَ البغضاءِ والكراهيةِ لكم أكبرُ مما تحدثت به ألسنتُهم.

وقد استثارَ اللهُ المؤمنين لمواجهةِ اليهودِ والوقوف الموقفَ الصحيح منهم بقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ١١٨﴾ [آل عمران:١١٨] أي: قَدْ بيَّنا لكم مِنْ أمرِ اليهودِ الذينَ نهيناكم أن تتخذوهم بطانةً مِنْ دون المؤمنين ما تعتبرون به وتتعظون بعظات الله في أمْرِهِ ونَهْيِهِ.

٢- لوم الله المؤمنينَ في محبَّةِ بعضهم لليهودِ مَعَ كون اليهودِ يكرهون المؤمنين:

وجَّه الله -تبارك وتعالى- اللوْمَ لمن يحبُّ اليهودَ مِنَ المؤمنين، وذلك أمرٌ غيرُ مقبولٍ، بينما أنتم تحبُّونَهُمْ، فإنَّهم لا يبادلونكم الحبَّ، بَلْ هُمْ يَكْرَهونكُمْ ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ [آل عمران:١١٩].

وأمْرٌ آخر تناقضَ فيه الموقفانِ، فالمؤمنون يؤمنونَ بالكتابِ كلِّه، فهم يؤمنون بصحف إبراهيم وبالتوراةِ والزبورِ والإنجيلِ والقرآنِ، بينما اليهودُ يكفرون بالإنجيلِ والقرآنِ، ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ [آل عمران:١١٩].

٣- موقف اليهودِ مِنَ المؤمنين:

أَخْبَرَنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّ اليهودَ في العهدِ النبويِّ كانوا يَدَّعون عندما يُقابلون المؤمنين أنَّهم مؤمنون، فإذا خَلا بعضُهم إلى بعضٍ بعيداً عَنْ أعينِ المؤمنين عَضُّوا أصابِعَهُمْ لِعظَمِ غَيْظِهم على المؤمنين قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران:١١٩].

والأناملُ: أطرافُ الأصابع، وعضُّهم لها لشدَّة الغيظِ الذي في قلوبهم، والغيظُ -كما يقول الراغب: «أشدُّ الغضبِ، وهو الحرارَةُ التي يجدها الإنسان مِنْ فوران دَم قَلْبه» [المفردات: ص٣٦٨].

جنـــــة السـنــــة

وقد أمرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أن نقول لهؤلاء: ﴿ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾ [آل عمران:١١٩]. وعلى المؤمنين أن يأْتمروا بما أمر اللهُ رسولَه ﷺ، فيقولوا لليهودِ المنافقين الغادرين: ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ [آل عمران:١١٩].

٤- اليهودُ يسُوؤهم ما يصيبنا مِنْ حسناتٍ ويُفْرِحُهُم ما يصيبُنا مِنْ سيئاتٍ:

أخْبَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ قلوبَ اليهودِ مملوءةٌ حقداً على هذه الأمة، فتراهم يستاؤون إذا أصابنا اللهُ تعالى بالنِّعمِ والحسناتِ، ويفرحون إذا حلَّت بنا النقمُ والسيئاتُ، قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ ﴾ [آل عمران:١٢٠].

قال قتادةُ: «إذا رأوا مِنْ أهلِ الإسلامِ أُلْفَةً وجماعةً وظهوراً على عدوِّهم غاظَهُمْ ذلك وساءَهم، وإذا رأوا من أهْلِ الإسلامِ فرقةً واختلافاً أو أصيبَ طرفٌ مِنْ أطرافِ المسلمين سرَّهم ذلك وأُعجبوا به، وابتهجوا به» [تفسير الطبري: ٣/ ١٩٤٢].

وقد بيَّن الله -تبارك وتعالى- الموقفَ الذي يجبُ أن نَقِفَه تجاه يهود الذين يريدون بنا القوارع والنوازل، فقال: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [آل عمران:١٢٠].

يقولُ الله لعبادِهِ المؤمنين: إن تصبروا على طاعة الله، واتباعِ أوامره، وترك نواهيه، وتركِ اتخاذِ اليهودِ أخلاء وأولياء لا يضرُّكم كيدُ هؤلاءِ اليهود، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران:١٢٠] أيْ: إنَّ علمَ الله محيطٌ بما يعمله اليهودُ مِنْ الفسادِ، وإثارةِ الحروبِ، وقدرةُ الله فوقَ قوةِ اليهودِ، وهو قادرٌ على جعل تدميرهم في تدبيرهم، وإيقاف كيدهم، وإنزال العذاب بهم.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النصِّ مِنْ علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرنا آيات هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- نهى اللهُ تعالى المؤمنينَ أن يتخذوا اليهودَ والكفارَ جميعاً بطانةً يودُّونهم.

٢- اليهودُ يُجْهِدُونَ أنفسَهُمْ بكلِّ سبيل لإفساد حياةِ الأسرِ والأفرادِ والمجتمعِ، يدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾.

٣- اليهودُ يَسْعَوْنَ في جَلْب العَنَتِ والشرِّ لنا في ديننا ودنيانا، يدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾.

جنـــــة الســـــــنة

٤- اليهودُ لا يكتمون البغضاءَ التي طفحت بها قلوبُهمْ تجاهَ المؤمنين، فترى أَلْسِنَتَهم تسيلُ شرّاً وارْتياباً، وفي قلوبهم مَزيدٌ من الشرّ ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ .

٥- الذي يحبُّ اليهودَ مِنَ المؤمنين يتوجَّهُ إليه اللَّوْمُ والتوبيخُ مِنْ ربِّ العزة، ويزداد اللَّومُ والتوبيخُ لأنهم لا يُقابَلُون هذا الحبَّ بمثله، ولكنَّهم يقابلونه بالكراهةِ والبغضاءِ ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾.

٦- اليهودُ منافقون، فتراهم إذا لقونا قالوا لنا: آمَنَّا بدينكم، فإذا فارقونا، وخَلَا بعضُهم إلى بعضٍ أظهروا غيظهم في صورةٍ منكرةٍ، فتراهم يعضُّون أصابعهم مِنْ شدةِ ما يعانون من الكراهية والغيظِ.

٧- اليهودُ يسوؤهم ما يصيبنا اللهُ بِهِ من حسناتٍ، ويفرحهم ما يحُلُّ بنا من السيئات.

٨- بيَّنَ اللهُ تعالى لنا الموقفَ الذي يجب أنْ نَقِفَهُ مِنَ هذه المِلَّةِ الضالَّة، وذلك بالصبر على أذاهم، وتقوى الله تعالى، ثمَّ أمرنا بعد ذلك بقتالهم.

٩- علينا في مواجهتنا لليهودِ أن نلجأ إلى ربِّنا، ليحمينا من كيدهم، فهو عليم بهم، وعلمه بهم محيط، وهو قادرٌ على نَصْرِنا وإدالتنا عليهم.

جنـــــة الســــــنة

النص السادس والعشرون من سورة آل عمران
غُدُوُّ الرسولِ ﷺ من أهلِهِ يُبوِّئُ المؤمنين مقاعدَ للقتال

أولاً: تقديم

آياتُ هذا النصِّ وما بعدها تتحدَّثُ عَنْ غزوةِ أُحُدٍ، وأُحُدٌ جَبَلٌ قريبٌ من المدينة، بينه وبينها فرسخٌ واحد، وهو الذي قال الرسولُ ﷺ فيه: «هذا جبلٌ يحبُّنا، ونُحِبّه» [البخاري: ٤٠٨٤. مسلم: ١٣٦٥].

والغَزْوةُ هي المعركةُ الحربيةُ التي تكونُ في عهدِ الرسول ﷺ ، ويكونُ الرسول قائداً لها، والسريةُ هي المعركةُ الحربيةُ التي يُؤَمِّر الرسولُ ﷺ عليها أحد أصحابه.

وغزوةُ أحدٍ كانت في شهر شوَّالٍ سنة ثلاثٍ من الهجرةِ باتفاق العلماء، وأرجحُ الأقوالِ أنها كانت لإحدى عشرة ليلة خلتْ منه [راجع فتح الباري: ٧/ ٤٣٢].

وكان سببُ المعركةِ أنَّ قريشاً وحلفاءَها جاؤوا المدينةَ بجيشٍ تعدادُه ثلاثةُ آلافٍ يريدونَ الثأرَ لمن قُتل منهم في غَزْوَةِ بدرٍ.

واستشار الرسول ﷺ أصحابَهُ في الخروج إلى أُحُد، أو البقاء في المدينةِ ومقاتلة المشركين في شوارعها، ووجد الرسولُ ﷺ أكثرَ أصحابِهِ يميلون إلى الخروج، فلما لَبِسَ لأمة حَرْبِهِ، طلب منه الذين حَبَّذوا له الخروج البقاءَ إنْ شاء، فأبى، لأنه لبس لأمَةَ حربه[1]، وما كان له أن يضعها حتى يحْكُمَ اللهُ بينَهُ وبين عدوّه، مع أنه كان يرغبُ أن يبقى في المدينة.

وجَرَتْ في هذه المعركةِ التي هُزم فيها المسلمونُ وقائعُ كثيرةٌ، عَقَّب عليها القرآنُ مبيناً سننه التي أجراها في عِباده، وبيَّنَ فيها كثيراً من العِبَرِ والدروسِ والعظاتِ.

الآياتُ والأحاديثُ الواردةُ في غزوةِ أحد:

والآياتُ القرآنيةُ التي تناولت المعركةَ تبلغُ قرابة ستينَ آيةٍ، وهي تحملُ ثروةً عظيمة في مجالِ البناءِ والتربيةِ والتوجيهِ والسياسةِ، وقبل أنْ نتناولَ هذه الآياتِ بالتفسير، نوردُ بعض الأحاديثِ النبوية التي تتحدثُ عن وقائع هذه الغزوة.

١ - رؤيا رسولِ الله ﷺ التي رآها قبل معركة أُحُدٍ: رأى رسولُ الله ﷺ قبل غزوة أُحُدٍ رؤيا تدلُّ على ما ستكون عليه الحالُ في هذه الغزوة، فعن بُرَيدِ بن عبدالله بن أبي بُردةَ، عن

---

(١) أي عدة الحرب.

جنـــــة السـنـــــة

جدِّه أبي بردة، عن أبي موسى ﷺ -أُرَى عن النبي ﷺ- قال: «رأيتُ في رؤيايَ أنّي هَزَزتُ سيفاً فانقطعَ صَدرُه، فإذا هوَ ما أُصيبَ من المؤمنين يومَ أُحُد، ثم هززتهُ أخرى فعاد أحسنَ ما كان، فإذا هو ما جاءَ به اللهُ مِنَ الفتحِ واجتماعِ المؤمنين، ورأيتُ فيها بقراً، والله خيرٌ، فإذا همُ المؤمنون يومَ أُحد» [البخاري: ٤٠٨١. ومسلم: ٢٢٧٢].

٢- استعدادُ الرسول ﷺ للغزوة: استعدَّ الرسول ﷺ للمعركة، وبالغ في ذلك، فقد لَبِسَ دِرْعَيْنِ قبيل المعركة فعن السائب بن يزيد، عن رجلٍ سمَّاه، «أنَّ رسول الله ﷺ ظاهَرَ يومَ أُحدٍ بَيْنَ دِرْعيْنِ، أوْ لَبِسَ دِرْعَيْنِ» [أبو داود: ٢٥٩٠، وأوردهُ الألباني في صحيح أبي داود: ٢٢٥٧، وقال: صحيح].

٣- رجوع رأسِ المنافقين عبدالله بن أُبَيّ ابن سلول بثلثِ الجيش: وخرج الرسولُ ﷺ بجيش المسلمينَ إلى أُحُدٍ، وفي الطريقِ رجَعَ عبدالله بن أُبيٍّ ابن سلول بثلاثِ مائةِ مقاتلٍ مظهراً غضبهُ لعدم أخذ الرسول ﷺ برأيه في البقاءِ في المدينةِ، وعدم الخروج إلى أُحُدٍ.

فعن زيد بن ثابت ﷺ قال: لما خرج النبيُّ ﷺ إلى غزوةِ أُحُد، رَجَعَ ناسٌ ممن خرج معه، وكان أصحاب النبيّ ﷺ فِرْقَتينِ: فِرقةٌ تقول: نُقاتِلُهُمْ، وفرقةٌ تقولُ: لا نقاتلهم، فنزلت: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ﴾ [النساء:٨٨] وقال: «إنها طَيْبَةُ تنفي الذُّنوبَ، كما تنفي النارُ خَبثَ الفِضَّة» [البخاري: ٤٠٥٠. ومسلم: ١٣٨٤ و ٢٧٧٦].

٤- شهودُ الملائكةِ غزوةَ أُحُدٍ: أخبرنا رسولُنا ﷺ بشهود بعض الملائكة أُحُداً:

أ- فعن ابن عباسٍ قال: قالَ النبيُّ ﷺ يومَ أُحُد: «ها جبريلُ آخِذٌ برأسِ فرسِهِ عليه أداةُ الحربِ» [البخاري: ٤٠٤١].

ب- وعن سعد بن أبي وقاصٍ قال: «رأيتُ عن يمينِ رسول الله ﷺ وعن شمالِهِ يوم أُحُدٍ رجُلَيْنِ، عليهما ثيابُ بياضٍ، ما رأيتُهما قبلُ ولا بعدُ، يعني جبريلَ وميكائيلَ عليهما السلام» [البخاري: ٤٠٥٤. ومسلم: ٢٣٠٦ واللفظ لمسلم].

٥- تبشيرُ الرسول ﷺ من قُتِلَ في أُحُدٍ بالجنة: عن جابرِ بن عبدالله رضي الله عنهما، قالَ: قال رجلٌ للنبي ﷺ يوم أُحُدٍ: أرأيتَ إن قُتلتُ، فأين أنا؟ قال: «في الجنة» فألقى تمراتٍ في يديهِ، ثم قاتلَ حتى قُتل. [البخاري: ٤٠٤٦. ومسلم: ١٨٩٩].

٦- تخطيط الرسول ﷺ للمعركة وانتصار المسلمون في أوّلها: خطَّط الرسول ﷺ للمعركة، ووضع الرمَّاة على الجبل، وانتصر المسلمون في أوَّلِها، وهُزم المشركون، ثم انهزم

جنـــــة السـنة

المسلمون لما تركَ الرُّماةُ مواقعهم، فعن البراء ﷺ قال: «لقينا المشركين يومئذٍ، وأجلسَ النبيُّ ﷺ جيشاً من الرُّماةِ، وَأَمَّر عليهم عبدَالله، وقال: لا تبرَحوا، إنْ رأيتمونا ظَهَرْنا عليهم، فلا تبرَحُوا، وإنْ رأيتموهم ظَهَرُوا علينا فلا تُعينونا، فلمَّا لَقينا هَرَبوا، حتى رأيتُ النساء يشتَدِدْن في الجبل، رَفعنَ عن سُوقهنَّ، قد بَدَت خَلاخِلُهُنَّ، فأخذوا يقولونَ: الغنيمةَ الغنيمة.

فقال عبدالله: عَهِدَ إليَّ النبيُّ ﷺ أن لا تبرَحوا، فأَبَوْا، فلمَّا أبوْا صُرِفَ وجُوهُهم، فأُصيبَ سبعون قتيلاً، وأشرفَ أبو سفيانَ فقال: أفي القوم محمدٌ؟ فقالَ: لا تُجيبوه، فقال: أفي القوم ابنُ أبي قُحافةَ؟ قال: لا تُجيبوه. فقالَ: أفي القوم ابنُ الخطّاب؟ فقال: إن هؤلاء قُتلوا، فلو كانوا أحياءً لأجابوا، فلم يَملكْ عمرُ نفسه، فقال: كَذَبتَ يا عدوَّ الله، أبقى اللهُ عليكَ ما يخزيك.

قال أبو سفيان: اعلُ هُبَل، فقال النبيُّ ﷺ : أجيبوه، قالوا: ما نقولُ؟ قال: قولوا: اللهُ أعلى وأجلُّ، قال أبو سفيان: لنا العُزّى ولا عُزَّى لكم، فقال النبيُّ ﷺ أجيبوه. قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: اللهُ مولانا ولا مَولى لكم، قال أبو سفيانَ: يومٌ بيوم بدرٍ، والحربُ سِجالٌ، وتجدون مُثْلةً لَم آمُرْ بها، ولَم تَسُؤْني» [البخاري:٤٠٤٣].

٧- اختلالُ أمرِ المسلمين عندما تركَ الرُّماةُ مواقِعَهُمْ وقتْل المسلمين بعضِهم بعضاً: عندما تركَ الرُّماةُ مواقِعَهُم اختلَّ نظام المسلمين، وعند ذلكَ صرخ إبليسُ لعنةُ الله عليه: «أيْ عبادَ الله أُخْراكُمْ» فرجعتْ أُولاهم، فاجْتَلَدَتْ هي وأُخراهُمْ، فبَصُرَ حذيفةُ فإذا هو بأبيه اليمانِ، فقالَ: أيْ عبادَ الله، أبي أبي، قال: قالتْ: فوالله ما احْتَجَزوا حتى قتلوه، فقال حذيفة: يغفِرُ اللهُ لكم» [البخاري: ٤٠٦٥].

٨- ما أصاب الرسول ﷺ في يوم أُحُدٍ: أُصيبَ رسولُ الله ﷺ في هذه الغزوة، وأحاط به المشركون، وجرحوه في رأْسه وكسروا رباعيته، فعن سهل بن سعدٍ قال: «جُرِحَ وَجْهُ رسولِ الله ﷺ ، وكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وهُشِمَتِ البَيْضَةُ على رأْسِه، فكانت فاطِمَةُ بنتُ رسولِ الله ﷺ تغسِلُ الدَّمَ، وكانَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ يَسْكُبُ عليها بالمِجَنِّ، فلما رأتْ فاطمةُ أنَّ الماءَ لا يزيدُ الدَّمَ إلاَّ كَثْرَةً، أخذَتْ قِطْعَةَ حصيرٍ، فأحْرَقَتْهُ، حتى صارَ رماداً، ثم ألْصَقَتْهُ بالجُرح، فاستَمْسَكَ الدَّمُ» [البخاري: ٢٤٣. ومسلم: ١٧٩٠. واللفظ لمسلم].

وعن أنسٍ أن رسولَ الله ﷺ كُسِرَت رباعيتُهُ يوم أُحُدٍ، وشُجَّ في رَأْسِهِ، فجعل يَسْلُتُ الدَّمَ عنه، ويقولُ: «كيفَ يُفْلِحُ قومٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ، وكسروا رَباعِيَتَهُ، وهو يدْعُوهمْ إلى الله؟» فأنزل اللهُ عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨] [مسلم:١٧٩١].

جنـــــة السـنـة

وعن أبي هريرة قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «اشتدَّ غَضَبُ الله على قومٍ فعلوا بنبيِّه، يشير إلى رَبَاعِيَته، اشتدَّ غضبُ الله على رجلٍ يقتلُهُ رسولُ الله في سبيل الله» [البخاري: ٤٠٧٣].

وعن عبدالله قال: «كأني أنظرُ إلى رسولِ الله ﷺ، يحكي نبياً من الأنبياءِ ضَرَبَهُ قومُهُ، وهو يمْسَحُ الدَّمَ عن وجهه» ويقول: «رَبِّ اغْفِرْ لقومي فإنَّهُمْ لا يعلمون» [البخاري: ٣٤٧٧. ومسلم: ١٧٩٢].

٩- بروزُ أبطالِ الإسلامِ في غزوة أُحُدٍ: برز جمعٌ من الأبطال الكبار في معركةِ أُحُدٍ، وقاموا ببطولاتٍ تسجَّل بماء الذَّهَبِ، فمن هؤلاءِ:

أ- **أبو طلحَةَ الأنصاريُّ**، عن أنسٍ ﷺ قال: «لَمَّا كانَ يومُ أُحُدٍ انهزمَ الناسُ عن النبي ﷺ، وأبو طَلْحَةَ بينَ يدي النبيِّ ﷺ مُجَوِّبٌ عليه بحَجَفَةٍ له، وكان أبو طلحةَ رجلاً رامياً شديدَ النزع، كَسَرَ يومئذٍ قوسين أو ثلاثاً، وكان الرجلُ يمرُّ معه بجَعْبَةٍ من النَّبلِ فيقولُ: انْثُرْها لأبي طلحةَ، قال: ويُشرفُ النبيُّ ﷺ يَنظرُ إلى القوم، فيقولُ أبو طلحة: بأبي أنتَ وأمي، لا تُشرفْ يُصبْكَ سهمٌ مِنْ سِهامِ القومِ، نَحرِي دُونَ نحرِكَ» [البخاري: ٤٠٦٤. ومسلم: ١٨١١].

ب- **أنسُ بن النَّضرِ**، روى أنسُ بن مالك ﷺ «أن عمَّهُ أنسَ بن النضْرِ غابَ عن بَدرٍ فقال: غِبتُ عن أوّلِ قتالِ النبيِّ ﷺ، لئن أشهدَني اللهُ مَعَ النبيِّ ﷺ لَيَرَيَنَّ اللهُ ما أُجِدُّ، فلقِيَ يومَ أُحُد، فهُزِمَ الناسُ، فقال: اللهمَّ إنِّي أعتذِرُ إليك مما صَنعَ هؤلاء، يعني المسلمين، وأبْرَأُ إليكَ مما جاءَ بِهِ المشركون، فتقدَّم بسيفِهِ، فلِقيَ سعدَ بن مُعاذٍ فقال: أينَ يا سَعْدُ؟ إنِّي أجِدُ ريحَ الجَنَّةِ دونَ أُحُد، فمضى فقُتلَ، فما عُرِفَ، حتى عَرَفَتْهُ أختهُ بِشَامَةٍ - أو بِبَنَانِهِ- وبه بضْعٌ وثمانون: منْ طعنةٍ وضربة، ورَمية بسهم» [البخاري: ٤٠٤٨. ومسلم بزيادة: ١٩٠٣].

ج- **طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ الله**، وسبعةٌ من الأنصار، عن جابرِ بن عبدالله رضي الله عنهما، قال: لما كان يومُ أُحُدٍ ووَلَّى الناسُ، كان رسولُ الله ﷺ في ناحيةٍ في اثني عَشَرَ رجلاً مِنَ الأنْصارِ، فيهم طلحةُ بن عُبَيْدِ الله، فأدْرَكَهُمْ المشركون، فالتفتَ رسولُ الله ﷺ، فقال: مَنْ للقوم؟ فقال طلحةُ: أنا، فقال رسولُ الله ﷺ: كما أنت، فقالَ رجلٌ مِنَ الأنصارِ: أنا يا رسولَ الله، فقال: أنتَ، فقاتلَ حتى قُتل، ثم التفتَ فإذا المشركون، فقال: مَنْ للقوم، فقال طلحةُ: أنا، قال: كما أنتَ، فقال رجلٌ من الأنصار: أنا يا رسولَ الله، فقال أنتَ، فقاتل حتى قُتل، ثم لم يَزَلْ يقول ذلك، ويخرج إليهم رجلٌ مِنَ الأنصار، فيقاتل قتال من قَبْله، حتى بقي رسول الله ﷺ، وطلحةُ بن عبيد الله، فقالَ رسولُ الله ﷺ: مَنْ للقوم؟ فقال طلحةُ: أنا، فقاتلَ طلحةُ قِتالَ الأحَدَ عَشر، حتى ضُرِبت يدُهُ، فقُطعت أصابعُهُ، فقال: حَسِّ، فقال رسولُ الله ﷺ: لو

جنـــــة السـنــــة

قُلْتَ: بسم الله لَرَفَعَتْكَ الملائكةُ، والناسُ ينظرونَ، ثم ردَّ اللهُ المشركين. [أورده ابن الأثير في جامع الأصول: ٨/ ٢٤٣. ورقمه: ٦٠٦٨ وعزاه إلى النسائي، وذكر محقِّقُهُ أنَّ الحافظَ ابنَ حجرٍ العسقلاني جوَّدَ إسناده في فتح الباري].

وعن أنس بن مالكٍ؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ أُفْرِدَ يومَ أُحُدٍ في سبعةٍ من الأنصارِ ورجُلينِ من قريشٍ، فلما رَهِقُوهُ قالَ: «مَنْ يَرُدُّهُم عنَّا ولَهُ الجَنَّةُ، أوْ هُوَ رَفيقي في الجَنَّةِ؟» فَتَقَدَّم رَجُلٌ، مِنَ الأَنْصارِ، فقاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ رَهِقُوهُ أيضاً، فقالَ: «مَنْ يَرُدُّهُم عنَّا ولَهُ الجَنَّة، أو هُوَ رفيقي في الجَنَّةِ»؟ فتقَدَّمَ رَجُلٌ، من الأَنْصارِ، فقاتل حتى قُتِلَ. فلم يزلْ كذلك حتى قُتِلَ السَّبْعَةُ، فقالَ رسولُ الله ﷺ لصاحِبَيْهِ: «ما أَنْصَفْنا أَصْحابَنا» [مسلم: ١٧٨٩].

د- **أبو دُجانة سِماكُ بن خَرَشَةَ**: عن أنس أنَ رسولَ الله ﷺ أخَذَ سيفاً يومَ أُحُدٍ، فقالَ: مَنْ يأْخُذُ هذا مِنِّي؟ فَبَسَطوا أيديهم، كلُّ إنسانٍ يقول: أنا أنا، قال: «من يأْخذه بحقِّه؟» قال: فأَحْجَمَ القومُ، فقالَ سِماكُ بنُ خَرَشَةَ (أبو دُجانَةَ): أنا آخذُه بحقِّهِ، قالَ: فأَخذَهُ ففَلَقَ به هامَ المشركين. [مسلم: ٢٤٧٠].

هـ- **حمزةُ بنُ عبدالمطلب**: روى وَحْشِيٌّ كيفية قَتْلِه حمزة فقال: «إنَّ حمزةَ قتلَ طُعَيْمَةَ ابنَ عديِّ بن الخيارِ ببدْرٍ، فقالَ لي مولايَ جُبَيرُ بنُ مُطْعَمٍ: إنْ قتلتَ حمزةَ بعمِّي فأنتَ حرٌّ، قال: فلما أنْ خرجَ الناسُ: عام عَيْنَيْن، وعَيْنَيْنُ: جبلٌ بحيالِ أُحُدٍ، بينَه وبينه وادٍ، خرجتُ مع الناسِ إلى القتالِ، فلما اصطَفُّوا للقِتال، خرجَ سِباعٌ فقالَ: هل مِنْ مُبارِزٍ؟ قالَ: فخرجَ إليه حمزةُ بنُ عبدِالمطلبِ، فكان كأمْسِ الذاهبِ، قال: وكَمَنْتُ لحمزةَ تحتَ صخرةٍ، فلَّما دَنا مني رمَيْتُه بحَرْبتي، فأضعُها في ثُنَّتِهِ حتى خرَجَتْ مِن بينِ وَرِكَيْهِ، قالَ: فكانَ ذاكَ العهدَ به.

فلما رجَعَ الناسُ رجَعتُ معَهم، فأقمتُ بمكَّةَ حتى فَشا فيها الإسلامُ، ثم خرَجتُ إلى الطائفِ، فأرسَلوا إلى رسولِ الله ﷺ رُسلاً فقيلَ لي: إنَّه لا يهيجُ الرُّسلَ، قال: فخرجتُ معهم حتى قدِمتُ على رسولِ الله ﷺ ، فلما رآني قال: آنتَ وحشيّ، قلتُ: نَعَمْ. قالَ: أَنْتَ قتلتَ حمزةَ؟ قلتُ: قد كان مِنَ الأمر ما بَلَغك، قالَ: فهَلْ تستطيع أن تُغيِّبَ وجهَكَ عني؟ قال: فخرجتُ.

فلما قُبِضَ رسولُ الله ﷺ ، فخرَجَ مُسَيلمةُ الكذّابُ، قلت: لأَخرُجَنَّ إلى مُسَيلمةَ لعلِّي أقتُله، فأُكافِئَ به حمزةَ، قال: فخرَجتُ مع النَّاس فكان من أمرِهِ ما كان، قال: فإذا رجلٌ قائمٌ في ثَلمةِ جدارٍ كأنهُ جملٌ أَوْرَقُ ثائرُ الرأسِ، قال: فرمَيْتُه بحربتي، فأضَعها بين ثَدييهِ حتى خرَجت مِنْ بين كَتفَيه. قال: ووَثَبَ رجلٌ من الأنصار، فضرَبه بالسيف على هامَتِه».

جنـــــة الســـــنة

قال: قال عبدُالله بن الفضل: فأخبرَني سليمانُ بن يَسارٍ أنّه سمعَ عبدَالله بن عُمَرَ يقولُ: «فقالت جاريةٌ على ظهرِ بيتٍ: وا أميرَ المؤمنين، قتلَه العبدُ الأسود» [البخاري: ٤٠٧٢].

و- سَعْدُ بنُ أبي وقَّاصٍ: كانَ سعدُ بنُ أبي وقاصٍ يجيدُ الرِّماية، وكانَ رسولُ الله ﷺ يقولُ له في أُحدٍ: «ارم فداكَ أبي وأُمِّي» [البخاري: ٢٩٠٥. مسلم: ٢٤١١] وعن سعد قال: جَمَعَ لي رسول الله أبوَيْهِ يومَ أُحُدٍ، قالَ: كانَ رجلٌ مِنَ المشركين قد أحْرَقَ المسلمينَ، فقالَ له النبيُّ ﷺ: «ارم فداكَ أبي وأمي» قال فَنَزَعْتُ له بِسَهْمٍ ليسَ لَهُ نَصْلٌ، فأصَبْتُ جَنْبَهُ فَسَقَطَ، فانكشفتْ عورتُهُ، فضَحِكَ رسولُ الله ﷺ، حتى نظرتُ إلى نواجِذِهِ. [مسلم: ٢٤١٢].

١٠- الذين تَغْشَّاهُمُ النُّعاسُ في أُحُدٍ: عَنْ أنسٍ، عَنْ أبي طَلْحَةَ قال: «كُنتُ فيمن تغشّاه النَّعاسُ في يومِ أُحُدٍ، حتى سَقَطَ سَيْفِي من يديَ مِراراً، يسْقُط وآخُذُه، ويَسْقُطُ فآخذه» [البخاري: ٤٠٦٨].

ورواه الترمذيُّ عن أبي طلحةَ قال: «رَفَعْتُ رأسِي يومَ أُحُدٍ، فجعلتُ أنْظُرُ، وما مِنْهُمْ يومئذٍ أَحَدٌ إلا يَميدُ تحتَ حَجَفَتِهِ من النُّعاسِ» [الترمذي: ٣٠٠٧. وقال: هذا حديثٌ حسن صحيح].

١١- ذِكْرُ بعضِ شُهداءِ أُحُدٍ: سَقَطَ في حَوْمَةِ الوَغَى في غزوةِ أُحُدٍ سبعونَ شهيداً، منهم:

أ- مصعب بن عمير، وحمزة بن عبدالمطلب وعبدالله بن حرام وجابر بن عبدالله، فعن سعد بن إبراهيمَ عن أبيه إبراهيم أنَّ عبدالرحمن بن عوف أُتِيَ بطعام وكان صائماً، فقال: «قُتِلَ مصعبُ بنُ عُميرٍ، وهو خيرٌ مني، كُفِّنَ في بُردةٍ إنْ غُطِّيَ رأسُه بَدَت رِجلاه، وإن غُطِّيَ رِجلاه بدا رأسه، وأُراهُ قال: وقُتِلَ حمزةُ، وهو خيرٌ مني، ثم بُسِطَ لنا من الدنيا ما بُسِطَ، أو قال: أُعطينا مِنَ الدنيا ما أُعطينا، وقد خَشينا أن تكونَ حسناتُنا قد عُجِّلَت لنا، ثم جعلَ يبكي حتى تَرَكَ الطعام» [البخاري: ٤٠٤٥].

وعن خباب بن الأرَتِّ ﷺ قال: «هاجرنا مع رسولِ الله ﷺ نبتغي وجهَ الله، فوَجبَ أجرُنا على الله، ومنَّا مَن مضَى أو ذهبَ لم يأكلْ مِنْ أجرِهِ شيئاً، كان منهم مُصعبُ بن عُمَير، قُتِلَ يوم أُحدٍ، لم يَترُك إلاّ نَمِرَةً، كنَّا إذا غطَّينا بها رأسَهُ خَرَجَت رِجلاه، وإذا غُطي بها رِجلاه خرجَ رأسُه، فقال لنا النبيُّ ﷺ : غطُّوا بها رأسَه، واجعَلوا على رِجلهِ الإذْخِرَ، أو قال: ألْقوا على رِجلهِ منَ الإذخِر، ومنَّا مَنْ أينَعَت له ثمرَته، فهو يَهدِبُها» [البخاري: ٤٠٤٧، مسلم: ٩٤٠].

ب- عن جابر بن عبدالله قالَ: «لما قُتِلَ أبي جَعَلْتُ أبْكي، وأكْشِفُ الثوبَ عن وجْهِهِ، فجعلَ أصحابُ النبيِّ يَنْهَونَني، والنبيُّ لم يَنْهَ»، وقالَ النبيُّ ﷺ : «لا تَبكِهِ، ما زالتِ الملائكةُ تُظِلُّه بأجْنِحَتِها حتى رُفِع» [البخاري: ٤٠٨٠. ومسلم: ٢٤٧١].

جنـــــــة السـنـة

١٢- الصحابياتُ اللاتي كانتْ لهنَّ جهودٌ مشكورةٌ في أُحُدٍ: كان مجموعةٌ من النساء يقُمْنَ بدور مهم في غزوة أُحُدٍ، منهنَّ عائشةُ بنتُ أبي بكر أم المؤمنين وأمُّ سُلَيم، يقول أنسُ بنُ مالكٍ: «رأيتُ عائشةَ بنتَ أبي بكر وأُمَّ سُلَيم، وإنهما لمشمِّرتان، أرى خَدَمَ سُوقِهِما، تُنْقِزانِ القِرَبَ على متونِهما، تفرغانِهِ في أفْواهِ القومِ، ثم ترجعانِ فتملآنها، ثم تجيئانِ، فتفرغانِهِ في أفْواهِ القوْمِ» [البخاري: ٤٠٦٤. ومسلم: ١٨١١].

ومنهنَّ فاطمةُ رضي الله عنها، كانت في موقع المعركة، وشاركتْ علياً في علاج رسول الله ﷺ ، فعن سَهْل بن سَعْد، قال: «كانتْ فاطمةُ عليها السلام بنتُ رسول الله ﷺ تغْسِلُ جرحَ رسولَ الله ، وعليٌّ يسكُبُ الماء بالمجنِّ، فلما رأتْ فاطمةُ أنَّ الماءَ لا يزيدُ الدَّمَ إلا كثرةً، أخَذَتْ قطعةً من حَصيرٍ، فأحرقتْها، وألصقتها، فاستمسَكَ الدَّم» [البخاري: ٤٠٧٥. ومسلم: ١٧٠٩].

١٣- كثرة شهداء الأنصار في يوم أحد: عن قتادةَ قال: «ما نعلمُ حياً مِنْ أحياءِ العربِ أكثر شهيداً أعَزَّ يومَ القيامةِ مِنَ الأنصارِ، قال قتادةُ: وحَدَّثَنا أنسُ بنُ مالكٍ أنَّه قُتِلَ منهم يومَ أُحدٍ سبعونَ، ويومَ بئرِ مَعُونَةَ سبعونَ، ويوم اليمامةِ سبعونَ، وكانَ بئرُ مَعُونةٍ على عَهْدِ رسولِ الله ﷺ ، ويومَ اليمامةِ على عَهْدِ أبي بكر، يومَ مُسَيْلَمَةَ الكذّابِ» [البخاري: ٤٠٧٨].

١٤- الذين استجابوا لله والرسولِ مِنْ بعدما أصابهم القرح: بعدَ انتهاءِ المعركةِ أرْسَلَ الرسولُ ﷺ سبعينَ في إثْرِ المشركينَ، فلمْ يتخلَّفْ واحدٌ منهم عن الاستجابةِ لأمرِ رسولِ الله ﷺ ، وكانَ منهم أبو بكر الصديق، والزبيرُ بنُ العوام، قالتْ عائشة لابن أُختها عروةَ بن الزبير: «يا ابن أُختي، كانَ أبواكَ منهم: الزبيرُ وأبو بكر، لما أصاب رسولَ الله ﷺ ما أصابَ يومَ أُحُدٍ، وانصرفَ عنه المشركون، خافَ أنْ يرجعوا، قال: مَنْ يذْهَبُ في إثْرِهم؟ فانتدبَ منهم سبعونَ رجلاً. قال: كان فيهم أبو بكرٍ والزُّبير». [البخاري: ٤٠٧٧. ومسلم: ٢٤١٨].

١٥- كيفَ دَفَنَ الرسولُ ﷺ شهداءَ أُحُدٍ: كان عددُ شهداءِ أُحُدٍ سبعينَ شهيداً، فكانَ رسولُ الله ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَ الرجلينِ منهم في قبرٍ واحدٍ، فعن جابرِ بن عبدالله رضي الله عنهما: «أنَ رسول الله ﷺ كان يجمعُ بينَ الرجلينِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ في ثوبٍ واحدٍ، ثم يقول: «أيُّهم أكثرُ أخذاً للقرآن؟» فإذا أُشيرَ له إلى أحَدٍ قدَّمَهُ في اللَّحدِ، وقال: «أنا شهيدٌ على هؤلاء يوم القيامةِ»، وأمر بدفْنِهِمْ بدمائهم، ولم يصلِّ عليهم، ولم يُغسَّلوا» [البخاري: ٤٠٧٩].

١٦- عفْوُ الله -تبارك وتعالى- عن الذينَ فَرُّوا في أُحُدٍ: قال رجلٌ لعبدالله بن عمرَ: «أَنْشُدُكَ بحرمةِ هذا البيت، أتعْلَمَ أنَّ عثمانَ فرَّ يومَ أُحُدٍ؟ قال: نعم»، وقد قال له ابنُ عمر «أما فِرارُه يومَ أُحُدٍ فأشهدُ أنّ الله عفا عنه» [البخاري: ٤٠٦٦].

جنـــــة السـنـــــة

١٧- توديع الرسول ﷺ شهداءَ أُحُدٍ بعد ثماني سنواتٍ من استشهادهم: عن عقبةَ: «أنَّ النبي ﷺ خرج يوماً فصلَّى على أهْلِ أحُدٍ صلاتَهُ على الميِّت، ثم انصرَفَ إلى المنبرِ، فقال: إني فَرَطٌ لَكُمْ، وأنا شهيدٌ عليكم، وإنِّي لأنظرُ إلى حوضي الآنَ، وإني أُعطيتُ مفاتيحَ خزائنِ الأرضِ، أو مفاتيحَ الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أنْ تُشْرِكوا بعدي، ولكني أخافُ عليكم أن تَنافَسوا فيها» [البخاري: ٤٠٨٥. ومسلم: ٢٢٩٦].

وفي روايةٍ عن عقبةَ بن عامرٍ قال: «صلَّى رسولُ الله ﷺ على قَتْلَى أُحُدٍ بعد ثماني سنينَ كالمودِّع للأحياءِ والأمواتِ، ثم طَلَعَ المنبرَ فقالَ: إنِّي بينَ أيديكم فَرَط، وأنا عليكم شهيدٌ، وإنَّ موعِدَكم الحوضُ، وإنِّي لأنظرُ إليهِ مِنْ مَقامي هذا، وإني لستُ أخشَى عليكم أن تُشركوا، ولكني أخشى عيكمُ الدُّنيا أن تَنافَسوها، قال: فكانت آخرَ نظرةٍ نظرتُها إلى رسول الله ﷺ»

[البخاري: ٤٠٤٢. ومسلم: ٢٢٩٦].

ثانياً: آيات هذا النصّ من سورة آل عمران

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾

[آل عمران: ١٢١-١٢٩].

ثالثاً: المعاني الحِسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- غُدُوُّ الرسولِ ﷺ من أهله إلى أحدٍ يُبَوِّئُ المؤمنينَ مقاعدَ للقتالِ:

أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى عن خروجِ الرسولِ ﷺ مِنْ أهلِهِ إلى أُحُدٍ، يُهَيِّئُ المقاتلين للحرب والقتال، والغُدْوَةُ السَّير في الصَّباحِ، و﴿تُبَوِّئُ﴾ أي توطِّن وتُنزِّل ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ﴾ [آل عمران:١٢١] وقولُه في خِتامِ الآية: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ أي: سميعٌ لأقوالكم، وعليم بأعمالكم، أي: أنَّه حاضِرٌ لما يجري في المعركةِ، وما يجري مِنْ التخطيطِ لها.

جنـــــة السـنـــــــة

ثُمَّ أخبرنا -تبارك وتعالى- عَنِ الطائفتين اللَّتين كادَتَا أنْ تَفْشَلا قبيل المعركةِ ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران:١٢٢] والطائفةُ مِنَ النَّاسِ الجماعةُ منهم، والفشلُ ضَعْفٌ مع جُبْنٍ، والطائفتان اللتان كادتا أن تفشلا وترجعا عنِ القتالِ والمواجهةِ هما: بنو حارثة مِنَ الأوس، وبنو سَلِمَة من الخزرج، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن جابرِ بنِ عبدالله قال: «فِينا نَزَلَتْ: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ [آل عمران:١٢٢] قالَ: نحنُ الطائفتان: بنو حارِثَةَ وبنو سَلِمَة» [البخاري: ٤٥٥٨. ومسلم: ٢٥٠٥].

وقولُه تعالى في ختام الآية: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران:١٢٢] فيه توجيهٌ لعبادِهِ المؤمنين إلى المضيِّ فيما عَزَمُوا عليه مما أُمروا بِهِ إذا خالجَهم الخوفُ والجزعُ، وهذا هو التوكّلُ على الله، وقولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ [آل عمران:١٢٢] أي: هو الذين يتولَّى أمْرَهُما، يحفظُهما، ويُسَدِّدُهما، وفي هذا فضيلةٌ لهاتين الطائفتين حُقَّ لهما أن يفخرا بها، ولذلك فإنَّ جابرَ بنَ عبدالله قال في ختام الحديث السابق، وكان واحداً من الطائفتين: «وما يسُرُّني أنَّ الآية لم تَنْزِلْ، لقولِ الله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾».

٢- تذكيرُ المؤمنينَ بالنصرِ العظيمِ في غزْوةِ بَدْرٍ:

ذكَّر اللهُ -تبارك وتعالى- صحابةَ رسولِهِ ﷺ بالنَّصْرِ العظيمِ الذي أنْزَلهَ عليهم في غزوةِ بَدْرٍ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران:١٢٣]، وكانت غزوة بدر في يومِ الجمعةِ السابعَ عَشَرَ مِنْ رمضان في السنة الثانية من الهجرة، وقد أَنْزَلَ الله على رسولِهِ والمؤمنين مَعَهُ النَّصْر في تلك المعركةِ، وأذَلَّ فيها المشركينَ، وقُتل زعماؤهم ورؤساؤهم، وشاركتْ الملائكةُ في قتال المشركين، وكان عددُ الصحابةِ قليلاً، فعَدَدُهم ثلاثمائةٍ وبِضْعَةَ عشر، بينما كان عدد المشركين بين التسعمائة والألفِ، وكانت أسلحةُ الكفارِ وخيولهُمْ وافيةً كثيرة، بينما لم يكنْ مع الصحابةِ إلا فرسٌ أو اثنان، وأسلحتُهُمْ قليلةٌ، وبدرٌ موضع معروفٌ بين مكة والمدينة.

والمرادُ بقولِهِ: ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ﴾ أي: ضعفاء قليلون، وقد رَفَعَ اللهُ بنصرِ الصحابةِ في بَدْرٍ اسمَهم، وأعلى ذِكْرَهُمْ، وأوقعَ لهم الهيبةَ في جزيرةِ العربِ كلِّها، وأجْبَرَ الآخرين على احترامِهِمْ وتوقيرهم، وهذا النَّصْرُ يُوجِبُ على المؤمنين مزيداً من تقوى الله تعالى بالعملِ بطاعته واجتنابِ مَعْصِيَتِهِ، وشُكْرِهِ تبارك وتعالى على ذلك النَّصرِ العظيم.

جنـــــة السـنـــة

٣- إمدادُ الله تعالى أهلَ بدرٍ بالملائكةِ:

يُذكِّرنا اللهُ -تبارك وتعالى- بما قالَهُ رسولُ الله ﷺ لأصحابِهِ في بداية غَزْوَةِ بدرٍ ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران:١٢٤-١٢٥].

وقَدْ وَعَدَ اللهُ الصحابةَ في بدرٍ عندما استغاثوا بِهِ طالبينَ منه نَصْرَهُ بأنْ يُمِدَّهم بألفٍ مِنَ الملائكةِ، يُرْدِفُهُم بغيرهم بَعْدَ ذلك ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال:٩] ومعنى مُرْدِفين، أي: يَرْدَفُهم غيرُهُمْ ويَتْبَعُهم أُلوفٌ أخرى، وقد بيَّن اللهُ في آيات هذا النص أنَّه أرْدَفَهُمْ بغيرهم حَتَّى أصبحوا ثلاثَةَ آلافٍ، ثم خمسة آلاف.

وذكَّرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بما قالَه الرسولُ ﷺ لأصْحابِهِ قبيلَ معركة بدرٍ، ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [آل عمران:١٢٤] وعقَّب اللهُ -تعالى- على ما قالَهُ رسولُهُ ﷺ لأصحابِهِ بقولِهِ: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران:١٢٥] فقد اشترطَ عليهم لإمْدادِهم بالملائكة أن يصبروا في ميدان القتالِ، ويُعلِّقوا قُلوبَهُمْ بالله، وقوله: ﴿مِّن فَوْرِهِمْ﴾ أي مِنْ وجههم، وقد استعير اللفظ للسرعة. وقوله: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ أي: مُعلَّمين، أعلمنا أنَّ الملائكةَ كانوا مُعَلَّمين، ولم يصحَّ نصّ يدلُّ على الكيفية التي كان تسويمهم عليها.

٤- الغايةُ من إنزال الملائكة على المؤمنين في معركة بدرٍ:

أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى عن الحكمة من إنزال الملائكة على المؤمنين في معركة بدرٍ، ومثلها كلُّ المعارك التي تنزّلت فيها الملائكةُ، فقال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ [آل عمران:١٢٦-١٢٧].

أعلمنا الله عز وجل أن إنزاله الملائكة على رسوله وعلى المؤمنين كان يُبَشِّرهُمْ بنصر الله، وليثبت قلوبهم في ميدانِ القتالِ، فالذي يكون في الميدان خائفاً وجِلاً فَزِعاً لا يستطيعُ أن يحقق النصر، والنصرُ يأتي من عندِ الله العزيزِ، أي: القويِّ الغالبِ، الحكيم في قَدَرِهِ وما يشْرَعُهُ ويصرِّفُه سبحانه.

جنـــــة السـنة

وأخبرنا -عزَّ وجلّ- أنَّه يريدُ مِنْ وراءِ انتصارِ المؤمنين أنْ يَقْطَع طرفاً من الذين كفروا، ويتحققُ قطعُ الطرفِ مِنَ المشركين بقتلهم في ميدانِ القتال انتقاماً منهم لكفرهم بالله ورسوله، وقوله: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أي: يهْزِمَهُمْ، ويصْرَعهم ويخزيهم، ﴿فَيَنقَلِبُوا﴾ أي: يَرْجِعُوا خائبين، لم ينالوا شيئاً مما كانوا يُؤَمِّلونَهُ.

٥- ليس لك من الأمر شيءٌ:

أخبر اللهُ -تبارك وتعالى- أن الأمر كلَّه له، وليس للرسولِ ولا للصحابة منه شيء ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)﴾ [آل عمران:١٢٨]، ومعنى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨] أي: ليس لك من الحكم شيءٌ في عبادي إلا ما أمرتُك به فيهم، روى أنسٌ أنَّ رسولَ الله ﷺ: «كُسِرتْ رَبَاعِيَتُهُ يومَ أُحِد، وشُجَّ في رأْسِهِ، فجعلَ يسلتُ الدم عَنْهُ»، ويقول: «كيف يُفلِحُ قومٌ شجُّوا نَبِيَّهُمْ، وكسروا رَباعِيَتَه وهو يدعوهم إلى الله!» فأنزل اللهُ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨]. وعن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «اشتدَّ غضبُ الله على قومٍ فعلوا بنبيِّه، يشير إلى رباعيته» [البخاري:٤٠٧٣. مسلم:١٧٩٣].

ووردَ في بعض الأحاديث أنها نزلتْ لما دعا رسولُ الله ﷺ على بعضِ المشركينَ، بعد الركوعِ في صلاته، بقوله: «اللهم العَنْ فلاناً وفلاناً وفلاناً» بعد قوله: سمع الله لمن حَمِدَهُ، فأنْزَلَ الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)﴾ [آل عمران:١٢٨] [البخاري:٤٥٥٩، ٤٥٦٠. مسلم: ٦٧٥].

والمعنى - كما يقول ابنُ جرير -: «ليس إليكَ يا محمدُ من أمْرِ خَلْقي، إلا أن تنفذَ فيهم أمري، وتنتَهي فيهم إلى طاعتي، وإنما أمْرُهُمْ إليَّ، والقضاءُ فيهم بيدي، دون غيري، أقضي فيهم، وأحكمُ بالذي أشاءُ من التَّوْبةِ على مَنْ كَفَرَ بي وعصاني، وخالفَ أمري، أو العذابِ، في عاجلِ الدنيا بالقتل والنِّقَمِ المُبيْرةِ، وأما في آجلِ الآخرة بما أعددتُ لأهل الكفر بي» [تفسير الطبري: ٣/ ١٩٦٢].

٦- اللهُ هو المصرِّفُ أمورَ العبادِ وأمْرَ السمواتِ والأرضِ:

ذكَرَ اللهُ -تعالى- فيما سبق أنَّ رسولَنا ﷺ ليس له من الأمر شيءٌ، واللهُ وحدَه مُصرِّفُ أمورِ العباد، وهو مصرِّف أمورِ السموات والأرض، وأمورِ خلقه، يغفرُ لمن يشاءُ أن يغفرَ له، ويعذِّبُ من يشاء تعذيبَهُ، وأنه تعالى هو المتَّصِفُ بصفتي المغفرة والرحمة سبحانه ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩)﴾ [آل عمران:١٢٩].

جنـــــــة السـنـــــــة

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ النصِّ من علمٍ وعملٍ

عندما نتدَّبرُ آياتِ هذا النصِّ نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- كان رسولُنا ﷺ قائداً عسكريّاً فذًّا، خَطَّطَ لمعركةِ أُحُدٍ، فأحسنَ التخطيط، ونفَّذ فأحسنَ التنفيذ.

٢- مرَّتْ على الذين خرجوا إلى أُحُدٍ أحداثٌ كبارٌ قبيلَ المعركةِ فلم تفتَّ في عَضُدِهِمْ، ومن ذلك رجوعُ عبدالله بنِ أُبيٍّ رأس المنافقين بثلثِ الجيش إلى المدينةِ.

٣- رحمةُ الله بالمؤمنينَ في أُحُدٍ، فقد كادتْ طائفتانِ من الأنصار أن تَفْشَلا برجوعهما عن القتالِ إلى المدينة فثَبَّتَهُما، ولم تَرْجِعا.

٤- تذكيرُ الله للمؤمنين بما أنعمَ عليهم مِنَ النَّصرِ في غزوةِ بَدْرٍ قبل عام مِنْ معركةِ أُحُدٍ، وكانَ عَدَدُهمْ قليلاً، وسَلاحهم فيهِ ضَعْفٌ.

٥- أنْزَلَ اللهُ الملائكةَ في بَدْرٍ يقاتلون مع المؤمنين، فقد أمَدَّهم بألْفٍ أوّلاً، ثمَّ أكملَ الذين أمَدَّهُمْ بهم إلى ثلاثةِ آلافٍ، ثم إلى خمسة آلافٍ.

٦- إمدادُ الله المقاتلين بالملائكةِ ليس قَصْراً على الصحابةِ، فكلُّ مَنْ صَبَرَ في ميدانِ القتال مِنَ المؤمنين، واتَّقى اللهَ عزَّ وجَلَّ استحقَّ أنْ يُمِدَّهُ اللهُ بالملائكة.

٧- اللهُ قادرٌ على كلِّ شيءٍ، ومِنْ ذلك قُدْرَتُهُ على نصر المؤمنين من غير إنزالِ الملائكة، ولكنَّه أنْزَلَهُمْ ليطمئن قلوبَ المجاهدين.

٨- من مقاصدِ الله تبارك وتعالى أن يَقْطَعَ بمحاربةِ المؤمنين الكافرين طرفاً من الكافرين، وذلك بقَتْلِهِمْ وهزيمتهم.

٩- الأمورُ كلُّها بيدِ الله تعالى، وأمورُ العبادِ وأمورُ السماواتِ والأرضِ كُلُّها بيدِهِ، يُصَرِّفُها كيف يشاء، سبحانه.

جنـــــة السـنــة

النص القرآني السابع والعشرون من سورة آل عمران
سارعوا إلى مغفرة من ربِّكم وجنَّةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ

أولاً: تقديم

النُّصوص السابقةُ لهذه الآياتِ والنصوصُ اللاحِقَةُ لها تتحدَّثُ عنْ وقائع معركة أُحُدٍ، وهذه الآياتُ في هذا النص تأتي معترضةً تَنْهى عن أكْلِ الربا أضعافاً مضاعَفةً، وتدعو المؤمنين إلى المسارعةِ إلى مغفرةِ الله وجنَّتِه، ثم تمتدُّ لتبين صفاتِ المؤمنينَ الأتقياء، وهذه الآياتُ وإنْ كان موْضوعُها مختلفاً عَنْ موضوع الآياتِ السابقةِ واللاحقةِ، لكنَّها تَتَّفِقُ معها في تقريرِ أنَّ المقاتلين يهزمون في الميدانِ إذا ارتكبوا جريمةَ الرِّبا، ولم يكونوا على المستوى الراقي مِنَ الإيمانِ.

ثانياً: آيات هذا النصِّ من سورة آل عمران

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٠-١٣٦].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ من القرآن

١- النهيُ عن أكْلِ الرِّبا أضعافاً مضاعفةً:

سبق الحديث عن الرِّبا في سورةِ البقرةِ، ونَهى اللهُ عنه في هذا النصِّ بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ ﴾ [آل عمران:١٣٠] والرِّبا أن تدفعَ فائدةً لمن يُقرِضُكَ مالَهُ، أو تبيعَ السلعةَ إلى أجلٍ، فإذا حلَّ الأجلُ ولم يسْتَطِعِ المشتري دَفْعَ القيمةِ لك زِدتَهُ في الأجلِ، وزادكَ المشتري في المالِ الذي في ذمته.

هذا هو ربا الجاهلية، وهو الرِّبا نفسُه الذي يجري التعاملُ به في المصارفِ والأسواقِ المالية اليوم، ويريدُ بعضُ الناسِ اليومَ إباحةَ الرِّبا بتحميل هذه الآية ما لا تَحْتَمِلُه، فيدَّعون أنَّ

جنـــــة السـنـــة

الرِّبا المحرم هو الرِّبا الفاحشُ، أما الفائدةُ التي تبلغ خمسةً في المائة أو ستَّةً أو سبعةً ليس بمحرَّمة، وقد أخْطؤُوا في فِقْهِ الآية وحمَّلُوها ما لا تحتَمِلُه، ولو كان قولُهُمْ صحيحاً فإن معنى الآية على قولهم يكونُ إذا بَلَغَ الرِّبا تسعمائة في المائة، فالأضعافُ على قولهم تبلغُ ثلاثمائة في المئةِ، والمضاعفة تكونُ ثلاثة أضعافٍ على الأقلِّ، فتصبحُ تسعمائةٍ في المائة، وهذا لا يقول به عاقل ألبتَّة.

والمرادُ بالآية أن مصيرَ الفائدةِ مَعَ طولِ الزمنِ وكثرةِ السنواتِ يصبحُ أضعافاً مضاعفة.

وقد عقَّب اللهُ على نهيه عن أكْلِ الربا بأمْرِه المؤمنين بتقوى الله، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [آل عمران:١٣٠] وتحقيقُ هذا الأمْرِ يكون بالعملِ بطاعة الله رجاءَ رحمتِهِ، وخوفَ نارِهِ وعِقابِهِ.

وأمَرَنا ربُّنا تبارك وتعالى أنْ نتقي النَّارَ التي أُعدت للكافرين ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران:١٣١] أمَرَنا أنْ نجعلَ بيننا وبينَ نار الله وقاية، فالرسولُ ﷺ أمَرَنا أن نتقي الله ولو بشقِّ تمرةٍ، وفِعْلُ الطاعات وتركُ المنكرات كلُّ ذلك يقي مِنَ النَّار، وقد رَهَّبَ اللهُ المؤمنين مِنَ النار المعدَّة للكافرين. وأمرنا ثالثاً بطاعةِ الله وطاعةِ رسولِهِ لعل الله يرحمنا ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران:١٣٢] ومن جملة ذلك تَرْكُ التعاملِ بالربا.

٢- أمَرَ اللهُ المؤمنينَ بالمسارعَةِ إلى مغفرةِ اللهِ وجنَّتِهِ:

أمَرَنا اللهُ -تعالى- بالمسارعةِ إلى تحصيلِ مغفرةِ الله وجنتهِ، فقال: ﴿۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران:١٣٣] والآية تتحدَّثُ عن سَعَةِ جنَّة الله التي دَعانا إليها، فعَرْضُ الجنةِ كعرض السمواتِ والأرضِ، قال ابنُ عباسٍ: «تُقْرنُ السمواتُ السَّبْعُ، والأَرَضُونَ السَّبْعُ، كما تُقْرنُ الثِّيابُ بَعْضُها إلى بعضٍ، فذاكَ عَرْضُ الجَنَّة» [تفسير الطبري: ٣/١٩٦٨].

وذكر ابنُ كثيرٍ أنَّ عَرْضَ الجنةِ كطولها، لأنَّها قُبَّةٌ تحت العرشِ، والشيءُ المُقَبَّبُ والمستديرُ عَرْضُهُ كطوله، واستدلَّ على ذلك بالحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «فإذا سأَلْتُمُ الله فاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فإنَّه أوْسَطُ الجنَّةِ، وأعلى الجنةِ -أُراه- فوقَهُ عرشُ الرحمنِ، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنَّة» [البخاري:٢٧٩٠].

جنـــــة الســــــنة

٣- ثناءُ الله على المُتَّقين:

أخبرنا اللهُ -سبحانُهُ وتعالى- في الآية السابقة أنَّ الجنةَ التي عَرْضُها السمواتُ والأرضُ أُعدَّتْ للمتقين، ثم أخبرنا سبحانه بعد ذلك عَنْ المتَّقين، ووصفهم بعدَّة صفات، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران:١٣٤-١٣٥].

وأوَّلُ صفاتِ المتقينَ إنفاقُهم المالَ ابتغاءَ مرضاتِ الله في جميعِ الأحوالِ، في السرَّاءِ والضراءِ، أي في الشدَّة والرخاءِ، والصحَّةِ والمرض. وثاني هذه الصفات وثالثها أنَّهم يكتمونَ غيظهم ويعفون عن الناس. «والغيظُ -كما يقولُ الراغبُ- أشدُّ الغضبِ، وهُوَ الحرارةُ التي يجدُها الإنسانُ مِنْ فورانِ دم قَلْبِه» [المفردات: ص٣٦٨]. ويرى ابنُ عطيةَ أنَّ الغيظ أخصُّ مِنَ الغضبِ «فالغيظُ فعلُ النَّفْسِ، لا يظهر على الجوارحِ، والغضبُ حالٌ لها معه ظهورٌ في الجوارحِ» [المحرر: ٢/٣٥٨].

وقد جاءت عدة أحاديث تُثْني على الذّينَ يملكون أنفسَهُمْ عِنْدَ الغضبِ، فعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «ليسَ الشديدُ بالصُّرَعَةِ، إنَّما الشَّديدُ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عنْدَ الغَضَبِ» [البخاري: ٦١١٤. ومسلم: ٢٦٠٩].

وفي سنن أبي داود عن سَهْلِ بنِ معاذٍ عن أبيه أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظاً، وهو قادرٌ على أنْ ينفذَهُ، دعاه اللهُ على رؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ، حتَّى يخيِّره اللهُ مِنَ الحورِ العينِ ما شاءَ» [أبو داود: ٤٧٧٧. وأورده الألبانيُّ في صحيح أبي داود: ٣٩٩٧ وعزاه إلى صحيح ابن ماجه: ٤١٨٦]. وقد وَرَدَ في الأحاديث كيفَ يُذْهِبُ المرءُ غضبه بالاستعاذة بالله مِنْ الشيطانِ، وبتحوله من الحال التي يكون فيها إلى حالٍ أخرى، كأنْ يكونَ قائماً فيجلسَ، أو جالساً فيَضَّطجعَ.

وأثْنى اللهُ -تباركَ وتعالى- على عبادِهِ الذين إذا مَلأَ الغيظُ قلوبَهُمْ لم يتَّبعوه، وكَتَمُوه، وعَفَوْا عمن أساءَ إليهم، وقد امتلأ قلبُ نبيِّ الله يعقوب عليه السلام غيظاً عهداً طويلاً لما غابَ عنه ابنهُ يوسفُ عليه السلام بفعل إخوانِهِ، حتى ابيضت عيناه مِنَ الحُزْنِ، ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف:٨٤] حتى فرَّجَ اللهُ عنه بمجيء البشيرِ بقميصِ يوسف عليه السلام، ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف:٩٦].

جنـــــة السـنـــــة

وأخْبَرَ اللهُ - سبحانه في ختامِ الآيةِ- أنَّه ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤﴾ [آل عمران:١٣٤]. ولا شكَّ أنَّ الإنفاقَ في السراءِ والضراءِ: وكظم الغيظ، والعفوَ عن الناسِ مِنْ مقامات الإحسان.

ورابعُ صفاتِ المتقين أنَّهم ﴿إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥﴾ [آل عمران:١٣٥].

مَدَحَ اللهُ -تبارك وتعالى- المتقينَ بأنَّهم إذا وَقَعَ منهم الذنبُ أو المعصيةُ تابوا إلى الله وأنابوا واستغفروا الله، فهؤلاءِ ليسوا بمعصومين مِنَ الزللِ، وليسوا ملائكةً، وقد تَقَعُ منهم الفاحشةُ، وهي الفعلةُ القبيحةُ الخارجةُ عما أذن اللهُ بِهِ، وقد وقع الزِّنا من بعض الصحابة والصحابيات، وجاؤوا إلى الرسولِ ﷺ واعترفوا بذنبهم، فأقامَ الرسولُ ﷺ عليهم الحدّ، وأخْبَرَ الرسول ﷺ عن تلك الزانيةِ التائبةِ أنَّها تابتْ توبةً لو تابها أهْلُ المدينةِ لوسعتهم، وذَكَرَ اللهُ أنَّ هؤلاءِ المتقين إذا وقعت منهم المعصية لم يدوموا عليها، ولكنَّهم سريعاً ما يؤوبونَ إلى الله عزَّ وجلَّ ويذكرونُ الله، فتمتلئَ قلوبهم مِنْ خوفِ الله، ويسارعونَ إلى التوبةِ إلى الله واستغفاره، والله واسعُ المغفرةِ، وهو وَحْدَهُ الذي يملكُ غفرانَ الذنوب، فلا يملكُ ذلك نبيٌّ مرسلٌ، ولا مَلَكٌ مقربٌ، بخلافِ ما عليه النصارى، فقد نصَّبُوا رجالَ الدين فيهم آلهة يغفرونَ الذنوب، ويزيلونَ الخطايا، وفعلُهُمْ هذا جريمةٌ نكراءُ تستحقُّ العقابَ.

وقوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥﴾ [آل عمران:١٣٥] والإصرارُ الإقامةُ على الذَّنب عامدينَ، قال قتادةُ: «إيَّاكم والإصْرار، فإنَّما هَلَكَ المُصرُّون الماضونَ قُدُماً، لا تنْهاهُمْ مخافةُ الله عن حرامٍ حرَّمَهُ اللهُ عليهم، ولا يتوبونَ مِنْ ذنبٍ أصابوه، حتى أتاهم الموت وهُمْ على ذلك» [تفسير ابن جرير الطبري: ٣/ ١٩٧٥].

وقد ضرب لنا الرسولُ ﷺ مثلاً لعبادِهِ التائبين الذين لا يصرُّون على ما اقترفُوه مِنَ الذنوبِ، روى أبو هريرة ﷺ قالَ: سمعتُ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ عبداً أصابَ ذنباً -وربما قال: أذنب ذنباً- فقال: ربِّ أذْنَبْتُ -وربما قال: أصبتُ- فاغفرْ لي، فقال ربُّه: أعَلِمَ عبدي أنَّ لهُ ربّاً يغفرُ الذَّنبَ، ويأخذ به؟ غفرتُ لعبدي. ثم مكث ما شاء اللهُ؛ ثم أصابَ ذنباً، أو أذنب ذنباً، فقال: ربِّ أذنبتُ -أوْ أصبتُ- آخرَ فاغفرهُ، فقال: أعَلِمَ عبدي أنَّ له ربّاً يغفر الذنب، ويأخذُ به؟ غفرتُ لعبدي، ثم مكثَ ما شاءَ اللهُ، ثم أذنب ذنباً، وربَّما قال: أصاب ذنباً، قال: فقال: ربِّ أصبتُ -أو أذنبتُ- آخرَ، فاغفره لي، فقال: أعَلِمَ عبدي أن له رَبّاً يغفرُ الذنبَ، ويأخذ به؟ غفرتُ لعبدي -ثلاثاً- فليعملْ ما شاء» [البخاري: ٧٥٧٠. ومسلم: ٢٧٥٨].

جنـــــة الســـــنة

إنَّ البشرَ لا يستطيعون أن يبقوا على حالٍ راقيةٍ مِنَ السموِّ الروحاني، فقد شكى الصحابةُ للرسولِ ﷺ كيفَ يَرْتقونَ في إيمانهم، ثم يتراجعونَ عندما يشتغلونَ بالدنيا، فقالَ لهم: «لو أنّكم تكونونَ على كلِّ حالٍ، على الحالِ التي أنْتُمْ عليها عِنْدي، لصافحتكُمُ الملائكة بأكُفِّهم، ولزارتكم في بيوتِكُمْ، ولو لم تُذْنِبُوا لجاء اللهُ بقومٍ يُذْنِبون، كي يغفِرَ لهم» [عزاه ابن كثير: ١/ ٣٤٤ للترمذيّ وأحمد واللفظ له].

وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنَّ المحافظةَ على العباداتِ ومنها الوضوءُ والصلاةُ تُكَفِّر ذنوبَ العبدِ، فعن عُقْبَةَ بن عامرٍ أنَّه أدْرَكَ رسولَ الله ﷺ قائماً يحدِّث النّاسَ، فأدركَ من قولِهِ: «ما مِنْ مُسْلِمٍ يتوضَّأُ، فيحسنُ وضوءَهُ، ثمَّ يقومُ فيُصلِّي ركعتين، مقبلٌ عليهما بقَلْبِهِ ووجْهِهِ، إلا وَجَبتْ له الجنةُ» [مسلم: ٢٣٤].

وعن عثمان بن عفَّان أنَّ الرسولَ ﷺ توضَّأَ، ثم قال: «من توضَّأَ نحو وُضوئي هذا، ثم قامَ فركع ركعتين، لا يُحَدِّثُ فيهما نفسه، غُفِرَ له ما تقدَّم مِن ذنبه» [البخاري: ١٥٩. ومسلم: ٢٢٦].

٤- **جزاءُ المتقين:**

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن جزاءِ المتقين الذين أَعَدَّ لهم جناتِ النعيم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران:١٣٦] وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الذين وصفهم اللهُ بما وصفهم به جزاؤُهم غفرانُ الله ذنوبَهُمْ، ويَهَبُ اللهُ لهم جناتٍ تجري مِنْ تحتها الأنهارُ خالدين فيها، لا يفنون فيها، ولا يَفْنَى نعيمهم، ونِعْمَ الثوابُ الذي يحلُّ فيه المتقون في ذلك المقامِ الأمين.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من العلم والعمل:

١ - الرِّبا جريمةٌ نكراءُ حرَّمها الإسلامُ تحريماً كلِّياًّ، ولا تُفلحُ الأمَّةُ الإسلاميةُ، ولا تنتصرُ على أعدائِها وهِيَ تَلَغُ في هذه الجريمةِ النكراءِ.

٢- الرِّبا بابٌ ينفذُ منه آكلوه للاستيلاءِ على أموالِ غيرهم، حتى يصبح أضعافاً مضاعفةً.

٣- أمَرَ اللهُ تعالى بتقواه، كما أمَرَنا باتِّقاءِ النَّارِ، كما أمَرَ بطاعتِهِ وطاعةِ رسولِهِ ﷺ، وبذلك ننالُ الفلاحَ، وننجو مِنَ النَّارِ، وندخُل في رحمة الله.

جنـــــة الســـــنة

٤- أَمَرَنا اللهُ -تبارك وتعالى- إلى المسارعةِ إلى جنّةٍ عَرْضُها السمواتُ والأرضُ، أعدَّها اللهُ للذين يتقونَهُ، ويعملونَ بطاعته.

٥- عدَّدَ اللهُ -تبارك وتعالى- صفاتِ المتقينَ الذين يَسْتَحِقُّونَ الجَنَّةَ التي عرضُها السمواتُ والأرضُ، ومِنْ هذه الصفاتِ الإنفاقُ في العسرِ واليسرِ، وكَظْمُ الغيظِ، فلا يثورُونَ لأتفه الأسبابِ، والذين يكثرونَ العفوَ عَن الناسِ، والذين يديمون الاستغفار لذنوبهم، ولا يصرُّون على ما ارتكبوه من الذنوب.

٦- اللهُ وَحْدَهُ الذي يغفرُ الذنوبَ، وليسَ ذلك لأحدٍ غيرِهُ، لا مَلَكٍ مقربٍ، ولا نبيٍّ مرسلٍ، وقد افترى رهبانُ النصارى على الله افتراءً عظيماً عندما نصبوا أَنْفُسَهُمْ مرجعاً يَسْمَعونَ مِنَ النَّاس شَكْواهم، ويغفرون لهم ذنوبهم.

٧- مصيرُ المتقين مصيرٌ طيِّب، فاللهُ يغفرُ لهم ذنوبهم، ويدخلهم جنَّاتٍ تجري مِنْ تحتها الأنهارُ، وهم في هذه الجنَّاتِ خالدون، ونعم أَجْرُ العاملين.

٨- اللهُ تعالى يحبُّ المحسنينَ الذين يقومون بالأعمال التي كلَّفهم بها على الوجهِ الأكملِ، ويتحقق ذلك بمراقبةِ العبدِ ربَّه تمام المراقبة.

جنـــــة السـنـــــــة

النص القرآني الثامن والعشرون من سورة آل عمران

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾

أولاً: تقديم

بيَّن اللهُ -تعالى- لنا في هذه الآياتِ أنَّ هزيمةَ المسلمين في أُحُدٍ تدخلُ تحتَ سُنَّةٍ مِنَ سُنَنِ الله في خلْقِهِ، فالحربُ بين المؤمنين والكفار سجالٌ، ثم تكونُ العاقبةُ للمؤمنين، فإذا فَقِه المؤمنون هذه السنَّة، فإنهم لا يهنونَ ولا يحزنون، ويعلمونَ أنَّهم مع هزيمتهم هم الأعلى والأرقى والأطيبُ، وستكونُ العاقبةُ لهم في الدنيا والآخرة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عمران:١٣٧-١٤٣].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ من القرآن

١- على المسلمين أنْ يفقهوا سُنَنَ الله في النصرِ والهزيمة:

أعلمنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّه قد خَلَتْ مِنْ قبلنا سُنَنٌ إلهيةٌ ربانيةٌ في الأمم السالفةِ، وأمَرَنا أن نسيرَ في الأرضِ ونعاينَ كيف كان عاقبةُ المكذبين ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران:١٣٧] ومعنى خَلَتْ: مَضَتْ وسَلَفَتْ، والسُّنَنُ جمعُ سُنَّةٍ، والسنَّةُ الطريقةُ المتَّبَعَةُ، وقد كانت سُنَّة الله أنْ يديلَ المؤمنين على الكافرين، ويديلَ الكافرين على المؤمنين ثم تكونُ العاقبةُ للمؤمنين الموحدين، وقدْ حدَّثنا اللهُ عن المؤمنين في أقوامهم، قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقوم فرعونَ وقوم لوط وقوم شعيبٍ وغيرهم، وقد قضت سنَّةُ الله فيهم بتدمير الكافرين ومَحْقِهم والقضاء عليهم، ولا تزالُ بعضُ

جنـــــة الســـــنة

ديارِ المعذبين قائمةً إلى اليوم، ومنها ديارُ ثمودَ التي نحتوها في الجبالِ، وقد مرَّ بها الرسولُ ﷺ وأصحابُه، وعرَّفهم الرسولُ ﷺ بالبئرِ الذي كانت تَشْرِبُ منه الناقةُ، والطريقِ التي كانت تسيرُ فيه، ومنها ديارُ قومِ لوطٍ التي جعل اللهُ عاليها سافلها. إنَّ سنَّةَ الله قضتْ في ختامِ الأمرِ بإهلاك قومِ نوحٍ وقومِ هودٍ وقومِ صالحٍ، وفرعون وقومه، ولا تزالُ هذه السُّنَّةُ باقيةً لا تتخلف، وقد أمرَ اللهُ المؤمنين أن يسيروا في أرضِ الله الواسعةِ، وينظروا في آثارِ المكذبين مِنَ الكفرةِ المشركين.

قد تقعُ الهزيمةُ للمسلمين كما وقعتْ للرسول ﷺ وأصحابِهِ في أحدٍ، ولن تكون العاقبةُ للمشركين بحالٍ، وهذا ما وقع للمسلمين في نهاية المطافِ، فقد هَزَمَ المسلمون اليهود عدة مرات في المدينة ثم في خيبر، وهزموا المشركين في مكَّة، ثم في جزيرةِ العربِ، ثم حطَّموا دولة الأكاسرة ودولة القياصرة، وفتحوا اليمنَ، والحبشةَ، بل أكثرَ إفريقيا، وهذا كلُّه يصدِّق سنَّةَ الله التي خلت في عباده.

٢- **هذا بيانٌ للناسِ:**

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- فيما حدَّثنا عنه في الآيةِ السابقةِ من أنَّ سنته في عبادِهِ أنَّ يديل المؤمنين على الكافرين، ويديلَ الكافرين على المؤمنين، ثم تكون العقبةُ دائماً وأبداً للمؤمنين.

وأخبرنا -سبحانه وتعالى- أنَّ في سنَّتِهِ التي خَلَتْ في عباده بياناً للناس، متى فقهه المؤمنون اهْتَدَوْا بهديِ الله، واتعظوا بمواعِظِهِ، ولم يَعْظُمْ عليهم أن يُهزَموا في بعض الأحيان، كما هُزِموا في أُحُدٍ، فإنَّ العاقبةَ لهم عند ربِّهم.

٣- **تعزيةُ الله المؤمنين فيما أصابهم في غزوة أُحُدٍ:**

لا يجوز للذي يُهزَمُ مَرَّةً في ميدانِ الحربِ والقتالِ أن تُحطِّمَ الهزيمةُ نفسَهُ، ولا يجوز أن تُذِلَّه لخَصْمِهِ، وتجزعه، وتفزعه، وتَشُلُّ حركتَهَ وتقديرَه وتدبيرَه، فهذه الهزيمةُ يوم في الطريق إلى النَّصرِ الكبير الذي لا تقومُ بعده للكافرين قائمة، ولذلك نهى اللهُ تباركَ وتعالى صحابةَ رسوله ﷺ عن أنْ يهنوا ويحزنوا، وقرَّر اللهُ بصورة جازمة أنهم الأعلونَ إن كانوا مؤمنين ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران:١٣٩]. قال ابنُ جريرِ الطبريُّ: «هذا مِنَ الله تعزيةٌ لأصحابِ رسول الله ﷺ على ما أصابهم مِنَ الجراحِ والقتلِ بأحد» [تفسير ابن جرير الطبري: ٣/١٩٧٩] نهاهُمُ اللهُ عنِ الضعفِ والحزنِ بسبب ما أصابهم، فالهزيمةُ أمْرٌ عارضٌ في الطريقِ إلى النَّصر، وأنتُمْ أيُّها المسلمونَ الأعلونَ في دينكمْ وإيمانكمْ وعقيدتكمْ

جنــــــة الســـــــنة

وانتسابكمْ إلى الله ربِّ العالمين، إذا أنتم حققتم الإيمان في حياتكم. فما دُمْتُمْ أنتم الأعلونَ، فلن تضيركم الهزيمة، فما أصابكم مِنْ ضعفٍ يمكنُ أن تستدركوهُ في مقبلِ الأيام.

٤- إن يمسسكم قَرْحٌ فقد مسَّ القوم قرْحٌ مثله:

قال اللهُ -سبحانه- مخاطباً رسولَهُ ﷺ وأصحابَهُ الذين كانوا معه: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠-١٤١].

يقولُ اللهُ تعالى للمؤمنين: إنَّ الذي أصابكم في أُحُدٍ أصابَ قريشاً في بدر أولاً، وفي أُحُدٍ ثانياً، فالمسلمونَ أثخنوا في المشركين قتلاً وأسراً في بدر، وقتلوا وجرحوا طائفةً مِنَ المشركينَ في بدايةِ المعركة في أُحد، فلا يجوزُ أنْ يكون المشركونَ أصْبَرَ منكم على ما أصابكم، والقَرْحُ الذي أصاب المؤمنين القتلُ والجراحُ.

وقرَّر اللهُ -عزَّ وجلَّ- في قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] على أنَّ الأيام دولٌ، مرةً ينتصرُ المسلمون، ومرةً يهزمون، ومرة ينتصر المشركون، ومرة يهزمون، وقد سألَ قيصرُ الرومِ أبا سفيان عندما جاءَه خطابُ رسولِ الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام عن الحرب بينهم وبين الرسولِ ﷺ، فقالَ أبو سفيان: «تكونُ الحربُ بيننا وبينه سِجالاً، يصيبُ منَّا ونصيبُ منه». وقال قيصر الروم معقباً على مقالة أبي سفيان: «وكذلك الرُّسُلُ تُبْتَلَى، ثم تكون العاقبة لهم» [البخاري: ٤٥٥٣. ومسلم: ١٧٧٣].

وقولُهُ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ١٤٠] أي: ليعلمَ اللهُ الذين آمنوا، أي: عِلْماً لما يجري في الواقعِ المشهودِ، فهذا عِلْمٌ غيرُ علمِ الله الذي عِلمه في الأزل، وهو علم للأحداث إذا وقعت.

والبلايا التي يَخْتبرُ اللهُ بها عبادَهُ تكشف عن معادنِ الرجالِ، فالرجلُ المؤمنُ الصادق الإيمان هو الذي يظهر صِدْقُه إذا نزلت بِهِ المصائبُ والرزايا.

وقد ظَهَر في المعركةِ كثيرٌ مِنَ النفوسِ المؤمنة الأبية بصبرها وجهادِها وحسن تصرفها.

وقولُهُ: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠] أي: يصطفي ويختارُ منكم شهداءَ، وهم الذين يجاهدون في سبيل الله، مُقَدِّمين أنفسَهُمْ وأموالَهم لإعلاءِ كلمةِ الله تعالى، فالشهادةُ

جنـــــة الســـــنة

كرامةٌ مِنَ اللهِ لعبادِهِ الذين قصدوها ونالوها، والشهادةُ أثمن ما يحصلُ عليه العبدُ، فلَهُ عندَ اللهِ المقامُ الأرفعُ والدرجةُ العليا، وقرّر في ختامِ الآية أنّه لا يحبُّ أهلَ الكفرِ والشركِ الظالمين.

وأخبرنا -تبارك وتعالى- أنّه يريدُ بهذه الهزيمةِ التي وقعت للمؤمنين أنْ يمحِّصَ المؤمنين، ويَمْحَقَ الكافرينَ ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران:١٤١]، والتمحيصُ التنقيةُ مِنَ العيوبِ والشوائبِ التي تَعْلق بنفسِ الإنسان وقلبِهِ، فالله يُنَقِّي المؤمنين من ذنوبهم إذا هم جاهدوا، ويُصَفِّي نفوسَهم، وتتأكد معاني الخيرِ في قلوبهم، وإذا انتصرَ الكفارُ والمشركون طَغَوْا وبَغَوْا، وازدادُوا كِبْراً وفساداً، فأسرع اللهُ في قَصْمِهِم وأَخْذِهم وتدميرِهم، والمَحْقُ يكون بأخذهم شيئاً فشيئاً، ومنه مُحاقُ القمرِ، فإنَّه ينقصُ ضوؤه شيئاً فشيئاً حتى يُمْحى ويزولُ، وكذلك أهلُ الشركِ لا يزالون ينقصون، شيئا فشيئاً، حتى يَذْهَبَ الشركُ كلُّه، ويَحِلَّ الإسلام محَلَّهُ.

٥- لا يدخلُ الجنَّةَ إلا مَنْ بذلَ النَّفسَ والمالَ في سبيلها:

خاطبَ اللهُ -تبارك وتعالى- صحابةَ رسولِهِ ﷺ منكراً عليهم طَمَعَهُمْ بدخولِ الجنَّةِ مِنْ غيرِ القيامِ بتقديم ثمنها مِنَ الجهادِ والصبرِ في الملمّات ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران:١٤٢] والمعنى: أنّه لا يحصلُ لكم دخولُ الجنةِ حتى تُبْتَلوا، ويعلمَ اللهُ منكم المجاهدين والصابرين الذين قَدَّموا أنفسَهم وأموالَهم في سبيل الله تعالى، وهذه الآيةُ كقولِهِ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة:٢١٤]، وقال: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت:١-٣].

٦- تمنِّي الصحابةِ بَعْدَ بَدْرٍ الموتَ في سبيلِ اللهِ:

أنّبَ اللهُ صحابةَ رسولِهِ ﷺ ، لأنَّ الذين لم يُقَدَّر لهم أن يشهدوا بدراً، كانوا يتحرقون شوقاً لخوضِ معركة أخرى يواجهون فيها المشركين، ويوقعون فيهم القتلَ والجرحَ والأسر، فلما أقْدرهم على مواجهة المشركين، وكان منهم الذين أشاروا على الرسولِ ﷺ بالخروج مِنَ المدينةِ خلافاً لما كان يراه بعضهم من المكثِ فيها، فلَمّا واجهوا العَدُوَّ ثبتَ بعضهم في الميدانِ، وفرَّ بعضهم مِنَ المعركةِ ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عمران:١٤٣]، وقوله: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عمران:١٤٣]، أي رأوا الموت

جنـــــــة السـنة

عندما اضطربتْ صفوفُهُمْ، وأحاطَ بهم أعداؤُهم، وأُشيع أنَّ رسول الله ﷺ قد قُتل، نعم رأوا الموتَ في الميدان، فقد كانت السيوف تبرقُ فوقَ رؤوسهم، والرماحُ تنوشهم، والحرابُ تمتدُّ إليهم، وهم مَذْهُوشُون مضطربون، ولَّى بعضُهم، وبعضُهم قاتلَ الكفرةَ قتالَ الراغبِ في الله وفي جنَّته، وقد ثَبَتَ في الصحيحين أنَّ الرسول ﷺ نهى عن تَمَنِّي لقاء العدو، فإذا لقيناهم فعلينا أن نصبر، فعن عبدالله بن أبي أوْفى أنَّ رسولَ الله ﷺ قامَ خطيباً فقال: «أيُّها الناسُ، لا تتمنَّوا لقاءَ العدوِّ، وسَلُوا اللهَ العافيةَ، فإذا لَقِيْتُمُوهُمْ فاصْبِروا، واعْلَموا أنَّ الجنَّةَ تحتَ ظلالِ السيوف» [البخاري: ٢٩٦٦. ومسلم: ١٧٤٢].

٧- أين نحن من سُنَنِ الله اليوم؟

يحقُّ لنا أن نتساءَل اليوم أينَ نحنُ مِنْ سننِ الله التي أجْراها في عبادِه؟ لقد مضى زمانٌ طويلٌ علينا، تسنَّم أعداءُ الإسلام فيه ظهورنا، وآذونا وأهانونا، وسلبونا أموالنا، واستولوا على أرضنا المقدَّسة فلسطين.

والجواب: إنَّ موازين النصرِ لا تعمل في جانبنا، فقد تخلَّى كثيرٌ مِنَ المسلمين عن دينهم، ووالوْا عَدُوَّهم، بل قاتلتْ بعضُ الدولِ التي تسمَّى بالإسلاميةِ مَنْ يريدُ تحكيمَ كتابِ الله مِنْ شَعْبِها، فهناكَ موانعُ تمنع مِنَ النَّصرِ والغلبِ على الأعداء.

ومع ذلك فإنَّ الأمةَ الإسلاميةَ ستعودُ إلى أصالتها وإلى دينها، وستتغير موازينُ القوى، وسيكون للمسلمينَ دَوْلة، وسيكونُ لها نَصْرٌ وعِزَّة وغَلَبٌ بحولِ الله وقوته، واللهُ غالبٌ على أمره.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النصِّ مِنْ علمٍ وعملٍ

إذا تأمَّلنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- لا يجوزُ للمسلمين إذا هم هُزِموا في ميدانِ القتالِ أنْ يقعدهم الهمُّ والحُزْنُ عن الجهاد، ولا يجوزُ أنْ يخضعوا ويذلُّوا لأعدائهم، ويتخلوا عن دينهم، فالمهزوم في الميدانِ ينفضُ عنه غبارَ الغفلةِ، ويتخلَّصُ مِنْ همِّه وحُزْنِه، ويستعيدُ عافيته، وينتصرُ في المعركةِ التالية.

٢- المسلمون هم الأعلون دائماً بإيمانِهِمْ وعقيدتِهِمْ، واستجابتِهِمْ لربِّهم تبارك وتعالى.

٣- الأيامُ بَيْنَ المؤمنين وخصومهم دُوَلٌ، مرةً ينتصرونَ علينا ومرةً ننتصر عليهم، وهذه سنَّةٌ مِنْ سنن الله التي يجريها في عباده، لكنَّ العاقبةَ للمتقين، ففي بدرٍ انتصرَ المسلمون، ومسَّ المشركينَ القَرْحُ، وفي أُحُدٍ هُزِمَ المسلمون ومسَّهم القرحُ.

جنـــــة السـنة

٤- المسلمونَ أحقُّ بالصَّبْرِ على ما أصابهم مِنْ القتلِ والجراحِ مِنَ المشركين، فالمسلمون هم أصحابُ الدِّين الحقِّ، يرجونَ مِنَ الله ما لا يرجوه الكفار.

٥- الشدائدُ والهزائمُ تكشفُ عن حقيقةِ المؤمنين الصابرين، وتظهر نفاقَ المنافقين، وتدلُّ على الضعفِ الذي يتلبَّسُ بِهِ بعضُ المقاتلين.؟

٦- الشهداءُ الذين يسقطون في حَوْمَةِ الوغى لا يجوز أن يعدَّ اسْتِشْهَادُهُمْ خسارة، فقد اختارهم اللهُ واصطفاهم، وحازوا في جناتِ النعيمِ ما لم يَحُزْهُ غيرهم.

٧- الهزيمةُ تمحِّصُ المؤمنينَ وتصفيهم، وتصلحُ نفوسَهُمْ، وتبطرُ الكافرين، وتنفخُ فيهم الكِبْرَ والاستعلاءَ، فتورثهم مزيداً مِنْ غَضَبِ الله وكرهه لهم، فيقْصِمهُمْ، ويأخذهم أخْذَ عزيزٍ مقتدر.

٨- الجنة لها ثمن، وثمنها يكون بالجهاد والصبر حتى ننالَ الاستشهادَ.

جنـــــة الســـــــنة

النص القرآني التاسع والعشرون من سورة آل عمران
أثرُ فَقْدِ القائدِ في حياةِ الجماعةِ المسلمةِ

أولاً: تقديم

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ أنَّه لا يجوزُ للجماعة المسلمةِ إذا فَقَدَتْ قائدَها ومُوجِّهها أنْ تخورَ قواها، وتضعف عزيمتها، وتُسْلم قيادَها لأعدائها، فهذا الدِّينُ الذي جاءَنا مِنْ عِنْدِ الله يدعونا إلى الله، واللهُ حيٌّ لا يموت.

والموتُ حقٌّ لا ينجو منه أحدٌ، ويأتي في مَوْعده الذي حدَّده اللهُ، وقد كانَ الأنبياءُ مِنْ قبْلنا ومَنْ معهم مِنَ الربانيين يقاتلونَ في سبيله، فلا يَضيرهم ما وَقَعَ بهم من هزائم، ويُصْلِحونَ بعد الهزيمةِ أمْرَهم، ويحققون النصرَ على عَدُوِّهمْ، وكانوا يستنصرون بالله، فينصرهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران:١٤٤-١٤٨].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آيات هذا النصِّ مِنَ القرآن

١- كيف يتصرَّفُ الأتباعُ عندما يفقدون قائدهم:

بَيَّنَتْ لنا الآيةُ الأُولى في هذا النَّصِّ كيف ينبغي للأتباع أن يتصرَّفوا في حالِ فَقْدِهِمْ رئيسهم وقائدهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران:١٤٤].

جنـــــة الســـــــنة

أعدَّ الرسولُ ﷺ لمعركةِ أُحُدٍ أحْسن ما يكونُ الإعدادُ، ووضع الرماةَ على أعلى الجبلِ المعروفِ اليوم بجبلِ الرماةِ، ونبَّه الرماةَ وقائدَهُمْ إلى خُطورَةِ مَوْقِفِهِمْ، وطلبَ منهم طلباً جازماً أنْ لا يغادِرُوا موقِعَهُمْ لا في حالِ هزيمةِ المسلمين ولا في حالِ نصرهم، وحقَّقَ المسلمونُ النَّصْرَ في بداية المعركةِ، وركب جيشُ المسلمينَ جيشَ الكفرِ، وفرَّ الكفَّارُ في الميدانِ، وهربتْ نساءُ المشركين يحتمين بالجبلِ، وهنا وقعَ عند المسلمين خَلَلٌ كبيرٌ غيَّر ميزانَ المعركةِ، فقد تَرَكَ أكثرُ الرُّماةِ الذين على الجبلِ مواقِعَهُمْ، مريدينَ أنْ يجمعوا غنائمَ المعركةِ، تاركينَ توجيهَ رسولهم خَلْفَ ظُهورِهِمْ، واغْتَنَم خالدُ بنُ الوليدِ خُلوَّ الجبلِ من أكثر الرماةِ، فاهتبلَ الفرصةَ، واجتاحَ سريعاً الموقعَ، قاتلاً القلَّة الباقيةَ من الرُّماة، وعادَ المقاتلون الذين فرُّوا مِنَ الميدان، وأصبح العدو محيطاً بالمسلمين مِنْ كلِّ جانب، واختلَّ الميزانُ عند المسلمين، وصَرَخَ الشيطانُ عند ذلك في المسلمين كما تقولُ عائشةُ فقال: «أيْ عبادَ الله أُخْراكم» فرَجَعَ المسلمونَ، فقتلَ بعضُهم بَعْضاً، وممّن قتله المسلمون «اليمان» والد حذيفة [البخاري: ٤٠٦٥].

وأصابَتِ المفاجأةُ المسلمينَ بالذهولِ، فاختلّ ميزانُهم، وفرَّ بعضُ المقاتلين مِن الميدانِ، منهم مَنْ وصل المدينةَ، ومنهُمْ من صعد الجبلَ، وركز المشركون على الرسولِ ﷺ، فشُجَّ في رأسه، وكُسِرَتْ رُباعِيَتُهُ، ودخلت حلقتان من حلق المغفرِ في وَجْنَتِهِ، وسال الدمُّ على وجهه، وأشاعَ المشركون أنَّهم قتلوا رسولَ الله ﷺ، وهزَّ النبأ نفوسَ المقاتلين مِنَ المسلمين، وأثَّر فيهم تأثيراً عظيماً، وجاءَ التوجيهُ القرآنيُّ والتعقيبُ على هذه الواقعةِ لتكونَ درساً وعبرةً على مَدارِ التاريخِ، فعلى المسلمين ألاّ يُغْفِلوا الثغراتِ التي تُؤَدِّي إلى الهزيمةِ كما فَعَلَ الرماةُ حينَ تركوا مواقِعَهم، وعَلَيْهِمْ أنْ لا يهتموا بأمر الغنيمة، فلو صَبَرَ الرماةُ حتى انتهت المعركةُ لحصلوا على الغنائمَ مَعَ النَّصرِ.

ثمَّ ماذا؟ ماذا لو قُتلَ الرسولُ ﷺ في المعركةِ أينتهي الدين الذي جاء به، والرسالةُ التي حملَها مِنْ عند الله إلى عبادِهِ، اللهُ حَيٌّ لا يموتُ، ودينُه دينٌ خالدٌ، أمَّا حملةُ دينه فإنَّهم يموتون ويذهبون، ومحمدٌ له خصوصيةٌ لا يبلغها أَحَدٌ مِنْ بعده، ولكنَّه بشرٌ رسول، وكلّ البشر يموتون، والرسلُ مِنْ قبله حملوا الرسالةَ ثم ماتوا، فماذا لو ماتَ الرسولُ أو قُتِلَ؟ هل ينقلب أتباعه عن دينهم، وهل يسلمون قيادَهُمْ للمشركين الذين يقاتلونهم، إنَّ الذي ينقلبُ على عقبيه لنْ يَضُرَّ اللهَ شيئاً، وسَيَضُرّ نفسَهُ، أما الذين يثبتون على الدِّين، ويبقونَ مستمسكين به، وقائمين عليه حتى يلقوا ربَّهم، فالله سيجزيهم أحسن الجزاء، ويتفضَّلُ عليهم بمنَّه وكَرَمِهِ.

جنـــــة السـنـــة

٢- **الموتُ كتابٌ مؤجّلٌ:**

الموتُ مكتوبٌ على العبادِ ولكلِّ عبدٍ مِنَ عبادِ الله موعدٌ لن يَعْدُوه، لا فرقَ في ذلك بين المؤمنين الكافرين ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [آل عمران:١٤٥]

وقد أشارَ اللهُ إلى هذه الحقيقةِ في أكثرِ من موضعٍ في كتابِه، فقال: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ﴾ [فاطر:١١] وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنعام٢]. والأُمَّةُ الإسلاميةُ عندما تدركُ هذه الحقيقةَ لا تخافُ الموتَ ولا ترهبه، ولذلك كان المقاتلون في ميدانِ القتالِ يعرضون للمواقِعِ التي يلحظونَ فيها الموت ولا يموتون، كما وقع مع خالدِ بن الوليدِ في حروبه الإسلامية، وكما وقع لطلحة بن عبيد الله وَصَل إلى جَسده في معركة أحد بضعٌ وسبعونَ ضربةً، ولم تُكْتَب له الشهادةُ.

وأخبرنا ربُّنا عزّ وجلَّ أنَّ الذين يريدون الدنيا بقتالهم قد يحصلون على ما قصدوه وأرادوه، ومن يريدُ الآخرةَ يعطيهم اللهُ الآخرة، وقد يحصلونَ على شيء من الدنيا.

٣- **وكأيِّن مِنْ نبيٍّ قاتلَ معَهُ ربيونَ كثير:**

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ كثيراً مِنَ الأنبياءِ قاتلَ مع كلّ واحد منهم ربيُّون كثيرٌ، والربيُّون: الجموعُ الكثيرةُ مِنَ العلماءِ والفقهاءِ، والصالحين، ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران:١٤٦].

أخبرنا اللهُ -عزَّ وجلَّ- أنَّ هؤلاءِ الأخيارَ الذينَ قاتلوا مَعَ الأنبياءِ أصابهم القتلُ والجرحُ والأذى، فتحمَّلُوا ذلك كلَّه، ولم يهنوا لما أصابهم في ميدان الحربِ والقتالِ، والوهنُ: الضعفُ والخورُ، وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّهم لم يَضْعُفُوا، ولم يستكينوا، والاستكانة: الذلَّة والصغارُ. لقد امتدحَهُمْ ربُّهم، بأنَّهم صبروا، واللهُ تعالى يحبُّ الصابرين.

٤- **لجوءُ المقاتلين إلى ربِّهم واستغاثتهم به:**

حدَّثنا اللهُ -تباركَ وتعالى- عنِ المقاتلينَ أتباعِ الأنبياءِ أنَّهم كانوا أبطالاً شجعاناً في ميدانِ الحربِ والقتالِ، وأنَّهم صبروا على ما أصابهم في إخوانهم وأنْفسِهِمْ، وحدَّثنا في الآيةِ التاليةِ عن لجوئِهم إلى ربهم واستغاثتِهم به، فقال: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران:١٤٧] وأوَّلُ

جنـــــة الســــــنة

ما طلبوه من ربِّهم غفرانَه لما ارتكبوه مِنَ الذنوبِ، فالذنوبُ التي ارتكبوها قد تكونُ السببَ في هزيمتهم، ولذلك يطلبونَ من الله غفرانها، ويَدْعون أن يغفرَ لَهُمْ إسرافَهم في أمرِهم، والإسرافُ تجاوزُ الحدِّ في كلِّ فِعْلٍ يفعله الإنسانُ، وإن كان ذلك في الإنفاقِ أشهرَ.

وأعلمنا ربنا -تبارك وتعالى- أنَّ هؤلاءِ الربانيين الأخيار، دَعَوْا ربَّهم أنْ يُثبِّتَ أقدامهم في ميدانِ القتالِ، وينصرهم على القومِ الكافرين، وأعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه استجابَ لهم دعاءَهم، وآتاهم ثوابَ الدنيا والآخرةِ ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران:١٤٨].

رابعاً ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من العلم والعمل

إذا تدَّبرْنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- محمدٌ ﷺ رسولٌ كبقية الرسل، يموتُ كما يموتون، لا يجوز أن يرتدَّ الناسُ على أعقابهم إن هو مات، فالدينُ لله، وهو حيٌّ لا يموت.

٢- أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنّ العربَ سترتدُّ بعدَ وفاةِ الرسول ﷺ ، وقد وقعَ الأمر كما أخبر اللهُ تعالى به.

٣- عندما توفِّي الرسولُ ﷺ حصلَ لغط شديدٌ بين الصحابةِ، وخَطَبَ عمرُ الناسَ، فلم يُغْنِ عنهم شيئاً، «وأقبل أبو بكر على فرسٍ مِنْ مَسْكنه بالسُّنْح، حتى نزلَ فدخلَ المسجدَ، فلم يُكَلِّمِ الناسَ حتى دخل على عائشةَ، فتيمَّمَ رسولَ الله ﷺ وهو مُغَشًّى بثوبِ حِبَرَةٍ، فكشفَ عن وجهِهِ، ثم أكبَّ عليه فَقَبَّلَهُ وبكى، ثم قال: بأبي أنتَ وأمي، والله لا يجمعُ اللهُ عليك موتتين، أما المَوْتَةُ التي كُتِبَتْ عليكَ فقد مُتَّها» [البخاري: ٤٤٥٢، ٤٤٥٣] وكلامُ أبي بكر هذا ردٌّ على مَنْ نفى موْتَهُ ﷺ في ذلك اليوم.

«ثم خرج أبو بكر وعمر بن الخطاب يكلمُ الناسَ، فقال: اجْلِسْ يا عُمَرُ، فأبى عُمَرُ أنْ يجلسَ، فأقبلَ الناسُ إليه، وتركوا عُمَرَ، فقالَ أبو بكر: أمَّا بعدُ: فَمَنْ كان منكم يَعْبُدُ محمداً فإنَّ محمداً قد ماتَ، ومَنْ كان يعبدُ الله، فإنَّ اللهَ حيٌّ لا يموت، قال الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران:١٤٤]». قال ابن عباس راوي هذا الحديث: «والله لكأنَّ الناس لم يَعْلَمُوا أنَّ اللهَ أنزلَ هذهِ الآيَةَ حتى تلاها أبو بكر، فتلقَّاها منه النَّاسُ كلُّهُمْ، فما أسمع بشراً مِنَ النَّاسِ إلا يتلوها» [البخاري: ٤٤٥٤].

جنـــــــة السـ‍ـــنة

لقد وَضَعَ أبو بكرٍ الصحابةَ بخطبتهِ القصيرةِ، وبالآيةِ التي استدلَّ بها الناسَ في ضوء الحقيقةِ، واستبانَ للنَّاسِ أنَّ رسولَ الله ﷺ ماتَ حقّاً، انظر إلى أثرِ هذه الخطبة في عمر حيث قال: «واللهِ ما هوَ إلا أنْ سمعت أبا بكر تلاها فعَقِرْتُ، حتى ما تُقِلُّني رجلايَ، وحتى أهْوَيْتُ إلى الأرضِ حين سَمِعْتُه تلاها، عَلِمتُ أنَّ النبيَّ قد ماتَ» [البخاري: ٤٤٥٤، وانظر أحاديث البخاري: ١٢٤١، ١٢٤٢، ٣٦٦٧، ٣٦٦٩].

٤- الذينَ يرتدُّونَ عَنْ دينهم لَنْ يَضُرُّوا اللهَ، فاللهُ غنيٌّ عنهم، ولكنَّهم يضرُّون أنفسَهُمْ، ويوقعونها في نارِ الله وغَضَبِه.

٥- لكلِّ إنسان أجلٌ تنتهي حياته إليهِ، فلا يموتُ الإنسانُ قبل أجَلِهِ، ولا يتأخرُ عنه، وقد أعطى هذا الفقه المسلمينَ قوةً هائلةً على خوضِ المعاركِ والحروبِ.

٦- قاتلَ الأنبياءُ وأتباعُهُمْ مِنْ أهْلِ العلمِ والفضلِ في سبيلِ الله، فلم يكونوا يَضْعُفُوا حين ينزلُ البلاءُ والهزيمة بهم، بل كانوا يصبرون على الآلامِ والأوجاعِ، ويضمِّدون الجراحَ، ويعودونَ إلى النَّصر.

٧- كان الأنبياءُ والربانيون يلجؤون إلى ربِّهم قبلَ أنْ يخوضوا غمارَ الحروب، يستغفرونَه لذنوبهم، ويدعونَهُ، ويستنصرونَ بِهِ على القومِ الظالمين.

٨- الذنوب التي يتلبس بها العبادُ قد تكونُ سبباً للهزيمة، وحارمةً من النَّصر، ولذا فإنَّ التوبةَ مِنَ الذنوبِ قد تكونُ مفتاحاً للنصر.

٩- الجهادُ قد يجلبُ النَّصرَ والعلوَّ والرفعةَ للمقاتلين، كما يجلب النعيمَ المقيمَ والحياةَ الأبديةَ.

جنـــــة الســـــنة

النصُّ القرآنيُّ المتممُ للثلاثين من سورةِ آل عمران
هزيمةُ المؤمنين في أُحد بَعْدَ انتصارهم

أولاً: تقديم

حذَّر اللهُ -تعالى- المؤمنينَ مِنَ الاغترارِ بباطلِ ما دعاهم إليه المشركون، فإنَّ طاعتنا لهم تردُّنا على أعقابِنا، فنصبح خاسرينَ، وعلينا أنْ ننصرفَ عن الكافرين، ونلجأ إلى الله مولانا، فهو خيرُ النَّاصرين. ووعدنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنْ يُلْقِيَ في قلوبِ أعدائِنا الرُّعْبَ بسببِ شركهم بالله تعالى ما لم ينزلْ بِهِ سلطاناً، وأعلمنا أنَّ مأوى هؤلاءِ الكفرةِ النَّارُ.

وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- كيف تحوَّلَ النصرُ إلى هزيمةٍ في أُحُدٍ بسبب مخالفة الرماةِ لما أمرهم بِهِ الرسولُ ﷺ ، وصوَّرَ لنا مشهدَ الهزيمةِ في أُحدٍ تصويراً تكاد الكلماتُ ترسمه في قلوبنا.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عمران:١٤٩-١٥٣].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آيات هذا النص من القرآن

١- تحذيرُ الله المؤمنين من طاعة الكافرين فيرُدُّوهم على أعقابهم كافرين:

انتصرَ المسلمونُ في معركةِ بدرٍ، فحازوا بهذا النَّصرِ التوقيرَ والتقديرَ من خصومهم، وسكَتت الألسنةُ التي كانت تتناوشهم مِنْ اليهود والمنافقينَ، فلما وقعتْ الهزيمةُ في أُحُدٍ، انطلقت الألسنةُ من عقالها، انطلقتْ ألسنةُ المنافقين الذين شهدوا المعركة والذين لم

جنـــــة السـنـــــة

يشهدوها، وانطلقتْ وساوسُ الشيطانِ تعملُ في القلوب، وانبعثتْ وساوسُ النفسِ الإنسانية تتلاعبُ بالعقولِ والنفوسِ، وكلُّ ذلك أدى ببعض هؤلاء إلى مقتِ مسيرَتِهمْ، وتطلعتْ إلى الرجوعِ إلى خُصومِهِمْ في مكَّةَ وغيرها، وجاءَ التحذيرُ الإلهيُّ الربَّانيُّ من ربِّ العالمين للمؤمنين مخوِّفاً إياهم من طاعةِ الكافرين، فيردُّوهم على أعقابهم كافرين، وينقلبوا خاسرين، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [آل عمران:١٤٩].

وحذَّر اللهُ المؤمنين من أن يرضوا بالتفاهات التي تنطقُ بها ألْسنةُ أعدائهم وخصومهم، ونهى نهياً قاطعاً عن طاعةِ الكفار، فموازينُ ومقاييسُ الكفار مختلَّةٌ ضالّةٌ منحرفةٌ، فلا يأمروننا بخير، ولا يُشيرونَ علينا بصلاحٍ، وليس لديهم هدايةٌ، ولن تقودُنا أقوالُهم وتوجيهاتهم إلا إلى الكفر والانحرافِ، ولو أطعناهم حقّاً إلى ما يدعوننا إليه، فسنتركُ ديننا وننحرفُ عنه، وهذه هي الردّةُ عن الإسلامِ، وهي الردّةُ على الأعقاب، وهي رجوعٌ إلى الوراءِ، وعودةٌ إلى الجاهليةِ، وانقلابٌ إلى الخسرانِ، عياذاً بالله ربِّ العالمين.

لقد علا منارُ أعداء الإسلامِ اليومَ، فأقاموا المعاهدَ والمراكزَ والجامعاتِ التي تُدَرِّس إسلامَنا وتاريخنا وعلومَنا، وأقاموا علماءَ يعملونَ على إفسادِ هذا الدِّين، وسُمُّوا بالمستشرقين، وصدّروا ما سطَّروه إلينا لإفسادنا، وليلبسوا علينا الحقَّ مِنْ هذا الدين، وعلينا أن نلقي بزبالةِ المستشرقين وراءَ ظهورنا، ونعتصم بما جاءَنا بِهِ هذا الدينُ.

٢- طاعةُ الرحمنِ تُحقِّقُ النَّصرَ:

نهانا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن طاعةِ الكفارِ فيما يأمرونَنا بِهِ، ويدعونَنا إليهِ، ودعانا ربُّنا- تباركَ وتعالى- إلى توَلِّيه، والأخذ بما جاءَنا به في كتابه، وعلى لسانِ رسولِهِ ﷺ ، وبذلك يتحقَّقُ نصرُنا وعِزُّنا وكرامتُنا، ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [آل عمران:١٥٠].

٣- إلقاءُ ربِّ العزّةِ الرُّعْبَ في قلوب المشركين:

وَعَدَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنْ يُلْقِيَ الرُّعْبَ في قلوبِ أعدائِنا، والرعب أشدُّ الخوفِ، ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [آل عمران:١٥١].

وإلقاءُ الله الرعبَ في قلوبِ أعدائِنا إحدى الخصالِ التي خَصَّ الله بها هذه الأمّةَ، ففي الحديثِ الصحيحِ أنَّ اللهَ أعطَى رسولَهُ ﷺ خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ مِنْ قبله، وإحدى هذه الخمسُ: «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مسيرةَ شهرٍ» [البخاري: ٣٣٥. ومسلم: ٥٢١].

جنـــــة السـنـــة

وهذا الرّعْبُ الذي يلقيه ربُّ العزةِ في قلوبِ الكفارِ أَحَدُ العواملِ الرئيسةِ التي تهزمُ الكفارَ في الميدانِ، ومِنْ أمثلة ذلك أنَّ بني النضير كانوا مغترِّينَ بأنفسهم وقُوّتهم في المدينة، وكان المسلمون يظنون أنّهم لا يستطيعون الانتصارَ عليهم، وكان بنو النضير يظنون أنَّ حصونَهُمْ وقلاعَهُمْ تقيهم بأسَ الله، فقذفَ الله الرعبَ في قلوبهم، فانخذلوا واستسلموا وهزموا ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ ﴾ [الحشر:٢].

والسببُ الذي أوقعَ اللهُ بِهِ الرعبَ في قلوبهم هُو كُفرُهم وشركُهم بالله تعالى، وهذا الكفرُ والشركُ باطلٌ، فلا يوجدَ دليلٌ يقوم عليه أو يُؤَيِّدُه، وإذا كان اللهُ يلقي في قلوبِ أعدائِهِ الرُّعْبَ في الدنيا، فإنَّه يُدْخِلُهم في يومِ القيامة النَّارَ، وبئسَ المثوى في ذلك اليوم مثواهم، والمثوى في لغة العرب: الإقامةُ مَعَ الاستقرارِ، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الزمر:٦٠].

ولا تزالُ عقدةُ الخوفِ عندَ الغربيين من المؤمنين مغروسةً في نفوسِهِمْ، مَعَ ضعفِ المسلمينَ في هذه الأيام، وقد أفردها الغربيونَ بالتأليف، ولكنَّهم لم يهتدوا إلى الحقيقة التي أخبرنا اللهُ بها في كتابِهِ.

٤- انتصارُ المؤمنين في أول المعركةِ في أُحُدٍ:

خطَّطَ الرسولُ ﷺ للمعركةِ، ونظَّم جنودَهُ في أرض المعركةِ وَفْقَ الترتيبِ الذي تقضيهُ الخطّةُ، وخاضَ المسلمون المعركةَ وَفْقَ الخطةِ المرسومةِ، وصَدَقَ اللهُ المؤمنين وَعْدَهُ، فأخذَ المجاهدونَ يحصدونَ الكفارَ حصْداً، وسقط حاملُ لواءِ المشركين في المعركةِ، وطائفةٌ مِمَّنْ حوْلَهُ بلغُوا سبعةً أو تسعةً، وسقطَ اللواءُ على الأرضِ وفرَّت المشركاتُ اللاتي حَضَرْنَ المعركةَ هارباتٍ إلى الجبلِ، وكان المسلمونَ قاب قوسين أو أدنى مِنْ النصر.

لكن وَقَعَ في المسلمين ما عَكَسَ ميزانَ المعركةِ، وقلبَ مسارَها، فغَلَبَ المشركونَ، وهُزِمَ المسلمون، لقد ترك الرماة مواقعهم في أعلى الجبل الذي كانوا عليه، وكان الرسول ﷺ أمَرهم أنْ لا يبْرَحُوهُ سواءً انتصر المسلمون أو هُزِمُوا، وقد طَلَبوا مِنْ رئيسهم عبدالله بنِ جبير أن يأذن لهم في النزول لجمع الغنائم، وانتهابِ الأموالِ، فلم يأذنْ لهم، واختلفوا وتنازعوا فبقيت فئةٌ قليلةٌ بقيادة قائدهم على الجبل، ملتزمين بما أوْصاهُم الرسولُ ﷺ بِهِ، والفئةُ الكبرى ترَكُوا مواقِعَهُمْ ظانِّينَ أنَّ المعركةَ قد انتهتْ لصالحِ المسلمين ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ

جنـــــة الســــــنة

ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٢].

لقد صَدَقَ اللهُ المؤمنين وعْدَهُ بنصرهم في أوَّلِ المعركةِ، ومعنى ﴿ تَحُسُّونَهُم ﴾ أي: تقتلونهم، وتوقعون بهم الجراحَ وتزلزلونهم، وفَشَلُهُمْ وتنازعهم هو ما فَعَلَهُ الرماةُ عندما تَمَرَّدُوا على قائدهم، وعَصَوْا أمْرَ رسولهم، وأفسدوا الخطَّةَ التي وضعها رسولهم ﷺ، وقولُهُ: ﴿ مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ ﴾ [آل عمران:١٥٢] أي: النصرَ الذي امتدَّ إلى نزولِ رماةِ المسلمين عن الجبلِ.

وقوله: ﴿ مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [آل عمران:١٥٢] أي: الغنائمَ والأموالَ، وقوله: ﴿ مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ﴾ [آل عمران:١٥٢] أي: أجر الآخرة وثوابها.

لقد فَشِلَ الصحابةُ وتنازعوا في أُحُدٍ، فذهَبَتْ رِيحُهُمْ، وتبدَّدَت قوَّتُهم، وانتصرَ عليهم أعداؤُهم، ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ ﴾ [الأنفال:٤٦]. وقد بقيَ هذا التوجيهُ الإلهي الرباني الذي أنْزَلَهُ اللهُ تعالى في كتابِهِ هادياً ومرشداً على مرِّ الزمانِ كيْ لا يقع المسلمونَ في مثل ما وَقَعَ فيه الأخيارُ في أُحُدٍ.

إنَّ سنَّةَ الله لا تحابي أحداً، فعندما استقام المسلمونَ على الخطَّةِ التي خَطَّها الرسولُ ﷺ انتصروا، وعندما أصبحَ في الخطَّةِ ثغرةٌ هُزموا، وكم هي المعاركُ التي تَسَبَّبَ المسلمونَ فيها بالهزيمةِ بمخالفتهم لخطة القائدِ، لقد صرفَ اللهُ المؤمنينَ عَنِ النصر، فاختلت صفوفُهم واضطربَتْ، وسَقَطَ منهم الشهداءُ، وتناثروا في أرضِ المعركةِ، وكان ذلك ابتلاءً عظيماً، ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٢] وصَرَفَ اللهُ المؤمنينَ عن المشركين، فبينَما كانوا منصورين، أصبحوا مهزومين، وكان ذلكَ ابتلاءً واختباراً عظيماً، وقد غَفَرَ اللهُ للمؤمنين ما وَقَعَ منهم مِنْ خللٍ ومعصيةٍ، واللهُ ذو فضلٍ عظيم.

٥- الآياتُ ترْسِمُ صورةَ هزيمةِ المجاهدين في الميدان:

عندما نُمْعِنُ النَّظَرَ في الآيةِ الأخيرة من هذا النصِّ نجدُها تصوِّرُ بعبارتِها الرائعةِ المحكمةِ السبكِ مشهداً لهزيمةِ المجاهدينِ في ميدانِ القتال ﴿ ۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا

جنـــــــة الســــــنة

﴿تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عمران:١٥٣] كأننا نشاهِدُ ونحن نقرأ الآيةَ على بعدِ الزمان والمكانِ الصورةَ بوضوحٍ، فالمقاتلون المسلمون الذينَ كانوا يقاتلون الكفارَ متفاهمينَ مترابطين انفرطَ عقدُهُمْ، واختلَّ صفُّهم، وذهبتْ ريحُهُمْ، وانتشروا في ميدانِ القتالِ على غيرِ هُدى، لا يهتمُّ أَحَدٌ منهم بأحَدٍ، ولا يلتفتُ أحَدُهم إلى حالِ أخيه، بعضهم وَصَل في فِراره إلى المدنية، وبعضُهم جَرى في الوديان والشعابِ، وبعضُهم صَعِدَ الجبلَ، والرسولُ ﷺ لا يزالُ هناك في أرْضِ المعركة، يناديهم، محاولاً تثبيتهم وتجميعهم، فأصابَهم هذا الذي وَقَعَ بهم بالغمِّ مضاعفاً، لقد هُزِموا، وظنُّوا أنَّ الرسولَ ﷺ قُتِلَ، وذهبتْ ريحُهُمْ، وظنُّوا أنَّ الكفارَ سيطبقونَ عليهم، وقال تعالى في ختام الآية: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عمران:١٥٣] أي: هذا الذي بيَّناهُ لكم يَدُلُّكم على أنّ ما جرى لكم كان بِفِعْلِكُمْ، وما كَسَبَتْهُ أَيْدِيكُمْ، فلا تَحْزَنُوا على ما فاتكم مِنَ النَّصْرِ والغنيمة، ولا ما أصابكم مِنَ الهزيمةِ، واللهُ خبيرٌ بما وقعَ منكم مِنْ أعمال.

رابعاً: ما تهدي إليه هذه الآياتُ من علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- حذَّرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- ناهياً إيانا أنْ نطيعَ الكافرين، ونقبلَ مشورتهم، فيردُّونا على أعقابنا خاسرين، فالكفارُ لا هدايةَ عندهم، وكلُّ ما عندهم خسارٌ وبوار.

٢- علينا ونحنُ نحْذَرُ الكافرينِ وهَدْيَهُمْ، أنْ نأْخُذَ بهديِ الله تعالى، فهو ناصرُنا ومولانا، ولا يدُلُّنا على ما فيه صلاحنا إلاَّ هو سبحانه.

٣- من خصائصِ هذه الأمةِ أنَّ اللهَ نَصَرَها بالرُّعْبِ مسيرةَ شَهْرٍ، ولا تزالُ هذه الخصيصةُ تعملُ عملَها في قلوبِ أعداءِ الإسلام إلى اليوم.

٤- يُلْقِي اللهُ الرعبَ في قلوبِ أعداءِ الإسلام لما في أنفسهم مِنَ الضَّلالِ والشِّرْكِ، فالشركُ باطلٌ، والباطلُ يُزَعْزِعُ النفوسَ، ويوقِعُها في الرَّيْبِ والشكِّ.

٥- انتصرَ المسلمون في أُحدٍ في أوَّلِ المعركةِ عندما استقاموا على الخطَّة التي اختطها لهم الرسولُ ﷺ ، حتى إذا خالفوا الخطَّة ونزَلَ الرماةُ عن الموقعِ الذي حُدِّدَ لهم هُزِموا.

٦- مع فَضْلِ الصحابة وعُلُوِّ مكانتهم فإنَّ بعضهم طلب الدنيا، كما فَعَلَ الرماةُ الذين تركُوا مَواقِعَهم لأجلِ جمعِ الغنائم.

جنـــــــة الســـــــنة

٧- اللهُ -تبارك وتعالى- لا يحابي أحداً، فيَهْزِمُ ربُّ العزَّةِ الأخيارَ أصحابَ رسولِ الله، ويديلُ عليهم أعداءَه الكفارَ إنْ لم يلتزموا بالخطَّة الصالحة، واختلفوا فيما بينهم.

٨- كانَ في هزيمةِ المسلمين في أُحدٍ بلاءٌ عظيمٌ، ودروسٌ كثيرةٌ، يحتاجُها المسلمون دائماً في مواجهتهم لأعدائِهم عَبْرَ تاريخهم.

٩- عَفا اللهُ -تبارك وتعالى- عن الذينَ فَرُّوا في أُحُدٍ، فلا يجوزُ أنْ يُوَجَّهَ اللومُ إلى واحد منهم.

١٠- رَوْعَةُ الوصفِ القرآني في تصوير مَشْهَدِ المعركةِ في أُحُدٍ، وهُمْ منهزمونَ، حالَ كونهم مخلفين رسولَ الله ﷺ وراءَهم في الميدان.

١١- هُزِمَ المسلمون في أُحُدٍ وأصابهم القرحُ، ولكنَّهم لمْ يفقدوا خيريتهم وأفضليتهم على الذين هزموهم، وعلى المسلمين أن يحذروا وساوس أعدائهم أن تعمل فيهم مصورةً لهم أنَّهم الأدنى بسبب هزيمتهم، كما هو واقع في أيامنا هذه.

جنـــــة السـنة

النصُّ القرآنيُّ الحادي والثلاثون من سورةِ آل عمران الذينَ غشَّاهم الله النعاسَ والذين أهمتهُمْ أنفسهم

أولاً: تقديم

حَدَّثنا اللهُ -تعالى- في آياتِ هذا النصِّ عن طائفتين مِنَ المجاهدين في أُحُد، إحداهما: غَشَّاها اللهُ النعاسَ، فحلَّ في نفوسها الأمنُ بعدَ الغمِّ الذي نَزَلَ بها. وطائفةٌ أخرى أَهَمَّتْها أنْفسُها، فهي تظنُّ بالله غير الحقِّ، كما هو حالُ أهْلِ الجاهليةِ، وقد فَصَّل ربُّنا القولَ في هذه الطائفة كما سيأتي في تفسيرها.

ثانياً: الآيات القرآنية في هذا النص من سورة آل عمران

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)﴾ [آل عمران:١٥٤-١٥٥].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ من القرآن

١- الطائفةُ التي تغشَّاها النعاسُ أمنةً من الله والطائفةُ التي أهمتها أنْفسُها:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه أنْزَلَ على المقاتلينَ المجاهدينَ في أُحُدٍ بعدما أصابَهم الغمُّ أمنة نعاساً، غشَّى طائفةً منه، وطائفةٌ أخرى لم يَغْشاهُم النعاسُ، أهمَّتْهم أنْفُسُهم، والذين غشّاهُم النعاسُ هم الأكثرُ والأفضلُ ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ﴾ [آل عمران:١٥٤] والأمَنَةُ التي أنزلها اللهُ عليهم هي الأمْنُ، وفسَّرَ اللهُ هذا الأمْنَ بالنُّعاسِ الذي غَشِيَهُمْ، فالمقاتلُ المُجْهَدُ المتعبُ الواثقُ بالله ورعايته وتأييده يُسلِّمُ أمْرَه لله، وهو يَبْذُلُ أقصى ما يستطيعُهُ من جُهْدٍ، وهذه اللحظاتُ التي تخفقُ فيها رؤوسُ المجاهدين، وهُم على خيولهم، أو وَهُمْ واقفون على أرجلهم في الميدانِ لها أثَرٌ عظيمٌ في هدوءِ النفوسِ واسْتِقْرارِها، وإزالةِ التعبِ الذي يُرْهِقُ صاحِبَهُ.

جنـــــة السـنــة

وقد حدَّثنا الصحابيُّ الجليلُ أبو طلحة عن نَفْسِهِ وعن الصحابةِ مِنْ حوله في أُحُدٍ عندما تَغَشَّاهُمْ النومُ، فقال: «كنت فيمن تَغَشَّاه النعاسُ يومَ أُحُدٍ، حتى سقطَ سَيْفي مِنْ يَدي مراراً، يَسْقُطُ وآخذه، ويسقطُ فآخذه» [البخاري: ٤٠٦٨].

وقال أيضاً: «رَفَعْتُ رأْسي يومَ أُحُدٍ، فجعلتُ أنْظُرُ، وما منهم يومئذ أَحَدٌ إلا يميدُ تحت حَجَفَتِهِ مِن النُّعاس» [الترمذيُّ: ٣٠٠٧. وقال: هذا حديث حسن صحيح]. ولم يكن كلّ الذين شهدوا أُحداً على هذا المستوى الراقي مِنَ الإيمانِ والوثوقِ بالرحمن، فبعضُ الذين شَهِدُوا أُحداً قال الله فيهم: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران:١٥٤].

وهذه الطائفة التي أهمتها أنفسها قد تكون مِنَ المنافقين الذين شهدوا المعركة طلباً لحيازةِ المغنم، وقد يكونون مِنَ المؤمنين الذين فيهم ضعف، فقالوا ما قالوهُ مما أنْكَرَهُ الله عليهم، وهذه الطائفةُ طائفةٌ قلقةٌ لم يستقرّ فيها التوكلُ على الله والتسليمُ لَهُ، أَهَمَّتْها أنفسها، فهي تُعْمِلُ الفكرَ فيما ينبغي أنْ تفعله، أترجعُ إلى المشركين، أو تفرُّ إلى الصحراءِ والجبالِ والوديانِ، ولو سَلَّمَتْ أمرها لله تعالى لما أهمتها أنْفُسُها.

وقد كَشَفَ اللهُ المكنونَ في قلوبِهِمْ، فهم يظنونَ في أنْفُسِهِمْ غيرَ الحقِّ ظنَّ الجاهلية، لقد ظنَّ هؤلاءِ أنَّ هذه المعركةَ هي النهايةُ، وأنَّه لنْ تقوم للمسلمين قائمةٌ بعدها، وأنَّ المشركينَ سيكونونُ هم أسيادَ الموقفِ، وهذا الظنُّ الذي خالطَ نفوسَهَمْ ظنٌّ خاطئٌ، وهو ظنُّ الجاهليةِ. وقال هذا الفريقُ الذي لم يتشبع بالإيمانِ، ولم تستقرَّ عنده تعاليم الإسلامِ: هل لنا مِنَ الأمرِ مِنْ شيءٍ، ويأتي الجوابُ واضحاً بيِّناً: قُلْ إنَّ الأمر كلَّه لله، وأخبرَ اللهُ سبحانُه أنَّهم يخفون في أنْفُسِهِمْ ما لا يبدونَ لكَ، وهذا الذي يخفونه في أنْفُسِهِم هو قولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾.

هذه النفوسُ تدورُ حولَ ذاتها من غير بصيرةٍ ولا استقرارٍ، حُرِمَتْ نعمةَ الأمنِ، ولم تَفْقَه كيف تُسَلِّمُ أمْرَها لله، وقد غاب عنها أنَّ تدبيرَ الأمورِ إلى الله، وغاب عنها أنَّ الموتَ والحياةَ بيدِ الله سبحانه، فلا يموتُ أَحَدٌ قبلَ وقْتِهِ، ولا يبقى أحد بعد الأجل المحدَّدِ، وإذا شاءَ اللهُ شيئاً كان، فلو كَتَبَ اللهُ على واحدٍ أنْ يموتَ بموضعٍ، فإنّ الله يجعلُ له حاجةً إلى ذلك

جنـــــة الســـــــنة

المكانِ الذي سيموتُ فيه، ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران:١٥٤] أيْ: لو كُنْتُمْ قاعدين في بيوتكم لم يَكُنْ بُدٌّ مِن خروج من كُتِبَ عليه القَتْلُ إلى المكان الذي يُصْرَعُ فيه.

وقد أخبرنا ربُّنا -سبحانه- أنَّه شاءَ ابتلاءَ أصحاب رسوله بما ابتلاهم به في أُحُد، ليختبرهم بتلك المحنةِ، ويظهر ما تكنُّه القلوبُ، فتظهر على حقيقتها، ويمحِّص ما في النفوسِ، أي: يصفيه مما خالَطَه مِنَ الدَّخن، واللهُ عليم بما في القلوبِ من أسرارٍ ومقاصدَ ونيات، وسيجزي كلَّ واحد بعمله.

٢- الذين اسْتَزَلَّهُمُ الشيطانُ ببعضِ ما كسبوا:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في الآية الأخيرة من هذا النصِّ أنَّ الذين تَوَلَّوْا يومَ التقى الجمعان، أي: فرُّوا، إنَّما استزَّهُمُ الشيطانُ ببعضِ ما كسبوا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران:١٥٥].

ومعنى ﴿ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أيْ: سَبَّبَ لهم الزللُ، وهي المعصيةُ التي تَمَثَّلَتْ في هربهم من ميدان القتال، وقوله: ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾ أيْ: ببعض ذنوبهم التي ارتكبوها من قبل، وأَخْبَرَ سبحانه أنه عفا عن الفارِّين، فلا يجوزُ لومُ أحدٍ منهم على فرارِهِ، وختم الآية بصفتين دالتين على عفوه، وهما صفتا: المغفرةِ، والرحمةِ.

رابعاً: ما تهدي إليه الآياتُ من عِلْمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدي إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- امتنَّ اللهُ -تعالى- على المجاهدين في أُحُدٍ بإنزاله عليهم النعاس مِنْ بعدِ ما أصابَهُمْ الغَمُّ أمنةً منه، فطَمْأَنَ بذلك قلوبَهُمْ، وهَدَّأَ نفوسَهُمْ.

٢- بعضُ الذين شاركوا في القتالِ في أُحُدٍ لم يغشاهُمُ النعاسُ، ولم يسلِّموا أَمْرَهُمْ لله تعالى، وكان مدارُ اهتمامهم هو المصيرُ الذي سيصيرونُ إليه.

٣- المؤمنُ الصادقُ يعلمُ أنَّ الأمورَ كلَّها بيد الله، تباركَ وتعالى، ومِنْ ذلك الحياةُ والموتُ، فللنفوس آجالها، لا تتقدمُ ولا تتأخرُ.

جنـــــة الســـــنة

٤- عفا اللهُ تعالى عن الذين فرُّوا في أُحُدٍ وغَفَر لهم، فلا يجوزُ لأحدٍ أن يلومَ أحداً منهم فرَّ من القتالِ.

٥- لا تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ، فإذا شاءَ اللهُ أن يقبضَ أحداً في موضع قدَّر موتَهُ فيه، وجعل اللهُ له حاجةً إلى ذلك المكان.

٦- قد تكونُ الذنوبُ التي ارتكبها العبادُ سبباً في الهزيمةِ، ولذا علينا أن نكثر من التوبة والاستغفار قبل القتالِ.

جنـــــة السـنـــــة

النصُّ القرآنيُّ الثاني والثلاثون من سورة آل عمران

الردُّ على الكفار الذين زعموا أنَّ إخوانهم الذين سافروا للتجارة أو الغزو لو لم يسافروا ما ماتوا

أولاً: تقديم

أبطل اللهُ تعالى في آياتِ هذا النص دعوى الكافرين الذين زعموا أنَّ الذين قُتلوا من أقربائهم وأصدقائهم في خروجهم للتجارة أو الغزو لو بَقُوا معهم، ولم يخرجوا من ديارهم، ما ماتوا وما قُتِلوا، فالحياةُ والموتُ بيد الله تعالى، وبيَّن الله فضيلةَ الذين قتلوا في الجهاد، وسيجزي المجاهدين أجرهم.

وبيَّن اللهُ تعالى ما اتَّصفَ به رسولُهُ ﷺ مِنَ الرحمةِ واللين، فاجتمعت القلوبُ عليه، ولو كان فظّاً غليظَ القلب لانفضُّوا من حوله، وقد بيَّن اللهُ لرسولِه ﷺ كيف يعاملُ أصحابه.

وبيَّنَ اللهُ للمؤمنين أنَّ النصر والهزيمةَ من عنده، ولذلك فعلينا أنْ نطلبَ النصر من عنده، وعظَّم اللهُ شأنَ الغلولِ، ونفاهُ عن رسولِهِ الكريم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ
غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾
وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ
لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ
ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ
مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٦-١٦٣].

جنـــــة السـنــــة

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آياتِ هذا النصِّ من القرآن

١- نهى اللهُ المؤمنين أنْ يذهبوا مَذْهَبَ الكافرين:

نهى اللهُ تعالى المؤمنين مِنْ صحابةِ الرسولِ ﷺ فمن بعدهم أنْ يذهبوا مذهبَ الكافرين الذين قالوا لإخوانهم الذين خرجوا للتجارة أو الغزو في سبيل الله، فسقطوا موْتى أو قتلى: لو كانوا عندنا ولم يخرجوا ما ماتوا وما قتلوا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران:١٥٦]، ومعنى ﴿ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي سافروا بقصدِ التجارة، و﴿غُزّٗى﴾ جمع، مفردها غاز، وهو الذي يخرجُ للقتالِ في سبيلِ الله. وهذا التصور الخطأ لا يزال يحمله كثير من الذين ينسبون إلى الإسلام حتى اليوم، وهذا التصور الخطأُ يصيبُ قائليه بالحزن، فيصبح حسرةً في قلوبهم، ولو أيقنوا بما أيقن به المسلمون من أن وقائع الحياة من الموت أو القتل أو الجرح وغيرها من المصائب هي أقدار إلهية لا بد من وقوعها لارتاحت قلوبهم، وهدأت نفوسهم ﴿لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦﴾ [آل عمران:١٥٦] والحسرةُ: الغمُّ الذي يُصيب المرْءَ عما فاته أو على ما فات أقاربه وأصدقاءه، ومما يدلُّ على بطلانِ هذا الاعتقاد قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣﴾ [الحديد:٢٢-٢٣].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ﴾ فالموتُ والحياةُ أقدارٌ إلهية لها وقتٌ محددٌ مكتوبٌ، لا يزيدُ، ولا ينقصُ.

٢- الذين يقتلون أو يموتون في سبيل الله لهم رحمةُ الله ومغفرته وهي خير مما يجمعون:

أخبرَ اللهُ -تعالى- المؤمنينَ أنَّ الذين يُقْتَلُونَ في سبيل الله أو يموتون يحصلون على مغفرةِ الله ورحمته، وهو خيرٌ مما يجمعونَهُ من حطامِ الدنيا الزائلةِ الفانية، ﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ١٥٧﴾ [آل عمران:١٥٧] وأخبرنا تبارك وتعالى أن الذين يموتون أو يقتلون سيحشرون إلى الله تعالى، لا يضيع منهم أحد،ولا يُنسى أحدٌ، ﴿وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ١٥٨﴾ [آل عمران:١٥٨].

جنـــــة الســــــنة

٣- فبما رحمة مِنَ الله لِنْتَ لهم:

حدثنا اللهُ -تبارك وتعالى- عن صفات رسولنا ﷺ وشخصيته، وهو الأسوةُ والقدوةُ، فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران:١٥٩] أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ رسولنا ﷺ ممتلئٌ بالرحمة التي رحمه بها، ولذلك وَصَفَ الرسولُ نفسه ﷺ بأنه الرحمةُ المهداةُ، ووصفه ربّه في موضع آخر بأنه رؤوف رحيم بالمؤمنين، فقال: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة:١٢٨] وهذه الرحمةُ العظيمةُ التي اتَّصف بها الرسولُ ﷺ كانت تلقي بظلالها في تعامله مع أصحابه، فكانت معاملته لهم تتصف باللين والودِّ والحبِّ، ولذلك اجتمعت عليه قلوبهم، ولو لم يكن الرسولُ ﷺ كذلك، أيْ: لو كان فظاً غليظَ القلبِ في تعامله معهم، لانْفَرَطَ عقدهم، وتفرَّقوا عنه، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩] وقد أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ بمزيدٍ مِنْ حسن التعاملِ مع أصحابه، فقال: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩].

ولا شكَّ أنَّ الرسولَ ﷺ قد التزم بما أمَرَهُ بِهِ ربُّه، فعفا عنهم، واستغفرَ لهم، واستمرَّ على ما كان عليه مِنْ مشاورتهم فيما يعرض له من أمرِ الحروبِ وغيرها، فقد شاورهم في مقاتلةِ الكفار في بدر، وشاورهم في البقاء في المدينة أو الخروج إلى أُحُد، وشاور الأنصار في مصالحة غطفان على ثلث ثمارِ المدينة كي يرجعوا عنهم في الخندق، فأبى الأنصارُ، وعندما رُميتْ عائشةُ بما رُميتْ به استشارَ أصحابَهُ، وفي الجملة كان الرسولُ ﷺ كثيرَ الاستشارةِ لأصحابِهِ، ولم يكن خروجه إلى أُحُدٍ الذي ارتآه أكثرُ أصحابِهِ هو سبب الهزيمةِ، فالهزيمةُ كانت بسبب عصيان الرماة أمْرَهُ.

وقوله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران:١٥٩]. يدلُّ على أنَّ الرسول ﷺ كان بعدَ أن يسمع مشورةَ أصحابِهِ، ينعقدُ قلبه على أمرٍ مِنَ الأمورِ، فإذا عَزَمَ على فِعْلِ أمرٍ مما أشير عليه به، فعليه أن يتوكل على الله، ويفعل ما عزم عليه، متوكلاً على ربِّ العالمين، واللهُ يحبُّ المتوكلين.

٤- إنْ ينصركمُ اللهُ فلا غالبَ لكم:

أعلمنا الله -عزَّ وجلَّ- أنه إنْ نَصَرَنا فلا غالبَ لنا، وإنْ خَذَلَنا فلا يستطيعُ أحَدٌ أن يمنحنا النصرَ ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران:١٦٠].

جنـــــة الســـــنة

وإذا كان النصرُ مِنَ الله وحْدَهُ، ولا يستطيعُ أحَدٌ منحنا النصرَ إذا خذَلنا الله، فعلينا أن نطلبَ النصرَ مِنَ الله الواحدِ الأحدِ، ولذا قال في خاتمة الآية آمراً المؤمنين بالتوكل عليه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران:١٦٠] وهذا يُظهِر إلى أيِّ مدى ضلَّ المسلمون اليوم في اعتمادِهِمْ على الدولِ الكافرة، وعلى مجلس الأمن والأمم المتحدة في مواجهة عدوهم، والواجب عليهم أن يرتقوا بأنْفسِهِمْ وقوتِهِمْ وجيوشِهِمْ، ويتكلوا على ربِّهِم، فمنه النصرُ، وعليه التكلانُ.

٥- عِظَمُ جريمةِ الغلول:

أعلمنا اللهُ ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه لا يجوزُ أنْ يُنْسَبَ الأنبياءُ إلى الغلولِ، ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ [آل عمران:١٦١] والغلولُ في الشرع أخْذُ شيءٍ مِنَ الغنيمةِ على جهةِ الخفاءِ، وإذا كان هذا لا يليقُ بالأنبياء، فإنَّ نبينا محمداً ﷺ في غاية البُعْدِ عن الغلولِ، فطبيعةُ الرسول ﷺ وما تحلَّى به مِنَ السموِّ والتقوى والصلاحِ والقربِ مِنَ الله تعالى تجعله يمتنع عليه أن يأتي الغلولَ.

وقد رَهَّبَ اللهُ تعالى المؤمنين مِنَ الغلولِ، فقد أعلمنا ربُّنا - تبارك وتعالى- أنَّ ﴿مَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران:١٦١] أيْ: يأتي بما أخَذَهُ مِنَ الغنيمةِ مخفياً إياه، يحمله على رقبته علانيةً يومَ القيامةِ، وقد كان الصحابةُ في الأمانة في القمةِ، ووردتْ عنهم الأخبارُ بأدائهم الأموال العظيمة في حروبهم وغزواتهم.

وجاءت الأحاديث النبويةُ مرهبةً مِنْ الغلولِ بما لا مزيدَ عليه، فقد جاءت الأخبارُ أنَّ الرسولَ ﷺ امتنع مِنَ الصلاةِ على الغالِّ، وورد عن أبي هريرة قالَ: قامَ فينا النبيّ ﷺ فذكرَ الغلولَ فعظَّمه، وعظَّم أمره، قال: «لا أُلفينَّ أحدكم يومَ القيامةِ على رقبتِهِ شاةٌ لها ثغاءٌ، على رَقَبَتِهِ فرس له حمحمةٌ، يقول: يا رسولَ الله، أغِثْني، فأقولُ: لا أمْلِكُ لك شيئاً، قد أبْلَغْتُكَ، وعلى رقبتِهِ بعيرٌ له رُغاء، يقولُ: يا رسولَ الله، أغثني، فأقولُ: لا أَمْلِكُ لَكَ شيئاً، قد أبْلَغْتُكَ، وعلى رقبتِهِ صامتٌ، فيقول: يا رسولَ الله، أغِثني، فأقولُ: لا أمْلِكُ لَكَ شيئاً، قد أبْلَغْتُكَ، أو على رَقَبَتِهِ رِقاعٌ تَخفِقُ، فيقولُ: يا رسولَ الله، أغثني، فأقولُ: لا أملِكُ لَكَ مِنَ الله شيئاً، قد أبْلَغْتُكَ» [البخاري: ٣٠٧٣. ومسلم: ١٨٣١].

وعن عبدالله بنِ عمرٍو قال: «كان على ثِقَلِ النبيِّ ﷺ رَجُلٌ يقالُ له: كِرْكِرَةُ، فماتَ، فقال رسولُ الله ﷺ: هو في النارِ، فذهبوا ينظرون إليه، فوجدوا عباءَةً قد غلَّها» [البخاري: ٣٠٧٤].

جنـــــة الســـــنة

وعن عمر بن الخطاب قال: لما كان يومُ خيبر أقبل نَفَرٌ مِن صحابةِ النبي، فقالوا: فلانٌ شهيد، فلانُ شهيد، حتى مَرُّوا على رجل، فقالوا: فلان شهيدٌ، فقالَ رسول الله ﷺ: «كَلاَّ إنِّي رأيتُه في النَّار في بُرْدَةٍ غلَّها – أو عباءَةٍ» [مسلم: ١١٤].

وعن أبي هريرةَ قالَ: انصرَفْنا مع رسولِ الله ﷺ إلى وادي القُرَىٰ ومعه عَبْدٌ لهُ يقالُ له: مِدْعَم، أهْداه لهُ أَحَدُ بني الضِّبابِ، فبينما هو يحُطُّ رَحْلَ رسولِ الله ﷺ إذْ جاءَه سَهْمٌ عائرٌ، حتى أصابَ ذلك العبدَ، فقال الناس: هنيئاً له الشهادةُ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «بل، والذي نفسي بيده، إنَّ الشملة التي أصابَها يومَ خَيْبَرَ مِنَ المَغانِمِ، لم تصبْها المقاسِمُ، لتشتعلُ عليه ناراً» [البخاري: ٤٢٣٤. ومسلم: ١١٥].

وقد رَهَّبَ اللهُ ورَهبَ رسولُهُ ﷺ مِنَ الغلولِ، لأنَّ الغلولَ يحوِّل الجيش الإسلامي المجاهد في سبيل الله إلى قوم هَمُّهُمْ المتاعُ الماديُّ، وإذا كان المقاتلُ قدْ أخفى المالَ فإنَّه يَشْغَلُ نفسَهُ بإخفائِه ورعايته، ولا يصبحُ هَمُّهُ مجاهدةَ أعداء الله ومقاتَلَتهم.

ومَثَلُ الذي يَغُلُّ من الغنيمة موظفو الدولة الذين يُهْدِي لهم الناس مالاً، فيأخذونَه، فإنَّه غلولٌ، فعن أبي حميد الساعدي، قال: استعملَ الرسولُ ﷺ رجلاً مِنْ الأزدِ، يقال له: ابنُ اللُّتْبِيَّةِ على الصَّدَقةِ، فلما قَدِمَ قالَ: هذا لكم، وهذا أُهْدِيَ لي، قال: فهلا جَلَسَ في بَيْتِ أبيه، أو بيت أُمِّه، فينظرَ أيهدى له أم لا؟ والذي نفسي بيده، لا يأْخُذُ أحدٌ منه شيئاً إلا جاءَ به يومَ القيامةِ يحملُه على رَقَبَتِهِ، إنْ كان بعيراً له رغاء، أو بقرةً لها خوار، أو شاةً تَيْعَرُ، ثم رفع بيده حتى رأينا عُفْرَةَ إبطيه، «اللهمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، اللهمَّ هَلْ بَلَّغْتُ» ثلاثاً [البخاري: ٢٥٩٧. ومسلم: ١٨٣٢].

وبعد أن يأتي كلُّ غالٍّ بما غلَّه يومَ القيامةِ، توفي كلُّ نفسٍ ما كسبت وهم لا يظلمون ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [آل عمران:١٦١].

٦- لا يستوي عند الله مَنِ اتَّبعَ رضوانَ الله والذي باءَ بسخطِ الله:

سألنا اللهُ -تعالى- سؤالَ إنكارٍ نافياً أن يستوي عندَهُ حالُ الذين اتبعوا رضوانَ الله، وحال مَنْ باءَ بسخطِ مِنَ الله ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾ [آل عمران:١٦٢] إنَّ هذين الفريقين بينهما بَوْنٌ عظيمٌ، فالذين اتَّبعوا رضوانَ الله في جناتِ النعيم، والذين باؤوا بسخط الله مأْواهم جهنّمُ وبئسَ المصيرِ، ولكلِّ واحدٍ مِنَ الفريقين درجاتٌ، فأهلُ الجنة لهم فيها درجات بعضُها فوقَ بعضٍ، وأهْلُ النَّارِ في دركاتٍ بعضُها تحتَ بعضٍ ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [آل عمران:١٦٣].

جنـــــة الســـــــنة

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النصِّ مِنْ علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١ - دعوى الكفار والمنافقين أنَّ خروجَ الذين خرجوا للتجارة أو الغزو هو سبب قَتْلِ مَنْ قُتِلَ منهم أو موته غيرُ صحيح، فالحياةُ والموتُ بيدِ الله تبارك وتعالى لهما أجلٌ محددٌ.

٢- الموتُ أوْ القتلُ في سبيل الله -تبارك وتعالى- خيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها.

٣- الموتى والقتلى سيَرْجِعُون إلى الله، ويحاسبهم على ما قدموا.

٤- أثْنَى الله تعالى على رسوله ﷺ بأنَّه رحيمٌ، يحسنُ التعاملَ مع أصحابه، ولذلك اجتمعتْ عليه قلوبُهُم، ولو كانَ فظّاً غليظَ القلبِ لتَفَرَّقوا، وانْفَضُّوا عنه.

٥- بيَّن اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ كيف يعاملُ أصحابَه، فقدْ أمره بأنْ يعفوَ عنهم إذا أخطؤوا، ويستغفرَ لهم إذا عَصَوْا، ويشاورهم فيما يعرضُ لهُ مِنْ أُمورِ الحربِ والسلم.

٦- أمر اللهُ عَزَّ وجلَّ رسولَهُ ﷺ بعد أن يشاورَ أصْحابَهُ أن يمضي إلى ما عَزَمَ عليه متوكِّلاً على الله تعالى.

٧- النَّصْرُ مِنَ الله هو الذي يمنحه، والهزيمةُ مِنْ الله لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يوقِفَها، وإذا كان الأمْرُ كَذلك فعلى المؤمنينِ أنْ يطلبوا النَّصْر مِنَ الله لا مِن أعدائه.

٨- طبيعةُ الرسولِ ﷺ تنافي اتصافَهُ بالغلولِ مِنَ الغنيمة، ورَهَّب الله الذين يَغُلُّون مِنَ الغنيمةَ بأنهم سيأتون يومَ القيامةِ يحملونَ ما غلُّوه على رقابهم.

٩- الذين اتبعوا رضوان الله في جناتِ النعيم، والذين باؤوا بسخط مِنَ الله مأْواهم النَّارُ، والفرقُ بين الفريقين كبيرٌ.

١٠- للمؤمنين في الجناتِ درجاتٌ بعضها فوقَ بعضٍ، وللكافرين في النارِ دركاتٌ بعضها تحت بعضٍ.

جنـــــــة السـنة

النصُّ القرآنيُّ الثالث والثلاثون من سورةِ آل عمران
هزيمةُ المسلمين كانت بسبب عصيانهم ربَّهم

أولاً: تقديم

بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- ما في بعثةِ رسولنا الكريم ﷺ مِنْ خيرٍ على أصحابِهِ وأُمَّتِه من بعده، وأبانَ للصحابة أنَّ هزيمتهم في أُحُدٍ كانت بسببِ عصيانِ مَنْ عصَى من الرماةِ الذين غادروا مواقعهم، ومع ذلك فإن الهزيمةَ كانت بقَدَرِ الله تبارك وتعالى.

وقد كَشَفَتْ هذه الهزيمةُ عن معادنِ الرِّجالِ، فأظهرتِ المؤمنين، وكشفت المنافقين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران:١٦٤-١٦٨].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ من القرآن

١- امتنانُ الله على المؤمنينَ ببعثَتِهِ فيهم رسولاً من أنفسهم:

في أثناء الآياتِ التي تتحدَّثُ عن الدروسِ والعبرِ في هزيمةِ غزوةِ أحدٍ يُذكِّرُ اللهُ المؤمنين بالنعمةِ الكبرى التي منَّ اللهُ عليهم بها، وهي بعثةُ رسولِ الله ﷺ فيهم: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران:١٦٤]. لقد أنْعمَ اللهُ وتفضَّل على عبادِهِ المؤمنين إذ بعثَ فيهم رسولاً من أنفسهم، أي: مِنَ العربِ، يتلو عليهم آياتِ الله المنزلةَ عليه، وهي آياتُ القرآنِ الكريم، ويزكِّيهم، أيْ: يطهرُّهم مِنَ الشِّركِ والذنوبِ والمعاصي، ويطهرُهُمْ من هذه الأدناس التي كانت تقذِّرُ أرواحَهُمْ، وتفسدُ قلوبَهُمْ ونفوسَهُمْ،

جنـــــة الســــــنة

ويعلمهم الكتابَ وهو القرآن، فلم يكتفِ بتلاوةِ القرآنِ عليهم، بل كان يبيِّنُ لهم آياتِهِ ويوضِّحها، ويدلُّهم على معانيه وأحكامه، وكان يبينُ لهم الحكمةَ، وهي إصابةُ الحقِّ، والحكمةُ موجودةٌ في القرآنِ، وكان الرسول ﷺ ينطقُ بها، ويعلمها أصحابه.

هذا ما فعله الرسولُ ﷺ بأصحابِهِ وأمته، فبعد أنْ كانوا ضالين جهلاءَ، لا عِلْمَ عندهم ولا هدى ولا نورٌ، يعبدون الأوثانَ، ويقطعونَ الأرحامَ، ويأْكُلُ القويُّ منهم الضعيفَ، ويتصارعونَ فيما بينهم على الباطلِ، ويأكلونَ الميتةِ، ويشربون الدَّمَ، ويتفاخرونَ بالأحساب، إذا بهذا الرسولِ الكريم يقيمُهُمْ على المِلَّةِ المستقيمةِ، ويغرسُ فيهم العقيدةَ السويةَ، والقيمَ الصالحةَ ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران:١٦٤].

٢- الهزيمةُ في أُحُدٍ كانت مِنْ عندِ أنفسهم:

تساءَلَ الصحابةُ عن السبب الذي أدى بهم إلى الهزيمةِ في أُحُدٍ، قالوا: كيف نهزمُ، ونحن المؤمنون، نقاتلُ في سبيل الله من كَفَر بالله، وفينا رسولُ الله ﷺ ؟ فأخبرهم الله أنَّ سببَ الهزيمةِ يعودُ إليهم ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران:١٦٥] أخبرهم ربُّهُمْ وهم يتساءَلونَ عَن سببِ المصيبةِ التي حلَّت بهم في أُحُد أن السببَ يعود إليهم، فهم الذين سَبَّبوا الهزيمةَ وصنعوها، فالرسولُ ﷺ أعدَّ الخطةَ العسكريةَ، وأقامَ المقاتلين عليها، وشدَّد على الرماةِ الذين وضعَهُمْ على الجبلِ الذي عُرِفَ بعد ذلك باسم جَبَلُ الرماةِ، وفَقِهَ المقاتلون كيف يواجهون الأعداءَ، وصدقَ اللهُ المؤمنين وعده، فانتصروا في بدايةِ المعركةِ، حتى إنَّ الرماةَ ظنُّوا أنَّ المعركةَ قَدْ تمَّت، فغادروا مواقِعَهُمْ عاصينَ رسولهُم، مختلفين مع قائِدِهم، فأوجدوا ثغرةً استغلها العَدوُّ، فحوَّل الأعداءُ المعركةَ لصالحهم، وهزَموا المؤمنين، وهذا هو الشأْنُ في أكثرِ المعاركِ التي يُهْزَمُ فيها المسلمون، وكلُّ المصائب التي تصيبُهُمْ، يكونُ السببُ عائداً لهمْ ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى:٣٠]، وقال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء:٧٩].

وقوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا ﴾ [آل عمران:١٦٥] المصيبةُ التي أصابتهم قتل سبعين منهم في أُحُدٍ، وأصابوا مثلها في بدرٍ، فقتلوا مِنَ المشركين سبعينَ، وأسروا سبعين، هذا بالإضافة إلى من قتلوه في أُحُدٍ.

جنـــــة الســـــنة

وقوله في ختام الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ [آل عمران:١٦٥] أي: يفعلُ ما يشاءُ، ويحكمُ ما يريدُ، لا رادَّ لحكمِهِ، ولا مُعقِّبَ لقضائه.

٣- ما أصابَ المسلمينَ في أُحُدٍ هو بإذن الله وقَدَرِهِ:

مع أنَّ الهزيمةَ في أُحُدٍ كانت بسبب المسلمين أنفسِهم، فإنها كانت بإذن الله تعالى وقدَرِه ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦﴾ [آل عمران:١٦٦].

إنَّ سبب هذا المصاب الجلل هو عصيانُ الرماة، ولكنَّ الهزيمةَ كانت بإذن الله، أي: بإذنه القدريِّ الكونيِّ، فكلُّ الأمور تجري بإذن الله، والإذنُ الكونيُّ القدريُّ شاملٌ لما يحبُّه الله كنصرِ المؤمنين في بَدْرٍ، ولما يكرهُهُ، كهزيمةِ المسلمين في أُحُدٍ، وقوله: ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ [آل عمران:١٦٦] عنى بالجمعين: جَمْعِ المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ، وجَمْعِ الكافرين بقيادةِ أبي سفيان.

٤- أذِنَ اللهُ بهزيمةِ المؤمنين ليظهرَ كُلاًّ مِنَ المؤمنين والمنافقين:

إحدى النتائج الكبيرةُ التي أبرزتها غزوة أحد أنها أظهرت المؤمنين الذين قاموا بتكاليف المعركةِ، وصبروا على ما فيها من آلامٍ، وما جلبتْهُ من قروحٍ، ومن ثمارها أنها أبرزتِ المنافقين وأظهرتهم، فالشدائدُ تبرزُ الأخيارَ والأشرارَ، وتظهرُ الصالحين والفجّارَ ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧﴾ [آل عمران:١٦٧] خرج الرسولُ ﷺ بالجيش إلى أُحُدٍ، وكان تعدادُه ألفَ مقاتلٍ، وفي الطريق رَجَعَ عبدالله بنُ أُبَيٍّ، وكانَ رأسَ المنافقين، بثلاثمائةِ مقاتلٍ، وعلَّل رجوعَهُ بأنَّ الرسولَ ﷺ قدَّم رأي مخالفيه الذين دَعَوْهُ إلى الخروج إلى أُحُدٍ، على رأيه الداعي إلى البقاءِ في المدينةِ، وقد لحقَ بهم بعضُ صحابة رسولِ الله ﷺ ، يدعونَهُمْ إلى القتالِ مَعَ رسولِ الله، والدفعِ عن بلادهم وأموالهم ونسائِهم، فأبَوْا، وتعلَّلُوا بعللٍ كاذبةٍ، قائلين: لو كنا نعلم أنَّه سيكون قتالٌ لاتبعناكم، وسِرْنا مَعَكُمْ، وقد حَكَمَ اللهُ عليهم أنَّهم في ذلك الوقت كانوا للكفر أقربَ منهم للإيمانِ، قال ابن كثير: «استدلُّوا بالآية ﴿هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾ [آل عمران:١٦٧] على أنَّ الشخصَ قد تتقلبُ به الأحوالُ، فيكونُ في حالٍ أقربَ للكفر، وفي حال أقرب للإيمان» [ابن كثير: ١/ ٤٧٦].

وقد أخبرنا اللهُ أنَّ المنافقينَ كانوا كاذبين فيما قالوه، فهذا قولُهُم بأفواههم، وقلوبهم منه خالية ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧﴾ [آل عمران:١٦٧] أي والله أعلم بما يخفونه في قلوبهم.

جنـــــة السـنـــــة

٥- الذين قعدوا عن القتال وقالوا لإخوانهم الذين قتلوا: لو أطاعونا ما قتلوا:

أخبرنا اللهُ -سبحانه وتعالى- أنَّ المنافقين نَصَحُوا أقرباءَهم وأصدقاءَهم الذين عزموا على الخروج إلى أُحُدٍ بعدم الخروجِ، وقالوا لمن استشهدَ منهم: لو أطاعونا في عَدَمِ الخروج ما قتلوا ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾ [آل عمران:١٦٨]. وقد رَدَّ الله عليهم مقالَتهم مبيناً جهلَهُمْ وضَلالَهُمْ فيما ادَّعوه وما زَعَمُوه، فقال: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾ [آل عمران:١٦٨] أمر رسولَهُ أنْ يقول لهؤلاء الذين قالوا ما قالوه: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾ [آل عمران:١٦٨] أي: امنعوا الموت عن أنفسكم، وهذا الجوابُ يُظْهِرُ فسادَ قولِ هؤلاء، فإذا هم لم يموتوا اليومَ، فإنهم سيموتون غداً، أو بعد غد، وقد ماتَ هؤلاء الذين قالوا هذا القول في أحد كما ماتَ المجاهدونَ من عهد طويل، والله غالبٌ على أمْرِهِ.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ النصِّ من علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدي إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- امتنانُ الله على صحابةِ رسولِهِ ﷺ ببعثةِ رسولِه فيهم، فقد استطاع رسولنا ﷺ بما آتاه الله من علم وحكمة بناءَ هذه الأمةِ على نحو مُحكمٍ فريدٍ.

٢- بيان ما امتازَ به رسولنا ﷺ من خصائصَ وفضائلَ، فهو من جنسِ العرب المرسل إليهم، بَنى هذه الأمةَ بالقرآنِ الذي أنْزَلَهُ اللهُ عليه، وزكَّى نفوسَهُمْ وجعلهم علماءَ حكماء.

٣- الهزيمةُ في أُحُد ترجعُ إلى المجاهدين الذين خالفوا الخطَّةَ العسكريةَ التي اختطَّها الرسولُ ﷺ ، فأوجدوا ثغرةً اهتبلها العدوُّ، ودخلَ عليهم من خلالها.

٤- عزَّى الله المؤمنين بأنهم أصابوا المشركينَ في بَدْرٍ ضعفَ ما أصيبوا به في أُحُدٍ.

٥- مع أن هزيمةَ المؤمنين في أُحُدٍ كانت بسبب المؤمنين فإنها كانت بقدرِ الله تعالى ومشيئته، فكل شيءٍ بتقديرِ الله سبحانه.

٦- تحققتْ حكم كثيرة شاءَها اللهُ من وراءِ هزيمةِ المؤمنينَ في أُحُدٍ، منها ظهورُ المؤمنين المجاهدين في الميدانِ، وظهورُ المنافقين الذين كانوا يَخْفَوْنَ في وقت الأمنِ والأمانِ.

٧- من المعالم الكبارِ في أُحُدٍ رجوعُ عبدالله بنِ أُبَيٍّ رئيسِ المنافقين بثلاثمائة من الجيش، وعندما سارَ إليهم بعضُ الصحابة، ودعوهم إلى الجهادِ والثبات، تعلَّلُوا بما ليسَ بصحيحٍ،

جنـــــة السـنـــــة

فزعموا أَنَّه لن يكونَ قتالٌ، وكان ذلك عُذْراً أرادوا به سَتْرَ فعْلتهم، وحكم اللهُ عليهم بأَنَّهم كانوا في حال رجوعهم أقربُ للكفر منهم للإيمانِ.

٨- ذمَّ اللهُ الكافرين والمنافقين الذين قعدوا عن القتالِ مَدَّعينَ أنَّ الذين قُتِلوا لو أطاعوهم لما قتلوا، وقد طالبهم -لبيان كذبهم- بأنْ يدفعوا الموت عن أنفسهم، فهو آتٍ لا بدَّ منه.

جنـــــة السـنـــــة

فزعموا أنَّه لن يكونَ قتالٌ، وكان ذلك عُذْراً أرادوا به سَتْرَ فعْلتهم، وحكم اللهُ عليهم بأنَّهم كانوا في حال رجوعهم أقربُ للكفر منهم للإيمانِ.

٨- ذمَّ اللهُ الكافرين والمنافقين الذين قعدوا عن القتالِ مَدَّعينَ أنَّ الذين قُتِلوا لو أطاعوهم لما قتلوا، وقد طالبهم -لبيان كذبهم- بأنْ يدفعوا الموت عن أنفسهم، فهو آتٍ لا بدَّ منه.

جنـــــة الســـــــنة

النصُّ القرآنيُّ الرابعُ والثلاثون من سورة آل عمران
رسالةٌ من الذين قُتلوا في سبيل الله

أولاً: تقديم

ضمَّن الله تعالى آياتِ هذا النصِّ رسالةً مِنَ الذين قُتلوا في سبيل الله، تتحدَّثُ عن النعيم المقيمِ الذي وجدوه عندما أحلَّهم اللهُ في جنَّاتِ النعيم، وجَعَلَ أرواحَهُمْ في حواصلِ طيرٍ خُضْرٍ، تتجوَّلُ في الجنَّةِ، تأكُلُ مِنْ ثمارها، وتشربُ من أنهارها، وتأوي إلى قناديلَ معلَّقةٍ في ظِلِّ عرشِ الرحمن، وقد تَلَقَّى رسولُنا ﷺ وأصحابُه الكرامُ رضوانُ الله عليهم، والمؤمنونَ من هذه الأمةِ هذه الرسالة، وفقهوها، فكانتْ حادياً يناديهم إلى الشهادةِ والجنةِ ونعيمها.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧٥].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في معاني آيات هذا النص من القرآن

١- الشهداءُ أحياءٌ عند ربِّهم يرزقون:

يسقُطُ في المعاركِ التي تخوضُها الجيوشُ الإسلاميةُ رجالٌ يقاتلون في سبيل الله، ومِنْ هؤلاء الشهداءُ الذين سقطوا في غزوتَيْ بدرٍ وأُحُد، وقد أمَرَ الله -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ، وفي ذلك أمرٌ لأصحابه وأمته، أن لا يظنوا أنَّ الذين سقطوا في حَوْمَةِ الوغى مِنَ المقاتلين في سبيل الله أمواتاً، بل هم أحياءٌ عند ربهم يُرْزَقون، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٩].

جنـــــة السـنـــــة

قال ابنُ جريرٍ: «لا تحسبنَّهم يا محمدُ أمواتاً، لا يحسُّونَ شيئاً، ولا يتلذَّذونَ، ولا يتنعَّمونَ، فإنَّهم أحياءٌ عندي، مُتنعِّمونَ في رِزْقي، فرحونَ مسرورونَ بما آتيتهم من كرامَتي وفضْلي، وحبوتُهم بهِ من جزيل ثوابي وعطائي» [تفسير الطبري: ٣/ ٢٠٥٥].

وقد سأل الصحابةُ رضوانُ الله عليهم رسولَ الله ﷺ عن هذه الآية فأفادَهُمْ بالمعنى المرادِ منها، قال مسروقٌ: سألْنا عبدالله -هو ابن مسعود- عَنْ هذه الآية ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران:١٦٩] قال: أما إنَّا قد سَألْنا عَنْ ذلك، فقالَ: «أرْواحُهُمْ في جَوْفِ طيْرٍ خُضْرٍ، لها قناديلُ معلقةٌ بالعرشِ، تَسْرَحُ مِنَ الجنَّةِ حيثُ شاءَتْ، ثم تأْوِي إلى تلكِ القناديلِ» [مسلم: ٨٨٨٧].

وفي سنن أبي داود عن ابنِ عباسٍ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ : «لَمَّا أُصيبَ إخوانُكُم بأُحُدٍ، جعلَ اللهُ أرواحَهُمْ في جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أنهارَ الجنّة، تأكُلُ مِنْ ثمارِها، وتأوي إلى قناديل مَنْ ذهبٍ معلّقةٍ في ظلِّ العرش، فلما وَجَدُوا طيبَ مأكلهم ومشْرَبِهِمْ ومَقيلِهِمْ، قالوا: مَنْ يُبْلِّغُ إخواننا عنَّا، أنّا أحياء في الجنَّة نرزقُ، لئلاَّ يَزْهَدُوا في الجهادِ، ولا يَنْكُلوا عَنْ الحربِ، فقال اللهُ سبحانه: أنا أُبلِّغهم عنكم، قالَ: فأنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ﴾ [آل عمران:١٦٩]» [صحيح أبي داود: ٢١٩٩].

٢- **الشهداء فرحون بما آتاهم اللهُ مِنْ فضله:**

أَخْبَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في الآيةِ السابقة أنَّ الشهداء أحياءٌ عندَ ربهم يرزقون، وأخبرنا في الآيةِ التالية أنَّهم ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران:١٧٠] والفَرَحُ: السرورُ والغبطةُ، ومن الفضل الذي آتاهم اللهُ إياهُ أنه جَعَلَ أرواحَهُمْ في حواصلِ طيرٍ خضرٍ تطير في الجنة، وتأْكل مِنْ ثمارِها، وتشربُ مِنْ أنهارِها، وتأْوي إلى قناديلَ من ذهب في ظلِّ عرشِ الرحمنِ كما بينه الرسولُ ﷺ في الحديث السابقِ.

وأخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- أنَّ الشهداءَ في مقامهم ذاك يستبشرون بأمرين قال تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران:١٧٠-١٧١].

والأمرُ الأوَّلُ الذي يستبشر به الشهداءُ: هُمْ إخوانهم الذين تركوهم في الحياة الدنيا سائرين على دينهم ومنهاجهم، يقاتلون أعداءَ الله، ولم يلْحَقُوا بهم بعدُ، فهؤلاءِ إذا ما قتلوا في سبيلِ الله صارُوا إلى مثلِ مصيرِهم، ولا خوفٌ عليهم مما أمامهم، ولا يحزنون على ما تركوه وراءَهم.

جنـــــة الســــــنة

والأمْرُ الثاني الذي يستبشرون بِهِ: نعمةُ الله وفضلُه، فنعمُ الله عليهم دائمةٌ متجددةٌ لا تنقطعُ عنهم في أنفسهم ولا في الدار التي هم فيها.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٧١﴾ [آل عمران:١٧١] أيْ: لا يُبْطِلُ جزاءَ أعمالِ مَنْ صدَّقَ رسولَهُ واتَّبعه وعملَ بما جاءَه مِنْ عندِ الله.

٣- الذينَ استجابوا لله والرسولِ مِنْ بعد ما أصابهم القرحُ لهم أجْرٌ عظيمٌ:

أثْنَى اللهُ -تباركَ وتعالى- على صحابةِ رسوله ﷺ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٧٢﴾ [آل عمران:١٧٢].

والذينَ استجابوا لله والرسولِ هم الذين خاضُوا غِمارَ غَزْوَةِ أُحُدٍ، وسَقَطَ منهم مَنْ سَقَطَ شهيداً، وجُرِحَ من جُرِحَ، وأصابهم الرَّهَقُ والتَّعَبُ، فدعاهم الله ورسولُه وهم على تلكِ الحالِ التي أصابهم فيها القَرْحُ إلى الخروج في إثر المشركين، فقد خَشِيَ الرسولُ ﷺ أنْ ينطلقَ المشركون إلى المدينةِ، أو يُفكِّروا بالعودةِ إليها وهُمْ في طريقِهِمْ إلى مَكَّةَ.

وقد انتدَبَ الرسولُ ﷺ طائفةً مِنْ أصحابِهِ للخروج في إثْرِ المشركين فخرجَ منهم سبعونَ منهم أبو بكر الصديقُ والزبيرُ بنُ العوامِ، فعن عائشةَ رضي الله عنها أنها قالت في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٧٢﴾ [آل عمران:١٧٢]، قالتْ لعروةَ: يا ابنَ أُختي: كان أبواكَ منهم: الزبيرُ وأبو بكر، لما أصابَ رسولَ الله ﷺ ما أصابَ يومَ أُحُدٍ، وانصرَف عنه المشركونَ خافَ أن يَرْجعوا، قال: «مَنْ يذهبُ في إثْرِهِم» فانتدبَ منهم سبعونَ رجلاً، قال: كان فيهم أبو بكرٍ والزبيرُ [البخاري: ٤٠٧٧. ومسلم: ٢٤١٨ مختصراً].

وفي اليوم التالي أمَرَ الرسولُ ﷺ الجيشَ كلَّه أنْ يخرجَ في إثر المشركين، ولَمْ يأْذَنْ لأحَدٍ أنْ يخرجَ معه إلا الذين حَضُروا القتالَ في أُحُدٍ باستثناءِ جابر بنِ عبدالله، وسارَ الرسولُ ﷺ بأصحابِهِ حتى بلغَ حمراءَ الأسدِ على بُعد ثماني مراحلَ مِنَ المدينةِ.

وقد حَدَثَ ما توقَّعَهُ الرسولُ ﷺ ، فإنَ أبا سفيان ومَنْ معه تلاوموا في عَدَمِ استئصالِ المسلمين بعد هزيمتهم لهم وتشاوروا في الرجوع إليهم والقضاء عليهم، فلما عَلِمُوا بأنَّ المسلمين قد خرجوا في إثرهم، وأنهم صاروا قريباً منهم فتَّ ذلك في عَضُدِهِمْ، وخافوا أن يتحوَّل نصرهم إلى هزيمة، فأسرعوا عائدين إلى مكة.

جنـــــة الســـــنة

و﴿ٱلْقَرْحُ﴾ الذي أصابَ المؤمنينَ: الجراحةُ والتعبُ التي كانتْ بالمجاهدين بعد المعركة، وقولُه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ أحْسَنُوا بصبرهم على ما أصابَهُمْ، واستجابوا لما دعاهم إليه مِنَ الخروجِ مع ما بهم من تَعَبٍ وآلامٍ وجَرْحٍ، وقد وَعَدَهُمْ اللهُ بالأجْرِ العظيم.

٤- ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾:

عندما عَلِمَ أبو سفيانَ بخروجِ الرسولِ ﷺ وأصحابِهِ في إثْرِهِم هَزَّه الخبرُ، وخَشِيَ مِنَ الرجوعِ إليهم، ولعلَّه خَشِيَ أنْ يتحوَّلَ نصرُهُ إلى هزيمةٍ، فسارَ راجعاً إلى مكَّةَ، واستعملَ ما يُسمَّى بالحربِ النفسيةِ العسكريةِ مع المسلمينَ، فقد حَمَّلَ قوماً من التّجارِ كانوا منطلقينَ إلى المدينة للتجارةِ أنْ يقولوا للرسولِ ﷺ وأصحابِهِ مقابلَ جُعْلٍ جَعَلَه لهم: إننا راجعونَ إليهم لنستأصلهم، فلما أخبروا الرسولَ ﷺ وأصحابه بذلك ازدادَ المؤمنون إيماناً لتوكلهم واعتمادهم على الله تعالى ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ قال ابن عباسٍ: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران:١٧٣] قالها إبراهيمُ حينَ أُلقِيَ في النارِ، وقالها محمدٌ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران:١٧٣] [البخاري:٤٥٦٣].

والآيةُ تدلُّ على مدى ثباتِ الرسولِ ﷺ وأصحابِهِ، واعتمادِهِم على ربِّهم تباركَ وتعالى، ومعنى حَسْبُنا اللهُ، أيْ: اللهُ كافينا، واللهُ نِعْمَ الوكيلُ الذي يُتَوكَّلُ عليه، ويُعْتَمَدُ عليه.

٥- **انقلابُ الرسول ﷺ وأصحابِهِ بنعمةٍ مِنَ اللهِ وفضْلٍ:**

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَ خروجَ المؤمنين في إثْرِ عدُوِّهم بعد أُحُدٍ كان سَفَرَ خيرٍ وبركةٍ، فقد ألقى خروجُهُم الرُّعْبَ في قلوبِ أعدائهم، وانقلبَ المؤمنونَ عائدين إلى المدينة سالمينَ غانمينَ، لم يَمْسَسْهُم سوءٌ، وهُمْ في ذلك كلِّه متبعون ما يرضي ربَّه تبارك وتعالى فيما أمرهم به، واللهُ ذو الفضلِ العظيم، ومَنْ فضلِهِ على رسوله وأصحابِهِ صَرْفُ الكفارِ عنهم، وإعادتُهم سالمين، وورد في بعضِ الرواياتِ أنهم تاجروا وربحوا ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران:١٧٤].

قال ابنُ جرير: «﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٧٤] فانصرفَ الذين استجابوا لله والرسولِ مِنْ بعدِ ما أصابَهُمُ القرح مِنْ وجههم الذي توجَّهُوا فيه -وهو سَيْرُهُم في إثْرِ عَدُوِّهِمْ- إلى حمراءِ الأسَدِ ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٧٤] يعني: بعافيةٍ مِنْ ربِّهم لم يلقوا بها

جنـــــة السـنـة

عدوًّا، ﴿وَفَضْلٍ﴾ يعني: أصابُوا فيها من الأرباحِ بتجارتهم التي اتَّجروا بها، والأجْرُ الذي اكتسبوه، ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران:١٧٤] يعني: لم يَنَلْهُمْ بها مكروهٌ من عدوِّهم ولا أذى، ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٧٤] يعني بذلك أنهم أرْضوا الله بفعلهم ذلك، واتباعِهم رسولَه إلى ما دَعاهم إليه من اتِّباعِ أثر العدوِّ وطاعتهم ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران:١٧٤] يعني: والله ذو إحسانٍ وطَوْلٍ عليهم -بصَرْفِ عدوهم الذي كانوا قد هَمُّوا بالكرَّةِ إليهم، وغيرِ ذلك مِنْ أياديه عندهم، وعلى غيرهم- بنِعَمِهِ، ﴿عَظِيمٍ﴾ عندَ من أنْعَمَ به عليه من خَلْقِهِ» [تفسير الطبري: ٣/ ٢٠٦٨].

٦- **تخويفُ الشيطان المؤمنينَ أولياءَه:**

أخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنَّ تلكم المقالةَ التي حَمَّلَها أبو سفيان لأولئكِ النَّفرِ مِنَ التّجارِ مرسلاً بها إلى محمدٍ ﷺ وأصحابه ليرعبهم ويُخَوِّفهم هي مِنْ الشيطانِ يخوِّفُ بها المؤمنين من أوليائِه الكافرين، وقد نَهى اللهُ في هذه الآية المؤمنين أنْ يخافوا المشركينَ، وطالبهم بأنْ يخافوه وَحْدَهُ، فإنْ هم أطاعُوه واتَّبعُوا أمْرَهُ، تَكَفَّلَ لهم بالنَّصرِ والظَّفر ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران:١٧٥].

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النصِّ من علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- الذين قُتلوا في سبيلِ الله تعالى أحياءٌ عند رَبِّهم يأْكلون ويشربونَ في الجنةِ.

٢- تضمنتْ هذه الآياتُ رسالةً منْ الشهداءِ الذين أدْخَلَهم اللهُ جنتهُ حَمَلَها اللهُ -تباركَ وتعالى- وضمّنها كتابَهُ، وأنزلها على رسولِهِ، تُحَدِّثُنا عن النعيمِ العظيمِ الذي حازَهُ الشهداءُ بعد موتهم.

٣- الشهداءُ في الجنة فَرِحُونَ بما أعْطاهم في ذلك المقامِ العظيمِ.

٤- الشهداءُ في جناتِ النعيم يتشوَّقون إلى لحاق إخوانهم بهم، والمرادُ بإخوانهم الذين تركوهم وراءَهم سائرينَ على دَرْبِهم، فينالون ما نالوه من النعيم.

٥- الشهداءُ والصالحونَ لا خوفٌ عليهم عندما يَقْدُمونَ على الله ربِّهم، ولا يحزنونَ على ما خَلّفوه مِنَ ذريةٍ، فاللهُ يتولاهم في ذريتهم.

٦- الله -تبارك وتعالى- لا يُضيعُ أجْرَ المجاهدين المؤمنين، بل يحفظُهُ، ويباركُهُ.

جنـــــــة الســـــــنة

٧- ثناءُ الله -تبارك وتعالى- على صحابةِ رسولِهِ الذين دعاهم رسولهم إلى الخروج وراءَ المشركين، فاستجابوا مَعَ شدَّة ما بهم مِنْ رَهَقٍ وآلامٍ وأوجاعٍ، فأثابهم ربّهم ثواباً عظيماً على استجابتهم ومسيرهم.

٨- أثْنَى اللهُ على الرسولِ ﷺ وصحابته الذين قالَ لهم الناسُ إنَّ أبا سفيان ومَنْ معه عائدون إليكم ليستأصلوكم، فما كان منهم إلا أنْ ﴿قَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)﴾ .

٩- بيانُ مدى ما أنْعَم اللهُ بِهِ على عباده، فقد أوْقَعَ اللهُ الرُّعْبَ في قلب أبي سفيان وجيشه، فمضوا إلى مكَّةَ، وعادَ الرسولُ ﷺ وأصحابُهُ إلى المدينةِ سالمينَ غانمين.

جنـــــة الســــــنة

النصُّ القرآنيُّ الخامسُ والثلاثونَ من سورةِ آل عمرانَ
لا يَحْزُنْكَ الذين يسارعونَ في الكُفْر

أولاً: تقديم

قد يسوء المؤمنَ الصادقَ الإيمانِ امتلاكُ الكفارِ القُوَّةَ والمنعَةَ والسلاحَ الحربي والجيوشَ الجرارة التي يحاربون اللهَ ورسولَهُ والمؤمنين بها، وقد أمَرَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنْ لا يُحْزِنُنا مسارعةُ هؤلاءِ في كفرهم وضلالهم، فهم في النهايةِ مقهورونَ مغلوبونَ، ولنْ يَضُرُّوا اللهَ شيئاً، وما أُعطي هؤلاءِ مِنَ رفاهيةٍ ونعيمٍ سببٌ في زيادةِ عذابهم في الآخِرَةِ.

وميَّزَ اللهُ -تبارك وتعالى- بالوقائعِ كأُحُدٍ والخندقِ بَيْنَ الأخيارِ والفجَّارِ، وتهدَّدَ الذين لا يُخْرِجون ما فرضَهُ اللهُ في أموالهم، وأَخْبَرَ أنَّه سيعذِّبهم بهذا المالِ المكنوزِ يومَ القيامةِ.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن من سورة آل عمران

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى
ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ
﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا
يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران:١٧٦-١٨٠].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ من القرآن

١- ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ﴾:

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- رسوله ﷺ أنْ يَحْزُنَهُ مسارعةُ طائفةٍ مِنَ الناسِ في الكُفْرِ ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ﴾ [آل عمران:١٧٦].

وكان في طليعةِ الذين يسارعون في الكفرِ في العهدِ الذي تنزلتْ فيه الآياتُ الكفارُ الذين جاؤوا مِنْ مكة يُقاتلونَ المسلمين في أُحُد، جاؤوا بجنودِهِمْ وقواتِهِمْ، ينفقونَ أموالهم

جنـــــــة السـنة

في شراءِ السِلاحِ والإنفاقِ على الجيشِ، فكانَ فعلهم هذا مسارعةً في الكفرِ، فكأنّما هم في سباقٍ فيما بينهم لتأييد الكفرِ والباطلِ.

ونهى اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ عن الحزنِ لمسارعَة الذين كَفَروا في كُفْرِهم، لأنَّهم لا يضرُّون اللهَ شيئاً، فالله أعْظَم وأجَلُّ مِنَ أن يضرُّوه، والمؤمنون الذين يقاتِلُهم الذين يسارعونَ في الكفر هم في حفظِ الله ورعايَتِهِ ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٧٦] واللهُ -تبارك وتعالى- يريدُ أن لا يجعلَ للذين يسارعونَ في الكفْرِ حظّاً في الآخرة، والحظُّ: النصيبُ، فلا يُسْتَقْبَلونَ في ذلك اليومِ استقبالَ إكرامٍ، ولا يُظَلُّونَ بظلِّ العرشِ، ولا ينجونَ مِن النار، ولا يدخلونَ الجنَّة، بل هُمْ في العذابِ المقيمِ، والمصائبِ والبلايا والأوجاعِ ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران:١٧٦].

وهؤلاء الذين يسارعونَ في الكفرِ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [آل عمران:١٧٦] وهذا العذابُ واقعٌ بهم في الدنيا والآخرةِ، واقعُ بهم في الدنيا بما يوقعه بهم المسلمون مِنْ عذابٍ، وما يبتليهم اللهُ به من مصائبِ ورزايا، وما يوقعه الله عندما ينزلُ بهم الموتُ، وما يحلُّ بهم في القَبْرِ، ولهم عذابٌ عظيمٌ في الآخرةِ عندما يقومون لربِّ العالمين، ويوقفهم بين يديه، ويحاسبهم على كفرهم.

٢- ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْـًٔا﴾ :

أخْبَرَنا ربُّنا -تبارَك وتعالى- أنَّ الذين اشتروا الكفرَ بالإيمانِ، والمرادُ باشترائِهم الكفرَ بالإيمان استبدالُهُمْ الكفرَ بالإيمان، وهو استبدالُ الحريصِ على الكُفْر الكارِهِ للإيمانِ، فقد بذلُوا أنْفُسَهُمْ وأموالهم في سبيل نَصْرِ الكُفْرِ كما قال أبو سفيان بعد معركة أُحد: «أُعْلُ هُبَلُ» وقالَ: «لَنَا العزَّى ولا عُزَّى لكُم» فأجابَهُ المسلمونَ: «اللهُ أعلى وأجَلّ» و«اللهُ مولانا ولا مولى لكم».

وقرَّر الحقُّ -تبارك وتعالى- أنَّ الذين اشْتَرَوا الكفرَ بالإيمانِ لَنْ يضرُّوا الله شيئاً، ولكنَّهم ضرّوا أنْفُسَهُم، فجهودُهُم مبذولةٌ في ضلالٍ، تتحوَّلُ إلى أوْزارٍ، تُثْقِلُ ظهورَهُم، ولهم عذابٌ أليم، أي: مُؤْلم موجعٌ ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾ [آل عمران:١٧٧].

٣- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ :

انتصرَ المشركونَ في أُحُدٍ، وقتَلُوا مَنْ قتَلوا مِنَ المؤمنينَ، وجَرَحوا مَنْ جَرَحُوا منهم، وانتفشَ الكفارُ، وظَنُّوا أنَّهم فازُوا وسَعِدوا، ونالوا الخيرَ والحُظْوَة، وقالَ شعراؤُهم ما قالوه،

جنـــــة السـنـــة

وخطب خطباؤُهم بما خطبوا به، وجاءَ قولُهُ تعالى في الآيةِ التالية مبيناً لهم أنَّ الذي حَصَّلوه ليس بخيرٍ لهم لا في الدنيا، ولا في الآخرةِ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران:١٧٨].

ويقولُ اللهُ -تباركَ وتعالى- لا تظنُّوا أيُّها الكفارُ الذين قاتلتم في أُحُدٍ وانتصرتم بها أنَّ ما أعطيناكم إياهُ من نصرٍ وغلبةٍ هو خير لكم، بل هو شرٌّ لكم، فما أعطيناكم إياه مِنْ نصرٍ زاد آثامكم، وخَبَّث نفوسكم، وأبعدكم عن ربكم، وقولُهُ: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: نملي لهم بطولِ العمرِ ورَغدِ العيش، وما أصابوه مِنْ الظفرِ في معركةِ أُحُدٍ. وقوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ أي إنما نطيلُ في أعمارِهِمْ، وننسأُ في آجالهم، لتزدادَ ذنوبُهم، وتكثر آثامهم، وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ أيْ في يوم الدين، يذلُّهم فيه، ويضع عنهم كبرياءَهم.

٤- إرادةُ اللّه -تبارك وتعالى- إظهارَ الطّيب مِنَ الخبيث:

كان المنافقونَ يعيشون في المدينةِ المنورة في العهدِ النبويِّ، وكانَ كثيرٌ مِنَ المؤمنين لا يعلمون بالمنافقين الذين يسكنونَ في ديارِهم، ويظنونَهم مِنَ المؤمنين، فلما كانَتْ غزوةُ أُحدٍ جاهر المنافقون بكفرهم، وأظهروا مكنونَ قلوبِهِمْ، فقد رَجَعْ عبدُالله بن أُبَيٍّ رئيس المنافقين بثلث الجيش مغضباً، لكونِ الرسولِ ﷺ لم يرْجِعْ إلى قوله في البقاءِ في المدينة، وقال هو وأصحابه: لو نعلم قتالاً لاتَّبعناكم، ولكنَّا لا نراكم تقاتلونَ اليومَ.

لقد أَخْبَرنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنّه أجْرى في معْرَكَةِ أُحُدٍ سنَّةً من سننه في عبادِهِ، وهو تمييز المنافقينَ مِنَ المؤمنينَ، فقد أظْهَرَ المنافقونَ كفرهم، وظهر إيمانُ المؤمنين ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ [آل عمران:١٧٩] أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه ما كانَ ليذرَ، أيْ: يتركَ المؤمنين على ما هم عليه مِنْ اختلاطِ المنافقين بهم، حتى يميزَ بعضهم من بعضٍ، وقد ميَّزَ اللهُ في هذه الغزوةِ المنافقين مِنَ المؤمنينَ، وأظهرَ المنافقونَ كفرهم الذي كانوا يخفونَهُ.

وبيَّنَ لنا ربُّنا - تبارك وتعالى- أنَّه لَيْسَ مِنْ سنتِهِ أنْ يطلعَ عبادَه المؤمنين على الغيبِ، والمرادُ بالغيبِ الأمورُ التي قضَى اللهُ بوقوعها في مقبلِ الأيام مما يعلمُ اللهُ أنَّه سيقعُ، ولكنَّ العبادَ يعلمون بوقوعِهِ عندما يَقَعُ، فقد عَلِمَ المؤمنون بالمنافقين عندما أظهروا نفاقَهم في أُحُدٍ، وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ مِنْ طرقِ معرفةِ الغيبِ الآتي وَحْيَ الله إلى رسله وأنبيائه بما سيوقعه في مقبل الزمان، ومِنْ ذلك تعريف رسولنا ﷺ بأسماءِ المنافقينَ، وقد ذكرهم الرسولُ

جنـــــة السـنـــــة

ﷺ للصحابي الجليل حذيفة بن اليمان فإنه صاحب السر الذي كان لا يعلمه غيره، وكان رسول الله ﷺ أعلمه بالمنافقين وأحوالهم وأطلعه على ما يجري لهذه الأمة بعده وجعل ذلك سراً بينه وبينه [انظر شرح الحديث رقم (٧٠٨٤) من فتح الباري، ودلائل النبوة لأبي نعيم: (٢/٥٢٨) رقم (٤٥٦) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٣٦١)]، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران:١٧٩] والاجتباءُ: الاختيارُ والاصطفاءُ.

وأمَرَ اللهُ في ختامِ الآية عبادَهُ بالإيمان بالله ورسلِهِ، ووعدهم إنْ هم صَدَّقوا بالله ورسله، واتَّقوا اللهَ بالعمل بطاعته أنْ يعطيهم الأجر العظيم ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ [آل عمران:١٧٩].

٥- جزاءَ الذين يبخلون بما آتاهم اللهُ مِنْ فضله:

أَوْجَبَ اللهُ -تبارك وتعالى- على أصحابِ الأموال حقّاً في أموالهم، وأَهَمُّ هذه الحقوق الزكاةُ وقد أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ بعضَ المسلمين يبخلونَ بإخراجِ ما فُرِضَ عليهم مِن حقوقٍ في أموالهم ظانين أنَ في بخلهم هذا حفظاً لأموالهم، وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجل- أنَّهم أخْطَؤوا فيما ذَهَبوا إليه، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ﴾ [آل عمران:١٨٠].

وإنما كان هذا المالُ المجموعُ شَرًّا لهم في الدنيا، لأنهم لم يستخدموه فيما خلقه اللهُ مِن أجله، ولم ينفقوه في السبلِ التي أمرهم اللهُ بإنفاقه فيها، وعندما ماتوا تركوه وراءَهم لم يقدِّموا منه شيئاً لآخرتهم.

وفي يومِ القيامة يعذِّبهم اللهُ بذلك المالِ المجموعِ المبخول بِهِ ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ [آل عمران:١٨٠] وقد بَيّن لنا رسولنا ﷺ كيف يعذِّب هؤلاءِ الذين بَخِلُوا بالمالِ، ولم يؤدوا منه حقَّه، فعن أبي هريرة ﷺ قالَ: قالَ رسول الله ﷺ: «مَنْ آتاهُ اللهُ مالاً فلَمْ يؤدّ زكاتَهُ مُثِّلَ له يومَ القيامةِ شجاعاً أقْرَعَ، له زبيبَتانِ، يُطَوِّقونَه يومَ القيامةِ، يأْخُذَ بلهْزِمتيه -يعني بشَدْقَيْه- يقول: أنا مالُك، أنا كنزكُ. ثم تلا هذه الآية ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ إلى آخر الآية» [البخاري: ٤٥٦٥].

وقد جاءت أحاديثُ صحيحةٌ مبينةٌ كيف يُعَذِّبُ الله بالماشية التي لا يؤدون زكاتها من البقرِ والغنمِ في يوم القيامة، حيث يبطح لها بقاعٍ قرْقَر، كلَّما مرَّ عليه أُخراها أُعيدَ عليه أولاها في يوم كان مقدارُه خمسين ألفَ سنة.

جنـــــــة الســـــــنة

وختم اللهُ هذه الآية بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران:١٨٠] والذي يَفْقَهُ ما أخبر اللهُ بِهِ في هذه الآية يبادرُ بالإنفاقِ مِنَ المالِ الذي وَهَبَهُ اللهُ إياه، فإنّه عارية مسترجعة، وهبة مستردَّة، فالمالُ سيزولُ عنه، أو يزولُ هو عَنِ المالِ، والمالكُ الحقيقيُّ لكلِّ ما في السموات والأرض هو اللهُ تبارك وتعالى. وأخبر اللهُ -تبارك وتعالى- أنّه بصير بما نعمله، وسنُجْزَى به خيراً أو شراً.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ النصِّ من علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- نَهَى اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يُحْزِنَهُ مسارعةُ أَهْلِ الكفرِ في كفرهم، ونَهْيُ الله لرسوله ﷺ نَهْيٌ لأُمَّتِهِ.

٢- الذين يعملونَ بالكفرِ، ويحاربونَ الإسلامَ وأَهْلَه لن يضرُّوا الله شيئاً، فاللهُ أعْلى وأجلُّ مِنْ أنْ يضرَّه هؤلاءِ الضعفاءُ الأذلاّءُ.

٣- الكفَّارُ الذين يسارعون في الكُفْرِ ليسَ لهم نصيبٌ مِنَ الأجْرِ والثوابِ في الآخرةِ، ولهم في ذلك اليوم عذابٌ عظيمٌ.

٤- الكفار الذين متَّعَهُم اللهُ بطولِ العُمرِ، وكثرةِ الأموالِ والأزواجِ والأولادِ، كان ذلك كُلُّه إملاءً لهم، فكثرتْ ذُنوبهم، وازدادتْ آثامهم، ولهم عذابٌ مهين.

٥- مِنْ سُنَنِ الله الجاريةِ في عبادِهِ أن يوقعَ مِنَ الوقائعِ والحادثاتِ ما يظهر نفاقَ المنافقين وإيمانَ المؤمنينَ كما وقع في غزوةِ أُحدٍ.

٦- ليس لدى العباد القدرةُ على معرفةِ الغيبِ الآتي، وقد يُطْلِعُ اللهُ رُسُلَهُ وأنبياءَه على شيءٍ من الغيبِ المكتومِ.

٧- الأغنياءُ الذين يُخْرِجُونَ مِنْ أموالِهِم الزكاةَ والحقوقَ التي أوجبها الله عليهم ينجون ويفوزونَ.

٨- الأغنياءُ الذين يَبْخَلُونَ، فلا يُخْرِجونَ مِنْ أموالِهِمْ ما كَتَبَهُ اللهُ عليهم فيها سيُعَذَّبونَ بهذه الأموالِ في يوم القيامة، فيُمثَّل لهُ المالُ أفعى عظيمةً، تطوِّقُ صاحبها، وتأخذُ بشِدْقَيْه، وتقولُ له: أنا مالُك، أنا كنزكَ.

٩- اللهُ -تبارك وتعالى- غنيٌّ عنَّا وعَنْ أموالنا، لهُ ميراثُ السمواتِ والأرضِ سبحانه.

جنـــــة السـنة

النصُّ القرآنيُّ السادس والثلاثون من سورة آل عمران
لقد سمع اللهُ قولَ الذين قالوا إنَّ اللهَ فقيرٌ ونحن أغنياء

أولاً: تقديمٌ

أنزلَ اللهُ -تباركَ وتعالى- فيما سَبَقَ قولُهُ تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ [البقرة:٢٤٥]. فإذا بعضُ سفهاءِ يهودٍ يقولُ: اللهُ يَطْلُبُ القَرْضَ مِنَّا فهو فقيرٌ، ونحنُ أغنياءُ، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآياتِ يسجِّل عليهم جَريمتَهم ويتهدَّدُهم، ويَتَوعَّدُهم.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن من سورة آل عمران

﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٍ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٍ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٌ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾

[آل عمران:١٨١-١٨٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النصِّ مِنَ القرآن

١- جريمةُ الذين قالوا: إنَّ اللهَ فقيرٌ ونحن أغْنياءُ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه سَمِعَ مقالةَ الذين سَبُّوه مِنَ اليهود، وقالوا: إنَّه فقيرٌ، وهم أغْنياءُ ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١]. وهذا القولُ المفترى قالَهُ اليهودُ عِنْدَما دَعا اللهُ عبادَهُ إلى أنْ يقرضوه قرضاً حسناً فقالَ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة:٢٤٥].

والمعنى أنَّهم قالوا: «نَرَى أنَّ إلهَ محمدٍ يستقرِضُ مِنَّا، فنحنُ إذنْ أغنياءُ، وهو فقيرٌ، وقالوا هذا تلبيساً على ضَعَفَتِهم، وهم يعلمون أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يَسْتَقْرِضُ مِنْ عَوَزٍ، ولكنّه يَبْلُو الأخيارَ، فهم يعلمون أنَّ الله سَمَّى الإعطاء والصدقةَ قرضاً، يؤكد بِهِ أنَّ أضعافَهُ تَرْجِعُ إلى أهْلِهِ، وهُوَ عَزَّ وجَلَّ يَقْبِضُ ويبسطُ، أي: يُوَسِّعُ ويُقَتِّرُ» [معاني القرآن للزجاج: ١/ ٤٩٤].

جنـــــة السـنة

وقد سمع الله تعالى قول الذين قالوا هذه المقالَةَ المفتراةَ العظيمةَ وسَيَكْتُبُ ما قالُوهُ، كما سيَكْتُبُ ما كانَ مِنْ آبائهم الذين ارتضى الأحفادُ أفعالهم مِنْ قتلهم الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ، فقد قتلوا يحيى وزكريا، وحاولوا قَتْلَ عيسى، كما حاولوا قتْلَ نبينا محمدٍ ﷺ ، وسيحاسبُهُمْ ربُّ العزّةِ على ذلك كلِّه، ويدخلهم النار ويقولُ لهم: ذُوقوا عَذابَ الحريقِ ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران:١٨١].

وأخبرنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ إذاقةَ الله اليهودَ عذابَ الحريقِ إنَّما هو بسبب ما قَدَّمَته أَيْدِيهِمْ في الحياةِ الدنيا، مِنْ كَذِبِهِمْ على الله، وقتلِهِمْ الرسلَ والصالحين، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران:١٨٢]، وهذا هو العَدْلُ الذي يُجْرِيه الله فيهم، وهو لَيْسَ بظلامٍ للعبيد.

٢- دعواهم أنَّ اللهَ عَهِدَ إليهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يأتِيَهِمْ بقربانٍ تأكله النارُ:

حكى الله تبارك وتعالى مقالةَ اليهود التي زعموا فيها أنَّ الله عَهِدَ إليهم أنْ لا يؤمنوا لرسولٍ حتى يأتيهم بقربانٍ تأكله النّار، فهم يطلبونَ مِن محمدٍ ﷺ أنْ يأتيهم بهذا القربانِ حتى يَتَّبِعُوهُ، ويؤمنوا به ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ [آل عمران:١٨٣] والقربانُ: ما يُتَقَرَّبُ بِهِ إلى الله تعالى، والمعنى أنَّ اللهَ وصّانا وتقدَّم إلينا في كُتُبِهِ وعلى ألسنة أنبيائِهِ أن لا نصدِّق رسولاً حتى يأتينا بقربانٍ تَنْزِلُ نارٌ مِنَ السَّماءِ فتحرقه.

وقد أبان اللهُ ما في قولهم هذا مِنَ العَوارِ، فأمَرَ رسولَهُ ﷺ أنْ يردَّ عليهم قائلاً لهم لقد جاءكم رسلٌ عظامٌ بالحجج الدالَّةِ على صِدْقِ نبوتهم، وبالذي قُلْتُمْ، أيْ: بالقربانِ الذي تأكله النّار، ثم قتلتموهم، ولَمْ تؤمنوا بهم ولم تتابعوهم، ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [آل عمران:١٨٣].

وقدْ واسَى اللهُ رسولَهُ ﷺ ، وقالَ لَهُ: فإن كذَّبوك بما حَدَّثْتُكَ بِهِ عنهم، فقد كَذَّب آباؤهم مِنْ قبلهم الرسلَ العظامَ الذينَ جاؤوا بالبيناتِ والزُّبُرِ، وَهْيَ الكتبُ التي أنزلها اللهُ تعالى، والكتابُ المنيرُ وَهُوَ التوراةُ، يقولُ لرسولِهِ ﷺ : لا تَحْزَنْ، فهذا شأنُ الرُّسُلِ مِنْ قبلك، في تكذيب أقْوامِهِم لهم ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران:١٨٤].

جنـــــة السـنة

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ النصِّ من علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرنا آيات هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- من جرائم اليهود أنَّهم يَنْسِبونَ السوءَ والنَّقْصَ إلى الله العليمِ الخبيرِ، فقد زعموا أنَّ اللهَ فقيرٌ وهم أغنياءُ، ومِنْ جرائمهم قَتْلُهُمْ الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ.

٢- مصيرُ الذين افتروا على الله الكذبَ وقَتَلوا رسلَ الله النَّارُ في يوم الدينِ بسببِ ذنوبهم جزاءً وفاقاً لما ارتكبوه مِنَ الذنوبِ.

٣- اعتلَّ اليهودُ لعدم إيمانِهِمْ بدعوى واهيةٍ، فقد زَعَمُوا أنَّ اللهَ عَهِدَ إليهم بأنْ لا يؤمنوا لرسولٍ حتى يأتيهم بقُرْبانٍ تأكله النارُ، فردّ اللهُ عليهم فِرْيَتَهُمْ بأنَّه قَدْ جاءهم رُسُلٌ مِنْ قبل رسولنا ﷺ بالحُجَجِ الواضحاتِ، وجاؤوهم بقربانٍ تأْكله النارُ، فعَصَوْهُم وقَتَلُوهُمْ.

٤- تعزيةُ الله رسولَهُ ﷺ بأنَّ الأُمَمَ مِنْ قبله كَذَّبوا رُسُلَهُمْ كما كَذَّبه اليهودُ.

جنـــــة السـنــــة

النصُّ القرآنيُّ السابعُ والثلاثون من سورةِ آل عمران
كلُّ نفسٍ ذائقة الموت

أولاً: تقديمٌ

أنْزَلَ اللهُ آياتِ هذا النص على رسولنا ﷺ وأصحابِهِ الكرام، وهم يقيمونَ أنْفُسَهُمْ على الدِّين الحقِّ، ويواجهونَ بِهِ القوى الطاغيةَ في عَصْرِهِمْ، وقد جاءَتْ آياتُ النصّ تُقَرِّرُ في نفوسهم حقائقَ كثيرةً، وبذلك يرْتَقُونَ وهم يعملون بهذا الدين إلى معارجِ الكمالِ، فقد أعْلمهم اللهُ أنَّ كلَّ الأحياءِ يموتون، وسيَصيرونَ إلى الله تعالى، وفي يوم القيامةِ يُوَفَّون أُجورَهُم، والحُظْوةُ العظمى ينالُها الذين يُزَحْزَحُونَ عن النارُ، ويدخلونَ الجَنَّة، وأعلمهم أن نعيمَ الدنيا قليلٌ، وهو عَرَضٌ زائلٌ.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الحياةَ لا تَصْفُو لأصحابِها، فالإنسانُ يبتلَى في نَفْسِهِ وأهْلِهِ ومالِهِ، ويؤذى مِنْ أعدائه، وعليه أنْ يواجِه الابتلاءَ بالصبرِ، ويستعينَ على الصبر بالتقوى.

وذمَّ الله أهلَ الكتابِ الذين كتموا ما ضَمَّنه اللهُ كتابَهم فيما يخصُّ رسولَنا ﷺ، وفي ذلك تحْذيرٌ لهذه الأُمةِ مِنْ كتم العلم وإخفائه، وخَتَمَ اللهُ الآياتِ بالحديث عن الذين يفرحون بما أَتَوْا، ويحبُّونَ أنْ يُحْمَدوا بما لم يفعلوا، فهؤلاء لا ينجون مِنَ العذاب، وأخبر عزَّ وجلَّ أنَّه مالكُ كلِّ شيءٍ، والقادرُ على كلِّ شيءٍ.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٥-١٨٩].

جنـــــة الســـــنة

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- كلُّ نفس ذائقةُ الموتِ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ كلَّ نفسٍ ستذوقُ الموتَ، لا فَرْقَ في ذلك بينَ الإنسِ والجنِّ والملائكةِ، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧] وهذا القانونُ الإلهيُّ الربانيُّ ماضٍ في عبادِ الله كُلِّهم، الأخيارِ والفجارِ، والصالحين والطالحين ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر:٣٠].

وإذا كان الموتُ حقّاً واجباً يذوقه العبادُ جميعاً، لا فرقَ في ذلك بين الأخيار والفجّار، فإنَّ الفارقَ يتحقق في يوم القيامةِ، عندما يوفَّى الأخيارُ أجورَهُمْ ثواباً ونعيماً، ويوفَّى الأشرارُ أجورَهُم عذاباً وجحيماً، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ [آل عمران:١٨٥].

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلّ- أنَّ الذي يُزَحْزَحُ عن النَّار، ويدخلُ الجنَّة يوم القيامةَ فقدْ فازَ، أي: نَجا ونالَ الحُظْوَةَ والكرامةَ، وقرَّر الحقُّ -تبارك وتعالى- أنَّ الحياةَ الدنيا متاعُ الغرورِ، والمتاعُ ما يُتَمَتَّعُ به، وينتفعُ به، ثمَّ يضمحل ويزولُ، وإنَّما قرَّر اللهُ هذه الحقيقةَ، لأنَّ النَّاسَ يتمنَّوْنَ في الدنيا طولَ البقاءِ، والتمتعَ باللذاتِ والشهواتِ، والزينةِ والزخارفِ، فأخبرهم -سبحانه- أنْ نعيمَها إلى زوالٍ، ومتاعَها إلى اضمحلالٍ، وهي غرورٌ، تُدَلِّس على الإنسان وتُغْوِيه، وتَخدعُهُ وتلهيه، ونهايتُها الفجيعة بالموتِ، ثم الرحيلُ إلى الدارِ الآخرة.

روى أبو هريرة ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال: «لَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ في الجنّةِ خيرٌ مما طَلَعَتْ عليه الشمسُ أو تَغْرُبُ». وقال: «لَغَدْوةٌ أوْ رَوْحَةٌ في سبيلِ الله خيرٌ مما تَطْلُعُ عليه الشَّمْسُ وتغرب» [البخاري: ٢٧٩٣].

وعن أنس بن مالك، عن النبيِّ ﷺ: «لَرَوْحَةٌ في سبيلِ الله أو غَدْوَةٌ، خَيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها، ولقابُ قوْسِ أحدكم مِنَ الجنّةِ، أو موضعُ قيدٍ - يعني سَوْطَه- خيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها، ولو أنَّ امرأةً مِنْ أهْلِ الجنَّةِ اطَّلعتْ إلى أهل الأرضِ لأضاءَتْ ما بينهما، ولملأتْهُ رِيحاً، ولنَصِيفُها على رأسِها خيرٌ من الدنيا وما فيها» [البخاري: ٢٧٩٦].

وقد دلّنا رسولُنا ﷺ على الطريق الذي يُزَحْزَحُ فيهِ العبدُ عن النَّار ويدخلُ الجنّة، فقال: «فَمَنْ أحبَّ أنْ يُزَحْزَحَ عن النَّار، ويُدْخَلَ الجنَّة، فلتأتِهِ مَنِيَّتُهُ وهو يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ، وليأتِ إلى الناسِ الذي يُحبُّ أن يُؤْتَى إليه» [رواه مسلم مطولاً: ١٨٤٤].

جنـــــة الســـــنة

وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ بقلَّةِ متاعِ الدنيا، فقالَ: «واللهِ ما الدنيا في الآخرةِ إلا مِثْلَ ما يَجْعَلُ أحدُكُمْ إصْبَعَهُ هذِهِ -وأشارَ يحيى بالسبَّابَةِ- في اليَمِّ، فلينظرْ بِمَ ترْجِعُ» [مسلم: ٢٨٥٨].

٢- لتبلونَّ في أموالِكُمْ وأنفسِكُمْ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن سُنَّةٍ من سُنَنِ اللهِ في عبادِهِ المؤمنين، وهي أنَّه يبتليهم في أموالِهِمْ وأنفسِهِمْ، فقد يُصابُ المؤمنُ بالقتلِ أو الجرحِ أو الأسْرِ، وقد يصابُ في ولده أو زوجه، وقد يذهبُ مالُهُ، وتتغيرُ أحوالُهُ، قال تعالى: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران:١٨٦] وقال في موضعٍ آخر: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة:١٥٥].

ومِنَ البلاءِ الذي يصيبُ المؤمنينَ ما يُؤْذيهم بِهِ أهلُ الكتابِ والمشركون، ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران:١٨٦].

وقد ساقَ ابنُ كثير عند تفسيرِ هذه الآيةِ مثلاً للأذى الذي آذى به المشركون واليهودُ الرسولَ ﷺ ، وهو ما رواه البخاريُّ عند تفسيرِ هذه الآيةِ عن أُسامةَ بنِ زيدٍ «أنَ رسولَ الله ﷺ ركبَ على حمارٍ على قَطيفةٍ فَدَكيةٍ، وأردفَ أُسامَةَ بنَ زيدٍ وراءَهُ، يعودُ سَعْدَ ابنَ عُبادَةَ في بني الحارثِ بن الخزرجِ قبلَ وَقعةِ بدرٍ، قال: حتى مرَّ بمجلسٍ فيه عبدُالله بن أُبَيٍّ بنُ سَلولَ، وذلك قبلَ أن يُسْلمَ عبدُالله بنُ أُبيٍّ، فإذا في المجلِسِ أخلاطٌ مِنَ المسلمين والمشركين عَبَدَةِ الأوثانِ واليهودِ والمسلمين، وفي المجلسِ عبدُالله بن رَواحة، فلما غَشِيَتِ المجلسَ عَجاجةُ الدابةِ، خمَّرَ عبدُالله بنُ أبيٍّ أنْفَهُ بردائه، ثم قال: لا تُغبِّروا علينا، فسلَّم رسول الله ﷺ عليهم، ثم وقفَ فنزلَ، فدَعاهم إلى الله، وقرأ عليهمُ القرآنَ.

فقال عبدُالله بن أبيّ ابنُ سلولَ: أيُّها المرءُ، إنَّه لا أحسنَ مما تقولُ، إن كان حقّاً فلا تُؤذِنا بِهِ في مَجلسنا، ارجعْ إلى رَحلِكَ فمن جاءَكَ فاقصُصْ عليه.

فقال عبدُالله بن رَواحة: بلى يا رسول الله، فاغْشَنا بِهِ في مجالِسِنا، فإنا نحبُّ ذلك، فاستبَّ المسلمونَ والمشركون واليهودُ، حتى كادوا يتثاورون، فلم يَزَلِ النبيُّ ﷺ يُخَفِّضُهم حتى سَكَنوا، ثم رَكِبَ النبيُّ ﷺ دابَّته، فسارَ حتى دَخَلَ على سعدِ بنِ عُبادَةَ.

فقال له النبيُّ ﷺ : يا سعدُ ألم تَسمَعْ ما قال أبو حُبابٍ -يُريد عبدَالله بنَ أُبيّ- قال كذا وكذا. قال سَعدُ بن عُبادَةَ: يا رسولَ الله، اعْفُ عنه، واصفَح عنه، فوالذي أنزَلَ عليك الكتابَ، لقد جاءَ اللهُ بالحقِّ الذي أنزلَ عليك، ولقد اصطلحَ أهلُ هذه البُحَيْرَةِ على أن

جنـــــة السـنـــــة

يُتوِّجوهُ، فيُعَصِّبوهُ بالعِصابَةِ، فلما أبى اللهُ ذلك بالحقِّ الذي أعطاكَ اللهُ شَرِقَ بذلك، فذلكَ فَعَلَ بِهِ ما رأيتَ، فعفا عنه رسولُ الله ﷺ .

وكان النبيُّ ﷺ وأصحابُه يَعفُونَ عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرَهُم الله، ويَصْبِرونَ على الأذى، قال اللهُ عزَّ وجل: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا﴾ الآية [آل عمران:١٨٦]. وقال الله: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ إلى آخر الآية [البقرة:١٠٩]. وكان النبيُّ ﷺ يتأوَّلُ العفوَ ما أمرَهُ اللهُ به، حتى أَذِنَ الله فيهم، فلما غزا رسولُ الله ﷺ بدراً، فقتَلَ اللهُ به صَناديدَ كفَّار قريش قال ابنُ أُبيٍّ ابنُ سَلول ومن معهُ مِنَ المشركينَ وعَبَدَةِ الأوثانِ: هذا أمرٌ قد تَوَجَّه، فبايَعوا الرسولَ ﷺ على الإسلام، فأسلموا» [البخاري: ٤٥٦٦. ومسلم: ١٧٩٨].

وقد رغَّب اللهُ رسولَهُ ﷺ وأصحابَه بالصبرِ على ما ينالهم مِنْ أذى أهل الكتابِ والمشركين، كما رَغَّبَهم بالاشتغالِ بالتقوى مِنَ الصلاةِ والصيامِ والذكرِ والدعاءِ، وأخبرهم أنَّ التزامهم بذلك مِنْ عزمِ الأُمور، أي: مما عَزَمَ الله عليه وأمرَ بِهِ، وإذا كان الله عَزَمَ عليه وأمَرَ به، فإنه يجب على المؤمنينَ في ذلك الوقتِ الالتزامُ بِهِ، وتنفيذُهُ.

٣- كتمانُ أهلِ الكتابِ العلمَ الذي أمرَهم اللهُ بإظهارِهِ وبيانِهِ:

أمرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أن نَذْكُرَ ما أخَذَهُ على أهلِ الكتابِ من عهد وميثاقٍ في كتبهم التي أنزلها إليهم، فَقَدْ أخبرهم في تلكِ الكتبِ بصفاتِ نبينا محمدٍ ﷺ ، وأمرهم أن يُشيعوا خبره بينَ الناس، ويبشِّروا به، ونَهاهُم عَنْ كتمانِ الحقِّ الذي ائتمنهم عَلَيْهِ، فإذا بُعِثَ وَجَب على الأحياءِ منهم الإيمانُ بِهِ ومتابعتُهُ، وقد كان علماءُ اليهودِ والنصارى يُبَشِّرون به قبل بعثته، ويدَّعون أنَّهم سيتبعونه، حتى إذا بُعِثَ نبذوا ما أمرهم اللهُ بِهِ، ورَمَوْا بتلكَ الأوامرِ وراءَ ظهورِهِمْ، واشترى علماؤُهم بتلك الأوامرِ ثمناً قليلاً، والثمنُ القليلُ هو الرئاسةُ والزعامةُ وما كانوا يُحَصِّلونه من متاعٍ، وكلُّ متاعِ الدُّنيا فهو قليل، فإنه عَرَضٌ زائلٌ، وعاريةٌ مستودعةٌ، وبئسَ ما اشتروه، فإنَّه أدَّى بهم إلى النَّارِ وغضبِ الجبار ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران:١٨٧].

وهذا الذي رهَّب اللهُ بِهِ أهلَ الكتابِ من كتمانِ العلمِ، يَعُمُّ كلَّ عالمٍ بكتابِ الله وكلَّ حقٍّ أُنزِلَ مِنْ عند الله فكتمه عالمه وأخفاه، في العقيدة أو الشريعة أو القصصِ والأخلاق، فقد

جنـــــة الســــــنة

وَرَدَ حديثٌ بطرقٍ متعدِّدةٍ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «من سُئِلَ عن علمٍ فكتمه، أُلجمَ يومَ القيمةِ بلجامٍ مِنْ نارٍ» [قال محقق ابن كثير: حديث قوي بشواهده. تفسير ابن كثير: ٢/ ١٦٢]. ويدلُّ لهذا النهي عن كتمانِ العلم قولُهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [البقرة:١٥٩].

٤- ذمَّ الله الذين يُحِبونَ أن يُحمدوا بما لم يفعلوا:

نهى اللهُ رسولَهُ ﷺ أن يَظُنَّ أنَّ الذين يفرحون بما أتوه مِنْ أعمال، ويحبُّون أن يَمْدَحهُمْ الناس ويثنوا عليهم بما لم يفعلوه، نهاه أن يظنَّ أنَّهم ناجون مِنَ العذابِ، وقرَّر سبحانه أنَّ لهم عذاباً أليماً ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٨] وهذا صنفٌ مِنَ النَّاسِ تهمُّه نفسُهُ، فهو يدورُ حَوْلَها، ويتحدَّثُ دائماً عَنْها، ويحبُّ ثناءَ النَّاسِ عليه، وتمجيدُهُمْ له، فيما عمله، وفيما يفعله، ويكثر هذا الصنف في المنافقين وأهلِ الكتابِ، ويقلُّ في المؤمنين، وكلَّما ازدادَ المرءُ إيماناً، قلَّتْ هذه الخصْلَةُ الذميمةُ فيه.

وقد تحدَّث الصحابةُ رضوانُ الله عنهم عن هذا الصنفِ مِنَ النَّاسَ في العهد النبويِّ، فعن أبي سعيد الخدريِّ ﷺ، «أنَّ رجالاً مِنَ المنافقين على عَهْدِ رسولِ الله ﷺ، كان إذا خَرَجَ رسولُ الله ﷺ إلى الغَزْوِ تخلفوا عنه، وفرِحُوا بمقعدهم خلافَ رسولِ الله ﷺ، فإذا قَدِمَ رسولُ الله ﷺ اعتذرُوا إليهِ وحَلَفُوا، وأحبُّوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلتْ ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٨]» [البخاري: ٤٥٦٧. ومسلم: ٢٧٧٧].

وقد رأى ابن عباس أن الآية خاصَّةٌ باليهودِ دون غيرهم، فقد أمر مروانُ [أي ابن الحكم] بَوَّابه قائلاً: له: «اذهبْ يا رافعُ إلى ابن عباسٍ فقلْ: لئن كان كلُّ امرئ فَرِحَ بما أُوتي، وأحبَّ أن يُحمدَ بما لم يفعلْ مُعَذَّباً، لنعذَّبنَّ أجمعون. فقال ابن عباس: وما لكمْ ولهذه، إنما دعا النبيُّ يهود، فسألهم عن شيءٍ فكتموه إيَّاه، وأخبروه بغيره، فأرَوْه أن قَدْ اسْتَحْمَدُوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أُوتُوا مِنْ كتمانهم، ثمَّ قرأ ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ حتى قوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ ﴾ [آل عمران:١٨٧-١٨٨]» [البخاري: ٤٥٦٨. ومسلم: ٢٧٧٨].

جنـــــة السـنــــــة

٥- **لله مُلْكُ السموات والأرض:**

اللهُ -تبارك وتعالى- له مُلْكُ السمواتِ والأرض وما فيها وما بينهما، وهو قَديرٌ على كلِّ شيءٍ، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماءِ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾ [آل عمران:١٨٩] وفي هذه الآيةِ ردٌّ على اليهودِ الذين قالوا: إنَّ اللهَ فقير ونحن أغنياء، فاللهُ مالكُ كلِّ شيءٍ وغيره مملوك.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النصِّ من علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرنا في آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- الموتُ حَتْمٌ لازمٌ لكلِّ حيٍّ مخلوقٍ، لا ينجو منه أحدٌ، لا فرقَ في ذلك بين الأخيارِ والفجار.

٢- يحاسِبُ اللهُ العبادَ في يومِ القيامةِ، فالأخيارُ يوفَّون أُجورهم، والفجارُ يَحْمِلُونَ في ذلك اليوم أوزارهم، ومصيرهم النَّار، وبئسَ القرارُ.

٣- الفوزُ العظيمُ يناله المؤمنون الذين زُحزِحوا عن النار، ودَخَلُوا الجنَّةَ.

٤- متاعُ الحياةِ الدنيا وأموالُها ونعيمُها متاعٌ زائلٌ، وعاريةٌ مسترجعةٌ، وهي تغرُّ أصحابَها، فبينما هُم في النعيم إذ بالمنادى ينادي بهم إلى الرحيل.

٥- يبتلي اللهُ عبادَهُ المؤمنينَ في الدنيا في أنفسِهِمْ وأموالهم، فتصيبهم المصائبُ والبلايا في النفسِّ والأهلِ والولدِ والمالِ، ومِنْ ذلك ما يصيبهم مِنَ أذى أهلِ الكتابِ والمشركين.

٦- على المؤمنينَ أن يصبروا على ما أصابهم مِنَ المصائبِ والبلايا، ويعملوا بطاعةِ الله متقين اللهَ، وهذا مِنْ عزْمِ الأمور.

٧- ذمَّ اللهُ -تعالى- أهلَ الكتابِ الذين حملوا الأمانةَ التي تُعَرِّفُهُمْ برسولِ الله محمدٍ ﷺ، وأمرهم بتعريفِ النَّاسِ بِهِ، كما أمرهم بالإيمانِ به إذا بُعِثَ، فكتموا هذا العلم الذي جاءَت به كتبهم، ونبذوا أمْرَ الله الذي أمرهم به، واستبدَلوا بذلك كلِّه ثمناً قليلاً مِنَ الرئاسةِ والمالِ.

٨- ذمَّ اللهُ الذين يدورون حولَ أنفسهم، وكلُّ همِّهم تحصيلُ ثناءِ النَّاسِ عليهم ومديحهم لهم، فيما عملوه، وفيما لم يفعلوه، وهؤلاءِ لا ينجون مِن العذابِ.

٩- الله مالك كلِّ شيءٍ، والقادرُ على كلِّ شيءٍ، ومنْ ملكه ما في السموات والأرض وما بينهما.

جنـــــة السـنة

النصُّ القرآنيُّ الثامنُ والثلاثونَ من سورةِ آل عمرانَ

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾

أولاً: تقديم

آياتُ هذا النصِّ والآياتُ التي تليها عشرُ آياتٍ خَتَمَ اللهُ بها سورةَ آل عمران، وقد كان رسولُنا ﷺ إذا قامَ من الليلِ لتهجُّدِهِ مسحَ وجهه من النومِ، ثم قرأ بها، ثم توضأ، وصلى.

وقد باتَ ابنُ عباسٍ ﷺ ليلةً عند رسولِ الله ﷺ ليَعْلَم صلاتَهُ، فأخبرنا أنَّه ﷺ عندما قامَ من النوم في تلك الليلةِ قرأ بالآيات من آخر آل عمران، ففي الصحيحين عنه قالَ: «بِتُّ عندَ خالَتي ميمونَةَ، فقلتُ: لأنظرنَّ إلى صلاةِ رسولِ الله ﷺ، فطُرِحَتْ لرسولِ الله ﷺ وِسادَةٌ، فنامَ رسولُ الله ﷺ في طُولِها، فجعلَ يمسحُ النَّومَ عَنْ وَجْهِهِ، ثمَّ قرأَ الآياتِ العشرَ الأواخرَ مِنْ آل عمران، حتى خَتَمَ» ثم ذكر بقيةَ ما قام به الرسولُ ﷺ من وضوئه وصلاته [البخاري: ٤٥٧٠. ومسلم: ٧٦٣].

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩٥].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ من القرآن

١- ما جَعَلَهُ اللهُ في السمواتِ والأرضِ من آياتٍ:

أخبرنا ربُّنا العزيز العليمُ سبحانه وتعالى أنَّه أبدعَ السماواتِ والأرضَ على غير مثالٍ سابقٍ، وأحكم خلقهما، وخَلَقَ ما فيهما على نحوٍ لا مثيلَ له، انظرْ إلى ما حَدَّثنا اللهُ به عن

جنــــــة الســـــــنة

السماوات في قوتها وارتفاعِها واتساعِها، وجَعَلَها سَبْعاً طباقاً، وزيَّنَها بالنجومِ النيِّراتِ، وانظر إلى ما حدَّثنا به عن الأرضِ، سهولِها وجبالها، وبحارِها وأنهارِها، وحيواناتها وأشجارِها ونباتها، وانظر كيف يتعاورُ عليها الليلُ والنَّهارُ، وكيف يأخذُ كلُّ واحدٍ منهما مِنَ الآخر، فهما يتعاقبان، ويتقارضان ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة:١٩٠].

وما من شيءٍ تقعُ عليه العينُ في هذا الوجود إلا وفيه آيةٌ تشهدُ لخالقه بالإبداع، وفي كلِّ شيءٍ لَهُ آيةٌ تدلُّ على أنَّه واحدٌ.

وقد أخبرنا أنَّ الذي يدركُ هذه الآياتِ الدالةِ على بديعِ صنعِ الله هم أولو الألباب، أي: أصحابُ العقولِ الزاكية الوافيةِ، أمَّا الكفرةُ الفجرةُ فإنَّهم يمرُّون على هذه الآياتِ، ولا يعتبرون بها، ولا يتَّعِظُونَ ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف:١٠٥].

٢- الذين يذكرون اللهَ قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم:

أخبرنا ربُّنا -سبحانه- أنَّ أولي الألباب هُمْ ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ويقولونَ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران:١٩١].

فأصحابُ العقولِ الزاكيةِ الوافيةِ يدركونَ آياتِ الله التي بثَّها في الكونِ، ويشغلون ألسنتهم بذكرِ الله مِنَ التسبيح والتحميدِ والتهليلِ والتكبير في كلِ أحوالهم، فالإنسانُ في دنياه إمَّا أنْ يكونَ قائماً أو قاعداً أو مضطجعاً، وهم يذكرون اللهَ في هذه الأحوال الثلاثِ، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣].

ومع إدراكِ أولي الألباب لآياتِ الكونِ، وذكرهم الله بألسنتهم، يتفكرون في خَلْقِ السماواتِ والأرضِ، فينظرونَ ﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية:١٧-٢٠]. وانظر إلى ما أمرنا اللهُ سبحانه بالنظر إليه في السموات والأرض في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾ [ق:٦-١٠].

جنـــــة السـنـــــة

وهذا التفكيرُ في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ الذي هَدَى اللهُ إليه أُولي الألباب، أوْصَلَهُمْ إلى نتيجةٍ عظيمةٍ، فهذا الخلقُ للسمواتِ والأرضِ المبدع المحكَم لا بدَّ أنْ يكونَ لغايةٍ محمودةٍ، ولا يمكن أنْ يكونَ اللهُ قدْ خلقهما عبثاً، ولهواً ولعباً، وقدْ أبانَ اللهُ في أكثرِ مِنْ آيةٍ أنَّه خلقهما لتكونَ الأرضُ معبداً لله وَحْدَه، فإياه نعبدُ، وله نُصَلِّي ونسجدُ، ولذلك فإنَّ أولي الألباب يقولون: سبحانَكَ، أيْ: ننزهك، ونقدِّسك عن كلِّ سوء يا ربَّنا، فقنا عذاب النار، أي: جنِّبنا عذابَ النار، وإنَّما يكون ذلك بعبادةِ الله وطاعته.

٣- ربنا إنك مَنْ تُدخِلِ النَّارَ فقد أخزيتَه:

أخبرنا ربُّنا - تبارك وتعالى - أنَّ أُولي الألباب يُدْرِكونَ ويعلمون أنَّ مَنْ أدخله الله النَّارَ فقد أخزاه ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾ [آل عمران:١٩٢]. والمراد بالخزيِ في الآية ما يَلْحَقُ الذين يدخلونَ النَّارَ من انكسارٍ وذلَّةٍ وهوانٍ، والخزيُ الذي يصيبُ الكفارَ بسببِ دخولهم النارَ لا يوجد أحَدٌ في ذلك اليوم يحميهم ويمنعهم وينصرهم منه.

٤- توسل أُولي الألباب إلى ربِّهم بإيمانهم:

أعلمنا رَبُّنا تبارك وتعالى أنَّ أُولي الألبابِ يتوسلون ويتقربونَ إلى ربِّهم بإيمانهم، فهم يقولون في دعائهم اللهَ ربَّهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ [آل عمران:١٩٣] والمنادي الذي سمعوه ينادي للإيمانِ بالله هو رسولُ الله ﷺ، فاستجابوا له، وطلبوا من ربِّهم أنْ يغفرَ لهم بإيمانهم، ويكفر عنهم سيئاتِهم، ويتوفَّاهم مع الأبرارِ، والأبرار: الصالحون مِنَ المؤمنين.

٥- وآتِنا ما وَعَدَّتَنا على رُسُلِك:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ أولي الألباب يختمونَ دعاءَهم بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران:١٩٤] أي: يطلبونَ مِنَ الله أنْ يعطيهم ما وَعَدَهُمْ به على ألسنةِ رسله مِنَ الأجر والثوابِ في يوم القيامةِ بإظلالهم في ظلِّ عرشِه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه، وإنجائِهم مِنَ النَّار، وإدخالهم جناتٍ تجري مِنْ تحتها الأنهارُ، ويطلبونَ مِنْ ربِّهم -سبحانه- أنْ لا يُخْزِيَهم في يوم القيامةِ، أيْ: لا يهينهم، ولا يذلَّهم بما يحيقُ بأهلِ الضَّلالِ في الآخرةِ مِنْ عذاب، وأعظمه إدخالهم النارَ، وقالوا في ختامِ الدعاء: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران:١٩٤] فاللهُ صادقٌ في وَعْدِهِ، وإذا وَعَدَ وَفَى.

جنـــــة السـنـــــة

٦- **إجابةُ الله دعاءَ أولي الألبابِ:**

أعلمنا ربُّنا -سبحانَهُ وتعالى- أنَّه سَمِعَ دعاءَ أولي الألبابِ، واستجابَ لهمْ، وأخبرنا أنَّه -سبحانه- لا يضيعُ عملَ عاملٍ مِنْ عبادِهِ المؤمنين، لا فرقَ في ذلك بينَ الذكرِ والأُنثى، وقوله: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ [آل عمران:١٩٥]، أي: «في الدين والنصرةِ والموالاةِ، وقيل: كُلُّكُمْ مِنْ آدمَ وحواءَ» [تفسير البغوي: ٢/ ١٥٤]، قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ [آل عمران:١٩٥] ثم فصَّل اللهُ القولَ فيما أجْمَله في قولِهِ: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾ [آل عمران:١٩٥] بقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾ [آل عمران:١٩٥].

يقولُ رَبُّ العِزَّةِ -سبحانه-: الذين هاجروا من ديارهم، وأُخرجوا من بلادهم وآذاهم قومُهُمْ لإيمانِهم بالله ورسوله، ثم قاتلوا أهلَ الكفرِ، وسقطَ بعضهُم شهداءَ في سبيلِ الله، لَيُكَفِّرنَّ اللهُ عنهم ذنوبَهُمْ وخطاياهم، وقوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ جوابَ قَسَم محذوفٍ، وليدخلنَّهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارِ، ﴿ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: جزاءً من عندِ الله على إيمانهم وأعمالهم وجهادهم، وهذا الثوابُ كائن مِنَ الله سبحانه، واللهُ عنده حُسْنُ الثوابِ، أي: حُسْنُ الجزاءِ.

وقد نَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ الآية [آل عمران:١٩٥] عندما قالتْ أُمُّ سلمةَ للرسولِ ﷺ: «يا رسولَ الله، لا نسمعُ الله ذكرَ النِّساءَ في الهجرةِ بشيءٍ، فأنزلَ الله: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾ إلى آخر الآية [آل عمران:١٩٥]» [قال محقق ابن كثير: أخرجه الحاكمُ، وصحَّحَهُ على شرطِ البخاريِّ، ووافقهُ الذهبيُّ، وإسنادُه لَيِّنٌ، فيه سَلَمَةُ، وهو مقبولٌ، وأخرجه الترمذيُّ ٣٠٢٣. انظر ابن كثير: ٢/ ١٧٠].

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النصّ وجدناها تهدي إلى ما يأْتي من علمٍ وعملٍ:

١- آياتُ الله الدالةُ على وحدانيةِ الله وبديعِ صُنْعِهِ كثيرةٌ مبثوثةٌ فيما خلقه اللهُ في السمواتِ والأرضِ.

٢- الذين يدركون آياتِ الله في الكون، ويهتدونَ بها، هم أولو الألباب، وهم المؤمنون المُوَحِّدون الذاكرون لله المتفكرون في خَلْقِ الله.

جنـــــة السـنـــة

٣- أصحابُ العقولِ الزاكيةِ الوافيةِ يديمونُ ذِكْرَ الله على كلِّ أحوالهم، أي في قيامهم وقعودهم، واضجاعهم.

٤- المؤمنونَ الصادقونَ يتفكرون في خلقِ السمواتِ والأرضِ، وقد عَرَضَ القرآنُ هذا الخلق عرضاً كشف لنا به عن الآيات المبثوثة في الخلق، فندركها بيسرٍ وسهولة.

٥- اللهُ تبارك وتعالى خَلَقَ السماواتِ والأرضَ بالحقِّ، أيْ: ليكون الكون معبداً، يَعبُدَ فيه الإنسُ والجنُّ والملائكةُ ربَّهم، ولم يخلقه عبثاً وباطلاً.

٦- أولو الألبابِ يَدْعونَ ربَّهم وَحْدَه، مخلصينَ له الدِّينَ سبحانه.

٧- على المؤمنين الموحدين أن يحفظوا هذا الدعاءَ، ويدعوا ربَّهم بِهِ، فقد أثنى اللهُ على الداعين به، وأخبرَ أنَّه استجابَ لهم دعاؤهم.

٨- تضمَّنَ هذا الدعاءُ أُموراً في غايةِ الأهميةِ، فَقَد طلبَ أولو الألبابِ مِنَ الله أنْ يقيهم عذابَ النار، وسألوا اللهَ أن يغفر لهم ذنوبهم ويكفِّر عنهم سيئاتهم، ويتوفاهم مع الأبرار، وطلبوا من الله أن يؤتيهم ما وعدهم به على ألسنةِ رسلهِ مِنَ الوقايةِ مِنَ النَّار ودخولِ الجنةِ.

٩- استجابَ الله دعاءَ الداعين العاملين مِنَ الرجالِ والنساءِ، وهم نموذجٌ فريد، حملوا الإيمان في قلوبهم، وحققوه في واقعهم، وتحملوا تكاليفه، فأُخرجوا مِنْ ديارهم وقاتلوا وقُتِلُوا وأُوذوا، واستجابة الله لهم تتحقق بتكْفيرِ السيئاتِ، ودخولِ الجنات.

جنـــــــة السـنة

النص القرآنيُّ التاسع والثلاثون من سورة آل عمران
لا يغرنَّك تَقلُّبُ الذين كفروا في البلاد

أولاً: تقديم

نهى اللهُ عبادَهُ المؤمنينَ في آيات هذا النصِّ عن الاغترار بما يرفلُ فيه أعداؤُهم مِنَ النعيم الدنيوي، فهو عَرَضٌ زائل، لا يلْبثُ أنْ يفنى ويضمحلَّ، ويحلّ محلّه العذابُ في لجج النَّار، أما المؤمنونَ فإنهم وإنْ قلَّ متاعُ الدنيا في أيديهم، فهم في جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهارُ في الآخرة، وأثنى اللهُ في آيات هذا النصِّ على المؤمنين بالله، المستجيبين لرسول الله ﷺ، وأَمَرَ في الختامِ عبادَه المؤمنين بالصبرِ والمصابرةِ والمرابطةِ في الثغورِ وتقوى الله ليكونوا مِنَ المفلحين.

ثانياً: آيات هذا النص القرآني من سورة آل عمران

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران:١٩٦-٢٠٠].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ مِنَ القرآن

١- نهى اللهُ المؤمنين أن يَغُرَّهم تمتعُ الكفارِ بدنياهم:

نهى اللهُ رسولَه ﷺ أن يَغُرَّه تقلبُ الذين كفروا في البلاد ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٧]. والتقلُّبُ المنهيُّ عنه «التصرف في التجارات والأرباحِ والحروبِ وسائرِ الآمالِ» [المحرر الوجيز لابن عطية: ٢/ ٤٥٤] وفي نهيِ الله -تعالى- لرسوله في هذه الآيةِ نهيٌ لأصحابه ولأُمَّتِهِ، وقد يغرُّ المؤمنَ ما يرفلُ فيه أعداءُ الإسلام مِنْ مالٍ وجاهٍ ونعيم وقصورٍ، وقد أخبرنا ربُّنا أنَّ هذا النعيمَ الدنيويَّ الذي يتقلَّبُ فيه الكفارُ متاعٌ قليلٌ، لأنَّه متاعٌ زائلٌ، ثم يصيرون إلى النَّار وبئسَ القرارِ.

جنـــــة السـنة

٢- نعيم المؤمنين في الآخرةِ هو النعيمُ العظيمُ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن تَقَلُّبَ الذين كفروا في البلادِ متاعٌ قليلٌ، أما المؤمنون الأتقياءُ فهم الذين ينالون النعيمَ الخالدَ الباقي الدائمَ عندما ينزلون في رحابِ الله، فيدخلهم جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار، وهذا الذي حَلُّوا فيه نزلاً من عند الله، أيْ: ضيافة مِنْ ربِّ العبادِ، وما عندَ الله خيرٌ مما يَتَقَلَّبُ فيه الكفارُ، ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران:١٩٨].

٣- فَضْلُ أهلِ الكتابِ الذين دخلوا في الإيمان:

حَدَّثنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّ بعضاً من أهلِ الكتاب مِنَ اليهود والنصارى يدخلون في الإسلام، ويؤمنون بالله تبارك وتعالى، ويؤمنون بما أنزل اللهُ إليهم مِنَ الكتب، ويؤمنون بما أنزله على رسولنا ﷺ، وهم في ذلك كلِّه خاشعون لله، أيْ: يخافون ربَّهم، ويرهبونَهُ، وأخبر أنَّهم لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، كما فعل كثيرٌ مِنَ الأحبارِ والرهبان عندما أخفوا ما في كتبهم مِنْ صفاتِ رسولنا ﷺ المبَشَّرَةِ به، حتى لا يزولَ عنهم سلطانُهُمْ، وما يصلُ إليهم من متاعِ الدنيا، وقد أثنى اللهُ تعالى على هذا الفريق، وأخبر أنَّ لهم الأجْرَ العظيمَ يوم القيامة ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران:١٩٩].

وهذا الصِّنفُ الذي أثنى اللهُ عليه من أهل الكتابِ وُجِدَ في عَهْدِ النبيِّ، فقد آمنَ برسولنا ﷺ بعضُ اليهود كعبدالله بن سلام، وكان حَبْرُ اليهودِ وعالمهم في المدينة، ودخَلَ النجاشيُّ أصْحَمَةُ حاكم الحبشة وطائفةٌ من الرهبانِ الذين عنده في هذا الدين، ودَخَلَ كثيرٌ من النصارى في الإسلامِ عند فتح الصحابةِ لبلاد الشامِ ومصرَ وشمالِ إفريقيا والأندلسِ، ولا يزال اليهودُ والنصارى يدخلون في هذا الدين في كل عصرٍ ومصرٍ حتى يومنا هذا.

وقد تحدَّث اللهُ كثيراً في كتابه عن المؤمنين الصادقين من أهلِ الكتاب كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص:٥٢-٥٤] وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ﴾ [البقرة:١٢١].

جنـــــــة الســـــنة

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أنَّ مَنْ آمَنَ بنبيِّه، وآمن به يُؤْتى أجرَه مرتين [البخاري: ٣٠١١. ومسلم: ١٥٤].

٤- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾:

أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- في هذه الآيةِ التي هي خاتمةُ هذه السورةِ الكريمةِ المؤمنين أنْ يصبروا، ويصابِروا، ويرابِطوا، ويتَّقوا اللهَ لعلهم يفلحون ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- بالصبرِ على الطاعات، والصبرِ عن المعاصي، والصبرِ في مواجهةِ أعداءِ الله، ثم أمر بالمصابرةِ، فقد يمرُّ المسلمون بأحوال عصيبةٍ، وصعبةٍ كما وقع لهم في أُحُدٍ، فيحتاجون إلى مرتبة عاليةٍ في الصبر، وهي التي سمَّاها بالمصابرة.

والرباطُ: هو في الأصلِ ملازمة القتالِ في سبيلِ الله تعالى، وحفظُ ثغور الإسلام، وصيانتها عن دخولِ الأعداء إلى حوزةِ بلاد المسلمين، وهي من رَبْطِ الخيلِ، ثم سمَّى كلَّ ملازم لثغرٍ من ثغورِ الإسلام مرابطاً، فارساً كان أو راجلاً، وقد شَبَّه رسولنا ﷺ انتظارَ الصلاةِ بعد الصلاةِ بالرِّباطِ في سبيلِ الله [المحرر: ٢/ ٤٥٧] روى أبو هريرة أنَ رسولَ الله ﷺ قالَ: «ألا أدُلُّكُم على ما يَمْحُو اللهُ به الخطايا، ويرفعُ به الدرجات؟» قالوا: بلى يا رسولَ الله، قالَ: «إسباغُ الوضوءِ على المكارهِ، وكثرةُ الخطا إلى المساجدِ، وانتظارُ الصلاةِ بعد الصلاةِ، فذلكم الرِّباطُ» [مسلم: ٢٥١].

والرباطُ في الحربِ والقتالِ فيه أجْرٌ عظيمٌ وثوابٌ جزيلٌ، روى سهلُ بن سعدٍ الساعدي ﷺ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «رِباطُ يوم في سبيلِ الله خيرٌ مِنَ الدنيا وما عليها، ومَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجنةِ خير مِنَ الدنيا وما عليها، والروحةُ يَروحُها العبدُ في سبيلِ الله أو الغدوةُ خيرٌ مِنَ الدنيا وما عليها» [البخاري: ٢٨٩٢. ومسلم: ١٨٨١].

وعن أبي هريرةَ عن رسولِ الله ﷺ قال: «مَنْ ماتَ مرابطاً في سبيلِ الله، أُجْرِيَ عليه عَمَلُه الصالحُ الذي كان يَعْمَلُ، وأُجْرِيَ عليه رِزْقُهُ، وأَمِنَ من الفَتَّانِ، وبعثه اللهُ يومَ القيامة آمناً مِنَ الفَزَعِ» [قال محقق ابن كثير (٢/ ١٧٨): جيدٌ، أخْرجه ابن ماجه (٢٧٦٧) وصحَّحَ إسنادَه المنذريُّ في «الترغيب» والبوصيري في «الزوائد»].

وعن سلمانَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «رِباطُ يومٍ وليلةٍ خيرٌ من صيام شهرٍ وقيامِهِ، وإنْ ماتَ جَرَى عليه عَمَلُه الذي كانَ يعملُهُ، وأُجريَ عليه رِزْقُه، وأَمِنَ الفَتَّانَ» [مسلم: ١٩١٣].

جنـــــة الســــــنة

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- نهى ربُّ العبادِ عبادَه المؤمنين أنْ يغتروا بما يَرْفُلُ فيه الكفارُ من متاعِ الدنيا، فالذي هم فيه متاعٌ قليلٌ زائلٌ، وفي يوم القيامةِ مأواهُمْ جهنَّم، وبئسَ المصير مصيرُهُمْ.

٢- المؤمنونَ الصادقونَ وإن كان حَظُّهم في الدنيا قليلاً، لكنَّ حظَّهم في الآخرةِ عظيمٌ، فهم في ذلك اليوم يدخلونَ جناتٍ تجري من تحتها أنهارُ اللبن، وأنهارُ الخمرِ، وأنهارُ العسلِ المصفى، وأنهارُ الماء غير الآسنِ، إكراماً مِنَ الله، وضيافةً لعباده.

٣- امتدحَ اللهُ الذين آمنوا بمحمدٍ ﷺ مِنْ أهل الكتاب الذين آمنوا بكتابه وكتبهم، وأثنى على هؤلاء بخشوعهم ومخافتهم لربهم، وأخبر أنَّهم بيَّنوا الحقَّ الذي ائتمنهم اللهُ عليه الذي بشَّر بِهِ برسولِهِ محمد ﷺ وأظهروهُ ونشروهُ.

٤- أمر اللهُ المؤمنينَ في ختامِ هذه السورةِ العظيمةِ بالصبر على حَمْلِ هذا الدينِ، والصبرِ على مقارعَةِ خصومِ الإسلام، وأمرهم أن يرتفعوا إلى مستوى المصابرةِ والمرابطةِ في الثغورِ لحفظ ديارِ الإسلام، وأمَرهُمْ في الختامِ بتقوى الله ليكونوا مِنَ المفلحين.

جنـــــة السـ ـــــنة

فهرس

مقدمة ٥

بسم الله الرحمن الرحيم ٩

الفاتحة ١١

البقرة ٢٥

آل عمران ٤٠٧